أشهر الكتب الجديدة في العالم



بنيتو موسوليني

بقلم كريستوفر هيبرت

تعريب خيري حماد

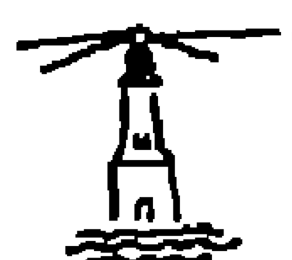
بنيتو موسوليني

اشهر الكتب الجديدة فى العالم

بنيتو موسولينى

بقلم : كريستوفر هيبرت

تعريب وتعليق : خيرى حماد



دار المعارف بمصر

١٩٦٥

BENITO MUSSOLINI
A BIOGRAPHY
By
Christopher Hibbert

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

تقدمة المعرب

ما كنت أحسب فى يوم من الأيام ، أننى سأنقل إلى العربية كتاباً عن حياة موسولينى ، فبالإضافة إلى ما أحمله من كره للفاشية كنظرية مذهبية ونظام حكم ، لقيامها على العنصرية المغلقة ، وتأليه الفرد الحاكم ، كنت دائماً أحمل فى نفسى ، لموسولينى ، حتى فى أيام حكمه ، وقبل تكشف حقيقة ما كانت عليه إيطاليا من ضعف فى عهده ، نظرة تنطوى على كثير من الاستخفاف إذ أرى فيه شخص الدعىّ المغرور ، الذى استطاع أن يوهم نفسه وشعبه ، قبل أن يوهم العالم ، بقوة إيطاليا فى جميع المجالات ، وفى مقدمتها المجال العسكرى ، وأن ادعاءه هذا لا بد أن يتكشف ، تحقيقاً للقاعدة التى تقول إن فى وسع الإنسان أن يخدع جميع الناس بعض الوقت ، أو بعضهم كل الوقت ، ولكن ليس فى وسعه أن يخدع كل الناس كل الوقت . يضاف إلى هذا كله ، أن موسولينى كان صورة مجسّدة لأطماع الاستعمار فى وطننا العربى ، وفى غير وطننا من الأراضى الإفريقية ورمزاً حيًّا على فظائع الاستعمار وشروره ، يتمثل فى ما كان يعانيه إخواننا الليبيون فى جزء غال من وطننا العربى الكبير ، هو ليبيا ، من عنت ومظالم تفوق حدود الوصف ، والتسجيل ، وفيما تعرض له شعب الحبشة التعس من جرائم وحشية ، يقشعر من هولها ضمير الإنسان أثناء حرب العدوان على الحبشة فى أواسط ثلاثينات القرن .

وكنت إذا ما سمعت اسم موسولينى ، عاد فكرى لتوه ، إلى صورته فى تلك الأيام وهو يعلو صهوة جواده الأبيض ، واقفاً على حدود مصر الغربية ، متطلعاً إلى الشرق البعيد ، إلى اليوم الذى يدخل فيه على رأس جيشه المنتصر أرض الكنانة ، ليعبر شوارع القاهرة العظيمة متجهاً إلى الأهرامات ليقف تحتها كما وقف نابوليون من قبل ، فأرى فيه صورة ذلك المستعمر الطامع ، فى الحلول محل مستعمر بشع آخر ، كان جلّ همنا ، نحن أبناء الأمة العربية ، تحرير بلادنا كلها وفى

طليعتها وادى النيل ، من كابوس سيطرته الرهيب . وكنت أرجع بفكرى أيضاً إلى صورته ، وهو يقف فى شرفة قصر البندقية ، فى مدينة رومة ، يخطب عشرات الألوف من أبناء إيطاليا ، هادراً ومزمجراً ، ومنادياً بالبحر الأبيض المتوسط على أنه « بحرنا » ، أى بحر إيطاليا ، وكأن لا وجود لشعوب أخرى بينها الشعب العربى بالطبع ، على شواطئه ، الطويلة الفسيحة ، مؤكداً بذلك أطماعه فى السيطرة على الوطن العربى ، التى كان يمهد لها عن طريق أعوانه المندسّين فى كل مكان . يغرون صغار الشبان على السفر إلى إيطاليا ، ليعتنقوا الفاشية ، وليصبحوا من المؤمنين بها ، وهو ما حققه عن طريق حزب عميل ، ظهر فى تلك الأيام ، فى بلاد الشام ، تحت اسم الحزب القومى السورى ، وكان زعيمه ، آنذاك ، صورة مقلدة ، لزعيم الفاشية الإيطالية .

أقول ، ما كنت أحسب ، أننى سأنقل إلى العربية كتاباً عن موسولينى ، وهذا رأيى فيه منذ أمد طويل، لولا أننى وجدت نفسى ، وقد اقترح على الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل ، رئيس تحرير « الأهرام » ، ترجمة هذا الكتاب الذى أضعه بين أيدى القراء ، مدفوعاً إلى تقبل الاقتراح ، رغبة منى فى استكمال ناحية أخرى من نواحى الصورة ، التى شرعت فى نقلها إلى العربية عن تاريخ العالم فى الحرب الكونية الثانية ، وما سبقه من أحداث ما بين الحربين العالميتين ، ممثلة فى بعض الكتب التى عربتها وهى « مذكرات تشرشل » و « مذكرات إيدن » ، و « تاريخ ألمانيا الهتلرية » و « مذكرات ديجول » ، وقد عرضت فى هذه الكتب ، وجهات نظر مختلفة فى تلك الأحداث العالمية الرهيبة التى عشناها ، والتى أصبحت تؤلف الآن جزءاً من التاريخ . وكلى أمل بعد أن عربت هذا الكتاب الذى يرسم الجانب الإيطالى من الصورة ، أن أتبعه بكتاب آخر ، يعرض الجانب الروسى منها ، وهو فى نظرى من أهم جوانبها ، نظراً للدور الكبير الذى لعبه الاتحاد السوفييتى فى هزيمة هتلر ، وإنقاذ العالم من الفاشية .

يضاف إلى هذا ، أن إيطاليا ، كانت تؤلف بين الحربين العالميتين ، وفى الفترة الأولى من الحرب الثانية ، دولة عظمى ، لها وزنها وقيمتها فى الميدان العالمى ، ومجالات السياسة الدولية . وكان موسولينى ، بنظام حكمه الفاشى الذى يقوم على

العنصرية المغلقة من ناحية ، وعلى تأليه الفرد من الناحية الأخرى ، هو إيطاليا الفاشية ، إذ ظل مسيطراً على أقدارها أكثر من عشرين عاماً ، كانت إرادته وحدها فيها ، هى النافذة ، وهى المتحكمة ، وكانت كلمته هى العليا التى ترسم للشعب الإيطالى ، المحروم من الحرية ، طريقه ، وتوجهه الوجهة التى تشاؤها . وكان طبيعيًّا أن تكون سيرة حياة موسولينى فى هذه الفترة ، هى تاريخ إيطاليا ، لأنه كما قلت السيد المطلق فيها ، رغم وجود الملكية التافهة التى لا شأن لها ولا وزن ، ورغم وجود الحزب الواحد ، المتجسد فى صورة زعيمه ، والمسلوب الإرادة والحرية .

وكانت المكتبة العربية مفتقرة إلى صورة حقيقية عن هذه الفترة ، بالرغم من كثرة عدد الكتب التى وضعت فى اللغات الأخرى عنها والتى تجاوزت العشرات كما يبدو من قائمة المصادر التى أوردها مؤلف كتابنا هذا ، فى ذيل كتابه . يضاف إلى هذا ، أن الصورة الباهتة . التى كانت تمثل أمام قراء العربية عن حياة موسولينى وتاريخ إيطاليا فى عهده ، كانت محاطة بالتناقضات الغريبة ، تناقض راسميها فى اتجاهاتهم وميولهم . سواء أكانوا من أنصار الفاشية ، أم من خصومها وأعدائها . فبعضهم كان يصور موسولينى ، على النحو الذى أراد هو أن يصوره الناس فيه ، صورة الرجل العبقرى الفذ ، الذى شاء له القدر أن يبعث فى شعب ضعيف خائر العزيمة مفتقر إلى الحيوية والبطولات ؛ بينما كان بعضهم يصوره على أنه إنسان دعىّ تافه ، مغترّ بنفسه ، كثير الزهو والاعتداد بشخصه ، غارق فى حمأة الشهوات والرذيلة ، يعتمد على التمثيل المسرحى ، فى تصوير نفسه بصورة البطل ، وتصوير نظامه بصورة النظام الأمثل ، وشعبه بصورة الشعب القوى الذى يريد حقه فى مجالات السيطرة العالمية .

وعندما قرأت هذا الكتاب ، الذى يعتبر أحدث ما كتب عن موسولينى وتاريخ عهده ، إذ صدر فى عام ١٩٦٢ ، انجلت أمامى تلك الصورة الغامضة الباهتة ، إلى حد كبير ، وتبينت فيه الكثير من الحقائق التى كنت أجهلها بالرغم من قراءاتى الكثيرة ، وبالرغم من حقيقة أود هنا أن أقررها ، وهى أن الكتاب رسم صوراً دقيقة لحياة موسولينى ، وتاريخ حكمه ، ولكنه لم يرسم مثل هذه الصورة للفاشية كنظرية وتطبيق ، إذ لم يعالجها بالتحليل والبحث العميقين . ولعل هذا

راجع إلى أن المؤلف نفسه ، وقد يكون محقاً كل الحق فى ذلك ، لم ير أن الفاشية كمذهب ، جديرة بالدرس العميق ، لخلوها من النظرية الفكرية الصحيحة ، ولاسيما أنه رسم لنا صورة موسولينى نفسه ، فى شكل ذلك الإنسان القلّب فى آرائه الاجتماعية وأفكاره الاقتصادية ، متأرجحاً بين الاشتراكية ، والتبعية للبورجوازية ، والتنكر للتقدمية ، والحملة على الرأسمالية ، والعودة إلى التفكير الاشتراكى . وكان جماع ما نصل إليه من هذه الصورة المتعددة الجوانب ، والمتقلبة الاتجاهات ، هو أن موسولينى ، كان لا يؤمن إلا بنفسه وسيطرته ، وبشعبه ولكن عن طريق إيمانه بذاته ، على اعتبار أنه الإنسان الذى اختاره « القدر » ، ليؤدى دوره فى قيادة هذا الشعب إلى العظمة المستمدة من عظمته ، والمجد المتجسد فى أمجاده الشخصية .

أجل ، إن هذا الكتاب الذى يعتمد على مئات المصادر ، والذى عانى المؤلف فى وضعه كل المعاناة ، فقرأ عشرات الكتب والوثائق والمقالات ، بالإيطالية التى كان يتقنها وغير الإيطالية ، واجتمع إلى عشرات الناس الذين عاشوا تلك الفترة التاريخية ، مشتركين فى أحداثها ، أو بعيدين عنها ولكن فى موقف المراقب المناوئ ، وتحدث إلى المئات من الذين وجدوا على هوامش العهد الفاشى ، ولكن كان لهم دورهم فى الأحداث التى تناولها الكتاب ، مهما كان هذا الدور ثانوياً أحياناً إذ لا يعدو حد العلاقة الشخصية بموسولينى كعشيقاته الكثر ، أو خدمه ، أو أقاربه ، أو حد دور معين أدوه فى فترة محددة ، يعتبر من أصدق الكتب التى وضعت عن موسولينى موضوعية ، وأغزرها مصادر ، وأكثرها تثبتاً من الحقائق والوقائع ؛ فهو يكشف عن أسرار مثيرة كانت مجهولة لدى معظم الناس ، ويضع النقاط على الحروف ، بالنسبة إلى الكثير من الألغاز والمعميات التى ظلت تحيط بعهد موسولينى حتى يومنا هذا .

ولعل موضوعية المؤلف تتمثل أكثر ما تتمثل فى هذه النظرة الحيادية المطلقة التى يعالج فيها موضوعه ، والتى تجعل القارئ لا يستطيع أن يحدد على وجه من التأكيد والتحقق ، موقفه من صاحب الشخصية التى أرّخها ، وهل هو موقف العطوف المشفق ، أو موقف الناقد المناوئ ، ولكن بالرغم من هذا كله ، وبالرغم مما يحيط بموقف المؤلف نفسه من غموض أحياناً ، لعله مستمد من غموض

موسولينى نفسه وتناقضاته ، فإن كتابه عن موسولينى يعتبر فى نظرى أصدق صورة وضعية لحياة هذا الإنسان الذى قدر له أن يسيطر على إيطاليا مدة عشرين عاماً ، وأن يلعب دوراً فى منتهى الأهمية والخطورة فى تاريخ العالم الحديث .

فهو يرسم لنا صورة موسولينى منذ ولد فى أسرة فقيرة فى عام ١٨٨٣ فى قرية من قرى إيطاليا الوسطى . ويتابع هذه الصورة بأسلوبه المشوق، متنقلا بها فى مدارج الحياة وملاعبها ، من حياة البوهيمية والتشرد فى سويسرا ، إلى حياة الإعداد الفكرى ، فى صفوف الاشتراكيين ، ومن معارك الحرب العالمية الأولى ، إلى زنزانات السجون فى أكثر من مكان ، حتى يصل بها إلى مرحلة الزحف على رومة فى عام ١٩٢٢ والوصول إلى مقاعد الحكم والسلطان ، ليمضى بعدها فى تصوير عهده الطويل ، حتى نهايته برصاص رجال المقاومة السرية فى الثامن والعشرين من أبريل عام ١٩٤٥ .

أما المؤلف ، كريستوفر هيبرت ، فإنجليزى المولد والجنسية . ولد فى عام ١٩٢٤ ، ودرس فى جامعة أكسفورد ، ثم اشترك فى الحرب ، ضابطاً فى الجيش البريطانى فى إيطاليا ، حيث أصيب بالجراح مرتين ، وحيث بدأت علاقته بموضوع هذا الكتاب الذى ألفه عن إيطاليا . وله كتب عديدة منها « الطريق إلى تيبورن » و« الملك موب » و « وولف وكويبك» وغيرها .

وأخيراً أعود فأقول ، بعيداً عن الغرور ، إن مكتبتنا العربية كانت فى حاجة إلى مثل هذا الكتاب ، الذى راعيت فى تعريبه الدقة كل الدقة ، دون أن أقتطع منه شيئاً ، أو أهمل جانباً . فهو كتاب يحسر النقاب عن أسرار كثيرة ، ويزيل الكثير من الغموض عن الصورة الباهتة التى كنا نحملها لهذا الجانب من التاريخ العالمى الحديث .

والله ولى التوفيق . . .

القاهرة فى ٤ ديسمبر ١٩٦٤

خيرى حماد

مقدمة

كتب فيرناندو ميزاسوما ، عن موسوليني ، في الأسبوع الأخير من حياتهما معاً ، يقول ... « ليس ثمة من يستطيع أن يفهمه. فهو ساذج حيناً وماكر أحياناً، وهو قاس كالوحش يوماً ، ودمث ناعم يوماً آخر ، وهو مزيج من الرغبة في الانتقام والميل إلى التسامح ، والعظمة والوضاعة . إنه أكثر إنسان رأيت في حياتي ، تناقضاً وتعقيداً . ومن العسير على الإنسان أن يوضح غموضه للآخرين » .

وقد وُضعت كتب عدة عن هذا الرجل الشاذ، تحاول عرضه على حقيقته ، طيلة الثماني عشرة سنة التي انقضت بين تاريخ الزحف على رومة في عام ١٩٢٢ وبين نشوب الحرب الإيطالية في عام ١٩٤٠ ، وكان واضعوها خليطاً من الفاشيين المؤيدين له ، ومن الإيطاليين المهاجرين الذين فروا من ظلمه ، وكان لهم كل الحق في أن يكرهوه وأن يكرهوا الفاشية . ولكن لم يصدر أي كتاب بعد موته ، يؤرخ حياته تأريخاً كاملا ، بالرغم من ظهور عدد كبير لا يعد ولا يحصى من الوثائق ، التي كشف النقاب عنها في السنوات الست عشرة الأخيرة .

وقد شعرت منذ عودتي إلى الوطن من إيطاليا بعد انتهاء الحرب ، بالحاجة الماسة إلى كتاب محايد ، يجيب على الأقل عن بعض الأسئلة التي طالما حيرتني . فقد كنت أتساءل دائماً ، ترى إلى أي حد يشبه موسوليني ذلك المهرج المخيف الذي طالما صورته فيه دعاياتنا أيام الحرب ، أو إلى أي حد يشبه صورة ذلك الإنسان القريب من الآلهة والمجسد للعقيدة الفاشية على حد تصوير دعايته . وكنت أتساءل أيضاً كيف يمكن التوفيق بين أولئك الإيطاليين الذين لم يتورعوا عن إطلاق النار على جثته ، وهي معلقة في ساحة لوريتو في ميلان من قدمها إلى رأسها ، وبين إخوانهم من الإيطاليين الذين لا يختلفون عنهم كثيراً والذين بكوا ، أحر بكاء ، عندما نقل إليهم نبأ موته[1] . وكثيراً ما تساءلت كذلك ، ترى هل صدق

---

(١) أنا لا أرى داعياً لهذا التساؤل ، فالأولون هم أنصار الحرية الذين كرهوا الفاشية لما تمثله من عنصرية بغيضة، ونزوع إلى العدوان والاستعمار ، في حين كان الآخرون من الذين ضللتهم الفاشية أمداً طويلا . وكثيراً ما يختلف المرء من الناحية العقائدية مع أخيه . « المعرب »

المستر تشرشل حقًّا ، عندما قال إن « رجلا واحداً ، وواحداً فقط » قد أغرق إيطاليا فى المأساة التى حلت بها . وتساءلت أيضاً ، كيف استطاع هذا الرجل أن يحتفظ بسلطانه هذا الأمد الطويل ، وكيف وجد ، حتى فى المرحلة الأخيرة التى تسبق المغيب ، على شطئان بحيرة جاردا ، بعد أن أصبحت الهزيمة مؤكدة ، وموته محتوماً ، أنصاراً كثيرين على استعداد لمواصلة السير معه ، رغم ما حل به من انحلال معنوى وعضوى .

وكانت هذه الأسئلة لا تزال تتردد فى خاطرى ، عندما عدت إلى إيطاليا فى عام ١٩٦٠ أحاول العثور على ردود لها فى الكتب والأوراق التى توخيت قراءتها عن موسولينى وديكتاتوريته الفاشية ، والتى لا تتوافر لدى ، وأنا فى لندن ، وأسعى إلى الاتصال بالذين عرفوه ، لأتحدث إليهم ، ولأكتشف أكثر ما يمكن من الحقائق عن سنواته الأخيرة التى لا يتوافر عنها الكثير من المعلومات الموثوقة . ولما كنت لا أجد نفسى أهلا للحكم على الرجل ، حتى ولو كان الحكم ممكناً الآن ، فقد وضعت هذا الكتاب ، فى شكل قصة تاريخية ، آملا أن تؤدى روايتى لقصة حياته ، إلى توفير الأدلة المهمة التى يمكن على ضوئها إصدار أى حكم عليه . وبالرغم من أننى لم أشر فى صلب الكتاب إلى المصادر التى بنيت عليها ما كتبته ، إلا أننى أدرجت فى نهايته تعليقاتى على المواد التى اعتمدت عليها ، وإنى لعلى يقين بأن القارئ سيجد فيها المرجع الذى يريد حول المصادر التى اعتمدت عليها ، والبيانات المتضاربة ، سواء أجاءت فى شكل اقتباسات محددة أم أقوال منسوبة .

وأجد لزاماً على أن أشكر الكثيرين لما قدموه إلى من مساعدات مختلفة ، وأخص منهم بالذكر ، بالإضافة إلى أولئك الذين آثروا الإبقاء على أسمائهم مجهولة ، كلا من الأستاذ بالدينى ، والصحفى الفرنسى باريت ، واللورد بيفر بروك ، والسنيور بيترو بنيفانتانو ، والسير نويل تشارلز ، والبريجادير (العميد) إيدج ، والأستاذ فيتوريو جابرييلى ، والكونتيسة هامبلدين ، والسير إيفون كير كباتريك ، والمرحوم السير بيرسى لورين ، والدكتور روجر مانفيل ، والأميرال فرانكو موجيرى ، والأستاذ دون باولو ميلانو ، والسنيور باولومونيلى

والكونت أومبرتو مورا دى لافريالو ، والسنيور رومانو موسولينى ، والهر هانز باشتر ، والكونت نوفيلو بابافافا ، والسير تشارلز بيترى ، والهر أوتو رينشة ، والسنيور إيرنيستورسكى ، والسنيور دينوروزيللى ، والمس فرانسيس ريان ، والسنيور بيترو ساناريللى ، والسيد جوان سان جورج سوندرز ، والمستر سويت إيسكوت ، والعقيد أوتو سكورزينى ، والجنرال كورت ستيودينت ، والعقيد هيدلى فينسينت ، والأستاذ روبرتو وييس ، والآنسة إليزابيث ويسكيمان . وإنى لمدين بصورة خاصة إلى الآنسة ليندا بارتيلى أتانازيو ، لما قدمته لى من عون فى البحوث التى أجريتها فى رومة ، وإلى المستر روى — ماكريجور — هاستي ، الذى زودنى بالمعلومات عن أسرة موسولينى ، وإلى الجنرال رافائيلى كادورنا ، لمساعدته إياى ، فى إعداد الفصول الأخيرة من هذا الكتاب . وإنى لأود أن أشكر أيضاً موظفى مكتبة لندن ، والمتحف البريطانى ، والمعهد الثقافى الإيطالى والسفارة الإيطالية فى لندن ، والمعهد البريطانى فى فلورنسه . وغيرها من المؤسسات الثقافية الإيطالية .

كريستوفر — هيبرت

أسرة موسوليني

أسلافه وذريته

(تمت عائلة موسوليني إلى أسرة قديمة في بولونيكا كانت تعمل أجيالا عدة في تجارة الحرير (الموسولين). ولم ينجح لويجي في عمله الزراعي، وما زال عدد من ذريته يعملون في الزراعة كفلاحين لم ينتفعوا من عهد قريبهم).

فرنسيسكو توفي ١٧٢٧ في كابولي

باولو توفي في كابولي في ١٧٧٩

جياكومو أنطونيو توفي في مونتيماجيوري ١٨٢٢

لويجي توفي في مونتيماجيوري ١٨٢٩

لويجي أجوستينو جاسباري = تزوج كاتريتا فاسوني
توفي في ١٩٠٨

أليساندرو توفي في ١٩١٠ = تزوج راندا مالتوني — إليسيد — إلينا — فرانسيسكا

أبناء أليساندرو:

- بنيتو ١٨٨٣ – ١٩٤٥ تزوج راشيل جيدي
- أرنالدو ١٨٨٥ – ١٩٣١ تزوج أوجستا بوند بونداني
- إيدفيج تزوجت ميشيل مانسيني ١٨٨٨ – ١٩٥٢

أبناء أرنالدو: إليساندرو إيتا ليكو — فيتو — روزا

أبناء إيدفيج: روزيتا — ماريا — تريزا — جوزيبيتا — باولو — جوسيب

أبناء بنيتو:

- إيدا تزوجت جاليا زوتشيانو ١٩١٠
  - فابريزيو ١٩٣١
  - رايموندا ١٩٣٣
  - مارزيو ١٩٣٧
- فيتوريو ١٩١٦ تزوج أوزولو بوفوني
  - جيلو ١٩٣٧
  - أدريا ١٩٤٠
- برونو ١٩١٨ – ١٩٤١ تزوج جينيا روبرق
  - مارينا
- رومانو ١٩٢٧
- أنا ماريا ١٩٢٩

القسم الأول

الصراع من أجل السلطان

١

الثائر الشاب

(٢٩ يوليو ١٨٨٣ — ديسمبر ١٩١٢)

« كانت ولادتى فى الوسط الشعبى ، الورقة الرابحة فى يدى »

١

انطلق فى الساعة العاشرة والنصف من مساء التاسع من مايو عام ١٩٣٦ ، صوت هدير فجائى ، وصفه أحد الصحفيين بأنه أقرب ما يكون إلى صوت التفجر البركانى ، من حشد يضم ما يقرب من أربعمائة ألف إنسان . كانوا يقفون متراصين جنباً إلى جنب ، أمام قصر البندقية فى مدينة رومة . فقد ظهر بنيتو موسولينى ، دوتشى الفاشية ، على شرفة القصر ، مطلاً عليهم ، ومتطلعاً بهدوء إلى حشودهم . أجل ؛ وقف أمامهم ، وقفته المعهودة التى يعرفونها وقد وضع يديه فى خاصرتيه ، واندفع فكه الأسفل الضخم إلى الأمام ، وانفرجت ساقاه . كان يرتدى القميص الأسود ، وبزة رمادية ، وقبعة مدورة سوداء ، هى الرداء التقليدى للمليشيا الفاشية . وهكذا وقف أمامهم على الشرفة أمام النوافذ التى يتدفق الضوء من شباكاتها ، صامتاً لا يتحرك ، كشعار عهده المنحوت على الجدار المجاور له ، وهو الفأس وقضبان الجلادين الرومان القدماء .

ورفع يده ببطء . وخيم الصمت على الجماهير الحاشدة . وكانت ملايين الإيطاليين لا فى رومة وحدها ، بل فى جميع أرجاء إيطاليا ، يصغون وكأن على رؤوسهم الطير ، ينتظرون صوت الزعيم . وتطلعت جماهير المستمعين الذين ألهب التطلع مشاعرهم ، فى تلك الأمسية الدافئة من ليالى الربيع ، وقد أضفى القمر الساطع بوضوحه عليها صورة فيها الكثير من طابع النبوءات ، بعد أن احتشدوا فى الميدان تلبية لنداء أجراس الكنائس وصافرات الإنذار ، إلى مكبرات الصوت ، وقد تقطعت بهم الأنفاس .

وانطلق صوت موسولينى أخيراً ، فى تلك الصورة العميقة الرخيمة ، التى وصفتها الليدى أوكسفورد بأنها من أجمل الأصوات التى سمعتها فى حياتها ، يقول . . . « أيها الضباط ، يا ضباط الصف والجنود . يا رجال الثورة من لابسى القمصان السوداء ، يا رجال إيطاليا ونساءها ، أينما كنتم ، فى وطنكم ، أو فى خارجه ، اسمعوا ، وعوا . . . لقد تحقق حدث عظيم ، فقد تقرر مصير الحبشة اليوم فى السنة الرابعة عشرة من العهد الفاشى . وقد تمكن سيفنا المرهف المتألق ، من فصم كل عقدة ، وسيظل الانتصار الحبشى فى تاريخ بلادنا ، فى صفائه وكماله ، كصفاء الجنود الذين سقطوا فى حومة الوغى وكمالهم . أجل ، أصبحت لإيطاليا إمبراطوريتها . . . »

وضاعت كلمات الدوتشى الأخيرة وسط عاصفة هوجاء من الهتاف ، والنشيد المتكرر والمتعالى . . . « دوتشى . . دوتشى . . دوتشى » ، ومن صراخ النساء الهستيرى المجنون ، ومن عبارات الحب والعبادة والولاء حتى الموت . ووقف الدوتشى يتطلع إليهم بهدوء ، دون أن يأبه لهتافاتهم ، وقد أمسك سور الشرفة الحجرى بقبضتيه ، وخلت تعابير وجهه الضخم الجامد ، فى وضوح المصابيح الكهربائية التى أحالت الليل إلى نهار ، من أى معنى .

وانطلق صوت أحد القادة فى السلم الفاشى ، يقول وهو يرقبه واقفاً وكأنه إله يطل من فوق قمة الأولمب . . . « انظر إليه ، إنه أشبه ما يكون بالإله » . . . فرد رفيقه الذى يقف إلى جانبه : « لا ، إنه لا يشبه الإله ، بل هو إله » .

٢

كان موسولينى فى الثانية والخمسين من عمره فى ذلك اليوم . وكان قبل خمسة وعشرين عاماً ، أى فى أكتوبر عام ١٩١١ ، قد شرع فى كتابة تاريخ حياته ، وهو يقضى فى الزنزانة رقم ٣٩ فى سجن فورلى ، مدة الحكم الذى صدر عليه ، لقيامه بتحريض « الناس على الإضراب والعصيان » .

وكتب موسولينى يقول . . . « ولدت فى التاسع والعشرين من يوليو عام ١٨٨٣ ، فى كوخ قديم يدعى فارنانو دى كوستا ، يقوم على قمة الرابية فى قرية دوفيا القريبة من قرية بريدابيو . وكان ذلك فى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم من أيام

الآحاد ، بعد ثمانية أيام من دخول الشمس فى برج الأسد » .

وكان والده حداداً ، وهى حقيقة ظل ولده يزهو بها دائماً . . . وكان كثيراً ما يقول . . « أنا رجل من الشعب ، وأنا أفهم الشعب لأننى واحد من أبنائه » . وقد رفعت فى عام ١٩٣٥ ، لافتة ، عاقت على جدار إحدى المزارع القريبة من قرية بريدابيو ، حيث يراها المار ، وقد نقش عليها . . . « فى هذه المزرعة ، عاش أسلاف موسولينى من الفلاحين وعملوا » . لكنهم لم يكونوا فى الواقع من الفلاحين ، وإنما كانوا ينتمون إلى طبقة قدر للدوتشى أن يحتقرها فيما بعد ، وهى طبقة البورجوازية الصغيرة . وكان جده قد ابتاع المزرعة التى ولد فيها أبوه . إذ كان يعمل ملازماً فى الحرس الوطنى . وكانت أمه روزا ، معلمة مدرسة ، سيدة هادئة متدينة ، تميزت باللطف والدماثة . وكان الجميع يحترمونها كما ذكرت عنها صحيفة « أفكار رومانا » التى تصدر فى فورلى ، عندما توفيت « لما تميزت به من فضائل ، ولما اتصف به أداؤها لمهمتها فى الحياة من حب وإدراك » . وكانت سيدة مقتصدة للغاية ، وما كان أحوجها إلى الاقتصاد ، إذ أن زوجها أليساندرو ، كان بالرغم من براعته فى حرفته ، وهى الحدادة ، وبالرغم من حيازته لآلة دراسة ، لا يأبه كثيراً لعمله ، ويقضى سحابة يومه ، فى الحديث عن السياسة ، بدلا من العمل على سندانه . وبالرغم من أنه لم يؤم مدرسة قط فى حياته ، إلا أنه لم يكن بالإنسان الجاهل ، بل كان فى منتهى الذكاء . وكان يزود مختلف الصحف الاشتراكية بمقالاته ، كما كتب باستمرار فى الصحيفة المحلية « أفكار رومانا » . وكثيراً ما ذكر أولاده فيما بعد ، أنه كان يقضى الساعات الطوال ، يتلو على مسامعهم ما يقرأه فى الكتب السياسية التى لم يكونوا بعد قد شرعوا فى فهمها . وكان كغيره من أبناء مقاطعة رومانا ، ذلك الجزء الجميل رغم فقره من إيطاليا ، والواقع بين تسكانيا وإميليا ، يتمسك بإصرار بمعتقداته السياسية ، ويدافع عنها بحرارة وعنف . وقد أسس فى قريته فرعاً محلياً للاشتراكية الدولية ، فكان السجن نصيبه ، كوالده من قبله ، نتيجة معتقداته . وقد عمّد ولده الأكبر باسم بنيتو ، إعراباً منه عن إعجابه بالثورى المكسيكى المعروف بنيتو خواريز [1] ، الذى قاد

(١) بنيتو خواريز (١٨٠٦ — ١٨٧٢) — سياسى مكسيكى . ولد فى أداجاكا ، عن والدين من—

الثورة العنيفة ضد الإمبراطور مكسمليان . كما ألحقه باسمين آخرين وهما إميلكارى ، نسبة إلى إميلكارى سيبريانى ، الفوضوى من أهل رومانا ، وأندريا نسبة إلى أندريا كوستا أحد مؤسسى الحزب الاشتراكى الإيطالى .

وكان الفقر يخيم على البيت الذى عاشت فيه أسرة موسولينى ، فهو منزل صغير متهدم ، يقع على بعد ميلين من بريدابيو ، ويعرف باسم « دارة فارانو » ، إذ كانت الأسرة كلها ، تعيش مكتظة فى غرفتين تقعان فى الطبقة الثانية منه . وكان على أفراد الأسرة ، للوصول إلى هاتين الغرفتين ، أن يعبروا بالغرفة التى جعلت منها روزا موسولينى مدرستها ، والتى يختزن فيها أليساندرو أثناء العطلة الصيفية الحنطة التى كان قد درسها على درّاسته التى صنعها بنفسه .

وكان بنيتو ينام مع أخيه الصغير البدين الهادئ أرنالدو ، فى الغرفة التى تستخدمها الأسرة كمطبخ ومستودع للحطب ، بينما كانت شقيقته إدفيج تقوم مع والديها فى الغرفة الأخرى ، التى تعيش الأسرة فيها أثناء النهار ، وحيث يلعب الأطفال ، ويلهون بالتطلع إلى الصور فى كتب أبيهم ، وفى الصحف التى كان يجمعها فى صندوق للكتب معلق إلى الجدار . وعندما كبر بنيتو ، وأصبح قادراً على النفخ فى الكور لأبيه ، صار يمضى إلى « محددة » والده ، حيث ينال بعض الصفعات على رأسه ، إذا لم يبد اهتماماً كافياً بعمله ، أو إذا أظهر تخوفاً من الشرر المتطاير .

وكانت الأسرة تفتقر إلى المال لشراء الغذاء . فأمه لا تكسب من عملها فى التعليم سوى خمسين ليرة فى الشهر ، أما ما يجنيه الوالد أليساندرو فكان ينفق جلّه على عشيقته . وكثيراً ما اقتصرت وجبات الطعام على حساء الخضار ، وبعض الثوم البرى والبقلة ، وبعض الكعك العادى المصنوع من الدقيق والماء .

وكان بنيتو ولداً عصيّاً على التربية . فهو لا يطيع الأوامر ويكثر من الشجار ، ويتميز بالإذعان لمزاجه وإرادته الذاتية ، وكثيراً ما فقد تمالك أعصابه إذا استفز

= الهنود الحمر . أصبح قاضياً للمحكمة المدنية فى عام ١٨٤٢ ثم حاكماً لولاية أداجاكا فى ١٨٤٧ ، حسن الأوضاع الإقليمية كثيراً فى فترة حكمه . نفى من المكسيك فى عام ١٨٥٣ ، ولكنه عاد إليها بعد سنتين وانضم إلى ثورة الفاريز . انتخب رئيساً للجمهورية عام ١٨٥٨ ، وظل فى الرئاسة حتى وفاته . كانت سياسته المتحررة ، ذات نفع كبير لوطنه . « المعرب »

وعاد إلى بيته مقطع الثياب ، والخدوش تملأ وجهه ، والدماء تنزف منه نتيجة اشتباكه مع أطفال القرية فى عراكات عنيفة ، إذا أحس أنهم لم يعطوه نصيباً عادلا من حصيلتهم فى عمليات الصيد المسروق التى كانوا يقومون بها . ولكن بالرغم من مزاجه الاستفزازى السيئ ، وعناده الأكيد ، فقد تميز بالقدرة على الشعور بالحب العميق . وإثارته عند الآخرين أيضاً . فقد كان أخوه وأخته يعبدانه . وحتى أطفال قريته الذين كثيراً ما تشاجر معهم ، واشتبك معهم فى الخصومات ، ظلوا يذكرون بعد سنوات طويلة دفء ابتساماته النادرة . وإخلاصه الذى لا يجارى فى صداقاته . وكانوا يذكرون أيضاً أنه بالإضافة إلى ميله إلى الشجار والمشاكسة ، كان إنساناً حالماً ، إذ كان يجلس الساعات الطوال ، يرقب الطير ، وينظر عبر الوادى الجميل الذى ولد فيه وقد وضع ذقنه بين يديه ، وراحت عيناه السوداوان الكبيرتان تجوبان بنظراتهما كل ما أمامه ، بشئ من الحلم مصحوباً بدقيق الملاحظة . . . وكثيراً ما قال لوالدته . . . سأدهش العالم كله يوماً ما .

وازداد غروره عاماً بعد عام ، وأضحى عسير القياد . وكثيراً ما زحف فى المدرسة ، تحت المقاعد ، « ليقرص » سيقان زملائه من الأطفال العارية ، وفى أيام الآحاد ، عندما كانت والدته روزا تسوق أطفالها ، عبر الطريق الوعر الهابط مع التل إلى الكنيسة ، وقد علقوا أحذيتهم فى رقابهم للإبقاء على نظافتها ، كان بنيتو ، يتخلف وراءهم ، وهو يضرب الحصى بأصابع قدمه العارية . ولم يكن ليطيق البقاء طويلا فى الكنيسة ، إذ كانت رائحة البخور تثيره ، وتدفعه إلى القئ ، بينما كانت ألبسة الكهنة بألوانها القاتمة ، وأضواء الشموع ، وصوت الأرغن وغناء المرتلين ، تزعجه كل إزعاج . وكثيراً ما اقتعد مجلسه فوق إحدى الأشجار ، يرقب خروج أسرته ، ويتلهى عن مشقة الانتظار ، بقذف الأطفال من أبناء قريته بالحجارة وهم فى طريقهم إلى مدرسة الأحد .

وبعث به أبواه ، عندما بلغ التاسعة من عمره ، إلى المدرسة فى فاينيزا ، وكانا يأملان فى أن يحقق نظام الآباء الساليزيين القاسى النجاح فى إصلاحه ، بعد أن فشلا هما فى هذا الإصلاح . وبالرغم من نزعة أبيه الإلحادية وكرهه للكنيسة الكاثوليكية ، فقد حمل ولده فى العربة التى يجرها الحمار ، ومضى به إلى المدرسة

الدينية مبرراً عمله هذا ، بعجزه عن السيطرة على ولده المشاكس .

وتذكر بنيتو فيما بعد تلك الأيام فكتب يقول . . . « لا أذكر أنني تضايقت لأنني فارقت أخوى . فقد كانت إيدفيج فى الثالثة من عمرها بينما كان أرنالدو فى السابعة . ولكنني حزنت لأنني اضطررت إلى التخلى عن طير صغير كنت قد احتفظت به فى قفص تحت نافذتى . وقد تشاجرت فى اليوم الذى سبق رحيلى مع رفيق لى ، فحاولت أن أضربه ، ولكن اللكمة أخطأته . وأصابت قبضتى جداراً كان يقف أمامه ، فتهشمت أصابعى ، ووجدت نفسى مضطرًّا فى اليوم التالى إلى الرحيل وقد ربطت يدى إلى عنقى . وإنى لأذكر أن الدموع انهالت من عينى فى لحظة الرحيل » .

وإنه ليذكر كيف أن الحمار الذى قاد العربة ، تعثر وهوى خارج قرية دوفيا ، فراح والده يسب ويشتم ويلعن ، معتبراً الحادث نذير سوء . كان يوماً من أيام أكتوبر ، وقد تعرت الأشجار من أوراقها ، وامتلأت الجداول بالماء السريع المتدفق ، بينما نضج العنب على أشجاره وتحول إلى الاصفرار . ووصلت مع أبى إلى فاينزا فى الساعات المبكرة من بعد الظهيرة . وراح أليساندرو يقرع باب المدرسة الغليظ . ويسلم ولده إلى ناظرها ، ثم انحنى ليقبله وهو يودعه ، بشىء من الحنان الذى لا يخلو من الخشونة . ومضى الوالد فى طريقه ، وعندما أوصد الباب وراءه ، سالت عبرات الصبى . ومضى به الأستاذ إلى الفناء حيث كان الطلبة الآخرون يلعبون ، وراح بنيتو يرقبهم بهدوء ، وقد وقف بعيداً عنهم فى إحدى الزوايا ، تبدو عليه علائم العداء .

وكره بنيتو المدرسة ، وكره الآباء الذين يرعونها ، ولا سيما أستاذ الفصل ، الذى تميز بضحكته المجلجلة التى كانت تخيف الصبى ، كما كره رفاقه من الطلاب ، ولا سيما أولاد الأغنياء ، إذ كانوا يجلسون إلى مائدة منفصلة ، ليتناولوا طعاماً أفضل مما يتناوله بنيتو ورفاقه من الطلاب الفقراء . وانصرف عن الدرس ، ولم يبذل أى جهد . وضربه أحد الآباء ذات يوم ، فرد عليه الصبى وقذفه بإحدى المحابر . ولم يكن له من الرفاق إلا صديق واحد ، تميز بقوة رأسه ، حتى إنه كان يسمح لبنيتو ، بأن يسلى نفسه ويضربه بالعصا على هامته . وتشاجر

ذات يوم مع صبي يكبره سناً ، فانتضى موسوليني موساه من جيبه ، وطعن به الصبي . وقرر ناظر المدرسة ، حرصاً على أخلاق الطلاب الآخرين أن يطرد هذا الصبي المشاكس ، ولكنه ما لبث أن عدل عن قراره ، وقبل الاحتفاظ به حتى نهاية العام الدراسي . وأصابه الملل من قوانين المدرسة المتزمتة ، ومن المواعظ التي يسمعها باستمرار ، ومن المحاضرات التي تلقى عليه وعلى رفاقه عن الخطيئة والفساد . ومضى يعترف إلى الكاهن لأول مرة في حياته بسلسلة طويلة من الخطايا ، بعضها صحيح والبعض الآخر من نسيج الخيال . وانزاح عن الآباء هم ثقيل عندما انصرف من المدرسة ، وقال أحدهم . فيما بعد ، إنه لم يلق في حياته طالباً أتعبه كموسوليني . وعندما مضى إلى مدرسته الثانية ، وكانت تسمى مدرسة جيوسوى كاردوسى ، نسبة إلى الشاعر الإيطالي المشهور[1] ، ويتولى إدارتها في بلدة فورليموبوبولي ، شقيق الشاعر « فالفريدو » لم تكن تعاسته وميله إلى المشاكسة فيها ، أقل من تعاسته ومشاكساته في مدرسته السابقة . وتشاجر ذات يوم مع طالب دفع يده وهو يكتب ، فخرج على طوره ، وانتضى مديته من جديد ، ليطعن الصبي في أسفل بطنه . وكان نصيبه الطرد من المدرسة هذه المرة أيضاً .

وبالرغم من ثوراته العاطفية هذه ، ومن رفضه الدرس لملله منه أو لاعتباره أنه عمل لا ضرورة له ، فقد اعترف مدرسوه ورفاقه ، بأنه كان طالباً غير عادي في ذكائه . وعادت المدرسة نفسها فقبلته فيها طالباً نهارياً ، ولم تمض سنوات ثلاث ، وكان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره ، حتى كان يجتاز امتحاناتها النهائية ، ويحصل على شهادة منها تخوله مزاولة مهنة التعليم . ولم يكن قد فقد في هذه السنوات ، ذلك المزاج الحاد الذي عرف به في صباه ، أو استقلاله العنيد في الرأي ، ولكنه اكتشف في نفسه نهماً إلى المعرفة ، وقدرة على اكتساب العلم . ونما لديه في هذه الفترة أيضاً ، ميل شديد إلى الخطابة الحماسية . وكان يحب الوقوف على التلال المطلة على بريدابيو ، يقرأ بصوته الجهوري ، أشعار كاردوسي الغنائية والوطنية . وقد حقق أول انتصاراته الخطابية في مسرح فورليموبوبولي البلدي ، عندما اختاره

(١) كاردوسى (١٨٣٦ – ١٩٠٧) شاعر إيطالي مشهور ، وكاتب معروف . نال جائزة نوبل في الأدب في عام ١٩٠٦ . « المعرب »

أساتذته فى المدرسة ، ليلقى خطاباً دراماتيًّا وعاطفيًّا فى ذكرى وفاة جيوسيبى فيردى [١].

وتقدم فى الثالث عشر من فبراير عام ١٩٠٢ ، بالتماس إلى مجلس « كوميون » بلدة جواليتيرى ، يطلب فيه تعيينه معلماً فى مدرسة فى بيبفى دى ساليستيو . وقد آثره أعضاء المجلس الاشتراكيون على الأساتذة الأكثر منه تجربة وأكبر منه سنًّا ، من الذين طلبوا نفس المنصب ، إعجاباً منهم بآرائه السياسية . وجاء إلى البلدة ، يرتدى قبعة سوداء واسعة ، وقد لف حول عنقه رباطاً أسود . وكان الناظر إليه فى وجهه الشاحب وعينيه الواسعتين النفاذتين والسوداوين ، يتخيله شاعراً أو ثوريًّا ، وكثيراً ما أحب هو أن يكونهما . وقد كتب يقول معتزًّا بتلك الأيام . . . « كنت إنساناً بوهيميًّا فى تلك الأيام . وقد وضعت لنفسى قواعد أسير عليها ، ولكنى لم أطبقها » . وكان يرى فى السادة الاشتراكيين المحترمين والوديعين فى جوالتييرى ، « أناساً سذجاً » ، يشبهون فى ضعفهم ورخاوتهم عيدان « السباجيتى » ، ولم يكلف نفسه عناء إخفاء زرايته بهم . وكتب ذات يوم يقول . . . « لا يمكن لمثل هؤلاء الناس ، أن يصلحوا ما فى العالم من أخطاء وظلم » . وتميز فى هذه الفترة بالقلق ونفاد الصبر ، فهو يتلهف لهفة طاغية على القيام بعمل يترك أثراً ، ويتحدى به العالم ويدهشه ، ولا يريد أن يظل ذلك المعلم التافه لأربعين طالباً فى مدرسة ريفية .

وعثر على عشيقته الأولى فى الأشهر الأربعة التى قضاها فى جوالتييرى . كانت فى العشرين من عمرها ، وفى منتهى الجمال ، وقد تزوجت بجندى يعاملها بمنتهى القسوة والعنف . واعترف موسولينى بهذا الحب بشىء من الاعتزاز المتوحش فقال . . . « كان حبنا يتميز بالعنف والغيرة . وكنت أعمل معها ، ما أشاء » . وكثيراً ما دب الخصام بينهما وتشاجرا ، وفجرا بتلك الإباحية النموذجية العنيفة التى تميزت بها علاقاته الغرامية فى شبابه . وطعنها ذات يوم بمديته التى ظل يحملها دائماً فى

---

(١) جيوسيبى فيردى (١٨١٣ – ١٩٠١) – أعظم موسيقى إيطالى ، من مؤلفى المسرحيات الغنائية وملحنيها . من أشهر أوبراته « عائدة » و « فولستاف » ، « وقوة القدر » و « لاترافياتا » .

« المعرب »

فخذها ، طعنة عميقة ، وكثيراً ما صب عليها شتائمه ، وضربها ، وأهانها . مستخدماً العنف والأنانية فى علاقاته الغرامية بها . ولم تكن المرأة الأولى فى حياته التى عاملها على هذا النحو ، فقد سبق له وهو فى سنى دراسته فى فورليمبوبولى ، أن زار بيت الهوى ، فى البلدة ، حيث تعرف إلى عاهرة كان جسدها المترهل يقطر ، كما وصفها فى مقتطفات سيرة حياته التى كتبها بنفسه وهو فى السجن ، « بالعرق الذى ينصب من كل ناحية » . لكن قصة هذه العاهرة ، أو قصص كثيرات غيرها عرفهن فى صباه ، لم تحتل مكانها فى النسخ المهذبة اللاحقة من سيرة حياته التى كتبها والتى طبعت فيما بعد . وهو يروى فى هذه المقتطفات المبكرة أيضاً قصة الغارات التى كان يقوم بها مع أمثاله من العربيدين على علب الليل ، حيث يدور الشجار وتقع المعارك على اقتناص الفتيات ، كما يروى قصة انتصاره المخزى على الفتاة التى هاجمها أول مرة ، ولم تكن من العاهرات . كان اسمها فرجينيا . وقد كتب عنها يقول . . . « كانت فتاة فقيرة ، ولكنها ذات وجه جميل . أجل كانت جذابة إلى حد كبير . . . وفى ذات يوم صعدت معها درج المنزل ، وقذفت بها إلى الأرض ثم افترستها . وعندما انتهى كل شىء ، كانت تبكى بحرقة ، وتنهال على بالسباب ، قائلة إننى انتهكت عرضها . أنا لا أنكر ذلك . ولكن أى عرض هذا ؟ » .

وظل طيلة حياته كلها ، يذكر تلك الأيام المعربدة من شبابه ، بشىء من الاعتزاز والمرح ، ويتحدث ويكتب عن عواطفه وقسوته ، وعن نفاد صبره وجوعه وسخطه . وقد يكون من العسير على المرء الآن أن يميز بين الحقائق وبين الأساطير التى ابتكرها خياله ، وظمؤه الذى لا ينتهى إلى البروز وإلى الظهور بمظهر مسرحى . وقد روى فيما بعد ، أنه أحس فى يونيو عام ١٩٠٣ ، بالرغبة فى الفرار من محيطه ، فارتحل إلى سويسرا « كعامل خالى الوفاض » ، وادعى أنه جرب هناك أياماً طويلة من الجوع واليأس والمرض والسجن . وليس فى جيوبه إلا صورة من النيكل لكارل ماركس . وكان ينام فى كيس من الخيش ، تحت أحد الجسور ، أو فى أحد المراحيض العامة ، أو مع لاجئة بولندية ، تدرس الطب فى سويسرا ، كثيراً ما مارس معها الحب ــ بشكل لا ينساه . وعثر فى شهر يوليو على عمل ،

فى البناء . وكتب من لوزان إلى صديق له يحدثه عن تجاربه . . .

« نحن نعمل إحدى عشرة ساعة فى اليوم ، ونتقاضى ٣٢ سنتاً فى الساعة . وقد قمت بمائة وإحدى وعشرين رحلة ، أحمل مقطفاً مليئاً بالحجارة ، أصعد به إلى الطبقة الثانية من بناء نقوم بتشييده . وكنت أرى عضلات ذراعى . وقد تورمت فى المساء ، فأتناول عشائى من البطاطس المشوى فى الرماد ، ثم أقذف بجسدى المنهك على فراشى الذى لا يعدو كومة من القش . وأفيق من نومى فى الخامسة من الصباح التالى ، لأعود إلى العمل ، والغضب الرهيب يعصف بكيانى ، لعجزى عن أن أفعل شيئاً لإصلاح وضعى . . . ولقد جننت من تصرف معلّمِى ... فعندما حل مساء السبت ، ذهبت إليه أطلب أجرى ، فقد قررت أن أترك عملى . ومضى إلى مكتبه وظللت أنتظره فى البهو . وسرعان ما دلف إلى ثانية ، وخرج يلقّى بشىء من الغضب الذى لم يحسن إخفاءه ، بعشرين ليرة وبعض السنتات فى يدى وهو يقول . . . " ها هى نقودك ، وإنك لتسرقها " . . وتصلبت فى مكانى وكأنى تمثال من الحجر . ماذا أفعل لهذا الرجل ؟ هل أقتله ؟ ولكن ماذا فعلت حقًّا ؟ لا شىء . . ترى لماذا ؟ كنت جائعاً وكنت حافى القدم ، فقد أتلفت زوجاً من الحذاء ، وأنا أصعد درجات البناء التى ورّمت يدى وقدمى » .

وانتقل بعد ذلك إلى أعمال عادية أخرى ، فاشتغل صبيًّا عند أحد القصابين ، كما اشتغل مراسلا عند أحد باعة الخمور ثم فى مصنع للشيكولاته ، ينقل بضائعهما إلى الزبائن لتوزيعها . وقد اعتقل ذات يوم فى شوارع لوزان بتّهمة التسول ، كما اعتقل ثانية فى جنيف وكان عاطلا عن العمل ، عندما هاجم سيدتين إنجليزيتين ، كانتا تجلسان إلى أحد المقاعد وتلتّهمان غذاءهما المكون من الخبز والجبن والبيض . وقد تذكر هذا الحادث فيما بعد وكتب عنه يقول . . . « لم أستطع أن أمنع نفسى ، فهاجمت إحدى العجوزين ، وخطفت الطعام من يديها . وأؤكد لكم ، أنهما لو حاولتا المقاومة ، لخنقتهما . . . أجل ، لخنقتهما » .

وقد يصعب على المرء ، أن يعرف الآن مدى الصحة فى جميع هذه القصص ، لكن الذى نعرفه ، إنه وجد فى نهاية الصيف عملا منظماً ، ولم يعد يشعر بالجوع . فقد اعتبره العمال الذين كان قد عرفهم واتصل بهم ، عاملا مثقفاً ، وعرضوا عليه

أن يصبح سكرتيراً لاتحاد عمال البناء والعمال اليدويين فى لوزان ، وأن يتولى شؤون الدعاية . وشرع أيضاً فى إعطاء بعض الدروس فى اللغة الإيطالية ، كما تقاضى أجراً على المقالات التى كتبها فى هذه الآونة ، وصب فيها سموم حقده ، عارضاً فيها الطراز الفوضوى من الاشتراكية التى اعتنقها ، وعداءه للكنيسة ، وإحساسه العميق بالظلم الاجتماعى ، وعداءه الساخط ، على طبقات الناس الذين أحس نحوهم بعداء شخصى وأنماطهم . وشرع فى هذه الفترة يكثر من القراءة . وتميزت قراءاته بعدم التنظيم والسرعة ونفاد الصبر ، وكأنه يود أن يستوعب تاريخ الفلسفة السياسية كله فى غضون أشهر . وقرأ كثيراً من مؤلفات لاسال (L asalle) [١] وكوتسكى (Kautsky)[٢]، وكروبوتكين (Kropotkin)[٣]، وماركس، وشوبنهاور (Schopenhauer) [٤] ، وستيرنر (Starner) [٥] ، ونيتشه (Nietzche) [٦] ،

(١) فيرديناند لاسال (١٨٢٥ — ١٨٦٤) — اشتراكى ألمانى ، ومن مؤسسى الحزب الديمقراطى الاشتراكى الألمانى . آمن بالنظريات الماركسية ودافع عن الوحدة الألمانية .

(٢) كارل جوهان كوتسكى (١٨٥٤ — ١٩٣٨) — الفيلسوف النظرى الأول للاشتراكية الألمانية والنمسوية .

(٣) الأمير بطرس أليكسيفتيشى كروبوتكين (١٨٤٢ — ١٩٢١) — من زعماء الفوضويين (النهليست) الروس . ولد من أسرة من النبلاء . التحق بالجندية ، وارتحل مع فرقته إلى سيبريا حيث قام ببعض الدراسات الجغرافية . عاد إلى العاصمة فدرس فى جامعتها ، ثم قام بدراسات جغرافية واسعة النطاق . انضم إلى الحركة الفوضوية ، واعتقل فى روسيا لكنه فر إلى إنجلترا ، ثم إلى سويسرا . وأقام أخيراً فى إنجلترا ليعود منها إلى روسيا فى عام ١٩١٧ . من أهم كتبه « الفوضوية ، فلسفتها ومذهبها » ، و « مذكرات ثورى » ، و « الفوضوية والعلم الحديث » .

(٤) شوبنهاور (١٧٨٨ — ١٨٦٠) ولد فى دانتزيغ ، فيلسوف ألمانى . صاحب مذهب التشاؤم وتعليله وجود التناقض بين عالم الإرادة وعالم العقل .

(٥) ستيرنر (١٨٦٥ — ١٩٣٨) — اشتراكى ألمانى ماركسى .

(٦) نيتشة — فردريك ويلهلم (١٨٤٤—١٩٠٠) — فيلسوف ألمانى يمت إلى أسرة بولندية عريقة. أصبح أستاذاً فى جامعة بال ، وهو فى الرابعة والعشرين . أصيب بالجنون فى أخريات أيامه . تقوم فلسفته على اعتبار الإنسانية مؤلفة من طرازين مختلفين هما طراز الأقوياء وطراز الضعفاء أو السادة والعبيد ، والنبلاء والدهماء . ويقوم الصراع بينهما على أساس الأخلاق التى يؤيد هو قوتها ، ولذا فقد حمل على المسيحية لأنها تدعو كما قال إلى أخلاق العبيد .

« المعرب »

وبلانكى (Blanqui)[١]، وبيرتونى (Bertoni)[٢]، آخذاً عنهم أفكارهم ، ليجمعها فى عقله ، وليسىء تصويرها ، ثم ليحاول نشرها . وعاد فانكب فيما بعد على قراءة بابوف (Baboeuf)[٣]، وبرودون (Proudhon)[٤]، وكانت (Kant)[٥]، وسبينوزا (Spinoza)[٦]، وهيجل (Hegel)[٧]، وفيخته (Fichte)[٨]، وسوريل (Sorel)[٩]،

---

(١) لويس أوجستين بلانكى (١٨٠٥ – ١٨٨١) – سياسى ثورى فرنسى . غدا رئيس الحكومة الفرنسية المؤقتة عام ١٨٧٠ ، بعد سقوط نابوليون الثالث .

(٢) بيرتونى – من المفكرين الاشتراكيين الإيطاليين .

(٣) فرانسوا بابوف (١٧٦٠ – ١٧٩٧) – من أوائل المفكرين الاشتراكيين . عاش فى عهد الثورة الفرنسية وقد حكم عليه بالإعدام ونفذ فيه بالمقصلة لمحاولته إقامة نظام شيوعى .

(٤) برودون (١٨٠٩ – ١٨٦٥) من المفكرين الاشتراكيين الفرنسيين ، وأهم مؤلفاته نظام التناقضات الاقتصادية والفلسفية ، الذى وصف فيه الملكية بأنها سرقة .

(٥) عمانوئيل كانت (١٧٢٤ – ١٨٠٤) – من أعظم الفلاسفة فى العصر الحديث ، وأعظم مفكر فى شئون ما وراء الطبيعة (الغيبيات) . درس الفيزياء والنظريات الطبيعية ، وحاول التوفيق بين ديكارت وليبنيتز ، فى رسالته عن معرفة الطبيعة ، والتوفيق بين الأخير ونيوتن فى كتابه « تاريخ الطبيعة العام ونظرية السماء » . كتب رسالة عن « وجود الله » ودرس العقل الإنسانى وحلله . من أشهر كتبه « العقل العملى » .

(٦) باروخ سبينوزا (١٦٣٢ – ١٦٧٧) – فيلسوف هولندى . ولد فى أمستردام من أصل يهودى برتغالى . حملته آراؤه الدينية على الظهور بمظهر المخالف لليهود . تعتبر فلسفته عقلانية فى أنها تقوم على المحاورة ، وعلى الافتراضات ، وتقوم على أساس اليهودية ، وازدواجية ديكارت والوحدانية وأفكار هوبس . وقد بلغت قمتها فى الفيزياء ، فقد أكد أن علم الطبيعة هو الذى يكشف جواهر الأمور .

(٧) جورج ويلهلم فريدريك (١٧٧٠–١٨٣١) – من مدينة شتوتجارت ، كان آخر الفلاسفة الألمان الأربعة الكبار ، وهم كانت ، وفيخته ، وشيلينج . قام بالتدريس فى فيينا ونورمبرج . أصدر أول مؤلفاته « ظواهر الروح » فى عام ١٨٠٧ ، وأعقبه بعلم المنطق ، كما أصدر فى عام ١٨١٦ ، وكان أستاذاً فى جامعة هيدلبرج ، موسوعة عن الدراسات الفلسفية . أصيب بالحمى الصفراء وتوفى . ويضعه بعض الفلاسفة فى مصاف أرسطو . كانت فلسفته الأساس الذى اعتمد عليه كارل ماركس فى تخيلاته الميتافيزيقية كما كانت دولته المثالية الأساس الذى قامت عليه النظرية الفاشية التى تبناها هتلر وموسولينى فى نظاميهما .

(٨) جوهان جوتليب فيخته (١٧٦٢ – ١٨١٤) – فيلسوف ألمانى كبير من أصل سويدى . ولد فى لوزانيا العليا . درس دراسة طبية فى صباه وتعلم اللاهوت فى جامعة يينا . وقد اشتغل مدرساً خاصاً فى زوريخ وله مؤلفات عدة أشهرها « الطريق إلى حياة سعيدة » ، و « خصائص العصر » . و « الدولة التجارية الكبرى » و « عمل الإنسان » .

(٩) جورج سوريل (١٨٧٤ – ١٩٢٢) – فيلسوف اجتماعى فرنسى ، ولد فى شربورج ، ودرس الهندسة فى صباه ، ثم تخلى عن مهنته ليشرع فى تثقيف نفسه ذاتياً . وهو يعكس الفلسفة الفوضوية =

وجويو (Cyuyau) [١]، وقد تأثر تأثراً عميقاً بكل ما قرأه ، حتى إن امرأة عرفها فى جنيف ، كتبت عنه فيما بعد تقول . . « وكانت آراؤه الفسلفية دائماً الانعكاس لآخر كتاب قرأه » . ولم يجد أكثر وحيه فى صفحات ماركس الجامدة ، ولذا فلم يوغل كثيراً فى قراءته ، وإنما وجدها فى الكتابات الساخطة لكل من لويس بلانكى الثورى الفرنسى العنيف والأمير بطرس كروبوتكين الفوضوى الروسى وحياتيهما . ولعل من المهم أن نذكر أن الكتاب الوحيد الذى ذكره فى سيرة حياته التى كتبها هو كتاب « نفسية الجماهير » لجوستاف لوبون (Gustave Lebon) [٢].

واستهوته رؤى العنف ، فكان يجوب شوارع لوزان وبيرن ، مناقشاً ، مشاجراً وملقياً خطباً نارية على أعضاء نقابته . وكان يقضى معظم أمسياته مع الطلبة الروس ، الغرباء فى طبائعهم والشرسين فى أخلاقهم ، والبوهيميين والفوضويين فى تصرفاتهم ، وكان يحتسى معهم الخمر ، ويخوض المعارك الغرامية ، ويتناقش معهم ، بجد وإصرار ، حتى كان يعتقد ، كما قال أحدهم فيما بعد ، « أن ذلك اليوم هو الأخير فى حياته » . وكانوا ينادونه أحياناً باسم « بينيتوشكا » ، ولكنه كان يعترض على اسم التحبب هذا ، وكان يؤثر أن يشير إلى نفسه ، على غرار سوريل بأنه « رسول العنف » . وكان يسائل نفسه باستمرار : « ترى متى يحين يوم الثأر ؟ . . . ومتى يحرر الناس أنفسهم من الطغيان ومن الدين ، ذلك « المرض الخالد الذى يصيب العقل ؟ » . وكان يسائل نفسه وقد استبد به الغضب وثارت أفكاره . . . ومن هو المسيح ، إذا لم يكن ذلك الرجل الوضيع الصغير الذى قضى سنتين فى تحويل أهل بعض القرى عن دينهم ، ولم يكن حواريوه إلا اثنى عشر أفاقاً من الجهلة هم حثالة فلسطين ؟ . وكان يقول . . . « وهل تكون سويسرا إلا تلك الدولة الديمقراطية التى تصنع السجق ، والتى لم تعرف الطريق إلى الثورة والاحتجاج ، جاهلة عيبها

= التى جاء بها برودون وباكونين ، منكراً الاعتقاد بالتقدم ، ومنادياً بمفهوم بطولى للحياة . أيد الحركة النقابية أولا ، ثم تحول إلى أقصى اليمين القوى من جماعة العمل الفرنسى . وأطلق على الحرب اسم « الحرب الصليبية للديمقراطية ضد البلوتوقراطية الغوغائية » .

(١) جويو – اشتراكى فرنسى .

(٢) لوبون جوستاف (١٨٤١ – ١٩٣١) – فيلسوف فرنسى من الذين اشتهروا فى علم الاجتماع ، نقلت بعض مؤلفاته إلى العربية . « المعرب »

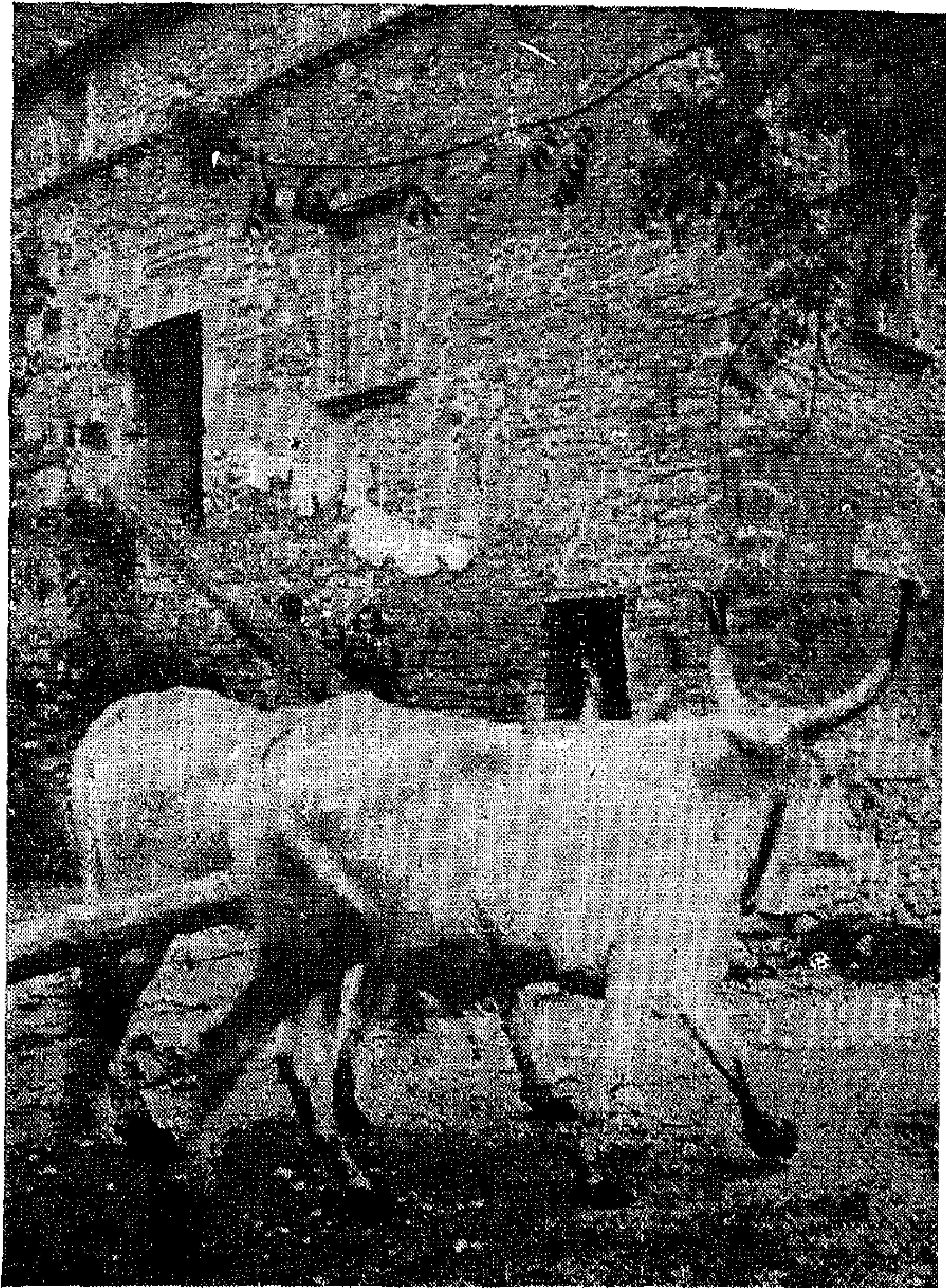
الضخم هذا ، ومعتقدة على الغالب بأن تفاحة ويليام تل[١] ، كافية لاستمرار تقاليد الحرية في بلدها ؟ » ويبدو أنه جاوز حدوده في صيف عام ١٩٠٣ ، بالنسبة إلى السويسريين المسالمين ، إذ ألقى خطاباً في نقابته العمالية في برن اقترح فيه إعلان الإضراب العام ، ونادى بالعنف كوسيلة لفرض مطالب العمال ، وراحت السلطات تعتقله . ولم يمض اثني عشر يوماً في السجن حتى كانت سلطات مقاطعة برن تطرده من منطقتها وتقذف به عند الحدود إلى كياسو . ولكن لم يمض أسبوع واحد حتى عاد إلى سويسرا ، وقد ازداد عنفاً على عنفه .

وكان قد بلغ العشرين من عمره الآن ، وبدت عليه مخايل الإنسان الثورى المخضرم ، الذى مرّسته آلام عواطفه الذاتية وألهبته . وكان شعره الأسود الطويل الجميل ، قد بدأ في السقوط ، وبدأت الظلال تبدو في عينيه السوداوين . وكان شاربه الأسود يزيد ظهور الاصفرار في وجهه الشاحب ، تساعده في ذلك ، آثار لحية سوداء ، كان موسولينى نادراً ما يحلقها ، ولا يتعدى حلقه لها المرتين في الأسبوع . وذكرت أنجيليكا بالابانوف ، الفتاة الروسية الاشتراكية الذكية ، المحدودبة الظهر ، والمغرقة في شهواتها التي التقاها بنيتو في جنيف بعد بضعة أشهر ، أنه كان نادراً ما يستحم أيضاً[٢] . وقد رأت أيضاً أنه كان مصاباً بالعصاب ، إذ يثور لأقل حادث مما يستثير الإشفاق ، وكان مفرطاً في كفره ، وفي رغبته في الانتقام ، سيئ الهندام ، ميالا إلى النصب ، يكره العمل اليدوى ويعتبر نفسه من المثقفين . وكان دائم الشكوى من سوء حالته الصحية ، مزهوًّا بحيويته ونشاطه . ولم تكن أنجيليكا على ثقة من أن هذه الصورة الإيجابية النارية في حماسها ،

---

(١) قصة ويليام تل ، الفلاح السويسرى العادى الذى ثار على سيطرة الأجنبى المحتل ، واعتبر بطلا للنضال الوطنى في بلاده . والقصة مشهورة . وتتعلق بقذفه التفاحة فوق رأس ولده وإصابتها تحدياً لأمر الحاكم .
« المعرب »

(٢) ذكرت مرجريتا سارفاتى ، الفتاة التى كانت تعتنق الاشتراكية في تلك الأيام والتى غدت فيما بعد أول مؤرخة لحياة موسولينى ومن أقرب صديقاته إليه . أن بالابانوف أيضاً لم تكن تستحم . وكانت مرجريتا تعجب بذكاء بالابانوف وإن كانت لا تخفى كراهيتها لها أو لعلها غيرتها منها كامرأة . فقد كتبت مرجريتا تقول . . . « وكانت بالابانوف تفتقر إلى خفة الدم كل الافتقار ، وكانت تفتقر أيضاً إلى الإحساس بالجمال ، ولعل هذا من حسن حظها . ولو لم تكن كذلك . لقذفت بنفسها في أقرب بئر تلقاه لتنتحر . وكانت في الواقع لا تعرف الماء أبداً » . « المؤلف »



البيت الذى ولد فيه موسولينى فى قرية دوفيا



موسولينى فى صباه



موسولينى الثائر الاشتراكى فى سويسرا

موسولينى الجندى فى وحدات البارسلييرى العسكرية

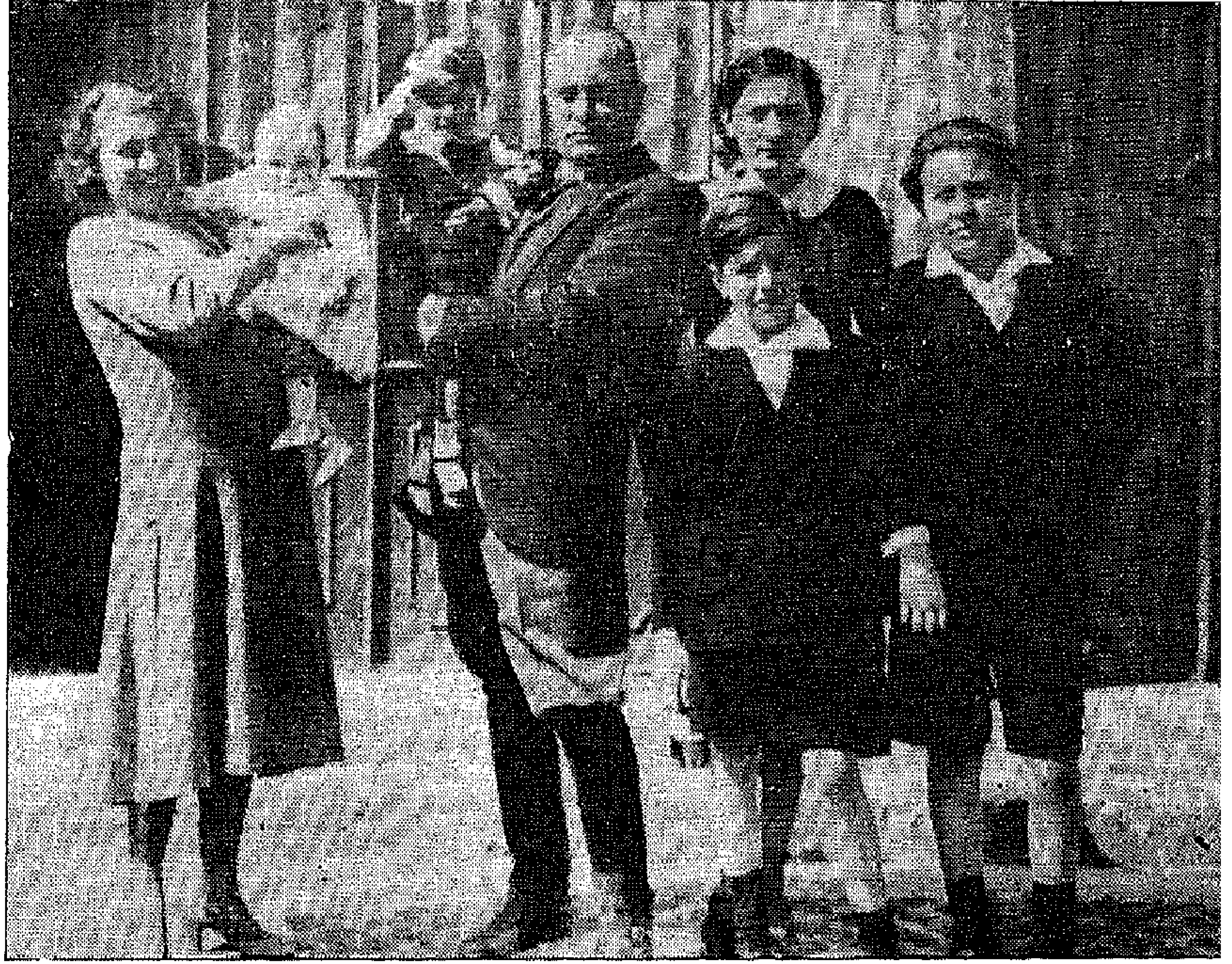




موسولينى يستعرض ذوى القمصان السود فى نابولى فى عام ١٩٢٢

موسولينى يحيط به الفاشيون فى لندن فى عام ١٩٢٢





موسوليني مع راشيل وآنا ماريا ورومانو وتيتو وايدا وبرونو وفيتوريو



موسوليني في حدائق دارة تورلونيا
مع ولده رومانو

لا تخفى وراءها إنساناً حيياً يفتقر إلى الثقة فى نفسه ، ولا سيما إذا كان فى حضرة أولئك الذين يرى أنهم يبزونه فى نظراته الاشتراكية وأوضاعه الفكرية . وعندما تحدثت إليه لأول مرة ، خيل إليها أنها لم تر قط « إنساناً » أكثر تعاسة منه . « وبالرغم من فكه الضخم . وما يبدو فى عينيه السوداوين من مرارة وقلق ، كان يوحى بالانطباع ، بأنه إنسان فى منتهى الجبن . وعندما كان يصغى إلى ما أقول ، وكانت أصابعه تقبض على قبعته السوداء الضخمة بمنتهى العصبية ، كان يبدو أكثر اهتماماً بما يدور فى نفسه من جيشان داخلى منه بالإصغاء إلى ما أقول » . ولكنها كانت تحبه فى تلك الأيام ، وإن تحول حبها إلى كره له فيما بعد ، لخيانته للاشتراكية . ولا ريب فى أن معظم الناس كانوا يحبونه آنذاك إذ أنه لم يكن طراز الرجل الذى يوحى بالكراهية .

وعاد فى نهاية عام ١٩٠٣ إلى إيطاليا إذ بلغه نبأ مرض أمه . ولكنه ما لبث بعد أن أبلت من مرضها أن عاد إلى سويسرا ، هرباً من الخدمة العسكرية ، إذ أنه كان من أشد أعداء الحرب ، يزدرى كل الازدراء أولئك « العبيد المأجورين للملوك » ، فى « ألبستهم الزاهية ، وقد ازدانت صدورهم بعشرات الأوسمة والأشرطة وما شابه ذلك من زخارف محلية وأجنبية ... وقد أعموا عيون الناس بما يثيرونه من غبار ، ويقذفون فى وجوههم ، بما يعرضونه من مظاهر حمقاء » . ولم تمض بضعة أسابيع حتى كان ينزل من جديد ضيفاً على السجن ، ويقضى عيد فصح عام ١٩٠٤ فى سجن لوسرن . وقد تذكر ذلك فيما بعد ، ووصفه بقوله . . . « كان يوماً من أكثر أيام حياتى بؤساً وحزناً » ، وعندما أصغى إلى أجراس الكنائس وهى تعلن حلول العيد ، راح يتساءل عما إذا كان السويسريون لن يخرجوه من البلاد بعد إطلاق سراحه ، ليقذفوا به فى إيطاليا حيث يقضى مدة سنة كاملة فى السجن تنفيذاً لحكم صدر عليه لفراره من الجندية . ولكن قلقه ما لبث أن زال ، عندما وجدهم ينزلونه من القطار قبل وصوله إلى الحدود الإيطالية ، وبالرغم من إخراجه من مقاطعة جنيف ، فقد سمح له بالعودة إلى لوزان حيث كان ثمة ألوف من المهاجرين الإيطاليين يبحثون عن عمل . لكن موسولينى كان أحسن حظاً من معظمهم . فقد أصبح الآن يجيد الفرنسية ، ويعرف بعض الألمانية ، كما تعلم شيئاً من

الإنجليزية والأسبانية . وتمكن من أن يعول نفسه وأن يداوم على حضور محاضرات فيلفريدو باريتو فى جامعة لوزان ، والدروس الصيفية فى جامعة جنيف ، وذلك عن طريق إعطاء بعض الدروس الإيطالية وترجمة بعض المؤلفات الفلسفية والسياسية ، بمساعدة أصدقائه وصديقاته من الروس والبولنديين ، وبكتابة المقالات ، واقتراض المال من والدته ، ومن كل إنسان قد يقرضه . وظل حاله على هذا الشكل إلى أن أصدر ملك إيطاليا فى نوفبر عام ١٩٠٤ ، عفواً عامًّا عن جميع الهاربين من الجندية بمناسبة احتفاله بولادة ولده الأمير أومبرتو .

وكان موسولينى قد فكر بالهجرة إلى أمريكا ، ولكنه ما لبث أن عدل عن عزمه هذا ، وقرر أن يعود إلى إيطاليا ، ليساعد أمه بالتدريس فى مدرستها فى دوفيا . والتقى فى طريق عودته إلى وطنه ، بأنجيليكا بالابانوف فى لوجانو ، ثم سافر إلى إيطاليا كما تقول ، بعد أن سرّى عما يجيش فى نفسه بثورة عاصفة على الأغنياء . وقال لها ، وهو يشير بذراعه إلى المطاعم والفنادق المنتشرة على طول الطريق . . . « انظرى الناس ، يأكلون ويشربون وينعمون . أما أنا فسأسافر فى الدرجة الثالثة ، وآكل أرخص الطعام وأسوأه . يا " للخنزيرة " العذراء[1] ! كم أكره الأغنياء ! ترى لم قضى على أن أحتمل كل هذا الظلم ؟ حتام تنتظر؟ » . ووصل موسولينى بعد يومين إلى رومانا . وقد سبقته شهرته بالتطرف السياسى ، بعد أن غدت الآن أكثر من مجرد شهرة محلية . فقد نشرت صحيفة « لاتربيونا » التى تصدر فى رومه فى الثامن عشر من أبريل عام ١٩٠٤ ، رسالة لمراسلها من جنيف تحدث فيها عن موسولينى ووصفه « بالدوتشى العظيم » للجالية الاشتراكية الإيطالية المحلية . وهكذا كان موسولينى قد بدأ فى صياغة حياته المقبلة .

---

(١) يستخدم موسولينى كثيراً مثل هذه العبارات التى تنطق بالمروق على دينه ، وبشكل لا حياء فيه . وقد آثرت ترجمة عباراته بأمانة ، لإظهار حقيقة هذا الإنسان دون تمويه . « المعرب »

٣

توفيت روزا موسوليني في التاسع عشر من فبراير عام ١٩٠٥ ، متأثرة من التهاب السحايا ، وكانت في السادسة والأربعين من عمرها ، وغلب الحزن على ولدها بنيتو ، كما كتبت الصحيفة المحلية . وأراد أثناء تشييع جثمانها « أن يلقي كلمة وداع أخيرة على قبرها ، ولكن العبرات خنقته ، وعجز عن الكلام ، واكتفى بإلقاء بعض الأزاهير على قبرها » . ومضى بعد وفاة والدته إلى بلدة كانيفا الصغيرة الواقعة في كوميون توليزا في جبال الألب إلى الشمال من الأوندين للتعليم في مدرستها . ولم يكن من خيرة المعلمين ، وهي حقيقة تبينها في نفسه . وكان الأطفال يحبونه حباً جماً ، ولكن يبدو أنه كان يجد صعوبة بالغة في السيطرة عليهم ، ولا سيما أن عقله كان دائماً غائباً في أماكن أخرى . وكثيراً ما فقد السيطرة على أعصابه ، فيضرب المنضدة بقبضة يده ، وينهال عليهم بالشتائم . وبالرغم من أنهم أطلقوا عليه اسم « الطاغية » إلا أنهم لم يكونوا يخشونه . وخيل إلى الكثيرين منهم أنه مصاب بلوثة في عقله . وكان رباط عنقه دائم الاعوجاج . كما كانت « ياقة » قميصه قذرة ورباط حذائه محلولا ، وشعره طويلا ومنكوشاً . وكثيراً ما اجتاز طرقات البلدة والكيلومترين ونصف الكيلومتر بين البيت الذي ينام فيه وبين المدرسة وهو يقرأ في كتاب بيده ، أو يتلو بعض الشعر . وتلقى بعض اللاتينية على أيدي كاهن الكنيسة ، وشرع يدرس الحساب الهندي ، ويعد ملاحظاته عن تاريخ الفلسفة ، كما يعد دراسة نقدية في الأدب الألماني . لكنه على أي حال كان يقضي أوقات فراغه من المدرسة ومن الدروس الخاصة التي يعطيها في المنزل الذي ينام فيه ، في احتساء الخمر ، أو في إغراق شهواته الحسية والجنسية وإشباعها . وقد تحدث هو عن العام الذي قضاه في توليزا فوصفه بأنه « شبه انحلال خلقي» . وكثيراً ما أغرق في شرب الخمر مع رفاقه ، وعندما يفترق عنه هؤلاء الرفاق ، كان يمضي متعثراً في خطاه في شوارع البلدة المعتمة ، صائحاً ، ومعربداً ، يقرأ أشعار كاردوسي ، ويلقي الخطب على نافورة المياه في ميدان البلدة . وكان يتعاطى الحب

مع أية فتاة ترضى به ، ويهدد باغتصاب كل من ترفضه . وأصيب بمرض الزهرى وعندما اكتشف علائمه فى جسده . حشا مسدسه بالرصاص ، قائلا إنه سينتحر ، ولكن رفاقه تمكنوا من إقناعه بعد لأى بمراجعة أحد الأطباء بدلا من الانتحار . وكانت له علاقة غرامية بزوجة صاحب البيت الذى أقام فيه ، وعندما غادر البلدة نهائيًّا ، عاد إليها ذات يوم قادماً من بريدابيو التى تبعد عنها ثلاثمائة ميل ، فى ليلة من ليالى الشتاء القاسية ، لأنه أحس بشوق زائد إلى عشيقته ، وقد انسل صاعداً السلم إلى دارها ، حيث أخذها بين أحضانه بينما كان زوجها يغط فى نومه فى غرفة أخرى .

واستضافه السجن مرة أخرى فى أواسط الصيف التالى . فقد وقف بما عرف عنه من عنف لا يعرف التفاهم ، إلى جانب عمال المياومة ، أثناء أحد النزاعات المألوفة التى كانت مصدر إزعاج لحياة مقاطعة رومانا ، واشترك فى جدال سياسى عنيف فى بريدابيو مع ظالميهم من مستأجرى الأرض . وقضت عليه المحكمة بالسجن ثلاثة أشهر .

وأصبح الآن إنساناً معروفاً فى رومانا . وبدأ الناس يتحدثون عنه . كما أخذت الصحف تنشر أخباره . وبات « الرفيق موسولينى » فى الخامسة والعشرين من عمره قوة يحسب حسابها فى المنطقة . ومضى بعد أن أطلق سراحه شمالا إلى تورنتو ، وكانت آنذاك جزءاً من النمسا ، ليشغل منصباً نقابيًّا فيها ، وليغدو مساهماً دائماً فى تحرير الصحيفة اليسارية الأسبوعية فيها وهى صحيفة « مستقبل العامل » الناطقة باسم الجماعات الثورية والدولية. ولكنه لم يمل إلى اشتراكيي ترنتينو الذين كانوا يعبدون مازينى[1] تماماً كما كره فى الماضى الاشتراكيين السذج فى جوالتيبيرى . وكان يرى فيهم منافقى « الرأسمالية البورجوازية » و « عبّاد القومية والوطنية » ، الذين يجب أن يهاجموا المرة تلو المرة إلى أن تتم « تعرية خياناتهم للطبقة البروليتارية العاملة». وكان يرى أن على هذه الطبقة أن تكون« بحكم تعريفها وحتميتها معادية للوطنية » ، وأن تدرك أن القومية ليست إلا القناع « للعسكرية الشريرة » التى يجب « أن يخلى

---

(١) جيوسيبى مازينى (١٨٠٥ – ١٨٧٢) – زعيم ثورى ووطنى إيطالى . لعب دوراً فى توحيد إيطاليا .

بينها وبين السادة » ، وأن العلم الوطني ليس إلا كما قال جوستاف هيرفيه (Gustave Hervé) : « خرقة يجب أن ترفع فوق المزبلة » .

وبالرغم من عمق كراهيته لقومية اشتراكي ترينتينو ، فقد وافق على الكتابة لصحيفة « البوبولو » التي كان يحررها سيزا — باتيستي ، وهو رجل ذو اتجاهات يسارية ، وراح يهاجم في المقالات التي كتبها لهذه الصحيفة ، ولصحيفة أخرى يملكها باتيستي وتسمى « حياة ترينتينا » ، بأسلوبه العنيف المعهود ، عدداً مختلفاً من الأهداف ، تبدأ من العقلية المناهضة للبروليتارية عند الماسونيين الأحرار ، وتنتهي عند نزوات أصحاب الأرض ، ومن التأثير السيئ للنظرية الملثوسيه الجديدة (Neo-Malthusianism) [١] إلى الروح البورجوازية التي أدت إلى انحطاط الأول من آيار كعيد ثوري . لكن أعنف حملاته ظهرت في مجلة « مستقبل العامل » وقد استهدفت الروح العسكرية والقومية والتأثير الكاثوليكي القوي في ترينت الذي تعززه الصحيفة الكاثوليكية الواسعة الانتشار « ال ترنتينو » ، التي كان السيد دي جاسبيري من أبرز كتابها السياسيين . وقد صدق جوادينز ميجارو ،

---

(٢) ظل موسوليني طيلة حياته واقعاً تحت كابوس ما أسماه بمشكلة السكان في إيطاليا . وعند ما اقترح عليه الكاتب الألماني إميل لودفيج في عام ١٩٣٢ أن الملثوسية (النظرية التي تدعو إلى تحديد النسل نسبة إلى مالثوس (١٧٦٦ — ١٨٣٤) العالم الاقتصادي والسياسي الذي دعا إلى تحديد النسل) ، أكثر ضرورة لإيطاليا منها لأي بلد آخر في العالم ، انفجر موسوليني غاضباً . وقد وصف لودفيج هذا الموقف بقوله . . . « « لم أر موسوليني قط من قبل أو من بعد ، في مثل هذا الموقف الذي فقد فيه السيطرة على نفسه . وكان يتكلم بسرعة تبلغ ضعف سرعة حديثه العادي ، وينهال علي بأقواله كالصواريخ وهو يقول . . . مالثوس ! مالثوس ! إن نظريته ، خطيئة اقتصادية وجريمة أخلاقية . فالحد من النسل يجر في أعقابه الفاقة . فعند ما كان عدد سكان إيطاليا ستة عشر مليوناً ليس إلا ، كانت البلاد أكثر فقراً مما هي عليه الآن وقد بلغ تعداد سكانها ٤٢ مليوناً .

وظل يكرر دائماً ، أن على كل أسرة أن تنجب خمسة من الأطفال . وستدفع الدولة إلى الآباء الذين ينجبون عدداً كبيراً من الأطفال ، أجوراً أعلى من تلك التي يتقاضاها زملاؤهم . وأمر بأن تعطى الأمهات اللائي ينجبن عدداً كبيراً من الأطفال ، العضوية الفخرية في الحزب الفاشي .

وحدث أن أمر بترقية أحد قادة الجيش في الصباح ، ولكنه عاد في المساء فألغى أمر الترقية لأنه اكتشف أن الجنرال ، من العزاب . وراح يقول . . . « على كل جنرال أن يكون أول من يدرك أن الفرق العسكرية تحتاج إلى رجال » . وكان في إمكانه أن يقول إن زيادة عدد السكان تؤمن الرجال الجيش ، والمبرر الممتاز لطلب المستعمرات ، وللإبقاء على الأجور الخفيضة . « المؤلف »

مؤرخ حياته عندما قال بأن حملاته العنيفة على الكنيسة الكاثوليكية التى وصفها « بالجثة العظيمة الميتة » ، وعلى الفاتيكان الذى وصفه « بمغارة التعصب وعصابات اللصوص »، وعلى المسيحية نفسها التى وصفها « بالأثر الإنسانى الدائم للخزى والعار »، هى التى أدت إلى اعتقاله وطرده من النمسا ، وإن هذا الطرد لم ينشأ عن تلك الحملات العارضة التى شنها أحياناً على القومية النمسوية ، أو تلك المقالات التى أيد فيها حقوق الإيطاليين الذين يعملون تحت السيطرة النمسوية . ولا ريب فى أن الحملات ، هى التى مكنت مؤرخى حياته اللاحقين من الفاشيين من إيراد عبارات من أقواله كدليل على ميوله اليسارية .

واعتقل فى العاشر من سبتمبر عام ١٩٠٩، وفى السادس والعشرين منه طرد من النمسا ، كما سبق له أن طرد من مقاطعتى برن وجنيف فى سويسرا . وعاد فى الشهر التالى إلى وطنه حيث مضى إلى أبيه الذى كان قد تخلى عن مهنة الحدادة فى دوفيا وارتحل مع عشيقته الطويلة والنحيلة والخشنة الطبع آنا جويدى ، ومع أطفالها الخمسة إلى فورلى ، حيث ابتاع خان بير سالجيرى . وكانت راشيل صغرى بنات آنا ، فتاة جميلة فى السادسة عشرة من عمرها ، ذات شعر أشقر متموج ، ومزاج استفزازى وعنيد . وقرر موسولينى الزواج من الفتاة . وكان قد وقع فى الماضى فى غرام شقيقتها الكبرى أوجستا ، ولكنها أوجست خيفة من عدم استقراره ، وآثرت الزواج برجل ذى عمل منظم يشتغل حافراً للقبور . لكن موسولينى سرعان ما تحول بعواطفه وحبه إلى راشيل . وكان يعكف فى الأمسيات بعد أن يغسل الأقداح ، ويملأ الجرار فى الخان على كتابة القصص القصيرة وعلى استكمال كتاب كان قد شرع فيه عن حياة جون هوس المصلح البوهيمى ، كما بدأ فى كتابة قصة طويلة أخذ ينشرها فى حلقات فى صحيفة البوبولو ، التى كان رئيس تحريرها قد اقترح عليه موضوعها . وقد ترجمت هذه القصة التى أسماها « كلوديا بارتيسيلا » إلى الإنجليزية فى عام ١٩٢٨ تحت عنوان « عشيقة الكردينال » ، وهى قصة تخلو حتماً من الطرافة والحيوية . وقد وصفت مرجريتا سارفاتى هذه القصة كغيرها من القصص التى وضعها موسولينى « بالخليط البليد الذى لا يعرف رأسه من ذنبه ، والشريط السريع لأحداث طويلة » . لكن راشيل ، أعجبت بالقصة ، وذلك لأن إحدى شخصياتها الرقيقة وهى خادمة البطلة ، قد ضحت بحياتها من أجل سيدتها ،

وقد أسماها بنيتو باسم حبيبته راشيل .

ووصفت راشيل الليلة الأولى التى مضى بها بنيتو إلى المسرح ، وقد عاد بها إلى الخان ، وطلب السماح له بأن يعيش معها . ولكن والده ووالدة الفتاة رفضا قبول طلبه . وسرعان ما انتضى مسدسه وهددهما بقتل نفسه وقتلها إذا لم يحقق أمنيته . وأخيراً أذعن الوالدان لرغبته ، ولم تمض أيام حتى كان يستأجر غرفتين فى منزل رطب ومتهدم فى شارع « ميريندا » . وكتبت راشيل فيما بعد تقول . . . « وانتقلنا إلى المنزل ذات مساء . وإنى لأذكر كم كان سعيداً رغم ما يبدو عليه من جهد ، إذ لم يكن واثقاً من موقفى ، نظراً لعدم استكمال أوراق الزواج . ولكننى فهمت موقفه وقدرته . فأمامى يقف الرجل الذى أحببت ، وهو ينتظر منى أن أمنحه ، الهبة الوحيدة التى تستطيع الحياة أن تمنحه إياها ، وهى حبى . وكانت الخطوط قد بدأت فى الظهور على وجهه الفتى نتيجة ما يعانيه من جهد فى كفاحه اليومى . ولم أتردد لحظة واحدة . ومضيت معه إلى آخر الشوط » .

وعاشا معاً فى ذلك المنزل الحقير فى شارع ميريندا ثلاث سنوات . وولدت لهما طفلتهما الأولى إيدا ، فى نهاية العام الأول من الزواج أى فى الأول من سبتمبر عام ١٩١٠ . ومضى موسولينى يبتاع لها سريراً عاد إلى البيت يحمله على كتفه ، وقد كلفه هذا السرير خمس عشرة ليرة ، أى نصف أجره الأسبوعى . مما اضطره إلى أن يعيش مع زوجته بقية ذلك الأسبوع على الكرنب . وكان يعمل الآن سكرتيراً لاتحاد فورلى الاشتراكى ، ويتقاضى مرتباً ضئيلا كان ينفق القسم الأكبر منه على الصحيفة الأسبوعية التى أسسها وهى « الصراع الطبقى » ، والتى كان يقوم بنفسه بتحرير معظم المواد التى تضمها صفحاتها الأربع . وكان قد بات الآن اشتراكياً مخلصاً . وكان يحتسى الخمر أحياناً مع أصدقائه ، ولكنه لم يعد يشرب حتى السكر ، وبات لا يقبل فتاة جميلة إلا نادراً ، إذ ظل وفياً لزوجته راشيل وكان قد انصرف الآن بحيويته كلها وبطموحه النامى المتزايد إلى السياسة ، وإلى العمل فى صحيفته التى غدت الآن أكثر تأثيراً من معظم الصحف الاشتراكية الأسبوعية الإيطالية من نوعها ، إذ دأبت صحيفة « أفانتى » اللسان الناطق باسم الاشتراكية على الاقتباس من كتاباتها . وكان لا يعود إلى منزله إلا قليلا ، إذ كثيراً

ما رآه الناس يذرع شوارع البلدة فى طريقه إلى اجتماع عام ، لا يرفع هامته عن الأرض ، وقد وضع يديه فى جيبي سرواله ، شاحب الوجه ، طويل الذقن ، مهلهل الثياب رثها ، يتحدث إلى نفسه . أما الساعات القليلة التى يقضيها فى المنزل ، فتنقضى فى العمل كتابة أو قراءه ، يترجم كروبوتكين ويعد خطبه . وكثيراً ما توقف فجأة عن العمل ، ليمسك قيثارته ، التى تعلم منذ صباه العزف عليها متتلمذاً على عازف متواضع . ولم يكن موسولينى بالموسيقى الكبير ، ولكن عزفه كان قوياً وعالياً ، وكان يريح أعصابه المجهدة . وهو يعزف بينما يجول فكره فى المواد التى يضمنها مقالاته وخطبه . وكان يمضى أحياناً إلى المسرح مع زوجته راشيل ، وأمها الغريبة التى تشبه الساحرات ، ولكنه كان حتى أثناء وجوده هناك ، ينتقل بفكره ، كما ذكر فيما بعد ، إلى خطبه ، فيصبح متلهفاً إلى العودة إلى منزله ، ليسجل الأفكار التى طافت بخاطره . وكان إذا ما تأخر العرض عن البدء فى موعده ، ينتزع حذاءه من قدمه ، ويهدد بقذف المسرح بها .

وكان قد غدا الآن من خيرة الخطباء ، قوىّ الصوت ، مؤثراً على سامعيه . وكانت حملاته فظة قاسية ، وحقائقه التى يوردها حافلة بالأخطاء ، وآراؤه كثيرة التناقض ومعظمها محفوظ عن ظهر قلب . وكانت مواقفه مسرحية ، ولكن لم يكن ثمة من ينكر عليه ما فى صوته من جاذبية طاغية ، وما فى إيماءاته من عنف واستفزاز وتكرار ، وما فى مواهبه من قدرة على استخدام التعبيرات المسرحية والإشارات الغامضة ، والاستعارات القوية رغم لا معقوليتها . وقد أنمى لديه قدرة عظيمة على إثارة العواطف عن طريق المجىء بسلسلة من الجمل المتقطعة ، التى يلقيها فى تدفقات حماسية ولكن فى نغمات صوتية متباينة يؤكدها بإيماءات مدروسة ومحسوبة ، لينسجم كل الانسجام مع الجو الحماسى الذى يحيط به . وكان قد أنمى فى نفسه أيضاً تلك القدرة التى باتت تمثل لديه فيما بعد عبقرية خطابية فى فرض المزاج الذى يريده على جماهير سامعيه ، ثم ينطلق مع سجيته ، فيخرج كلامه إليهم عن حدود الخطابة إلى حدود الحوار ، أو ما يشبه الدعاء غير المحفوظ ، يشترك فيه المستمعون بتلاوة ردودهم على أسئلته الملحة ، ثم ينثر ما يقولونه فى عبارة مبسطة يعيدها على مسامعهم ليتفجر انعكاسهم ، منطلقاً فى صورة تشجيع عاطفى

يؤكدون فيه وحدتهم وراءه . وكان قد أتقن أيضاً الإفادة من مجموعة من الهتافة الذين تنطلق هتافاتهم بالموافقة عند إشارة معينة أو إيماءة متفق عليها ، فتسرى عدواهم إلى الجماهير . وأدرك فوق ذلك كله ، الحاجة إلى جماعة من المعجبين المخلصين حوله ، يستطيعون أن يؤلفوا نواة أتباعه المستعدين للسير وراء زعيمهم

فقد تبين الآن فى نفسه صورة الزعيم فى مرحلة الانتقال والتحول ، وقد اعتمد الآن على أفكار تفتقر إلى حد كبير إلى الترابط ، وإلى الفهم ، التقطها من هنا وهناك . من نيتشه ، وشوبنهاور ، وبلانكى ، وهيجيل ، وسوريل ، واقترضها من البلاشفة الروس ، وبات يؤمن ، بالعقيدة التى قدر لها أن تسيطر على حياته كلها ، وهى وجوب الإطاحة بالنظام القائم على أيدى صفوة من الثوريين يعملون باسم الشعب ، ويتولى هو قيادتهم .

لكن العنيفين فقط من رفاقه الاشتراكيين كانوا على استعداد للسير معه ، وتبنى آرائه المتطرفة والعنيفة فى حملاته التى لا روية فيها ولا هوادة ، على توراتى وبيسولاتى وتريفيز وغيرهم من المعتدلين فى الحزب . وعلى أية فئة داخل الحزب أو خارجه تختلف معه فى الرأى . وكان فى الواقع رجلا بارزاً ، كما أكد أكثر الاشتراكيين التقليديين . ولكنهم رأوا فيه رجلا خطراً بل لا يقل فى خطورته عن لازارى . وكانوا يستمعون بكثير من الفزع إليه وهو يخطب مدافعاً عن العنف كسلاح صالح إذ يصفه « بالضرورة التى لا مناص منها أو التى تشبه الحديد فى صلابتها ، وإذ يتحدث عن الحاجة الملحة إلى استخدامه كأداة جراحية باترة » . وكانوا يقرأون بكثير من السخط المصحوب بالعصبية عن أساليبه فى فورلى ، وبصورة خاصة عن تلك الحادثة التى زحف فيها على قاعة البلدية ، يتبعه حشد ضخم من الناس ، مهدداً بقذف رئيس البلدية من النافذة ، إذا لم يعمل على تخفيض سعر الحليب .

وأظهر موسولينى مدى خطورته عندما قررت حكومة جيوفانى جيوليتى فى صيف عام ١٩١١ ، أن ترسل القوات الإيطالية إلى برقة وطرابلس محتجة بحماية ممتلكات الرعايا الإيطاليين ، وهادفة فى الواقع إلى نهش هاتين المستعمرتين من تركيا .

وقد اشتد غضبه عندما رأى المؤتمر الاشتراكي القومي الذي عقد في ميلان ، والذي شهده كمندوب عن فورلي يرفض بحث مناهضة النزعة العسكرية ، ورأى في المؤتمر جماعة من « المنافقين الاشتراكيين » ، على استعداد لتأييد عدوان الحكومة . وقد علق جيوليتي بشيء من الرضى على ذلك بقوله . . . « لقد استبعد ماركس إلى الطبقة العليا من المكان » . وأوضح موسوليني كل الإيضاح عدم استعداده بأي حال من الأحوال ، وذلك في المقالات التي نشرها في « الصراع الطبقي » وفي خطبه ، لتأييد الحرب . وراح يهتف بشيء من الغضب الثائر . . . « ما زالت العسكرية الدولية ، تحتفل بطقوسها في التخريب والموت . وفي كل يوم يمر ، يرتفع الهرم الذي يبنى من جثث ضحايا الحروب ، ليقف " مارس " إله الحرب على قمته ، ينتظر بنظرته الجهنمية وفمه الفاغر شفتيه ، لا يشبع ولا يرتوي ، المزيد من الضحايا . . . وما دامت هنالك أوطان ، فستظل العسكرية قائمة . . . وليس الوطن إلا شبحاً . . . فهو كالإله ، وهو يشبهه في قسوته وطغيانه ورغبته في الثأر . . . علينا أن نظهر أن الوطن غير موجود ، كما أن الله غير موجود » .

وقررت لجان الاتحاد العام للعمل ، الاحتجاج على هذه الحرب المفجعة ، وقر رأيها على الإضراب العام ، وأعدت احتجاجاً عنيف اللهجة . لكن هذه الخطوة لم تكن كافية لموسوليني . وراح يصرخ في عمال فورلي ، طالباً إليهم المجيء لحضور الاجتماعات السياسية لا بأذرع خالية تمتد إلى جوانبهم ، بل بأذرع تحمل السلاح ، وانضم إلى الجمهوري الشاب بيترو نيني [1] ، في دعوته الجماهير لا إلى الإضراب فحسب ، بل إلى الثورة أيضاً . ومضى يقود بنفسه زمرة من الرجال ، تمكنوا بعد يومين من الفتنة في فورلي ، من إشغال أنفسهم باقتلاع قضبان « الترام » في البلدة بفؤوسهم . . ولم تمض بضعة أسابيع حتى كان يظهر أمام المحكمة مدافعاً عن نفسه بخطاب عرض فيه عرضاً رائعاً قدرته على التلاعب بالألفاظ . ولكنه أصبح نزيل السجن للمرة الخامسة .

وأطلق سراحه بعد خمسة أشهر ، وعاد إلى منزله في شارع ميريندا وقد حزم أمره أكثر من أي يوم مضى ، على أن يغدو زعيم الاشتراكيين ، وأن يحولهم إلى حزب

---

(١) بيترو نيني ، الزعيم الحالي للحزب الاشتراكي في إيطاليا . « المعرب »

ثورى جمهورى . وراح يطلب إلى الاتحاد الاشتراكى فى فورلى ، بعد أن فشل فى السيطرة على المؤتمر القومى الاشتراكى فى ميلان ، إعلان انسحابه من الحزب ولكن بعد أن بدأ الرأى داخل الحزب يتجه إلى جانبه ، راح يصرّ على عودة اتحاد فورلى إلى حظيرته ، وأطاعه الاتحاد طاعة كاملة ، وعندما عقد المؤتمر التالى للحزب فى ريجيواميليا ، جاء إليه ، المبعوث النازى الحديث ممثلا لفورلى . ولم يكن الكثيرون من المندوبين قد سمعوا به من قبل ، بينما تذكره البعض منهم فى مؤتمر ميلان الأخير وهو يفتقر إلى الاتساق فى الفكر فى خطبه . وراح يشن حملة عنيفة على خصومه من أعضاء الكتلة البرلمانية للحزب تميزت بالاندفاع والبلاغة والحقد السام ، من أمثال ليونيدا بيسولاتى ، وإيفانو بونومى وأنجيولو كابرينى ، وهم من نواب الطبقة الوسطى الاشتراكيين الذين عرضوا أنفسهم كما قال « لاتهامات خطيرة من الحزب » ، عندما هنأوا بشكل مكشوف الملك على نجاته من المحاولة التى قام بها فوضوى من عمال البناء لاغتياله . وأضاف موسولينى أن من الواجب تطهير الحزب من أمثال هذه الحثالات . وعليه أن لا يعرف سبيلا إلى التفاهم مع المنظمات المناهضة للطلائع العمالية (البروليتارية) . وكان خطابه قوياً ، حقق له النصر ، وتأثر به حتى أنصار بيسولاتى وتوراتى . وكتب أحد هؤلاء وهو زوج مرجريتا سارفاتى إلى زوجته يتحدث عن ظهور « شاب رائع ، مقدر له أن يسيطر على الحزب » وراح يضيف أنه « بالرغم من قوامه النحيل ، يتميز بالقسوة والمزاج النارى ، والابتكار فى انطلاقات البلاغة » ، وأنه الرجل الذى ينتظره مستقبله العظيم [1] .

---

(١) وعرضت مندوبة أخرى اشتركت فى المؤتمر ، هى الفوضوية الروسية آنا كوليشوف ، التى سبق لها أن سجنت فى عام ١٨٩٨ مع فيليبو توراتى ، عند ما اشتركا فى الاجتماعات الثورية التى عقدت فى ميلان ، صورة مختلفة عن هذه الصورة للشاب النارى الحديث . . . فقد كتبت تقول : « إنه ليس من الماركسيين . بل إنه ليس من الاشتراكيين على الإطلاق ، ولا من الساسة أيضاً ، وإنما هو ذواقة عاطفى للشعر ، أكثر من قراءة نيتشه » . وظهرت صورة أخرى أقل حماسة له فى صحيفة « بعد الراحة » فوصفته بأنه يكثر من حركاته وتعبيراته بحيث يبدو كالصينيين . أما صحيفة « الكورسيرى ديلاسيرا » فقد تبنت رأى زوج مرجريتا وكتبت تقول : « خطب موسولينى بكثير من الصراحة والإخلاص فى الإثارة . وقد أحبه المؤتمر فى نحوله ومرارته ، وتفجره فى الحديث المخلص ، وأحس أنه يضم بين أعضائه شخصاً قادراً على التعبير عن مشاعره » . « المؤلف »

وفى ديسمبر عام ١٩١٢ ، أى بعد ستة أشهر من المؤتمر الاشتراكى ، اعترفت اللجنة التنفيذية للحزب ، التى سيطر عليها الجناح اليسارى الآن ، بالمواهب المذهلة ، للصحفى الشاب ، وأعلنت أنها « قررت بالإجماع تعيين الأستاذ (البروفيسور) ، بنيتو موسولينى من أهل فورلى ، رئيساً لتحرير صحيفة الحزب « "أفانتى" ». وعندما وصل موسولينى إلى مكتبه الجديد فى ميلان راح يقول لمحرريه . . . « قررت أن أتولى بنفسى كتابة كافة المقالات السياسية » . ولم يمض شهران ، حتى كانت مواهبه العظيمة كصحفى ، وابتكاراته الطباعية الجريئة ، قد ضاعفت توزيع الصحيفة . وارتفع رقم التوزيع عندما انتهى عمله كرئيس لتحريرها من ٢٨ ألفاً إلى نحو من مائة ألف .

وقد ذكر أحد المحررين الشبان فى الصحيفة . . . « لا أدرى ما أفعله بهذا الشاب الغريب موسولينى ، ولكننى أعرف أنه سيصل إلى منزلة ما . . . »

٢

الداعية إلى التدخل

من أكتوبر ١٩١٣ إلى ٢٤ مايو ١٩١٥

لا مكانة لمحايد

وطد موسولينى فى أكتوبر عام ١٩١٣ أقدامه كمرشح عن منطقة فورلى ، بين مرشحى الحزب الاشتراكى لعضوية البرلمان الإيطالى ، وشرع يلقى سلسلة من الخطب الانتخابية ، معلناً فيها استنكاره للنزعة العسكرية والقومية العسكرية والقومية والإمبريالية ، ومنى بهزيمة ساحقة فى المعركة . وبالرغم من انتخابه بعد فترة قصيرة عضواً فى مجلس مدينة ميلان ، إلا أنه عزا هزيمته وهزيمة المتطرفين أمثاله إلى « روح الشعب البورجوازية » ، التى لا تجد الشجاعة ولا الحيوية للنضال من أجل مطالبها ، والتى تحتاج إلى حادث من النوع الجائح لتوعيتها بقدرها ومصيرها . وفى ذات يوم ، وبعد قيادته للهجوم على خطوط الترام فى فورلى ، كان يلقى خطاباً فى نحو عشرة آلاف من العمال ، فى حديقة البلدية . وارتقى عدد من الصبية المنصة ، وراحت « قباقيبهم » الخشبية ، تقرع ألواحها ، محدثة صوتاً أشبه ما يكون بوقع حوافر الجياد . وتحولت الهتافات التى كانت تنادى بالثورة إلى صيحات فزعة تقول . . . « جاء الفرسان » . وسرعان ما انطلقت الجماهير هاربة من الحديقة . . . ونظر موسولينى إلى أحد رفاقه وهو يقول غاضباً . . . « إنه شعب من الجبناء . إنهم أضعف من أن يناضلوا » . وهكذا أحس بخيبة الأمل من جديد . وأعلن الإضراب العام فى مستهل عام ١٩١٤ ، فى كل من رومانا ومارش ، وسرعان ما أصبحت المنطقة كلها تفور بالاضطراب . وقامت مظاهرات معادية للكنيسة وللنزعة العسكرية ، كما أعلنت عدة جمهوريات عن قيامها بين عشية وضحاها . وأعلنت أنكونا نفسها كوميوناً مستقلا ، وارتفع العلم الأحمر على قاعة البلدية فى بولونا . واندفع موسولينى فى مدينة ميلان حيث ألف الاشتراكيون والسنديكاليون جبهة واحدة ولجنة عمل مشتركة ، مرة ثانية إلى الشوارع ، يأمر

العمال باحتلال الميادين العامة ، ولكنه رأى بنفسه عماله وهم ينهزمون أمام هجوم قام به الفرسان فى ميدان دوومو . وعندما قام رتل من القوميين يهدد باحتلال البناء الذى تقوم فيه مكاتبه ، لم تلق صيحاته « إلى السلاح » يا رفاق ، استجابة حماسية . وشجعته مرجريتا سارفاتى ، وكانت محررة الصفحة الفنية فى صحيفته آنذاك ، على المناداة بالمقاومة العنيفة ، واقترحت استخدام مقصات المحررين كخناجر ومدى ، ولكن المحررين الآخرين ، كانوا أقل إصراراً وتصميماً ، وبدا عليهم الارتياح عندما عدل القوميون عن مهاجمة الدار .

ولم تمض بضعة أسابيع حتى كانت النمسا تعلن الحرب على بلاد الصرب ، لتكون الشرارة الأولى فى الحرب العالمية . وانطلق صوت موسولينى يرعد من مكاتب « ألافانتى » بقوله « لتسقط الحرب » ، مكرراً نفس الشعارات التى استخدمها فى مهاجمة القوميين فى ترينت . . . وارتفع صوته يهتف . . . « ليسقط السلاح ولتحى الإنسانية » . وكان من الحتمى أن تنشب ثورة العمال فى إيطاليا، لو أن الحكومة الإيطالية ، اشتركت فى الحرب إلى جانب النمسا وألمانيا ، شريكتيها فى التحالف الثلاثى الناقص فعلياً . وكان التدخل إلى جانب فرنسا ، مفجعاً أيضاً . وحتم الواجب على الاشتراكيين فى الواقع ، أن يناضلوا ليضمنوا حفاظ إيطاليا على سياستها فى « الحياد الصارم » . وبعث يستفتى رفاقه الاشتراكيين يسألهم تأكيد موافقتهم على هذا الموقف الذى لا يلين ، وسرعان ما تلقى ردود أتباعه المعجبين به ، يؤيدونه كل التأييد . وعندما أعلنت الحكومة اعتزامها على الاحتفاظ بحياد إيطاليا ، وراح السنديكاليون يعلنون أن هذا القرار خاطئ ، وأن على البلاد أن تشترك فى الحرب ، هاجمهم موسولينى بعنف ووصفهم بأنهم خونة هدامون ، لقضية الطبقة العاملة .

ولكن آراء مغايرة كل المغايرة ، كانت تتولد الآن فى عقل موسولينى ، وراء هذه الحملات الصريحة على دعاة التدخل فى الحرب . فى اليوم الذى صرع فيه الأرشيدوق فى سيراجيفو[1] ، كان يقضى إجازة له ، فى كاتوليكا ، مع زميل

---

(١) مقتل أرشيدوق النمسا فى مدينة سيراجيفو فى صربيا ، وكان الحادث شرارة انفجار الحرب العالمية الأولى . « المعرب »

صحفى ، يدعى ميشيل كامبانا ، وعندما انطلقا فى طريق العودة إلى ميلان ، اعترف موسولينى لرفيقه بخيبة أمله المتزايدة من زملائه الاشتراكيين ، وراح يقول له . . . « أريد أن أقود الحزب بطريقة ذكية بارعة ، موجهاً إياه كما يجب أن يوجه عبر الأحداث العظيمة التى تنتظرنا » . لكنه كان فى شك من أن الحزب سيسير وراءه .

ومضى موسولينى يقول . . . « علينا أن نفهم هذه الحقيقة بمنتهى الوضوح . تهاجم دولتا الوسط إنجلترا وفرنسا عن طريق بلاد الصرب . ولا بد من أن يتحول القتال إلى حرب عامة . وستكون فرنسا أول ضحايا هذه الحرب ، إذا لم تبادر الدول المتمدنة إلى الاتحاد لإنقاذها ، وتعنى هزيمة فرنسا ، الضربة القاضية على الحرية فى أوربا . وعلى الحزب الاشتراكى أن لا يتجاهل احتمال التدخل إلى جانب فرنسا إذا ما جرّت إلى الحرب جرًّا . ولكن هل يفهم قادة الحزب هذه الحقائق ؟ »

وراح رفيقه كامبانا يذكره بالخطاب الذى ألقاه فى المؤتمر الاشتراكى الأخير فى ريجيو اميليا ، عندما تحدث بمنتهى العنف والقوة مهاجماً القومية وأولئك السنديكاليين (النقابيين) ، الذين أيدوا الحرب الليبية ضد تركيا . . .

ورد موسولينى بسرعة قائلا . . « الموقف يختلف » . كانت الحرب الليبية حرباً عدوانية . أما هذه فقد يكون فيها إنقاذ إيطاليا . وفى وسعها أن تحل مشكلة ترينتينو وتريستا ، وإنقاذهما من قبضة النمسا التى اعتبرها اليسارى سيزار روسى ، عدوة الحرية ، كما قد تقرب من يوم الثورة الاشتراكية . وبالإضافة إلى الإيمان بأن على الاشتراكيين أن يفيدوا من الحرب ، لإثارة الاضطراب والقلق ، وتحطيم النظام البورجوازى فى النهاية ، فقد كان ثمة إيمان آخر ، يدفع موسولينى إلى تغيير وجهات نظره . فقد رأى أن الناس بدأوا يستمعون إلى النقابيين (السنديكاليين) الذين يقودهم السيستى دى امبريزو ، والقوى العنيف فيليبو كوريدونى ، فى دعوتهما إلى الحرب ، ويقابلون آراءهما بالإجلال والعطف ، وانتابه الخوف من أن يؤدى ذلك إلى إضاعة السيطرة على ضمائر الاشتراكيين ، الذين كانوا يرددون القاعدة التى وضعها كارل ماركس ، والقائلة بأن الثورة الاجتماعية تتبع الحرب عادة ، وأن ليس ثمة من شك فى أن هذا الوضع قد ترك أثراً عميقاً فى عقل موسولينى .

وقد جاء ذكر هذه القاعدة التى أوردها كارل ماركس ، بكل تأكيد فى

حديث مهم جرى لموسولينى فى ميلان مع فيليبونالدى ، صاحب صحيفة « ريسبودى كارلينو » الصادرة فى بولونا ، والتى كانت تدعو فى الماضى إلى موقف محايد يميل إلى النمسا وألمانيا ثم تحولت إلى الدعوة إلى التدخل إلى جانب فرنسا . وقد أعاد موسولينى على مسامع نالدى ، ما كان قد سبق له أن ذكره لكامبانا ، من أن رفاقه الاشتراكيين لن يوافقوا على تأييد سياسة التدخل ، وأنه لا يستطيع والحالة هذه كرئيس لتحرير صحيفة « أفانتى » أن يؤيد هذا الاتجاه تأييداً فعلياً . وهنا اقترح عليه نالدى ، أن يستقيل من تلك الصحيفة ، وأن يصدر صحيفة خاصة به ، ووعده بتمويلها .

واستقال موسولينى فى السادس والعشرين من أكتوبر من رئاسة تحرير ألافانتى ، وظهر العدد الأول من صحيفة « البوبولو ديتاليا » فى الرابع عشر من نوفمبر . وحملت الصحيفة على صدر صفحتها الأولى وإلى جانب اسمها شعارين يمكن اعتبارهما ، بمثابة إعلان مولد الفاشية ، أولهما لبلانكى يقول « من يملك الحديد يملك الخبز » . والثانى لنابوليون يقول . . . « الثورة فكرة عثرت على حرابها » . وظهر على صفحتها الأولى مقال يحمل توقيع رئيس التحرير ، بنيتو موسولينى ، وعنوانه « الجرأة » » .

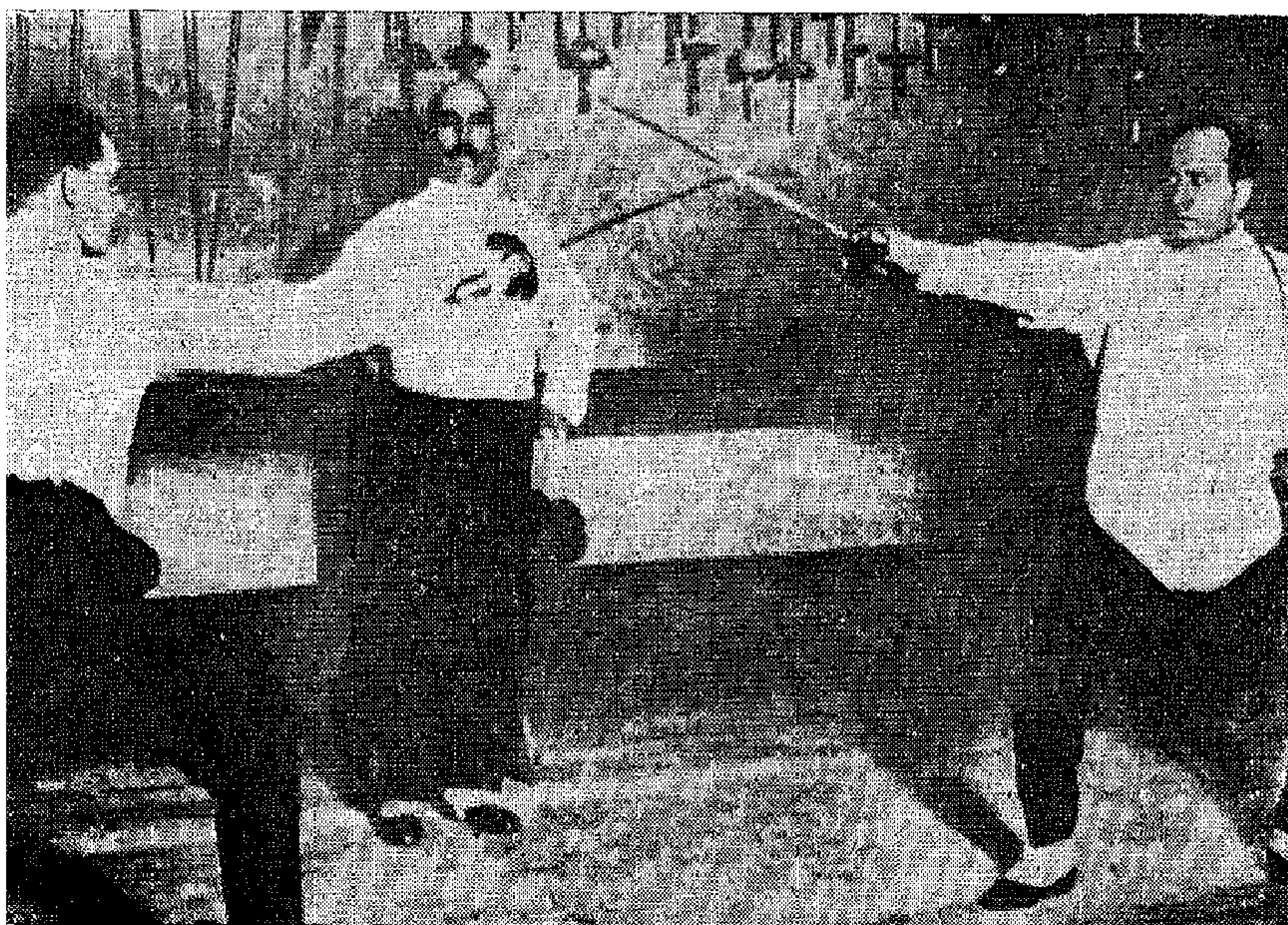
وجاء فى هذا المقال قوله . . . « أوجه كلمتى الأولى إليكم يا شباب إيطاليا ، ويا فتيانها فى مصانعكم وجامعاتكم . إليكم يا من تمثلون الفتوة فى أعماركم وأرواحكم ، ويا من تنتمون إلى جيل شاء القدر له أن يصنع التاريخ . . . إنها كلمة ما كنت لألجأ إلى النطق بها فى الأوضاع العادية ، ولكنى أجد نفسى مرغماً اليوم على النطق بها جهاراً وعلانية ، وبمنتهى الوضوح والإخلاص . إنها كلمة الحرب بما فيها من بعث للرعب ، وللاستهواء » .

وعندما عقد الحزب الاشتراكى فى ميلان اجتماعه بعد عشرة أيام ، اقترح بعضهم وسط هتافات « الخائن » والأجير ، وبائع الضمير « طرد موسولينى من الحزب» . وتقدم من المنصة وقد علا الشحوب وجهه ، وكل جارحة فيه ترتعد فرقاً ، ليرد على ناقديه . كان يرتدى نفس البدلة السوداء الرثة التى طالما ارتداها ، ولاحظ أحد المندوبين أن « بنطلونه » كان قصيراً إلى ما فوق رسغ قدمه . وبدا أنه لم يحلق



موسولينى يعزف على قيثارته فى دارة تورلونيا

موسولينى يتعلم المبارزة بالسلاح





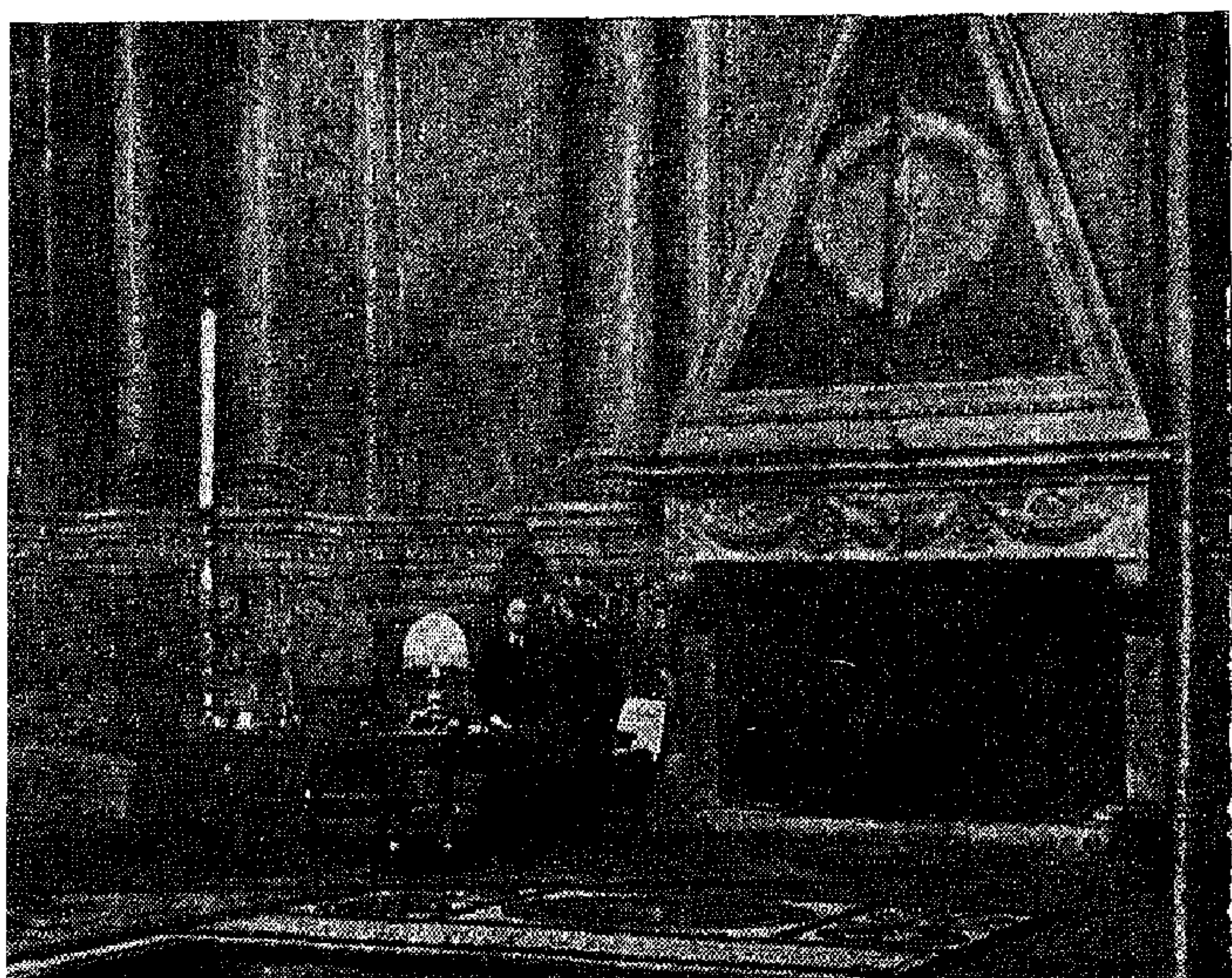
موسوليني في زيارة شاعر إيطاليا دانونزيو في جاردوني

موسوليني والوزير البريطاني اوستن تشمبرلن في فلورنسة

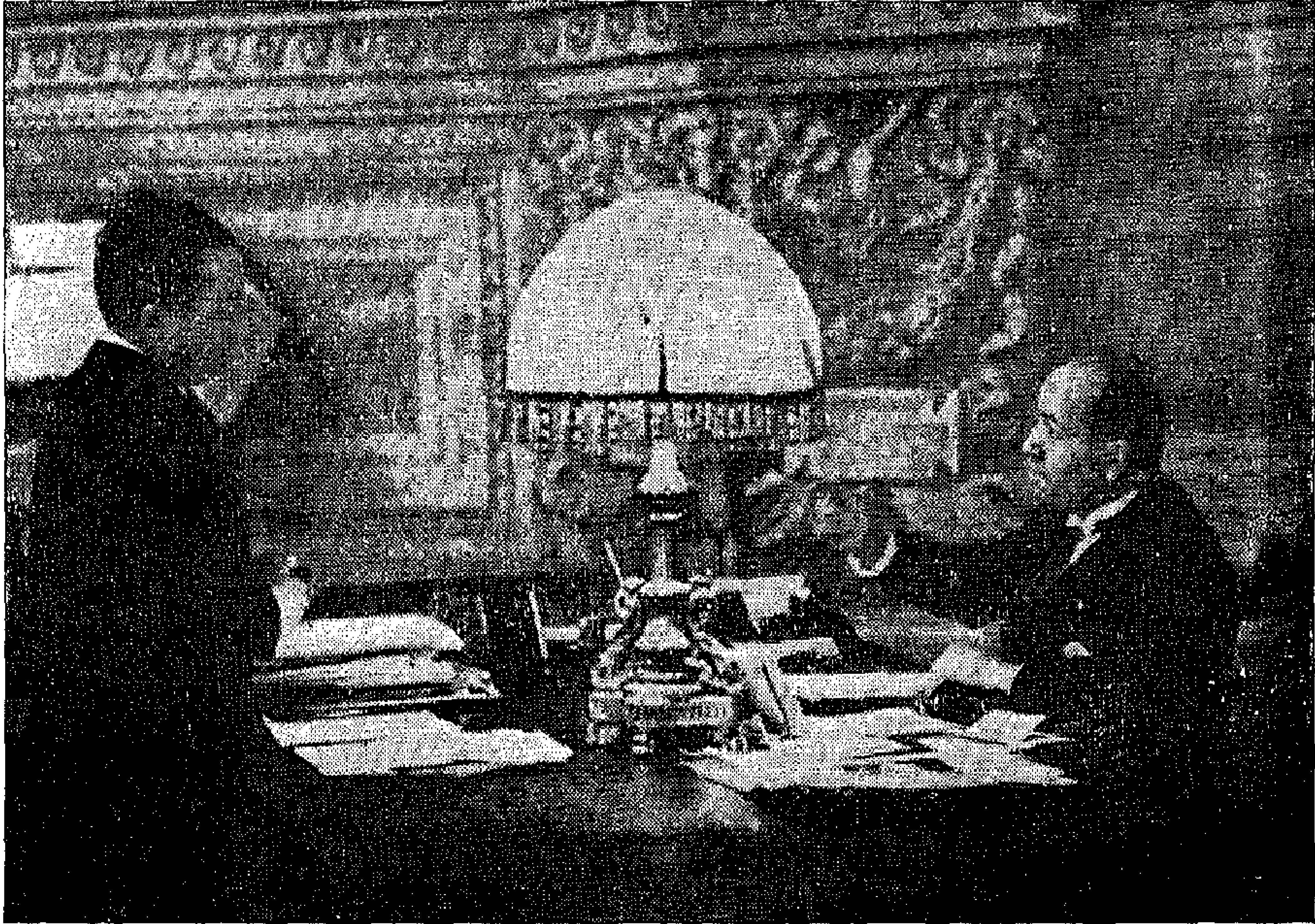




موسولينى يؤدى التحية
الفاشية فى عرض رومة



موسولينى يقف إلى جوار
مكتبه فى قصر البندقية



موسوليني يزود أحد الصحفيين الفاشيين بتعليماته

الاحتفال السنوي بذكرى الزحف على رومة
موسوليني مع بالبو ودى بونو ودى فيش



ذقنه لا فى ذلك اليوم ولا فى اليوم الذى سبقه . وارتقى المنصة ، وقد علا الهتاف ضده ، وارتفع صراخ الحاضرين . وشرع يتكلم ، ولكن أحداً لم يستطع سماع ما يقوله وانهالت على المنصة قطع النقود وكرات الورق وبعض المقاعد يقذفونه بها ، وهو يصرخ متجهاً إلى المندوبين الغاضبين ، فى حديثه ، لا ليدافع عن نفسه ، بل ليتهمهم بروح البورجوازية الصغيرة التى كان يراها أعظم إهانة يستطيع توجيهها .

وراح يصرخ فى وجوههم ... « أقول لكم إنكم تضيعون صراخكم فى الهواء ، وستجدون أنفسكم جميعاً مرغمين على دخول الحرب ... وليس فى وسعكم الخلاص منى . فأنا اشتراكى ، وسأظل اشتراكيًّا ... وإذا ما اقترعتم ضدى ، فإن اقتراعكم لن يعنى شيئاً على الإطلاق » . وكان يتفجر بهذه العبارات بصوت يقرب من الجنون ، وذكر بعض الذين شهدوا الاجتماع فيما بعد ، أن عينيه كانتا مغرورقتين بالدمع . وراح يقول بشىء من اليأس ، وهو يستخدم إحدى تلك الأحاجى التى تبدو معقدة فى ظاهرها ولكنها تعنى التأكيد الذى يجد ما يبرره ، والتى لم يمل قط من استعمالها فيما بعد ... « إنكم تكرهوننى ... أجل أنتم تكرهوننى لأنكم ما زلتم تحبوننى » .

ولكن أقواله هذه لم تجده فتيلا . فقد تقرر كما قال هو عن نفسه ، مصيره من قبل ، ولم يجد جدوى من محاولة إسماع صوته إلى أناس كانوا « قد حزموا » أمرهم على رفض كل ما يقوله . وراح يغادر مسرح الشعب ومعه نفر صغير من مؤيديه متجهاً إلى مكاتب صحيفته .

وكان غضب الاشتراكيين عنيفاً ، وحافلا بالحقد . فالأصدقاء القدامى ، والمعجبون به ، وجدوا آمالهم تنهار ، وتحولت خيبات أملهم إلى كره شديد . واضطر إلى أن يبارز أحد كبار المعجبين به السابقين ويدعى سيكرتى ، وكان هذا قد أشار إليه ذات يوم بأن « له دماغ إنسان جاء من صلب سقراط » . واعتبره البعض وبينهم أنجليكا بالابانوف ، أشد خائن خطراً على الاشتراكية . ولم يقتصر اتهامهم إياه على خيانة الاشتراكية ومثلها ، وإنما اتهموه أيضاً بقبول المال من فرنسا عن طريق المعهد الثقافى الفرنسى فى ميلان . ليسير فى هذا الطريق الذى سار

فيه [١] . ولكن لم يحل مطلع عام ١٩١٥ حتى كان يكسب بعمله هذا أنصاراً يفوقون فى عددهم أولئك الذين خسرهم . وقد اجتذب إلى جانبه معظم أولئك الذين وافقوه على رأيه ، فى أن وطن الإنسان يجب أن يحتل المكانة الأولى فى النهاية ، وأن الاشتراكيين الألمان بتأييدهم للقيصر قد عملوا على انهيار الحركة الاشتراكية الدولية ، وأن الحرية معرضة لأشد الأخطار . وانضم إلى تأييده نقابيوكوريدونى ، وفوضويو ليبيرو تانكريدى ، ويساريو سيزار باتيستى ، والاشتراكيون اليمينيون من أنصار بيسولاتى ، الذى كان موسولينى قد عمل على طرده من الحزب بعد الهجوم على طرابلس ، وتبنى العمال الوطنيون آراءه ، كما تبناها القوميون وألوف الشبان الذين عنت الحرب لهم مغامرة مسرحية ، وعدد من المثقفين والكتاب من أمثال جابرييل دانونزيو [٢] الذين آمنوا بأن الاشتراك فى الحرب سيساعد إيطاليا فى سيرها نحو تحقيق الوحدة الكاملة ، وضمان سيادتها الحقة فى البحر الإدرياتيكى ، ومنطقة نفوذها فى أوربا .

وشجع هذا النجاح المتزايد موسولينى ، كما شجعته استقالة جيوليتى من الحكم وتعيين الانتهازى أنطونيو سالاندرا فى رئاسة الوزراء ، إذ أن هذا الانتهازى ، جعل من التدخل فكرة أكثر تقبلا ، واحتمالا . ولذا بات موسولينى يزيد من إلحاحه وإصراره على الحرب ، بالغاً فى دعوته هذه حد الحماسة . واشترك فى مبارزة مع اشتراكى إصلاحى يدعى كلوديو تريفيز ، كان فى السابق محرراً لصحيفة « أفانتى » . وقد اعتقل بعد اجتماع عنيف لدعاة التدخل فى رومة ، واشتبك فى معركة مع ضباط الشرطة الذين فرقوا أحد اجتماعاته فى ميلان . وأخيراً أعلنت إيطاليا الحرب فى الرابع والعشرين من مايو عام ١٩١٥ ، إرضاء للملك ، واليساريين وأعضاء الحركة المستقبلية (حركة فنية فى إيطاليا) ، والماسونيين وموسولينى . لكن دعاة التدخل الذين رحبوا بإعلان الحرب بحماسة صاخبة لم يكونوا يمثلون البلاد فى مجموعها فى الواقع ، وقد سجل موسولينى فيما بعد والفرح يستبد به كيف أنهم

---

(١) بالرغم من أن المال الذى قدمه فيليبو نالدى ، لإصدار صحيفة البوبولو ديتاليا لا يبدو صادراً عن الفرنسيين ، إلا أن ثمة دلائل قوية تشير إلى أن موسولينى تلقى عند ما وقعت الصحيفة فى ضائقة مالية فى عام ١٩١٥ ، مساعدات من « الرفاق الفرنسيين لمساعدة حملة التدخل » . « المعرب »

(٢) جابرييل دانونزيو (١٨٦٤ — ١٩٣٨) — شاعر إيطاليا وقصصيها وكاتبها المسرحى . كان قائد حملة فيومى فى عام ١٩١٩ — ١٩٢٠ . « المعرب »

أظهروا بصورة مؤكدة ، أن فى وسع الأقلية القوية أن تفرض وجهات نظرها على الجماهير . وكان هذا درساً لم ينسه موسولينى .

وراح يكتب فى صحيفته « البوبولو ديتاليا » . . . « أصبحنا جميعاً منذ اليوم ، إيطاليين ولا شىء غير إيطاليين . أما وقد بات على الفولاذ أن يلقى الفولاذ، فإن صرخة واحدة تنطلق من قلوبنا جميعاً ، وهى " عاشت إيطاليا " » . . .

وكانت بذرة الفاشية قد زرعت فى أرضها . . .

٣

الفاشى فى دور التكوين

من أغسطس ١٩١٥ إلى ٢٨ أكتوبر ١٩٢٢

« أوثر من ناحيتى خمسين ألف بندقية على خمسة ملايين صوت »

١

كان موسولينى جنديًّا ممتازاً ، ولم يتطوع كغيره من أتباعه، منتظراً استدعاءه فى شهر أغسطس ليعمل مع الكتيبة الحادية عشرة للرماة ، وإنما رفض اقتراح قائده العقيد فى أن يعمل فى مقر قيادة الكتيبة فى إعداد يوميات الحرب ، وآثر أن يمضى فى غضون أسابيع إلى الجبهة ليقاتل فى صفوفها الأولى . وكان قد قضى منذ عودته من سويسرا فى عامى ١٩٠٥ و ١٩٠٦ ، تسعة عشر شهراً فى الخدمة العسكرية ، وأثبت أنه بالرغم من ثوريته المشهورة ، فإن فى وسعه أن يكون جنديًّا منضبطاً كل الانضباط . وكان قد أظهر آنذاك ، كما أظهر الآن ، لهفة على عرض قدرته على العمل الشاق والحماسة ، وسعياً إلى إرضاء هذه اللهفة . ولما كان قد حزم أمره على أن لا يبدى أى نقص فى عمله ، فقد دأب على أداء واجباته بجد وإخلاص ، دون إغراق فى اصطناع البطولة ، ولكن فى حماسة كانت كافية ، لأن يذكر اسمه فى التقارير الرسمية كجندى ، يتميز بسلوك نموذجى ، وبروح هى حقًّا روح جنود « الرماة » . وسرعان ما رقى إلى رتبة « عريف » . وقد تحدث فى الرسائل التى بعث بها إلى أسرته فى هذه الآونة عن الأخطار والمتاعب التى يتعرض لها جنود المشاة فى حياتهم فى الخنادق ، كما تحدث عن تعرضه للنيران المتصلة أسابيع كاملة ، وعن المرات العديدة التى تعرضت حياته فيها للخطر . وقد عاد إلى بيته فى إجازة من الخنادق التى كان يعمل فيها عند نهر إيسونزو ، وقد ظهر عليه التعب والتهدم ،

وقد استعاض عن الأزرار فى سترته بأسلاك تشد العرى إلى بعضها[1] .

وكان يشهد ذات يوم فى شهر فبراير عام ١٩١٧ ، عرض مدفع جديد من مدافع الهاون ، فوقع انفجار مرعب مخيف ، أدى إلى قتل خمسة رجال كانوا يقفون إلى جانبه ، إذ أصابتهم الشظايا المتطايرة من القنبلة ، كما طارت « ماسورة » المدفع فى الهواء . وقد سقط هو أيضاً فاقد الوعى ، على الأرض ، وحملوه إلى مركز الإسعاف حيث أخرجوا من جسمه أكثر من أربعين شظية من هذه الشظايا . وتعرض المستشفى الذى نقل إليه فيما بعد فى رونشى إلى قصف مدفعى عنيف ، وأصيب بأضرار خطيرة ، حتى اضطرت السلطات إلى إخلائه من المرضى ، ولكن موسولينى كان فى حالة سيئة لا تسمح بنقله .

وعندما تحسنت صحته بعد بضعة أسابيع ، وبات قادراً على العودة إلى ميلان ، مضت مرجريتا سارفاتى لزيارته . وقد كتبت عن هذه الزيارة تقول . . . « لن أنسى أبداً كيف ذهبت لزيارته . كان متعباً إلى الحد الذى بات عاجزاً فيه عن الكلام . وانفرجت شفتاه عن ابتسامة ظهرت على وجهه الشاحب ، بينما كانت عيناه غائرتين . ولم ينبس ببنت شفة ، وفى وسع المرء أن يرى مدى ما عاناه من ألم . وسأله أحدهم ، عما إذا كان يود أن يجد كتاباً يقرؤه ، فرفض وقال مشيراً إلى ديوان شعر لكاردوس . . . " أنا لا أقرأ إلا هذا لأننى أعرفه . فلا أستطيع قراءة شىء جديد " » .

ولم يكن موسولينى ذلك الرجل الذى يسمح لهذه الفرصة كجندى جريح ، بأن تمر دون أن يفيد منها . وكتب يقول بعد أن أبل من جراحه وبات قادراً على الإمساك بالقلم بشىء من التمثيل المسرحى الذى تميز به ... « إنى لأفخر بأننى

---

(١) تقول إنجليكا بالابانوف ، وهى كاتبة متحيزة ضده ، إن موسولينى لم يكن مجرد إنسان وقح فحسب ، بل كان جباناً سوداوى المزاج ومصاباً بالهستيريا . لكن معاصريها لم يؤيدوا هذا الحكم ، حتى ولو كانوا من أولئك الكتاب من أعداء الفاشية من أمثالها ، الذين عرفوه ، فى تلك الأيام ، وكان لهم كل ما يبرر مهاجمتهم له كخائن لمبادئهم ومثلهم . وقد تحدث رجل التقيت به فى ميلان فى عام ١٩٤٥ . وكان كما يدعى عريفاً مع موسولينى فى كتيبة الرماة ، فقال إنه « كان دائم التظاهر ، يكثر من الحديث ، ولكنه على أى حال ، شاب ممتاز . وكنا نحبه جميعاً . ولم يكن قد تعرض كثيراً للنار ، ولكنه عند ما كان يتعرض لها ، كان يسلك سلوكاً طيباً » . « المؤلف »

صبغت الطريق إلى تريستا بدمى وأنا أؤدى واجبى الخطر كل الخطورة » . وكتب أيضاً فى تاريخ حياته ، بشىء من الجهد المسرحى يقول . . . « كنت أواجه ألماً لا يحتمل . أجل ، كان ألماً لا يوصف . وقد مررت بجميع العمليات الجراحية التى تعرضت لها دون أى مخدّر . وقد أجريت لى سبع وعشرون عملية فى شهر واحد ، وكانت جميعها باستثناء اثنتين منها بلا مخدر » .

وكان يدرك قيمة جراح الجندى فى مثل هذا الوقت ، ولذا عاد إلى مكتبه فى صحيفة « البوبولو ديتاليا » ، متكئاً على عكازتيه اللتين ظل يستعملها مدة طويلة بعد انقضاء الحاجة إليهما . وأحس كجندى خاض الحرب ، بالقدرة على مهاجمة الاشتراكيين ، والكهنة السلاميين والحياديين الذين اعتبرهم مسئولين عن كارثة كابوريتو ، وانطلق فى هجومه ، متحصناً بصفته الجديدة ، وبصورة ما كان ليستطيعها لو ظل مجرد صحفى مدنى . وكواحد من أولئك الذين أخذ يشير إليهم « بالناجين » من الحرب ، راح يلح على إشراك الجنود العائدين فى حكم إيطاليا الجديدة ، بحكومة يجب أن تتصف بالقوة وعدم التساهل . وأخذ فى مستهل شهر فبراير من عام ١٩١٨ ينادى بظهور الديكتاتور الذى « يتميز بالقسوة والحيوية لتطهير البلاد تطهيراً شاملا » . وراح يومئ فى خطاب ذاع صيته ، ألقاه فى مدينة بولونا بعد ثلاثة أشهر بأنه قد يكون هذا الرجل .

وكان يوجه هذه التطلعات بصورة خاصة إلى أولئك الذين اشتركوا فى الحرب ، وكان يجد فى صفوفهم العون الحماسى الذى يأمل فيه . وتبنى الذين حاربوا فى جبهة كارسو ، جميع المطالب التى صدرت عن موسولينى بضم فيومى وساحل دلماسيا إلى إيطاليا بالإضافة إلى منطقتى ترينتينو وفينيسيا جيوليا اللتين أقرت معاهدة سان جرمين ضمهما إلى إيطاليا . ولقيت حملاته على الثورة الروسية وعلى جماعية لينين استجابة ضخمة لدى جميع أولئك الذين ربطوا بين ثورة أكتوبر والبلاشفة وبين الحزب الاشتراكى الإيطالى المعرض للاتّهام . ولم يعد يعتبر نفسه اشتراكيًّا حتى فى الاسم . وكان يقول إن الحزب لم يكتف بمعارضة الحرب فحسب ، وإنما عارض النصر أيضاً ، وكان على استعداد للتخلى عن ثماره ، وأضاف أن هذا الحزب بدفاعه عن مبادئ البلشفية الدولية قد فقد الحق حتى فى اعتبار نفسه المدافع

عن الطبقة العاملة الإيطالية . ولما كان يدرك أن آراءه لن تنجح إلا إذا تمكن من إضعاف الروابط التى كانت تربط بصورة تقليدية بين العمال وبين الحزب الاشتراكى ، فقد حرص على أن يظهر فى مقالاته وخطبه على أنه ما زال صديقهم والمدافع عنهم . وكان يؤكد لهم ، أنه ما فتئ بالرغم من أنه لم يعد من الاشتراكيين ، غير متهاون فى عدائه للبورجوازية والرأسمالية .

ولكن بالرغم من أنه لم تبق الآن ثمة شكوك فيما يقف موسولينى ضده من آراء ، فإن الشك كان لا يزال كبيراً حتى فى ذلك الحين أى فى عام ١٩١٩ ، فى حقيقة ما يدافع عنه . وعندما التقى فى الثالث والعشرين من مارس ، وبدعوة منه عدد من الناس فى إحدى غرف مكاتب اتحاد التجار وأصحاب الحوانيت فى ميدان سان سيبولكرد فى ميلان ، ليؤلفوا قوة جديدة فى السياسات القومية ، كان الشك لا يزال يلف بحقيقة السياسة التى ينادى بها . وكان مؤيدوه خليطاً عجيباً من الاشتراكيين الساخطين والنقابيين والجمهوريين والفوضويين والثوريين اللامصنفين ، والجنود القلقين الذين كان الكثيرون منهم قد عملوا فى وحدات الفدائيين المقدامة فى الجيش الإيطالى ، بالإضافة إلى عدد من المطلوبين لرجال الشرطة[1] . وقد شكلوا ما أسماه موسولينى بالمجموعة المناضلة ، التى تربط أفرادها عرى وثيقة كتلك التى كانت تجمع بين قضبان الجلادين فى عهد الرومان كرمز للسلطة الرومانية. وكان الاسم الإيطالى الذى أطلقوه على أنفسهم اسم « فاشيو ميلان » وباستثناء البيانات الصريحة المؤيدة للمشاعر القومية ، التى كانت تصدر عنهم لم يكن فى وسع هؤلاء أن يقدموا شيئاً إلى الرأى العام غير المتأثر بهم ، والكثير التشكك بكل ما يسمعه ، بحيث يصدق هذا البرنامج السياسى الذى وضعوه واحتمال تطبيقه ، وهو البرنامج الذى ينطوى على فرض ضريبة تصل حدود (٨٠) فى المائة على أرباح الحرب ، وجزية على رؤوس الأموال ، ومصادرة أملاك الكنيسة ،

(١) لم يعرف عدد الرجال الذين شهدوا هذا الاجتماع ، ولكنهم كانوا على أى حال أقل من مائتين . لكن موسولينى الذى أراد أن يؤكد أهمية الأقلية المخلصة المؤمنة ، ذكر بأن عدد الذين وقعوا على البرنامج كان خمسة وأربعين رجلا . ولكن ظهر بعد انتصار الفاشية فى إيطاليا ، أن هناك مئات من الرجال أطلقوا على أنفسهم اسم « سانسيبو كلريستى » نسبة إلى المكان الذى دار فيه الاجتماع الذى كانوا قد حضروه . وقد اعتبروا أيضاً الصفوة الفاشية . « المؤلف »

وضم دالماسيا ، وإلغاء البورصة ، وتسليم الإدارات الصناعية إلى العمال . ولم يزد عدد مؤيدى الحركة الجديدة كثيراً طيلة عام ١٩١٩ . ولكن سرعان ما انضم إليها عدد آخر من الجنود المسرحين ومن الاشتراكيين الخائبين فى آمالهم والنقابيين الشبان الساخطين والملكيين المحافظين ، ومن ضباط الجيش السابقين من أمثال سيزار ماريا دى فيشى والجنرال إميليو دى بونو . ولكن هذا الخليط الهجين فى طبيعة الحركة ، والتناقضات الموجودة بين موسولينى الذى كان لا يزال يعتبر نفسه كما ذكر المستر دنيس ماك سميث « لينين إيطاليا » ، وبين العناصر المحافظة التى اعتبرت آراءه فى احتلال المصانع أكثر بلشفية من البلشفة نفسها ، كان السبب فى خرابها . ولم ينل الفاشيون عندما قدموا بعضهم كمرشحين لانتخابات مجلس النواب فى أكتوبر عام ١٩١٩ ، أكثر من أربعة آلاف صوت ، ونال خصومهم الاشتراكيون أكثر من أربعين ضعفـًا لهذا الرقم ، كما انتخب مائة من الديمقراطيين المسيحيين نواباً فى المجلس . وأعلنت « ألافانتى » بشىء من الزهو ، أن موسولينى غدا جثة سياسية ، وإن جثمانه يطوف شوارع ميلان ، تحيط به الشموع ، وترافقه جموع المتظاهرين ينشدون الألحان الجنائزية ، ليحرقوا الجثمان بعد ذلك فى ميدان دوومو . واقتحمت الشرطة بعد بضعة أيام من هزيمته الانتخابية الساحقة مكاتب صحيفته . فقد انزعج فرانسيسكو نيتى رئيس وزراء إيطاليا من تأييد موسولينى الصريح للعمل المسرحى والنارى الذى قام به الشاعر دانونزيو باحتلاله فيومى باسم إيطاليا ، وأمر باعتقال موسولينى بتهمة التآمر المسلح على الدولة . وبدا أن ثمة كل ما يبرر هذه التهمة . فقد كانت مكاتب البوبولو ديتاليا الحقيرة أشبه ما تكون بالترسانة[١] . وعثر الشرطة فى الخزائن والأدراج على عدد كبير من القنابل والمتفجرات ، وعثر رجال الشرطة على سبع قنابل فى موقد غرفة موسولينى . ووراء مرآة الجدار وفى أدراج مكتبه ، كما عثر على مسدسه ، وخنجره فوق مكتبه ، وخلف علم مطرز بالحرير لوحدات الفدائيين . ولكن السلطات ما لبثت أن أطلقت

---

(١) لم يستطع موسولينى قط أن يتغلب على رغبته المنيفة فى حيازة الأسلحة . وقد ظل يعرض بعد وصوله إلى الحكم بأمد طويل ، وعلى منضدة فى الغرفة الخارجية لمكتبه فى قصر البندقية صندوقاً يضم عدداً من المسدسات و بعض الرماح . « المؤلف »

سراح موسوليني بالرغم من جميع هذه المظاهر التي تدل على العنف ، فقد قيل لرئيس الوزراء نيتي إن الفاشية ما زالت حركة وليدة ، وأن ليس ثمة ما يدعو إلى أن يخلق شهيداً من قائدها الذي لا يعدو أن يكون « حطام إنسان مهزوم » .

ولكن لم يحل مطلع يونيو المقبل ، حتى كان هذا الوصف أكثر انطباقاً على « نيتي » نفسه منه على موسوليني . وأدى فشله في مواجهة تحدى الإضرابات والفتن الثورية ، وفي حل مشاكل البحر الإدرياتي ، وضعفه في مقاومة مطالب الاشتراكيين والشيوعيين ، إلى الإسهام كثيراً في تزايد نفوذ الفاشية وقوتها . واستقال نيتي للمرة الثالثة في غضون ثلاثة أشهر في السادس من يونيو عام ١٩٢٠ ، ليخلفه في الحكم جيوفاني جيوليتي . ولكن هذا بالرغم من مهاراته وحساباته ، لم يكن أكثر قدرة من نيتي نفسه في مواجهة ما اعتبر تزايداً في الخطر البلشفي على أمن الدولة وسلامتها ، ولم تؤد محاولاته لإرضاء اليمين واليسار في وقت واحد إلى إرضاء أحد ، وعندما سمح للاشتراكيين في شهر سبتمبر بتسلم منظمة احتلال العمال للمصانع ، بالرغم من إظهاره ضعف العمال المضربين ، وافتقارهم إلى الفاعلية ، خسر تأييد الطبقة الوسطى التي رأت في رفضه التدخل ، تساهلا مستمراً مع الفوضى وخرق القوانين . واتضحت الحقيقة ، وهي أن الوضع القومي في البلاد لم يعد سهلا بحيث تستطيع السيطرة عليه حكومة لا تقدر على الاعتماد على غالبية من العمال في برلمان لم تعد له قيمته . وتزايد التضخم من جراء المعونات المالية الحكومية التي عجزت على أي حال عن التخفيف من آلام بلد فقير فقراً شديداً ، بات مديناً بمليارات الليرات عندما توقف حلفاؤه فجأة عن تزويده بالمساعدات الاقتصادية . وساءت حالة البطالة في الوقت نفسه كل السوء من جراء تسريح الألوف من الجنود ، بينما ارتفعت نسبة الجريمة من جراء وجود ما لا يقل عن مائة وخمسين ألفاً من الجنود الهاربين من الجندية منذ الحرب ، والذين ألفوا منذ ذلك الحين العيش بطرقهم الخاصة .

وسرعان ما أدرك موسوليني وفاشيوه مدى الفرصة الضخمة المتاحة لهم ، والتي قدر لها أن تغدو مصدر اعتزاز الفاشية بأنها قد حققت سلطانها بعد نضال مرير مع الشيوعية ، منكرة بذلك الحقيقة الواقعة وهي أن الفاشية قد استمدت قوتها من ضعف الاشتراكيين . وقد تقبل موسوليني بعد انتخابات عام ١٩١٩ ، هزيمته

الانتخابية كدليل على عجز الفاشية عن كسب تأييد الطبقة العاملة وانتزاعها من قبضة الاشتراكيين التقليدية ، وراح يعمل بمنتهى اللاانهزامية على التخلى عن آرائه اللينينية ، وتبنى لغة ومواقف أصبحت منذ ذلك الحين أساسية فى الكيف الفاشى .

وعندما انتشرت الإضرابات والفتن احتجاجاً على ارتفاع مستوى الحياة ، وازدادت كمًّا وكيفاً، وتعرضت القطارات والثكنات والمصارف والأبنية العامة للهجوم فى أرجاء إيطاليا طولا وعرضاً ، وتحولت مناطق بأسرها إلى أيدى الشيوعيين ، حيث قامت مجالس « سوفييتيات» محلية ، وعجز الاشتراكيون ذوو القيادة السيئة والديمقراطيون المسيحيون عن الوصول إلى سياسة مشتركة تضمن وجود البديل عن الشيوعية ، راح الفاشيون يتقدمون إلى الأمام كمنقذى البلاد ، والقوة الوحيدة التى تستطيع كبح جماح الشيوعية ومنعها من الانتشار . وانتشرت فصائل من الفاشيين مسلحة بالمدى والهراوات والمسدسات والبنادق التى حملوها معهم من الحرب ، تحت ستار القول بأن العنف لا يقابل إلا بالعنف ، تهاجم الشيوعيين وأنصارهم ، بشىء من العنف والتنظيم ما لبثا أن خلقا شيئاً يكاد يشبه الحرب الأهلية . وتبين فيما بعد أن نحواً من ثلاثمائة فاشى وأكثر من ثلاثة آلاف من خصومهم قد قتلوا فى هذه الفترة الواقعة بين أكتوبر عام ١٩٢٠ وتاريخ الزحف على روما . وبالرغم من أن الإحصاءات الفاشية تعكس هذه الأرقام ، إلا أن مجموعها صحيح على الغالب .

وكان الفاشيون وهم يرتدون القمصان السوداء التى جعل منها عمال رومانا وإميليا شعارهم ، والزى الموحد للفوضويين ، ويحملون أعلام الفدائيين ، يمضون فصائل وجماعات ، ينشدون الأناشيد الوطنية ، ويرفعون الشعارات القومية إلى مهاجمة أعدائهم ، وقد تألفت هذه الفصائل فى مجموعها من الرجال الذين اشتركوا فى الحرب الماضية ومن الشبان الذين كانوا يتوقون إلى أن يقوى عودهم ليحاربوا ، ومن المخضرمين الذين كانوا يلتهبون بالحماسة الوطنية ، مما دفعهم إلى الاشتراك كمتطوعين جاءوا من جميع أرجاء إيطاليا فى حملة دانونزيو على فيومى متحدياً حكومات أوربا كلهـــا ، ومن المغامرين المجرمين الذين كان دانونزيو قد

استهواهم أيضاً . وكانت تلقى التأييد أيضاً والإعجاب من ألوف الإيطاليين الذين كانوا على استعداد للتسامح معهم فى أساليبهم ، اعتقاداً منهم ، بأن إرهاب خصومهم ، ودفعهم إلى تحية العلم الفاشى كما عمل إيتالوبالبو فى فيرارا ، وقتلهم أو تلطيخهم بالزيت ، هو السبيل الوحيد لوقف وباء البلشفية الدولية عن الانتشار وإزالته . وكانوا يرون أن الاشتراكيين الذين كان الكثيرون منهم لا يتميزون عن الشيوعيين يلجأون إلى أعمال الإرهاب والقتل ، وأن الرحمة مع الذين لا يرحمون ، سخافة ما بعدها سخف . وهكذا كان الفاشيون مثلا ، هم الذين وجهوا المظاهرات فى بولونا فى نوفمبر عام ١٩٢٠ ، عندما تفجرت الاضطرابات فيها ، ضد مجلسها البلدى الذى يسيطر عليه الشيوعيون ، وهم الذين نظموا المقاومة ، واهتبلوا الفرص للظهور إلى جانب الحرية ضد الطغيان . وليس ثمة من شك فى أن تخاذل الحكومة قد أعانهم فى بولونا كما أعانهم فى غيرها من المدن ، إذ لم يقم جيوليتى ، باستدعاء الجيش أو الشرطة أو الدرك ، للعمل ضدهم وقتالهم ، كما لم تفعل ذلك أيضاً الحكومات الليبرالية التى أعقبت حكومته . وهكذا سمح لسرطان الفاشية بالانتشار . وتحولت بعض النقابات العمالية وقد خاب أملها فى تدخل الشيوعيين بعد أن خبرت نكثهم لوعودهم إلى الفاشية ، وسيطر الفاشيون على عدد منها وعلى بعض مجالس المدن التى احتلوها . ورأى الكثيرون من الليبراليين والكاثوليك ، وغالبية الصحف ذات النفوذ الكبير فى البلاد ، أنه بالرغم من هذا السوء فى مظهر الفاشيين ، وميلهم إلى العنف الذى يكرهه جميع أعدائه ، فإنهم أكثر فاعلية ولا شك من نيتى أو جيوليتى أو أنصارهما فى إنقاذ البلاد من الفوضى .

وكان هناك وراء هذه الغوغائية ، ووراء هذه الوحشية الوضيعة ، وهذا الإخلاص المتعالى ، والسخيف للفضائل العسكرية التى لا يحبها هؤلاء الليبراليون ، خيط من الحماسة الوطنية والمثالية . وكان هناك أيضاً أولئك الذين يؤيدون الفاشية لأسباب ذاتية خاصة ، كالصناعيين ، ومستغلى الحروب ، الذين رأوا مصانعهم ورؤوس أموالهم مهددة ، والذين مالوا إلى استخدام الفاشية ضد الاشتراكية لسحقها ، وبينهم رئيس الوزراء جيوليتى ، وكذلك أصحاب الأراضى الذين تطلعوا إلى الوحدات الفاشية لحماية ممتلكاتهم ، والفلاحين الذين تطلعوا إلى استخلاص

الأرض من مزارعيها الاشتراكيين ، والجنود الساخطين المتلهفين إلى انتزاع حقوقهم من أولئك الذين تخلفوا عن الاشتراك فى الحرب ، والتمتع بثمار الثورة الاشتراكية التى جاءت بها الحرب ، وذلك بالإضافة إلى الانتهازيين الذين رأوا المستقبل باسماً لهم فى دولة فاشية ، يحصلون فى عهدها على المال والسلطان اللذين يعجزون الآن عن الحصول عليهما . ولكن الحركة شملت أيضاً عدداً من المثاليين الواهمين . فقد أيدها مثلا بوشينى ، كما رشح توسكاسنينى نفسه على مبادئها فى انتخابات عام ١٩١٩ . وخيل إلى بنديتو جروشى ، أن وصول الفاشية إلى الحكم ، سيكون خيراً من الفوضى الراهنة ، واعتقد كما اعتقد جيوليتى ، أن فى الإمكان تحويل الحزب إلى الدستورية . وأيدته أيضاً جماعات من الكاثوليك ، لأنهم رأوا فى الفاشية ، الوسيلة الوحيدة القوية للدفاع عن الدين ضد إلحاد الشيوعية . وهكذا لم تحل نهاية عام ١٩٢٠ ، حتى كانت الفاشية معتمدة على المصادر السيئة والطيبة ، قد حققت لنفسها ، بنياناً كبيراً من التأييد السياسى . وعندما جرت انتخابات مايو عام ١٩٢١ ، التى تحالف فيها الفاشيون مع جيوليتى ضد الاشتراكيين ، مما أثار حفيظة الليبراليين على رئيس الوزراء العجوز ، وأخذوها خطيئة عليه لم ينسوها قط ، فاز الفاشيون بخمسة وثلاثين مقعداً فى مجلس النواب الجديد ، وكان موسولينى أحد النواب الجدد . وتبين الآن الفرص الواسعة المتاحة له ، وشرع فى هذه الفوضى والاضطراب فى الحياة السياسية الإيطالية يجمع حوله تماماً كما فعل لينين والبلاشفة ، عدداً من الثوريين المتحمسين ، المستعدين لاغتصاب الحكم باسم العمال ، سواء وجدوا تأييداً من العمال أم لم يجدوه . وقرر أن يتولى هو قيادهم . وكان قد شهد الاشتراكيين وهم يفقدون نفوذهم قبل اشتراك إيطاليا فى الحرب ، وتخلى عن الحزب الذى أدرك عجزه عن قيادته إلى الحكم والسلطان . ولكنه آمن أن فى استطاعته قيادة الفاشية إلى الحكم ، وهو الأمر الذى استهواه ، وظل يستهويه ويثير حماسته حتى النهاية . وقد اعترف بعد سنوات طويلة ، دون إحساس بالعار أو الخجل ، يقول . . . «أجد نفسى واقعاً تحت سيطرة هذه الرغبة الملحة الساعرة ، التى تحرق وجودى كله . فأنا أريد أن أترك أثراً فى الحقبة التى نعيشها بإرادتى ، تماماً كما يفعل الأسد بمخالبه . أريد أن أترك أثراً كهذا ! » ثم راح بمنتهى الوحشية ،

يخدش بأظافره الغطاء القماشي لمقعد يجلس عليه من أوله إلى آخره . واعترف بأنه ما كان ليتورع عن عمل أى شىء لتحقيق مطامعه . فالغاية عنده تبرر الواسطة دائماً . ولم تكن سياسة تأليف الفصائل الفاشية مثلا إلا الجهد المدروس المتعمد لإثارة القلق وتحريك مشاعر الخيبة . وقد تمكن عن طريق هذه الفصائل ، وبظهورها بمظهر الجماعات الوطنية المعادية للبلشفة ، من خلق وضع فوضوى يساعد الناس على تقبل الحكم السلطوى الذى رمت الفاشية إلى فرضه عليهم ، وتوسيعه .

وهكذا بات موسولينى رئيس تحرير الصحيفة الميلانية ، بعد انتخابات مايو عام ١٩٢١ ، وبعد أقل من سنتين من هزيمته كثورى مهان لا أصدقاء له ، شخصية قومية ، والزعيم الشاب الذى لم يتجاوز السابعة والثلاثين لحزب سياسى ، يتسع نفوذاً ويزداد عدداً شهراً بعد شهر . وكانت قيادته التى تمكن من الحفاظ عليها ، الثمرة الواضحة لمواهبه السياسية ، إذ أن الفاشيين بالرغم من أساليبهم العسكرية ، ومن عقيدتهم الوحدوية التى ينادون بها ، كانوا لا يزالون فى الواقع جماعة مفسخة أشد التفسخ . وكثيراً ما اضطر موسولينى إلى تعديل إعلان سابق له ، وتغيير موقف كان قد صرح بأنه لا يقبل التبدل ، ومناقضة نفسه فى جهوده للسيطرة على هذه الفصائل الفاشية المتهورة المجنونة ، مع ظهوره فى الخطب التى يلقيها ، وفى مقالاته التى يكتبها بمظهر الثورى الرومانى ، المتقد حماسة . وهكذا نراه ؛ رغبة منه فى توسيع قاعدة التأييد الفاشى ، يشير مثلا ، إلى الدور العظيم الذى لعبته أسرة سافوى المالكة ، والذى تستطيع أن تلعبه فى تاريخ البلاد ، بالرغم من أنه كان يكثر من قبل الحديث عن « الميول الجمهورية للفاشية » . ورغبة منه أيضاً فى الحصول على تأييد جيوليتى فى إدخال المرشحين الفاشيين فى قوائمه الانتخابية ، كان على استعداد لتأييد معاهدة رابالو التى أقرت تنازل إيطاليا عن مطالبها فى الساحل الدلماسى . ورغبة منه كذلك فى ضمان تأييد الصناعيين وأصحاب المعامل ، الذين ألف الآن الاعتماد على عونهم المالى ، راح يعلن فى إحدى خطبه النادرة فى مجلس النواب ، بأنه يجب العدول عن أية محاولات أخرى لاحتلال المصانع » ، وهى محاولات كان قد أيدها قبل زهاء ثمانية عشر شهراً . ومع هذا كله ، فقد مضى فى شهر أغسطس من عام ١٩٢١ ، بعيداً فى الاتجاه المعاكس ، ووقع مع

الاشتراكيين اتفاق هدنة وسلام معلناً أن من « المضحك حقاً التحدث عن الطبقة العاملة ، وكأنهـا تسير مسرعة في طريق البلشفية » ، وإنه على استعداد كلى للدفاع عن هذا الاتفاق بكل قواه . وراح يضيف قائلا . . . « ولو تقاعست الفاشية عن السير ورائى في التعاون مع الاشتراكيين ، فلن يكون ثمة من يرغمني على السير وراء الفاشية » . ولكن لم تمض ثلاثة أشهر ، حتى اتضح أن الفاشية ليست على استعداد للسير وراءه في هذا الموضوع ، وأن الاتحادات الفاشية غير راغبة في قبول إنذار موسوليني بأن الرأى العام يبتعد عن الفاشية ، وأن من الضرورى لتثبيت أقدامها ، وتأكيد نجاحها ، عقد هذا التفاهم البرلمانى مع الاشتراكيين . وهكذا تم العدول عن الاتفاق . وبالرغم من أنه كان يعيد المرة تلو المرة ، طيلة هذا الوقت الإصرار في الاجتماعات الفاشية التي يعقدها على وجوب القيام بانقلاب للإطاحة بالبرلمان والدولة الليبرالية ، وعلى أن هذا الانقلاب يجب أن يكون قريباً جداً ، نراه ، في الوقت نفسه يكبح جماح زملائه المندفعين من أمثال إيتالو بالبو ودينو جراندى وروبرتو فاريناشي ، ويمنعهم من وضع أى خطط لتنفيذ هذا الانقلاب . فقد كان في الواقع أقل ثقة منهم بأن الفاشية قوية إلى الحد الكافى لضمان النجاح ، وكان أكثر لهفة منهم ، على أن يتحقق وصول الفاشيين إلى الحكم ، بتأييد عام إن لم يكن جماعياً . وكان كثيرون من النواب الفاشيين قد وصلوا إلى مقاعد النيابة بمساعدة خناجر أعوانهم ومؤيديهم ، وأقض العدد المتزايد من حوادث القتل يوم الانتخاب مضجعه . وقد تحدث أحد رفاقه من القتلة بشيء من الصلافة ذات يوم فقال . . . « لعل المشكلة مع موسوليني أنه يريد التأييد والبركة من كل إنسان ، ولذا فهو على استعداد لتغيير ثوبه عشر مرات في اليوم لتحقيق ذلك » .

واتضحت لموسوليني فرصته بوضوح في أغسطس عام ١٩٢٢ ، أى بعد أشهر طويلة من التردد والشك . فقد دعى في ذلك الشهر إلى إضراب عام ، تلبية لسخط الشعب المتزايد والخائب الأمل . وأعلن موسوليني ، أن الفاشيين سيمنعون الإضراب إذا تقاعست الحكومة عن منعه . وهكذا أتيحت له ثانية فرصة التدخل بالعنف تحت ستار حماية القانون والنظام . وهاجمت الفصائل الفاشية في أنكونا وليجهورن وجنوا أبنية الاشتراكيين وأحرقتها وهدمتها . كما حطمت في ميلان مطابع

صحيفتهم « ألافانتى » .

ويبدو أن تأثر موسولينى قد بلغ مداه بعد شهرين عندما اجتمع مؤتمر الحزب العام فى مدينة نابولى ، وتبين له إصرار أكثر من أربعين ألفاً من الفاشيين على العمل. ولذا انطلق يتكلم ويعد ويتوعد ، بصورة تفوق تهديداته فى أى يوم مضى . وراح يخطب المؤتمرين قائلا . . . « وكل ما نتطلع إليه ، هو أن ندخل فى هذه الدولة الليبرالية التى أدت مهمتها واستنفدت أغراضها جميع قوى الجيل الجديد التى انبثقت عن الحرب والنصر . . . ولذا إما أن تستسلم الحكومة لنا ، أو أننا سنستولى عليها بالزحف على رومة » .

وانطلقت حناجر الألوف تصرخ هاتفة . . . رومة ، رومة . وتناقلت هذا الهتاف ألوف أخرى حملت الشعار.

٢

وكان موسولينى قد بحث موضوع الزحف على رومة مع أربعة من أبرز الفاشيين أصبحوا يحملون فيما بعد اسم « مجلس الأربعة » ، وهم إيتالو بالبو الشاب الأنيق الذى لا يتجاوز السادسة والعشرين من عمره ، والذى يتولى قيادة الفصائل الفاشية ، والجنرال إميليو دى بونو القائد السابق للفيلق الإيطالى التاسع ، وسيزار ماريا دى فيشى ، عضو مجلس النواب الفاشى ، وميشيل بيانشى السكرتير العام للحزب . وقد روى بالبو فيما بعد ، أنه كان وبيانشى اللذين أصرا على الزحف على رومة ، وأن موسولينى كان حذراً ومتردداً ، بحيث وجدا نفسيهما مضطرين ، إلى أن يبلغاه بأن الفاشيين سيزحفون على العاصمة ، وافق أم لم يوافق . لكن رواية موسولينى تختلف عن هذه القصة كثيراً ، وليس ثمة من شك سواء أكان تردده مصطنعاً أم لا ، فى أن هذا التردد مكنه من الحفاظ على اتصالاته بخصومه . الذين لم يكن أى منهم ، واثقاً حتى اللحظة الأخيرة ، من أن الضرورة تقضى بالتعاون مع موسولينى ، بدلاً من اصطباغ الثورة بالصبغة الفاشية وحدها . ولعل من المؤكد أيضاً أنه اقتنع عند عودته من مؤتمر نابولى فى شهر أكتوبر ، بأن الوقت قد حان للعمل وأن حكومة لويجى فاكتا التى خلفت حكومة إيفانو بونومى ، وهى التى خلفت

بدورها حكومة جيوليتى ، عاجزة وغير مستعدة لمقاومة أى عمل صادق وحازم . وانفجرت الاضطرابات الفاشية فى السابع والعشرين من أكتوبر فى عدد من المدن الإيطالية ، وراح مجلس الأربعة يطالب حكومة فاكتا بالاستقالة . ولم يحل الصباح التالى ، حتى كانت أربعة أرتال تطبق على العاصمة ، زاحفة عليها . واندفعت الحكومة إلى العمل فى اللحظة الأخيرة ، وأعلنت عن عزمها على فرض الأحكام العرفية ، ولكن الملك وقد خشى أن يعنى هذا نشوب الحرب الأهلية ، وبات مستعداً لتقبل أية حكومة فاشية على أى حال ، رفض توقيع المرسوم بإعلانها ، فترك حكومته عاجزة عن أن تفعل شيئاً ، وأدى اليأس من إخماد الثورة ، ولا سيما أن الأرتال الفاشية قد اقتربت من العاصمة ، إلى عرض عدد من المقاعد الوزارية ، فى حكومة ائتلافية يمينية برئاسة أنطونيو سالاندرا على عدد من قادة الحزب . واقترح جراندى ودى فيشى على موسولينى قبول العرض ، ولكنه رفض . فقد بات السلطان كله على مرأى منه الآن ، ولم يعد راغباً فى الحلول الوسط ، وإن كان التخوف من أن يكون قد مضى بعيداً فى تطرفه ، قد أرّقه واستبد به .

وكان لا يزال قابعاً فى مدينة ميلان ، وأحاطت وحدات من الجيش والشرطة بمكتبه ، وظل يتطلع من النافذة بين آونة وأخرى ، ويهتف هنا أو هناك ، عن طريق الهاتف ، متسقطاً الأخبار التى يتلهف على تلقيها . وبذل جهد الجبابرة للاحتفاظ بهدوئه الظاهرى ، وسيطرته على عواطفه ، لكن تأثره كان قد بلغ حد الجنون . وعندما اندفعت مجموعة من الدبابات عبر الشوارع متجهة إلى مكتبه فى « البوبولو ديتاليا » ، خرج من البناء يحمل بندقية فى يده ، ويهتف هتافات لا رابط بينها ولا انسجام . وكاد أحد أعوانه الذين لا يقلون عنه حماساً ، يقتله نتيجة الخطأ . ولكن لم تكن هناك فى الواقع أية مقاومة للزحف الفاشى على روما ، إذ كان الجيش والشرطة على استعداد للوقوف بمنأى ، تاركين للزحف أن يسير فى طريقه .

وجاءته رسالة هاتفية أخيراً من روما ، تستدعيه إلى هناك للتشاور مع الملك . فرد قائلا باقتضاب ، وقد استعاد هدوءه وثقته . . . « أريدها رسالة خطية » . وبعد وقت قصير ، وصلته برقية عاجلة تقول . . . « عاجلة للغاية — موسولينى —

ميلان . يطلب إليك جلالة الملك ، أن تتجه فوراً إلى رومة ، لأنه يعتزم عرض مسئولية الحكم وتأليف الوزارة عليك ، مع احترامى . التوقيع الجنرال جيتادينى » .

وغادر ميلان فى ذلك المساء ، متجهاً بالقطار إلى رومة . ورغب كما يبدو ، وكما قال أحد الصحفيين الذين رأوه فى ذلك اليوم ، فى أن يبدو بقميصه الأسود ، أكثر هنداماً ، فوضع على رأسه قبعة سوداء ، وعلى حذائه غطاء أسود . وعندما مثل أمام الملك ، راح يعتذر عن لباسه غير المألوف فى مثل هذه المناسبات قائلا ... « أرجو أن تغفر لى مظهرى » . وراح يكمل حديثه بلهجة مسرحية ، توحى بما يريد أن يفعله ، وتبدى غروره المتناهى قائلا . . . « فقد جئت من ميدان المعركة » .

٤

رئيس الحكومة

من ٢٨ أكتوبر ١٩٢٢ إلى ١٣ يناير ١٩٢٤

«تحب الجماهير الرجل القوى . فالجمهور كالمرأة تماماً . . .
ويتوقف كل شيء على قدرة المرء على التحكم فيه كفنان أصيل . »

« كان فى وسعى أن أحيل هذه القاعة الشاحبة ، إلى معسكر مسلح لذوى القمصان السوداء ، وأن أجعل منها معرضاً للجثث . بل كان فى إمكانى أن أقفل أبواب البرلمان بالمسامير » ، بهذه العبارات استهل موسولينى خطابه الأول فى مجلس النواب ، بعد قبوله تكليف الملك إياه بتأليف الحكومة الجديدة .

وبالرغم من أنه كان فى وسع قوات الجيش أن تتغلب على أنصاره الذين لم يتجاوزوا فى زحفهم على رومة ، نقطة تبعد أربعين ميلا عن رومة ، لو أن الملك وافق على استخدام هذه القوات ، إلا أن تبجحه هذا ، لم يكن يفتقر كلية إلى الأساس الصحيح . لكن الشيء الثابت أن موسولينى وقد وصل إلى السلطان عن طريق التهديد باستخدام القوة ، راح يمارس هذه القوة دون تحفظ أو قيود . فقد أصدر أمره فى اليوم الذى تلا اجتماعه بفكتور عمانوئيل ، إلى خمسة وعشرين ألفاً من أفراد الفصائل الفاشية ، كانوا لا يزالون يعسكرون خارج العاصمة ، بدخولها فى قطارات خاصة ، ليقوموا بعرض كامل فى ساحات الكيرينالى ، ثم ليعودوا بعد ذلك بهدوء إلى أماكنهم . وأنزل عقوبات صارمة بجميع أولئك الذين اقترفوا جرائم عنيفة ، وكان راغباً كما يبدو الآن فى أن لا يظهر بمظهر الزعيم الفاشى فحسب ، بل فى مظهر رئيس الحكومة الإيطالية أيضاً . وقد تضمنت الوزارة التى ألفها فى غضون سبع ساعات رجالا من مختلف الجماعات السياسية باستثناء تلك المناهضة للقومية ، ووزع مقاعدها على الديمقراطيين الاجتماعيين (الاشتراكيين) والكاثوليك والأحرار . ولم يكن من الوزراء الفاشيين إلا أربعة فقط .

وليس ثمة من شك على أى حال ، فى أنه لم يأت إلى رومة ليرأس حكومة ائتلافية ، بل ليحكم حكماً دكتاتورياً وشخصياً عن طريق حزبه وقد احتفظ

لنفسه بوزارتي الخارجية والداخلية بالإضافة إلى رئاسة الوزارة ، وطلب من مجلس النواب سلطات استثنائية كاملة لمدة عام واحد ، لينفذ في غضونه الإصلاحات التي رآها ضرورية وحيوية . وقد منح هذه السلطات بأغلبية ٢٧٥ صوتاً مقابل ٩٠ .

وأكب على العمل بحيوية وتصميم لم يستطع حتى أشد ناقديه إخفاء إعجابهم بهما . وكان يصحو من نومه باكراً ويقوم ببعض التمرينات الرياضية العنيفة ، إلى أن يتصبب العرق من صدره الذي يغطيه الشعر الكثيف ، ثم يمضي بعد أن يتناول إفطاره المؤلف من الحليب والفاكهة إلى مكتبه الذي يصله في الثامنة صباحاً ، بعد أن يكون قد قرأ بمنتهى السرعة عدداً من الصحف الإيطالية والأجنبية ، التي تكتظ بها غرف منزله . وكانت وجبات طعامه متفرقة ، إذ أن القرحة التي قدر لها أن تضايقه وبصورة متزايدة بقية حياته ، كانت قد بدأت في التشكل في معدته . وكثيراً ما اقتصر غداؤه أو عشاؤه ، على بعض المكرونة (الاسباجيتي) ، مع قليل من الخبز والخضار والفواكه الطازجة وفي مقدمتها « السبانخ » والعنب الأسود . وكان يشرب كميات كبيرة من الحليب وعصائر الفواكه ، وقليلا من النبيذ بسبب القرحة ، كما انقطع عن التدخين منذ الحرب . وكان في يوم ما مغرماً بالطعام والشراب ، أما اليوم فلا يأكل إلا مسرعاً ودون أية لذة ، زاهياً بمائدته الاسبارطية المتقشفة ، وبامتناعه المتزمت عن الأكل في المآدب الرسمية ، حاملا على مكثري الطعام والشراب ، لانهماكهم في هذه الملذات الحسية المنحطة . وكان يقول إن لذته الوحيدة هي في العمل ، ولعله كان صادقاً في قوله هذا في هذه الآونة إلى حد كبير . وكان يتلقى دروساً في المصارعة والملاكمة ويقبل على السباحة ولعب كرة المضرب . ويقول الذين علموه هذه الرياضات أو الذين لعبوا معه ، إنه لم يكن يمارسها ، رغبة منه في التمتع بها ، وإنما لأنه كان متلهفاً على صحة البدن ، وعلى أن يكون له جسم قوي خشن[1] . وكان جسمه قد بدأ يميل إلى البدانة ، واكتنزت أصابع يديه الناعمتين ، وكان جلد فكه الأسفل يترهل عندما ينسى

---

(١) كان يخشى من العاهات الجسدية ، ولم يكن يحس بأي عطف على المرضى . وقد قابل ذات يوم الأمير تارولينا الذي شكا له من « خراج » فقال : « كان لي صديق عاني مما عانيت ، ولكنه توفي على الفور » . « المعرب »

أن يدفع به إلى الأمام . وكان يبدو عليه أنه أكبر من سنه الحقيقية التى لم تكن تعدو التاسعة والثلاثين آنذاك ، إذ أن التجاعيد كانت تحيط بعينيه الكبيرتين السوداوين ، وكان الصلع قد انتشر فى مقدمة رأسه ، بينما كان الشيب قد وخط عارضيه وما تبقى من شعره . لكن حيويته كانت من الطراز الذى لا يكل ولا يمل . وقد تميز بالقلق وكثرة الحركة ونفاد الصبر ، والحيوية والعصبية وبدا وكأنه لا يتعب ولا يسترخى . وكانت حيويته الجنسية لا تزال قوية آسرة . ولذا كان يفترس ما يعترض طريقه من نسوة كن يفدن إليه فى الغرفة التى حل فيها فى أحد الفنادق ، ثم فى الشقة التى ارتحل إليها فيما بعد ، والواقعة فى الطبقة العليا من قصر فى شارع راسيلا ، بكثير من العاطفة المتدفقة التى كانت تفزعهن وتثيرهن فى آن واحد . وكان نافد الصبر منهن ومن وزرائه ، ولذا كان يمتهن كما يمتهن القائد المنتصر عبيده الأسرى ، وكان يبدو مرتاحاً إلى هذه الطريقة أيًّا كانت رفيقته . وكان ذوقه متميزاً بالشمول إلى حد كبير ، إذ لما كان فى سنى شبابه ، كان يولع بالمرأة الذكية ، وكان له ذوق خاص بمعلمات المدارس . أما الآن فقد بات يحب كل امرأة ، دون تمييز ، شريطة أن لا تكون شديدة النحول ، وأن تكون رائحتها قوية نافذة ، إما عطراً أو عرقاً . ولم يكن يكترث بالنظافة كثيراً ، ولطالما أغرق نفسه بالكولونيا مستعيضاً بها عن الاستحمام . ولما كان معروفاً بإغراقه فى حب ذاته ، فلم يكن يكترث قط براحة عشيقاته ، أو لذتهن ، إذ طالما آثر الأرض على السرير لإشباع شهواته ، دون أن يخلع ملابسه ، ومنهياً من مغامراته الغرامية فى غضون دقيقة أو دقيقتين[1] . وقد تحدثت الكثيرات ممن عرفن موسولينى فى مباذله ، من الصحفيات غير المتزوجات ، وزوجات أعوانه من الفاشيين والنبيلات والخادمات والممثلات والزائرات الأجنبيات ، عن علاقاتهن به وتجاربهن ، دون ندم بل بكثير من الاعتزاز . وقد ذكرت إحداهن وكانت قد تألمت من مداعباته الثقيلة لصدرها أول مرة ، أنها عادت إليه ثانية ، لأنها وجدت أنها لا تستطيع « رفض رجل له مثل هذه المكانة » . وكانت هناك أخريات لم يكترثن بمكانته أو أهميته ، وإنما أسرهن بعواطفه الجنسية القوية ، ولا سيما عندما تتحول وحشيته وشتائمه

(١) آثرت ترجمة هذه العبارات المكشوفة بوجهها الصحيح ، أمانة فى النقل من ناحية ، وإظهاراً لنزعاته الحيوانية من الناحية الأخرى . « المعرب »

القاسية فى اللحظات الحاسمة إلى نعومة ورقة ، بعد إرضاء نزواته . وقالت الكثيرات منهن إن موسولينى كان قادراً على الحب قدرته على العشرة ، وعلى الملاطفة قدرته على الشهوة . وذكرت إحداهن أنه كثيراً ما كان ينهى مغامرته معها بالعزف على كمانه ألحاناً ناعمة . وأجمعت عشيقاته على القول بأنه بالرغم من قسوته وأنانيته التى لا يقطعها إلا لمحات عابرة من العطف ، كان هناك فى موسولينى ما يأسر المرأة التى تعرفه ، وهو رفضه الانصياع إلى أية قاعدة من قواعد السلوك .

وقد نقل هذا العصيان لقواعد السلوك إلى الحياة العامة . فلم يكن يحلق فى ميلان ذقنه فى كل يوم . وهو لم يكن يفعل هذا أيضاً فى الأشهر الأولى من حياته فى رومه . بل بات يحضر بعض الحفلات الرسمية كتلك التى أقيمت فى كوستانزى تكريماً لملك إسبانيا وملكتها دون أن يحلق ذقنه . وكانت الملابس التى ألف ارتداءها فى مثل هذه المناسبات مذهلة للغاية . فقمصانه ليست نظيفة دائماً ، وحذاؤه لا يصبغ إلا نادراً . لكن هذا الحذاء لم يكن يظهر إذ اعتاد تغطيته بشكل لم يعد مألوفاً فى عصره . ولم يكن ليهتم أبداً « بالموضة » ، ولا يفهمها ، ولا يعرف اللباس إلا إذا سد له حاجته دون اهتمام بطرازه أو بشكله . ولم يكن يعرف السبب فى عدم جواز وضع الياقة السوداء مع البدلة الرسمية (الفراك) ، ولذا ، فقد دأب على مخالفة العرف . ولم يكن يرغب فى أن تضايقه أربطة الحذاء ولذا استعاض عنها بالمطاط . وقد ابتاع بدلة رسمية (بونجور) لارتدائها فى مكتبه فى الصباح ، إذ أنه كان يستلطف السروال المخطط ، والجاكتة السوداء الطويلة ، ولكنه كان يظهر فيها فى منتهى الضيق ، وكثيراً ما كان رباط عنقه فى غير موضعه ، كما دأب على رفع أكمام قميصه المنشاة إلى مرفقه . وعندما وصلت زوجته راشيل إلى رومة للإقامة فيها تحسن منظره وهندامه بعض الشيء . لكن قدومها إلى رومة جاء متأخراً إذ آثرت البقاء فى ميلان مع ابنتها إيدا ومع ولديها فيتوريو الذى ولد فى عام ١٩١٦ ، وبرونو المولود فى عام ١٩١٨ . أجل لم ترغب راشيل فى المجيء إلى رومة ، لأنها كانت تعرف أن مظهرها وحديثها هما مظهر فلاحة من رومانا وحديثها ، وأنها ستحس فى رومة بالتعاسة والانكماش . ولم ترغب فى أن تشترك مع بنيتو فى حياته العامة ، بل أرادت أن تبقى زوجة له وأماً لأولاده ، وأن هذا هو كل ما يتوقعه

ويريده منها . ويذكر أصدقاؤه ، أنهم عندما كانوا يذهبون إلى زيارته فى منزله فى شارع ميريندا فى ميلان قبيل الحرب ، كانوا يجدون راشيل ، تغسل ملابس الأسرة فى باحة الدار . . .

وراح أحدهم يسألها ذات يوم . . . أهو فى المنزل ؟

— لا إن السيد فى الخارج . . . وكان هذا التعبير صورة لما تقوله المرأة الرومانية عن زوجها . . .

— ترى أين ذهب ؟

— لا أدرى . فلم يألف أن يخبرنى بما يفعله .

أجل، إنه لم يكن يخبرها قط بما يعتزم عمله . لكنها لا تغضب ، فهذا شأن الرجال دائماً . وهى سعيدة فى زواجها منه . وكانت تعرف أن زوجها « زير نساء » ، كما اعترفت فيما بعد ، أنها كانت تعلم بأن له عشرين خليلة ، ولكنها لا تكترث ، لأنها تعرف أنه يحب أسرته . وأمثاله من الرجال يحبون نساءهم دائماً . ولذا فهى لا تلومه . إنها تعمل كثيراً فى بيتها ، سيدة مخلصة ، طيعة وفية ، وربة بيت لا تعرف المزاح ، وإن كانت تثور أحياناً لأسباب تافهة . لكنها دائمة العبوس . وبالرغم من سذاجتها إلا أنها كانت تتمتع بمكر الفلاحين . ولم تكن تفهم إلا القليل عما يفعله زوجها ، وأقل من ذلك عن عمله ، وكانت تثيره دائماً عندما تحاول أن تتقدم إليه بنصيحة أو تحذير ، وهو ما يحدث منها نادراً . ودأبت بعد انتقالها إلى رومة على تسلم رسائل لا يفصح كاتبوها عن هوياتهم ، وتلقى مكالمات هاتفية ورسائل من صديقاتها ، لتتوسط فى موضوع أو قضية ، فإذا ما نقلت إلى زوجها ما سمعته ، بادرها يقول . . . « إنك لا تعرفين شيئاً عن هذا » . وحقاً كانت لا تعرف شيئاً ، ولذا فإن قوله هذا لم يكن يسيئها . . . وعندما نقلوا إليها نبأ موته قالت : « لقد كان أباً ممتازاً وزوجاً طيباً » . ولا ريب فى أنها كانت صادقة فى قولها هذا .

ويقال إنهم عندما أبلغوها نبأ تعيينه رئيساً للحكومة ، هتفت قائلة وقد بان السرور والاعتزاز والدهشة على وجهها : « ياله من شخصية » .

وكان رأى الذين عملوا معه ، لا يختلف كثيراً عن رأى زوجته فيه . فقد كان

عبقريًّا عند البعض ، ومجنوناً عند البعض الآخر ، ولكنه بارز فى كلا الرأيين . ولا ريب فى أنه كان داعية ممتازاً ، ولم يكن يتورع عن استخدام عبقريته الدعائية ، لا فى إبراز شخصيته فحسب ، بل فى خلق صورة لها عند الناس بعضها صحيح والبعض الآخر خيالى ، لرجل من رجال القدر ، يتصف بالدهاء الأصيل ، والعلم الغزير . ومن الواجب أن يقال على أى حال ، إن لهفته على إبراز ذكائه ، كانت واضحة وفى منتهى الغرابة . ولقد رسم له إميل لودفيج الكاتب الألمانى الذى تحدث إليه موسولينى فى عام ١٩٣٢ فى سلسلة من المقابلات ضمنها كتابه « موسولينى قال لى » صورة إنسان واسع الاطلاع عميق المعرفة ، وافر التجربة ، يوحى للإنسان فى نفس الوقت ، بأنه طراز ذلك الرجل الذى لا يضيع فرصة يستطيع فيها الظهور . ولم يكن بوصفه عاشقاً لذاته ، يسمح لإنسان بأن يسخر منه . ولعل من الطريف ، أن نفكر فى الأعمال الكثيرة التى قام بها فى حياته ، والتى نشأت عن رغبته فى أن يثأر من أولئك الذين اعتبرهم مذنبين بمثل هذه الإساءة أو ما يشابهها . ولكن لما كان قد تميز أيضاً ، بالسذاجة فى بعض أعماله ، فقد أتاح الفرصة للكثيرين للسخرية منه . ويقول لودفيج . . . « ولم يحاول قط أن يصحح أخطائى أثناء حديثى إليه بالإيطالية . ولكن عندما حدث ذات مرة ، وأسأت لفظ اسم فرنسى ، أطلت منه شخصية المعلم القديم ، وراح بصوت خفيض ينطق الاسم كما يجب أن ينطق . وعندما أراد ذات يوم الحديث عن " تقييم أحسن القيم " بالألمانية وراح يقترف هفوة صرفية رغم معرفته الكاملة بلغتنا ، سارع إلى تصحيح هفوته بنفسه مضيفاً أنها نشأت عن الخلط بين المفرد والجمع » . وكان يكثر من القول عند الحديث إلى أعضاء حكومته وغيرهم . . . « أرجو أن تغفروا لى عباراتى العلمية » . وقد سجل أولريخ فون هاسيل الذى غدا فيما بعد سفيراً لألمانيا فى روما وفيليبو أنفوسو ، الدبلوماتى الإيطالى ، هذه اللهفة من جانب الدوتشى ، للظهور بمظهر العارف لأكثر مما يعرف . ويروى لنا أنفوسو قصة الحديث الذى دار ذات يوم بينه وبين موسولينى وأسرته ، حيث تحدث الدوتشى عن معرفة نيتشة[١] الرائعة بالإغريقية . وهنا قاطعه أحد أولاده بصوت رقيق قائلا . . . « ولكنك لا تعرف الإغريقية

(١) تحدثنا عن نيتشه فى هامش سابق .

يا أبي » . وعندما تظاهر أبوه بأنه لم يسمعه ، عاد الولد يكرر ما قاله . ووجد موسوليني نفسه، مضطراً للخروج بضيفه من الغرفة . وروى هاسيل بشيء من الازدراء ، كيف أن موسوليني أمر ذات يوم المصورين بتصويره وهو يفوز في مباراة للشطرنج ، مع أنه كان لا يعرف شيئاً عن هذه اللعبة . وشك هاسيل أيضاً كما شك غيره كثيرون ، في صحة ما اشتهر به من ذاكرة قوية ، وقال إنها لم تكن أكثر من خدعة ، فقد كان يحفظ بعض الأرقام والإحصاءات قبل أية مقابلة ، ليؤثر على سامعيه ، عندما يأخذ في ذكرها وكأنه يخرجها من أعماق ذاكرته . لكن لودفيج خدع بهذه الحيلة التي خدع بها أيضاً كثيرون من وزرائه ، الذين كان يسلك معهم سلوكاً يتعمد أن يوحي لهم عن طريقه بالمهابة والإعجاب . وكان يبدو أحياناً فظاً إلى حد الغرابة ، بينما يبدو في أحايين أخرى في منتهى الدماثة واللطف ، فهو متناقض الشخصية إذ يبدو متعجلا حيناً ومغرقاً في الأناة حيناً آخر . عنيفاً في غضبه تارة ومتسامحاً كل التسامح تارة أخرى . ولم يكن وزراؤه يعرفون موقفه منهم ، وهل سيظلون في مناصبهم أو يستبدل بهم غيرهم دون سابق إنذار ، ودون أي سبب يفهمونه ، وإن كان كثيراً ما يكون شعوره بتزايد نفوذهم ، مما يؤلف خطراً على مركزه في قمة السلطان الذي كان قد حزم أمره على الاحتفاظ به . وكثيراً ما هتف في الصباح إلى أحد وزرائه ، صارخاً مزمجراً ، منهالا عليه بتعلياته وأوامره ، ثم لا تمضي ساعة أو ساعات ، حتى يعود فيهتف إليه ثانية ، متحدثاً إليه وكأنه من أقرب أصدقائه . أجل ؛ كان عسيراً على الفهم، حاد الطبع ، نابضاً بالحيوية ، معتزاً بإدراكه للسلطان الذي يملكه . وكان قادراً على أن يبعث الخوف والفزع في رفاقه أثناء غضبهم ، وأن يحملهم على التفاني في حبه نتيجة صفحه وغفرانه .

ولم تمض شهور على وصوله إلى الحكم ، حتى كان نجاحه قد بات مضموناً : وتحول الجيشان والفوضى في إيطاليا إلى حالة من الترقب المعجب الحذر . وعاد العمال إلى مصانعهم ، وزاد إنتاجهم ، وخلت الشوارع من التظاهرات وهدأت ، وآب الطلبة إلى معاهدهم ودراساتهم . ولم يكن لديه برنامج سياسي محدد عندما وصل إلى الحكم ، وكان جل همه ، أن يضمن التوازن في الموازنة ، ويضمن الوضع العادل

الطيب للعمال ، وأن يسير بسياسة البلاد الخارجية بمنتهى التصميم والاحتفاظ بالكرامة . وكان يقول دائماً . . . «سننجح لأننا نريد أن نعمل» . وتمكن بعبقريته الدعائية من إيهام الشعب بأنه يعمل كثيراً ، لا فى مكتبه فحسب ، بل فى المصانع والمزارع أيضاً ، حيث كان يقوم بتشجيع العمال والفلاحين وحثهم على العمل . وكثيراً ما نشرت الصحف صوره وهو يحمل «الطوب» بيديه ، أو يطرق الحديد بإصرار وتصميم فى المصانع ، أو يحصد القمح ، وقد بدا صدره كما يريد هو أن يبدو عارياً ، متألقاً فى ضوء الشمس .

وسار الإيطاليون على خطاه . كان أصغر رئيس للوزراء ، عرفوه فى تاريخهم ، وكثيراً ما أظهر العديد منهم زهوهم به . وقد قبلوا عن طيبة خاطر ، عودتهم إلى العمل ثمانى ساعات فى اليوم ، كما ارتضوا ما أجراه من تخفيضات فى موازنة النفقات الحكومية ، التى كانت قد ارتفعت ارتفاعاً هائلا فى ظل الحكومات السابقة ، بحيث قدر العجز فى عام ١٩٢٢ — ١٩٢٣ بنحو من ٦٥٠٠ مليون ليرة إيطالية ، بالإضافة إلى قبولهم إحالة الألوف من الموظفين على التقاعد ، أو نقلهم إلى أعمال أخرى . ولم يمض عامان على حكمه حتى كان العجز البالغ خمسمائة مليون ليرة فى الخدمات البريدية قد تحول إلى وفر قدره ٤٣ مليوناً حسب الإحصاءات الفاشية التى ظهرت صحتها ، كما تحول العجز فى السكك الحديدية والبالغ ١٤٠٠ مليون ليرة إلى وفر قدره ١٧٦ مليوناً . وبات الإيطاليون يزهون بالقول بأن القطارات أصبحت تسير فى مواعيدها المقررة .

حقاً شرع الإيطاليون يزهون بأشياء كثيرة . وبدا لهم أن الفاشية ناجحة فى عملها . ونعم موسولينى بتأييد الشعب له ، وكان يحرص أشد الحرص ، على تنمية الانطباع لدى مواطنيه بأنه قد أنقذهم من الفوضى والبلشفة . وكانت خيبة أمل العمال فى قادتهم الاشتراكيين ، واستياؤهم من دعاة الإصلاح الاجتماعى ، وعجز الشيوعيين الإيطاليين عن الاتفاق على سياسة واحدة مشتركة ، عوامل أدت إلى إنقاذهم من البلشفة . وقد أدرك موسولينى هذه الحقيقة ، وقاده إدراكه هذا إلى السخط على أولئك الذين اكتشفوا الحقيقة وأذاعوها ، وهى أن الفاشية ليست إلا الثورة المضادة لثورة لم تقع فى إيطاليا قط . وكان قد أعلن بشىء من المبالغة التى

لها ما يبررها قبل أمد طويل من الزحف على روما أن البلشفية « ماتت فى إيطاليا » . لكن الادعاء بأن الفاشية قامت فى إيطاليا لإنقاذها من البلشفة أسطورة من الأكاذيب التى حاكت الفاشية نسيجها . ولعل الأكذوبة الثانية ، التى انبثقت عن الأولى ، لتغدو فى النهاية الظاهرة المميزة للعقيدة الفاشية ، هى أن الزعيم هو الإنسان الأكمل (السوبرمان) ، وإنه ليس مجرد قائد الفاشية الكلى القوة والحكمة والذى لا يخطئ أبداً فحسب ، بل إنه كذلك ، إله أو شبه إله ، يتميز بالعدل والرحمة والإحسان . وبالرغم من أن أنبياء الفاشية ، كانوا قد أعلنوا فى البداية ، أنها تمثل حركة لا عقيدة ، وبالرغم من أن موسولينى نفسه كان قد ذكر بأن « برنامجنا هو العمل ، فليست لدينا عقيدة جاهزة » ، إلا أنها أخذت تعرض الآن نفسها كقوة خلقية بالإضافة إلى كونها قوة سياسية ، وكثيراً ما قال الدوتشى بأن الفاشىّ الصادق يجب أن يتميز بالنزعة السلطوية والحيوية والصرامة والاتجاه القومى ، وأن « يعتبر نفسه التابع الأمين لعقيدة تقوم على الانضباط الكامل . . . وأن يؤمن بأنه الخليفة الشرعى لقيصر . . . » وذكر الأستاذ ألفريدو روكو ، وهو من أوائل مثقفى الفاشية ، موضحاً فلسفة الدوتشى العسيرة على الفهم ، والقائمة على الاستنتاج ، أن الفاشية « ترفض النظريات الديمقراطية للدولة ، وترى أن المجتمع لا يوجد من أجل الفرد ، وإنما يخلق الفرد من أجل المجتمع ، ولا تلغى الفاشية وجود الفرد كما ألغى الأفراد وجود المجتمع فى بعض العقائد البدائية ، وإنما تخضع الفرد للمجتمع تاركة إياه حرًّا فى تنمية شخصيته فى خطوط يفيد منها مواطنوه » .

وقام روكو وجنتيل وغيرهما من المدافعين عن الفاشية بمحاولات عدة ، ليظهروا أن النظرية الفاشية لا تتناقض بحال من الأحوال مع « الاتجاهات الأساسية للتاريخ الإيطالى » . وكانوا يحاولون إظهار جاريبالدى[1] ومازينى بمظهر الميالين إلى النظرية الفاشية فى صميم فؤاديهما . لكن مثل هذه المحاولات لإيضاح الفاشية فكريًّا وتاريخيًّا ، لم تترك أثراً ملحوظاً لدى الشعب الإيطالى ، وقد اعترف موسولينى نفسه ذات يوم بأن القصد منها هو التأثير على الأجانب لا على الإيطاليين . وكان يقول إن على الإيطاليين أن لا يحاولوا فهم الفاشية وأن عليهم

---

(١) من أبطال الوحدة الإيطالية فى القرن التاسع عشر .

تجربتها ليس إلا . فعليهم أن يحسوا لا أن يفكروا . ولعل الرغبة فى التأثير عليهم بطبيعتها العاطفية هى التى دفعت موسولينى وصحبه إلى إظهارها بمظهر « الرؤيا الصوفية الباطنية » التى تعتمد الرموز والطقوس ، والقواعد الدينية ، وأساليب الرقص وألحانه ، والتعاويذ الوراثية ، وزخارف القرون الوسطى ، والاتصال « بالروح التقليدية لرومة القديمة » . وقال ناقدو الفاشية عنها إنها البديل الزائف بل الاصطناع الفكرى والسياسى على حد تعبير إيجنازيو سيلونى ، وإن كان موسولينى قد أعجب بهذا الزيف والاصطناع . وفى وسع الفاشية فى رأيه أن تحل محل الحقيقة والحرية والفن والفكر والاشتراكية والديمقراطية ، وأن تؤمن له وهذا هو الأهم ، الحاجة إلى القائد وإلى النبى .

وعثرت الفاشية فى شخص موسولينى على هذا القائد والنبى . وراح ينمى فى الخطب التى يلقيها فى جميع أرجاء البلاد بعد أن يجهد فى إعدادها ، وإن تظاهر بإلقائها ارتجالا ، مضمناً إياها عبارات وكلمات سحرية يصعب حفظها ، تلك القدرة الخطابية الرائعة والبليغة على الاتصال بالجماهير ، التى مارسها منذ عهد طويل فى رومانا . وكان أسلوب الحوار الذى يتبعه ، والذى طالما سحر الجماهير فى مسقط رأسه ، وكان الطريقة التى اتبعها دانونزيو نفسه فى مغامرته فى فيومى ، يأسر ألباب الشعب كله ، فيحس بأنه قد أفاق وبعث ، ليمضى إلى مستقبل زاهر جديد ، بقيادة الرجل الذى لا يعجز عن تحقيق أى شىء . وكانت الهتافات المتكررة التى لا معنى لها من أمثال « ايا ، ايا ، الالا ، الالا » ، التى ابتكرها دانونزيو أيام الحرب ، والتى أصبحت جزءاً لا يتجزا من الطقوس المجنونة للتظاهرات الفاشية ، تزيد فى أوهام الوحدة والسلطان عند الشعب الإيطالى ، وتدفعه فى الطريق إلى حمى عبادة الفرد .

ومع ذلك ، كان يقال للشعب ، إن الدوتشى بالرغم من عبقريته التى لا تنضب ولا تستهلك ، ليس إلا رجلا بسيطاً وطيباً . فالدموع تنهال من عينيه عندما يتحدث إلى الفلاحين الجياع فى الجنوب ، وعندما يرى ما هم عليه من شقاء وذبول ونحول . وكان يقول لهم . . . « سأعتنى بكم كل العناية ، فقد عرفت بنفسى

معنى الجوع » . وكان هذا القول موضع تصديقهم ، لأن قائله محل ثقتهم[1].

وكثيراً ما قيل لهم إنه رجل متواضع . فعندما كرمته مدينة فلورنسة باختياره مواطن شرف فيها ، سمعه الناس وهو يقول . . . « لا أرى نفسى جديراً بهذا الشرف » . وهو لا يرضى بأن ينال شهادة فخرية فى القانون من جامعة رومة ، إلا إذا قدم لها أطروحة ، تبرر حصوله على هذه الشهادة . وقد رفض وشاح أنونزياتا ، أرفع الأوسمة الإيطالية شأناً ، عندما قدم إليه أول مرة ، ولم يكن رفضه ناجماً ، كما اعترف حتى خصومه ، عن خطة مدروسة ، وإنما نشأ عن عزوف أصيل فى نفسه عن الاهتمام بمثل هذه الأمور . وقد روى وزير خارجيته بعد سنوات طويلة ، أنه كان قد طلب إلى الدوتشى الإذن بتقديم القلادة العظمى من وسام سان موريزيو ، إلى بالدور فون شيراخ ، الألمانى ، فرد موسولينى قائلا ، وقد ظهرت عليه علائم نفاد الصبر . . . « أجل ، وفى وسعك إذا شئت ، أن تعطيه كل أوسمتى الخاصة أيضاً » . وتحدث شيانو عن واقعة أخرى أيضاً ، عندما وجدت وزارة الفنون الجميلة مشقة بالغة فى العثور على تحفة فنية تصلح كهدية لماريشال الرايخ جورنج بمناسبة عيد ميلاده الخمسين ، فقال . . « وكانت لدى الدوتشى فى منزله . قطعة فنية واحدة ، هى الصورة الشخصية التى رسمها مانسينى . . . وعندما سمع بأن هدية ستقدم إلى جورنج . . . راح يفكر على الفور ، بالتحفة الموجودة فى بيته . وقد تطلب منى إقناعه بالعدول عن هذه الفكرة أمداً طويلا . . . ولا ريب فى أن عدم اهتمام الدوتشى بمقتنياته الخاصة شىء عجيب حقاً » .

وقرر إثر مجيئه إلى رومة ، ألا يقبل مرتباً ، لا كرئيس للوزراء ، ولا كوزير

---

(١) هناك قصتان تعرضان عبادة مئات الألوف بل الملايين من الإيطاليين الجهلة لشخص الدوتشى . فعندما ثار بركان إتنا فى الجنوب ، وراح موسولينى يزور المناطق المهددة ، ساد الناس إيمان شامل ، بأنه نجح من حيث فشل كانيوت (ملك دانماركى يقال إنه عمل المعجزات فى القرن الحادى عشر) فى كبح جماح قوى الطبيعة ، وقد نقلت إحدى الصحف هذا الإيمان كحقيقة واقعة . وعند ما قامت إحدى الإيطاليات بزيارة ضريح أورفيينو الإيتروسكانى ، وقيل لها إن الكتابات المنقوشة على الضريح لم تفهم بعد لأنها مكتوبة بلغة مجهولة ، قالت بكثير من الإيمان : « لعل السبب فى هذا أن موسولينى لم يزر هذا الضريح بعد ، ولكنه عند ما سيزوره فسيعرف ما كتب عليه » . ولم تكن هذه الثقة الغريبة مقتصرة على هذه السيدة وحدها . « المؤلف »

أو نائب ، معتمداً فى معاشه على الأجر الذى يتقاضاه من المقالات التى كان يكتبها إما لصحيفة البوبولوديتاليا أو بعض الصحف الأمريكية[١]. وكان يحتقر احتقاراً كلياً وعميقاً أولئك الذين لا هم لهم إلا جمع الثروات . وكثيراً ما أطلق على هذه الرغبة اسم الجنون أو الهوس ، واصفاً إياه ، بأنه مرض ، معزياً نفسه بالتفكير بأن الأغنياء لا يكونون سعداء إلا نادراً ، مشيراً دائماً إلى روكفلر الذى عاش « على الحليب والبرتقال طيلة الستة عشر عاماً الأخيرة من حياته » . ولكن بالرغم من أنه لم يكن صاحب ثروة خاصة ، ولم يرغب قط فى جمعها ، فإنه لم يكن متخشناً فى عيشه ، وإن لم يعن هذا أنه كان أبيقورياً يعيش على ملذاته . فعشيقاته لم يتلقين منه ثمين الهدايا ، وكان جل ماتناله الواحدة منهن زوجاً من الجوارب ، أو زجاجة من العطر . أما أولاده ، فقد تلقوا العلم فى المدارس الرسمية ، وعاشت زوجته حياة بسيطة . وكان هو يقضى الأسابيع فى ارتداء بدلة واحدة وإن كان لم يتورع قط عن إرضاء أية نزوة من نزواته بحجة التوفير أو الاقتصاد . وكان قد تلقى دروساً فى الطيران فى ميلان ، وأصبح طياراً مجازاً ، فقد اقتنى طائرته الخاصة ، وأصبح يطير بها كلما شعر بميل إلى الارتقاء فى الجو . وأحب قيادة السيارات ، ولذا فقد ابتاع سيارة سباق حمراء وثمينة . وعشق ركوب الخيل ، وسرعان ما حشد عدداً من خيرة الجياد فى إسطبلاته . وكان يحب عرض الجيوش والأساطيل ثم هوى العروض الجوية ، وكثيراً ما اتهمه خصومه ، بأنه كان يأمر بإجراء هذه العروض الباهظة التكاليف ليرضى بها ميوله الشخصية . وأحب الحيوانات ، وعندما توافرت لديه الأماكن لاقتنائها ، أصبح لديه ما يقع فى حدود حديقة حيوان خاصة تضم الخيول والكلاب والظباء والقرود والنسور والوعول والنمورة والقطط ، التى كان يؤثرها على سائر الحيوان . واقتنى فى قفص فى غرفته ، حيوان (البيومة) الأمريكى الأصل . ولكن هذا الحيوان ، اقتحم جدران قفصه ذات ليلة وراح يجول فى الدار ، باعثاً الرعب والفزع لدى خدمه وموظفيه . وكان يحب الأفلام السينمائية ، ولا سيما أشرطة

---

(١) ظل موسولينى لا يكترث بالمال حتى النهاية . وقد وجد المسئولون صعوبة كبرى فى إقناعه بقبول مرتب كرئيس للجمهورية الاشتراكية فى عام ١٩٤٣ . وعند ما جاءه أحد سكرتيريه ، يحمل مرسوماً أعده أحد الوزراء بتخصيص مرتب قدره (١٢٥) ألف ليرة إيطالية فى الشهر ، رفض أن يوقعه وهو يقول . . . « وما حاجتى إلى كل هذا المال ؟ » . « المؤلف »

الأخبار التى كانت تعرضه وهو يخطب الجماهير ، مؤثراً عليها ، وأفلام لوريل وهاردى الهزلية ، ولذا فقد أقاموا له داراً خاصة للسينما . وكان له بيتان بالإضافة إلى دارته على شاطئ البحر ، أولهما دارة تورلونيا فى رومه ، وثانيهما « روكاديلا كاميناتى » فى رومانا ، وقد قدمت له مقاطعة فورلى هذا البيت هدية منها له .

تقع دارة تورلونيا ، وهى منزل كبير جميل لطيف المناخ ، ذو منظر كلاسيكى رائع ، وراء أسوار عالية وسط حديقة غناء فى شارع نومينتانا القائم وراء ميدان « بورتا بيا » . وكان صاحب هذه الدارة الأمير جيوفانى تورلونيا ، وهو أحد أصحاب المصارف الكبيرة فى رومة ، قد وضعها تحت تصرف الدوتشى للمدة التى يشاؤها . وقد قبل موسولينى الذى أعجب بفخامة الدارة وبأسوارها الصفراء العالية التى تضفى على بيوت رومة القديمة جمالا لا يضاهى ، العرض شاكراً ، إذ أحب العيش فى مثل هذا المنزل المريح ، ولكنه كان كثيراً ما يحب الفرار إلى بيته الآخر ، وهو قصر إقطاعى منيف يقوم على قمة رابية عالية ، يستطيع أن يرى منها أمامه ، الريف الذى قضى فيه أيام صباه ليصل بنظره إلى جبال الأبنين فى الجنوب ، وإلى شطئان البحر الإدرياتى البعيدة فى الشرق . وكان هذا القصر مهدماً عندما أهدىَ إليه ، ولكن مبالغ ضخمة من المال أنفقت عبر السنين على ترميمه وتجديده ، وأصبح حاشداً بالهدايا التى كانت تنهال على الدوتشى من كل مكان فى العالم ، بحيث أضحى إذا ما استثنينا مكتبه الخالى من الذوق فى أثاثه ، والمرصعة جدرانه بالصور التى تعرضه الكثيرات منها فى أوضاع نشاطاته المختلفة كالرياضة والطيران ورعاية الأسرة وإدارة الحكم ، أشبه ما يكون بالمتحف لا بالمنزل . وقد أفضى فى أخريات أيامه إلى الطبيب الألمانى الدكتور زاخارى ، بأنه كان يأمل أن يحول منزله هذا إلى متحف . وأخبره أيضاً أن تحفه تضم صورة مرسومة على الحرير ، أهداها إليه إمبراطور اليابان ، وتعتبر أجمل تحفة من نوعها فى العالم ، وأن أحد أصحاب الملايين من الأمريكان ، أثاره عندما عرض عليه عدة ملايين من الدولارات ثمناً لها . واستطرد موسولينى يقول لصاحبه ، إنه لم يستطع بيعها ، لأنها ليست ملكاً خاصاً به ، وإنما هى ملك لإيطاليا كلها .

وكان هذا الربط بينه وبين بلاده ، قد غدا ، ولاسيما فى الآونة الأخيرة ، الكابوس

المسيطر عليه ، بحيث بات يعتبر كل حملة تتعرض لها إيطاليا ، وكأنها إهانة شخصية موجهة إليه ، ولا ريب أيضاً فى أنه كان جزءاً من السر فى هذه السيطرة التى كانت للدوتشى على ولاء شعبه وخياله . وكانت قومية الدوتشى المتعجرفة والمزهوة تمثل أعظم إلهام منه فى حركة بعث إيطاليا فى عيون الوطنيين الإيطاليين من أبناء الجيل الجديد الذى اقتحم الحياة فى عشرينات القرن . ولكنه بدا فى عيون الغالبية الغالبة من أبناء الشعب الإيطالى كله ، فى هذه الحقبة المبكرة من تاريخه لا فى عيون أبناء الجيل الجديد وحدهم ، القدوة الذى لا يجارى ، والمثل الذى يصعب الوصول إلى تقليده ، فهو لا يخطئ أبداً . وكان يحرص على أن يسير ببطء للغاية فى البداية ، وأن يعمل بعيداً عن الأضواء ، حتى إن بناء الدولة الجديدة اللاليبرالية كان يتم دون أن يلاحظه أحد . فلم يكن صاحب سياسة مقررة ، وإنما كان يتبنى الأفكار والسبل ، كما تتراءى له ، حالا المشاكل حلا عارضاً عند بروزها ، مضفياً على عهده صورة « فاشية تقدمية » على حد تعبير قانون المعارف الذى أصدره جنتيل فى عام ١٩٢٣ ، ومعطياً إياه حيناً آخر صورة وقوراً ومحترمة ، نتيجة موقف الإجلال الذى وقفه من شدة حاسية المقترعين الكاثوليك والكنيسة . وكان اضطهاده المتزايد للحرية ، التى وصفها فى خطاب عام ألقاه ، « بالآلهة المتعفنة » ، هو الطريق الذى خطت فيه الفاشية ، والذى « لا بد أن تعود للسير فيه بهدوء المرة تلو المرة إذا تطلبت الضرورة » ، على اعتبار أنه ضرورة لا بد منها إذا أرادت إيطاليا أن تغدو قوية وأن تزيح عنها انكماشات التفرقة التى كانت تتسلل إليها منذ سنوات طويلة . ولم يأسف ملايين الإيطاليين على تحول برلمانهم ، إلى مجرد مجتمع للعجزة ، لأنهم وافقوا على ما وصفه به موسولينى من أنه « مجمع القواقع القديمة » . وقد قبلت غالبية الشعب الغالبة ، حرمان الصحافة المتدرج من حريتها ، وإقامة حرس وطنى فاشى معظمه يضم نحواً من مائتى ألف رجل ليحل محل الفصائل الفاشية السابقة والسيئة التنظيم ، وليجمع أفرادها إلى صفوفه ، وحل فرق الحرس الملكى الذى لم يلق إلا مقاومة ضعيفة ، وامتداد السنن والشرائع الفاشية إلى كل درب من دروب الحياة الإيطالية يصلح لسريان العدوى ، والعقوبات العنيفة التى تنزل بالنقاد الذين يجهرون برأيهم فى نقد النظام ، كمتطلبات

أولية لا بد منها لقيام إيطاليا الجديدة التى وعدوا بها . وقد أعلن موسولينى نفسه فى شهر يوليو عام ١٩٢٤ . . . «لم يطلب إلى الشعب فى المرات العديدة التى قابلته فيها وجهاً لوجه ، وتحدثت إليه فيها عن كثب . . . تحريره من الطغيان الذى لا يحس به لأنه غير قائم . وكان كل ما يطلبه الشعب منى المزيد من السكك الحديدية ، والمنازل والمجارى والجسور ومياه الشرب والنور والطرقات . ولا ريب فى أن قوله هذا صادق إلى حد كبير . فقد شعر الناس بفوائد الفاشية بحيث هانت عليهم أخطاؤها وعيوبها .

وكان موسولينى نفسه يبرأ دائماً من التحريض على عمليات ضرب خصومه الوحشية والدموية . ومن الحق أن يقال إنه بالنسبة إلى الأدلة المتوافرة ، لم يكن يأمر بها ، وكان يحرص أشد الحرص ، على عدم الظهور كمحرض عليها . ولم يظهر اشتراكه فى مثل هذه الأعمال إلا نادراً ، كالحالة التى اكتشفت فيها إحدى الصحف الفرنسية ، بقايا برقية بعث بها موسولينى إلى مدير شرطة تورين ما لبثت الصحيفة أن نشرتها ، وفيها يأمره بأن يجعل حياة بيترو جوبى العدو الخطر للفاشية «أمراً لا يطاق» ، وقد نفذ المدير أمر الدوتشى ، وضرب الرجل ضرباً عنيفاً فى تورين حتى إن أضلاعه المحطمة ، خرقت إحدى رئتيه . ويقول سيزار روسى ، الذى كان رئيساً لدائرة الصحافة الفاشية فى تلك الأيام إن مراكز الحزب الرئيسية فى فلورنسة وميلان وبيزا ومونزا وغيرها من المدن الصغيرة ، تلقت فى يوليو عام ١٩٢٣ ، تعليمات من موسولينى بتدمير المكاتب المحلية للنوادى والاتحادات الكاثوليكية . وتلقى وزراء الشرطة فى جميع المدن التى وقعت فيها المظاهرات المعادية للكاثوليك فى الوقت نفسه ، برقيات من موسولينى هذا نصها . . . «بالنظر إلى ما أثارته الحوادث الأخيرة المعادية للكاثوليك من ردود فعل سيئة فى الفاتيكان ، فقد يكون من المفيد أن يقوم القادة المحليون فى الاتحادات الفاشية الإقليمية رسمياً ، بزيارة الممثلين البابويين لتقديم أسفهم على ما حدث ، وتأكيد إجلال الفاشية للكنيسة من جديد» .

ولا ريب فى أن المحاولات التى قام بها المؤرخون الفاشيون ، لتبرئة موسولينى كلية من تهم الاشتراك فى جرائم من هذا الطراز ، أو لإنكار وجودها كل الإنكار ،

مغرقة فى الرياء والخداع . فمنذ أصبحت الصحافة خاضعة للسيطرة الفاشية لم تعد تنشر شيئاً عن هذه الأحداث ، أو لم تعد تنشر عنها إلا المختصر الموجز . ولكن الشيء الثابت هو أن هذه الحوادث استمرت أمداً ما ، وأن الدوتشى كان قد أعلن أكثر من مرة لأوساط حزبه إيمانه بأن بقاء الفاشية يتطلب أن يظل أعداؤها فى خوف وقلق دائمين .

ولكن الملايين من غير الفاشيين ، الذين كانوا على استعداد للتغاضى عن مساوئ العهد الكبيرة ، أملا فى أن تكون هذه المساوئ الثمن الذى تدفعه البلاد للحصول على مستقبل شريف ، فوجئوا فى صيف عام ١٩٢٤ ، بما هزهم هزاً عنيفاً وأثار سخطهم وهياجهم ، مما تعذر نسيانه ، واستحال تلطيفه إلى أمد بعيد . ولم يكن موسولينى هو الذى أصدر أمره بما اقترف ، كما لم يعرف بالخطة التى دبرت ، ولكن مسئوليته عنه لا تقل عن مسئولية هنرى الثانى عن مقتل توماس بيكيت[١] . لكن موسولينى اختلف عن هنرى ، فى أنه لم يذهب إلى قبر الضحية معلناً ندمه وأسفه ، وطالباً الصفح والغفران .

---

(١) قصة شهيرة فى التاريخ الإنجليزى . كان توماس بيكيت (١١١٩ — ١١٧٠) رئيساً لوزراء إنجلترا ، ورئيساً لأساقفة كنتربرى . ونشأ الخلاف بينه وبين الملك الذى كان راغباً فى تحطيم سلطة الكنيسة مما أرغمه على الفرار إلى فرنسا فرومة . سوى الخلاف بينهما فى عام ١١٧٠ ، وعاد بيكيت إلى إنجلترا حيث استقبله الشعب استقبالا حافلا . ما لبث الخلاف أن عاد واشتد فقام أربعة من فرسان الملك بقتل رئيس الأساقفة فى مقره الرسمى . « المعرب »

٥

الديكتاتور

من ١٣ يوليو ١٩٢٤ — ١٠ يونيو ١٩٤٠

« ليست الحرية غاية فى حد ذاتها ، وإنما هى وسيلة لتحقيق غاية .
وهى كوسيلة ، يجب السيطرة عليها ومراقبتها »

١

أعد موسولينى فى صيف عام ١٩٢٣ مشروع قانون عرف فيما بعد باسم « القانون الانتخابى الفج » ، إذ أقر تقسيم إيطاليا إلى خمس عشرة دائرة انتخابية ، يطلب إلى المقترع فيها أن يقترع إلى جانب الحزب الذى يختاره . ونص القانون على أن الحزب الذى يحصل على العدد الأكبر نسبيًّا من الأصوات ، شريطة أن لا يقل عن ربع مجموع أصوات الناخبين المقترعين ، ينال ثلثى المقاعد فى المجلس ، بينما يوزع الثلث الباقى على الأحزاب الأخرى ، على أساس النسبة العددية للأصوات التى حصل كل حزب عليها . وبالرغم من أن هذا المشروع قد لقى معارضة من الاشتراكيين والأحرار (الليبراليين) والكاثوليك على السواء ، إلا أن معظم النواب لم يكونوا قد فقدوا ثقتهم بحكومة موسولينى وكانوا على استعداد لتأييدها ، أو للامتناع عن التصويت على القانون على الأقل . وأقر مجلس النواب ، الذى شهد عدد كبير من ذوى القمصان السوداء جلسته فى شهر يوليو من شرفات المجلس ، المشروع بأغلبية كبيرة ، وعاد مجلس الشيوخ فأقره بأغلبية أكبر فى شهر نوفمبر . وجرت الانتخابات فى أبريل من السنة التالية ، ومضت جماهير المقترعين إلى صناديق الانتخاب ، تراقبها عيون الحرس الوطنى الفاشى (المليشيا) . وكان فشل المعارضة فى الاتفاق على سياسة مشتركة ، والرعب الذى نزل بالصحف المعارضة ، السبب فى استجابة البلاد للنداء الذى وجهه موسولينى إليها لتأييده فى مواصلة العمل الذى شرع فيه ، والذى حقق فيه الكثير ، فانتصر نصراً كبيراً ، ونال حزبه (٦٥,٢٥) فى المائة من مجموع الأصوات ، باستثناء تلك التى أعطيت لمرشحى الأقلية الذين أعلنوا عن استعدادهم لتأييد الحكومة . كان النصر طاغياً ، إذ مثل

أكبر أغلبية نالتها أية حكومة إيطالية منذ أيام كافور ، وقد تحقق ، كما ادعى الفاشيون زهواً وخيلاء ، دون أى ضغط أو إكراه ، إلا فى بعض الحالات الشاذة المتفرقة .

وهكذا أكدت الفاشية التى وصلت إلى السلطان عن طريق تهديد القوة ، سلطانها الآن بإرادة الشعب . وأراد موسولينى الذى تعزز مركزه كل التعزيز بهذا النجاح أن يعود إلى الأوضاع السياسية العادية ، بل فكر فى شكل من أشكال التعاون مع الاشتراكيين ، وراح يعلن فى السابع من يونيو بعد أن اقترع المجلس الجديد على الثقة بالحكومة بأغلبية (٣٦١) صوتاً مقابل (١٠٧) ، أنه على استعداد لإدخال عضوين اشتراكيين فى وزارته .

ولم تمض أيام ثلاثة ، حتى كان أحد النواب الاشتراكيين واسمه جياكومو ماتيوتى ، وهو ملاك غنى من روفيجو كان موسولينى يصفه بأنه من أصحاب الملايين ، يختفى من مدينة رومة . وكان هذا النائب من أشد خصوم الفاشية وأكثرهم جرأة ، وكان المعتقد أنه يعتزم نشر بعض الوثائق التى تكشف عن بعض الأعمال اللامسئولة ، والوحشية التى قامت بها العصابات الفاشية . وفى الثالث عشر من يونيو ، عثر على جثته مدفونة فى قبر صغير على بعد عشرين كيلومتراً من العاصمة .

ووصل نبأ مصرع الرجل المحترم الشجاع إلى عناوين جميع الصحف فى طول العالم وعرضه . وبينما أشار إليه المدافعون عن الفاشية واصنفيه بأنه مهيج « تافه » وشرير ، يعتبر مصرعه على أى حال « حادثاً مؤسفاً » ، راح الأحرار فى كل مكان يتحدثون عنه كبطل من الأبطال ، وشهيد من شهداء الاشتراكية ، سيظل اسمه مع الخالدين إلى الأبد . وهكذا وقعت الواقعة . وظل الناس يذكرون أن موسولينى هو قاتله . ولا ريب فى أنه كان قاتله ولكن ليس على النحو الذى يصر خصوم الفاشية على تأكيده . ويعرب كارلو سيلفيسترى ، الصحفى الإيطالى المناهض للفاشية والذى اجتمع كثيراً بموسولينى فى الأشهر الأخيرة من حياته ، عن ثقته بأن موسولينى لم يعرف شيئاً عن مؤامرة الاغتيال ، وأنه غير مسئول عنها . واقتنعت السيدة ماتيوتى أرملة الفقيد بأن موسولينى لم يكن على علم بالمؤامرة ،

وأنها أزعجته كل الإزعاج . واتضح فى المحاكمة التى جرت فى عام ١٩٤٧ ، لإعادة النظر فى القضية ومحاكمة الأحياء من المتهمين السابقين ، أن موسولينى لم يكن على علم بالحادث ، وأن القتلة ، وهم من غلاة الفاشيين قد اضطربوا من اتجاه موسولينى الظاهر إلى الإبقاء على الحياة البرلمانية وأرادوا أن يضربوا ماتيوتى ضرباً مبرحاً ، كما كانوا يضربون أنصاره ، ولم يكونوا يعتزمون قتله ، ولكنه مات بين أيديهم متأثراً بسكتة قلبية . وليس ثمة من شك فى أن سلوك موسولينى بعد الحادث ، لم يكن سلوك القاتل أو الشريك فى القتل . وقد ذكر متبجحاً فى سيرة حياته التى كتبها ... « لم أشعر لحظة واحدة بالشك أو بثبوط العزيمة » . لكن الواقع يثبت عكس هذا ، فقد صرم أسابيع عدة فى حالة من القلق الذى بلغ حدود الجنون . وكتبت مرجريتا سارفاتى تقول ... « وبدت حياته ، وقد تحطمت كل التحطم » . وظل محتفظاً بشجاعته أمام الناس ، لكن تعاسته فى حياته الخاصة ، كانت تستثير الإشفاق . وفى ذات يوم أبلغ سيلفيسترى بأنه يفكر فى تقديم استقالته . وعندما حاولت إحدى صديقاته التسرية عنه ، مظهرة له عطفها عليه ، انفجر باكياً وهو يقول ... « ما كان فى وسع أشد أعدائى خطراً أن يؤذونى ، كما فعل أصدقائى » .

وراح النواب الاشتراكيون بعد يومين من اكتشاف الجثة ، ومعهم حلفاؤهم ، بقيادة جيوفانى أمنيدولد ، الذى قاطع موسولينى وهو فى عنفوان ثورته الوحشية الغاضبة ، خطابه الشجاع الأخير ، مديناً عهد موسولينى ، سبعاً وعشرين مرة ، ينسحبون من المجلس ، ليؤلفوا جبهة معارضة حققت درجة كبيرة من التأييد لم يكن أحد يتصوره قبل أسبوع واحد . وقد أطلقت هذه الجبهة على نفسها اسم « نواب أفينتينو » نسبة إلى عامة رومة التى انسحبت فى أيام رومة القديمة إلى تل أفينتين ، احتجاجاً على طبقة النبلاء ، وأخذت تذكر البلاد بحملات موسولينى الأخيرة على ماتيوتى ، وبما كتبته صحيفته البوبولو ديتاليا قبل أيام قائلة « لو أن رأس ماتيوتى قد تحطم ، فإن السبب فى ذلك يرجع إليه وإلى عناده » . وعلقت الجبهة آمالها على أن يقتنع الملك المتخاذل باستخدام نفوذه تأييداً للحكم البرلمانى ، وطالبت بوقف جميع أعمال العنف التى يقوم بها الفاشيون ، وبحل الحرس الفاشى . وشرع موسولينى ،

يرى امامه فى كل مساء ، وهو يغادر مكتبه فى قصر شيجى ، متجهاً إلى منزله ، جماعات من الناس ، تقف صامتة وكأن على رؤوسها الطير ، تنظر إليه موبخة عاتبة ، بينما ظهرت ألوف المناشير المعادية للفاشية على جدران المنازل فى العاصمة .

واعتقل أربعة من كبار الفاشيين بتهمة الاشتراك فى عملية القتل ، وهم جيوفانى مارنيلى ، السكرتير الإدارى للحزب ، وفيليبو فيليبيلى ، رئيس تحرير صحيفة « الكوريرى إيتاليانو » ، وسيزار روسى ، رئيس الدائرة الصحفية الفاشية ، وفيليبو نالدى . لكن الضجة لم تنته عند حد الاعتقال . وبدأت صحف المعارضة التى لم تكن قد انطوت تحت جناح النفوذ الفاشى ، تعلن آراءها جهاراً ، قبل انتهاء الشهر ، وأصدر موسولينى فى الثامن من يوليو مرسوماً ، يخوله وقف أية مطبوعات أو صحف ، تواصل نشر ما يفسر على أنه مادة مهيجة أو مثيرة للاضطراب والعنف . وهكذا تم انتزاع صحيفة كوريرى ديلاسيرا ، الميلانية ، وهى من أكثر الصحف نفوذاً فى إيطاليا ، من صاحبها الشيخ البرتينى المناهض للفاشية ، وسلمت إلى محرر كان على استعداد لتأييد موسولينى . وأرغمت صحف ليبرالية وديمقراطية أخرى ، بينها صحيفة « لاستامبا » ، على التحول إلى إيدى الفاشيين ، لكن إحدى هذه الصحف وقد تمكنت من الإفلات من قبضة الفاشيين مؤقتاً وهى إيلموندو لصاحبها إمندولا ، راحت تنشر فى نهاية شهر ديسمبر وثيقة كانت نهاية الأشهر الستة من المعارضة القلقة للفاشية . وكانت هذه الوثيقة ، بياناً من سيزار روسى ، الرئيس السابق للدائرة الصحفية الفاشية ، والذى اعتقل بعد حادث القتل ، يتهم موسولينى بالاشتراك فى المؤامرة . وفقد الدوتشى كل أمل فى التفاهم مع الليبراليين . وراح يقبل نصيحة روبرتو فاريناشى الكاتب السابق فى السكك الحديدية والمحامى الحديث ، وأحد العنيفين من قادة الفاشية ، وزعماء الفصائل السابقة التى احتشدت الآن فى رومة لدعم ثقة الدوتشى المتزعزعة ، وراح يعلن فى مجلس النواب ، بعد خمسة أيام من نشر مزاعم روسى ، بأنه قد رفع يديه عن خصومه الشريرين ، رغبة منه فى تهدئة أنصاره الذين نفد صبرهم . وأضاف أن الوقت قد حان الآن للعمل . ثم قال « وها أنا أعلن أمام هذا المجلس ، وأمام الشعب الإيطالى كله ، بأننى وحدى الذى أتحمل المسئولية السياسية والخلقية والتاريخية عن كل ما حدث ، فإذا كانت

الكلمات التى أسيء نقلها كافية لشنق إنسان، فإلى الجحيم إذن بالمشنقة والحبل . وإذا كانت الفاشية قد تحولت إلى شىء بغيض كزيت الخروع ، أو الهراوة ، ولم تعد عاطفة نبيلة زاهية تجيش فى صدور خيرة شباب إيطاليا ، فإن اللوم يجب أن يقع علىّ وحدى ، لا على غيرى . وإذا كانت الفاشية قد تحولت إلى مؤامرات إجرامية ، وإذا كان العنف قد نشأ عن أجواء سياسية وتاريخية وخلقية معينة ، فإن المسئولية تقع على وحدى ، لأننى أنا الذى خلقت عامداً متعمداً هذا الجو . إن ما تريده إيطاليا هو السلام والهدوء ، والعمل ، والطمأنينة . وسأمنح إيطاليا ما تريده بالحب إن أمكن ، وبالقوة إذا اقتضى الأمر » .

وكان هذا الخطاب فى الثالث من يناير عام ١٩٢٥ ، وهو أحد التواريخ الرئيسية فى قصة الفاشية وتاريخها .

ولم تعد بعد الآن أية فرصة فى تفاهم ، أو أى احتمال فى نكوص . وبالرغم من أن مصرع ماتيوتى قد أثار موجة واسعة من رد الفعل العنيف ضد الفاشية ، فى بلاد خاب رجاؤها فجأة ، فإن مصرعه أيضاً قد أظهر مدى ضعف خصوم الفاشية وتشتتهم ، وعدم تنظيمهم ، وقلة عدد المستعدين منهم لمقاومتها مقاومة فعالة . وتمكن موسولينى فى غضون خمس سنوات وبمساعدة روبرتو فاريناتشى ، السكرتير العام الجديد للحزب ، من تحقيق هدفه الذى أعلن عنه ، وهو تحويل إيطاليا كلها إلى الفاشية . وتعرضت البقية الباقية من الصحف الحرة إما لخطر الإغلاق ، أو للتحول إلى السيطرة الفاشية . وقد بقيت بعض الصحف المستقلة ، ولكنها ظلت بلا لون بحيث لا تلقى من الدولة إلا الامتهان ، ولا تلقى من خصوم الدولة إلا التجاهل والإهمال . وحلت جميع أحزاب المعارضة ، وانتهى عهد الانتخابات الحرة . ولم يعد مجلس النواب يمثل أكثر من مجرد أداة ، لإلباس المراسيم الفاشية هالة من التأييد القومى . وبات مجلس الشيوخ مليئاً بالشيوخ المستعدين لارتداء القمصان السوداء إذا ما طلب إليهم ذلك ، وأن يشتركوا فى إنشاد الأناشيد الفاشية . وقد أدرج المجلس الفاشستى الأعلى ، الذى تولى موسولينى رئاسته ، مع الصلاحيات المطلقة لتحديد جدول أعماله ، وتعيين أعضائه ، فى الدستور ليكون بمثابة كابح للاستقلال الذى قد يبديه أى فرد من أعضاء الوزارة . وحل رؤساء معينون محل

رؤساء المجالس البلدية المنتخبة فى نظام أوتوقراطى للحكم أخذ يتجه إلى المركزية الشديدة . وحل النشيد الرسمى للحزب الفاشى « جيوفينيزا » ، محل النشيد القومى الإيطالى، فى جميع الاستعراضات والحفلات الصاخبة التى كان الدوتشى مولعاً بها ، وذلك لأن الحزب أصبح الآن مرادفاً للدولة . وأعلنت الإضرابات والتوقف عن العمل، مظاهر لا تتفق مع النظام التعاونى الجديد الذى أدخله موسولينى والذى تميز بالفساد ، بالرغم من وصف موسولينى له بأنه سيكون « المجسد لحضارة القرن العشرين » . وكان من المقرر فى ظل هذا النظام التعاونى ، الذى كان دانونزيو قد أدخل شكلا مبسطاً منه فى فيومى ، بأن تحل جميع الخلافات العمالية ، عن طريق إحالتها إلى محاكم عمالية ، تكون ملحقة بمحاكم الاستئناف ، وتؤلف من ممثلين لأصحاب الأعمال والمستخدمين . ولما كان الحزب هو الذى يعين موظفى جميع الاتحادات النقابية التى تشمل الفئات الاثنتين والعشرين لمختلف المهن والحرف ، فإن النظام التعاونى تحول فى الوقت المناسب إلى قناع صالح لإخفاء الديكتاتورية وكانت القوانين التى وجهت ضد الماسونية وضد الإيطاليين المناهضين للفاشية ، والذين يعيشون خارج البلاد ، والقوانين التى وسعت من صلاحيات رئيس الحكومة ، أكثر بعداً عن الليبرالية بشكل جلى واضح .

وقد عنى بالشبيبة عناية خاصة ، كما هى الحالة فى جميع النظم الجماعية . وتقرر إدخال الأطفال من سن الرابعة فى منظمات الطفولة الفاشية ، التى كانت تزودهم بمسلسات من اللعب وقمصان سوداء . ولم تثر هذه الإجراءات التى قصد من كل منها أن يفرض طبيعة فاشية واضحة على الدولة وأنظمتها ومواطنيها ، وأن يضمن على غرار النموذج البلشفى الروسى ، سيطرة الدولة على جميع أجهزة الإعلام ، معارضة كبيرة لدى جماهير الشعب الإيطالى ، التى لم تعترض على عزم الحكومة الذى أعلنت عنه مراراً وتكراراً على التسامح بل الترحيب بالمعارضة المسئولة ، وعلى عدم السماح للمعارضة الشريرة واللاقومية والمثيرة للفتن والمنافقة والمشاغبة . وبالرغم من جماعية هذه القوانين فقد قبلها الشعب ، إذ أنه قبل معظم القوانين الفاشية المعتدلة المبكرة ، كثمن لا بأس به لقيام إيطاليا الجديدة التى كان ظهورها قد بدأ يثير دهشة العالم .

واستقر النقد الإيطالى أخيراً وبعد سنوات من الأزمات الاقتصادية المتكررة . وغدت البلاد تتمتع برخاء كان شاملا أوربا بأسرها ، وإن عزى لمجىء الفاشية وتصميمها على تحقيق الاكتفاء الذاتى عن طريق الاقتصاد الموجه . وبالرغم من أن موسولينى لم يفهم قط مشاكل الاقتصاد والتجارة ، إلا أنه تقبل بسرعة الفضل فى فترة الإبلال الاقتصادى التى كانت قد بدأت فى البلاد ، قبل مجيئه إلى الحكم ، تماماً كما سارع فيما بعد إلى تقبل الفضل فى إبلال البلاد ، من الأزمة التى كانت سياساته إلى حد ما هى المسئولة عنها . ولم يبد هذا الفضل فى غير موضعه فى الظاهر . فقد حمله تصميمه على تسوية دين البلاد الهائل للولايات المتحدة إلى الإبحار إلى واشنطن ، ومعه وكيل وزارة خارجيته ، دينو جراندى ، حيث عقد اتفاقاً ضمن إجراء تخفيض كبير فى الدين الأصلى . وراح نتيجة تصميمه على كسب ما أسماه « معركة القمح » ، يطوف أرجاء البلاد ، ملقياً الخطب على « الفلاحين الشجعان الذين يحاربون فى خط القتال » ، وهكذا راح المحصول ، يرتفع سنة بعد أخرى . فقد بلغ المحصول فى عام ١٩٢٥ نحواً من أربعة وستين مليون قنطار ، مقابل ٤٩ مليوناً فى السنوات التى سبقت الحرب . وراح نتيجة تصميمه على أن يجعل من إيطاليا دولة حديثة وقوية على النحو الذى تصوره ، يضع برنامجاً للأشغال العامة ، لم يسبق له مثيل فى أوربا الحديثة كلها . وأقيمت الجسور والقنوات والطرق ، وشيدت المستشفيات والمدارس ومحطات السكك الحديدية وملاجئ الأيتام ، وجففت المستنقعات ، واستصلحت الأراضى ورويت ، وزرعت الأحراج ، وافتتحت الجامعات . ولم تحل نهاية الثلاثينات حتى كانت مشاريع ضخمة كثيرة قد أكملت ، لا على الأرض الإيطالية وحدها بل فى جزيرتى صقلية وسردينية أيضاً ، وكذلك فى ألبانيا وإفريقيا ، بينما وضعت الخطط لتنفيذ مشاريع أضخم ، انتهى التفكير فى تنفيذها . وكان رجال الإحصاء من الفاشيين يزهون بأن ما لا يقل عن مائة ألف عامل ، أصبحوا يعملون فى الأشغال العامة ، ولم يحل صيف عام ١٩٣٩ ، حتى كان نحو من مائة وسبعين ألف رجل ، يعملون فى الطرقات وفى مشاريع الرى فى ألبانيا وحدها . وقد أنفقت وزارة الأشغال العامة بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٤٢ نحواً من (٣٣,٦٤٣) مليون ليرة إيطالية فى

مثل هذه المشاريع . وجرى تمويل أعمال التنقيب عن الآثار فى محاولة لتبصير الشعب بذكريات ماضيه المجيد . وتحدث موسولينى إلى مجلس مدينة رومة فقال .. « يجب أن تبدو هذه المدينة فى غضون خمس سنوات ، فى منتهى الروعة أمام العالم كله . وأن تغدو عظيمة ومنظمة وقوية تماماً كما كانت فى أيام الإمبراطورية الأولى فى عهد أوغسطس . ويجب تطهير مسرح مارسيلوس وكامبيدوليو والبانثيون من كل ما ظهر حولها إبان عصور الانحطاط . وقبل مرور خمس سنوات ، يجب أن يبدو تل البانثيون واضحاً عبر طريق رئيسى يمتد إليه من ميدان كولونا . . . ويجب أن تمتد رومة الثالثة فوق التلال الأخرى على ضفاف النهر المقدس ، لتصل إلى شواطئ البحر التيرّانى » .

وبالرغم من أن الكثير قد تم تحقيقه ، وهو فى منتهى الأهمية والبروز ، إلا أن المنجزات فى ميدان الأشغال العامة كما فى التنمية الاقتصادية والتصنيع بل فى معظم ميادين العمل الفاشى ، كانت أقل من الخطة المقررة . وكان العمل يبدأ ، ثم يتوقف دون أن يكتمل ، وتنفق كميات ضخمة من المال على مشاريع ضخمة لا تتحقق ، أو تتسرب إلى جيوب الموظفين المرتشين والفاشيين من ذوى الرتب العالية ، التواقين إلى جمع الثروات قبل أن تتبدل الأوضاع . ولكن وراء هذه الصورة التى أتقن الإعلان عنها من مشاريع التعصير ، والخدمات الاجتماعية ، ما يربو على نصف مليون إنسان لا يزالون يعيشون فى فاقة تثير الإشفاق . وكان رجال الشرطة يخلون الشوارع من المتسولين للإبقاء عليها نظيفة فى عيون السائحين ، لكن الفاقة لا تعالج بإخفائها . وخصصت الأوسمة والمساعدات المالية للفلاحين لمساعدتهم فى خفض ما تستورده البلاد من الحنطة ، وذلك لضمان النصر فى « معركة القمح » . لكن أعمال الزراعة تأثرت تأثراً بالغاً ، بهذا التركيز على الحبوب التى لم تكن فى يوم ما من المنتجات الزراعية الاقتصادية فى إيطاليا . وهجر الأرض ألوف من صغار المزارعين ومن الفلاحين الساخطين ، بينما لم يقم الحكم بأى إجراء لتوزيع الإقطاعيات الزراعية الكبيرة التى كان وجودها مصدراً رئيسيًّا من مصادر السخط والنقمة . وظلت الأجور وأوضاع العمل فى المدن وفى الأرياف على حالها من السوء ، رغم انقضاء السنوات واحدة إثر أخرى ، ولم يصل حدود التحسن فيها

حتى حدود المستويات الخفيضة التي وصلت إليها بلاد أوربا الغربية .

ومع ذلك فاللوم لم يوجه إلى الدوتشي . وبالرغم من إدراك الناس لما فى الفاشية من نقص ، إلا أن مؤسسها كان لا يزال يمثل رجل القدر للشعب الإيطالى . ومن المحتمل أن يكون قد وجد فى إيطاليا فى تلك الأيام مناهضون للفاشية ، ولكن لم يكن ثمة إلا عدد قليل للغاية يناهضون موسولينى . فليس ثمة من يسأله أو يحاسبه . وهو لا يبدو ديكتاتوراً فحسب ، بل هو المعبود أو الإله . والناس يقطعون صوره من الصحف ، ويلصقونها على جدران ألوف المنازل ، بينما تكتب عبارات إطرائه ومديحه بالدهان الأبيض فى كل مكان . واحتفظ الناس بالأقداح التى شرب بها أثناء جولاته الواسعة ، وبالفؤوس التى استعملها فى العمل مع الفلاحين كآثار مقدسة . ووصلت شعبيته إلى آفاق أسمى وأرفع فى عام ١٩٢٩ عندما حل تلك المشكلة التى ظلت تجزئ إيطاليا منذ عام ١٨٧٠ ، ووقع مع الفاتيكان الاتفاق الجديد المعروف « بالميثاق الجانبى » . ونسى ناقدوه السابقون من الكاثوليك كل ما سبق له أن قاله من بيانات مناهضة للكنيسة ، وغفروا له هجماته الإلحادية على « المسيح الصغير التافه » ، ورأوا فى هذه الاتفاقات بداية علاقات جديدة ومرضية بين الدولة والكنيسة . وسرعان ما غطى الموقف الفاشى الرسمى الجديد الذى يظهر الدوتشى كاثوليكيًّا يؤدى واجباته الدينية على موقفه الملتبس السابق من الكثلكة والمسيحية ، الذى كثيراً ما قاده إلى التحدث عن نفسه أحياناً « ككاثوليكى متدين . ومسيحى مخلص » وأحياناً أخرى ، عن نفسه ككافر لا يؤمن بشىء .

ولم يكن فى الواقع فى أى يوم ، أكثر من كاثوليكى غير مستقر . فهو دائماً كثير الإيمان بالخرافات ، ولا يستحى من الظهور بهذا المظهر . وكثيراً ما شاهده الناس ، وهو يضع يده فى جيبه ليمسك بها خصيته ، متبعاً التقليد الإيطالى المعروف ، ليقيه ذلك من عين الحسود . وتقول مرجريتا سارفاتى ، إنه كان يؤمن بأشياء فى منتهى الغرابة عن القمر «وعن تأثير ضوئه الخافت على الناس والأحداث ، والخطر من السماح لأشعته بإضاءة وجه الإنسان وهو نائم»[1] . وكان يفخر بقدرته

---

(١) يبدو أنه ورث اعتقاده بالتأثير الشرير لأشعة القمر عن والده الذى يبدو أنه اعتبرها مسئولة عن مرض « الجرب » الذى أصابه ذات يوم ، عند ما كان سجيناً فى عام ١٩٠٢ . « المؤلف »

على تفسير الأحلام ، والنذر ، وفى قراءة الطوالع عن طريق ورق اللعب « الكوتشينة » كما كان يحب أن يقرأ الآخرون له طالعه ، فى كفه ، أو فى غير كفه . وكانت هناك قارئة للطوالع ، تنبأت بمصرع ماتيوتى قبل وقوعه ، مما دفع موسولينى إلى الإيمان بها ، وإلى استشارتها دائماً عن طريق رئيس شرطته ، كلما واجه مشكلة يرى من الصعوبة بمكان حلها . وقرأ ذات يوم فى صحيفة « التايمز » اللندنية عن الكنوز التى اكتشفت فى مقبرة توت عنخ آمون ، وعن لعنة الفراعنة التى تنزل بكل من يزعجهم فى سباتهم الأخير ، وسرعان ما هرع إلى الهاتف ، يأمر برفع مومياء كانت قد أهديت إليه ، وكان قد وضعها فى صالات دارته ، من مكانها فوراً . وكانت أدراج مكتبه مليئة دائماً بالأحجبة السحرية والتعاويذ الدينية والرقى ، التى كان يتلقاها من المعجبين به ، والتى لم يجرؤ فى يوم من الأيام على التخلى عنها . وظل يحمل حتى آخر يوم من حياته ، فى عنقه حمالة جلدية ، تضم حجاباً ، كانت أمه قد أعطته إياه ، وقطعة نقدية أثرية كانت الملكة مرجريتا والدة الملك قد طلبت إليه الاحتفاظ بها ليذكرها دائماً ، إذ أنها كانت من أصدق المعجبين به . وكان يقول إن هذه التعاويذ تقيه من الموت على أيدى أعدائه .

وجرت المحاولة الأولى من المحاولات الأربع لاغتياله ، فى الرابع من نوفمبر عام ١٩٢٥ ، عندما اعتقل النائب الاشتراكى السابق تيتو زانيبونى ، الذى وصفه موسولينى بأنه كان مدمناً على المخدرات يعمل لحساب تشيكوسلوفاكيا ، فى غرفة فى أحد الفنادق القريبة من دارة شيجى ، حيث كان قد اعتزم إطلاق النار على الدوتشي وهو يخرج من منزله ليعرض قوة عسكرية . وجرت المحاولة الثانية بعد خمسة أشهر ، عندما أطلقت عليه سيدة إيرلندية تدعى فيوليت جيبسون النار وهو فى طريقه لزيارة طرابلس . لكن موسولينى لم يبدأ فى أية إجراءات انتقامية إلا بعد المحاولة الرابعة التى جرت فى بولونا فى ٣١ أكتوبر ١٩٢٦ ، والتى قام بها صبى ما لبثت الجماهير أن مزقته إرباً ، وإن ظل موسولينى على اعتقاده ببراءة الصبى حتى النهـاية . وكان الناس قد أطروا تسامحه فى البداية غاية الإطراء ، لكنهم اعتبروا الآن إجراءاته ضد الماسونيين والاشتراكيين عادلة كل العدل وأعجبوا ببسالته وهدوئه فى كل حادثة من هذه الحوادث . وعندما أصابت قذيفة الفتاة

الإيرلندية طرف أنفه فخدشته . راح يقول بمنتهى الهدوء ، ودون أن يبدو عليه أى أثر لقلق . . . « تصوروا . . . . تصوروا . . . فتاة تفعل هذا » . وبعد أن أسعفوه بالعلاج ، وربطوا أنفه الجريح ، راح يهتف بمن حوله من الموظفين . . . « إذا تقدمت فاتبعونى . أما إذا تراجعت فاقتلونى وإذا مت فاثأروا لى » . وتأتى بعد إحدى المحاولات مباشرة زيارة من السفير البريطانى ، الذى كان يجهل أمر المحاولة ، وظل يجهلها مدة طويلة أثناء اجتماعه إليه ، إلى أن تناهت إلى مسامعه عبر النافذة ، أصوات الناس وهم يشكرون الله فى الشوارع على نجاته[1] .

ووقف سكرتير الحزب ، يخطب الجماهير التى وصل هتافها إلى عنان السماء ويقول . . . « عناية الله تحرس الدوتشى ، فهو أعظم من أنجبته إيطاليا من أبناء . إنه خليفة يوليوس قيصر » .

وردت الجماهير بهزيم كالرعد . . . « يا دوتشى ، يا دوتشى . نحن معك حتى النهاية » .

ومضت الشهور ، وتضاعفت الانتصارات ، وأسقطت النكسات من الحساب ، واستبعدت ، واخترعت الأساطير ونشرت ، وشوهت الحقيقة وخنقت ، وارتفعت صورة الدوتشى كالإنسان الأكمل ، ورجل الخير ، تحلق فى مخيلة كل إنسان . أما تقلبه وعدم استقراره ، وتصنعه ورياؤه ، وغروره أمام الجماهير ، وإيمانه الخطر بأنه يستطيع أن يسيطر على كل مشكلة وأن يحلها بسرعة وحزم ودقة ، وطرده المتواصل لوزرائه وسكرتيرى حزبه وكبار موظفيه ، إن ارتقى أى منهم إلى رتبة يصبح فيها منافساً خطراً له ، كما حاول بالبو أن يفعل ذات يوم ، وحقارته التى دفعته ذات يوم إلى أن يصدر أمره إلى الصحفيين الإيطاليين بأن يقاطعوا هيلاسلاسى أثناء إلقائه خطابه فى عصبة الأمم نيابة عن الحبشة بلاده ، وأن يسكتوه ، وتركيزه السلطات فى يديه بحيث بات فى يوم من الأيام ، رئيساً للوزراء ، ووزيراً للخارجية ، ووزيراً للداخلية ، ورئيساً للمجلس الأعلى ، ووزيراً للتعاون . وقائداً أعلى للمليشيا ،

---

(١) سلك الملك فيكتور عمانوئيل الذى كان لا يقل عنه جرأة وشجاعة ، سلوكاً مماثلا عند ما حاول شاب اغتياله فى تيرانا (عاصمة ألبانيا) فى عام ١٩٤١. وراح الملك يقول بهدوء إلى رئيس وزراء ألبانيا الذى كان يجلس معه فى نفس العربة . . . « إن الصبى إنسان بائس . أليس كذلك ؟ » « المؤلف »

ووزيراً للبحرية والحربية والطيران ، فكلها أمور كان الناس ينسونها ويغفرونها له ، ولا يتحدثون عنها ، ولا ينشرونها .

وكان هناك المنشقون بالطبع ، والأصوات المعزولة التي تنادي بالحرية والخلاص من هذا الوضع السيئ ، ومن هذا الرخص الفكري والمادية الضحلة اللذين تتميز بهما الفاشية ، لكن الناس لا يأبهون لهم ، وإنما يقابلونهم بالزراية والاستخفاف . وبدا النجاح ، والاحترام أفضل عند الناس من الحرية السياسية ، وبدت الأجور المضمونة خيراً عندهم من الحق في الإضراب في أية صناعة فقيرة . وكان عدد أعداء الفاشية الذين يعملون ضد الدولة من خارج إيطاليا او داخلها ، والذين يتميزون بالذكاء والجرأة من أمثال إجنازيو سيلوني ، صغيراً ، ولم يكونوا يستطيعون التأثير على شعب ، يتعرض للتضليل أكثر من تعرضه للقسر والإكراه ، ويدفعه الخداع إلى الانسجام مع العهد . وكان الفاشيون يقولون إن الحرية لا تعني شيئاً للفلاح الذي يخشى عودة المجاعة ، أما أولئك المثقفون والكتاب ، وغيرهم من المهيجين السياسيين والاجتماعيين الذين كان الدوتشي واحداً منهم في يوم من الأيام ، والذين ظلوا يحتجون ويذكرون الشعب بأخطار الخنوع ، فقد تعرضوا إما للإبعاد أو الحد من الحرية ، أو استخدمت الرشوة في حملهم على الخضوع ، وعلى تأييد سياسة كان موسوليني يشير إليها دائماً بكثير من الصراحة الشريرة بسياسة « غصن الزيتون والهراوة » . وكان هناك عدد آخر من الكتاب والفنانين والعلماء آثروا الصمت ، وكان في وسعهم أن يأملوا في أن تنتهي النزعة الاستبدادية ذات يوم ، عندما تنتهي حالة الطوارئ ، أو في أن يتم إصلاح الفاشية من داخلها . وكان في وسعهم أن يشيروا إلى أمد ما بشيء من الرضى إلى اللين المتبع مع المنشقين على الصف الناشئ . وكانوا يقارنون الإبعاد إلى الخارج أو إلى جزر البحر الأبيض المتوسط وقرى كالابريا ، والاعتقال في بعض المعتقلات التي لا تتميز بالسوء ، بما ينتظر المنشقين من موت في غرفة التعذيب أو من أشغال شاقة مؤبدة في معسكرات الاعتقال ، أو من أعمال السخرة سنوات طوالا في المناجم ، في ظل الديكتاتوريات الأخرى ، الأقل تسامحاً . وكانت الحملات التأديبية التي تشنها العصابات الفاشية المحلية ، والتي لا سيطرة للشرطة عليها ، حيث تقوم هذه

العصابات بإذلال خصومها ، عن طريق إرغامهم على أن يشربوا علناً زيت الخروع . أو يأكلوا الضفادع وهى حية من أبشع الأمور التى تتقزز منها النفس ، ولكن فى الإمكان مقارنتها بالحرية النسبية الممنوحة لبعض خصوم الفاشية الجديدة من أمثال بنديتو جروسى . وكانت فرق مكافحة خصوم الفاشية الساهرة (الأوفرا OVRA) ، أقل أذى بكثير من قوة البوليس السرى السوفياتى (الأوجبو OGPU) أو الجستابو فى عهد النازية . وكان قائدها أرتورو بوشينى ، رجلا خبيثاً ، ولكنه لم يكن بالرغم من سمعته السيئة ، رجلا شريراً . ولم يحل عام ١٩٢٧ ، حتى كان الدوتشى ، وقد وثق من نجاحه ، ووعى كل الوعى الحقيقة الواقعة وهى أن الناس قد نسوا قصة اغتيال ماتيوتى ، قد أصبح قادراً على إبلاغ « محافظيه » فى الأقاليم ، بأنه لم تعد ثمة ضرورة للفصائل الفاشية ، وأن « عهد الانتقام والعنف » قد انتهى .

ولم يكن الظن قد ساور موسولينى فى أى يوم ، بأنه رجل ظالم . وقد سأله إميل لودفيج ذات يوم عن تجاربه فى السجن ، فقال وهو يحنى جذعه إلى الأمام ، ليقع ضوء المصباح الكهربائى المرتفع على وجهه ، وليتكئ بمرفقيه على المائدة ، وذلك شأنه دائماً إذ يحاول إيضاح أمر ، أو سرد قصة . . . « لقد ذقت مرارة السجن فى بلاد عدة » . ويمضى لودفيج فيروى قصة هذا الحديث قائلا . . . « ويكون الدوتشى فى مثل هذه الحالات فى منتهى الوداعة ، وقد أبرز فكه الأسفل ، وانفرجت شفتاه بعض الانفراج ، محاولا إخفاء مزاجه الهادئ ، وراء تقطيب حاجبيه » . . . وما لبث موسولينى أن قال . . . « أجل لقد ذقت مرارة السجن فى بلاد عدة ، إذ سجنت إحدى عشرة مرة . . . وكان السجن يمنحنى دائماً الراحة التى لم أكن أستطيع الحصول عليها فى خارجه . . . ولعل هذا هو السبب فى عدم حقدى على سجانى . وقد قرأت فى إحدى فترات سجنى قصة دون كيشوت ، ووجدت أنها قصة مسلية للغاية » .

وقال لودفيج ساخراً وهو يبتسم . . . « ولعل هذا هو السبب فى أنك تضع خصومك السياسيين فى السجن ؟ ولكن ألا تحملك ذكرياتك المريرة عن السجن على التفكير أحياناً فى هذا قبل أن تفعله ؟ »

فرد موسولينى قائلا . . . « لا . لا أبداً . فأنا لا أتردد . لقد بدأوا هم بزجى فى السجن ، وها أنا أسد لهم دينهم الآن ، بنفس عملتهم » .

وكان من العسير على المرء أن يصدق ، أن هذا الرجل ، وأقواله على هذا النحو من الزيف والرياء ، كان قادراً على القيام بأعمال القسوة المتطرفة التى تصدر عن الديكتاتور . ولم يكن رجلا فظيعاً ، كما تقول البيانات عنه . حقاً كان دائم العبوس ، وكان فى مكنته أن لا يعرف الصفح والنسيان ، بل كان أحياناً شريراً ، ومتعجرفاً ، ولكنه كان يخفى وراء صورة الطاغية ، والجمود الرخامى الذى كان يحاول أن يظهره فى وجهه الضخم ، كثيراً من العطف والإشفاق . وتروى مرجريتا سارفاتى قصة منحه أوسمة « نجمة العمل » ، إلى عدد كبير من الرجال الطاعنين فى السن . وكان يبدأ بمعانقة الرجل العجوز الواقف فى أول الصف ولكنه لا يكاد يصل آخره ، حتى يكون قد انسجم مع طبيعته وراح يداعب كل واحد أمامه ، ويتحدث إليه بحماسة حتى ليخيل إلى من يحدثه « أنه وجد فيه أخاً ضالا » . ويروى ماكارتنى مراسل « التايمز » اللندنية فى رومة فى الثلاثينات قصة حادثين آخرين ، وقع فيهما الدوتشى تحت سيطرة عواطفه . وكان الحادث الأول عندما سمع بوفاة أخيه ، بعد أن حمل له النبأ الأميرال الكونت كونستانزو تشيانو والد وزير الخارجية . وانهار موسولينى تمام الانهيار وراح يجهش بالبكاء دون تحفظ على كتف الأميرال . ويقول ماكارتنى إنه انهار أيضاً عندما قدمت إليه « دمية » فى حفلة استقبال أقامها رئيس اتحاد الصحافة الأجنبية للمراسلين الأجانب فى رومة . وكانت الدمية هدية لابنته الصغرى آنا ماريا التى كانت تبل آنذاك من مرض التهاب النخاع الشوكى الذى توفيت أمه متأثرة منه . . . ويقول مراسل الديلى ميل الذى كان يشهد الحفل . . . « وقد تساقطت العبرات من عينيه وحمل الدمية فى يده لحظة ، وتنحنح وكأنه يعتزم الكلام ، ثم راح يقول بهمسة مغتصبة إلى السنيور ألفييرى ، وزير الصحافة . . . « لا أستطيع الكلام . أرجو أن تقول شيئاً » . وخطا الدوتشى نحو النافذة ، وقد أدار ظهره للناس ، وراح يتطلع إلى الخارج . وبكى مرة ثالثة فى نوبة عنيفة من نوبات الألم ، عندما قتل ولده الثانى برونو فى الحرب . وعندما جاءت أرملته لتتسلم المدالية الذهبية التى منحت لزوجها

فى حفل رسمى ، وقد حملت ابنتها مارينا ، حفيدة موسولينى التى مدت ذراعيها إلى جدها ، رأى تشيانو فى عينيه « بريقاً » فضح كل ما حاولت إرادته الحديدية إخفاءه ، وشعر بأنه قريب من قلب حميه وأحزانه ».

وكان مولعاً أشد الولع بأطفاله الخمسة . وكان يحب اللعب معهم ، وتعليمهم الألعاب المختلفة . وكانت صوره معهم تظهر بانتظام فى الصحف المحلية ، التى لم تكن تعرضه على الشعب كرياضى عظيم فحسب ، وإنما عرضته كفارس من خيرة الفرسان وطيار من أمهر الطيارين ، ورب أسرة من خيرة الناس، بل المثل الرائع لرجل الأسرة فى إيطاليا كلها . لكن الناس لم يكونوا يعرفون كثيراً أنه « زير نساء » . وكانت بعض الصحف الأجنبية تنشر أحياناً قصة من قصص مغامراته الغرامية ، ولكن الرأى العام الإيطالى ، ظل يجهل إلى حد غريب ، فجور زعيمه ، الذى كان هو يعمل جهده على إخفائه . وكانت من أولى خليلاته على سبيل المثال امرأة غريبة الأطوار تكاد تكون مجنونة تدعى إيدا دالسر ، وقد ولدت منه طفلا ذا عاهة وضعيف العقل ، ظل مصدر إزعاج له مدة طويلة . وعندما قطع موسولينى علاقاته بها بصورة نهائية ، تحولت فى ثورتها إلى نمرة هائجة ، مما أجبره على حبسها فى إحدى المصحات للأمراض العقلية . وكانت تصر على أن موسولينى كان يعدها منذ عام ١٩١٣ بالزواج منها ، أو أنه كان قد تزوجها فعلا ، وأنه لا يستطيع شراءها بالراتب الضئيل الذى خصصه لها . ويقول سيزار روسى ، إنها كانت تزوره دائماً فى مكتبه فى صحيفة البوبولو ديتاليا فى ميلان ، وإنها عندما جاءت ذات يوم وقد حملت طفلها فى حجرها ، راحت تصرخ مهددة موسولينى بالنزول إليها إذا استطاع ، وأنه مضى إلى النافذة ليهددها بمسدسه . وقد اعتقلت مرة أخرى ، بتهمة إثارة الاضطراب فى ترنتينو عندما أشعلت النيران فى فراش غرفتها فى فندق بريستول ، صارخة بصورة جنونية بأنها زوجة الدوتشى . وقد ماتت فى مستشفى الأمراض العقلية فى البندقية فى عام ١٩٣٥ ، ومات ولدها بنيتو فى مستشفى مماثل آخر على مقربة من ميلان فى عام ١٩٤٢ . لكن الشعب الإيطالى ، باستثناء عدد قليل من الأفراد ، كان يجهل كل هذه الحقائق . وتورط موسولينى بعد موت إيدا دالسر بفضيحة غرامية لم يكن من الممكن إخفاؤها . فقد جاءت الممثلة الفرنسية ماجدة كورابيف

وكان اسمها التمثيلى ، فونتانجيس إلى رومه فى عام ١٩٣٧ لتجرى مقابلة باسم صحيفة « ليبرتى » مع الدوتشى . وراحت تجهر علناً ، بأنها لن تعود إلى باريس قبل أن تصبح لها علاقة غرامية بالدوتشى . وراحت تزهو فيما بعد قائلة ... « وأقمت فى رومه شهرين . وكنت خليلة الدوتشى فيهما عشرين مرة » . وظهرت أسرار من هذا الطراز وبلغة مكشوفة فى الصحافة الأجنبية ، وأبلغ موسولينى دوائر الأمن الإيطالية ، والسفارة الفرنسية فى رومه ، بأن إيطاليا لن تقبل الآنسة فونتانجيس فى ربوعها . وكان رد فعلها عنيفاً فقد حاولت الانتحار بالسم ، ثم أطلقت النار على السفير الفرنسى الكونت دى شامبرون وأصابته بجراح ، لأنه كان السبب كما قالت فى خسارتها « لحب أعظم رجل فى العالم » وعندما اعتقلها رجال الشرطة وجدوا فى شقتها أكثر من ثلاثمائة صورة لموسولينى[1] . وكان الدوتشى فى غضون هذه الفترة التى لها فيها بهذه الفتاة الفرنسية ، قد شرع فى علاقة عاطفية أشد عمقاً مع امرأة شابة أخرى ، لم يكن يشبع قط منها .

وكانت هذه المرأة هى كلاريتا بيتاتشى ابنة طبيب إيطالى ، وزوجة ضابط برتبة ملازم فى السلاح الجوى الإيطالى ، وهو الرجل الذى حصلت على طلاقها منه فيما بعد من محكمة مجرية . ويقال إن موسولينى رآها لأول مرة وهو فى طريقه إلى أوستيا فى عام ١٩٣٢ . فقد كان يجلس فى المقعد الخلفى من سيارته « الالفاروميو» عندما مر بها وكانت تلوح بيديها وتهتف « دوتشى دوتشى » . وقد بدت رائعة جميلة فى حماستها فاستوقفت أنظاره . وأمر سائقه بالوقوف . وخرج من السيارة متجهاً إليها ، فارتجفت من وقع المفاجأة ، وأحست بشعور طاغ ، كما ذكرت ، وهو يتحدث إليها لأول مرة .

كانت فتاة جميلة ، ذات عينين خضراوين ، وساقين طويلتين وملفوفتين ، وصدر عامر من الطراز الذى يحبه موسولينى فى أية امرأة . وكان فى صوتها بحة جميلة . وكانت ملابسها زاهية الألوان بلا ذوق ، بينما سرحت شعرها أيضاً بصورة تافهة . وكانت شفتها العليا قصيرة ، وأسنانها صغيرة ، حتى إذا ما ابتسمت

---

(١) حكم عليها بالسجن سنة واحدة بتهمة الاعتداء على السفير وإصابته بجراح . كما قضت مدة أخرى فى السجن بعد الحرب بتهمة التجسس للمحور ، وقد انتحرت بالسم فى جنيف فى عام ١٩٦٠ .

بانت لثتها ، وظلت على هذه الصورة حتى تعلمت الابتسام دون أن تفترق شفتا
كثيراً . وكانت كريمة ، وفى عقلها لوثة ، كما كانت مغرورة ومشبوبة العاط
وكثيرة التبلد . وكان إخلاصها لموسولينى كاملا وقوياً . وكانت تشكو دائماً ،
أوجاع حقيقية ووهمية ، وعندما أجهضت ذات مرة ، كادت تموت من النزيف
وواظب موسولينى على زيارتها ، فتأثر والداها بإخلاصه الواضح ، وقلقه عليها
وإصراره على أن يشهد عمليتها . وكانت تذهب إليه فى العادة إلى قصر البندقية
وتدخل من باب جانبى . وتستقل المصعد إلى شقة فى الطبقة العليا من القصر حيث
يوافيها الدوتشى ، ليقضى معها أحياناً بضع دقائق بين مقابلة وأخرى من مقابلا
الرسمية .

وكان موسولينى كأى زير نساء آخر ، ميالا إلى العزلة . ولم يكن له إلا عد
قليل جداً من الأصدقاء . ولم تكن له صلات وثيقة بالناس ، وهى حقيقة كا
دائم الزهو بها . وكان يقول دائماً بشىء من التفاخر . . . « لو أن الأب الأقدس
جاءنى ليقول إنه صديقى ، لرفضت عرضه مهدداً بقبضة يدى ، ولو أن والدى
عاد إلى هذه الحياة ، لما وضعت ثقتى فيه » . وقال ذات يوم بصورة أرق فى
أخريات أيامه . . . « لم أعرف قط فى حياتى دفء الصداقة الحقيقية ، وإن كنت
قد أحببت عدداً كبيراً من النساء . ولكننى لا أعنى هذا ، وإنما أعنى الرابطة
القوية التى لا تنفصم والحب الوثيق بين رجلين . ومن المؤسف أننى لم أعرف مثل
هذه الرابطة منذ مات أخى أرنالدو » .

وقد مات أرنالدو فى ديسمبر عام ١٩٣١ ، وكتب موسولينى تخليداً لذكراه ،
كتاباً لم يضمنه عواطفه تجاه أخيه فحسب ، وإنما ضمنه أيضاً حبه لوالديه ،
بكثير من الإخلاص والتأثر . ويتضمن كتابه هذا « حياة مع ساندرو وأرنالدو » ،
على النقيض من تاريخ حياته الذى كتبه ، ومن الفقرات الواعية الشديدة الإحساس
فى كتابه الآخر « حديث مع برونو » الذى كتبه بعد موت ولده الثانى فى حادث
الطائرة فى الحرب ، صفحات عدة فى منتهى الجمال والروعة . وذكر جيوفانى
جنتيل بعد أن قرأ هذه الصفحات التى تحدث فيها موسولينى عن أسرته وعن الريف
الجميل الذى عاش فيه ، يقول : « إنه ليس فى إمكان طاغية أن يكتب بمثل هذه

الرقة » . وقد يكون فى هذا القول الكثير من المبالغة ، ولكنه صحيح إلى حد كبير وفى وسع الإنسان أن يفهمه . فلاريب فى أن موسولينى قد كتب ما كتبه من صميم فؤاده ، إذ أنه كان يفتقر إلى القدرة على تبين الجمال وتذوقه فى أى عمل من أعمال الفن .

وتصف مرجريتا سارفاتى ، حادثاً وقع لها عندما كانت فى صحبة موسولينى ، وهما ينظران إلى ما فى متحف الفاتيكان من طنافس فنية . لم يكن الدوتشى قادراً على تمييز الجمال فى هذه الطنافس . فقد ذكرت الكاتبة أنه قال لها . . . « ترى ما الذى تعنيه هذه الطنافس على أى حال ، سوى أنها مجرد أشياء » . وأضافت مرجريتا أن بناء الفاتيكان نفسه لم يكن يؤثر عليه كثيراً ، سوى من ناحية ضخامته . وكان يقول كأى طفل صغير يلج قصراً منيفاً . . . « ما أكثر ما فيه من غرف ، وما أوسعها . كانوا يعرفون فى الماضى كيف يبنون » .

ولاحظ هتلر أيضاً افتقار موسولينى إلى تذوق الفنون المنظورة وقد هاله ما رآه على الدوتشى من ضيق وتبرم أثناء الزيارة التى قاما بها معاً لمعرضى بيتى وأوفيزى فى فلورنسة فى عام ١٩٣٨ . وعاد الدوتشى فأذهل الفوهرر من عدم اكتراثه بالصور التى أخذه لمشاهدتها فى مدينة نابولى فى تاريخ لاحق . ويقول هتلر عن هذه القصة . . . « وبعد أن شاهد ثلاث صور ، أحس بالملل والضيق ، ولم يعد فى وسعه أن ينظر إلى صور أخرى . وكانت النتيجة أننى لم أره بدورى أى صور منها . ولم يكن فى وسع موسولينى أبداً أن يشترك مع الإيطاليين فى زهوهم بتراثهم الفنى ، ولم يستطع فهم ما أثاره تصرف الحكومة الفاشية فى إهدائها تمثال « المنتقم » من صنع ميرون (Myron)[1] لهتلر عندما أعجب به إبان زيارته لروما من فزع وسخط . وقد رفض أيضاً أن يحس مع الإيطاليين بالخوف من أن تدمر الطائرات البريطانية والأمريكية بقنابلها ، آثارهم الفنية العظيمة ، أثناء الحرب .

ولكن بالرغم من عدم تأثره بالرسم والنحت ، وجميع الفنون والروائع الأخرى ، وحيرته فى أمرها ، وبالرغم من أنه كثيراً ما كان ينام فى دار الأوبرا كما ذكر ولده

---

(١) ميرون نحات إغريقى . عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد على حدود أتيكا . وكانت تماثيله كلها من البرونز تقريباً . ويعتبر تمثال المنتقم من أعظم التماثيل الأثرية لأنه التمثال الحقيقى الذى صنعه ميرون . . وهناك نسخة فيها بعض الخطأ من نفس التمثال فى المتحف البريطانى .

فيتوريو ظل الأدب يفرض عليه طيلة حياته جاذبية مسيطرة ، كان صادقاً كل الصدق فيها ، مزهواً دائماً بذوقه الأدبي وإن ظل يميل سراً إلى قراءة القصص الجنسية الرخيصة[1] . وكثيراً ما قال فى أخريات أيامه إن مما يؤسيه ويؤلمه كل الأسى والألم أن الفاشية لم تنجب شاعراً عظيماً واحداً ، أو كاتباً واحداً يستحق القراءة .

وكثيراً ما قال . . . « ما كنت لأشكو ، لو كان هناك كتاب فاشى رائع واحد . ولكن ماذا نجد أمامنا ؟ نجد كتباً تافهة سيئة الكتابة ، تمتدحنى وكم كنت أوثر لو وجدت كتاباً جيداً يهجونى وينقدنى » . وقد يكون موسولينى صادقاً فى قوله هذا ، بالرغم من عجائب الرقابة الفاشية التى حظرت كتب روبرت جريفز (Robert Graves) ، وأكسيل مونتى (Axel Munthe) ، وغيرهما ، ومنعتها من العرض فى المكاتب العامة .

وتحدث ألبرتو مورافيا فى مقابلة صحفية أخيرة عن كتابه النقدى المشهور للفاشية « المسخرة » والذى صور فيه كابرى فى عام ١٩٤٠ فقال :

« كنا فى غمرة الحرب ، بما حملته من فاشية طاغية ومن رقابة . وكان علينا أن نقدم ما نكتبه من مخطوطات إلى وزارة الثقافة الشعبية للحصول على موافقتها ، وكانت هذه الوزارة مكتظة بمعلمى المدارس الابتدائية الذين يتقاضون ثلاثمائة ليرة عن كل كتاب يراجعونه . وكانوا رغبة منهم فى الاحتفاظ بالمظاهر عندما يجدون إلى ذلك سبيلا ، يصدرون أحياناً أحكاماً سلبية . وقد قدمت ذات يوم مخطوطة إلى الوزارة ، ولكن الذين قرأوها فى البداية عزفوا عن اتخاذ قرار بصددها ، فأحالوها إلى مساعد وكيل الوزارة . وتعرض المساعد لامتحان عسير أمام ضميره ، فأحالها إلى الوكيل

---

(١) لا شك فى أن إيجنازيو سيلونى يعارض فى هذا الرأى بالطبع . فهو فى كتابه الرائع والمعادى للفاشية — « مدرسة الديكتاتورين » — يرسم صورة أحد الأبطال معلقاً على ما قاله موسولينى من أن والده كان يتلو على مسامعه كل مساء سبت ، من كتاب الأمير لمكيافلى بقوله . . . « لعل معرفتنا بوالد موسولينى تجعلنا نرى أن آخر شىء يمكن أن نصدقه هو أنه كان قادراً على أن يتلو أى شىء على مسامع أى إنسان مساء يوم السبت . وكان هدف موسولينى الوحيد من نشر مثل هذه القصص أن يترك انطباعاً حسناً عند سامعيه . ولعل جل ما استطاع أن يفعله موسولينى طيلة حياته كلها أنه كان لا يقرأ ، إلا الصحف . ولكنه كصحفى موهوب ، كان قادراً على أن يتحدث وأن يكتب بشىء من الغرور عن كل شىء ، حتى عن الأمور التى كان لا يعرف شيئاً عنها . « المؤلف »

للخلاص من هذا الامتحان ، الذى أحالها بدوره إلى الوزير ووصلت المخطوطة أخيراً إلى موسولينى » .

وسأل الصحفى مورافيا : « إذن أفترض أنك تعرضت إلى التحقيق . . ؟ »

ــ لا ، أبداً . فقد أمر موسولينى بطباعة الكتاب .

ــ حقًّا !!

ــ أجل ، إنه لم يكن رجلا سيئاً .

ــ سننشر هذا الحديث فى الخارج ، حيث ينظر إلى موسولينى بمنظار آخر .

ــ ولكننا نفهم حقيقة موسولينى أكثر من غيرنا ، وآمل أن لا يستنتج الناس من هذا أننا من الفاشيين . ولعل أسوأ أخطائه ، جهله المعيب بالشؤون الخارجية . ولو كانت له سياسة خارجية ذكية كسياسته الداخلية ، لظل على الغالب فى مكانه حتى اليوم .

٢

بالرغم من أن من الشائع اتهام المخالفين للعهد الاشتراكى الوطنى فى ألمانيا بالاشتراك فى أعمال هذا العهد ، إلا أن الدولة الفاشية فى إيطاليا كانت فى نهاية عام ١٩٣٦ ، قد غدت المكان الذى بات الانحراف فيه عن المبادئ الفاشية أمراً مألوفاً . وقد بذلت محاولات ضخمة ومتعبة وسخيفة أحياناً لإرغام الإيطاليين على الارتفاع إلى المثل الفاشية فى النظام والواجب ، وفرض سلوك يتميز بالصرامة والفردية عليهم ، رغم غرابته على طبيعتهم ، وعدم انسجامه مع الشعار الفاشى المبكر . . « أنا لا أكترث قيد شعرة » . وكان الدوتشى لا يمل من تكرار القول ، بأن الوقت قد حان لأن تجعل الفاشية مسئوليتها التاريخية والتقليدية ، المراعاة الدقيقة الصارمة للنظام الفاشى ، كما أن واجب الفاشى أن يقدم المثل الذى يحتذى للكفاية ، والحزم فى العمل ، والدينامية ، بدلا مما تميزت به الحياة الإيطالية قبل الفاشية من تراخ ، وكسل ، وخلافاً للحياة فى الديمقراطيات الغربية التى يصورها موسولينى بالترهل والاسترخاء ، والتقليد والبورجوازية ، والانحلال . ولم تكن أقوال الفاشية من أمثال . . . « عش حياة خطرة » ، و « انظر إلى الحياة نظرة جدية » ،

مجرد شعارات ، وإنما كانت خصائص جوهرية فى العقيدة الفاشية . وكان موسولينى مولعاً دائماً بأن يقول . . . « لقد تحول الثوريون فى البلاد الأخرى بصورة متدرجة إلى موادعين هادئين ، لكننا هنا فى إيطاليا ، نزداد يوماً بعد آخر ، تطرفاً وعناداً وإصراراً » .

وكان على الفاشى أن يحذر دائماً من خطر الاسترخاء والعودة إلى عادات الماضى المتكاسلة من معنوية وخلقية . وعليه أن يكون « رجل عهد موسولينى الجديد » ، متقد الحيوية والنشاط ، حازماً فى قراره ، مخلصاً فى ولائه ، قادراً على التخلى عن ملذاته ، وعلى إذابة شخصيته فى خدمة المثل العليا الصارمة للأخلاق الفاشية . وكان موسولينى يقول . . « نحن المدافعون عن الأهمية الجماعية للحياة ، ونحن نريد تنمية هذا الاتجاه على حساب التفردية (individualism) . وكان على الأعضاء المسجلين فى الحزب ، والذى بلغوا فى مارس عام ١٩٣٧ ، أكثر من مليونين ، فى سبيل تحقيق هذا الهدف ، أن يضعوا معياراً متزمتاً للسلوك ، يتحتم على جميع الإيطاليين السير بموجبه .

وقد أطلق على السنوات الخمس التى سبقت نشوب الحرب العالمية الثانية اسم « حقبة ستراشى » ، نسبة إلى الجهود المتكررة التى ظل يبذلها سكرتير الحزب ، أخيل ستراشى ، لصب الإيطاليين جميعاً فى قالب الطاعة بحيث يكونون كالإسبارطيين فى حمل الشعارات والمثل الموسولينية . وكان ستراشى هذا مطيعاً للدوتشى طاعة عمياء ومتفانية فى الإخلاص ، يفتقر إلى سعة الأفق والذكاء ، ومكروهاً ، بصورة خاصة من أبناء الشمال ، لأنه جنوبى جاهل وتافه ، من ذلك الطراز من الموظفين الذين كان موسولينى يحب دائماً أن يعهد إليهم بمراكز المسئولية فى السلم الفاشى . وذكر تشيانو فى يومياته ، أنه لم تحل نهاية الثلاثينات حتى ظهرت موجة شعبية عارمة من السخط على القيود التافهة التى فرضها سكرتير الحزب . وقد اقترف هذا الرجل الخطأين الكبيرين والخطيرين اللذين يمكن للإنسان أن يقترفهما عندما يتعامل مع الشعب الإيطالى . فقد خلق جواً من الإرهاب ، وأزعج الإيطاليين بألوف المسائل الصغيرة التافهة ذات الطابع الشخصى . فالإيطاليون يحبون من حكامهم أن يحكموا حكماً عاطفياً . وقد يغفرون للحاكم إذا أساء إليهم ، ولكنهم

لا يغفرون له أن ينكد عليهم عيشهم » .

وكان ستراشى . مكروهاً من جميع مواطنيه ، محتقراً منهم ، لأسباب عدة منها حبه للمظاهر والأوسمة ، وإصراره على أن تحل التحية الرومانية القديمة محل المصافحة باليد، وإخلاصه للشعارات ونفاقه المتلهف الواضح فى تبنى كل ما يصدر عن الدوتشى من فكر أو رأى . وعندما تبنى موسولينى فى عام ١٩٣٨ آراء برونو سيكوجنانى (Bruno Cicognani)، الذى كان قد كتب مقالاً فى صحيفة الكوريرى ديلا سيرا ، يهاجم فيه الاستعمال المضحك لضمير « أنت » الشائع (Lei) فى الأحاديث المهذبة ، كضمير للمخاطب فى الكلام مما يتعارض مع التقاليد الأدبية الإيطالية القديمة والجيدة ، ويتنافى مع الكرامة الشخصية ، بادر ستراشى إلى تبنى الحملة ، ضد هذا « الضمير » بعنف شديد ، وأصدر منشورات حزبية يطلب فيها على الفورو بصورة إلزامية استعمال الضمير القديم « أنت » (Voi) بدلاً من ذلك « الضمير » المألوف . ولا ريب فى أن حملاته المفرطة والعنيفة على هذا الضمير ، عمقت مشاعر الازدراء التى يحملها له الشعب الإيطالى . ودفعت خصوم العهد إلى الإصرار على استخدامه دائماً كرمز على تحديهم للعهد الفاشى . وراح بنديتو جروش ، الذى تحول الآن إلى خصم قوى ومكشوف للفاشية يستعمل الضمير المألوف فى أحاديثه مع أسرته وأصدقائه بدلا من الضمير التقليدى ، الذى كان دائم الاستعمال له من قبل . وكثيراً ما خرج ستراشى على حدود المألوف ، وحدود ما يرضى به موسولينى ، كمحاولته مرة ، فرض قاعدة معينة ، وهى إنهاء جميع المراسلات الرسمية بعبارة « عاش الدوتشى » . وسمع موسولينى لأول مرة بهذه القاعدة الجديدة ، عندما رآها منشورة فى الصحف كأمر من الحزب ، وراح يستدعى سكرتير الحزب إلى حضرته وهو فى ثورة غضبه . وعندما دخل ستراشى مكتب الدوتشى ، راح موسولينى يملى على سكرتيرته أمامه . . . قائلاً . . . « سيدتى . . . أبعث إليك بهذه الرسالة لأبلغك أن ولدك العريف فى كتيبتنا ، قد سقط عن جواده ، وتهشم رأسه . عاش الدوتشى » . . . « وسيدى العزيز . . . نبعث إليك بهذه الرسالة لنبلغك أن الرغبة فى التخفيض فى عدد الموظفين فى الشهر القادم ستؤدى إلى فصلك من وظيفتك . عاش الدوتشى » . ومضى موسولينى يملى مجموعة

من أمثال هذه الرسائل الوهمية قبل أن يستدير غاضباً إلى ستراشي . ليطرده من حضرته ، متهماً إياه فى سورة غضبه ، بأنه قد نجح فى أن يجعل من الدوتشى أضحوكة فى طول إيطاليا وعرضها .

وكان ستراشي كسكرتير للحزب مسئولا أيضاً عن التدخل المتزايد للأفكار والعقيدة الفاشية فى الرياضة ، مما أدى إلى أن تصبح احتكاراً للدولة ، تمارس عليها دوائر الدعاية فى الدولة إشرافها السخيف النموذجى ، كأن تقرر مثلا أن يرتدى فريق التنس الدولى الإيطالى القمصان السوداء ، وأن يرفض أفراده مصافحة من يلعبون معهم مكتفين بالتحية الرومانية ، وأن تمنع الصحف مثلا من نشر صورة بطل الملاكمة الإيطالى ، بريموا كارنيرا ، وهو يهزم فى الحلقة فى مباراة البطولة العالمية . ومع أن المنظمة التى حملت اسم «بعد العمل» (Dopolavoro) ، قد عملت الكثير لتأمين الألعاب المسلية والرخيصة للعمال ، وامتاعهم بعطل وأجازات لا تكلفهم كثيراً ، إلا أن هؤلاء العمال ، غضبوا من الإصرار على « الطراز الفاشى » فى الرياضة وألعاب التسلية ، واعتبروه تدخلا فيه الكثير من الادعاء والتظاهر . وكان النظام الذى أدخل وبات يسمى « بالسبت الفاشى » كالعطلة الأسبوعية التى حلت محل « نهاية الأسبوع » وكل ما انطوى عليه هذا النظام من مظاهر « بث روح الثورة » ، نموذجاً لهذه الحقيقة . وكان يطلب إلى العمال والكتاب سواء أكانوا فى خدمة الحكومة أم لا ، أن يقضوا أوقات بعد الظهيرة يلعبون الألعاب ، أو يشتركون فى التمارين العسكرية والاستعراضات . أو يحضرون بعض الندوات والمناقشات السياسية .

وقد كتب مؤرخا العهد الفاشى لويجى سلفاتوريللى وجيوفانى ميرا فى كتابهما « تاريخ إيطاليا فى العهد الفاشى » يقولان إن . . .

« الميول الطبيعية للشعب والمقاومة السلبية التى أبداها ، هبطت بالبرنامج الفاشى إلى الحد الأدنى ، وبات « السبت الفاشى » فى النهاية مجرد وقت للراحة والمتعة ، أى كالسبت الإنجليزى . ولم تظهر المقاومة للانضباط الستاراشى فى هذه الصورة وحدها . . . فالتباين المقبول بين ما هو مطلوب ، وبين ما هو واقع ، أو بين النظرية والتطبيق وبين المظهر والواقع فى ميدان الانضباط الفاشى ، أسهم من ناحية

في حماية الإيطاليين من الاستعباد المطلق والانحلال الروحي ، كما خلق من الناحية الأخرى ، تلك النزعة لاحترام القانون ، وعدم التظلم من الأنظمة ، وذلك الافتقار إلى الضمير الاجتماعي ، وهي جميعها عيوب كانت وما زالت خطيرة في الشخصية القومية . على أي حال ليست هذه هي أقل التهم التي توجه إلى العهد الفاشي أهمية » .

وكان إيتالو بالبو ، أذكى الأربعة من أعضاء مجلس الأربعة ، والذي كان موسوليني يخشى من شعبيته ويثور على انتقاداته العلنية ، ولذا فقد بعث به الدوتشي ليكون حاكماً عاماً في ليبيا . ولم يكن هذا الرجل يجهل هذه الحقيقة ، إذ أنه قال في صيف عام ١٩٣٨ . . . لم يعد هناك مع الأسف طعم للإخلاص في إيطاليا .

القسم الثانى

الإمبراطورية والمحور

١

الدبلوماتى

٢٨ أكتوبر ١٩٢٢ — ٢٠ يونيو ١٩٤٠

« على الألمان أن يسمحوا لى بتوجيههم ، إذا أرادوا تجنب الأخطاء التى لا تغتفر . وليس ثمة من يشك فى أننى أكثر ذكاء ودهاء من هتلر فى الشؤون السياسية »

١

« كان من رأيى دائماً ، أننى وقد حطمت كبرياء البلشفة ، يجب أن تغدو الفاشية الحارس الأمين لسياستنا الخارجية » . . . هذه هى العبارة التى صدرت عن موسولينى قبل الشروع فى الزحف على رومة . ولعل هذا الوعد الذى كان يكثر من ترداده ، هو الذى دعاه إلى أن يحاول قيادة إيطاليا إلى مركز أكثر احتراماً فى أوربا ، وإلى أن يحظى بتأييد قوى من جانب الشباب فى بلاده . فقد راح فى أول خطاب ألقاه فى مجلس النواب بعد انتخابه نائباً ، يعرب عن تطلعاتهم الملحة ، وقد لقى التشجيع فى موقفه هذا مما دعاه إلى اتخاذ موقف التحدى . الذى أوصل البلاد إلى شفير الحرب فى غضون سنة واحدة من توليه الحكم .

فى السابع والعشرين من أغسطس عام ١٩٢٣ ، اغتال بعض اليونانيين الجنرال الإيطالى إينريكو تللينى ، رئيس اللجنة الدولية لتخطيط الحدود بين ألبانيا واليونان مع ثلاثة من الجنود الإيطاليين ، لاتهامه بممالأة المطالب الألبانية . ولم يمض يومان حتى كانت إيطاليا توجه إلى اليونان إنذاراً نهائياً مطالبة بتعويض قدره خمسون مليون ليرة إيطالية . وعندما أنكرت اليونان مسئوليتها عن الحادث ، أرسل موسولينى الأسطول الإيطالى إلى جزيرة كورفو فاحتلها . واشتكت اليونان فى الأول من سبتمبر إلى عصبة الأمم ، وكان رد إيطاليا الإصرار على أن العصبة لا تملك الصلاحية فى معالجة القضية . وسرعان ما تعرضت اليونان للضغط الشديد لتلبية مطالب إيطاليا ، ودفع التعويضات الكاملة وجلا الإيطاليون عن كورفو .

وأفزعت الحرب الوشيكة موسولينى . وبالرغم من أنه لم يعترف بهذه الحقيقة إلا بعد سنوات طويلة ، إلا أنه راح منذ ذلك الحادث ، يسير بمنتهى الحذر والحيطة فى سياساته الخارجية وفى هذا الميدان الخطر من سياسات القوة . وبدا فى الواقع فى السنوات العشر الأولى من حكمه ، وكأن لا مطمح له فى أوربا وأفريقيا ، وكان قانعاً بأن ينفق كل طاقاته فى الرفع من شأن دولته الفاشية وتعزيز الرخاء فيها . وقد بدا فى الحالات القليلة التى ظهر فيها خارج إيطاليا ، فى لوزان وفى لندن أثناء مؤتمرات عام ١٩٢٢ ، وفى لوكارنو فى ديسمبر عام ١٩٢٥ ، ليوقع نيابة عن إيطاليا المعاهدة المشهورة بهذا الاسم ، برباط عنقه الذى يجعله على شكل الفراشة ، وبحذائه المغطى بالقماش ، وقبعته العالية ، وقفازيه الأبيضين ، وسرواله التى ينقصه الكى ، شخصاً يختلف كل الاختلاف عن صورة ذلك الثورى العنيف الذى كان يرسمه فيها الصحفيون الأجانب . وكان الناس يدهشون من ضآلة جسمه ، إذ لم يعد طوله خمس أقدام وست بوصات ، ومما يبدو فى ابتسامته غير المتوقعة من دفء . ولم يكن ثمة ما يدعو أحدهم إلى الفزع منه . وقد علق اللورد كيرزون على شكله بشيء من الازدراء الأرستقراطى قائلا . . . « حقًّا إنه شخص غريب[1] » .

وبدت آراؤه معقولة ، بل أكثر انطباقاً على العقل فى الواقع من تلك التى كان يحملها كثيرون من ساسة أوربا فى عهده ، وكانت الخطب التى يعرض فيها هذه الآراء إذا ما قورنت بانفجاراته اللاحقة ، من النوع الإيجابى الموادعة والتوفيق . وأقام الدليل على تسامحه الواضح ، بتلك السلسلة من الاتفاقات التى عقدها مع يوجوسلافيا ، والتى كانت من ناحية المصلحة الإيطالية ، أقل بكثير مما كان يتوقعه الكثيرون من القوميين الإيطاليين . ولما كان قد رأى فى « المراجعية » فرصة لاستغلال ما تحس به أوربا من مرارات هى فى صالح إيطاليا ، فقد واصل الحث على ضرورة تعديل معاهدة فرساى وراح فى عام ١٩٢٦ يقول . . . « ستؤدى هذه السخافة المسماة بفرساى ، لا إلى الثورة فى ألمانيا فى يوم ما ، بل إلى الحرب فى أوربا أيضاً » . وقد أعاد هذا الإنذار المرة تلو المرة . وبالرغم من استمراره

---

(١) أعاد موسولينى الإهانة لكيرزون . فقد كره كيرزون ، ولندن معه ، لأنها بدت فى عينه حاشدة بالناس من أمثال كيرزون ، وقد قرر بعد زيارته القصيرة للندن أن العاصمة البريطانية تمثل كابوساً لكل من يفد إليها من إيطاليا . وأعرب عن أمله فى أن لا يزورها مرة ثانية . « المؤلف »

فى الإخلاص لحلفاء إيطاليا فى الحرب ، ومن تأييده لهم عامة فى جهودهم للعثور على حلول سلمية لمشاكل أوربا ، فإنه لم يستطع الموافقة دائماً ، على أن حلفاءه يعالجون هذه المشاكل بطريق واقعى ، ولذا فقد دأب دائماً على السير على سياسة مستقلة بل مناقضة لسياساتهم أحياناً ، متابعاً كما قال اللورد هاليفاكس[1] ، فيما بعد « الدور التقليدى لإيطاليا فى الموازنة بين ألمانيا والدول الغربية » . ووقف إلى جانب تلك البلاد التى أحس بأنها عوملت معاملة خطرة ومجحفة فى معاهدة فرساى ، وراح يلحف على وجوب اتخاذ مواقف أكثر عملية وعطفاً من مشاكل أعداء إيطاليا السابقين ، ويطلب بصورة خاصة ، أن تتخذ فرنسا موقفاً أكثر واقعية ، ولا سيما أنه لم يستطع أن ينسى قط معارضتها لطلباته فى مؤتمر لندن فى عام ١٩٣٠ ، لتكون لإيطاليا المساواة البحرية مع فرنسا . واقترح فى عام ١٩٣٣ ، عقد ميثاق رباعى يضم فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وألمانيا ، آملا فى أن تؤدى « إعادة النظر السلمية » عن طريق قيام إيطاليا وبريطانيا بدور الوسيط بين فرنسا وألمانيا ، إلى وضع أفضل تستطيع إيطاليا عن طريقه الإفادة من حركة بعث ألمانيا فى الحصول على تنازلات جديدة من فرنسا . لكن الفرنسيين وقد شكوا فى حوافزه ، وقفوا موقف التحفظ من اقتراحه ، ثم أقنعته الأحداث التى وقعت فى النمسا فى العام التالى ، بأن الفرصة فى تحسين مركز إيطاليا فى أوربا عن طريق العطف على مطالب ألمانيا المشروعة قد ولت وانتهت . وكان ما يراد الآن ، كما يعتقد اتخاذ موقف صلب من الأطماع المتزايدة لهذه الدولة التى بدأت تدرك أن فى وسعها أن تأخذ كل ما تريده ، رغم إنكار جاراتها المعاديات لها عليها ذلك .

وسرعان ما عدّل موسولينى سياسته التى تدعو إلى قيام جبهة قوية مناهضة لألمانيا ، وما أعقب هذه السياسة من توثيق لعلاقاته بفرنسا وبريطانيا ، تعديلا جذرياً ووقع فى نهاية عام ١٩٣٤ ، صدام بين الجنود الإيطاليين والأحباش على الحدود بين الحبشة والصومال الإيطالى . ولم تمض عشرة أشهر انصرمت فى التأهب والشائعات والتهديد والوعيد والإنذارات والتردد حتى كانت إيطاليا تغزو الحبشة فى أكتوبر

(١) اللورد هاليفاكس ، كان وزيراً لخارجية بريطانيا مدة طويلة فى عهد حكومة تشمبرلين قبيل الحرب العالمية الثانية وبعد نشوبها ثم فى وزارة تشرشل ، وعين فى عام ١٩٤١ سفيراً فى واشنطن حيث ظل هناك حتى توفى بعد بضع سنوات . « المعرب »

عام ١٩٣٥ . ولم يكن الصدام الذى وقع على آبار « وال وال » بالطبع إلا الذريعة الظاهرية . فقد ركز موسولينى نظره على هذه البلاد الوحيدة التى لم تستعمر حتى تلك اللحظة فى أفريقيا منذ أمد طويل، ويقول الجنرال دى بونو إن موسولينى قرر غزوها منذ عام ١٩٣٢ . وبالرغم من خوفه منذ البداية من تدخل بريطانيا لمنعه من تحقيق غايته . فإن دينو جراندى ، سفيره الآن فى لندن ، راح يبلغه أنه علم من خصوم إيدن فى الوزارة البريطانية أن بريطانيا لن تحارب دفاعاً عن الحبشة . وسرعان ما تأكد من هذا النبأ من رسالة حصلت عليها المخابرات الإيطالية. وأمل هتلر فى أن يؤدى انشغال إيطاليا فى أفريقيا إلى تحقيق مطامعه هو فى النمسا ، فراح يشجع موسولينى على القيام بمغامرته .

وسمع العالم بأسره بقصص الأحباش العزل من السلاح الذين تحصدهم مدافع الإيطاليين الرشاشة ، وتخنقهم غازاته السامة التى سلطها عليهم ، فاشتد سخطه وغضبه . لكن هذه الأمور فسرت للإيطاليين فى صورة أخرى . وعندما انتهت الحملة السريعة القصيرة ، كان موسولينى قد وصل إلى ذروة شعبيته وسلطانه فى بلاده .

فقد تحدى العالم بأسره وانتصر فى تحديه . ومثل انتصاره لكثيرين من الإيطاليين مكافأة عادلة ، كما مثل تحديه للعالم ، موقفاً كريماً ، وشريفاً ، وذلك لأنهم لم يروا فى عزمه على إقامة إمبراطورية فى أفريقيا عملا من أعمال الوحشية والسلب. وكان البريطانيون والفرنسيون قد بنوا إمبراطوريتهم بنفس السبل والوسائل، ولكن بحماية الاتفاقات الدولية ، ولذا لم يكن لهما حق فى هذا الرياء الزائف فى استنكار الطلبات المشروعة لدولة أوربية أخرى تكاد تموت اختناقاً ، وتتطلب فراغاً لإيواء عدد متزايد من السكان . وكانت بريطانيا وفرنسا تحتجان باسم الإنسانية ، لكن عداءهما كان نابعاً فى الواقع عن رغبتهما فى الإبقاء على إيطاليا بعيدة عن أفريقيا ، وعن تصميمهما على حرمانها من المنفذ الاقتصادى ، ومن إمكان التوسع الإقليمى. وكان من السخف فى رأى الإيطاليين التحدث عن الحبشة كدولة مستقلة ذات سيادة ، إذ أنها لم تكن فى الواقع أكثر من مجرد مجتمع لقبائل مختلفة الجنس والعنصر ، يسيطر عليها عدد من الشيوخ القبليين البدائيين ،

وفى مقدمتهم هيلاسلاسى ، الذين لا يحترمهم خصوم إيطاليا وأعداؤها ، إلا لأنهم يعتنقون مذهباً من مذاهب المسيحية . وكان من السخف أيضاً إنكار الحقيقة الواقعة ، وهى أن نفوذ إيطاليا فى الحبشة سيكون نفوذاً طيباً . وكانت بريطانيا نفسها قد اعترضت على قبول هذا « الدولة المتوحشة » عضواً فى عصبة الأمم ، عندما اقترحت إيطاليا إشراكها فيها لمنع بريطانيا من التدخل فى شؤونها . وسيؤدى غزو إيطاليا لها إلى وقف الحروب الداخلية وتجارة الرقيق ، كما سينعم الشعب بالفوائد الاجتماعية العظيمة[1]. وكانت التهمة التى نشرتها بريطانيا وفرنسا على نطاق واسع من أن الجيش الإيطالى قد استخدم الغازات السامة فى قتل الألوف من الإفريقيين الأبرياء ، فى نظر الإيطاليين مجرد دعاية شريرة ليس إلا . وكانت الغازات المسيلة للدموع هى الغازات الوحيدة التى استعملت ، بالإضافة إلى «غاز الخردل » الذى لا يميت ولا يصيب بعاهات دائمة . أوَ لم يجد برنارد شو نفسه مبررات لاستخدام هذه الغازات؟ وكان الدوتشى نفسه قد قال لأحد الصحفيين الإنجليز : «إذا أردتم الحديث عن الفظائع ، فسأريك صوراً لما فعله الأحباش بجنودنا ، وهى فى منتهى البشاعة ، بحيث تشمئز أية صحيفة من نشرها . ونحن لم نستخدم قط سحب الغازات التى استخدمت فى الحرب الكبرى ، أما غازات الخردل ، التى كنا نقذف بقنابلها فى الشقوق والوهاد الجبلية التى كان الأحباش يزحفون إليها لمهاجمة رتل إيطالى معزول ، فلم تكن فى الواقع إلا إجراء إنسانيًّا للحيلولة دون ضياع أرواح أخرى » .

وهكذا كانت ضمائر الإيطاليين مستريحة لما تفعله حكومتهم . ولم يكونوا قد أحسوا بالحاجة الماسة إلى الإمبراطورية كما أحس بها الدوتشى ، ولذا لم تكن حماستهم شديدة لضمان وجودها عن طريق القوة . وقد تحدث كثيرون من الفاشيين القياديين

---

(١) لم تكن هذه الادعاءات الإيطالية وما شابهها من أقوال جديدة على الاستعمار العالمى . فقد استخدم الاستعماران البريطانى والفرنسى أمثالها فى تبرير استعمارهما للقارتين الأفريقية والآسيوية ، كما لجأت إليها الدول الاستعمارية الأخرى كأسبانيا والبرتغال وهولندة وبلجيكا ، فالشعوب المستعمرة لا تستحق الحياة الحرة لأنها متأخرة ، وعلى « الرجل الأبيض » أن يؤدى رسالته « المزعومة » فى نشر الحضارة التى لم تكن فى الواقع إلا استغلال ثروات هذه البلاد واستعباد أهلها ، وتسخيرها فى خدمة البلد الاستعمارى وضمان رخائه وازدهاره . « المعرب »

إلى الأمير ستارهمبرج نائب مستشار النمسا ، وقائد جيشها ، وكان صديقاً شخصياً لموسولينى ، فبينوا له معارضتهم للحرب الحبشية ، ولم يكونوا يوافقون الدوتشى فى إيمانه بأن الفاشية ستتعزز فى الداخل وعلى المسرح الدولى ، بعرض من عروض القوة ، وأن هذا العرض يفرض من الاحترام أكثر ما تفرضه أية مناورات سياسية مهما كانت ناجحة ؛ ولم يتبينوا أيضاً ، افتراض الدوتشى العاطفى بأن سلطة إيطاليا فى أوربا « وتقدم الخلق الفاشى المقبل ، يتطلب الثأر من معركة عدوة » ، وهى المعركة التى هزم الأحباش فيها ، قبل نحو من أربعين عاماً ، الإيطاليين هزيمة منكرة ومذلة ، أضحكت العالم بأسره على إيطاليا .

أما الآن فقد ثبت بطلان هذه التحفظات ، وأخرست الأصوات المطالبة بالحذر وضبط النفس . وكان موسولينى قد أعلن قبل بضع سنوات . . . « أن هدفى فى منتهى البساطة ، فأنا أريد العظمة لإيطاليا ، وأريد من الدول الأخرى أن تحترمها وأن تخافها » . ولم يعد فى وسع الإيطاليين أن ينكروا أنه حقق هذه الغاية . وكان هناك بالطبع بعض الإيطاليين الذين شكوا فى أن يكون عمل إيطاليا متفقاً مع « أخلاق » القرن العشرين ، والذين خافوا من أن تكون غيرة موسولينى من نجاح هتلر المتزايد فى أوربا ، ورغبته فى أن يظهر أن إيطاليا ، دولة قوية أيضاً ، هما السبب فيما حدث . ومع ذلك فقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الإعجاب بالسرعة التى انتهت فيها حملة الحبشة خلافاً لتوقعات الخبراء العسكريين فى لندن وروما ، وهى سرعة يرجع الفضل فيها إلى الدوتشى وحده ، ملاحظين ، وكأن ملاحظتهم هذه مدعاة للتبجح والزهو ، بأنه ظل يمطر قائده فى الميدان بتعليماته المستمرة ، التى وصلت فى بعض الأيام ، إلى أكثر من مائة برقية عاجلة ، تعالج كل ناحية محتملة من نواحى العمل العسكرى . لكن النجاح العسكرى لم يكن إلا جزءاً فقط من النصر الذى حققه الدوتشى . فقد خلفت الحرب أثراً أكبر أهمية ، وهو الروح الدائمة للوحدة القومية التى خلقتها . وتمكن أنطونى إيدن الوزير البريطانى لشؤون عصبة الأمم بعد الاجتماع العاصف الذى عقده فى روما مع موسولينى ، والذى حدد الشكل النهائى لرأى كل من الرجلين فى الآخر ، من الفوز بتأييد عصبة الأمم لسياسة « العقوبات » التى اقترحها ، وقررت الجمعية العامة

لعصبة الأمم فى العاشر من أكتوبر عام ١٩٣٥ ، بأغلبية خمسين صوتاً ضد صوت واحد ، القيام بإجراء جماعى ضد إيطاليا . لكن نتيجة القرار كانت فى صالح إيطاليا إلى حد كبير . فقد أعلن ستانلى بلدوين رئيس وزراء بريطانيا فى تلك الأيام ، جرياً على القاعدة المقبولة آنذاك للدبلوماتية البريطانية، رفضه دعم عصبة الأمم إلى الحد الذى قد يؤدى إلى خطر الحرب ، كما رفض أن يتخلى عنها ، بإعلان صفحه عن عمل موسولينى . وراح يؤكد أن العقوبات تعنى الحرب ، وأنه مصمم ثانياً ، كما ذكر ونستون تشرشل فيما بعد « على أن لا تقع هناك حرب . وإنه عازم ثالثاً على تأييد العقوبات . وكان من الواضح أن التوفيق بين هذه الأهداف الثلاثة أمر مستحيل » . وأدرك بيير لافال وزير خارجية فرنسا الذكى والشرير ، منذ البداية استحالة التوفيق بين هذه الاتجاهات الثلاثة ، ودعا إلى مساومة موسولينى . وعندما أقرت العصبة قرار العقوبات ، راحت تعمل بتشجيع من بريطانيا على أن لا تضم قائمة الصادرات الممنوعة إلى إيطاليا ، أياً من المواد التى قد تشعل حرباً أوربية ، كالزيت مثلا .

وهكذا لم تحل الدبلوماتية الغربية بين موسولينى وبين مهاجمة الحبشة واحتلالها ، وكان كل ما فعلته على النقيض من ذلك ، هو أنها أعطته الفرصة لتوحيد شعبه فى ظل الفاشية وحمايتها ضد ما يقوم به العالم المعادى لها من أعمال ، وإساءات ، وراح يعلن قائلا . . . « ستواجه إيطاليا العقوبات بالانضباط ، والاقتصاد والتضحية » . وهذا ما فعلته حقاً . وكما التفت الدول الأعضاء فى عصبة الأمم ، الساخطة على موسولينى ، حول أنطونى إيدن ، راح الشعب الإيطالى المعزول ، الذى لقنت غالبيته ، مشاركة موسولينى فى كراهيته لإيدن ، يلتف حول الدوتشى . وانهالت عليه التبرعات من كل مكان ، فالسيدات العجائز يبعثن إليه بحليهن لمساعدته فى الإنفاق على الحرب ، وأعلن شباب إيطاليا أنهم على استعداد للتضحية بأرواحهم فى غارات جوية انتحارية على الأسطول البريطانى . واشترك كثيرون من الأحرار (الليبراليين) السابقين فى تأييد الحرب ، ولم تعترض الكنيسة عليها . وآب إلى البلاد عدد كبير من أعداء الفاشية السابقين الذين كانوا يعيشون فى منافيهم الاختيارية بعيداً عنها ، ليساعدوها فى أوقات محنتها . وقد قال

موسولينى فى إحدى خطبه التى كانت تفرح الإيطاليين من فاشيين وغير فاشيين ... « إن الشعب الإيطالى جدير بمصيره العظيم » . وعندما استقبل الشعب البريطانى بما يشبه الذعر ، اتفاق هور — لافال لعام ١٩٣٥ ، والذى قضى بتقسيم الحبشة بين إيطاليا وبين الإمبراطور ، اعتبر الإيطاليون هذا الاستقبال مناهضاً لإيطاليا ، وعندما اضطر السير صمويل هور إثر الضجة العنيفة التى أثارها نشر الاتفاق إلى الاستقالة من وزارة الخارجية ليخلفه فيها أنطونى إيدن الذى يكرهه الإيطاليون ، اعتبر هذا التبدل فى بريطانيا دليلا على اتباع سياسة أكثر صرامة وقسوة مع إيطاليا ، مما أدى إلى ارتفاع شعبية موسولينى فى بلاده إلى ذرى جديدة .

وكان ثمة نتيجة أخرى ، أكثر أهمية لانتصار موسولينى ، فقد راقب هتلر نجاح صديقه الإيطالى فى نزاعه مع عصبة الأمم التى كان هو قد انسحب منها بصورة تميزت بالضجة والعنف فى أكتوبر عام ١٩٣٣ ، وبنى على ضوء هذا النجاح استنتاجاته الجديدة . وهكذا مثل تصدع العصبة ، أكثر من مجرد تكريس لفلسفة القوة ، ومن عرض جديد لانحلال الديمقراطية ، إذ مثل نهاية ماسمى بجبهة ستريزا وبداية عهد التحالف الألمانى — الإيطالى .

٢

مر ثمة وقت كان فيه مثل هذا التحالف يبدو مستحيلا . فقبل سنتين ليس إلا توترت العلاقات بين البلدين إلى الحد الذى هددها بالانقطاع . فقد كان موسولينى فى حرصه على حماية المصالح الإيطالية فى الأوربيتين الوسطى والجنوبية ، مصمماً على منع هتلر من تحقيق أطماعه المعروفة فى النمسا . واشترك مع بريطانيا وفرنسا فى السابع عشر من فبراير عام ١٩٣٤ ، فى إصدار إعلان عن الحاجة إلى المحافظة على استقلال النمسا . وراح بعد شهر من هذا التاريخ يؤكد تصميم إيطاليا على الحيلولة دون توسع ألمانيا باتجاه حدودها الجنوبية والشرقية عن طريق التوقيع مع النمسا والمجر على اتفاقات رومة ، التى نصت على التشاور المتبادل فى حالة وقوع أى خطر يهدد هذه البلاد الثلاثة . وعندما حاول النازيون فى يوليو من العام

نفسه ، القيام بانقلاب فى النمسا عن طريق اغتيال مستشارها إينجلبرت دولفوس ، فى الوقت الذى كانت فيه زوجة المستشار وأولاده فى ضيافة موسولينى فى إيطاليا ، كان رد فعل الدوتشى فوريًّا وعنيفاً ، إذ أبرق إلى الأمير ستارهمبرج ، المستشار بالوكالة ، واعداً إياه بمساعدة إيطاليا ، ثم بعث بثلاث فرق إيطالية إلى الحدود النمسوية للتأكيد على جدية الوعد المذكور . وعندما أدرك هتلر أن أنصاره فى النمسا قد شطوا بعيداً فى أعمالهم ، وجد نفسه مرغماً على التراجع . وتحولت غيرة موسولينى التى كان يتقن إخفاءها ، من الرجل الذى تحدث عنه بكثير من الازدراء بعد اجتماعه الأول به واصفاً إياه « بالمهرج الصغير المجنون » ، إلى ما يشبه الكراهية . وقال الأمير ستارهمبرج إن هتلر هو قاتل دلفوس ، وهو المسئول عن كل ما حدث . وراح ينعته بأقبح النعوت ويصفه « بالمخلوق المنحل جنسيًّا إلى درجة مخيفة » و « بالمجنون الخطر » . وكان فى رأيه الزعيم الطبيعى للاشتراكية الألمانية وهى صورة مزوقة ومتوحشة للفاشية ، و « نظام بربرى متوحش ، لا يعرف إلا القتل والنهب والابتزاز » . وعندما وقعت عمليات التطهير العنيفة فى ألمانيا فى يونيو عام ١٩٣٤ ، وصفها موسولينى « بأنها الأزمة الحتمية لمثل هذا النظام السياسى الكريه » . وراح يقول لصديق آخر له ، هو الصحفى ميشيل كامبانا ، « يسرنى غاية السرور أن يكون هتلر قد أعلن ثورته على طريقتنا . ولكنه يقود الألمان ، وسينتهى بهم المطاف إلى تحطيم فكرتنا . فما زالوا هم برابرة تاسيتوس وعصر الإصلاح الدينى الذين يصطرعون اصطراعاً أبديًّا مع رومة » .

وفى وسع الإنسان أن يفهم السبب فى غضب موسولينى . فتهديد استقلال النمسا بالخطر ، يعنى تعرض إيطاليا نفسها لخطر إضاعة ضمانات أمنها ، وضياع ثلثمائة ألف من الإيطاليين خاضعين لحكم النمسا فى منطقة « التوأديج » ، ليصبحوا عبيد القومية الألمانية . ووجد نفسه مضطرًّا إلى التخلى عن سياسته « المراجعية » ليتخذ موقفاً أكثر ودًّا من فرنسا التى يحتاج الآن إلى دعمها . وكانت هذه هى الأفكار التى سيطرت عليه عندما انضم إلى جبهة ستريزا المعادية لألمانيا فى الحادى عشر من أبريل عام ١٩٣٥ ، إذ اتفق مع بريطانيا وفرنسا على استنكار أية محاولة تجرى لتغيير الاتفاقات التعاهدية عن طريق القوة .

وقد شهد موسولينى هذا المؤتمر مع فولفيو سوفيتش ، وكيل وزارة الدولة للشؤون الخارجية ومستشاره الرئيسى فى القضايا الخارجية ، وهناك بين أن إصراره على كبح جماح المطامع الألمانية لم يكن السبب الأول فى حضوره المؤتمر . وكان التفاهم مع فرنسا وإنجلترا ، كفيلا بأن لا يحفظ لإيطاليا مركزها فى أوربا فحسب ، بل أن يساعدها أيضاً فى توسيع نفوذها فى البحر الأبيض المتوسط وأفريقيا .

وكان قد أشار فى خطابه إلى البيان النهائى للمؤتمر الذى أدان أى « رفض من جانب واحد للمعاهدات قد يهدد سلام أوربا » . وكان الدوتشى قد أورد كلمة « أوربا » ، بشيء من التأكيد الواضح ، ثم توقف طويلا قبل أن يواصل كلامه ، قائلا إن ممثلى وزارة الخارجية البريطانية أدركوا لتوهم ، ما يفكر فيه ، وتشاوروا فيما بينهم فى تلك الليلة ، ليقرروا ما إذا كانوا سيحذرونه من الهجوم على الحبشة أم لا . وقد قرروا أن تأييده لموقفهم ضد ألمانيا ، هام جداً بحيث لا يستطيعون المغامرة به . ولذا فقد امتنعوا عن تحذيره . وغادر موسولينى ستريزا معتقداً بأنه قد حقق غايته . وعندما وقعت المعاهدة البحرية الإنجليزية — الألمانية فى شهر يونيو ، تأكد موسولينى من يقينه الثابت من أن بريطانيا لا تهتم حقاً بما يقع فى العالم طالما أن مصالحها فى نجوة من التهديد .

وبدأ غزو الحبشة بعد أربعة أشهر . وعندما تحولت أوربا الغربية فى ذلك الخريف ضده ، بتلك الصورة اللافعالة ، طرأت على تفكيره فكرة جديدة ، وهى أن يتحالف مع الدولة القوية الوحيدة التى لم تعاده علناً حتى الآن ، واستولت على جماع تفكيره .

٣

قام هتلر بالخطوة الأولى ، إذ كان معجباً بالدوتشى طيلة حياته السياسية ، كما كان متأثراً تأثراً عميقاً بكثير من مفاهيم الفاشية المذهبية وأساليبها المتقلبة . وكان فى عام ١٩٢٦ ، قد كتب إلى رومة ، يطلب إلى الدوتشى صورة موقعة منه . وقد بعثت وزارة الخارجية الإيطالية برد فى منتهى البرود إلى سفارتها فى برلين

تقول ... « أرجو أن تشكروا السيد المشار إليه على عواطفه، وأن تبلغوه بالطريقة التى تستنسبونها ، بأن الدوتشى لا يرى من المناسب إجابته إلى طلبه » .

وبالرغم من وجود بعض الأدلة التى تشير إلى أن النازيين كانوا يتلقون معونة مالية من إيطاليا منذ عام ١٩٣٢ ، إلا أن الدوتشى نفسه ، لم يرغب فى تشويه سمعته الرائعة ، عن طريق الاتصال علناً بذلك « المغامر التافه النتن » الذى يتولى قيادتهم . ولم يتخفف موسولينى من شكوكه واحتقاره لهتلر ، حتى بعد وصوله إلى الحكم فى عام ١٩٣٣ ، وهو التطور الذى فجأ موسولينى وباغته . وكان يقول فى هذه الآونة ، إنه جعل من الفاشية ، كما يعتقد ، شيئاً يحترمه الناس ويعجبون به ، ولذا لم يكن راغباً فى تشويه سمعتها وتلويثها عن طريق الارتباط بالاشتراكية الوطنية التى وصفها بأنها « ثورة القبائل الألمانية التى ما زالت تعيش فى غابات ما قبل العصور الوسطى ومجاهلها » . ولم يكن ثمة أدنى شك على الإطلاق ، فى أن أوربا وأمريكا كانتا تنظران إلى موسولينى نظرة أكثر احتراماً من نظرتهما إلى هتلر . وكانت عبارات الإطراء التى انهالت عليه بسخاء وحماسة من الكتاب المحافظين ، ومن الشخصيات العامة فى عشرينات القرن ومستهل ثلاثيناته ، كثيرة ، وقد صيغت فى عبارات واضحة ، حتى إنه وجد نفسه معتقداً دون أية صعوبة بأنه أعظم ساسة العالم فى عصره .

وقد أشار إليه السير أوستين تشمبرلين ، وزير خارجية بريطانيا عندما زار رومة فى ديسمبر عام ١٩٢٤ ، بأنه « رجل عظيم . . . يعمل ليضمن العظمة لبلاده » . وكثيراً ما ظهرت السيدة تشمبرلين فى السنوات التالية ، وقد وضعت الإشارة الفاشية على ذراعها . وقام ونستون تشرشل بزيارة رومة فى عام ١٩٢٧ ، وروى عنه أنه قال إبان هذه الزيارة . . . « لو أننى كنت إيطاليًّا لما ترددت لحظة واحدة فى ارتداء القميص الفاشى الأسود » . وقد صرح فى مؤتمر صحفى نشرته صحيفة التايمز اللندنية بقوله . . . « لم أستطع أن أمنع نفسى ، كما عجز كثيرون غيرى ، عن أن أقع تحت تأثير ما فى شخصية السنيور موسولينى من استهواء ولطف وبساطة ، وأن أعجب بما يبديه من هدوء وكرامة ، بالرغم مما يواجهه من أعباء وأخطار كثيرة . وفى وسع كل من يلقاه أن يرى أن خير الشعب الإيطالى على النحو

الذى هو يراه ، هى الفكرة المسيطرة عليه دائماً ، وأنه لا يهتم قيد أنملة ، بأى موضوع آخر . . . ولو كنت إيطالياً ، لكنت معكم بجماع عواطفى وقلبى منذ البداية حتى النهاية ، فى نضالكم الظافر ضد غرائز اللينينية المتوحشة واندفاعاتها العاطفية » . وراحت صحيفة التايمز اللندنية فى اليوم التالى تهنئ المستر تشرشل « لأنه تفهم الروح الحقة للحركة الفاشية » . وأعلن لويد جورج اتفاقه مع موسولينى فى أن النظام التعاونى هو « التطور المبشر بالخير العميم » . وراحت صحيفة الديلى ميل تنشر فى عام ١٩٢٨ ، بكثير من الحماسة والتأكيد ، ما أعلنه صاحبها اللورد روذرمير ، من أن موسولينى ، « هو أعظم شخصيات العصر » . وذكر كاتب بريطانى أرخ حياة موسولينى فى كتاب طافح بالثناء والإطراء ، نشره فى عام ١٩٣٢ ، بأن موسولينى هو « أعظم سياسى فى عصرنا » ، وهو رأى اعترفت المانشستر جارديان حتى فى يناير عام ١٩٣٩ بأنها تحمله أيضاً . ولم تكن هذه الآراء نادرة أو شاذة . فقد كان يؤثر تأثيراً طاغياً على جميع الدبلوماتيين والزائرين الأجانب من رسميين وغير رسميين الذين يقابلهم فى مكتبه الفخم فى قصر البندقية ، ولم يكونوا يترددون فى الإعراب عن إعجابهم به . وقد أحس المستر ريشارد واشبورن تشايلد السفير الأمريكى فى رومة بين عامى ١٩٢١ و ١٩٢٤ ، نحو الدوتشى بإجلال يكاد يقرب من العبادة ، وراح يكتب فى المقدمة التى وضعها لسيرة حياة موسولينى كما كتبها صاحبها بقوله . . . « ولم يكتف بالقدرة على الاحتفاظ بتعلق الناس جميعاً به فحسب ، بل قام ببناء دولة جديدة على أساس مفهوم جديد للدولة . ولم يكتف بإحداث انقلاب فى حياة الناس ، بل أحدث انقلاباً مماثلا فى عقولهم وقلوبهم وأرواحهم » . ثم راح يتحدث بعد ذلك عن إنسانية الدوتشى وحكمته وقوته وحيويته الدائمة الحركة ، ثم قال . . . « إنه أعظم رجال العصر ، وعندما يغلق الإنسان الباب وراءه وهو يفارقه ، يضم ملابسه إلى جسده ، محاولا الاحتفاظ بشىء منه فى قرارة صدره » .

وقد رويت قصص كثيرة عن غروره ، وعن تمثيلياته ، وعن سلوكه الدعى وإيماءاته السخيفة ، لكن معظم زائريه اكتشفوا فيه منطقاً وجاذباً ، كما رأوا فيه، وهذا يثير الدهشة حقاً ، رجلا حيياً ، يتميز بشىء من الافتقار الواعى إلى

الثقة بنفسه . وكثيراً ما قيل لهم ، بأنهم سيجدونه عند ذهابهم إلى زيارته ، جالساً وراء مكتبه الضخم فى تلك القاعة الفسيحة والكثيرة الزخارف ، يختلس النظر إليهم ، وهم يتقدمون إليه عبر القاعة المرصوفة بالفسيفساء ، الممتدة ستين قدماً ، لينشغل بعد ذلك كلية عنهم فى مواصلة الكتابة . وكان يقال لهم أيضاً : إن عليهم عند مقابلته أن يمروا بصفوف من الخناجر ، ينتضيها عدد من الرجال المقطبى الوجوه من ذوى القمصان السوداء . لكن هذه المناظر لم تكن تحدث إلا نادراً . وكان المنظر المألوف ، هو ذاك الذى وجده داف كوبر عندما زار رومة فى عام ١٩٣٤ ، فقد كتب يقول . . . « لم أجد تمثيليات على الإطلاق ، ولم أجد نفسى مضطراً كما قيل لى ، إلى السير عبر قاعة طويلة من الباب إلى مكتبه . فقد استقبلنى عند باب القاعة ، ورافقنى إليه عند انتهاء المقابلة . وقد اتفقنا على أهمية إعادة التسليح ، وضحك كثيراً ، عندما قلت إن من الخطأ الظن بأن التسلح يؤدى إلى الحرب ، كما أن من الخطأ بل الجنون القول بأن المظلات تأتى بالمطر . أجل ضحك طويلا لنكتتى ، وخيل إلى أنه رجل يحب المزاح ، وكنت على استعداد لأن أتصور وجود مزايا أخرى عظيمة فيه . . . حقاً إننى تأثرت بمقابلتى له غاية التأثر . . »

كان هذا هو الانطباع العام . ولكن كان هناك حقاً آخرون لم يعجبوا به . فقد كانوا يصابون بالفزع منه وهو يتقدم إليهم بخطى قافزة كخطوات القطط ، مرحباً ودوداً ، وعندما كان يوحى بالانطباع ، كما أوحى إلى اللورد فانستيارت ، بأنه رجل « يسر بالغ السرور لصحبة الآخرين » ، كان يذكر زائره بأنه أقرب ما يكون إلى الملاكم الذى يرتدى ملابس زاهية مصافحاً نفسه أمام نظارته » ، وكان يبعث فى نفس زائره ، « شيئاً من السرور الذى يحس به هو » . وقال عنه فانستيارت أيضاً . . . « إنه على أى حال ليس بالإنسان التافه ، ولا بالمهرج الذى يقتله الحسد » . فهو يتحدث فى صوت هادئ خفيض ، وكانت مواهبه فى الحديث رفيعة الدرجة . فهو طلق اللسان ، مؤثر فى حديثه الذى لا يخلو من سرعة البديهة والذكاء أحياناً ، وكانت تعليقاته مفعمة بالإشارات غير العادية ، والقدرة الواضحة على العصرية فى حديثه . ولقد ذكر وزير خارجيته عنه ذات يوم . . .

« عندما يشرع الدونشى فى الحديث ، يبدو إنساناً ممتعاً . ولا أعرف رجلا يستعمل مثله الاستعارات الرائعة والأصيلة » . فهو كمعظم المحدثين الممتازين ، لا يحسن الاستماع ، وكثيراً ما قطع على محدثه كلامه ، ناهضاً من مقعده ، لينقل المبادرة بالحديث إليه ، فيخطو فى الغرفة جيئة وذهاباً ، وهو يتحدث . لكنه كان يبذل جهداً بالغاً للتغلب على هذه العادة عند مقابلاته لزائريه من الأجانب ، وبالرغم من أنه كان يجد من الصعوبة بمكان ، بسبب القرحة التى كان يشكو منها ، أن يظل قابعاً فى مقعده ، فإنه كان يتظاهر بالإصغاء لمحدثيه ، وهو جالس إلى مكتبه منتصب القامة ، وقد جمع أطراف أنامله إلى بعضها . وكان نادر الضحك ، ولكنه عندما يضحك ، فإن ضحكته تبدو وكأنها صادرة عن الازدراء ، أو ضحكة ذلك الإنسان الذى يحس بضرورة إبداء المرح ، دون أن يكون مرحاً فى الواقع . لكن البسمة التى تحمل طابع الموافقة ، كثيراً ما أضاءت وجهه الذى يغلب عليه العبوس . وقد تحدث عنه أريستيد بريان (وزير خارجية فرنسا) فقال . . . « إنه ليس بالرجل العظيم فحسب ، بل إنه رجل طيب أيضاً » . . وقد وجد فرانز فون بابن فى موسولينى عندما ذهب إلى رومة فى صيف عام ١٩٣٣ لتوقيع الاتفاق مع الفاتيكان « رجلا يختلف كل الاختلاف عن هتلر . فهو قصير القامة . لكن علائم السلطة تبدو على محياه . وتوحى هامته الضخمة لناظرها بما فيها من قوة شخصية ، وهو يتصرف مع الناس تصرف الرجل الذى ألف منهم أن يطيعوا أوامره ، ولكن مع كثير من الجاذبية . . . وبينما يتميز هتلر دائماً بشىء قليل من عدم اليقين والثقة ، فيسير وكأنه يسبر أغوار طريقه ، كان موسولينى يبدو دائماً فى منتهى الهدوء ، والاعتزاز ، والثقة بالموضوع الذى يتحدث فيه . . . وهو يجيد الفرنسية والألمانية » .

ولم يكن إطراء موسولينى فى أمريكا أقل منه فى أوربا . وكما شبهه اللورد روذرمير بنابوليون ، نرى رئيس جامعة كولومبيا ، يقارنه بكرومويل . ويمضى المذكور قائلا . . . « ولا ريب فى أن الفاشية طراز من الحكم من الدرجة الأولى فى الصلاح والتفوق » . وقد اتفق معه أوتو كان ، رجل المال المعروف، وراح يصف موسولينى فى خطاب ألقاه على طلبة جامعة « ويزليان » بالإنسان العبقرى . وأيد الكردينال

الأمريكى أوكونيل ، هذا القول ... إذ جاء على لسانه ... « لا شك فى أن موسولينى عبقرى فى ميدان الحكم ، وقد منحه الله لإيطاليا ليساعد شعبها على ارتقاء ذرى المجد بسرعة لتصل إلى قدرها المجيد » . وعاد رئيس أساقفة شيكاجو من زيارته لرومه ، فذكر أنه يرى فى موسولينى رجل العصر . وأعرب فيوريلو لا جوارديا ، رئيس بلدية نيويورك عن أطيب تمنياته للدوتشى بالنجاح مؤكداً أن ليس ثمة سبيل للمقارنة بين هتلر وموسولينى .

وقد رفض موسولينى رفضاً قاطعاً مصحوباً بالغضب الأقوال التى تشير إلى وجود شبه بينه وبين هتلر . وقد اضطر إلى الإقرار بأن الاشتراكية الوطنية تشبه الفاشية فى تسلطها ، وجماعيتها ، وعدائها للنظام البرلمانى ، ولا ديمقراطيتها ، ومناهضتها لليبرالية ، ولكنه رفض المضى إلى أبعد من هذا . أما بصدد النظرية التى تقوم عليها الفلسفة النازية ، وأعنى بها وجود « العنصر السيد » ، فقد رفضها موسولينى رفضاً قاطعاً وقال : « إنها سخف مطلق ، بل بلادة وجمود » . وكان يقول إنه لو صحت نظريات هتلر فى التفوق العنصرى ، فإن « الشعب الإيطالى يجب أن يصير أسمى شعوب الإنسانية رتبة » ... وراح يقول فى خطاب ألقاه ذات يوم من أيام شهر سبتمبر عام ١٩٣٤ فى مدينة بارى ... « هناك ثلاثون قرناً من التاريخ المجيد ، تحملنا على أن ننظر بشىء من الإشفاق المتعالى على بعض العقائد التى تعلم على الجانب الآخر من جبال الألب من ذرية ذلك الشعب الذى كان يعيش فى ظلمات الأمية ، عندما كانت رومة تزهو بأمثال قيصر وفرجيل (Virgil)[1] وأوغسطس » . ووصف اللاسامية فى حديث له مع إميل لودفيج فى عام ١٩٣٢ . « بالرذيلة الألمانية » . ومضى يقول ... « وليس ثمة مشكلة يهودية فى إيطاليا ، ولا يمكن أن تقوم مثل هذه المشكلة فى بلاد تتمتع بنظام حكم سليم » .

ولم يجتمع بهتلر للمرة الأولى إلا فى الرابع عشر من يونيو عام ١٩٣٤ . وقد كرهه بعد هذه المقابلة ، بنفس القوة التى كان يتوقعها . وقد جرت المقابلة التى

---

(١) فرجيل فرجيليوس (٧٠ — ١٩) ق . م . شاعر الرومان الكبير . ولد قرب مانتوا . ودرس فى كريمونا (ميلان) ونابولى . طاف فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية . أهم روائعه الإينيادة وهى ملحمة شعرية قصصية تقف على قدم المساواه مع إلياذة هومر . « المعرب »

أعدها الدبلوماتيون الألمان أملا منهم فى أن يتمكن موسولينى من حمل هتلر على الاعتدال فى موقفه من النمسا ، فى الدارة الملكية فى سترا ، على نهر برنيتا على مقربة من بادوا . وبدأ هتلر الذى استصحب معه عدداً من رجال حرسه النازى الخاص ، ومعهم سيب ديتريش ، عصبى المزاج ، تافهاً . ولاحظ موسولينى بوجه خاص ، شعره المسترسل وغير الممشوط ، وعينيه الشاحبتين ، فتمتم قائلا . . . « أنا لا أحب رؤيته » . وكان يرتدى معطفاً من الجلد ، وسروالا مخططاً ، وحذاء مفتوحاً من الجلد ، ويشد إلى رأسه قبعة رمادية من الفلين ، كان يلوكها دائماً فى أصابعه ، وبدا وكأنه كما قال أحد الصحفيين الفرنسيين ، « سباك تافه ، يمسك بيده آلة غريبة » . أما موسولينى فقد وصل إلى مكان الاجتماع أيضاً فى ملابس مدنية ، ولكنه ما لبث أن استبدل بها على الفور ، بدلة عسكرية زاهية ، يبدو الخنجر على جانبها ، وبحذاء أسود ، له أزرار من الفضة .

ولم يكن حديثهما الأول قد انتهى عندما كوّن موسولينى رأيه فى هتلر . وعندما ابتعد عن مائدة الاجتماع فى فترة راحة قصيرة ، متجهاً إلى النافذة راح يتمتم وقد بدت على محياه علائم الاحتقار . . . « حقاً إنه رجل مجنون » . ولم يكد يحل المساء ، حتى بدا وكأن الرجلين لم يفقدا احتمالهما فحسب ، بل كأنهما على وشك التشاجر . اتفقا على أنهما يكرهان معاً كلا من فرنسا وروسيا ، لكنهما لم يستطيعا الاتفاق على شىء آخر . ولا سيما فى موضوع النمسا ، حيث بين موسولينى أن على النازيين أن يوقفوا حملاتهم الإرهابية فيها . وظل البعوض يئز طيلة تلك الليلة التى قضاها موسولينى دون أن يستطيع النوم . إذ أنه بالإضافة إلى البعوض ، تذكر ما كان يوصف به فى الماضى من أنه « مهرج سخيف » ، وكابوس شبح نابوليون الذى لم يفارقه لحظة واحدة ، إذ قضى ليلة متعبة فى مدينة سترا أيضاً . واقترح عند الصباح أن ينتقل الاجتماع إلى البندقية .

وكان الجو هنا أكثر توتراً أيضاً . وقد استقبل أهل البندقية الدوتشى بهتافات عالية مدوية ، بينما استقبلوا ضيفه بما يكاد يشبه الصمت . وعندما تحدث الرجلان فيما بعد عند ملعب الجولف فى البيرنونى . دون أن يشترك فى محادثاتهما أى من رجالهما ، سمع أفراد الحاشيتين ، وكانوا يقفون على منأى منهما ، الصراخ الصادر

عنهما والذى شبهه قسطنطين فون نوراث وزير خارجية ألمانيا آنذاك « بعواء كلبين من كلاب الدرواس الكبيرة » . ولم يعرف إنسان الموضوع الذى كانا يتناقشان فيه ، كما لم يكشف القناع فيما بعد عن سره . كانا يتحدثان بالألمانية ، ولا ريب فى أن هذه الحقيقة أضعفت من موقف موسولينى ، إذ بالرغم من رفضه لخدمات بول شميدت « ترجمان » وزارة الخارجية الألمانية . فإن تملكه لناصية اللغة لم يكن كبيراً كما كان يفترض فى نفسه . وقد ذكر عنه كورت فون شوشنيج ، خليفة دولفوس فى منصب مستشار النمسا أنه كان يحب التحدث بالألمانية ، ولكنه كان يعانى جهداً فى التحدث بها ، وكان هذا الجهد يظهر فى بطئه فى الحديث وفى دقته فى النطق بكل كلمة من الكلمات . ولا ريب فى أنه كان يبذل جهداً أكبر فى تفهم لهجة هتلر النمسوية القوية ، وما يخالطها من تعبيرات بافارية .

وبالرغم من أن موسولينى لم يذكر قط شيئاً فيما بعد عن موضوع هذا النقاش الحاد الذى وصل حدود الشجار ، إلا أنه أشار فيما بعد ، إلى حالات أخرى، بقى الرجلان فيها وحدهما أثناء المؤتمر ، عندما راح هتلر « بدلا من مناقشة مشاكل محددة ، يتلو على مسامعى ، عبارات يحفظها عن ظهر قلب من كتابه كفاحى ، ذلك الكتاب الممل الذى لم أستطع قراءته قط » . وعندما اقتربت الزيارة من نهايتها ، وكان موسولينى قد أخذ ضيفه فى زورق بخارى فى نزهة فى « بحيرة البندقية »، راح هتلر ، بدلا من الصمت والتمتع بسحر الطبيعة وجمالها ، يلقى على مسامع مضيفه خطاباً مطولا عن نظرياته العنصرية . وقد ذكر سوفيتش لستار هيمبرج أنه « قضى الوقت كله ، متحدثاً عن تفوق العنصر النوردى ، ومتهماً جميع شعوب البحر الأبيض المتوسط ، وفى مقدمتها الشعب الإيطالى ، بأن دمها قد اختلط بالدم الزنجى الذى يسرى فى عروقها » . . . وكان موسولينى قد يئس من مناقشة ضيفه ، فجلس صامتاً يصغى إليه ، وقد ظهرت عليه علائم السخرية . وسئل موسولينى فى اليوم التالى لعودة هتلر إلى ألمانيا ، عن رأيه فى الرجل، فقال ، وهو يومئ بما يفسر على أنه زراية واستخفاف عنه إنه « راهب ثرثار » .

لكن موسولينى سرعان ما أحس ، رغم احتقاره لهتلر ، بحاجته إلى صداقته . وراح يقنع نفسه بأن من الخير لإيطاليا أن تتحالف مع ألمانيا ، وأن تحالفها هذا

يفيدها أكثر من التحالف مع الديمقراطيات الغربية[١] . وكان العداء الذى أظهرته فرنسا وإنجلترا لإيطاليا إبان حرب الحبشة ، قد قضى على كل فرصة فى عقد اتفاق بين الدول الثلاث مناهض لألمانيا ، وإن كان لم يدفع إيطاليا إلى الاقتراب كثيراً من هتلر ، الذى كان يحرص كل الحرص ، على ابتزاز كل ما يمكنه من مزايا من الصراع ، وكان قد انزعج كل الانزعاج من احتمال إنهائه ، بحل وسط من النوع الذى اقترحه اتفاق هور ولافال[٢] . فقد ظلت المعاهدة الإنجليزية — الألمانية التى عقدت فى عام ١٩٣٥ ، تقض على موسولينى مضجعه ، كما كانت مشكلة استقلال النمسا وخطر ضمها إلى ألمانيا (الانشلوس) ، الموضوع الذى يشغل فكره كثيراً . وكان من المتعذر الوصول إلى تحالف بين إيطاليا وألمانيا ، طالما أن هذه المشكلة ما زالت قائمة . لكن هتلر كان يحس بالحاجة الماسة إلى صداقة موسولينى الظاهرة ، بصورة تفوق إحساس موسولينى بحاجته إلى صداقة هتلر ، ولا ريب فى أن هذه النظرة من جانب هتلر ، والرغبة فى اكتساب صداقة الدوتشى هما العاملان اللذان دفعاه إلى توقيع الاتفاق النمسوى — الألمانى فى يوليو عام ١٩٣٦ ، بموافقة موسولينى وإقراره . وبالرغم من أن هذا الاتفاق قد سوّى فى الظاهر ، الخلافات بين النمسا وألمانيا ، بشكل يرضى البلدين ، إلا أنه أعطى هتلر الفرصة ، ليقتطع شيئاً من استقلال النمسا . كما أتاح له الفرصة الحقيقية الأولى ، التى كان يتطلع إليها ، للتفاهم مع إيطاليا . فلم يعد فى وسع موسولينى الذى بات الآن فى منأى عن الدول الغربية الدفاع عن استقلال النمسا بنجاح ، وكان لا بد له من أن يحمد لهذا الاتفاق إبقاءه على استقلال النمسا ولو بصورة شكلية . وقد تحققت الفرصة النموذجية لإقامة علاقات أوثق بين ألمانيا وإيطاليا بعد شهر واحد ، عندما اندلعت نيران الحرب

(١) يكثر الكتاب الغربيون من التحدث عن الدول الغربية ، واصفيها بالديمقراطية ، لكن هذا الوصف المستمد من المفهوم البورجوازى للديمقراطية ، لا ينطبق على الواقع والحقيقة ، إذ أن معظم هذه الدول ، أو بعضها على الأقل ، بعيدةعن الديمقراطية فى معناها الاشتراكى الصحيح ، بعد الأرض عن السماء . فبالرغم من أنها تسير على نظام التمثيل البرلمانى ، إلا أن الطبقة الممثلة هى فى الغالب من الفئات البورجوازية والرأسمالية ، التى تمكنها سيطرتها الاقتصادية من تحقيق السلطان على الصعيد السياسى التمثيلى ، الذى لا يعبر عن إرادة الشعب ، الفاقد إرادته وقدرته على التعبير ، بالإضافة إلى ما يسود بعض هذه الدول من تفرقة عنصرية تتنافى مع أبسط مفاهيم الديمقراطية الحقة .

(٢) نسبة إلى صمويل هور وزير خارجية إنجلترا ولافال وزير خارجية فرنسا آنذاك . « المعرب »

الأهلية فى أسبانيا ، وراح موسولينى عن طريق إسراعه إلى مساعدة فرانكو ، أملا منه فى خلق دولة فاشية ثالثة فى أوربا ، وفى الحصول على بعض القواعد البحرية فى أسبانيا لتهديد فرنسا عن طريقها . يزداد نأياً عن أعداء ألمانيا وسرعان ما تبين أولريخ فون هاسيل ، سفير ألمانيا آنذاك فى رومه أهمية « الحرب الأسبانية بالنسبة إلى علاقات إيطاليا بكل من فرنسا وإنجلترا » . وأبرق إلى وزارة الخارجية الألمانية ، مشيراً إلى أن دور هذه الحرب يمكن أن يكون مماثلا « لدور الحرب الحبشية فى عرض المصالح المتعارضة للدول الكبرى ، ومنع إيطاليا من الوقوع فى شباك الدول الغربية » . وحققت الحرب الأسبانية هدفاً آخر ، فقد تمكن هتلر عن طريق السماح لإيطاليا بحمل العبء الأكبر من المساعدات النازية — الفاشية لفرانكو ، تحت ستار الادعاء بأن أسبانيا من بلاد البحر الأبيض المتوسط ، أى أنها تقع ضمن منطقة النفوذ الإيطالى ، فى إيجاد بديل عن الحرب الحبشية ، يقوم بامتصاص قوة إيطاليا ، ويحول بينها وبين الوقوف موقفاً صلباً من المشكلة النمسوية التى كان قد حزم أمره على تسويتها بالشكل الذى يريده[1] .

ومهد هتلر طريق التقارب مع موسولينى ، بإعرابه عن استعداد ألمانيا للاعتراف بالإمبراطورية الإيطالية . وكانت قضية الاعتراف من القضايا الحساسة للغاية بالنسبة إلى موسولينى إذ أنه إقرار بوضع إيطاليا الجديد ، الذى ترفض معظم الدول الاعتراف به ، ولذا فقد فرح الدوتشى ، كما توقع فون هاسيل ، غاية الفرح لخطوة هتلر ، التى لم يستطع إنكار جميله فيها . وأوفد هتلر فى سبتمبر من ذلك العام ، إلى موسولينى وزير عدله الذى يتحدث بالإيطالية ، هانز فرانك ، ليوجه الدعوة إلى الدوتشى لزيارة ألمانيا . وأصغى موسولينى بكثير من التحفظ ، إلى ما وجهه إليه فرانك من إطراء بالغ ، وإلى ما أعرب عنه من إيمان الفوهرر بالحاجة إلى المزيد من التعاون بين البلدين . وقد غر هذا الإطراء موسولينى ، رغم تظاهره بالصلابة فى موقفه ، ولم يكد يفرغ من اجتماعه مع مبعوث هتلر ، حتى راح يلقى خطاباً فى ميدان دوومو فى ميلان ، استخدم فيه للمرة الأولى ، تعبيراً

---

(١) تفسر هذه الحقيقة ظاهرة غريبة أذهلت الجمهوريين الأسبان فى تلك الأيام ، وهى أنهم كانوا يتلقون فى وقت واحد مع أعدائهم من الفاشيين السلاح من ألمانيا .

قدر له أن يحمل فيما بعد معنى الدمار لبلاده . فقد أشار إلى التفاهم الأفضل بين ألمانيا وإيطاليا ، واستعار تعبيراً مجازيًّا مسرحيًّا كان رئيس وزراء المجر كومبوس ، قد استعمله قبل عامين فى وصف هذا التفاهم . وراح الدوتشى يقول . . . « خلق محور برلين — رومه ، وهو المحور الذى تستطيع جميع الدول الأوربية المحبة للسلام ، الدوران حوله ». وطرب الألمان لهذا الإعلان الواضح عن الصداقة ، وقرأوا فى الخطاب أكثر مما عناه صاحبه بالفعل ، وتولد لدى الشعب الألمانى الانطباع مما ذكرته صحافته ، بأن سياسة مشتركة قد تم إرساؤها بين الدولتين .

وكان وزير خارجية إيطاليا الجديد ، الكونت جاليازو تشيانو ، يمهد الطريق فى غضون ذلك ، للزيارة الرسمية ، التى تقرر أن يقوم بها الدوتشى عما قريب لألمانيا . وكان هذا الوزير نجل الأميرال الكونت قسطنطين تشيانو أحد أبطال الحرب العالمية الأولى ، قد التحق بالسلك السياسى وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، بعد أن عمل أمداً ما فى الصحافة فى رومة . وراح بعد ثلاث سنوات ، أى فى الرابع والعشرين من أبريل عام ١٩٣٠ ، يبنى بإيدا موسولينى ، كبرى بنات الدوتشى ، وأقربهن كما كان يعتقد إلى قلبه . وبدأ منذ تلك اللحظة صعود تشيانو سلم الحكم والشهرة ، بسرعة تكاد تشبه سرعة الصاروخ . ولم يمض شهران ، حتى كان تشيانو ، يعين قنصلا عامًّا فى شانجهاي ، ليصبح بعد فترة قصيرة ، وزيراً مفوضاً لبلاده فى الصين . وعاد إلى إيطاليا فى عام ١٩٣٣ ، ليصبح رئيساً لدائرة الصحافة ، ثم عمل طياراً إبان الحرب الحبشية ، ليصبح بعد ذلك وزيراً للخارجية . وكان يتصرف فى هذه السنوات الأولى ، تصرف الحوارى المخلص لأستاذه الذى خلقه ، والذى لم يعد يعامله كصهر قريب إلى قلبه فحسب ، بل كصديق يثق فيه كل الثقة . وكان تشيانو إنساناً مغروراً ، محبًّا لذاته ، مغرقاً فى حبه لها ، طموحاً ، دعيًّا ، وكثير التقلب ، وكان يحاول أن يخفى بشىء من الدناءة المصطنعة ، ما كان يحمله من إعجاب حقيقى بالدوتشى . وقد حاول حتى فى اليوميات التى دأب على كتابتها بعد أن أصبح وزيراً للخارجية ، إخفاء ما يحمله من عبادة لموسولينى ، كان فى أحاديثه مع أصدقائه يسعى إلى عدم إظهارها مطلقاً . لكن هذه المحاولات المكشوفة ، كانت تظهر على حقيقتها فى بعض الأحيان ،

عند ما يكتب فى يومياته بشىء من الصراحة ، إذ يقول . . . « أطرى الدوتشى جهودى اليوم عدة مرات . . . وقد أحسست بالضيق من هذا الإطراء البالغ ، حتى إننى عجزت عن شكره . ولا ريب فى أن هدفى الأول من عملى ، هو أن أرضيه . ولا ريب أيضاً فى أن نجاحى فى إرضائه ، هو غاية ما أنشده وأتمناه » . وذكر فى عام ١٩٣٨ ، بعد أن أبل من مرض أصابه ، أنه عند ما سمع صوت الدوتشى ينطلق من جهاز الإذاعة « راح يبكى وكأنه طفل صغير » .

وكان هذا الإعجاب الشديد البالغ بالدوتشى ، يبدو واضحاً فى شتى الصور ، التى أظهرته أحياناً فى مواقف تثير الهزء والسخرية . فهو يقلده بصورة لا واعية . وهو يقتبس منه مواقفه ، وتصرفاته العامة والخاصة على حد سواء . وكان يحذو حذوه فى التحدث بسرعة وبصوت عال ، وبصورة تنطوى على التأكيد ، كما كان يقلد مواقفه الجامدة ، عند ما يوشك أن يسمع أنباء كان ينتظرها بفارغ الصبر . لكنه لم يكن إنساناً تافهاً يثير السخرية . فقد كان نهازاً للفرص ، ذا موهبة كبيرة فى هضم المعرفة ، ووطنية صادقة . ولم يكن مولعاً بكتم الأسرار ، بل كان أحياناً قاسياً فى صراحته ، وكثيراً ما وضع بلاده ، فى أوضاع حرجة ، ودفعها إلى مغامرات لا خلقية وتافهة . وقد تميز بالكسل الشديد ، حتى إنه كان يرفض قراءة أية مذكرة ، إذا تجاوزت الصفحة الواحدة ، وكان يقضى جل أوقاته فى لعب الجولف ، أو فى حضور الحفلات التى يقيمها أصدقاؤه من رجال المجتمع فى رومة ، أو الجلوس متكاسلاً فى مكتبه فى قصر شيجى . وكان يفتقر إلى الشعور بالمسئولية ، فقد ذكر رافائيل كواريجليا ، سفير إيطاليا فى باريس بين عامى ١٩٣٨ و ١٩٤٠ ، أن التعليمات الوحيدة التى تلقاها منه طيلة تلك المدة ، كانت تقضى بالبحث عن مربية فرنسية لأطفاله . لكنه كان يتمتع على أى حال ، ببعض المزايا التى ندر وجودها عند كبار الفاشيين . فقد كان إنساناً ذكياً ، ويقظاً وشجاعاً ، ولا يفتقر إلى الإحساس ، كما كان جذاباً رغم مواقفه التمثيلية وادعاءاته المغرورة . وكان ولداً باراً ، وأخاً رفيقاً بإخوانه ، يحب أطفاله ، وبالرغم من وفرة عدد أصدقائه من رجال ونساء ، إلا أنه لم يفقد قط حب زوجته له . وقد ذكر عنه اللورد فانسيتارت الذى لقيه لأول مرة فى عام ١٩٣٤ ، أنه « إنسان داعر » ، لكن الدعارة

لم تكن تعتبر خطيئة فى تلك الأيام . فقد أحب النساء ، وتعشق العظمة ، وكان يبز غيره فى إرضاء شهواته . فقد حباه الله بشكل جميل الصورة ، وطبيعة طيبة ، وإحساس عارض بالنكتة الطريفة . وكان يقضى وقتاً طيباً لا يحتمل التعرض لأى إزعاج ، ولا ريب فى أن كراهية المغرق فى ملذاته للحرب ، تكون أقوى من كراهية الإنسان ذى النزعة السلامية ، لأنها أكثر اتصالاً بالعملية والواقع » .

وقدر لدينو الفيرى ، سفير إيطاليا فى ألمانيا ، أن يعرف تشيانو معرفة وثيقة ، ولذا فقد رسم له صورة مماثلة ، وإن كانت أكثر زهواً وإطراء . . . فقال . . .

« وبالرغم من تقلبه وافتقاره إلى الاستقرار ، وهما صفتان كانتا تثيران الدهشة والحيرة فيمن يعرفه ، فإن تشيانو كان رجلاً طيباً وكريماً . وكان يحب دائماً خدمة أصدقائه ، ويحس بأقصى السعادة ، إذا تمكن من إبلاغهم نبأ طيباً . وكانت تعبيراته تحمل الطابع « التوسكانى » ، كما كان حديثه يتصف بالحيوية ، ولغته بالدقة والاختصار . وكان يبدو أحياناً فى منتهى الجد والذكاء ، والرغبة فى السخرية التى تصل فى حالات معينة حدود الدناءة . . . لكنه كان بطبيعته ، إنساناً مرحاً ، يتعلق بنزواته ، كثير الفضول والسخرية ، مغرقاً فى الاستجابة لعواطفه ، وكان سريع الخاطر ، حاد الذكاء ، حاضر النكتة ، ساخر الكلم » .

لكن الآخرين لم يوافقوا الفيرى على ما رآه فيه من سرعة بديهة ، وجاذبية ، وإن كان معظم الناس لم يكرهوه ، ولم يجدوا فيه إنساناً تافهاً . لكن الألمان لم يحبوه على أى حال . وكان يحرص دائماً على القول فى مذكراته الرسمية ، بأنه على خير ما يرام من التفاهم معهم . لكنه لم يكن فى الواقع متفاهماً معهم ، إذ كانوا يرون فيه الإنسان المتصنع ، المغرور ، الراغب فى تأكيد وجوده ، بحيث يتصرف تصرفات فى منتهى السوء والسخف . وقد وصفه ويليام شيرر ، الصحفى الأمريكى [1] ، أثناء زيارته فى إحدى المرات لبرلين بأنه كان « مهرج تلك الأمسية . فقد كان يكثر ، دون أى مناسبة ، من صفق قدميه ، وأداء التحية العسكرية . ولم يكن

(١) وردت هذه العبارة فى الكتاب الضخم الذى وضعه ويليام شيرر ، عن تاريخ ألمانيا الهتلرية ، والذى توليت تعريبه فى أربعة مجلدات . « المعرب »

فى وسع إنسان ألا يلحظ شدة عصبيته ، فهو يحرك فكيه باستمرار ، دون أن يمضغ قليلا من اللبان » .

وكانت زيارته الرسمية الأولى لبرلين فى شهر أكتوبر عام ١٩٣٦ ، أى بعد شهر واحد من زيارة هانز فرانك لرومة . وقد نجحت هذه الزيارة نجاحاً كاملا ، إذ لم يكن ريبنتروب الذى دأب على كراهية تشيانو ، قد حل بعد محل نوراث فى وزارة الخارجية الألمانية ، بينما عامله هتلر ، الذى كرهه فيما بعد أيضاً ، عند استقباله له فى برختسجادن ، معاملة تنطوى على الكثير من الاحترام الزائف . وقد سر هتلر طبعاً بالرسائل الودية التى حملها تشيانو معه . وتحدث الفوهرر عن رأيه فى موسولينى إلى صهره ، حديثاً ، أطرب تشيانو ، فقد وصفه بأنه « أعظم سياسى فى العالم ، ولا يستطيع أي سياسى آخر ، أن يقارن نفسه به لا من قريب ولا من بعيد » . وانطلق بعد ذلك يتحدث بسرعة عن الوضع الدولى ، وعن خطر البلشفية المتزايد ، وعن سرعة ألمانيا فى تسلحها . وكتب تشيانو فى يومياته عن هذه المقابلة يقول . . . « كان هتلر يعرض كل موضوع عرضاً مطولا ، يصل منه إلى استنتاجات يكررها مراراً وتكراراً ، وبعبارات مختلفة » . واستخلص تشيانو من هذر محدثه وثرثرته ، أن هتلر لم يكن قد حزم أمره بعد بالنسبة إلى بريطانيا ، وأنه لم يكن حتى تلك اللحظة ، يستبعد احتمال شكل من أشكال الاتفاق معها . أما موسولينى فكان ساخطاً أشد السخط على بريطانيا لأنها وجهت الدعوة إلى هيلاسلاسى لحضور حفلات تتويج ملكها جورج السادس ، وكان يخشى من أى تقارب ألمانى — بريطانى ، ويعمل على إحباطه ، بكل وسيلة ممكنة . وقد سرّ غاية السرور عندما سمع من تشيانو ، أن مثل هذا التقارب غير محتمل بالرغم من اعتدال هتلر فى موقفه ، وأنه نقل إليه قول الفوهرر بأن فى وسع ألمانيا وإيطاليا ، إذا واصلت بريطانيا العمل ضدهما ، أن يهزماها ، إذ أن القوة ستكون متوفرة لديهما للقيام بذلك . ومضى الفوهرر يقول لضيفه . . . « وستكون ألمانيا مستعدة لذلك فى غضون ثلاث سنوات . أما بعد أربع سنوات فستكون أكثر من مجرد مستعدة . وإذا أتيح لها أن تستعد لخمس سنوات فإن فى ذلك الخير كل الخير . . . ويرى الإنجليز أن هناك بلدين فى العالم ، يقودهما مغامران ، هما ألمانيا وإيطاليا.

لكن المغامرين كانوا يتولون أيضاً قيادة بريطانيا عندما قامت إمبراطوريتها . أما اليوم فيحكمها ضعفاء عاجزون » . ولم تمض بضعة أشهر ، حتى كانت بريطانيا تضيف سيئة أخرى إلى مساوئها تجاه إيطاليا ، وذلك عندما وقعت فى اجتماع نيون فى العاشر من سبتمبر عام ١٩٣٨ ، اتفاقاً جديداً مع فرنسا ، لحماية السفن التجارية الفرنسية فى البحر المتوسط ، حيث كانت الغواصات الأسبانية فى الظاهر ، والإيطالية فى الواقع تقوم نيابة عن فرانكو « بأعمال القرصنة » ضد السفن الفرنسية والبريطانية . وراح هتلر يستغل هذه الفرصة من جديد ، فيعلن تأييده لموسولينى وعطفه عليه ، ويبين أن محاولة الديمقراطيات الجديدة ليست إلا سعياً منها للاتحاد ضد المحور النامى والناهض .

وكما كان موسولينى متلهفاً على ألا يقع اتفاق بين بريطانيا وألمانيا ، وهو الاتفاق الذى لم يغب لحظة واحدة عن تفكير هتلر فى هذه السنوات كلها ، كان الفوهرر بدوره ، متلهفاً أيضاً على أن تجدد إيطاليا وبريطانيا علاقاتهما الودية على حساب ألمانيا . وقام سعياً وراء هذا الهدف ، وتأكيداً منه لتضامنه مع إيطاليا فى المحور ، بإيفاد عدد من المبعوثين إلى روما فى عام ١٩٣٧ ، فى زيارات بدت فى ظاهرها بقصد تأكيد الود والصداقة . لكن أيًّا من هذه الزيارات لم تنجح نجاحاً بارزا وملحوظاً . وعندما وصل جورنج فى مطلع العام ، وعقد اجتماعين مع موسولينى ، كان الجو فى الاجتماعيين فى منتهى التوتر . وكان موسولينى قد قرر لنفسه أنه لا يحب جورنج منذ اجتماعهما لأول مرة . فقد رأى فيه شخصاً « سريع الغضب كثير الادعاء » ، ولم يعجبه منه إعجابه الشديد ببالبو . وعندما أشار جورنج فى إحدى هاتين المقابلتين إلى الاتحاد مع النمسا ، كأمر حتمى ، هز موسولينى ، كما روى المترجم بول شميدت ، رأسه ممتعضاً ، وبعنف شديد .

لكن النمسا لم تكن إلا مشكلة واحدة من مشاكل موسولينى ، وقد قادته أطماعه التى لم تتحقق فى أوربا والبحر الأبيض المتوسط ، وحقده على الدول الغربية ، إلى الإيمان بأنه بات عاجزاً عن مقاومة إغراءات هتلر وملاطفاته . وراح يعلن أنه سيزور ألمانيا فى شهر سبتمبر بعد أن قبل الدعوة الموجهة إليه ، مشترطاً أمرين ، أولهما أن لا يحمل معه ملابس السهرة الرسمية ، وثانيهما أن لا تقتصر

اجتماعاته على زعماء البلاد ، وأن يسمح له بمقابلة العاديين من الناس ، ولم يكن تواضعه هو الذى حفزه على التقدم بهذين الشرطين . فقد أراد أن يظهر ، أن فى وسعه حتى بلغة أجنبية بالنسبة إليه ، إثارة جماهير برلين ، بنفس الحماسة التى يثير فيها شعبه ، كما أراد أن يضمن عدم الظهور بالملابس المدنية التى لا يبدو فيها فى صورة مقبولة .

وقد ارتدى بزة رسمية رائعة ، صنعت خصيصاً لهذه المناسبة ، ثم سافر إلى ألمانيا فى الثالث والعشرين من سبتمبر عام ١٩٣٨ ، ترافقه حاشية كبيرة ، ترتدى أجمل الملابس أيضاً كملابسه . وأصدر هتلر ، الذى لم يرغب فى تفوق موسولينى عليه ، أمراً بأن يرتدى أفراد لجنة الاستقبال ، الذين كانوا سيستقبلونه على الحدود البزة الرسمية أيضاً ، بينما ارتدى هو القميص البنى والسروال الأسود ، لباس النازى الرسمى ، منتظراً ضيفه فى مونيخ التى اصطف الجنود على جانبى شوارعها ، والتى ازدانت مبانيها بالأعلام ترحيباً بمقدم الدوتشى .

وكانت ألمانيا تعد العدة منذ أسابيع لهذه الزيارة ، لا للترحيب بالضيف وإيلائه ما يستحقه من احترام فحسب ، بل لعرض قوتها عليه بصورة دقيقة ومدروسة ، يتبين فيها حسن التنظيم وروعة الانضباط ، بحيث لا ينسى موسولينى ذلك طيلة حياته . ولم ينس موسولينى بالفعل هذه الزيارة . فقد ظل طيلة حياته ، رغم خيبة أمله بالألمان فيما بعد ، يؤكد أنه لم يتخل يوماً عن إعجابه بكفايتهم وإخلاصهم ، وجدهم العسكرى العنيف . وبدا عليه التأثر منذ اليوم الأول للزيارة . وكان له مطلق الحق فى هذا التأثر . فقد كانت هتافات الجماهير تشق عنان السماء ، رغم الأمطار الغزيرة الهاطلة ، وبدت الصفوف التى لا نهاية لها من الجنود من ذوى الخوذ الفولاذية جامدة بلا حراك . وأقيمت المآدب على شرفة فى مونيخ ، والمناورات العسكرية فى مكلينبرج ، كما أعدت له زيارات لمصانع الروهر ، وعروض عسكرية للجنود يمشون مشية الأوزة فى كل مكان . واحتشد أكثر من تسعمائة ألف إنسان فى برلين ، قبيل نهاية الزيارة ، ليستمعوا إليه وهو يخطبهم ، وهناك ، وبالرغم من أن جورنج كان قد أثار أعصابه بالسماح للبؤته الصغيرة بأن تقفز على حضن الدوتشى ، متشاغلا عنه باللعب بقطاراته الكهربية

حتى اللحظة الأخيرة . وبالرغم من العاصفة الهوجاء التى هبت عنيفة على الميدان حيث كان يخطب ، قاطعة عليه خطابه ، ومبللة أوراقه ، ومخربة مكبر الصوت ، فإن تأثره كان بالغاً بهذه المناسبة . وقد انتظرت الجماهير تحت المطر المنهمر ، وكأنها فى عرض عسكرى ، لتهتف له فى نهاية خطابه ، الذى لم يعد فى وسعها الإصغاء إليه ، والتى صعب عليها أن تفهمه منذ بدايته . وعاد الدوتشى فى السيارة إلى مقره ، وقد أغرقه البلل ، ولحق به الإجهاد ، ولكن معنوياته ظلت عالية . فقد رأى بأم عينيه « أقوى أمة فى أوربا الحديثة ، وهى تسمو فى طريقها إلى المجد والعظمة » . وكان نجاحه فى تلك البلاد منقطع النظير . وكتب تشيانو معتزاً به فى يومياته يقول . . . « أسرت جاذبيته ، وصوته ، وفتوته ، وحيويته ، مخيلة الجماهير الألمانية تمام الأسر » . ولم تكن قد أتيحت له الفرصة لرؤية هتلر على انفراد أكثر من بضع دقائق ، لم يدر إبانها حديث فى أى موضوع هام ، ولم تذكر قضية النمسا كما قال لشو شنيج فيما بعد ، لا فى قليل ولا فى كثير . ولكنه كان قد حزم أمره بالنسبة إلى ألمانيا ، فقد راح يصرخ بأعلى صوته عندما تعطل جهاز تكبير الصوت فى ميدان متيفيلد ليسمع الناس قوله ، رغم المياه المنصبة كالقرب من السماء . . . قائلاً : « وعندما يكون للفاشية صديق ، فستسير مع ذلك الصديق حتى النهاية » .

وكان هذا الوعد القاطع بالولاء ، بداية الهبوط نحو الكارثة . وكان هذا الوعد أيضاً بالنسبة إلى كثيرين من الإيطاليين بداية خيبة الأمل المرة . فقد كانوا يرون فى الثورة الفاشية حتى هذه اللحظة شيئاً نافعاً ونظيفاً . وبالرغم من نزوعها إلى الحكم السلطوى ، وإلى بعدها عن الليبرالية ، كانوا يرونها شيئاً رائعاً إذا قارنوها بوحشية الاشتراكية الألمانية الضخمة . وكانوا يحسون بالسعادة عندما يسمعون الناس يصفون الألمان بالغلظة ، وهتلر بالوحش السياسى ، المجنون ، والذى يقلد غيره ، والغريب الأطوار . لكنهم تحتم عليهم الآن أن يقرأوا قصة مغايرة . فقد أشار الدوتشى نفسه إلى الألمان متحدثاً عنهم بأنهم « الشعب العظيم ذو التقاليد الكريمة ، والمستقبل العظيم » . ولم يعد هتلر عنده « المهرج » ، بل صوره فى خطاب ألقاه ، ونشر على نطاق واسع فى إيطاليا على أنه « العبقرى ، بل أحد أولئك العباقرة القليلين الذين يصنعون التاريخ ، ولا يسيرون فى ركابه » . ولم يمض شهر واحد على هذه الزيارة

حتى كانت إيطاليا توقع فى السادس من نوفبر عام ١٩٣٧ على ميثاق مكافحة الشيوعية الدولية . ونص هذا الميثاق على أن تقف إيطاليا وألمانيا « جنباً إلى جنب ضد تهديد البلشفية وخطرها » .

وسرعان ما اتضح نفوذ الألمان على الفاشية . وقد تأثر موسولينى تأثراً بالغاً ، ينطوى على الإعجاب الذى لا مزيد عليه برؤية هذه الألوف من الجنود المدربين تدريباً صارماً ، وهم يخطون أمامه فى مشية الأوزة ، وأحذيتهم الغليظة تضرب الأرض بإيقاع موسيقى رهيب ، مارين بتلك الشوارع التى غسلتها مياه الشتاء ، مما دعاه إلى أن يقرر إدخال هذا المظهر الحيوى الذى يدل على النشاط فى الجيش الإيطالى والحرس الفاشى . وراح يصدر أمره ، جاهلا أو متجاهلا ، ما يثيره هذا التقليد المحط من موجات الاستياء والسخرية ، بأن تصبح مشية الأوزة ، المسيرة الجديدة للجندى الإيطالى . وأطلق عليها اسم « الخطوة الرومانية » ، واصفاً إياها بأنها « الخطوة الثابتة الصارمة التى كانت الفيالق الرومانية تخطوها . والتى كانت كل واحدة منها تقود إلى الفتح والنصر » . وكان النازيون قبل عشر سنوات قد جعلوا من التحية الرومانية ، تحيتهم الرسمية ، وها هو ذا موسولينى اليوم ، رغم إنكاره العنيف لظاهرة التقليد ، يدعى أن الأوزة طائر رومانى لأنها هى التى أنقذت الكابيتول(١) ، وينقل عن الألمان مشية الأوزة دون أن يعترف بفضل النقل ، تماماً كما نقل هتلر من قبل التحية الرومانية عن دانونزيو . وكانت هذه المشية صعبة عسيرة على الأداء ، وكانت فى منتهى البشاعة ، إذا لم يتقنها القائمون بها . وقد ثار موسولينى على ما وجه إليه من نقد فى هذا المجال ، وعلى تسمية المشية الإيطالية الجديدة بالصورة المقلدة لمشية الأوزة . وعندما حاول الملك أن يمشى مشية الأوزة ، راح موسولينى يعلق بشىء من الزراية لتشيانو قائلا . . . « ليس الذنب ذنبى إذا كان الملك لا يعدو من الناحية العضوية أن يكون نصف إنسان ، قمىء القامة . ومن الواضح أنه لا يستطيع تأدية الخطوة دون أن يثير الهزء والسخرية . وهو لا يحب هذه المشية ، لنفس السبب

(١) إشارة إلى قصة قديمة من التاريخ الرومانى ذكرها تيتوس ليفى فى كتابه « تاريخ رومة » . وكان الرومان يؤمنون بالفؤول والعرافة ، ويكيفون خططهم الحربية على ضوء ما يقوله لهم رجال الطير . وقد نجا الكابيتول من الحريق بفضل أوزة فى الحرب البونية التى وقعت فى القرن الثالث قبل الميلاد .
« المعرب »

الذى يكره من أجله امتطاء الجياد ، إذ يجد نفسه مضطراً إلى استخدام سلم للصعود إلى ظهر الجواد » . وراح يقول فى مناسبة أخرى بعد أن جرب المشية بنفسه : « من الواضح أن ذلك الإنسان القمىء الشق لا يستطيع أداء المشية فى الاستعراضات العسكرية ، لكن هذا لا يهم على الإطلاق . فسأعمل على الخلاص منه . وكثيراً ما تغير سير التاريخ فى ليلة واحدة » . وقد اشتدت نقمة موسولينى على الملك من جراء الحقيقة الواقعة ، وهى أنه كان يكره الألمان ، ولم يكن يتردد فى إبداء هذه الكراهية لهم ، والتعبير عن قلقه من جراء توثق عرى الصداقة بين إيطاليا والرايخ . وقرر موسولينى وهو ساخط ، أن « الملكية قد غدت نظاماً لا ضرورة له » . وعندما قيل له إن الملك قد اعترض على إدخال التحية الرومانية فى الجيش ، انفجر موسولينى غاضباً ، وهو يقول . . . « إننى احتملت فوق ما أطيق لأجر هذه الملكية المتعبة معى . ولم أقم حتى الآن بعمل يلزم العهد ببقاء الملكية . أنا ما زلت أنتظر وأعتقد أن الوقت فى مصلحتنا ، لأن الملك قد بلغ السبعين من عمره ، وكلى أمل فى أن تهرع الطبيعة لمساعدتى فى هذا الصدد » .

وكانت هناك نتيجة أخرى أكثر إثارة للرعب والفزع لصداقة موسولينى الجديدة لألمانيا ، وأكثر مدعاة للزراية والاحتقار من إدخال مشية الأوزة والتحية الرومانية فى الجيش الإيطالى ، وهى إقحام اللاسامية على الحياة القومية الإيطالية . لكن هذا الشر لم يتعمق جذوراً قط فى هذه الحياة . واستقبل البيان الذى أصدره بعض أساتذة الجامعات المشهورين ، والذى نشرته الصحف الفاشية فى يوليو عام ١٩٣٨ من أن الإيطاليين من العنصر الآرى النوردى الذى لم يختلط دمه بغيره منذ غزوات اللومبارديين ، بكثير من الاستخفاف الذى يستحقه . ولكن لم تمض ثلاثة أشهر حتى كان المجلس الفاشى الأعلى ، يقر برنامجاً للتشريع العنصرى . وقد حظر هذا التشريع الزواج بغير الآريين ، وهو تعريف لم يحدد قط ، إلا بإذن من وزارة الداخلية ، وقرر طرد اليهود الأجانب أو أولئك الذين جاءوا إلى البلاد بعد الأول من يناير عام ١٩١٩ ، كما حرّم على اليهود أن يعملوا فى التعليم والمحاماة والصحافة والمصارف وأن ينتموا إلى عضوية الحزب الفاشى ، وأمر بفتح مدارس ابتدائية خاصة للأطفال اليهود . ونص القانون على معاقبة من يتزوجون من أفريقيات أو حتى من يقيمون

علاقات جنسية معهن بالسجن . وقال الدوتشي . . . « إن هذه الإجراءات كلها ستزيد من كراهية الأجانب لإيطاليا . حسناً فليكن » .

وقد زادت هذه الإجراءات أيضاً مما تلقاه الفاشية من معارضة ، ودفعت هذه التطورات موسوليني إلى الحملة حملات عنيفة ومتكررة على من أسماهم « بالجبناء في إيطاليا الذين أثر عليهم مصير اليهود » . وكان الملك أحد هؤلاء الجبناء . وقد أثار إعرابه عن « عطفه اللامحدود على اليهود » موسوليني ، ودفعه إلى القول بأن من الواجب معاملة هذا « المخنث » كما يعامل اليهود . وكان موسوليني حتى قبل زيارته لألمانيا قد أطلق عبارة ساخرة ضد أمريكا نقلها تشيانو في يومياته فوصفها « ببلاد الزنوج ، واليهود ، وهما القوتان اللتان تعملان على انحلال الحضارة » . وتنبأ بأن الشعوب التي ستلعب دوراً عالمياً بارزاً في عام (٢٠٠٠) ، هي الشعب الإيطالي ، والألماني والروسي والياباني ، ومضى يقول . . . « أما البلاد الأخرى ، فسيحطمها ما يحدثه "الحامض" اليهودي من تآكل في بنيانها . واليهود يرفضون التكاثر عن طريق التناسل . لأنه يسبب الألم ، وهم لا يذكرون أن الألم هو العامل الخلاق الوحيد في حياة الأمم » . وراح يقول فيما بعد ، إنه يقر بلا قيد أو شرط ، العمليات الثأرية التي قام بها النازيون ضد اليهود ، بعد مصرع السكرتير الثالث للسفارة الألمانية في باريس على يد يهودي بولندي ، متخذين من الحادث مبرراً للمزيد من أعمالهم اللاسامية .

ومع ذلك ، لم يكن الدوتشي يتابع باهتمام واضح ، الطريقة الفجة والاتفاقية التي كانت تتبع في إنفاذ تشريعاته العنصرية ، بل جميع تشريعاته الفاشية الأخرى . وروى أحد موظفي السفارة الألمانية في رومة لصديق له ، أن الصورة الحقيقية للدوتشي ، « هي أنه ينبح كالكلب المسعور ، ولكنه لا يعض » . وقد استبدل بطبيب أسنانه اليهودي طبيباً آخر ، كما أمر أحد الزعماء الفاشيين باستبدال سكرتيرته اليهودية بأخرى ، لكن مثل هذه الإجراءات ، لم تقنع الألمان بأنه جاد في موقفه من المشكلة اليهودية . ولم تصدر الأوامر قط للحزب الفاشي ، بأن يتأكد من تنفيذ التشريعات العنصرية ، كما أن بوشيني ، سكرتير الحزب نفسه ، عرف بأنه لا يحمل الموضوع على محمل الجد . فقد كان موسوليني وظل حتى النهاية ، مخيباً لأمل هتلر في موضوع العداء للسامية . وعندما ذهب إليه أحد العلماء

الإيطاليين يشكو من المعاملة التى يلقاها بعض أصدقائه من اليهود ، رد عليه قائلا . . . « إننى على وفاق مع ما تقوله على طول الخط . فأنا لا أومن قيد شعرة بنظرية اللاسامية السخيفة ، وإن كنت أطبقها لدوافع سياسية مجردة » . وليس فى وسع إنسان أن يتحرر من الانطباع ، بأنه كان ينفذ هذه السياسة إرضاء لرغبات الألمان .

ولحق الوهن فى مستهل عام ١٩٣٨ ، بحماسة موسولينى لألمانيا ، فقد أدرك فى ذلك الشتاء أن هناك خطراً قريباً عن اعتداء الألمان على استقلال النمسا ، دون أن يكلف هتلر نفسه ، عناء التحدث إليه ، أو الإفضاء إليه بخططه ومشاريعه . وقام شوشنيج ، مستشار النمسا الذى كان منذ توقيع اتفاق يوليو عام ١٩٣٦ مع ألمانيا ، يحاول كسب الوقت ، وإرضاء الألمان . ليتجنب وقوع انقلاب نازى فى بلاده ، بزيارة برختسجادن فى الثانى عشر من فبراير عام ١٩٣٨ ، لإجراء محادثات مع هتلر . وقد انهال عليه الفوهرر عند لقائه به بالإهانات والسباب ، منذراً متوعداً . وقدم إليه الألمان مطالب واسعة شاملة ، لم يكن الإيطاليون قد أبلغوا بها مسبقاً . وأدرك شوشنيج أن عليه أن يذعن إذا كانت تهديدات هتلر ستؤدى إلى الحرب ، وعندما اتخذ بعد شهر خطوته الجريئة والخطرة ، بإعلان ضرورة استفتاء الشعب النمسوى فى موضوع الوحدة مع ألمانيا (الانشلوس) ، علق موسولينى على إعلانه هذا ، بأنه خطيئة كبرى . لكن هتلر رأى فى هذه الخطوة أكثر من مجرد خطيئة . وكانت الخطوة كما وصفها أى . جى . بى . تيلور « أشبه بمن يمس عصباً مصاباً عند إنسان متألم » . وراح هتلر يحدد يوم السبت فى الثانى عشر من مارس موعداً للزحف عبر الحدود ، وبعث قبل يومين من الموعد ، برسالة إلى رومة ، ليسلمها إلى الدوتشى شخصياً ، الأمير فيليب هيسّى ، الذى لم يكن يحظى بالتقدير والاحترام فى رومة ، كرسول من الأمراء ، اشتهر بالشذوذ الجنسى ، وانحطاط الخلق من ناحية ، وكصهر لملك إيطاليا ، إذ كان متزوجاً من ابنته الأميرة مافالدا .

وكان هتلر قد كتب فى رسالته إلى موسولينى يقول . . . « حزمت أمرى الآن على إعادة النظام وحكم القانون إلى نصابه فى وطنى . وأود أن أؤكد لفخامتك

بكل إخلاص وصدق ، كزعيم لإيطاليا الفاشية بأنني (١) أعتبر هذه الخطوة مجرد دفاع قومي عن النفس و (٢) كنت قد برهنت لك في ساعات إيطاليا الحرجة على صدق عواطفي ، وأرجو أن تتأكد بأن أي تبدل لن يطرأ على موقفي هذا في المستقبل ، و (٣) مهما كانت نتائج الأحداث المقبلة ، فقد رسمت حداً نهائياً بين ألمانيا وفرنسا ، وهأنذا أرسم أيضاً ، حداً نهائياً بين ألمانيا وإيطاليا . إنه ممر برينر . ولن يكون هذا القرار في المستقبل موضع نقاش أو تبدل » .

وبالرغم من أن هتلر ، كان متلهفاً على الحصول على موافقة موسوليني بعدم التدخل في الموضوع كما فعل في عام ١٩٣٤ ، إلا أنه قرر أن يهجم على النمسا ، مهما كان موقف إيطاليا . وبينما كان أمير هيسي لا يزال في طريقه إلى رومة ، صدرت أوامره بالشروع في عملية « أوتو » . وكان موسوليني على علم بهذه الحقيقة عندما تسلم رسالة هتلر . وقد أدرك أن معارضته لن تجدي فتيلا ، وكان قد تبين منذ زيارة شو شنيج لبرختسجادن ، أن المعارضة في هذا الصدد ، لا تتفق مع الفراهة السياسية . وكان كل ما يأمل فيه الآن ، هو الحصول على فائدة نتيجة استعداده للاعتراف بتعرض هتلر للاستفزاز . وقبيل الساعة العاشرة والنصف من ليلة الجمعة ، كان الأمير فيليب ينقل إلى هتلر عن طريق الهاتف ، رد الدوتشي على رسالته قائلاً . . . « هأنذا قادم من قصر البندقية ، وقد قبل الدوتشي الموضوع كله بروح ودية صديقة مطلقة . وهو يبعث إليك بخالص احترامه . . . »

وسر هتلر بهذه النتيجة سروراً بالغاً . فقد كان يعرف أن موسوليني سبق له أن أعلن بشيء من الاندفاع العاطفي بأن إيطاليا « لن تسمح قط بأن تغدو النمسا القلعة المدافعة عن الحضارة المتوسطية ، فريسة للدعوة الجرمانية القومية ». وها هو ذا يتأكد الآن من تأييد الدوتشي ، الذي لم يكن مقتنعاً في أي يوم مضى ، بأنه سيحصل عليه .

وراح يقول لرسوله . . . « أرجو أن تبلغ موسوليني بأنني لن أنسى له هذا الفضل أبداً . . . »

ــ أمرك يا سيدي .

ـ أجل لن أنسى له هذا الفضل أبداً . . . أبداً . . . مهما حدث . . . وعندما تتم تسوية المشكلة النمسوية ، فسأكون على استعداد للمضى معه جنباً إلى جنب ، فى السراء ، والضراء ، مهما حدث من تطورات .

ـ أجل يا سيدى الفوهرر .

ـ سأوافقه على كل ما يريده . . . وفى وسعك أن تبلغه ، بأننى أشكره جزيل الشكر . . . ولن أنسى له منته أبداً . . .

ـ أجل يا سيدى الفوهرر .

ـ لن أنسى له فضله مهما حدث . ولو حدث واحتاج إلى عون ، أو تعرض إلى خطر ، ففى وسعه أن يثق بأننى سأكون إلى جانبه ، مهما حدث ، حتى ولو وقف العالم بأسره ضده .

ـ أجل يا سيدى الفوهرر » .

وبعد يومين ، كان هتلر يكرر تأكيداته هذه واعترافه بفضل الدوتشى مدى الحياة فى برقية بعث بها إليه فى النمسا التى كانت قد غدت بصورة رسمية « إحدى مقاطعات الريخ الثالث » ، قائلاً . . . « لن أنسى لك هذا الفضل » .

ورد عليه موسولينى فى برقية جوابية يقول . . . « قررت الصداقة بين بلدينا التى يجسدها المحور ، موقفى هذا » .

ولكن تحتم على موسولينى على أى حال ، أن يوضح هذا الموقف للشعب الإيطالى الساخط ، الذى كان قد استمع قبل بضعة أشهر إلى الدوتشى ، وهو يعلن بأن « استقلال النمسا الذى مات دولفوس من أجله ، سيظل أحد المبادئ التى حاربت إيطاليا ، وستحارب فى المستقبل من أجلها ». ولم يكن فى وسعه إيضاح موقفه هذا للإيطاليين على النحو الذى أوضحه إلى تشيانو فى حديثه معه ، عندما وصف النمسا بأنها « كمية غامضة مهملة كان لابد من زوالها من خارطة أوربا » . وقد حاول فى مجلس النواب ، إسكات المعارضة بأسلوب ينطوى على المراوغة والخداع ، عندما راح يؤكد فى خطاب ملىء بالتبجح والادعاءات ، بأن إيطاليا لم يسبق لها أن تعهدت بصورة مباشرة أو لا مباشرة ، وخطياً أو شفوياً ، بالتدخل لإنقاذ استقلال النمسا » . ولكنه كان يكذب فى قوله هذا ، وكان الشعب الإيطالى

يعرف أيضاً أنه يكذب فى إدعائه . وساد الشعب الإيطالى ، لأول مرة بعد مصرع ماتيوتى ، شعور عام وعميق من خيبة الأمل . وبالرغم من أن المحور قد استطاع البقاء بعد « الانشلوس » ، إلاأن شعبية موسولينى المؤكدة قبلها ، لم تستطع البقاء . ولم يكن فى وسع أى مراقب ذكى للأمور ، أن يتجاهل الأخطار التى ينطوى عليها بالنسبة إلى إيطاليا السماح لدولة قوية ومحاربة كألمانيا بتوسيع حدودها إلى جبال الألب ، بالإضافة إلى ما فى هذا العمل الذى قام به الدوتشى من تبدل وضيع وفجائى فى سياسته لإرضاء حليف مقيت ومكروه . ولا ريب فى أن هذا التبدل ، كان مناقضة صريحة لنظرية السياسة الخارجية الإيطالية التقليدية كلها .

ومثّل نصر النمسا لهتلر نصراً كبيراً ، بل وتحقيق أحد مطامحه الرئيسية . لكن هذا الضم كان فى الوقت نفسه نقطة وثوب . باتجاه إمبراطورية أوسع فى الشرق . وكان منذ نوفمبر عام ١٩٣٧ ، قد تحدث فى اجتماع سرى عقد فى دار المستشارية فى برلين ، عن عزمه على احتلال تشيكوسلوفاكيا . وها قد بات الآن على استعداد لتنفيذ خطته . ولم يحمل تأكيد الحكومة الفرنسية لضماناتها السابقة لتشيكوسلوفاكيا ، على محمل الجد . وقد أحس بتلك الحاسة السادسة الغامضة التى كان قد شرع يؤمن بصدقها عنده ، بأن فرنسا كإنجلترا ، لا ترغب فى الدخول فى حرب ، وأن فى وسعه أن يتجاهل ادعاءاتها واحتجاجاتها . ولكنه رغبة منه فى التأكد من أن الخوف سيدفع فرنسا إلى الانكماش ، قرر قبل أن يقوم بهذه الخطوة الحاسمة أن يعمل على تعزيز المحور وتقويته .

وكان موسولينى قد وجه إليه الدعوة فى سبتمبر الماضى لزيارة إيطاليا. وفى الثانى من مايو عام ١٩٣٨ ، غادر الفوهرر برلين قاصداً رومه ، وهو عازم كما روى أحد سكرتيرى السفارة الإيطالية فى ألمانيا ، على إشباع غرور الإيطاليين وإرضاء كبريائهم ، والتأكيد لهم بأن المحور حقيقة واقعة . وكان قد فقد الكثير عند الإيطاليين نتيجة ضمه للنمسا ، وتحتم عليه أن يستعيد الأرض التى فقدها . ولم يكن هؤلاء قد نسوا حادث النمسا ، وكانت مخاوفهم قد تجددت من المطامع الألمانية فى منطقة « الاديج » . يضاف إلى هذا أن الحكومة البريطانية ، أرادت اهتبال فرصة ما تصورته من خيبة أمل الإيطاليين فى ألمانيا بعد موضوع النمسا ،

وأن تحول دون مزيد من التوسع من جانب هتلر ، فراحت تسوى مشاكلها مع موسولينى .

وقد رحب تشمبرلين ، بهذه التسوية التى اقترحها تشيانو ، بالرغم من معارضة إيدن الشديدة لها وهو « العدو الأكيد لإيطاليا » كما أسماه موسولينى ، ودار نقاش حاد بين الرئيس البريطانى ووزيره بحضور الكونت دينو جراندى سفير إيطاليا فى لندن ، أسفر عن الاستقالة التى قدمها وزير الخارجية إيدن ، بعد يومين اثنين ، وطرب موسولينى لاستقالة إيدن ، التى اعتبرتها الصحافة الإيطالية نصراً لإيطاليا ، بالرغم من التعليمات التى وجهت إلى رؤساء تحريرها . بالحد من التهليل لها مخافة تحول إيدن إلى « شهيد » عند الرأى العام البريطانى ، وراح يقبل التسوية . بشىء من السرور الممزوج بالتبرم . وكان يعرف أن أعمال هتلر فى أوربا ، قد عززت من قدرته هو على المساومة ، وتمكن عن طريق وعود غامضة وغير حاسمة قدمها بالنسبة إلى أوضاع أوربا الوسطى ، من الحصول على إقرار بريطانيا بالفتوحات التى قام بها فى الحبشة ، وبتدخله فى أسبانيا ، بالإضافة إلى ما حصل عليه من ضمانات مرضية فى البحر الأبيض المتوسط . وكتب تشرشل ساخطاً إلى إيدن يقول . . . . « لا ريب فى أن الاتفاق الإيطالى ، نصر كامل لموسولينى » . وكان هذا هو عين رأى تشيانو أيضاً ، إذ لم يستطع إخفاء احتقاره الملطف للإنجليز ، لتخليهم عن الكثير من المواقع لإيطاليا. وراح يعلق على الاقتراح الذى قدم إليه لتوقيع الاتفاق فى عيد الفصح لأنه يصادف عيد ميلاد هاليفاكس وزير الخارجية البريطانية الجديد بقوله . . . «حقًّا إنه اقتراح رومانطيقى». وكتب فى يومياته بشىء من الحماسة يقول . . . « لا ريب فى أن مجال الاتفاق واسع كل السعة . فهو يمثل بداية عهد جديد فى علاقاتنا مع بريطانيا العظمى. إنها الصداقة على قدم المساواة ، وهى الطراز الوحيد من الصداقة الذى يمكن أن نقبل به مع لندن أو مع غيرها » . وأضاف فى يومياته يقول . . .« وسيرحب الرأى العام الإيطالى بهذا الاتفاق ، ترحيباً حماسياً ، إذ أنه سيرى فيه وسيلة ممكنة للتحلل من ارتباطاتنا ببرلين » . وحقاً قوبل السفير البريطانى اللورد بيرث ، عند مغادرته قصر شيجى بعد توقيعه على الاتفاق فى الأول من أبريل عام ١٩٣٨ ، من الشعب

الإيطالى مقابلة حماسية، إذ تعالت له الهتافات، كما تكررت هذه المقابلة الحماسية لتشيانو وهو يغادر القصر إلى قصر البندقية ، ليقدم تقريره إلى الدوتشى . ولم تكد تحل الساعة الثامنة من ذلك المساء ، حتى كانت الحشود المتجمهرة قد بلغت حداً كبيراً أمام قصر البندقية ، مما أرغم موسولينى على الخروج إلى شرفة القصر ، لتلقى هتافات هذه الجماهير .

حقاً لقد كان الاتفاق « نصراً » على النحو الذى وصفه فيه تشرشل . لكنه كان بالنسبة إلى البريطانيين شيئاً لا قيمة له البتة . فموسولينى لم ير فيه لحظة واحدة . الخطوة الأولى فى سياسته للتحلل من التزاماته تجاه ألمانيا ، وإنما رأى فيه مجرد اعتراف آخر ، بنفوذ إيطاليا المتزايد ، وسلطانها النامى . وقد أرضاه غاية الرضى فى الواقع ، أن ألمانيا نفسها اعتبرت الاتفاق من جانب واحد ، وكان هذا الاعتبار من جانبها أكثر إرضاء له من الفوائد التى ستجنيها إيطاليا منه . ويبدو أنه لم يدرك الآن ولا فيما بعد الفرص العظيمة التى أتيحت له فى اتباع السبيل التقليدى الوسط بين ألمانيا والديمقراطيات الغربية ، كما لم يدرك أن شريكه فى المحور ، لابد وأن يزيد من توقيره له ، بشكل يفوق احترامه له لو أنه كان واثقاً كل الثقة فى إمكانه الاعتماد عليه . لكن موسولينى كان متلهفاً فى الواقع إلى التأثير على الألمان بصرامته ، وبأن فى وسعه أن يطرح جانباً هذه الفرصة التى أتيحت له لاتباع سياسة دبلوماتية أكثر براعة وذكاء .

وكانت هذه الرغبة فى التأثير على الألمان ، قد نمت لديه بشكل واضح منذ زيارته الأخيرة لألمانيا ، وأضحت العامل المؤثر فى جميع سياساته . وكان اللورد بيرث قد احتج فى المراحل الأولى من المفاوضات لعقد الاتفاق الإنجليزى — الإيطالى ، لدى تشيانو على الغارات الجوية الإيطالية على المدن الأسبانية . لكن الدوتشى « لم ينزعج قط » ، كما قال تشيانو فى يومياته ، من ملاحظات السفير البريطانى ، وإنما « سر فى الواقع ، لأن يعرف بأن الإيطاليين يثيرون الفزع فى العالم ، بهذا التبدل الاستفزازى العدوانى الذى طرأ عليهم ، بعد أن كانوا يسحرونه بمهاراتهم فى العزف على القيثار ، وكان يرى أن هذا سيرفع من أسهمنا فى ألمانيا ، حيث يحب الناس فيها الحرب الشاملة التى لا تعرف الرحمة » .

وقرر موسولينى أن تكون زيارة هتلر المقبلة لإيطاليا ، مؤثرة بالقدر الذى حققته زيارته لألمانيا هو . وبدأ الإعداد للزيارة قبل موعدها بستة أشهر ، وحرص تشيانو ، على أن لا تضم هذه الإعدادات ، كما قال فى يومياته « شيئاً عادياً ، وريفياً ، ورخيصاً » . ولذا فقد عنى أشد العناية بتزيين الشوارع ، وبالرغم من أن الكثيرين من أصحاب الحوانيت رفضوا أن يرفعوا على حوانيتهم صورة هتلر ، فإنهم أرغموا على أن يبدوا هذه الحوانيت فى صورة رائعة تنطوى على الترحيب . وقضى الدوتشى ساعات طويلة ، وهو يشرف على الإعدادات التى تجرى للعروض العسكرية ، ويدرس بنفسه تفاصيلها . ويبدو أن جهوده قد حققت النجاح ، فقد كان أخيل ستاراشى ، رغم جميع أخطائه ، مديراً مسرحياً رائعاً . وكتب تشيانو يقول . . . « وكانت العروض العسكرية فى منتهى الروعة . ولا ريب فى أن الألمان الذين كانوا يشكون فى قدراتنا العسكرية ، سيغادرون بلادنا بانطباع مختلف تمام الاختلاف »

وليس ثمة من شك فى أن هتلر قد تأثر فعلا . وبالرغم من أنه كان قد شهد عروضاً أكثر خبرة فى ألمانيا . وكان قد عرف بأن إيطاليا لا يمكن أن تحسب قوة عسكرية ضخمة ، فقد أدرك أن إيطاليا ، حليف لا يمكن أن يتخلى عنه على الإطلاق . وبرهن موسولينى لهتلر ، على أن من حقه أن يعتبره الزعيم الوحيد فى العالم ، الذى يستحق المقارنة به . وسلك الفوهرر من ناحيته سلوكاً ممتازاً . ولم يعد ذلك « المهرج الصغير السخيف » ، الذى كان عليه عند زيارته السابقة للبندقية ، وكان الغيب الوحيد الذى رآه الدوتشى فيه هذه المرة أنه يبدو وقد صبغ وجنتيه « بالحمرة » ، ليخفى شحوب وجهه . وقد هتفت له الجماهير بحماسة فى روما وفلورنسه ونابولى ، وخطب الحشود الحاشدة ببراعة واعتزاز . وراح يعلن لها عزمه على عدم المطالبة بعودة التيرول الجنوبى قائلا . . . « وإن إرادتى التى لا تتحول ولا تتبدل ، ووصيتى التى لا تتغير للشعب الألمانى ، هى أن يعترف بأن حدود الألب ، التى أقامتها الطبيعة بيننا ، ستظل دائماً وإلى الأبد دون أى تبدل » وسجل تشيانو انطباعاته عن هذه الزيارة بقوله . . . « لا ريب فى أن الفوهرر ، حقق نجاحاً شخصياً عظيماً » . وقد أفلح كل الفلاح فى إذابة الجليد الذى كان يحيط به . . . وأكسبته اتصالاته الشخصية مزيداً من الحب ، ولا سيما عند النساء »

ولم تحطم الصورة السخيفة التى ظهرت له وهو يغادر دار أوبرا سان كارلو ، فى ملابس السهرة والقبعة العالية ، الانطباع الناجح الذى تركه عند الشعب الإيطالى

لكن الملك فكتور عمانوئيل ، لم يكن راضياً ، بالرغم من رضى القيادة الفاشية فقد كره هتلر منذ النظرة الأولى ، ولم يستطع أن يكسب ثقته ، وكان بادى التبرم، عندما استضافه فى قصر الكيرينالى . وراح يقول لموسولينى إن هتلر ، طلب فى ليلته الأولى فى القصر ، امرأة فى غرفته . وأثار هذا الطلب موجة عارمة من السخط ، فى القصر الملكى ، لم تهدأ إلا عندما فسر رجال حاشيته ، طلبه بأن هتلر لا يستطيع النوم ، إلا إذا رأى امرأة تعد له سريره . وقد تساءل تشيانو فى يومياته دهشاً عن صحة هذه القصة ، معرباً عن شكه فى أن تكون أكذوبة اخترعها الملك للتعبير عن كراهيته ، مضيفاً إليها أن هتلر « يحقن نفسه بالحقن المهيجة والمنوّمة » وأضاف تشيانو أن جو القصر كله . كان متعفناً ، إذ لا يعقل أن تحب أسرة مالكة يرجع تاريخها إلى ألف سنة ، الطريقة التى يعبر بها عهد ثورى عن ذاته . ولا ريب فى أن هذه الأسرة ، تؤثر ملكاً صغيراً تافهاً على هتلر ، الذى تعتبره من محدثى النعمة .

وقد كره هتلر الملك فكتور عمانوئيل ، ككره الملك إياه ، وظل طيلة حياته كلها ، يحمل حقداً وضغينة على أسرة سافوى المالكة وكانت هذه الكراهية المتبادلة ، تبدو واضحة عليهما فى الحالات التى كانا يظهران فيها معاً فى الحفلات العامة . لكن الود بدا من الناحية الثانية جليًّا بين الفوهرر والدوتشى . وقد ظهر التأثر عليهما بجلاء فى المحطة ، عندما وقف موسولينى يودع ضيفه أثر انتهاء زيارته ، وبدا الفوهرر وهو ينظر إلى مضيفه نظرة حب وإخلاص كتلك التى تبدو على الكلب وهو ينظر إلى سيده . وقال الدوتشى موجهاً حديثه إلى ضيفه ، « لن تستطيع قوة فى الأرض بعد اليوم ، التفريق بيننا » . واغرورقت عينا هتلر بالدمع وهو يستمع إلى هذا القول .

وعاد هتلر من إيطاليا ، وقد وثق من أن الدوتشى لن يتدخل فى الخطط التى رسمها لتشيكوسلوفاكيا . وبالرغم من أنه لم يشر إلى الموضوع إلا إشارات غامضة أثناء الزيارة ، إلا أنه كان يعرف أن موسولينى لا يحب التشيكيين وكان يشير إلى بلادهم

كما أشار من قبل إلى النمسا بأنها « نقطة غامضة على الخارطة الأوربية » . وراح الدوتشي يمهد الجو لتقبل الشعب الإيطالى ، الحل الذى تراه ألمانيا للمشكلة التشيكية ، فأخذ يتحدث فى خطبه عن ضرورة مواجهة المشكلة التشيكوسلوفاكية ، و « حلها بصورة عامة » . . . وقال فى إحدى خطبه . . . « وإذا كانت تشيكوسلوفاكيا تجد نفسها اليوم فى موقف دقيق ، فإن هذا الموقف ناشئ عن أنها لا تضم التشيك والسلوفاك وحدهم ، وإنما تضم التشيك والألمان والبولنديين والمجريين والروثنيين والرومانيين والسلوفاك أيضاً » .

ولم يكن قلق الدوتشي منصرفاً إلى أن الألمان سيحلون هذه المشكلة إذا تطلب الأمر بالقوة ، بل إلى خوفه من ان لا يبلغه الألمان بموعد عمليتهم مسبقاً » . فقد تلقى برناردو اتوليكو ، سفير إيطاليا فى برلين التعليمات أكثر من مرة ، بأن يسأل ريبنتروب ، خليفة فون نوراث فى وزارة الخارجية الألمانية أن « يبلغه مسبقاً، الموعد التقريبي للعمل الذى تزمع المانيا القيام به ضد تشيكوسلوفاكيا » . ولكن عندما كان موسوليني يرى أن دبلوماتية هتلر ، قد تستفز حرباً عالمية ، وأن تهديداتها قد تخلق أزمة دولية ، كان ينكمش متراجعاً ، ومعيداً النظر فى موقفه ، متسائلاً عما إذا كانت المصلحة تقضى بأن يواصل تأييده لهتلر ، بلا قيد أو شرط . ويقول تشيانو ، إن تشمبرلين كان أكثر اهتماماً من الدوتشي بالوصول إلى اتفاق سلمى . لكن الدوتشي أخذ يحس فى الواقع بأن هتلر يقترب من شفير الحرب ، وشرع يدرك خطورة السماح لبلاده هو ، وهى على ما هى عليه من افتقار إلى الإعداد ، بأن ترغم على الدخول فى الصراع ، لما فى ذلك من تعريض « لبلفته» الدعية لخطر الانكشاف . وراح يسر إلى وزير خارجيته تشيانو قائلاً . . . « لو قدر للحرب أن تنشب فى ألمانيا وبراج وباريس وموسكو ، فسألتزم جانب الحياد » .

وبدت الحرب فى الثامن والعشرين من سبتمبر ، حتمية الوقوع . وكان من المقرر أن تنتهى مهلة الإنذار الذى قدمه هتلر إلى التشيكيين فى جودسبرج قبل أربعة أيام فى الساعة الثانية من بعد ظهر ذالك اليوم . وتلقى مقر وزارة الخارجية الإيطالية فى قصر شيجى فى ذاك الصباح ، محادثة هاتفية عاجلة . فقد تطلع البريطانيون من جديد إلى موسوليني ، ليؤثر على هتلر ويحمله على الاعتدال .

وتساءل السفير البريطانى اللورد بيرث ، عما إذا كان فى مكنته أن يلقى الكونت تشيانو على الفور . وسجل تشيانو فى يومياته أنه استقبله على الفور ، وأن السفير أبلغه بكثير من الهياج العاطفى ، بأن تشمبرلين يناشد الدوتشى ، أن يتدخل تدخلاً وديًّا فى « هذه الساعات الحرجة التى يعتبرها آخر فرصة للقيام بعمل ما لإنقاذ السلام والحضارة » .

وطرب موسولينى لهذا التطور . واعترف بأن من الخير له أن يبدو كصانع للسلام ، على أن يغامر فى الانجذاب إلى حرب . لم يستعد لخوضها . يضاف إلى هذا أن أعين العالم بأسره ، قد شخصت إليه . وراح يأمر تشيانو ، بأن يطلب برلين هاتفياً ، وعندما بات سفيره اتوليكو ، على الجانب الآخر من الخط ، تناول الدوتشى سماعة الهاتف وأمره بأن يمضى لتوه إلى هتلر ، ليؤكد له وقوف إيطاليا إلى جانب ألمانيا ، وليقترح عليه تأجيل التعبئة العامة أربعاً وعشرين ساعة وأضاف قائلاً . . . « أريد الرد قبل الظهر » .

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة . وهرع اتوليكو يهبط سلم السفارة راكضاً ، ليقفز وقد تقطعت أنفاسه فى أول سيارة أجرة . وعندما وصل إلى دار المستشارية ، كان هتلر مجتمعاً مع اندريه فرانسوا بونسيه ،سفير فرنسا فى برلين ، الذى جاء يحمل إليه ، وفى اللحظة الأخيرة ، عرضاً من الحكومة الفرنسية . وانطلق ضابط من ضباط الحرس النازى ، إلى مكان الاجتماع . ليعلن للفوهرر ، أن اتوليكو ، قد وصل حاملا رسالة إليه من الدوتشى . وسرعان ما فارق هتلر زائره ، ليجتمع بالسفير الإيطالى . وقرأ رسالة الدوتشى التى كان اتوليكو قد ترجمها إلى الألمانية ، فتردد لحظة واحدة ثم أعلن للسفير ، قبوله ، بوجهة نظر موسولينى . وقد اعترف هتلر فيما بعد لجورنج ، بأن رسالة موسولينى جعلته حائراً فى أمره ، ولم يستطع التأكد مما إذا كان رفضه اقتراحه ، لن يؤدى إلى أن يتخلى الدوتشى عنه ليمضى فى طريقه وحيداً . وبعد بضع ساعات ، كان اتوليكو ، يقول للسفير البريطانى فى برلين ، نيفيل هندرسون إن « الشيوعيين قد خسروا فرصتهم اليوم ، إذ لو قطعوا أسلاك الهاتف بين رومة وبرلين ، لكانت الحرب العالمية قد نشبت » .

وأعلن نفيل تشمبرلين ، رئيس وزراء بريطانيا فى مجلس العموم فى الساعة

الثالثة من بعد ظهر ذاك اليوم ، موافقة هتلر على التأجيل . . . ومضى رئيس الوزراء يقول وقد استبدت به العاطفة ، عندما تلقى وهو يلقى كلمته ، رسالة جديدة قرأها بعد أن قطع خطبته . . . وهذا ليس كل ما فى الأمر . فلدى الآن ما أضيفه للمجلس الموقر . فقد تلقيت الآن دعوة من الهر هتلر ، لملاقاته غداً صباحاً فى مونيخ . وقد وجه دعوة مماثلة إلى كل من السنيور موسولينى والمسيو دبلادييه وقد قبل السنيور موسولينى الدعوة ، وليس لدى من شك فى أن المسيو دبلادييه سيقبلها . وغنى عن القول ، أننى سأرد عليها بالإيجاب أيضاً » .

لكن موسولينى ، رأى من ناحيته إن سرور تشمبرلين واعتزازه كانا فى غير موضعهما . وعندما هتف له تشيانو ليبلغه قرار هتلر . علق عليه بشيء من الرضى قائلا . . . « لن تكون هناك حرب ، ولكن هذه هى نهاية مكانة بريطانيا وهيبتها » .

وعندما مضى فى طريقه إلى ألمانيا فى تلك الليلة ، راح يفصل رأيه هذا قائلا بشيء من النكتة والمزاح . . . « عندما ترى بلاداً تعبد فيها الحيوانات إلى الحد الذى يقيمون لها فيها مقابر ومستشفيات ومساكن . وتحمل الرسالات إلى الببغاوات تنقلها ، فى وسعك أن تتأكد بأن الانحلال قد دب فيها . ولهذا الانحلال عوامل عديدة ، من بينها تركيب الشعب الإنجليزى نفسه . فهناك يزيد عدد النسوة أربعة ملايين على عدد الرجال ! أجل أربعة ملايين من النسوة اللائى لا يجدن الترضية الجنسية ، فيخلقن مجموعة مصطنعة من المشاكل ، لإثارة غرائزهن أو إطفائها . وهن عندما يعجزن عن عناق رجل واحد ، يحاولن معانقة الإنسانية جمعاء » .

ومضى فى مثل هذه الأحاديث حتى ساعة متأخرة من الليل . أجل كان فى نشوة روحية عالية . فقد آمن أن نفوذه وحده ، هو الذى حقق مثل هذا الاجتماع . فهو وحده القادر على مناقشة هتلر ، وكان تبنيه لفكرة المحادثات هو الذى أمن للفوهرر السبب الذى يغطى به تراجعه ، وقبوله التفاوض . ولم يوافق هتلر على الدخول فى أية محادثات إلا إذا كان الدوتشى حاضراً لها شخصياً . وقد أوكل إليه فوق ذلك كله ، اختيار مكان الاجتماع ، إذ اقترح هتلر فرانكفورت أومونيخ ، وهو الذى اختار ثانيهما .

وتوقف القطار ، فى كوفشتاين ، أى قبل وصوله إلى مونيخ بسبعين ميلا ،

ليستقله هتلر ومعه أمير هيسى ، فقد كان الفوهرر جد تواق للتحدث إلى الدوتشى على انفراد ، قبل بدء الاجتماع . ودعاه هتلر إلى عربته حيث عرض عليه بعض الخرائط المكبرة ، للبلاد التى يعتزم ابتلاعها . وكان يصر على أنه سيفرض حله على تيشكوسلوفاكيا بالقوة فى حالة فشل المؤتمر . ووجد الدوتشى صعوبة بالغة فى إقناعه بأن لا يحكم على المؤتمر بالفشل قبل الشروع فيه ، ولم تبد على هتلر علائم الرضى ، إلا عندما وعده الدوتشى بأن تقوم إيطاليا بمساعدة ألمانيا فى حالة فشل المؤتمر . ومضى الفوهرر يقول . . . « لا ريب فى أن اللحظة التى سنحارب إنجلترا فيها جنباً إلى جنب . قادمة عما قريب » . ولم يرد موسولينى على هذا القول ، وظل هتلر فى حيرة من أمره ومن مدى قدرته على الوثوق بمساعدة إيطاليا وعونها .

وأعاد الفوهرر ظاهرة عناده من جديد ، عندما التأم شمل الاجتماع بعد بضع ساعات فى دارة الفوهرر فى كوينجز بلاتز . وقد هبط درج الدارة لاستقبال ضيوفه وقد بان الإصرار والتصميم على وجهه . وحيا الوفد الإيطالى بشىء من من الحرارة « الموزونة » بينما صافح بمنتهى البرود والجمود كلا من تشمبرلين وديلادييه. وراح يعلن زائريه على الفور ، بكلمات متسارعة تطبعها الإثارة والحماسة ، إنه أبلغ العالم بأنه يعتزم العمل ضد تشيكوسلوفاكيا ، ولكن قيل له بأن عمله هذا يحمل طابع العنف ، ومن هنا كان من واجب المجتمعين أن « يحللوا العمل من مثل هذا الطابع ، لا سيما وأن العمل يجب أن يقع على الفور » .

ولكنه بالرغم من هذه العبارات القاطعة الحاسمة ، بدا عصبى المزاج ، وغير واثق من نفسه . وعندما انتهى من حديثه ، نأى عن الآخرين ، ووقف إلى جانب الحائط وقد بان عليه القلق ، يتطلع إلى موسولينى ، الذى بدا على النقيض من زميله فى منتهى الثقة . وفى صورة الوصى على المجتمعين ، يخطو فى الغرفة جيئة وذهاباً ، وقد وضع يديه فى جيبيه متحدثاً بفرنسية طليقة إلى ديلادييه . وبألمانية دقيقة إلى ريبنتروب ، وبإنجليزية صعبة وإن كانت سليمة إلى تشمبرلين . وراح يخرج من جيبه مذكرة تضمنت كل الاقتراحات الألمانية التى نقلها إليه سفيره اتوليكو هاتفياً قبل مغادرته رومه ، بعد أن أدخل عليها تعديلات طفيفة . وقبل الآخرون المذكرة على أنها من وضع موسولينى ، وإن الألمان على استعداد لتقبلها كأساس

مرض للبحث ، وأعربوا عن استعدادهم لدرسها بدقة وعناية . وأعدت مسودات أخرى ونوقشت . ولكن مذكرة موسوليني هي التي ألفت أساس الاتفاق الذى تم التوقيع عليه فى الساعة الثانية من صباح الثلاثين من سبتمبر . وكان موسوليني قبل التوقيع بساعات قد أدرك أن هتلر قد فاز بكل ما أراده تقريباً ، وأن المناقشات التي استطالت ، كانت فى الواقع دون أى جدوى . ولم يشترك تبعاً لذلك فى هذه المناقشات ونجح فى أن يوحى لتشمبرلين بالانطباع بأنه « رجل هادئ كل الهدوء ، ومتحفظ بالغ التحفظ ، إلى الحد الذى يجعله يبدو وكأنه خائف من هتلر » وخيل إلى ايفون كيركبا تريك الذى شهد الاجتماع أيضاً ، بأن موسوليني كان بالرغم من ثقته الظاهرة بنفسه ، خائفاً من هتلر ، وإنه بدا وكأن « حملاً ثقيلاً قد أزيح عن منكبيه نتيجة الاجتماع » .

وأحس تشيانو بالارتياح أيضاً للنتيجة ، وظل يرقب الدوتشي وهو يقف مترفعاً على الآخرين ، مما أثار إعجابه ، وراح يكتب فى يومياته قائلاً . . . « كانت روحه عالية دائماً سباقة للأحداث والرجال ، وكانت قد استوعبت فكرة الاتفاق ، وبينما كان الآخرون يجهدون أنفسهم فى مناقشة بعض القضايا الشكلية ، كان هو ، قد فقد كل اهتمام بالمناقشة . فقد انتهى الموضوع بالنسبة إليه ، وراح فكره يجول فى نواح أخرى » .

وبالرغم من أن هتلر ظل فيما بعد يعرب عن عدم رضاه عن اتفاق مونيخ ، إلا أنه بدا فى ذاك اليوم يشارك تشيانو إعجابه بالدوتشي . وقد ذكر فرانسوا بونسيه أنه ظل يرقبه باستمرار « وقد بدا عليه الإعجاب الذى بلغ حد السحر . فلو ضحك الدوتشي . ضحك لضحكه ، ولو عبس ، شاركه عبوسه » .

وهللت إيطاليا للدور الذى أداه الدوتشي معتبرة إياه نصراً عظيماً . وجاءه الملك من فلورنسه إلى دارته الريفية فى سان روسورى ، ليهنئه على ما فعله ، وعندما وصل القطار الذى يقله مدينة رومه ، احتشدت جماهير غفيرة من الناس ، جاءت لتحييه بحماسة لم يكن لها مثيل على حد تعبيره هو ، منذ أعلن قيام الإمبراطورية الإيطالية . لكن هذه الحماسة لم تعجبه ولم ترضه ، إذ أن لقب « ملاك السلام » ، الذى سمع الناس يهتفون له به مصحوباً بلقب « الدوتشي » ، لم يكن من الألقاب

التى تعجبه . وعندما رأى قوساً من أوراق الزيتون وقد أقيم عبر شارع « ناسيونالى » الذى مر منه موكبه ، لم يستطع أن يكبت غضبه ، فانفجر قائلاً . . . « ومن المسئول عن هذا الكرنفال ؟ » وكان يرى أن الواجب يقضى بعدم السماح للشعب الإيطالى بأن يتعلق بأهداب السلام ، وأن « القتال ، يجب أن يصوغ طبيعته وشخصيته » . وحزم أمره على عدم السماح لشعبه بأن يرى فيه صورة أخرى لتشمبرلين « صانع السلام » ، لأنه رأى فى هذه الصورة ما يحط من قدره ، وقرر أن يحتفل بعودته إلى إيطاليا بسلسلة من الخطب التى يرغمه فيها ، ولا سيما البورجوازيين من أفراده ، الذين كانوا فى حاجة إلى « من يبقر لهم بطونهم » ، على تقبل ألمانيا المعتدية كصديقة لهم وحليفة بدلا من فرنسا التى يجب أن ينظروا إليها كعدوة . وكان يقول لنفسه . . . « لا يمكن لإيطاليا أن تتحول إلى بروسيا ، ولكننى لن أسمح للإيطاليين بأن يعيشوا فى سلام إلى أن أموت » . وكان قد تحدث إلى تشيانو قبل بضع سنوات بقوله . . . « إننى أعد للإيطاليين مفاجأة مذهلة ، فعندما ننتهى من أمر أسبانيا سأذيع عليهم بياناً تاريخياً . وكان وزراؤه قد ألفوا أن يقبلوا منه مثل هذا الوعيد إليهم بشىء من التحفظ ، ولكنهم لم يستطيعوا إلا أن يتبينوا هذه المرة أنه جاد فيه . وراح فى السادس والعشرين من سبتمبر ، يبلغ تشيانو ، بأنه قد حزم أمره على إعلان التعبئة العامة فى اليوم التالى ، لإرسال قوات إلى ليبيا ، مما حمل تشيانو على الاعتراف فيما بعد بأنه كان قد صدق ما قاله الدوتشى . وأفضى تشيانو إلى صديق له فيما بعد ، بأنه خشى حقاً فى أن يمضى الدوتشى إلى الحرب ، لإثارة البورجوازيين الذين يكرههم ، والذين كانوا لا ينفكون عن إظهار فزعهم من مغارم السياسة الفاشية ، ومن البيروقراطية الضخمة التى كان الفاشيون قد أنشأوها . وأظهرت أرقام الإنفاق الحكومى التى نشرت ، وجود عجز يتزايد باستمرار ، إذ ارتفع من نحو ألفى مليون ليرإيطالى فى عام ١٩٣٤ — ١٩٣٥ إلى ما يربو على أحد عشر ألف مليون فى عام ١٩٣٧—١٩٣٨ ، وما يزيد على ثمانية وعشرين ألف مليون فى عام ١٩٣٩ — ١٩٤٠ ، وقد عزا موسولينى ، انسجاماً منه مع طبيعته ، هذا القلق المتزايد عند أفراد الطبقات الوسطى إلى اهتمامهم الأنوى بمصالحهم الخاصة ورخائهم ، وإلى رفضهم الاعتراف بالمصلحة القومية ، أو على

حد تعبيره المشهور والدعي . . . « بالتوجيه التاريخي والكلاسيكي ، للأساليب الفاشية » . وكان الأغنياء أيضاً مترددين في تأييدهم للعهد ، وقد سرت إليهم أيضاً ، عدوى الأفكار البورجوازية . وقال إن من الواجب ضربهم بالهراوات ، لإرغامهم على عدم الأثرة والانضباط ، وعهد إلى ستراشي بأن يدرس إمكان القيام بإجراءات ضد البورجوازية [1] . وعلى قادة الحزب أن يكونوا قدوة في الأخلاق الفاشية المناهضة للبورجوازية بعدم ارتداء الياقات « المنشاة » ، وأم النوادي الليلية ، واحتساء القهوة . وراح يدرس فيما بعد إغلاق البورصة ، وإلغاء الدرجة الأولى في القطارات ، ومنع رياضة الجولف واستيراد المجلات والملابس والكتب الفرنسية .

وكان قد شرع في حملته على فرنسا منذ عدة أشهر . وتحفل يوميات تشيانو في شهر مايو عام ١٩٣٨ بالإشارات إلى هذه الحملة . ففي الثالث عشر من مايو ، وصف الوزير زعيمه بأنه « أخذ يميل شيئاً فشيئاً إلى إظهار عداثه لفرنسا » . وكان يصف الفرنسيين بأنهم شعب « حطمته الخمر والأمراض السرية والصحافة » . وراح في اليوم التالي يلقي خطاباً في جنوه وقد تحدث عنه تشيانو بقوله : « كان خطاباً عنيفاً في عداثه لفرنسا . وراحت الجماهير تصفر هازئة بفرنسا ، وتضحك من اتفاقها مع لندن » . وعندما حل السابع عشر من مايو ، كان لا يزال يوجه حملاته العنيفة إلى فرنسا . وبلغ به الإجهاد والعنف بعد يومين مداهما . ونقلت إليه برقية بعد يومين كان السفير الفرنسي قد بعث بها إلى حكومته ، وقد تضمنت ملاحظات مهينة له ، فثار غضبه إلى حد الجنون » .

واستمرت الحملة بعد اجتماع ميونيخ إلى أن أصبحت المظاهرات العدائية لفرنسا في مستهل شهر ديسمبر أمراً مألوفاً . وراح موسوليني يسر في التاسع من ديسمبر إلى تشيانو ، بأن الأمور قد جاوزت الحد في الوقت الحاضر ، وأن من الواجب تلطيف الحملة المعادية لفرنسا بعض الشيء ، ومضى يقول . . « ولو استمرت الحملة على هذا النحو فسنضطر إلى أن نحمل المدفع على الكلام ،

---

(١) لعل من الحقائق الثابتة أن الناس يميلون إلى أن يستنكروا بمنتهى العنف ، كل ما يخشونه أشد الخشية ، ويكرهونه بالغ الكره . وكان موسوليني الشاب بالرغم من بوهيميته المفرطة ، يعنى بأن تؤخذ صوره ، وهو مرتد ثياباً مقبولة جميلة ، وقد أعد بطاقاته وقد حملت لقب « الأستاذ » ، وهو اللقب الذى كان يحمله وهو يزاول مهنة التدريس . « المؤلف »

ولكن الوقت لم يحن بعد لحديث المدفع . ولم يكن القصد من شن هذه الحملة منذ البداية أن تكون مقدمة إلى الحرب ، وإنما كان القصد منها إعداد الرأى العام لتقبل التحالف العسكرى الخطى مع ألمانيا .

وكان ريبنتروب ، هو أول من اقترح هذا الحلف ، أثناء الزيارة التى قام بها هتلر لرومه فى شهر مايو الماضى ، لكن موسولينى بالرغم من رضاه على الفكرة بادئ ذى بدء ، راح يصدر تعلياته إلى تشيانو ، بالتهرب من الحديث فيها . وعاد ريبنتروب فأثار الموضوع من جديد فى مونيخ ،إذ دون تشيانو فى يومياته يقول . « إنه يصف الحلف بأنه أعظم شىء فى العالم . لكن هذا الرجل ميال إلى المبالغة دائماً . ولا ريب فى أننا سندرس موضوعه، بمنتهى العناية ، وقد نؤجل البحث فيه مدة من الزمن » . حقًّا كانت هذه هى إرادة موسولينى وتوجيهاته له .

ولم يكن وزير خارجية ألمانيا ، أكثر نجاحاً فى هذا الصدد عندما زار رومه فى شهر أكتوبر . وقرر تشيانو الآن بعد أن انجلت فورة الحماسة المبكرة . إنه لا يحب هذا الرجل ولا يستلطفه ، ومع ذلك ، فقد ظل يصغى إليه ، وهو يتحدث عن إنجلترا ، كما تتحدث العشيقة المهجورة عن «صديقها الخائن» ، ويقول للدوتشى بلهجة الأستاذ لتلميذه ، إن الحرب قادمة لا ريب فيها ، وإن الضرورة تقضى بتحويل ميثاق مكافحة الشيوعية إلى حلف عسكرى يضم اليابان أيضاً . وكان موسولينى كيساً فى حديثه إلى زائره، إلا أنه رفض أن يعده بشىء ، وقال إن الرأى العام الإيطالى لم يتهيأ بعد لهذه الخطوة التى لا بد وأن تلقى معارضة عنيفة من القادة العسكريين وممثلى الطبقة الوسطى ، بالإضافة إلى معارضة الكنيسة التى ساءت علاقاتها كل السوء بالحكومة الألمانية ، وإلى مقاومة الملك الذى يكره الألمان أكثر من كراهيته للفرنسيين ، وأكثر من تشهيه الاستيلاء على كورسيكا الفرنسية .

لكن الخصومة مع فرنسا كانت قد أرغمت موسولينى ، كما سبق لها أن أرغمته إبان الحرب الحبشية ، على الإكثار من الاعتماد على دعم ألمانيا ومساعدتها . وقد استبد به القلق ، عندما سمع أنه فى الوقت الذى كان يطالب فيه علناً بكورسيكا ونيس وتونس من فرنسا ، كان ريبنتروب يزور باريس ، ويوقع مع حكومتها رغبة منه فى إيقاع الفرقة بينها وبين بريطانيا ، إعلاناً رسمياً يضمن فيه الحدود الراهنة بين

فرنسا وألمانيا . واشتد قلقه وتعاظم . عندما وصلت إلى مسامعه شائعات الاتفاق العسكرى بين بريطانيا وفرنسا . وشائعات أخرى تقول إن أمريكا تعتزم تقديم المعدات الحربية إلى الدول الديمقراطية إذا اقتضى الأمر ذلك . يضاف إلى هذا ، أنه كان يأمل على الغالب ، فى أن يصبح فى حالة توقيعه ميثاقاً عسكرياً مع ألمانيا ، أكثر قدرة على التأثير على سياسات ألمانيا . وتوصل فى نهاية عام ١٩٣٨ إلى الاستنتاج ، بأن التسويف والمماطلة لم يعودا ممكنين . وراح تشيانو يبلغ سفيره اتوليكو فى الثالث من يناير ، بأن ينقل إلى الألمان استعداد الدوتشى عما قريب لتوقيع معاهدة التحالف . ودون تشيانو فى يومياته فى هذه الآونة يقول . . . « وكان اتوليكو فى الماضى معادياً لفكرة التحالف مع ألمانيا ، ولكنه بات الآن مؤيداً لها كل التأييد . وراح يقول إن الأجازة التى قضاها أخيراً فى إيطاليا ، قد اقنعته بأن ليس ثمة شيء ينال تأييد الشعب الإيطالى . أكثر من الحرب مع فرنسا » . ولم يمض يومان حتى كانت التعليمات قد صدرت إلى أخيل ستراشى . فالدعاية ضد فرنسا يجب أن تستمر وتتسع ، بحيث يمكن إعلان توقيع الحلف فى اللحظة التى يبلغ فيها العداء لفرنسا ذروته ، وإن عليه أن يعد العدة لإقامة مظاهرات عدائية لفرنسا فى اللحظة التى يعلن فيها عن توقيع الحلف . لكن هذه التعليمات سرعان ما أتبعت بطلب التأجيل إذ أن رئيس وزراء بريطانيا سيزور رومة قريباً ، وإن من الخير التريث فى الشروع فى الحملة حتى تنتهى هذه الزيارة .

وكان تشمبرلين هو الذى اقترح هذه الزيارة . وكان قد آمن بأنه قد توصل إلى تفاهم مرض مع هتلر ، وأن عليه أن يتأكد الآن من صداقة إيطاليا أيضاً . وكان على استعداد كغيره من ذوى الإدراك العديدين فى بريطانيا ، لنسيان المغامرة الحبشية ، ولإقامة علاقات جديدة مع إيطاليا على أساس « ما فات مات » على حد تعبير داف كوبر[١] . وكان الكثيرون من أعضاء حزبه[٢] ، قد امتنعوا عن استنكار الهجوم الإيطالى على الحبشة فى حينه ، وكانوا على استعداد كما ذكر المستر مايكل فوت فى كتابه الرائع والساخر ، للغفران والنسيان . وهكذا مضى

(١) من وزراء المحافظين ، وكان قد استقال من حكومة تشمبرلين فى عام ١٩٣٨ احتجاجاً على سياسة الترضية التى اتبعتها مع هتلر .

(٢) يعنى حزب المحافظين . « المعرب »

تشمبرلين إلى إيطاليا ، وكله أمل فى أن يتمكن من استغلال هذه الحقيقة ، أما إذا أفلح فى خلق شقاق بين رومة وبرلين ، فهذا عين الصواب . وراح يكتب إلى رومة ، بعد أن حصل على موافقة متبرمة من الحكومة الفرنسية ، مقترحاً عليها أن يقوم فى شهر يناير بزيارتها مستصحباً معه ، وزير خارجيته اللورد هاليفاكس .

لكن الزيارة فشلت كل الفشل ، بل كانت مصدر ضيق شديد ، بالرغم من الجهود الهائلة التى بذلها تشمبرلين لإنجاحها ، والظهور بمظهر مرض . فقد ذكر موسولينى بأن « الإنجليز يحملون عقولهم فى أقفيتهم » ، وراح يقول لزوجته إن « تشمبرلين ومظلته سيصلان إلى رومة » . وبالرغم من اعترافه فيما بعد بأن أحاديث رئيس وزراء بريطانيا كانت « أكثر مرحاً من أن تصدر عن إنجليزى » ، فإن تأثره به فى هذه الزيارة ، كان أقل من تأثره عندما التقاه أول مرة فى مونيخ . وكانت التعليمات قد صدرت إلى ستراشي بأن لا يكون استقبال تشمبرلين وهاليفاكس حماسياً ورائعاً . وقد نفذت هذه التعليمات تنفيذاً دقيقاً . فقد استقبل الضيفان الإنجليزيان بمنتهى الدماثة المتحفظة . وبالرغم من لطف موسولينى فى لقائهما ، ومن تظاهره بالسرور عندما قدم إليه الرئيس البريطانى صورته وقد وقع عليها ، إلا أنه كان يتحدث عنهما فى غيابهما بكثير من الامتهان الذى يبلغ حد الزراية . وراح تشيانو يسجل فى يومياته ، بعد أن سافر الضيفان ، وبعد أن رأى عينى تشمبرلين تغرورقان بالدمع عندما تحرك به القطار ، وهو يستمع إلى بعض أفراد الجالية البريطانية فى رومة ينشدون . . . « حقاً إنه رجل مرح طيب » . . . ما نصه . « ما أبعدنا عن هؤلاء الناس ، إنهم يعيشون فى عالم آخر » . وقد كنا نتحدث عن هذا الموضوع بعد العشاء مع الدوتشى ، وقد تحلّقنا فى زاوية من القاعة ... وسمعت الدوتشى يقول .. « إن هؤلاء الناس من معدن يختلف عن معدننا ، بل وعن معدن فرنسيس دريك [1] ، وغيره من المغامرين العظام الذين خلقوا إمبراطورية بريطانيا . إنهم الأحفاد المجهدون لحلقة طويلة من الأجداد الأثرياء ولا بد من أن يضيعوا إمبراطوريتهم » . وقد أعرب الدوتشى عن نفس هذا الازدراء ، بعد بضعة أسابيع ،

---

(١) السير فرانسيس دريك (١٥٤٦ – ١٥٩٦) – مكتشف إنجليزى مشهور ومن أشهر قادة الأسطول البريطانى ، إذ إليه يرجع الفضل فى قهر أسطول أسبانيا العظيم (الأرماده) ، الذى أعدته أسبانيا لغزو إنجلترة . « المعرب »

عندما عرض عليه اللورد بيرث ، خطاباً كان المستر تشمبرلين يعتزم إلقاءه فى مجلس العموم ، لينال موافقته عليه . وراح الدوتشى يقول . . . « أعتقد أنها المرة الأولى فى التاريخ . حيث يقوم رئيس للحكومة البريطانية بعرض مسودة خطاب يعتزم إلقاءه ، على حكومة أجنبية . حقاً إنها نذير شؤم لهم » . وقال فى مناسبة أخرى ، إن من الطبيعى أن يخشى الإنجليز الحرب وفكرتها خشية كبيرة . فهذا أمر متوقع من شعب يعيش حياة الدعة والاسترخاء « ويجعل من اللعب والأكل . ديانته التى يؤمن بها » . وكانت العقيدة الفاشية معادية كل العداء لهذه الفكرة . فقد كتب فى مقال مشهور وبتوقيعه الصريح ، فى دائرة المعارف الإيطالية (انسا يكلو بيديا ايتاليانا) ، يقول إن « الفاشية لا تؤمن باحتمال دوام السلام ولا بجدواه . . . فالحرب وحدها هى التى تستثير طاقات الإنسان كلها ، وتضع طابع النبل على أولئك الذين يجدون الشجاعة لمواجهتها . » وكانت هذه فلسفة « لا يستطيع الإنجليز حتى أن يشرعوا فى فهمها » . وراح يتساءل فى خطاب لاحق ألقاه ، ضمنه هذه المفاهيم الخاطئة عن الحياة الإنجليزية بشكل مهول يستثير إعجاب سامعيه قائلا . . . « ولكن ماذا ينتظر على أى حال ، من شعب يرتدى أفراده ملابس السهرة ، إذا ما أقبلوا على تناول الشاى بعد الظهر » .

وتحدث تشيانو هاتفياً إلى ريبنتروب ، بعد انتهاء زيارة تشمبرلين ، ليؤكد له أن اجتماعه بموسولينى لم يسفر عن شىء ، ثم قال « كان اجتماعاً فاشلا ولا أهمية له على الإطلاق » . وهكذا مضى العمل فى إعداد صيغة الحلف العسكرى . لكن صدمة أصابت المحور قبل توقيعه ، كادت تودى به إلى الانهيار .

فى الرابع عشر من مارس عام ١٩٣٩ ، عبرت الجيوش الألمانية دون استشارة موسولينى المسبقة ، الحدود التشيكوسلوفاكية ، ليصل هتلر إلى براج بعدها بيوم واحد . واشتد غضب موسولينى عندما نقلت إليه هذه الأنباء . وراح يقول بعد أن زاره الأمير فيليب هيسى مبعوث هتلر الشخصى ، ليشكره كالعادة على تأييده .... « عودنى الفوهرر ، على أن يبعث إلى برسالته ، بعد أن يحتل بلداً ما » . ثم مضى يقول فيما بعد . . . « لا شك فى أن التحالف مع ألمانيا سخف مطبق ، لا ترضى به حتى الحجارة التى تقيم صرحه » . لكن غضبه سرعان ما تحول إلى

أسى . فعندما علق تشيانو بشىء من التهكم ، قائلا « إن المحور يعمل لمصلحة أحد جانبيه ليس إلا » ، رد موسولينى ببيت من شعر دانتى[1] يقول فيه . . . « علينا أن نتجنب إثارة غضب الرب وأعداء الرب » . وأضاف يقول ، علينا أن نقبل « خداع الألمان » برحابة صدر . وكان قد توصل الآن إلى الاستنتاج بأن هتلر غدا أقوى من أن يستطيع أحد وقفه عند حده ، وإن على إيطاليا أن تظل إلى جانبه مهما عاملها بصلف وغرور . وكان أشد ما يقلقه توسع النفوذ الألمانى عبر البلقان الذى كان يود أن يعتبره منطقة نفوذ إيطاليه ، وارتضى بشىء من الشك الواضح ، تأكيدات هتلر له بأن ألمانيا ستتخلى لإيطاليا عن البحر الأبيض المتوسط ، وبحر الادرياتيك ، ولم يرض على أى حال بفصم المحور ، قائلاً . . . « لن نستطيع تبديل سياستنا اليوم ، فنحن على أى حال لسنا من عواهر السياسة » .

وأعلن الدوتشى فى الخطاب الذى ألقاه عشية الواحد والعشرين من مارس فى المجلس الفاشى الأعلى ، والذى وصفه تشيانو . . « بالروعة وقوة الحجة وسلامة المنطق ، والتصميم والبطولة » ، قراره التاريخى ، فقد تحدث عن « الولاء المطلق للمحور » كحاجة حتمية للسياسة الخارجية الإيطالية وللمفهوم الفاشى عن الصداقات الحقة . ولما كان المجلس قد ألف الطاعة دون نقاش ، فقد قبل قرار الدوتشى دون أى اعتراض . ويبدو أن جراندى وبونو وبالبو ، كانوا غير راضين عن القرار ، فلما نمى نبأ ذلك إلى الدوتشى تجاهلهم واصفاً إياهم « بالبلداء » . وقال إن بالبو الذى يصف البقاء فى المحور بأنه « لعق لحذاء الألمان » ، ليس إلا « خنزير ديمقراطى » ، كان الدوتشى قد قرر مستقبله عندما أعلن « بأنه لا يستطيع أن يضمنه » . أما ديبونو فليس إلا « عجوز أحمق خرف » ، يقول لموظفى قيادة الحزب وأعضائها فى مقرهم ... « أعلن الدوتشى مشيئته ، ولا مرد لهذه المشيئة » .

ويبدو أن شخصية موسولينى بالإضافة إلى سياساته ، قد تأثرت نتيجة اشتراكه مع هتلر . فقد بات يتكل عليه بشكل متزايد ، وإن كان هذا الاتكال مصحوباً بالتردد ، كما أخذ الإعجاب المتبرم مصحوباً بالغيرة الكامنة ، يحتلان مكانة بارزة

(١) دانتى اليجيرى (١٢٦٥ – ١٣٢١) – أعظم شعراء إيطاليا ، ومن رجالات الأدب العالمى خلد أسمه بملحمته الشعرية « الملهاة الإلهية – الكوميديا الإلهية » ، وقد وصف فيها طبقات الجحيم ، ونعيم السماء فى سفرة وهمية قام بها مع عشيقته بياتريس . « المعرب »

فى تصرفاته . وبالرغم من أنه كان يستمع فى الماضى إلى المشورة ، وأحياناً إلى النقد ، فقد بات الآن يهاجم بكثير من الحقد المرعب ، كل من يجرأ على التقدم بنصيحة أو على مناقشة إحساسه السياسى . ولما كان قد حزم أمره على أن الإيطاليين فى حاجة إلى الخشونة وإلى التكيف مع تلك الروح التى طبعت انتصارات ألمانيا العسكرية فقد راح يرغم وزراءه ، وقادة الحزب الفاشى ، على أن يكونوا قدوة للشعب فى أداء بعض التمارين القاسية والخطرة ، والإسهام فى الرياضات المجهدة . ووسع مستهدفاً نفس الغاية ، فئات الموظفين ، الذين كان ينتظر منهم أن يرتدوا البزة العسكرية ، وأصدر مراسيم غايتها فرض الأنظمة التى تلغى المصافحة باليد ، والطريقة المهذبة فى الحديث ، وألزم القادة العسكريين وكبار ضباطهم بالجرى بدلاً من المشى فى التمرينات العسكرية . وكان يغرم بالقول دائماً ، بأن على « الإيطاليين أن يتعلموا الخشونة والصلافة ، وتجنب اللين ، واحتمال كره الناس لهم » . وكثيراً ما قال عن نفسه بأنه يؤثر أن يرهبه الناس على أن يحبوه . وكان يعمل ما فى وسعه ، لفرض هذه الرهبة عليهم . فقد أسرت قوات فرانكو قبيل انتهاء الحرب الأسبانية عدداً من الشيوعيين الإيطاليين الذين كانوا يحاربون فى كاتالونيا ، وعندما سئل عما يراه فى أمرهم قال على النحو الذى سجله تشيانو فى يومياته . . . « أعدموهم ، فالموتى لا يتحدثون » .

أما بالنسبة إلى اليهود ، فقد أعد مصيراً لهم أكثر ابتكاراً . وعندما عرض عليه مشروع لتحويل جزء من الصومال الإيطالى ، إلى أرض لليهودية العالمية قال ، أن « ميجوىرتانيا » هى المكان الأفضل ، لما فيها من موارد أولية يستطيع اليهود استغلالها ، وبينها صيد كلاب البحر ، التى تستطيع أن تعيش فى البداية على لحوم اليهود .

وأصبحت اللاسامية الآن جزءاً رئيسياً من السياسة الفاشية . وبالرغم من أن المراسيم التى صدرت لتطبيق هذه السياسة ، لم تنفذ تنفيذاً صارماً ودقيقاً قط ، إلا أنه لم تحل نهاية عام ١٩٣٨ ، حتى كان عدد من اليهود البارزين قد فصلوا من مراكزهم الرئيسية فى الخدمة العامة ، وأرغم الكثيرون منهم على مغادرة البلاد . وانتشرت مصادرة ممتلكات اليهود فى ربيع عام ١٩٣٩ . وكان يقال إن حملة

مكافحة السامية التى بدأها موسولينى . كانت تهدف إلى أن يفرض على البورجوازية « المتخاذلة والانهزامية » ، والميالة إلى الأجانب » على حد تعبيره ، طرازاً أفضل من التفكير الإمبريالى ، وأنها كانت جزءاً من إجراءات اقتصادية استلزمتها الحالة التعسة التى يعيش فيها الاقتصاد الإيطالى . وكثيراً ما قيل أيضاً ، إن موسولينى أراد عن هذا الطريق اكتساب ود العرب[1] ، ولكن لم يكن هناك من شك على الإطلاق ، فى أن تأثير هتلر عليه فى هذه الناحية ، كان كبيراً للغاية .

وليس ثمة من يشك أيضاً فى أن توقيت أول عمل عدوانى ضخم قامت به إيطاليا منذ غزو الحبشة . كان تحت تأثير احتلال هتلر لتشيكوسلوفاكيا أيضاً . وبالرغم من أن موضوع الهجوم على ألبانيا كان قد درس منذ بضعة شهور ، وحدد أسبوع عيد الفصح كالموعد المقرر له منذ مستهل شهر فبراير ، إلا أن الدوتشى لم يحزم أمره فى هذا الصدد إلا فى أواسط شهر مارس . وقد انقضت أسابيع على تردده ، يعد فيها بالأوامر دون أن يصدرها . وينذر إبانها بالضربات القاصمة دون أن يوجهها . وكان كعادته فى الحالة التى يفتقر إبانها إلى الثقة بما يجب أن يعمله . يتراوح بين حالات من الإثارة الجنونية ، والكتابة الصامتة . يتحدث فى يوم عن التوسع الذى لابد منه للإمبراطوزية الإيطالية ، وهو فى اليوم الثانى ، يرفض الحديث فى أى موضوع مهم على الإطلاق . وكان تباهيه بنفسه يصل فى حالات ارتفاع معنوياته إلى حدود الجنون والنشوة . وقد تحدث بوسينى ذات يوم إلى تشيانو ، فقال : « إن على الدوتشى أن يعالج نفسه علاجاً جذريًّا من الأمراض الزهرية التى يعانى منها ، إذ أن قلقه قد بات واضحاً الآن لدى جميع زملائه » .

وراح يعلن فى إحدى نوبات تفاخره . وفى جلسة للمجلس الفاشى الأعلى ،

---

(١) كانت الحملة التى شنها موسولينى على اليهود . وهى حملة لم تكن عنيفة بحال من الأحوال ، جزءاً من الفلسفة الفاشية نفسها التى تقوم على العنصرية ، كما كانت جزءاً من حملته على البورجوازية التى كان اليهود يؤلفون جزءاً كبيراً منها . واعتقد أن المؤلف بالإضافة إلى مبالغته فى الحديث عنها ، قد اخطأ فى تفسيرها ، كما اخطأ فى القول ، بأنها صدرت عن رغبته فى التحبب إلى العرب ، إذ أن العرب لم يحبوا فى أى يوم من الأيام ، إنزال الاضطهاد باليهود فى دول العالم ، وهم يعرفون أن هذا الاضطهاد ذريعة سياسية تستخدمها الصهيونية فى استثارة العطف العالمى عليها لفرض إطماعها السياسية فى فلسطين . « المعرب »

« الأهداف الفورية للحركية الفاشية » ، فالبانيا يجب أن تغدو إيطالية والبحر الأبيض المتوسط ، يجب أن يصبح منطقة أمينة لإيطاليا عن طريق احتلال تونس وكورسيكا ، والحدود الألبية يجب أن ترجع إلى الوراء لتشمل منطقة « الغار » . ومضى بعد ذلك يقول . . . « وإننى لأتطلع أيضاً إلى تيسينو ، فقد فقدت سويسره قوة تلاحمها ، وأصبح مصيرها كغيرها من الدول الصغيرة حتمياً ، إذ لابد للتفسخ من أن يصل إليها . هذا برنامجى ، ولكننى لا أستطيع تحديد أوقات التنفيذ . وكل ما أعمله الآن هو تحديد الخطوط التى يجب أن نسير عليها . وكل من يبوح بما قلت الآن ، كلا أو جزءاً ، سيحاكم بتهمة الخيانة » . وقد توسعت هذه المطالب المغالية فى اليوم التالى لتشمل جيبوتى وحصة فى قناة السويس . ولكن لم يمض يومان ، حتى بدا وكأنه قد فقد كل اهتمام بالموضوع ، فقد وجده تشيانو فى الثالث من مارس راغباً فى « أن يدع الأمور تسير سيرها الطبيعى فى موضوع ألبانيا . ولم يحل الثالث والعشرون من الشهر حتى كان قد قرر الإسراع فى العمل »[1] .

وجاء احتلال هتلر لتشيكوسلوفاكيا فوضع حداً لشكوكه ومخاوفه . ولم تكد تصل إلى مسامعه أنباء الغزو الألمانى حتى طار فكره إلى « احتمال توجيه الضربة إلى ألبانيا » . ولكنه ما لبث أن أعلن عن مخاوفه فى أن يؤدى احتلال تلك البلاد الفقيرة ، التى غدت فى الواقع تابعة له دون احتلالها إلى « مقارنته عند الرأى العام العالمى ، باحتلال الرايخ لبوهيميا التى تعتبر من أغنى بقاع العالم » . وكم كان ألم تشيانو الذى كان منذ أمد طويل يلحف بضرورة الشروع فى المغامرة الألبانية كحركة مسرحية تخفف قليلا من « اتساع هيبة الرايخ الذى لا ترضى عنه إيطاليا » وتعمل على « رفع معنوية الشعب الإيطالى » ، عند ما رفض موسولينى أن يصدر أوامره على التو ، بالشروع فى العمل . ولكن عندما نقل إليه أن الملك عاد وكرر

(١) لم تكن هذه التقلبات المفاجئة فى أوضاع موسولينى وتفكيره ، بالرغم من صلتها الماسة بتردى حالته الصحية ، ظاهرة من ظواهر هذه المرحلة فى حياته فقط ، إذ كانت حالة دائمة معه منذ أمد بعيد ، وتقول مرجريتا سارفاتى إن موسولينى أبلغها عشية يوم الانتخابات فى عام ١٩١٩ أنه عدل عن ترشيح نفسه ، ولكنه ما لبث فى اليوم التالى أن أعلن أن اسمه يجب أن يحتل مقدمة قائمة المرشحين فى ميلان . « المؤلف »

اعتقاده ، بأنه لا يرى ضرورة للمغامرة فى الحرب من أجل « الاستيلاء على أربعة صخور » ، راح يحزم أمره ويقرر الشروع فى العمل ، « فور الانتهاء من موضوع أسبانيا » .

وأطربته أنباء سقوط مدريد فى الثامن والعشرين من مارس . وكان قد شك فى يوم ما فى أن يتمكن فرانكو « بقيادته الواهنة » للحرب ، من أن يصل إلى النصر ، وذكر لتشيانو فى الصيف الفائت ، بأنه يريد منه أن يسجل فى يومياته تنبؤه بهزيمة فرانكو . ولكن ها هى الحرب المضنية ، تنتهى أخيراً ، وها هو العالم يشهد الدليل على « نصر عظيم وجديد للفاشية » . وعاد الدوتشى إلى مكتبه من شرفة قصر البندقية ، حيث كان قد خرج إليها لتحية الجماهير الحاشدة التى جاءت لتحتفل بنهاية الحرب الأسبانية ، وأشار إلى خارطة أسبانيا فى الأطلس المفتوح أمامه وهو يقول . . . « ظل الأطلس مفتوحاً على هذه الخريطة ، منذ ثلاث سنوات . وكانت هذه المدة أطول من الكفاية . ولكنه يجب أن يفتح الآن على صفحة أخرى » . ولم تمض عشرة أيام ، حتى كانت القوات الإيطالية تهبط أرض ألبانيا . ولم تقع أية معارك ، أو قتال عنيف . وبالرغم من أن الصحافة الإيطالية وهى تعكس المصاعب الكامنة فى تفسير « الحركة الفاشية » ، والدعوة إليها ، لم تتفق على ما إذا كان عدم القتال ، يعنى قوة الجيش الإيطالى ، أو ترحيب الألبانيين به لإنقاذه من حكم ملك مكروه ، إلا أن إيطاليا حققت على أى حال نصراً من نوع ما . ولم يحل المساء حتى كانت إيطاليا قد فازت ، على حد تعبير هتلر ، « بقلعة تستطيع عن طريقها فرض سيطرتها القوية على البلقان » .

وكان تردد الدوتشى قبل بضعة أيام ، قد اختفى ليحل محله إيمان وتصميم . وكتب تشيانو فى يوميته للخامس من أبريل يقول . . . « إنه هادئ . أجل هادئ إلى حد يثير الخوف » . وعندما انتهت العمليات فى الخامس عشر من أبريل ، ووصل إلى روما وفد ألبانى ليقدم تاج البلاد إلى فيكتور عمانوئيل ، كانت الثقة مسيطرة على نفس موسولينى . وكانت ردود الفعل على الصعيد العالمى تافهة . وكانت الاحتجاجات البريطانية على حد تعبير تشيانو « للاستهلاك الداخلى أكثر منها لأى شيء آخر » . وعندما تلقى موسولينى رسالة الرئيس روزفلت التى يقترح

فيها هدنة لمدة عشر سنوات ، رفض فى بادئ الأمر قراءتها . ولكنه ما لبث أن قرأها ، ثم نحاها جانباً عنه وهو يقول . . . « إنها ثمرة تفكير شلل الأطفال » .

٤

وصل جورنج إلى رومة فى ذلك اليوم . وكان هتلر قد أوفده ليسرد على مسامع موسولينى أوضاع الإعداد الألمانى للحرب ، والثقة التى تواجه بها الحكومة الألمانية موضوع « حل المشكلة البولندية » . وكان حل هذه المشكلة التى قدر لها أن تقود إلى الحرب ، قد بات وشيكاً ، وكان الفوهرر متلهفاً على أن يعلن إلى العالم ، أن ألمانيا وإيطاليا تقفان معاً ، ويربطهما حلف عسكرى ، وذلك قبل الشروع فى الخطوة التى لا يمكن إصلاحها . وكان يعرف أن إيطاليا لم تصبح بعد قوة عسكرية قوية ، بالرغم من أن الجنرال فون رينتيلين ، ملحقه العسكرى فى رومه كان قد خدع بتبجحات الدوتشى ، واعتقد بأنها أقوى من حقيقتها . ولكن هتلر كان فى حاجة إلى تأييدها السياسى ، وكان يأمل فى أن يؤدى إعلان الحلف بين ألمانيا وإيطاليا إلى منع الديمقراطيات الغربية من الوفاء بالتزاماتها إلى بولندة . وأصدر أمره إلى ريبنتروب ليجدد محاولاته لحمل إيطاليا على توقيع الحلف ، ولكن تشيانو متردد ولا يريد توقيعه . فهو يخشى أن يتجاوز الألمان الحدود فى بولنده ، وأن يقوموا بخطوات تترك آثاراً مفجعة . ولم تمض خمسة أيام على محادثات جورنج مع موسولينى ، حتى كانت رومه تتلقى برقية من اتوليكو سفيرها فى برلين ، يقول فيها إن العمل الألمانى فى بولنده بات وشيك الوقوع . وانتاب القلق تشيانو ، الذى كان قد لاحظ أثناء زيارة جورنج ، أنه يتحدث عنها على نفس النحو الذى كانوا يتحدثون فيه فى الماضى عن النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، فهرع يحمل برقية السفير إلى قصر البندقية ، ليطلع الدوتشى عليها . لكن موسولينى لم يكن فى حالة نفسية طيبة . فقد جدد النصر الذى حققه فى أسبانيا وألبانيا أطماعه فى التوسع وطرب عندما أبلغه تشيانو ، أن سفير هولندة فى رومة زاره فى قصر شيجى ، ليعبر له عن قلق بلاده من الأنباء القائلة بأن ألمانيا وإيطاليا قد اتفقتا على اقتسام أوروبا بينهما . وراح موسولينى وكأنه

يؤكد مخاوف السفير الهولندى يقول . . . « إننى فى الواقع أدرب إيطاليا على الحرب » ولكنه رغم هذا المزاج الميال إلى الحرب ، كان يعيد النظر أحياناً وفى أوقات اتزانه فى موقف إيطاليا ، فيرى أنها ليست متأهبة للحرب بعد . وطلب إلى وزيره تشيانو أن يمهد لاجتماع يعقده مع ريبنتروب ، ليتبين المدى الذى يعتزم الألمان الوصول إليه ، والموعد الذى حدده للشروع فى العمل ، وأن يؤكد لريبنتروب فى الوقت نفسه ، ضرورة استمرار السلام لإيطاليا ثلاث سنوات أخرى على الأقل .

وعندما اجتمع الوزيران فى ميلان فى السادس من مايو ، راح ريبنتروب يقول . . . « وليست ألمانيا أقل اقتناعاً من إيطاليا ، بضرورة استمرار السلام فترة أخرى لا تقل عن أربع سنوات أو خمس » .

وكان ريبنتروب فى منتهى الدماثة والكياسة فى هذا الاجتماع . وسرعان ما حلت بينه وبين تشيانو ، الذى كان قد وصفه قبل بضعة أشهر ، أى فى شهر أكتوبر المنصرم ، بأنه « رجل دعى وأحمق وثرثار ومفتقر إلى الكياسة » ، والذى كان قد أرضاه ما سمعه عنه من الدوتشى ، عند ما قال بأن « نظرة واحدة إلى رأس هذا الرجل كافية للحكم على صغر ما فيه من عقل » . وراح تشيانو يهتف إلى الدوتشى بعد مأدبة العشاء التى أقامها لضيفه فى فندق الكونتيننتال ، مبلغاً إياه ، أنه بالرغم من تصميم هتلر الواضح على وجوب استعادة دانزيج ، فإن الألمان يؤكدون ضرورة الحفاظ على السلام لعدة سنوات مقبلة . وارتاح موسولينى إلى هذا التأكيد المطمئن ، وثار للأنباء التى وصلته عن عدم استقبال شعب ميلان لريبنتروب استقبالا ودياً ، فراح يأمر تشيانو ، بأن يعلن إلى العالم ، أن الحلف العسكرى الألمانى — الإيطالى قد أصبح حقيقة واقعة .

ووصل تشيانو إلى برلين فى الواحد والعشرين من مايو لتوقيع معاهدة الحلف التى أراد موسولينى أن يطلق عليها فى البداية اسم « ميثاق الدم » ، ثم ما لبثت أن حملت اسم « ميثاق الصلب » الذى اشتهرت به فى العالم . وقدم تشيانو فى احتفال جرى ذلك المساء فى دار السفارة الإيطالية فى برلين إلى ريبنتروب وسام « انونزياتا » الرفيع الشأن . وكان جورنج ، الذى شهد المأدبة ، قد مضى إلى قاعة الطعام لاستبدال بطاقته ببطاقة ريبنتروب ، ليضمن الجلوس إلى يمين المضيف الإيطالى .

وعندما عاد إلى قاعة الاحتفال ، رأى وزير الخارجية الألمانى وقد أحاط به الضيوف يعربون عن إعجابهم بقلادة الوسام التى منحها والتى تخوله الحق بأن يعتبر نفسه ابن عم للملك إيطاليا . وأحس جورنج . أن التكريم كان يجب أن يوجه إليه ، لأنه هو الذى نجح أثناء زيارته لروما فى إقناع موسولينى بتوقيع الحلف ، وراح يعرض ، والدموع فى عينيه ، منظراً مربكاً ، فقد أصر على أن تكون القلادة له ، ولم يتمكن تشيانو من إقناعه بالبقاء فى الحفل إلا بعد جهد جهيد . ولم يكن جورنج قد أبل من الصدمة بعد فى اليوم التالى ، عندما جرى حفل التوقيع على الحلف فى دار المستشارية ، وكان يشيح بوجهه جانباً كلما رأى ريبنتروب أمامه . أما هتلر ، فقد بدا فى أسعد حالاته وأكثرها مرحاً وحبوراً . فهو يكثر من الحديث إلى الحد الذى يبعث الضيق عند سامعيه ، واكتشف تشيانو أن الفوهرر ، يبدو مجهداً وقد شاخ ، نظراً لأن النوم قد فارق جفنيه فى الآونة الأخيرة . وكانت هناك أيضاً شائعات تتحدث عن ولعه الشديد بفتاة فائقة الجمال فى العشرين من عمرها ، صاحبة « جسم رائع » تدعى سيجريد فون لاباس . كانت تستأثر بأوقاته كلها . ولكن بالرغم « من الغضون العميقة التى بدت على جفنيه » ، فقد بدا . كما قال تشيانو ، « فى أحسن حال ، وأهدأ بال » . وكان من حقه أن يرضى وأن يطمئن . فالميثاق الذى وقع . أكثر بكثير من ذلك الحلف الدفاعى الذى كان موسولينى قد اقترحه فى الشتاء المنصرم . وقد جسدت مادته الثالثة حقيقة طبيعته إذ نصت ... « ولو حدث وتورط أحد الفريقين المتعاقدين ، خلافاً لرغبات الفريقين المتعاقدين وآمالهما ، فى حرب مع دولة أو أكثر ، فإن الفريق المتعاقد الثانى ، يسارع فوراً إلى الوقوف إلى جانبه كحليف ، ويمده بكل ما لديه من قوى عسكرية فى البر والبحر والجو » . ولم يكن هناك نص فى هذه المادة أو فى غيرها من مواد الميثاق ، على أن لا يكون العون العسكرى شرطاً فى حالة الهجوم العدوانى من أحد الفريقين . وكان من الواضح لهتلر أن ميثاق الفولاذ ، مقدمة فعلية للحرب .

وفى نفس يوم التوقيع ، دعا هتلر كبار قادته العسكريين إلى اجتماع سرى عقده فى مكتبه فى دار المستشارية ليقول لهم بصراحة ما نصه . . .

« ليست دانزيج فى الواقع هى هدف أعمالنا ، وإنما الهدف توسيع مجالنا

الحيوى فى الشرق . . . وليس ثمة مجال للتفكير فى نجاة بولندا . فأمامنا قرار واحد وهو أن نهاجم بولنده ، فى أول فرصة ممكنة . وليس فى وسعنا أن نقبل تكرار ما حدث فى تشيكوسلوفاكيا . فستكون هناك حرب . . . وعلينا أن نحرق سفننا . ولم تعد القضية موضوع خطأ أو صواب » .

لكن موسولينى وقد أفزعه ما استطاع استنتاجه لا ما سمعه ، واصل الدعوة إلى الأخذ بالأناة والحيطة . وراح يسلم الجنرال كافاليرو . الذى اختير ممثلا لإيطاليا فى اللجنة العسكرية لميثاق الفولاذ ، وهو فى طريقه إلى ألمانيا للقيام بمهمته ، مذكرة سرية أكد فيها التحذيرات التى كانت قد صدرت عن تشيانو ، فى ميلان أثناء اجتماعه الأخير بريبنتروب . وقد أوصى هتلر فى مذكرته ، بأن يقضى السنتين أو السنوات الثلاث القادمة ، فى إجهاد الدول الديمقراطية وإنهاكها بإثارة الخوف فى نفوسها . لا باستخدام القوة الفعلية ، وراح يؤكد له ، أن إيطاليا تحتاج إلى السلام حتى نهاية عام ١٩٤٢ على الأقل ، وعلى كل حال . واقترح موسولينى أن تكون حرب الأعصاب هى السياسة الآتية للمحور .

وكان موسولينى نفسه قد شرع فى مثل هذه الحرب فعلا . فقد شجع الناس على الاعتقاد بأن ميثاق الفولاذ موجه ضد فرنسا وبريطانيا ، وراح يتحدث متوعداً عن يوجوسلافيا واليونان ، ويمنع الدبلوماتيين الأجانب من الوصول إلى تيرانا (عاصمة ألبانيا) ، وضاعف من عدد الرسائل المغفلة التى تحمل أنباء مفزعة ، والتى كان يأمر بإرسالها إلى سفارات الدول غير الصديقة فى رومة ، مكثراً من الإشارة فى خطبه إلى « مفهوم الولاء والإخلاص عند الفاشية» . وروى تشيانو ، أن موسولينى كان فى منتهى الغلظة ، عندما قدم إليه السير برسى لورين سفير بريطانيا الجديد وخليفة اللورد بيرث لأول مرة فى السابع والعشرين من مايو . وراح يقول للسفير إن من حق الإنسان أن يتساءل ، نظراً لسياسة التطويق التى تتبعها بريطانيا بشكل واضح ضد إيطاليا ، إذا كان ثمة مجال للاعتقاد بأية جدوى فى بقاء الاتفاق الإنجليزى — الإيطالى . وفوجئ لورين بهذا الهجوم المباغت ، واحمر وجهه أشد احمرار ، وتردد طويلا قبل أن يجد العبارة المناسبة للرد على الدوتشى . وكتب تشيانو عن هذه المقابلة يقول . . . « وبدا الدوتشى الذى عرفت عنه الدماثة واللطف

متجهم الوجه ، لا يستطيع المرء أن ينفذ إلى ما يخفيه وراءه . وبدا كوجه إله من آلهة الشرق ، قد من الصخر » . وعندما قام لورين بزيارته الثانية لموسوليني ، راح هذا يقول له بمنتهى الوضوح . . . « أبلغ تشمبرلين ، أنه إذا كانت انجلترا على استعداد للقتال دفاعاً عن بولندة ، فإن إيطاليا ستمتشق الحسام دفاعاً عن حليفتها ألمانيا » ، وقد أعاد موسوليني على مسامعه هذه العبارة مرتين[١] .

ولكن بالرغم من أن الدوتشي كان يحرص الآن على أن لا يترك مجالا للشك فى أنه سيقف إلى جانب ألمانيا ، فإن الألمان لم يعاملوه كالحليف الموثوق الصادق ، الذى كان يود أن يكونه . وكانت المادة الثانية فى ميثاق الفولاذ قد نصت على المحادثات المسبقة فى جميع القضايا التى تهم الفريقين المتعاقدين ، إلا أن هتلر قال لمستشاريه فى مكتبه فى اليوم الذى تلا توقيع الميثاق . . . « علينا أن نخفى حقيقة هدفنا عن إيطاليا[٢] » . لكن موسوليني رفض أن يصدق رغم تحذيرات اتوليكو المستمرة ، أن هتلر قد يشرع فى العمل دون استشارته . وكان تشيانو نفسه يشك فى أن هتلر قد يقدم فجأة على العمل بعد « هذه التحذيرات المتكررة عن حاجة إيطاليا إلى السلام » . وواصل ريبنتروب التأكيد له ، بعدم وقوع تبدل فيما تم الاتفاق عليه فى اجتماع ميلان ، مكرراً عزم ألمانيا على أن تضمن لنفسها فترة من السلام لا تقل عن ثلاث سنوات . لكن تحذيرات اتوليكو ظلت تنهال على قصر شيجى ، كما نقل فى العشرين من يوليو أنباء « تحركات عسكرية على نطاق واسع فى تشيكوسلوفاكيا » . واعترف تشيانو فى يوميته التى كتبها فى الثانى من أغسطس بأن « إصرار اتوليكو يدعونى إلى التساؤل . فإما أن يكون سفيرنا قد جن ، أو إنه يرى ويعرف أشياء ، غابت عنا تماماً » .

---

(١) أبلغنى السير برسى لورين أن وصف تشيانو لموقف موسوليني ينطوى على كثير من المبالغة . وأضاف أن موقفه كان بارداً ، ولكنه لم يكن على هذا النحو من العنف .

(٢) يبدو أن إصرار هتلر المستمر على رفض الكشف مسبقاً عن خططه للإيطاليين ، وهو إصرار أثار غضب موسوليني وألمه ، لم يكن ناشئاً عن العجرفة والغرور بقدر نشوئه عن تخوفه من عدم الاحتفاظ بسريتها ، وقد تحدث إليه جوبلز ذات يوم فقال « إن جميع الإيطاليين يثرثرون كالغجر » . وطلب هتلر من الاميرال ريدر فى يناير عام ١٩٤٣ ، أن يحرص كل الحرص من عدم تسرب المعلومات المتعلقة بالخطط البحرية الألمانية إلى الإيطاليين . وكان يقول . . . « هناك احتمال كبير فى أن تكون الأسرة المالكة تنقل المعلومات إلى بريطانيا » . «المؤلف»

وقرر تشيانو فى ذلك الأسبوع أن يمضى إلى ألمانيا ليتأكد بنفسه من حقيقة ما هو دائر هناك . فقد رفض ريبنتروب الفكرة التى نادى بها الدوتشى والتى أيدها اتوليكو كل التأييد بعقد مؤتمر دولى . وطلب الألمان تأجيل الاجتماع الذى اقترح الإيطاليون عقده بين هتلر وموسولينى . لكن ريبنتروب وافق فى التاسع من أغسطس على أن يجتمع بتشيانو بعد يومين فى سالزبرج .

وليس ثمة من شك فى أن جل هم موسولينى كان منصرفاً فى هذه الأونة لإنقاذ إيطاليا من الحرب . فهو فى حاجة إلى الوقت لتثبيت الوضع فى ألبانيا وأفريقيا الشمالية والحبشة ، ولتخفيف التركز الصناعى فى حوض نهر البو عن طريق نقل بعض المصانع وأجهزتها وآلاتها إلى الجنوب ، وللوصول بالأسطول والقوة الجوية والمدفعية والفرق الآلية إلى كامل قوتها ، ولإرجاع ملايين الإيطاليين الذين يعملون فى فرنسا ، ولتحسين موجودات إيطاليا من النقد الأجنبى عن طريق المعرض الدولى الضخم الذى كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق لإقامته فى رومة فى عام ١٩٤٢ تخليداً للذكرى السنوية العشرين للزحف على رومه . وكانت هذه الأسباب كلها ، وفى مقدمتها فكرة المعرض الدولى التى استبدت بموسولينى فوق كل تصور ، هى التى حملته على التلهف على الاحتفاظ بالسلام لأمد ما على الأقل ، وعلى أن يحتج عن طريق التعليمات القاطعة التى أصدرها إلى تشيانو ، بأنه يريد « أن يصبح قادراً عندما تقرر ألمانيا تعبئة قواتها عند منتصف الليل ، على تعبئة قوات إيطاليا قبلها بخمس دقائق » .

وطلب الدوتشى من وزيره قبل أن يمضى إلى اجتماعه مع ريبنتروب فى سالزبرج ، أن « يبرهن للألمان بالأدلة المادية والخطية ، على أن اندلاع نيران الحرب فى هذه الآونة ، عمل جنونى أحمق ، وأن استعداداتنا ليست من النوع الذى يحملنا على الثقة من أن النصر سيكون حليفنا . فالفرص الآن لا تعدو أن تكون متعادلة . . . أما بعد ثلاث سنوات فستكون بنسبة أربعة إلى واحد » . ودوّن تشيانو فى يوميته بتاريخ العاشر من أغسطس يقول . . . « أوصانى الدوتشى قبل سفرى ، بأن أبلغ الألمان بمنتهى الصراحة أن علينا تجنب الاصطدام مع بولنده ، إذ من المتعذر حصر الحرب فى هذه الحالة كحرب محلية ، كما أن نشوب حرب

عامة — يكون بمثابة كارثة للجميع . ولم يسبق لى أن سمعت الدوتشى يتحدث عن الحاجة إلى السلام بمثل هذه الحرارة والصراحة ، كحديثه اليوم » .

ونقل تشيانو فى سالزبرج آراء الدوتشى بحرارة لا تقل عن حرارته ، لكن ريبنتروب لم يكن ميالا إلى الإصغاء إليها قط . فقد كان — كما اكتشف تشيانو مما أرعبه وأفزعه — مصمماً على الحرب ، وعازماً على أن يكون السبب فى اندلاعها . وراح تشيانو يدون فى يومياته بعد أمد بعيد . . . « وكنا نتأهب لاحتلال مقاعدنا على مائدة العشاء عندما حدثنى ريبنتروب عن تخطيط ألمانيا لإشعال نيران الحرب فى أوروبا ، وكان وهو يلقى على مسامعى بهذه العبارة الرهيبة محتفظاً بهدوئه ، وكأنه يتحدث عن إجراء إدارى عادى لا وزن له ولا نتائج » .

ويمضى تشيانو قائلا . . . « ورحت اسأله ونحن نسير معاً فى الحديقة بعد العشاء ... حسناً يا ريبنتروب ، ما الذى تريده؟ أتريد الممر البولندىَ أو دانزيج »؟

« فرد وهو يتفرس فى بعينيه الجامدتين الباردتين . . . (لا هذا ولا ذاك . إنما نريد الحرب » .

لكن ريبنتروب ، رفض على أى حال ، الإفضاء بشئ إلى الإيطاليين ، عن الطريقة التى يريد إشعال الحرب بواسطتها . وقال مزهواً، وهو يستخدم بشىء من الهدوء الذى يستفز الأعصاب ، واحدة من تلك الاستعارات القديمة المهجورة . التى تجعل حديثه مملا . . . « إن جميع القرارات ما زالت مغلقة فى صدر الفوهرر الذى لا يمكن النفاذ إليه » . ومضى تشيانو يقول . . . « ورفض ريبنتروب أى حل قد يرضى ألمانيا ويجنبنا الحرب والصراع . وبت على ثقة من أن الألمان لو أعطوا أكثر مما يطلبون ، فإنهم سيمضون إلى الحرب على أى حال ، لأن شيطان التدمير كان قد سيطر عليهم . وتوتر جو الحديث بيننا فى بعض الأحايين . ولم أكن لأتردد فى التعبير عن أفكارى بمنتهى الصراحة القاسية ، ولكنه لم يتأثر ، ولم يتحول عن موقفه . وتجلد الجو بيننا ، وامتدت برودته حتى إلى سكرتيرينا ومساعدينا . وجلسنا إلى العشاء ، فلم نتبادل عبارة واحدة . . . واتضحت لى حقيقة واحدة ، وهى أن الألمان ينظرون إلينا نظرة الامتهان والزراية » .

وزاد يقين تشيانو من هذه الحقيقة فى اليوم التالى ، عندما مضى إلى مقابلة

هتلر فى « عش النسر » . وبالرغم من أن الفوهرر كان فى منتهى الود والكياسة ، إلا أنه لم يكلف نفسه عناء إخفاء الحقيقة الواقعة ، وهى أنه قد حزم أمره ، ولن يحول عنه ، مهما كان رأى الدوتشي . وكانت الخرائط منتشرة على مكتبه ، إذ كان قد شرع فى العمل فى الخطط العسكرية . وراح يعيد على مسامع تشيانو ما قاله له ريبنتروب بالأمس من أن فرنسا وانجلترا لن تخوضا الحرب ، مضيفاً أنهما حتّى لو فعلتا ذلك ، فسيكون فى مكنة ألمانيا بعد احتلال بولنده الذى لن يستغرق منها وقتاً طويلاً ، أن تحشد « نحواً من مائة فرقة على الجدار الغربى لخوض الحرب العامة » . وأضاف أنه بالنسبة إلى إيطاليا ، فلن يكون فى موقف « يحتاج فيه إلى مساعدتها بموجب الالتزامات الراهنة » .

وقد أراد هتلر أن يفهم تشيانو ، « بأن الألمان يرون فى حلفهم مع إيطاليا وسيلة لإرغام العدو على الاحتفاظ بعدد من فرقه أمامنا . مما يخفف الوضع على الألمان فى جبهات قتالهم . . . وهكذا لم يكن يهمهم فى قليل أو كثير المصير الذى قد يحيق بنا » .

وقد انطوت هذه الملاحظة من جانب تشيانو على شىء من التكهن الصادق حقّاً .

وعندما عاد تشيانو إلى فندقه فى ذلك المساء ، أصدر أوامره إلى مرافقيه بحراسة طائرته الخاصة حراسة دقيقة ، مخافة أن يقوم أحد رجال المخابرات الألمانية بعمل شىء فيها يحطمها فى طريق العودة ، ليظهر الحادث وكأنه اتفاق عرضى . وعندما جاءه اتوليكو تلك الليلة ليباحثه فى الوضع ، مضى معه إلى الحمام ، على اعتبار أنه قد يكون المكان الوحيد الذى لا يخفى فيه الألمان مكبراتهم الصوتية لمعرفة كل ما يدور معه من أحاديث . وبدا الوضع وكأنه قد تحول إلى عدو للألمان .

وعندما كان يجرى محادثاته مع الفوهرر فى عش النسر ، تظاهر الألمان عمداً بوصول برقية إلى هتلر سلمت إليه أثناء المحادثات . وقد سمح لتشيانو بأن يعرف بأن البرقية صادرة عن موسكو ، وأنها تعلن موافقة الحكومة السوفياتية ، على أن تقوم ألمانيا بإرسال وفد إلى العاصمة السوفياتية للتفاوض فى عقد ميثاق يضمن هزيمة بولنده ، ويؤكد حياد روسيا مما يقضى على الآمال التى طالما علقتها فرنسا وانجلترا

على تعبئة العون السوفياتى للحد من توسع ألمانيا . ولم تغب عن ذهن تشيانو أهمية هذا الاتفاق ولا الأهمية التى يعلقها هتلر عليه . ولم يكلف نفسه فى اليوم التالى ، حتى عناء الدخول فى مناقشات على الإطلاق، وكان كل ما سأله عن هتلر ، تحديد موعد الهجوم . وراح هذا يؤكد له بأن القضية كلها ستنتهى قبل منتصف أكتوبر . وعاد تشيانو إلى رومه فى الثالث عشر من أغسطس وقد « اشمأزت نفسه كل الاشمئزاز من الألمان ومن فوهررهم ، ومن طريقتهم فى تصريف الأمور . » وراح يكتب فى يومياته، بشىء من العاطفة اللامألوفة فيه . . . « انهم خانونا ، وكذبوا علينا . وها هم يجروننا الآن إلى مغامرة لا نريدها إذ قد تؤدى إلى تحطيم بلادنا وعهدنا الفاشى كله . ولا ريب فى أن الشعب الإيطالى سيصاب بما يشبه الذعر ، عندما تصل إلى مسامعه أنباء العدوان على بولنده ، بل وقد يكون تواقاً إلى محاربة الألمان أنفسهم » . فلم يحب الشعب الإيطالى ميثاق الفولاذ فى أى وقت من الأوقات ، ولكن هذا العمل سيستثير كراهيته المطلقة له .

لكن مخاوفه هذه وشكوكه قد انتهت الآن . فلم يعد يمر بلحظات يعتقد فيها بصحة رأى الدوتشى فى أن من واجب إيطاليا الإصرار على البقاء إلى جانب ألمانيا حتى النهاية . وكان اتوليكو قد توسل إليه فى حمام سالزبرج أن يبلغ الدوتشى أن فى وسعه الآن أن يعتبر نفسه متحللا من التزامات حلف الفولاذ نظراً لقيام هتلر بصلفه وغروره ، بتفسيره إياه على النحو الذى يراه . لكن تشيانو لم يكن على ثقة من أن على إيطاليا أن تمضى إلى هذا الحد . وعندما كان فى طائرته عائداً إلى رومه ، صدر بلاغ رسمى أذاعته وكالة الأنباء الرسمية الألمانية يعلن أن اجتماع سالزبرج قد انتهى باتفاق إيطاليا الكامل مع ألمانيا فى آرائها وتطلعاتها . أجل اتفق هتلر وريبنتروب . ومثل هذا البلاغ لتشيانو الإهانة الأخيرة . فقد طلب منهما أن لا يذاع أى بلاغ رسمى فى الوقت الحاضر ، وقد أقرا بوجهة نظره ، وها هما يتراجعان عن اتفاقهما . ومضى إلى الدوتشى ليقول له بمنتهى الصراحة إن « الألمان خونة ومخادعون وإن علينا أن لا نتردد فى النأى عنهم » . ودون فى يومياته ما يلى . . . « ولن أتردد فى أن أثير فى نفسه كل شعور معاد للألمان ، بكل وسيلة ممكنة فى طاقتى ، فقد قلت إن مكانته قد هبطت ، وأنه يؤدى دور الشريك التابع . ثم

عرضت عليه فى النهاية وثائق تقيم الدليل على أكاذيب الألمان علينا فى القضية البولندية . وأكدت له أن حلفنا معهم يقوم على وعود ينكرونها هم الآن » .

وكان رد فعل موسولينى الفورى ، نموذجاً من الشكوك والمخاوف والمراوغات المفاجئة التى تميز بها فى هذه الفترة ، والتى كادت أن تصل بوزرائه فى غضون الأشهر العشرة التالية إلى حد الجنون . وكتب تشيانو فيما بعد متذكراً ما حدث يقول . . . « وقد وافقنى على رأيى بادئ ذى بدء ، ثم عاد يقول إن الشرف يقضى عليه بالسير إلى جانب ألمانيا ، ثم قال أخيراً ، إنه يريد حصته من الغنيمة » .

ولم يكن رد فعله الأول غريباً أو غير متوقع . فقد كان فى تلك الأيام التى كان يعرب فيها عن استعداده لدعم حلفائه دون تحفظ ، قادراً على توجيه النقد إليهم بعبارات قاسية لا تقل فى عنفها عن النقد الذى يوجهه إلى الإنجليز أو حتى إلى الإيطاليين أنفسهم . وقد قال عنهم ذات يوم بلهجة تنطوى على الكثير من الامتهان والزراية . . . « إن الألمان مجرد جنود وليسوا بمحاربين حقاً ، اعطهم ما يكفيهم من « السجق » والزبدة والجعة واعطهم سيارة صغيرة ، ثم انظر كيف يضربون الناس بحرابهم » . لكنه كان يفقد كل شعور بالتحفظ فى حضرة الألمان ، فهو يرخى فكه الأسفل ، ويتخذ صورة الجدية المطلقة التى تظهر فى وجهه الذى يبدو وكأنه قد من الصخر ، ويظل يتحدث ساعات وساعات ، حتى بعد أن يفارقوه ، عنهم بكثير من الإعجاب « مطرياً روحهم العسكرية الرائعة » و « فلسفتهم البطولية » . ولكنه لا يلبث أن يرتد عن هذا الموقف مفسحاً المجال لشكوكه من جديد .

وتقيم يوميات تشيانو فى هذه الأيام من شهر أغسطس عام ١٩٣٩ الدليل الصحيح على حالة موسولينى العقلية المتأرجحة والمتقلبة . فهو فى الرابع عشر من الشهر يرفض الاستقلال فى العمل ، ولكنه يعود فى اليوم التالى فيعرب عن يقينه من أن على إيطاليا أن لا « تسير مسيرة العميان مع ألمانيا » . ويشرع فى السادس عشر من الشهر فيعرب « عن سخطه على سلوك ألمانيا تجاهه » واقعاً فى الوقت نفسه تحت كابوس المخاوف من أن تتمكن ألمانيا من الحصول على نصر رخيص يحرم هو من نتائجه . وتلقى تشيانو فى العشرين من أغسطس وكان فى زيارة إلى دورازو ،

برقية عاجلة من كبير سكرتيريه فيليبو انفوسو ، تستدعيه إلى روما لأن الدوتشي قرر فجأة « تأييد ألمانيا مهما كان الثمن فى الصراع الذى بات وشيك الوقوع » . وطار تشيانو عائداً إلى روما حيث وجد الدوتشي « مصراً على أفكاره بعناد وتصميم » وشهد اتوليكو الذى كان قد عاد إلى رومه دون استدعاء ، لشد أزر تشيانو فى موقفه ، مقابلته مع الدوتشي ، ثم غادرها وقد « ثبطت عزائمه وأحس بحزن عميق » . لكن تشيانو الذى كان يعرف طبيعة زعيمه ، كان لا يزال يأمل فى تحول فى موقفه ، وقد أفلح فى اليوم التالى بالفعل فى إقناعه بتغيير رأيه من جديد . ووافق على أن يقوم تشيانو باستدعاء ريبنتروب للمجئ إلى ممر برينر ليلقاه هناك ، وليؤكد له حقوق إيطاليا كشريكة فى المحور .

لكن ريبنتروب كان منشغلا بقضايا أهم من لقاء تشيانو . فقد كانت موسكو ترتقب وصوله إليها فى الصباح التالى لتوقيع ميثاق عدم الاعتداء بين ألمانيا والاتحاد السوفياتى . ورد بأنه لا يستطيع المجئ إلى برينر ، ولكنه يستطيع توفير ساعة واحدة أو نحوها للقاء تشيانو فى اينزبروك . وعاد التردد يسيطر على موسولينى . ورأى أن على تشيانو أن لا يمضى إلى اينزبروك ، فمشاعر العداء لألمانيا عند الشعب الإيطالى آخذة فى الازدياد . وبالرغم من أنه لا يستطيع أن يكتم إعجابه « بضربة المعلم » التى حققها هتلر ، إلا أن الشعب الإيطالى لا يشاطره هذا الإعجاب . وكان ستراشى على حق عندما حذره من أن الشعب الإيطالى سيتظاهر ساخطاً . لو قام العهد الفاشى بتأييد هجوم هتلر على بولنده . يضاف إلى هذا أن ضباط الجيش لا يصلحون للعمل العسكرى ، وكان عتاد الجيش قديماً وممسوخاً . وعلى إيطاليا « أن ترقب تطور الأحداث وألا تفعل شيئاً » .

ولم تمض ساعات على وصول موسولينى إلى هذا القرار حتى كان يستقبل جيوسيبى باستيانينى ، سفيره السابق فى بولنده الذى وصفه بأنه كان « عنيفاً فى ميله إلى الحرب » . وكان لا يزال فى هذا المزاج ، عندما جاءه تشيانو إلى قصر البندقية فى ذلك الصباح . حيث بذل جهد الجبابرة لإقناعه بتأجيل التدخل إلى أن تكون إعدادات التعبئة قد استكملت . وارتاح تشيانو إلى هذه النتيجة التى توصل إليها ، وغادره عائداً إلى مقر وزارته ، عندما تلقى دعوة عاجلة أخرى من الدوتشي .

ودون تشيانو فى يومياته يقول بكثير من الألم واليأس . . . « عاد فغير رأيه . إنه يخشى لوم الألمان . وهو يريد التدخل فوراً . وكان من العبث أن اختصم معه ، فأذعنت » .

وتلقى موسولينى بعد ظهر ذلك اليوم ، رسالة من هتلر ، يبلغه فيها أن العمل العسكرى ضد بولنده ، سيبدأ فى وقت قريب للغاية ويؤكد له فيها أنه « لو كان فى موقف كموقفه ، فإنه ، أى هتلر ، سيقدر هذا الموقف كل التقدير ويفهمه كل الفهم » . ورأى تشيانو فى هذه الرسالة فرصة جديدة لإثارة شكوك الدوتشى فعاد إلى قصر البندقية ، حيث تمكن من إقناعه بأن يبعث برسالة إلى هتلر يبلغه فيها ، إنه ما لم تتلق إيطاليا على الفور معدات حربية وبعض المواد الأولية من ألمانيا ، فإن تأييدها لها سيقتصر على « الناحيتين السياسية والاقتصادية » . وأضاف الدوتشى يقول فى رسالته وكأنه يجمع بين الاعتذار وبين التأنيب . . . « كان تصورنا فى لقاءاتنا معاً أن الحرب ستنشب بعد عام ١٩٤٢ ، حيث أكون مستعداً فى البر والبحر والجو ، طبقاً لخططنا المتفق عليها » .

وأفقدت هذه الرسالة هتلر زمام التحكم فى أعصابه مؤقتاً ، فقد كان يعتمد على تأييد أكثر تحديداً من هذا من جانب إيطاليا . وكانت الأنباء المزعجة قد وصلته بعد ظهر ذلك اليوم عن توقيع ميثاق العون المتبادل بين بريطانيا وبولندة فى لندن ، فقرر تأجيل الغزو الذى كان من المقرر أن يبدأ فى الصباح التالى . وعندما اطلع على قائمة المعدات والمواد التى تطلبها إيطاليا ، اتضح له عجزه عن تأمينها . وكان ماكينزن سفير ألمانيا فى رومه ، غير راغب فى الحرب ، فاقترح على تشيانو أن يعجز ألمانيا بقائمة طويلة يعجز « الثور عن حملها » على حد تعبيره . فقد انطوت القائمة على سبعة ملايين طن من الزيت وستة ملايين من الفحم ومليونين من الصلب ومليون من الخشب ، وسبع عشرة ألف سيارة ومائة وخمسين بطارية من المدافع المضادة للطائرات . . . وعندما قدم اتوليكو هذه القائمة إلى الألمان ، راح ريبنتروب يسأله بكثير من المكر عن الموعد الذى تريد فيه إيطاليا أن يقدم لها الألمان محتوياتها . ورد اتوليكو على الفور دون أن يستشير حكومته . . . « قبل الشروع فى العمليات الحربية » . كانت هذه هى المحاولة الأخيرة من جانب

اتوليكو للحفاظ على السلام ولكنها كانت محاولة فاشلة . فقد استعاد هتلر زمام السيطرة على أعصابه . وكان على استعداد الآن على حد تعبير جيزيفيوس الألمانى ، كما كان فى مستهل أغسطس « للقذف بأى خنزير يحاول القيام بدور الوساطة ، من أعلى السلم فى دارته ، حتى ولو اضطر إلى ركله بقدمه فى بطنه أمام المصورين ». وتقبل على الفور استحالة تحقيق المطالب الإيطالية ، وطلب من الدوتشى أن يقدم إليه عونه السياسى ليس إلا ، وأن لا يعلن قراره بالوقوف على الحياد إلا عندما تقتضى الضرورة ، وأن يواصل القيام بإعداداته العسكرية لإرهاب الفرنسيين والبريطانيين ، وأن يبعث إليه فى ألمانيا بالعمال الزراعيين والصناعيين من الإيطاليين. وراح يكتب إليه قائلا . . . « أنا أحترم أيها الدوتشى الدوافع والتأثيرات التى فرضت عليك هذا القرار . وعسى أن يكون فيه الخير » .

وبالرغم من حالة الهدوء التى سيطرت مؤقتاً على الدوتشى بعد أن حزم أمره أخيراً على الموقف الذى رآه ، إلا أن هذا الهدوء لم يطل . فقد عذبته الفكرة التى سيطرت عليه ، وهى أنه قد خان حليفه ، وأن هيبته أصيبت فى الصميم، وراح يلح على اجتماع آخر ، كاجتماع مونيخ ، كالوسيلة الوحيدة التى يمكن تجنب الحرب عن طريقها ، والتى تؤمن له الفرصة لاستعادة مركزه المتفوق على هتلر ، كما تحمى كذبته بوجود « الملايين المستعدة من الحراب» من الانكشاف . لكنه لم يصر على دعوته على أى حال بكثير من التصميم والقوة . فقد أدرك تمام الإدراك تفاهة مركز إيطاليا لألمانيا كحليفة محاربة ، وإن كان لم يدرك بعد القيمة التى يحتلها فى نظر هتلر كحليف سياسى .

وراح يكتب بكثير من اللطف فى السادس والعشرين من أغسطس إلى هتلر قائلاً . . . « اسمح لنفسى بالإصرار من جديد ، على احتمال الحل السياسى الذى ما زلت اعتقد بإمكان الوصول إليه . وأنا لا أفعل هذا مدفوعاً باعتبارات سلامية غريبة على طبيعتى وروحى ، وإنما باعتبارات تتعلق بمصالح شعبينا ونظامينا » .

وكان لا يزال يلحف بكثير من الحياء حتى الواحد والثلاثين من أغسطس على ضرورة الأخذ بوجهة نظره فى عقد اجتماع كاجتماع مونيخ . ومضى اتوليكو عشية

ذلك اليوم إلى دار المستشارية فى برلين يعرض وساطة موسولينى . ولكن هذه الخطوة جاءت متأخرة ، إذ كان هتلر قد مضى بعيداً .

ورد هتلر بشىء من الحدة على اتوليكو . . . « أنا لست على استعداد لأسمح لبولنده بلطمى فى وجهى المرة تلو المرة ، كما لا أريد أن أضع الدوتشى فى موضع غير لائق » .

وراح اتوليكو يسأله ، إن كان هذا يعنى أن كل شىء قد انتهى ، فرد هتلر بالإيجاب . لكن موسولينى عاد بعد يومين فكرر محاولته لآخر مرة ، ولكن غزو بولنده ، كان قد بدأ بالفعل .

ورد هتلر برسالة إلى الدوتشى على وساطته الأخيرة ، متكهناً بكارثة إيطاليا المقبلة بقوله . . . « بالرغم من أن طريقينا قد افترقا الآن ، فقد كنت على يقين دائماً من وحدة المستقبل لنظامينا . وليس لدى شك أيها الدوتشى فى أنك تشاطرنى نفس اليقين » .

٥

أثارت الانتصارات الرائعة التى حققتها الجيوش الألمانية فى بولندة اضطراب موسولينى من جديد . وبالرغم من إعلانه فى الجلسة التى عقدها المجلس الفاشى الأعلى فى الأول من سبتمبر أن إيطاليا « لن تشترك فى الوقت الحاضر فى العمليات الحربية » ، إلا أنه حرص على أن يضيف موجهاً كلامه إلى أولئك الذين بدوا مرتاحين من أعضاء المجلس لقراره هذا ، بقوله . . . « لكن هذا لا يعنى بحال من الأحوال اتخاذ موقف الحياد » . وراح يعلن فيما بعد ، أن إيطاليا « اتخذت موقفاً لنفسها من نفسها ، تتميز فيه القرارات الواضحة ، وخطوط العمل . ولعل هذا هو السبب الذى يدعونا إلى عدم الحديث عن الحياد . فالمحايد هو الذى يكتفى بالوقوف موقف المتفرج ، لأن مصالحه لا تتعرض للخطر ، ولأن الصراع الدائر لا يهمه فى قليل ولا فى كثير . لكن هذا الصراع يهمنا كثيراً ، على العكس ولا يمكن تصوير موقفنا الآن بأن ليس لدينا ما نقوله ، فنحن نحتفظ بحقنا فى أن نقول كلمتنا فى اللحظة المناسبة ، وبلغتنا ، وأسلوبنا . فنحن نرقب بمنتهى الهدوء ،

سائرين بتصميمنا فى طريق التصميم الكامل » .

لكن موسولينى كان أعجز من أن يظل مراقباً للأوضاع بهدوء . فقد كان فى كل مرة تمتد يده إلى تقرير سرى ، أو إلى إحدى تلك البرقيات التى كانت تسرق بانتظام من ملفات السفارات الأجنبية فى رومه ، ليرى فى التقرير أو فى البرقية ، ملاحظة غير مستحبة عن حياده ، وكان فى كل مرة ، يقرأ فيها تعليقاً ناقداً أو مطرياً فى إحدى الصحف الأجنبية ولا سيما البريطانية منها على قراره ، يسارع إلى الحديث عن عزمه على دخول الحرب . وقد كتب تشيانو فى يومياته يقول . . . « وكان فى كل مرة يقرأ فيها مقالا يقارن كاتبه فيه بين موقفه اليوم وبين موقف إيطاليا فى عام ١٩١٤ ، يسارع إلى الرد بعنف معلناً تأييده لألمانيا . وقد سر كثيراً لمقال صدر فى صحيفة إنجليزية ، يؤكد فيه أن الشعب الإيطالى لابد وأن يحارب إلى جانب ألمانيا ، متأثراً بدوافع الشرف . فقد كانت هذه هى وجهة نظره أيضاً . ومن المحتمل أن تنطلق ألوف الأصوات معاكسة رأيه ، وينطلق صوت منعزل وحيد من إنسان مجهول ، يقره على موقفه ، فيسارع إلى تبنى ذلك الصوت ، متجاهلا أصوات الألوف ، ومنكراً عليها آراءها » . وبالرغم من أن فوائد الحياد أو .. غير المحاربة ، كما كان يصر على تسمية موقفه ، قد اتضحت على الفور ، فى ارتفاع أسعار البورصة ، وأسعار الأسهم الإيطالية فى الأسواق الخارجية ، ولا سيما فى أسواق البلقان ، التى استولت عليها إيطاليا الآن لتحل محل ألمانيا ، وفى عشرات البواخر الإيطالية محملة بالصادرات . ومبحرة من كل ميناء ، إلا أن موسولينى لم يكن راضياً أو مهتماً بهذه التطورات ، وكانت أنباء الانتصارات الألمانية هى التى تسيطر على خياله وتلهبه . وراح يقول لزوجته بكثير من نفاد الصبر : « من المحال ، أن نبقى على إيطاليا فى منأى من الحرب ، بل ولعل ما هو أكثر استحالة وخطورة ، أن لا ندخلها إلى جانب ألمانيا ، فقد جعل الميثاق الألمانى — السوفياتى ، من ألمانيا قوة لا تغلب لا من دولة ولا من مجموعة دول » . وكان يتمتم أحياناً مكرراً ما أكثر من ترداده منذ عام ١٩١٥ من أن « أى إنسان لا يحب المحايدين » .

لكن أخطار الاشتباك فيما كان لا يزال يبدو كصراع طويل الأجل ،

كانت لا تزال تكبح جماحه . وكان يرتضى فى اللحظات التى يكاد فيها صبره يفرغ ، الحقيقة التى تقول إن على إيطاليا أن تدخل الحرب ، عندما ترى أن النصر بات مؤكداً وقريباً . وعندما سقطت وارسو ، واجتمع ريبنتروب إلى ستالين فى الكرملين ليتفقا على اقتسام بولنده، وليقرا السماح لروسيا بمطلق الحرية فى جمهوريات ايستونيا ولاتفيا وليتوانيا على بحر البلطيق ، رأى موسولينى الفرصة متاحة له ، للخلاص من هذه المعضلة التى تحيره . وقرر القيام بمحاولة جديدة لإقناع هتلر بقبول وساطته . فالتسوية التى يتم التفاوض عليها ، لا تسمح لإيطاليا بتجنب الحرب التى لم تتهيأ لها بعد بما فيه الكفاية فحسب ، وإنما تنقذ المحور من الوضع الثانوى فى الأهمية الذى هبط إليه ، بعد انصراف هتلر بكل حواسه إلى التحالف النازى — السوفياتى أيضاً ، وتؤمن السبيل لتهدئة الشعب الإيطالى ، الذى ثار من مرأى حكومته الفاشية تقف موقف المتفرج الراضى كما يبدو عن قيام دولتين ملحدتين وسفاحتين باقتسام بولنده الكاثوليكية بمنتهى الوحشية . ولذا فقد رحب موسولينى أشد الترحاب بالاقتراح الذى جاءه من هتلر ، عارضاً أن يقوم تشيانو بزيارته فى برلين .

واكتشف تشيانو فى زيارته أن هتلر كان فى منتهى الثقة بنفسه . وبالرغم من أن الصحافة الألمانية رحبت كل الترحيب بالبلاغ المشترك الذى صدر عن محادثات ريبنتروب ومولوتوف ، والذى جاء فيه . . . « إن مما يخدم المصالح الحقة لجميع الشعوب ، وقد تمت تسوية المشكلة البولندية تسوية نهائية ، الوصول بالحرب القائمة بين ألمانيا من ناحية وبين إنجلترا وفرنسا من الناحية الأخرى ، إلى نهاية سلمية ، فإن تشيانو رأى أن هتلر نفسه لا يؤمن كثيراً بالحلول السلمية ، وإنه لا يريد فى الواقع مثل هذا الحل . وكان فى منتهى النشوة وقوة الإقناع ، عندما أبلغ تشيانو أنه يعتزم إلقاء خطاب فى الرايشستاج عما قريب ، يضمنه محاولته السلامية الأخيرة مع الغرب مضيفاً إلى ذلك قوله . . . « أما إذا كانت إيطاليا راغبة فى السير معى على الفور ، فسأمتنع عن إلقاء هذا الخطاب ، واستعيض بالقوة عنه ، واثقاً من أن إيطاليا وألمانيا تستطيعان تهشيم فرنسا وإنجلترا فى وقت قصير وتسوية حساباتهما معهما مرة واحدة » . وراح يؤكد لتشيانو ، أن على إيطاليا أن لا تخشى كثيراً من

افتقارها إلى المدافع المضادة للطائرات . إذ أن خوف العدو البالغ من انتقام ألمانيا سيحول بينه وبين الإغارة على إيطاليا .

لكن موسولينى لم يتأثر بهذا القول على أى حال . ولم يعد يخفى الحقيقة الواقعة وهى أن موقف هتلر بات يثير أعصابه . ولم تعد الغمزات والنصائح التى يقرؤها فى الصحافة الخارجية ، تحمله على الرغبة فى الاشتراك إلى جانب ألمانيا فى الحرب ، بل أصبح ميالا إلى أن يبين للعالم ، أنه لم يكن الرجل الذى يتخلى عن ألمانيا بل إن ألمانيا هى التى تخلت عنه . وشرع يأمل فى هزيمة ألمانيا ، كما أمر تشيانو بأن يوصل إلى سفارتى بلجيكا وهولنده فى رومه . بأن الغزو الألمانى لبلاديهما بات قريباً ، وموضوع توقيت ليس إلا . وسمح لتشيانو فى السادس عشر من ديسمبر بإلقاء خطاب فى مجلس النواب الإيطالى ، أثار دهشة العالم .

وبالرغم من أن الخطاب انطوى على حملات عنيفة على بريطانيا وفرنسا لإحباطهما محاولة الوساطة التى قام بها الدوتشى ، إلا أن الفكرة الأساسية فيه ، كانت إبراز خيانة ألمانيا لحليفتها . فقد بين تشيانو فى خطابه أن ألمانيا تنكرت لسياستها المعادية للشيوعية الدولية (الكومنترن) ، ورفضت نصيحة إيطاليا بأن فرنسا وإنجلترا ستحاربان دفاعاً عن بولنده ، واندفعت إلى الحرب متجاهلة تعهدها لحليفتها بأن لا تخوضها قبل انقضاء ثلاث سنوات . وكان إعلان الدوتشى عن موقف « الدولة اللامحاربة » ، أكثر مما كان يحق لهتلر من الناحية القانونية أن يتوقعه ، بعد أن رفض الاستماع إلى موسولينى . وهلل الشعب الإيطالى بأسره لهذا الخطاب معتبراً إياه « اللحن الجنائزى » فى موكب تشييع المحور إلى مقره الأخير . وتلقت الصحف الإيطالية ، التعليمات بأن تنشر الخطاب فى صفحاتها الأولى ، ولم تمض أيام ثلاثة ، حتى كانت الأوامر قد صدرت إلى هذه الصحف بنشر أنباء الحرب دون أى تحيز . ولكن موسولينى عاد فبعث فى الثالث من يناير عام ١٩٤٠ برسالة إلى هتلر يؤكد له فيها أن كل ما قاله تشيانو ، لا يعبر إلا عن وجهة نظره وحده أدق تعبير . وكانت هذه الرسالة من أقوى الرسائل التى كتبها الفوهرر فى حياته :

« ليس ثمة من يعرف أحسن منى ، وقد انقضى على أربعون عاماً من التجارب السياسية ، إن أية سياسة ولا سيما إذا كانت من الطراز الثورى ، تتطلب بعض

المتطلبات التكتيكية الخاصة بها . فقد كنت من أوائل من اعترفوا بالاتحاد السوفياتى فى عام ١٩٢٤ . وقد وقعت مع السوفيات فى عام ١٩٣٤ معاهدة صداقة وتجارة . ولذا فأنا أفهم ، ولا سيما بعد أن بان خطل توقعات ريبنتروب فى أن بريطانيا وفرنسا لن تدخلا الحرب ، بأنك فى حاجة ماسة إلى تجنب الحرب فى جبهتين . لكنك دفعت الثمن غالياً بسماحك لروسيا ، دون أن تطلق عياراً واحداً ، بأن تغدو المستغل الأكبر فى بولندة وبحر البلطيق .

« لكننى وأنا الثائر ، الذى لم يطرأ أى تغيير على تفكيره الثورى ، أستطيع أن أقول لك ، بأنك لن تتمكن من التضحية بصورة دائمة بمبادئ ثورتك فى سبيل المتطلبات التكتيكية ، إلا لفترة مرحلية . . . وعلى أن أضيف أيضاً، أن أية خطوة أخرى فى علاقاتك مع موسكو ستترك آثاراً مفجعة فى إيطاليا ، حيث لا شك فى إجماع الشعب على المشاعر المعادية للبلشفية، متميزة بالصلابة والإصرار[1] أرجو أن أسمع منك أن هذا لن يحدث على الإطلاق » .

وقد سلم اتوليكو هذا التوبيخ القاسى لهتلر ، فقرأه « باهتمام شديد » .، وعندما غادر السفير الإيطالى مكتبه ، راح يستدعى جورنج وريبنتروب ليبحث معهما وهو فى ذروة غضبه فى أمر هذه الرسالة . وأصر هتلر على وجهة نظره فى أن إيطاليا لن تدخل الحرب إلا فى حالة تحقيق « انتصارات ألمانية عظيمة ولا سيما على فرنسا » ، وأن اسهامها فى الحرب فى مثل هذه الحالة لا يجدى ولا يفيد ، لما يفرضه من إتاوات باهظة على ما لدى ألمانيا من مواد ومخزونات .

وطال الأمد على موسولينى ، وهو ينتظر رد هتلر على رسالته ، لكن موقفه كان قد شرع فى التعرض للتبدل من جديد . وراح يلقى فى مستهل شهر فبراير ، خطاباً أفاضت الصحف فى نشره والتعليق عليه ، أعلن فيه أن الإيطاليين يكادون يتحرقون شوقا إلى القتال « الذى لابد من وقوعه » . وانتصف الشهر وهو لا يزال ينتظر رد هتلر ، وراح يقول إن ليس فى وسع إنسان أن يفترض بأن ما تعانيه إيطاليا من نقص فى المعدات الحربية ، يصلح مبرراً لتغيبها عن القتال . ودون تشيانو فى يوميته فى الواحد والعشرين من فبراير يقول . . . « يعتزم الدوتشى إرضاء

---

(١) تطوع ألوف الإيطاليين للحرب ضد الاتحاد السوفياتى دفاعاً عن فنلندة .

الألمان » . وكان موقف الملك المعادى للألمان ، حافزاً أيضاً لموسولينى على التلهف على الحرب إلى جانبهم . وعندما وصل إلى سمعه ذات يوم أن الملك يحمل على الحلف مع ألمانيا ويقارن بين « استقامة » البريطانيين وبين « خداع » حلفائه الطبيعيين ، استشاط غضباً ، وراح يصرخ قائلا . . . « كيف يجرؤ ذلك القزم القمئ على أن يبين لى ما يجب أن أفعله ؟ أليس من الأفضل لتلك « السردينة » الصغيرة البليدة أن تشغل نفسها بهوايتها فى جمع النقود الصغيرة . هذه هى هوايته وهذا هو الشيء الوحيد الذى يفهمه » . وراح يقول، إنه عندما تنتهى الحرب ، فسيشير على هتلر بالقضاء على هذه « المساخر التافهة التى تحمل زى الملوك » . ومضى يقول لتشيانو . . . « يريد الملك منا أن ندخل الحرب ، عندما تغدو المهمة مجرد جمع الصحاف المهشمة . وكلى أمل أن لا تتحطم هذه الصحاف فوق رؤوسنا قبل أن نشترك فى الحرب . حقاً من الإذلال أن يظل المرء مكتوف اليدين بينما يصنع الآخرون التاريخ . قد لا يهمنى كثيراً من يربح . فخلق الشعب العظيم ، يتطلب الزج به فى أتون المعركة ، حتى ولو اضطر إلى ركل أفراده فى أقفيتهم ليدفع بهم إليها » .

وكان البابا يتصرف فى رأى موسولينى بطريقة تثير الأعصاب تماماً كالطريقة التى يتبعها الملك . لكن البابا الجديد لم يكن فى نظره ، خالياً من العقل والمنطق كذلك « العجوز المستبد الصعب القياد » بيوس الحادى عشر ، الذى لم يوفر لحظة واحدة ، دون الهجوم فى أحاديثه على القومية المتطرفة ، والمذاهب العنصرية ، عندما « وقعنا حلف الفولاذ » ، مما دعا موسولينى إلى التعليق بقوله إنه على استعداد « لتكسير بعض الهراوات على أقفية رجال الدين » . وقال موسولينى إن هذا لن يكون عسيراً عليه، فالإيطاليون ليسوا متدينين ولكنهم يؤمنون بالخرافات . وهم يستقبلون بسهولة فكرة العيش بدون الفاتيكان . ولكن بالرغم من أن الكردينال باشيلى الذى خلف البابا بيوس الحادى عشر فى كرسى البابوية فى مستهل عام ١٩٣٩ ، لم يظهر فى البداية عناداً ورغبة فى التدخل فيما لا يعنيه كسلفه ، إلا أنه شرع الآن فى تمثيل دور المزعج المضايق للحكومة . فقد كان قاصداً رسولياً فى ألمانيا ، وكان يحب الألمان ، لكنه يرى أن واجبه يدعوه الآن للعمل بكل ما فى وسعه لمنع إيطاليا من

الحرب إلى جانبهم . وكان يواصل عن طريق الأب اليسوعى بييترو ناشى — فينتورى ، الذى مثل البابا لدى قصر البندقية منذ توقيع الاتفاق بين الفاشية والكنيسة ، إذ جاء يقدم النصح لموسولينى بضرورة بقاء إيطاليا على الحياد . ومبلغاً إياه رغبته فى السلام . ونشرت صحيفة الفاتيكان « اوبزر فاتورى رومانو » ، هذه النصيحة مع بعض التعليقات السياسية التى كانت تخفى بصورة ماكرة وإن كانت سهلة على التمييز مشاعر العداء للفاشية . ونشرت فى شهر مايو عام ١٩٤٠ ، رسالة العطف التى وجهها البابا إلى ملك البلجيك وملكة هولندة وجراندوقة لوكسمبورج . وارتفع توزيع الصحيفة بسرعة البرق ، رغم نشاط العصابات الفاشية التى كان أفرادها يرهبون الراغبين فى شراء هذه الصحيفة عن طريق إحراق نسخها فى الشوارع ، وضرب أصحاب الأكشاك التى تعرضها للبيع . واضطر موسولينى فى النهاية إلى إبلاغ القاصد الرسولى بأن على الصحيفة التوقف عن نشر التعليقات السياسية التى تفسر على أنها معادية للفاشية وإلا فسيجد نفسه مرغماً على إيقافها . وأحست الصحيفة بضرورة الخضوع .

وكان من الأخطاء الخطيرة التى أخذها عليها موسولينى ووجد من العسير عليه أن يتسامح بها ، معارضتها للسياسة الفاشية الرسمية التى أيدتها بقوة صحيفة « العهد الفاشى » التى يتولى روبرتو فاريناشى إصدارها ، وهى أن ليس فى إمكان إيطاليا أن تغفر لتلك البلاد التى أيدت فرض العقوبات عليها إبان الحرب الحبشية . وكانت هذه الفكرة تستبد بذهن موسولينى باستمرار . وقد لاحظ سمنر ويلس[١] ، عند اجتماعه فى فبراير عام ١٩٤٠ بموسولينى أن هذه الفكرة تؤلف كابوساً مسيطراً على موسولينى .

وكان الرئيس روزفلت قد أوفد سمنر ويلس إلى أوروبا ، ليرى إذا كان فى وسع موسولينى أن يفعل شيئاً لعقد الصلح بين بريطانيا وفرنسا من ناحية وألمانيا من الناحية الأخرى . وقد وصل ويلس إلى رومه فى الخامس والعشرين من فبراير يحمل رسالة شخصية مطولة من الرئيس الأمريكى إلى الدوتشى . وقد استقبله

---

(١) كان يشغل رسمياً منصب وكيل وزارة الخارجية الأمريكية ولكن الرئيس روزفلت كان يعتمد عليه كثيراً ، ويوفده فى مهمات رسمية بالغة الخطورة . « المعرب »

موسولينى فى البداية استقبالاً بارداً كالثلج ، ولكن هذا البرود ما لبث أن ذاب ، عندما أحيا الزائر الأمريكى الآمال الكامنة فى نفسه فى الوصول إلى تسوية عن طريق التفاوض ، مقترحاً أن يطير روزفلت نصف الطريق عبر المحيط الأطلسى لمقابلته ، وعقد اجتماع لابد وأن يترك آثاراً مدوية فى طول العالم وعرضه . وعندما غادر ويلس رومة فى التاسع والعشرين من فبراير كانت الآمال العريضة تساوره . ولكن لم يحل العاشر من مارس ، حتى كان موسولينى قد عاد سايماً إلى المعسكر الألمانى . فى ذلك اليوم بالذات وصل إلى رومه ريبنتروب متوخياً معاكسة أية تحفظات من جانب موسولينى تجاه حلفه مع ألمانيا ، قد تكون ناشئة عن تأثير المبعوث الأمريكى على أفكار موسولينى أثناء محادثاتهما الأخيرة . ولم يكتف ريبنتروب فى هذه الزيارة التى حمل فيها رد هتلر الذى طال انتظاره على رسالة الدوتشى المؤرخة فى الثالث من يناير المنصرم ، باستصحاب عدد كبير من سكرتيريه وتراجمته وموظفى وزارته ، بل استصحب معه أيضاً حلاقه ، ومدلكه ، ومدربه فى ألعاب الجمباز وطبيبه . وعندما أكد له ريبنتروب بمنتهى الثقة والاطمئنان ، أن ألمانيا توشك على تحقيق نصر عظيم وحاسم ، رد موسولينى ، بأن تدخل إيطاليا فى الحرب الآن أصبح يقيناً ، إذ أنها لا تستطيع البقاء حبيسة الحصار الذى تفرضه بريطانيا عليها فى ما أسماه الآن وفى نص إعلانه الحرب فيما بعد ، « بحرها » . وعندما قرر هتلر بعد ثلاثة أشهر احتلال الدانمارك والنروج ، وبعث كعادته المألوفة بماكنزن حاملا رسالة إلى الدوتشى يخبره فيها بأنه شرع فى العمل فعلا ، لم يبد الدوتشى أى انزعاج ، وإنما قال على النقيض من ذلك إنه « يوافق على العمل من صميم فؤاده » . وبدا لماكنزن أن الدوتشى لم يعد قادراً على أن يصبر على عدم دخول الحرب مدة أطول ، وقد زاد نفاد صبره عندما وصلته الرسائل المطولة من الفوهرر ، متحدثة عن الانتصارات الرائعة التى حققتها الجيوش الألمانية . ولم يكن يستطيع أن يتصور كما ذكر تشيانو فكرة احتمال كسب ألمانيا للحرب وحدها . ولم يحل الواحد والعشرون من أبريل حتى كان الدوتشى قد غدا « متلهفاً على الحرب ومؤيداً للألمان أكثر من أى يوم مضى » .

وكان البريطانيون لا يزالون يشاركون الأمريكان أملهم فى إمكان الإبقاء

على إيطاليا خارج الحرب . ورغبة منهم فى إظهار أثر الحصار البريطانى على تموين إيطاليا بالفحم الألمانى ، عرضت الحكومة البريطانية على إيطاليا تزويدها بثمانية ملايين طن من فحمها لتستعيض به عن الفحم الألمانى . وخول اللورد لويد بوصفه رئيس المجلس الثقافى البريطانى ، رغبة من الحكومة فى إظهار عدم وجود خلاف جوهرى بينها وبين الفاشية ، بأن يصدر كتيباً يحمل مقدمة تعليقية من اللورد هاليفاكس ، تتضمن الملاحظات التالية . . .

« تطورت العبقرية الإيطالية فى النظم الفاشية النموذجية التى يمثلها عهد مغرق فى السيطرة لكنه لا يهدد على أى حال الحرية الدينية أو الاقتصادية ، ولا يهدد أمن غيره من الدول الأوروبية الأخرى . ومن الجدير بنا أن نلاحظ هنا ، أن هناك فروقاً جوهرية بين بنيان الدولة الفاشية ومبادئها وبين بنيان الدولتين النازية والسوفياتية ومبادئهما . ويقوم النظام الإيطالى على صخرتين متينتين ، أولاهما الفصل بين الكنيسة والدولة ، وتفوق الكنيسة لا فى قضايا الإيمان وحدها . بل وفى قضايا الأخلاق أيضاً ، وثانيتهما حقوق العمالة . ويقوم الجهاز السياسى للفاشية فعلا على الحركة النقابية ، بينما يقوم الجهاز السياسى للدولة الألمانية على أنقاض الحركة العمالية الألمانية » .

وفى السادس عشر من مايو عام ١٩٤٠ ، أى بعد ستة أيام من تولى ونستون تشرشل دفة الحكم فى بريطانيا ، بعث رئيس الوزراء ، وكان يعرف أن عليه أن « يفعل كل ما فى وسعه للإبقاء على إيطاليا بعيدة عن الصراع » ، برسالة إلى موسولينى الذى كان يتوقع منه كما ذكر للرئيس روزفلت فى اليوم السابق « أن يسارع لأخذ نصيبه من غنيمة الحضارة » . وراح يكتب إليه بتلك التعابير المتناهية فى البلاغة ، والعزيزة على قلبى الكاتب والمكتوب إليه ، يقول . . « ترى هل فات الوقت على وقف نهر الدم من الانسياب بين الشعبين البريطانى والإيطالى ؟ ليس ثمة من شك فى أن الواحد منا يستطيع أن ينزل بالآخر . أكثر الأضرار بعثاً للألم ، وأن يدقه بمنتهى الضراوة والوحشية ، لننزل بالظلام معاً نتيجة صراعنا على البحر الأبيض المتوسط . فإذا كانت مشيئتك أن يقع هذا ، فلتكن مشيئتك ، ولكنى أريد أن أعلن لك ، أننى لم أكن فى يوم ما معادياً لعظمة إيطاليا . ولا خصما فى

فؤادى للشعب الإيطالى الذى منح العالم قوانينه . . . وإنى لأتوسل إليك ، أن تؤمن بأننى لا أكتب إليك ما أكتبه ، ولا أوجه إليك هذا النداء الجدى الذى سيسجله التاريخ ، نتيجة ضعف أو خوف . ولا ريب فى أن النداء بأن لا يقف الوارثون المشتركون للحضارتين اللاتينية والمسيحية موقف العداء وجهاً لوجه فى صراع قتال ، سيظل عبر القرون والأجيال ، مرتفعاً فوق كافة النداءات الأخرى . أتسمع هذا النداء ! أرجوك بمنتهى الإجلال والتقدير أن تسمعه قبل أن تصدر الإشارة المخيفة . على أى حال لن نكون نحن الذين نصدرها » .

وكان رد موسولينى قاسياً ، ولكنه كان كما اعترف السير ونستون فيما بعد « متميزاً بالصراحة على الأقل » .

وكتب الدوتشى يقول . . . « أبعث إليك لأرد على هذه الرسالة التى بعثت بها إلى ، لأقول لك ، بأنك تعرف ولا شك الأسباب الخطيرة ذات الطابع التاريخى والاتفاقى التى فرضت على بلادينا أن يقفا فى معسكرين متعارضين . وقد لا أجد نفسى مضطراً للعودة بذاكرتى إلى تاريخ بعيد فى القدم ، وإنما أرى أن أذكرك ، بالمبادرة التى قامت بها حكومتك فى جنيف فى عام ١٩٣٥ ، لتنظيم فرض العقوبات على إيطاليا المنشغلة فى تأمين مجال صغير لحياتها تحت الشمس الإفريقية ، دون أن تلحق أى أذى مهما ضؤل ، بمصالحكم وأراضيكم ، أو بمصالح الآخرين وأراضيهم، وأود أن أذكرك أيضاً بوضع العبودية الفعلى والواقعى الذى تجد إيطاليا نفسها فيه فى بحرها[1] . وإذا كانت حكومتك قد أعلنت الحرب على ألمانيا لتشريف توقيعها والحفاظ على كلمتها ، فإنك ستفهم ولا شك أن نفس الإحساس بالشرف وباحترام الالتزامات التى أكدتها معاهدة التحالف بين إيطاليا وألمانيا هى التى توجه السياسة الإيطالية اليوم وغداً مهما كانت الأحداث التى ستواجهها » .

---

(١) ليس من الغريب أن تصدر مثل هذه الأقوال الاستعمارية عن زعيم الفاشية التى تمثل ذروة اليمين الاستعمارى والأمبريالى . فهو لا يعرف شيئاً عن حقوق الشعب الحبشى التى أهدرها واغتصبها وداسها بأقدامه ، وهو لا يرى على البحر الأبيض المتوسط إلا صورة إيطاليا وحدها ، التى تعتبر هذا البحر بحرها ، وتعتبر الامبريالية البريطانية معتدية عليها فيه . فهو فى أفريقيا لا ينظر إلا إلى وجود مصالح أمبريالية لبريطانيا أو غيرها من الدول الاستعمارية . أما مصالح الشعوب الأفريقية صاحبة البلاد والحقوق فلا قيمة لها عنده على الإطلاق ، وكذلك لا قيمة للشعوب المتوسطية أو حقوقها فى البحر الابيض المتوسط . « المعرب »

وكان السير ونستون يظن « أن الحكمة والروية تفرض على موسولينى أن يرقب اتجاه سير الحرب ، قبل أن يلزم نفسه وبلاده باتجاه لا يستطيع التراجع عنه » . ولكنه بعد أن تلقى هذا الرد ، لم يعد لديه أدنى شك فى أن الدوتشى قد قرر الدخول فى الحرب إلى جانب ألمانيا . وتوصل الفرنسيون أيضاً فى نفس الوقت إلى عين النتيجة . وقد أعرب سفيرهم فى رومة ، فرانسوا بونسيه عن إيمانه بأن موسولينى يريد أن يسرق « من ستالين مجد الضرب فى عدو هوى على الأرض » .

أما أن هذا العدو قد هوى ، فلم تعد فى ذلك ذرة من الشك الآن . فقد شجعت الانتصارات فى النروج هتلر على أن يشن هجومه على فرنسا والبلاد المنخفضة (هولندة وبلجيكا) فى أوائل شهر مايو . ولم تحل نهاية الشهر حتى كان الحلفاء قد أرغموا على التراجع إلى دانكرك . وقامت الحكومة الفرنسية فى الثالث من يونيو بمحاولة أخيرة ومحمومة لمنع إيطاليا من مهاجمتها فى الجنوب ، فأمرت سفيرها فرانسوا — بونسيه ، بأن يحاول رشوة موسولينى بالتنازل له عن بعض الأقاليم ، وهو عرض سرعان ما رفضه موسولينى رفضاً قاطعاً . إنه لم يعد يكترث بالمفاوضات السلمية ، وهذا ما قاله تشيانو بكل صراحة للسفير الفرنسى ، إذ أنه قرر خوض الحرب .

وكان قد أعلن لتشيانو رأيه قائلا . . . « لم يعد فى وسعنا أن ننتظر لحظة واحدة. فالوقت يفوتنا . . . وقد سبق لى أن قلت قبل بضعة أشهر إن الحلفاء قد خسروا ، وها أنا أقول الآن إنهم خسروا الحرب والنصر معاً » . وكان يصر على أن الشعب الإيطالى الذى لقى من الإذلال والامتهان ما فيه الكفاية ، على استعداد للحرب الآن ، بل وهو متلهف على القتال ، وهو يخشى خشية شديدة من أن يضيع فرصة قد لا تلوح له ثانية . وراح يروى حديثاً هاتفياً دار بين صحفيين والتقطته له أجهزة مخابراته ، قال فيه أحدهما إن « الألمان يلتهمون كل شىء » . وستسقط حتى نيس نفسها فى أيديهم الآن . فرد عليه الآخر قائلا . . . « لا تقلق ، فالدوتشى يفكر فى كل شىء . والموضوع الآن ليس بموضوع حرب أو قتال ، وإنما هو موضوع عدم التغيب عند اقتسام الغنيمة » . لكن الشعب الإيطالى لم يكن فى الواقع ، كما أدرك معظم الزعماء الفاشيين وإن لم يجرأوا على التعبير عن إدراكهم ،

مستعداً للقتال أو متلهفاً عليه . فقد تحدث بوشيني إلى أصدقائه حديثاً طافحاً بالأسى ، وإن كان هؤلاء الأصدقاء قد شكوا فى أنه أعاد على مسامع الدوتشى آراءه المتشائمة ، عن الوضع الداخلى السيئ ، والفاقة المنتشرة فى البلاد ، والهبوط فى مكانه العهد وهيبته ، وقلق الشعب من الاشتراك فى الحرب ، وهذا هو الأهم . ولم يكن ثمة شك فى أن الشعب قد هلل لفصل عدد من الفاشيين الميالين إلى الحرب من مناصب الحزب القيادية فى أكتوبر الماضى ، إذ أن البلاد كانت تحس بالقلق اليائس من احتمال دخولها فى الحرب . وكان تهليله أشد لاستبدال ستراشى الذى كان دى بونو يلقبه « بالمهرج الشرير » فى سكرتيرية الحزب العامة ، بايتورى موتى ، صديق تشيانو . والرجل المقبول والأقل دعوة إلى الحرب . وكان الشعب بأسره ، ابتداء بالملك الذى منح قلادة « انونزياتا » الرفيعة الشأن لتشيانو لكسبه إلى صفه فى سياسته الحيادية وضمان تأييده له ضد عداء موسولينى المتزايد للملكية ، وانتهاء بالفلاحين الفقراء والعمال الصناعيين ، ضد اشتراك إيطاليا فى الحرب إلى جانب ألمانيا . ولم يكن ميثاق الفولاذ قد اكتسب شعبية فى البلاد فى أى يوم منذ توقيعه ، فجاء غزو الألمان لبولنده ، وجعله مكروهاً إلى النفس مقيتاً . وكانت فكرة جر البلاد إلى الحرب تحزن الكاثوليك الذين كانوا يخشون اضطرارهم للقتال تأييداً لعهد كان يناوئ الكثلكة مناوءة مكشوفة وصريحة ، كما كانت تزعج ذوى الميول الحرة الذين خافوا بأن تضع الحرب نهاية لآمالهم فى بعث الحرية واستعادتها . وأحزنت الفكرة أيضاً الوطنيين الإيطاليين الذين فزعوا من أن يؤدى نصر الألمان إلى نهاية استقلال إيطاليا ، كما أثارت الفاشيين الأوسع تفكيراً والأكثر إطلاعاً ، إذ أنهم كانوا يعرفون أن البلاد مفتقرة كل الافتقار إلى الاستعداد للحرب ، بالرغم من بيانات الحزب عن الإنفاق العام وإدعاءات الدوتشى بوجود « عدد من ملايين الحراب » . ولم يسبق لسمعة الفاشية أن هبطت إلى مثل هذا الدرك الذى هبطت إليه الآن . فقد شرعت تفقد دعم حتى ألئك الماليين الأثرياء من أمثال الكونت فولبى ، الذى عمل فى الماضى كثيراً لمد يد العون إليها فى أوقات ضائقتها . وفى مثل هذا الجو من التقزز والانحلال المعنوى . أعلنت إيطاليا موقفها « اللامحارب » فأحست البلاد بشىء من الارتياح أزاح عن صدرها الهموم . وفى هذا يقول المؤرخ الإيطالى لويجى سالفاتورى . . . « قد لا يكون من اليسير عرض صورة واضحة

عن مشاعر الرضى العامة والعميقة ، وأحاسيس الانفراج والراحة ، التى عمت الشعب بأسره من جراء إعلان موقف اللامحاربة ، بما فى ذلك الفاشيون أنفسهم » .

لكن الحقيقة المحزنة تظل قائمة ، وهى أن الشعب الإيطالى ، عندما اتضح له أن هذه المرحلة فى السياسة الإيطالية قد مرّت ، وأن بلاده تقترب من الحرب ، قابل ذلك بشيء من الاستسلام المتخدر الكريه ، إذ كان هذا الشعب قد بات فى منتهى الكسل والترهل بعد سبعة عشر عاماً من بث العقيدة الفاشية . فقبل ثلاثة أعوام ، صدر كتاب مدرسى ، فرضت الدولة قراءته على الأطفال فى المدارس الرسمية .. وتقول إحدى العبارات السفسطائية فى هذا الكتاب : « إن الطفل الذى يتساءل بالرغم من عدم رفضه الإطاعة، عن السبب ، يشبه حربة مصنوعة من الحليب . فقد قال الدوتشى وهو يشرح أسباب الطاعة ، إن عليكم أن تطيعوا ، لأن الطاعة واجبة عليكم » .

حقـًّا لقد كان تفسيراً ، نشأ الأطفال على قبوله . وقد أدرك موسولينى قبل بضع سنوات ، أن من الواجب عرض كل ما يقوله ، وكأنه حقيقة لا تقبل النقض او الشك . فمن الواجب عدم السماح للملكات الناقدة عند الشعب بالعمل ولا ريب فى أن أكثر القواعد التى يضعها الديكتاتور فاعلية ، هى أكثرها غموضاً ، بل وهى أكثرها ، وفى أحايين كثيرة خلواً من المعنى .

٦

كان هتلر قد اقترح فى نهاية شهر مايو عام ١٩٤٠ ، أن تشن إيطاليا هجومها بعد « تصفية المعاقل الإنجليزية والفرنسية البلجيكية » وبعد أن يكون الألمان قد باتوا قادرين على القلف بكل ثقل قواتهم على مدينة باريس . وقد وافق موسولينى على ذلك الاقتراح وكان يدرس فى تلك الآونة فكرة الشروع فى التدخل فى نهاية يونيو . ولكن عندما بدا الجيش البلجيكى على وشك الاستسلام ، قرر موسولينى أنه لم يعد فى وسعه الانتظار مدة أطول . وقد شجعه على ذلك ما اعتبره حماساً مفاجئاً من جانب الشعب الذى يريد « كالعواهر » أن يكون دائماً إلى جانب الظافر المنتصر . وأحس حتى تشيانو ، بأن مزاج الشعب قد تبدل ، وقد

دهش من أن يرى الناس يستقبلونه استقبالا حماسياً فى كل محطة مر بها القطار الذى كان يستقله عندما قام فى شهر مايو برحلة إلى الساحل الشرقى حيث سمع « أصواتاً كثيرة تطالب بالحرب » . وجاءت ايدا فى نفس الشهر إلى قصر البندقية لترى والدها ، ولتنقل إليه أن البلاد باتت تريد الحرب الآن ، وإن مواصلة السير على سياسة الحياد « محطة بشرف إيطاليا » . وأيد الماريشال رودلفو جرازيانى ، الفاتح الإيطالى للممتلكات الأفريقية ، والمؤيد للألمان وجهة النظر هذه .

وعندما وصلت إلى مسامع موسولينى أنباء استسلام الجيش البلجيكى فى الثامن والعشرين من مايو ، راح يستدعى ماريشال القوة الجوية ايتالو بالبو ورئيس أركان حرب القوات البرية الماريشال بيترو بادوليو ، ليبلغهما أنه قرر إعلان الحرب فى الخامس من يونيو . وروى بادوليو أنه قال للدوتشى إن إعلان الحرب انتحار . ورد موسولينى بشئ من الصلافة . . . « لست أيها الماريشال فى وضع كاف من الهدوء بحيث تستطيع فيه الحكم على الموقف . وفى وسعى أن أؤكد لك أن كل شىء سينتهى قبل شهر سبتمبر ، وأن كل ما احتاج إليه بضعة ألوف من القتلى لأجلس إلى مائدة الصلح كرجل اشترك فى الحرب» .

وكان وهو ينطق بهذا الحديث ، واقفاً وراء مكتبه وقد وضع يديه فى خاصرتيه ، متطلعاً بصرامة إلى الماريشالين القلقين . وكان الناس يرون أنه فى مثل هذه اللحظات يكون على استعداد للتحول فى رأيه فجأة من ناحية إلى الناحية المعاكسة ، واتخاذ القرارات المتناقضة التى يعدها بهدوء ويستوحيها بمكر ، وكانوا يقولون عن هذه اللحظات إنها لحظات الإلهام الخادع ، التى يبدى فيها براعة غريزية فى اتباع أساليب مكيافلى . ولكن الشىء الثابت ، أن بادوليو كان فى اليوم التالى ، كما قال تشيانو ، يعد للحرب راضياً هادئاً .

وتقرر بناء على طلب من هتلر ، تأجيل موعد دخول إيطاليا الحرب ، عدة أيام أخرى . وأخيراً ، راح موسولينى فى العاشر من يونيو بعد أن أعد العدة لتعيين نفسه قائداً أعلى للقوات الإيطالية فى الميدان مثيراً ضيق الملك ، بذلك ، ولكن دون أن يستفزه هذا الضيق على الاحتجاج ، يخرج إلى شرفة قصر البندقية ، حيث أطل على الجماهير الحاشدة التى ارتفعت هتافاتها ، ولكن بشكل آلى ، وقال بصوته

الجمهوري المرتفع . . .

« يا أيها المحاربون فى الأرض والبحر والجو . يا رجالنا من ذوى القمصان السوداء ومن أبطال الثورة . يا رجال الفرق المتطوعة ، يا رجال إيطاليا ونساءها ، ويا رجال امبراطوريتنا ومملكة ألبانيا ونساءهما . اسمعوا وعوا ... فقد دقت ساعة المصير فى سماء بلادنا . أنها ساعة اتخاذ القرارات التى لا رجوع عنها . فها نحن ندخل قائمة المحاربين ضد البلوتوقراطية والديمقراطية الرجعية فى الغرب . اللتين طالما أعاقتا طريق تقدمنا وتآمرتا على وجود الشعب الإيطالى نفسه . . .

« سبق لى أن قلت فى اجتماع خالد عقدناه فى برلين إن قواعد الأخلاق الفاشية ، تقضى بأن يسير الصديق مع صديقه حتى النهاية . وقد فعلنا هذا وسنفعله مع ألمانيا وشعبها ، وقواتها المسلحة الظافرة . . .

« وها هى إيطاليا الفاشية البروليتارية تقف للمرة الثالثة على قدميها قوية متكبرة ومتحدة ، بصورة لم يسبق لها نظير فى أى يوم مضى . وهناك كلمة سرية واحدة مفردة وقاطعة تربطنا جميعاً . وقد راحت هذه الكلمة تحلق فى الأجواء ، وتلهب الحماس فى الأفئدة من جبال الألب حتى المحيط الهندى ، داعية إلى النصر . أجل سننتصر . وسنقدم لإيطاليا أخيراً عهداً طويلا من السلام المصحوب بالعدالة ، مع عهد مماثل لأوربا والعالم . يا أبناء إيطاليا . . . هيا إلى السلاح . اظهروا شجاعتكم وصلابتكم وجدارتكم بالمجد » .

وكان موسولينى قبل بضع ساعات من هذا الخطاب قد نقل إلى السفيرين البريطانى والفرنسى ، نواياه بصورة أقل تمثيلا ومسرحية .

ويقول تشيانو إن السير برسى لورين ، تلقى ذلك « دون أن يطرف له جفن ، أو يتغير لون . واكتفى بأن يدون نص العبارات التى استخدمتها ، سائلا إياى عما إذا كان سيعتبرها مجرد معلومات مسبقة أو إعلاناً رسمياً للحرب . وعندما عرف أنها تعنى إعلان الحرب ، راح ينسحب بكبرياء وكياسة . وتبادلنا عند الباب مصافحة طويلة ودية » .

ولم تكن المقابلة مع فرانسوا بونسيه ، أقل وداً وكياسة .

وقد فاجأه تشيانو وكأنه يعتذر له بقوله . . . « أتوقع أن تكون قد فهمت السبب من استدعائى إياك . . . »

فرد فرانسوا — بونسيه ، وكأنه يبتسم . . . « لا ، فأنا لست مغرقاً فى الذكاء . أما الآن ، فلعلى قد فهمت الوضع » . وكان كزميله السير برسى لورين ، قد أدرك منذ حين ، أن الحرب واقعة لا ريب فيها ، وأن موسولينى كان قد قرر مصير بلاده .

وتلا تشيانو على مسامعه إعلان الحرب .

وعلق فرانسوا — بونسيه ، والألم يحز فى نفسه . . . « إنها ضربة خنجر توجه إلى ظهر رجل هوى ، لكن الشكر لكم لأنكم استعملتم قفازاً من الحرير فى حمل الخنجر » .

وأضاف قبل أن يغادر القاعة ، تحذيراً ، كان على تشيانو أن يذكره . . . « ولكن الألمان سادة قساة ، ولا ريب فى أنكم ستعرفون هذا » .

٧

وخيم جو من الصمت الحزين الرهيب على مدينة رومة فى تلك الليلة . وهو مراسل « التايمز » وهو فى طريقه إلى بيته لحزم أمتعته ، بطريق أومبرتو وبميدان سبانا دون أن يرى راية واحدة قد ارتفعت . وجاءه عدد من أصدقائه الإيطاليين يودعونه ، مارين بالشرطى الذى يقف حارساً على مدخل داره ، ووقفوا يتمتمون بجانبه ثم صافحوه بشيء من الحزن وكأنهم يعتذرون إليه .

وسبق لكافور[1] أن قال . . . «إن الهتافات فى الميدان لا يمكن أن تعتبر صورة للرأى العام .

---

(١) كافور — سياسى إيطالى ، كان رئيساً لوزراء مملكة سردينيا الإيطالية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، لعب دوراً بارزاً فى تحقيق الوحدة الإيطالية . « المعرب »

٢

القائد الأعلى

من ١٠ يونيو ١٩٤٠ حتى ٢٣ أكتوبر ١٩٤٢

. .. كانت لدى كرومويل فكرة رائعة . . . وهى السلطان المطلق فى والدولة ،عدم الحرب . .

سارت الحرب منذ البداية سيراً سيئاً بالنسبة إلى إيطاليا . فقد اتضح على الفور وبصورة مؤلمة ، أن البلاد غير مهيئة لخوض حرب رئيسية بالرغم من الحقيقة الواقعة ، وهى أن أكثر من نصف انفاق الدولة كان يصرف فى السنوات الثمان الأخيرة على الأهداف العسكرية ليس إلا . وكانت الحرب الأسبانية الطويلة ، قد استنزفت الكثير من الموارد الاحتياطية العسكرية غير الكافية ، وهى الموارد التى كانت الحرب الحبشية قد أضعفتها ، وهبطت بها إلى مستوى خفيض للغاية . ومع ذلك فإن السياسات غير المنسقة والمتناقضة التى اتبعتها دوائر الحكومة المختلفة قد سمحت بتصدير مخزونات قيمة للغاية إلى إنجلترا حتى بداية عام ١٩٤٠ ، وكذلك إلى فنلنده التى تضمنت الصادرات إليها أعداداً من الطائرات بعد هذا التاريخ[١]. وكانت معظم معدات الجيش إما من الطراز القديم أو من الطراز المنسوخ الذى بطل استعماله . ففرق المدفعية تستخدم مدافع كانت تستعمل منذ عام ١٩١٨ ، وكانت الفرق المدرعة المزعومة ، مفتقرة إلى السيارات ، حتى أن كارمين سينيز ، رئيس الشرطة ، قال إنها كانت تقترض بعض سياراته للقيام بالعروض العسكرية . وكان السلاح الجوى أيضاً سيىء الإعداد للغاية ، كما لم تكن لدى الأسطول ، حاملات طائرات ، أو سلاح جوى . وأثبتت التعبئة العامة التى جرت أيام غزو البانيا فى أبريل عام ١٩٣٩ ، أن أعداداً من الوحدات المسجلة كفرق على الورق ، لم تكن فى الواقع أكثر من مجرد بضعة أفواج ، وعندما حلت

---

(١) هناك مثل آخر على تناقضات السياسة الفاشية وارتباكاتها ، وهو أنه عند ما تم التوقيع على ميثاق مكافحة الشيوعية مع اليابان ، كانت هناك باخرة تحمل بعض التموينات إلى الصين ، ورغبة فى تجنب الحرج ، صدرت الأوامر إلى قبطانها بإغراقها على مقربة من الساحل الصينى . « المؤلف »

نهاية صيف ذلك العام ، اضطر موسولينى نفسه إلى الاعتراف ، بأن عشر فرق فقط من مجموع السبعين فرقة التى كان قد زعم أن الجيش الإيطالى يملكها ، صالحة للعمل . وكان رئيس أركان حرب الجيش قد ادعى فى مستهل عام ١٩٣٨ ، أن مخزونات الجيش وإنتاج المعدات والذخائر ، ستكون فى نهاية الربيع المقبل ، كافية لحرب واسعة النطاق .. لكن الجنرال كارلو فافا جروسا وكيل وزارة الإنتاج الحربى ، أعلن فى الواقع قبل نشوب الحرب بستة أشهر ، أنه لو استطاع تأمين جميع المعدات التى يحتاج إليها ، مما يتطلب تشغيل المصانع فى نوبتين (ورديتين) ، فإن أقرب موعد ، يمكن للبلاد أن تكون متأهبة فيه للحرب ، سيكون فى أكتوبر عام ١٩٤٢ . وكان الجنرال فال ، وكيل وزارة الطيران قد قال إن لدى إيطاليا أكثر من ثلاثة آلاف طائرة صالحة للعمل ، بينما كان مجموع ما لديها ، لا يعدو فى الواقع ألف طائرة . وكان الجنرال باريانى وكيل وزارة الحرب ، قد أقنع موسولينى بأن فى إمكانه تعبئة ثمانية ملايين رجل فى غضون بضع ساعات ، بينما لم يكن فى الإمكان فى الواقع تعبئة أكثر من نصف هذا العدد فى غضون عدة أسابيع ، مع تحقيق ذلك على حساب الصناعة والزراعة بشكل مفجع . وحاول الأميرال كافانارى وكيل وزارة البحرية ، أن يظهر الحالة السيئة التى تسود مختلف الدوائر والوزارات لا وزارته وحدها والتى تجعلها غير مستعدة للحرب ، ولكن الدوتشى كما روى الأميرال ، لم يتأثر على الإطلاق بأقواله ، ولم يكن يقبل النصيحة . وحاول دى بونو ذات يوم ، أن يحذر موسولينى من تصديق أقوال فال « الأحمق » وباريانى « الخائن » ، ولكن موسولينى لم يصغ إليه ، مما جعله يقول . . . « إنه لا يصدق إلا ما يريد أن يصدقه » . وكان رافائيلو ريكاردى ، وزير التجارة ، دائم التحذير له من المتاعب الاقتصادية التى تواجهها البلاد ، ولكنه كان يرد بمنتهى البلادة ، أن الحكومات لا تهوى بسبب المتاعب الاقتصادية ، وكان يؤثر أن يستمع إلى ثاؤون دى ريفيل وزير المالية ، الذى كان يقول له إن كل شىء على ما يرام ، وأن فى مكنة إيطاليا أن تصبح ثرية من بيع روائع الفن . وكثيراً ما تساءل الوزير . وقد مل من موقفه . . . « ترى ما الذى يصنعه الدوتشى ؟ إنه كما يبدو غارق فى شؤون التدريب ليس إلا » .

ولكن بالرغم من أن قدرته على خداع نفسه ، كانت بلا حدود كما يبدو ، لم يكن ثمة شك فى أن موسولينى كان يعرف تمام المعرفة أن بلاده غير مستعدة للحرب . وقد اعترف بهذه الحقيقة بعد انهيار إيطاليا النهائى فى حديث له مع الأميرال موجيرى ، قائلاً إن إيطاليا كانت أفضل استعداداً قبل الحرب العالمية الأولى ، منها قبل الحرب العالمية الثانية . فقد اشغل وزارات القوى الحربية الثلاث منذ عام ١٩٢٥ حتى النهاية ولم يتخل عنها إلا فترة قصيرة بين عامى١٩٢٩ و١٩٣٣ ، وبالرغم من رغبته فى أن يصدق ما يريد أن يصدقه ليس إلا ، وأن يتجاهل ما يسيئه ، وفى أن يدفع بالعمل إلى مساعديه من غير الأكفاء ، وأن يشغل نفسه بمشية الأوزة أو بموعد تبديل الملابس الشتوية بالملابس الصيفية أكثر من انشغاله بالقضايا المهمة والملحة حقاً ، وأن يضحى بالحقيقة على مذبح الدعارة وبالواقع على مذبح الأمل ، إلا أنه كثيراً ما وجد نفسه مرغماً على أن يدرك ، بأن ما يقدم إليه من معلومات وأرقام ، لا تفتقر إلى الدقة فحسب ، بل ومضللة كل التضليل أيضاً . وكتب تشيانو فى أبريل عام ١٩٣٩ يقول . . . « وهو يعتقد أن وراء الظواهر التى يحافظ الجميع عليها إلى حد كبير ، ليس ثمة إلا القليل » . وتلقى بعد خمسة أشهر أى فى الثامن عشر من سبتمبر ، تقريراً من جرازيانى يبين أن هناك عشر فرق ليس إلا متأهبة للقتال ، لا تلك الأعداد الضخمة التى كثيراً ما نباهى بوجودها كقوى تصلح للخط الأول . أما الفرق الخمس والثلاثون الأخرى ، فمرقعة ، وغير كاملة ، وسيئة الإعداد » . وذكر تشيانو « أن الدوتشى اعترف بهذه الحقيقة ، وأطلق بعض العبارات التى تنطق بالمرارة عن الوضع الفعلى للجيش ، الذى كان فى هذه الآونة فى منتهى السوء » . وبعث الجنرال فافا جروسا فى اليوم الذى سبق اعلان الحرب مباشرة إلى موسولينى بتقرير قاتم للغاية عن افتقار إيطاليا إلى الاستعدادات مؤكداً بوجه خاص على نقص وسائل الدفاع ضد الطائرات .

لكن موسولينى كان مصمماً على أى حال على المضى إلى الحرب لا « لأن الأخلاق الفاشية تتطلب ذلك » فحسب ، بل ولأنه كان على يقين من أن الصلح سيتحقق قبل أن تتكشف حقيقة الادعاءات الفاشية الزائفة . وتبينت ثقته من أن الحرب ستنتهى قريباً ، من الحقيقة الواقعة ، وهى أنه لم يصدر أية أوامر بوقف

عمليات البناء فى مكان المعرض الذى تمتد مساحة أرضه مئات الأفدنة ، والذى كان من المقرر أن يدهش العالم بأسره فى خريف عام ١٩٤٢ ، كما أن عمليات التسريح سارت على قدم وساق فى خريف عام ١٩٤٠ بعد انهيار فرنسا ، وبعد أن اتضح أن الغزو الألمانى لإنجلترا بات وشيك الوقوع . ولما كان مهتماً بالغ الاهتمام ، بأن يحقق جيشه تقدماً رمزياً على الأقل وراء جبال الألب ، قبل أن ينهى الألمان الحملة كلها ، فقد أصدر أمره بالهجوم فى غضون ثلاثة أيام بالرغم من أن مستشاريه كانوا قد نصحوه بأن الجيش فى حاجة إلى ثلاثة أسابيع على الأقل ، لإعداد العدة لمثل هذا الهجوم . وعندما طلبت فرنسا الهدنة بعد أقل من أسبوع واحد من إعلان الحرب ، وقبل أن يحقق أى نصر رمزى ، أحس بالقلق والفزع ، وراح يسافر إلى ألمانيا ليجتمع إلى هتلر ، ليبحث معه فى الشروط التى يجب فرضها على فرنسا ، واعياً تمام الوعى ، وبحزن بالغ على حد تعبير تشيانو ، إلى أن رأيه لن يحمل أكثر من « الطابع الاستشارى » . ومضى تشيانو فى يومياته يقول . . . « فقد كسب هتلر الحملة كلها دون أى إسهام عسكرى فعلى من جانب إيطاليا ، وستكون لهتلر بالطبع ، الكلمة الأخيرة فى الموضوع . ولا ريب فى أن هذه الحقيقة أحزنت موسولينى وأزعجته . وكانت آراؤه فى الشعب الإيطالى ، ولا سيما فى القوات المسلحة فى منتهى المرارة . . . ويخشى الدوتشى فى الواقع ، أن تكون ساعة الصلح قد دنت ، وهو يرى أن ذلك الحلم الذى عاش حياته كله دون أن يحققه ، وهو المجد فى حومة الوغى أخذ يختفى من أمامه من جديد » .

وازداد تذمر موسولينى من الشعب الإيطالى مرارة وشدة مع ورود الأنباء إليه عن الطريقة المفتقرة إلى الحماسة ، التى كان هذا الشعب يخوض الحرب فيها . وكان تذمره من دخول الحرب أصلا ، ولا ريب فى أنه سمع بهذا التذمر بالرغم من بياناته العامة المتكررة ، قد أوصله إلى حدود الهياج الغاضب . وكان شتاء عام ١٩٣٩ — ١٩٤٠ الشديد البرودة قد أثلج صدره . وكان يرقب الثلوج وهى تتساقط فى شهر ديسمبر ويقول . . . « لا ريب فى أن هذه الثلوج والبرد الذى يفوق الحد ، مناسبان لنا تماماً . فبهذه الطريقة يمكن تحسين الشعب الإيطالى الذى لا يصلح لشىء ، والذى يمثل دون الوسط فى درجته . وكان من أهم الأسباب التى

دعتنى إلى الأمر بتحريج جبال الايبنين ، أننى أرغب فى أن يصبح طقس إيطاليا أكثر برداً وثلوجاً » . وعندما وقعت أزمة خطيرة فى موجودات الفحم فى شهر يناير ، سر غاية السرور من جديد ، إذ أن من الخير تعريض الشعب لمحن تجعله يطرح عن نفسه كسل القرون القديمة العقلى » فعلينا أن نبقى على انضباط الشعب ، وأن نجعل أفراده يرتدون البزة العسكرية ليلا ونهاراً . آه لو كان فى إمكاننا أن نضربهم ونضربهم ونضربهم » .

وكان يشكو دائماً ويقول ... « إننى بحاجة إلى المادة الخام لأصنعها . فقد كان ميشيل انجيلو فى حاجة إلى الرخام ليصنع تماثيله منها . ولو افتقر إلى الرخام ولم يجد إلا الصلصال بين يديه ، لما أصبح إلا مجرد صانع للخزف . فالشعب الذى قضى ستة عشر قرناً يمثل دور السندان ، لا يمكن أن يصبح مطرقة فى غضون بضع سنوات » . وكان يطلق على الإيطاليين اسم « شعب من الأغنام » . ولم تكن الثمانية عشر عاماً التى انقضت على العهد الفاشى كافية لتغيير طبيعة هذا الشعب . وظل طيلة أيام الحرب يتحدث بهذه اللغة . فكل هزيمة منى بها بل وكل نكسة ، تقع مسئوليتها فى رأيه الغاضب على هذا الشعب « الناعم الذى لا يسوى شيئاً » . والذى جعل منه الفن شعباً هشًّا قابلاً للكسر ، بينما ظل كل نصر يحققه الألمان ، يثير فى نفسه لهفة حزينة على فرص تقليدهم ووسائله . وكان تفكيره يقبل كل إيماءة إلى نصر إيطالى ركأنها حقيقة واقعة لا تلبث الصحافة أن تتحدث عنها ، إلى أن غدت الخيالات حقائق ووقائع ، وباتت التقدمات الطفيفة انتصارات ضخمة ولم يكد شهر واحد يمضى على نشوب الحرب ، حتى كان يصر إصراراً أعمى على تصديق جميع الأنباء المتألقة التى تلقاها عن القوة الجوية الإيطالية ، وعلى أن الأسطول الإيطالى قد « أزال من الوجود نصف القوة البحرية البريطانية الموجودة فى البحر الأبيض المتوسط » . زكان يرضى عن الأنباء الطيبة التى يتلقاها من جبهات القتال ، ويثور أشد الثورة عندما يخيب أمله أو تصله أنباء مزعجة ، مما دفع الكثيرين من قادته العسكريين إلى إخفاء الأنباء التى قد تثيره عنه ، مكتفين باطلاعه على الأنباء التى ترضيه ، ومهولين فيها فى معظم الحالات . ويبدو أن المسئولين فى حكومته قد أخفوا عنه الحقيقة الرهيبة ، وهى أن موازنة الدولة لعام

١٩٤٠ – ١٩٤١ ، تعرضت لعجز قدره ثمانية وعشرون ألف مليون ليرة إيطالية .

ولما كان قد فشل فى توجيه ضربة قاصمة ورابحة إلى فرنسا . فقد ظل يتطلع بفارغ الصبر إلى هدف آخر . وراح يدرس فكرة توجيه هجوم ضخم على مصر من ليبيا حيث تعزز الجيش الإيطالى تعزيزاً كبيراً ، كما درس فكرة الهجوم على يوجوسلافيا . وكان قد ذكر للماريشال جرازيانى فى توجيه حربى وجهه إليه ، قبل إعلان الحرب . . . « علينا أن نجبر يوجوسلافيا على الركوع على ركبتيها . فنحن فى حاجة إلى المواد الأولية ، وعلينا أن نحصل عليها من المناجم اليوجوسلافية » وقد حذره الألمان من الهجوم عليها ، مخافة إثارة عدد كبير من « الكلاب » فى أوربا الشرقية ، بينما نصحه جرازيانى بعدم القيام بهجوم على مصر لأنه يمثل مشروعاً خطيراً ، لم تكن الإعدادات له مهيأة على الإطلاق » . لكن موسولينى أصر على رأيه ، وأعلن فى الجلسة التى عقدها مجلس الوزراء فى السابع من سبتمبر ، إنه ما لم يقع الهجوم فى يوم الاثنين التالى ، فإن جرازيانى سيستبدل بقائد آخر . وبالرغم من أن جميع القادة الذين كانوا يعملون تحت إمرة جرازيانى هذا ، كانوا ضد فكرة الهجوم ، كما قال قائدهم ، فقد اضطر إلى الإذعان ، وأصدر أوامره بالشروع فيه . وعلق تشيانو فى يومياته على ذلك بقوله ... « لم يسبق لأية عملية عسكرية أن وقعت ضد رغبة القادة المسئولين عنها كهذه العملية » . لكن الواقع أن جرازيانى وبادوليو ، ما كانا ليجرءا على الإصرار على وجهات نظرهما فى حضور الدوتشى .

وبدأ الهجوم فى الثالث عشر من سبتمبر . ولم تمض أيام أربعة ، حتى كانت ست فرق ، وثمانية أفواج من الدبابات ، قد تقدمت مسافة ستين ميلا إلى سيدى برانى ، ويقول تشيانو إن « الفرح الغامر استبد بموسولينى » . ولم يسبق أن شهد الناس الدوتشى فى مثل حالته من « الفرح الطاغى ، والمزاج المرح » ، كما شهدوه فى الرابع من أكتوبر . لكن الجيش الإيطالى توقف عند سيدى برانى ، وظل جرازيانى ثلاثة أشهر ، يرفض التقدم . بينما يصر موسولينى على القيام بهجوم خاطف على المواقع البريطانية فى مرسى مطروح .

وفى هذه الأثناء ، اختار موسولينى ضحية جديدة له ، ليظهر امتعاضه ،

كما قال أحد جنرالاته ، من قادته العسكريين ؛ وليعرض استقلاله عن هتلر. فمنذ بداية شهر يوليو ، كان الجنرال دى فيشى ، الحاكم العام فى الدوديكانيز ، قد بعث ببرقية يقول فيها إن طائرات البريطانيين وسفنهم تجد الملجأ والوقود والمؤن فى مطارات اليونان وموانئها . وأخذ يعد العدة منذ ذلك الحين لهجوم على اليونان ، وراح يعلن فى الثانى عشر من أكتوبر أنه وصل إلى قراره النهائى . فقد اعترف دون أى من وخز الضمير ، بأن احتلال هتلر غير المتوقع لرومانيا هو الذى دفعه إلى قراره هذا ، وراح يحدد موعد الهجوم بنهاية الشهر . وذكرته حركة هتلر ضد رومانيا ، بتكتمه السابق فى عملياته السابقة فى الغرب ، وراح يقول . . . « ما زال هتلر يصر على أن يواجهنى دائماً بالأمر الواقع . وسأدفع له هذه المرة دينه ، بنفس العملة التى يستخدمها . وسيقرأ فى الصحف أننى احتللت اليونان . وسنعيد بذلك التوازن إلى وضعه السابق » . ولم يكن قد توصل بعد ، كما ذكر ، إلى اتفاق مع بادوليو ، ولكن لو أن أحداً فكر فى معارضة الهجوم ، فإن عليه أن يقدم « استقالته من الجنسية الإيطالية » . وكتب إلى هتلر فى الثانى والعشرين من أكتوبر يطلعه على نواياه ، وكان هذا فى طريقه إلى « هينداى » ليقوم بالمحاولة الفاشلة فى إقناع فرانكو بالدخول فى الحرب . وقد أرّخ موسولينى رسالته بتاريخ سابق هو التاسع عشر من أكتوبر ، وحرص أشد الحرص ، على أن لا يتسلمها هتلر إلا بعد أن يكون الوقت قد فات على إثارة أية اعتراضات .

وأيد تشيانو هذه المرة الدوتشى فى فكرته لأنه اعتبر أن الهجوم الإيطالى على اليونان ، يحد من توسع النفوذ الألمانى فى البلقان ، لكن القادة العسكريين ، عارضوها أشد المعارضة . فقد وقف رؤساء القوات المسلحة الثلاث ضدها ، مشيرين بشىء من الإحجام إلى متاعب الحرب الجبلية وصعوباتها فى مثل هذا الوقت المتأخر من العام . لكن قرار موسولينى كان فوق قرارهم . ونقلت المخابرات العسكرية معلومات مزعجة ولكنها دقيقة عن القوة المحتملة للمقاومة اليونانية ، فاعتبرها موسولينى معلومات مغرقة فى تشاؤمها إلى حد السخف . وبعد أن غيّر موسولينى موعد الهجوم أكثر من مرة ، بل خمس مرات فى ربع ساعة ، كما يقول الجنرال أرميلينى ، حزم الدوتشى رأيه أخيراً ، واجتازت الجيوش الإيطالية حدود اليونان تغزوها فى الثامن

والعشرين من أكتوبر ، أى فى موعد الذكرى السنوية للزحف على رومة . ومضت ستة أسابيع ، اضطر موسولينى إبانها ، إلى قبول استقالة بادوليو المجهد ، من رياسة أركان حرب القوات الإيطالية المسلحة ، وإلى الاعتراف فى جلسة عقدها مجلس الوزراء بأن الوضع فى منتهى الخطورة ، بل وبأنه قد يصبح مفجعاً . وقرر موسولينى أن هذا الوضع يقيم دليلا جديداً على أن الجيش ولا سيما كبار ضباطه ، يمثلون مصدر عار لإيطاليا . فقد فشل هذا الجيش من جديد فشلا ذريعاً . وراح يشكو بثورة وحشية . . . « إن المادة الإنسانية التى يتحتم علىّ العمل معها لا تساوى شيئاً ». وعندما عاد ستراشى من جبهة القتال ، راح يؤيد نظرة موسولينى هذه مصدراً « حكماً قاسياً على سلوك قواتنا وتصرفها ، إذ أنها لم تحارب أبداً ، وإن حاربت ، ففى منتهى السوء » . وقرر الجنرال أوبالدو سودو وكيل وزارة الحربية الذى كان موسولينى قد بعث به إلى البانيا ليرى بنفسه حقيقة ما هو حادث هناك ، عند عودته فى الرابع من ديسمبر ، أن الوضع العسكرى يائس للغاية ، ولا يمكن إصلاحه ، وأنه يتطلب « عملا سياسياً لتعديله » . واستدعى موسولينى وزير خارجيته تشيانو إلى قصر البندقية وواجهه فور وصوله بقوله . . . « لم يعد فى وسعنا أن نفعل إلا شيئاً واحداً ، رغم بشاعته وسخافته . لكنها حقيقة مرة ، وعلينا أن نواجهها . أجل علينا أن نطالب هدنة عن طريق هتلر » . ولم يسبق لتشيانو أن رآه من قبل ، على نحو ما كان عليه فى ذلك اليوم من يأس .

وكان ثمة كل ما يبرر يأسه . فقد سبق لهتلر أن نصحه أشد النصح بعدم غزو اليونان ، لأن هذا العمل ، سيثير الاضطراب فى البلقان ، وكان قد قصد إلى إيطاليا على الفور بعد اجتماعه بالماريشال بيتان فى مونتوار وبفرانكو فى هينداى ، ليحاول اقناع موسولينى بعدم القيام بهذا الهجوم المفجع . ولكن الأنباء وصلته ، وهو فى قطاره المتجه إلى فلورنسه للاجتماع بالدوتشى ، وقبل ساعتين من وصوله . أن الوقت قد فات ، إذ أن القوات الإيطالية قد اجتازت حدود اليونان تغزوها . وبالرغم من أن هتلر قد كبت عواطفه تمام الكبت . ومضى إلى حد وعد إيطاليا بتأييده الكامل فى الحملة اليونانية ، فقد عاد موسولينى إلى رومة ، مقتنعاً من أن

عمل إيطاليا قد أزعجه كل الإزعاج ، مخافة التأثير على خططه المقبلة وشلها . وراح يتلقى من ألمانيا بعد ثلاثة أسابيع من هذا اللقاء ، وبعد أن بدا الفشل الحتمى والمخزى نتيجة هذه الحملة ، تأكيداً لانطباعه هذا . ولم يكتف هتلر فى رسالته هذه ، بتذكير حليفه ، بأن حملة اليونان ستدعو يوجوسلافيا وبلغاريا وفيشى وتركيا إلى المزيد من التردد فى إقحام نفسها فى الحرب إلى جانب المحور ، كما ستؤدى إلى قلق روسيا على البلقان ، الذى قد يثير تهديداً جديداً من ناحية الشرق ، فى الوقت الذى تمكنت بريطانيا فيه من الحصول على قواعد فى اليونان تستخدمها فى قصف رومانيا وجنوب إيطاليا من الجو . وأضاف أن نتائج المغامرة اليونانية ستؤدى إلى تأجيل العمليات المقررة فى الصحراء ضد مصر ، وإلى أن تبعث ألمانيا بقوات إلى تراقيا لمحاربة البريطانيين فيها ، بالرغم من أن أى إجراء فى هذا السبيل لن يتم قبل حلول العام الجديد . وعلق موسولينى على هذه الرسالة بكثير من الأسى قائلا . . . لقد ضربنى الفوهرر هذه المرة على أصابعى عقاباً لى »[١].

وها هو وكيل وزارة حربيته ، يأتيه مقترحاً عليه طلب الهدنة من اليونانيين ولكنه راح يسمح فى النهاية لتشيانو بإقناعه بأن الوضع لم يبلغ بعد هذا الحد من السوء، وإن فى الإمكان تثبيته بمساعدات المانية فورية وكبيرة . واستصحب تشيانو معه إلى قصر البندقية ، دينوالفيرى ، سفير إيطاليا فى برلين ، الذى كان يقضى فترة النقاهة من مرض أبل منه فى رومه . . . وكتب هذا يقول . . .

« وجدت الدوتشى غارقاً فى أعماق وجومه ويأسه . ولم يسبق لى أن رأيته قط فى مثل هذه الحالة من انحطاط المعنويات . وكان وجهه شاحباً ونحيلا ، بينما كانت أسارير وجهه تنطق بالأسى والهموم . وزاد من مظهره البشع هذا ، أنه كان يرتدى قميصاً ذا قبة مقلوبة واسعة . وكانت ذقنه طويلة لم تحلق منذ يومين على الأقل . وراح يلاطفنى بدماثة غير معهودة فيه ، مما دلل على اضطراب تفكيره ،

(١) تقول وثائق هتلر – بورمان التى نشرت فى عام ١٩٦١ ، إن هتلر اعتبر خطأ موسولينى أكبر عمل أدى إلى فشله فى الحرب ، ولا ريب فى أن هتلر ، اعتبر فى أخريات أيامه ، أن تحالفه مع إيطاليا ، كان العقبة الرئيسية فى طريق نجاحه . وقد حال هذا التحالف أيضاً بينه وبين التقرب إلى العرب والأفريقيين عن طريق رفع شعار مناهضة الاستعمار . لأن حليفته إيطاليا كانت من الدول الاستعمارية .

إذ عرف عنه أنه كان يضع على وجهه دائماً مع مرءوسيه ، قناعاً من الجمود والسلبية ، وأخذ يسألني عن أحوالي الصحية ، وعما إذا كنت قد أبللت من سقامي . .. وظل يخطو حول مكتبه الضخم ، خطوات قصيرة ، يشغل ذهنه تفكير عميق فى فكرة سيطرت عليه ، وراح يتحدث عن برقية سودو محاولاً أن يسبر أغوار الأسباب التى دعت الجنرال إلى التهويل فى خطورة الوضع . وظل يمسك بيمناه ، وبعصبية بينة ذقنه ووجهه ، متنقلا بنظره بينى وبين تشيانو ، وكأنه ينشد التأييد لنظرياته ولتبريرات آماله منا » .

لكن آماله كلها ، كانت سراباً فى سراب . ولم يرغم على طلب الصلح من اليونانيين ولكنه أرغم على الاعتماد على مساعدة ألمانيا ، لإنقاذه من الورطة التى وقع فيها . وكان هذا مر المذاق على كرامته وهيبته . وبينما ظلت برقية سودو تؤرق عليه مضجعه ، وتبعث فى نفسه الأسى ، مما دفعه إلى التفكير فى تأليف جيش المستقبل من سكان وسط إيطاليا وشمالها ، تاركاً بقية البلاد لتؤلف « جيش الأرستقراطية المعادى » ، جاءته رسالة هتلر ، تحمل الطمأنينة ، وتخلو من التأنيب ، وإن لم تخل من معنى فرض الوصاية ، تقول إن الترتيبات تعد الآن ، ليتدخل الألمان فى حرب اليونان . وقامت مجموعة من الضباط اليوجوسلاف ، قبل الانتهاء من أمر هذه الترتيبات ، بانقلاب ضد حكومتها التى كانت قد وقعت قبل أيام على ميثاق يشد يوجوسلافيا إلى المحور . وكان رد فعل هتلر فى منتهى العنف . فقد أصر على وجوب سحق يوجوسلافيا « دون رحمة أو إشفاق » ، وعلى الشروع فى عملية « ماريتا » ضد اليونان فى الوقت نفسه . ولم تمض عشرة أيام على انقلاب بلجراد ، حتى كان هتلر فى الخامس من أبريل ، وبعد أن كان قد طلب إلى موسولينى وقف العمليات فى ألبانيا لبضعة أيام ، ليتمكن من نشر قواته الإيطالية على الحدود اليوجوسلافية ، قد أبلغ حليفه ، بأن هجوم القوات الألمانية على يوجوسلافيا واليونان سيبدأ فى اليوم التالى ، واقترح أن تكون جميع القوات الإيطالية ، خاضعة لأوامر القيادة الألمانية ، فأقر موسولينى هذا الطلب دون استشارة قادته العسكريين .

وبدأ الهجوم الألمانى فى السادس من أبريل ، وكان فى منتهى الضراوة ،

فحقق نصراً كاملا فى بضعة أيام . ففى السابع عشر من أبريل ، استسلمت يوجوسلافيا ولم تمض عشرة أيام حتى كان الألمان قد احتلوا أثينا . وقبل الألمان استسلام اليونان وخططوا حدود يوجوسلافيا دون مشاورة الإيطاليين . وبالرغم من أن هتلر حاول فى الخطاب الذى ألقاه فى الرايشستاج تخفيف وطأة الضربة التى وجهت إلى كبرياء موسولينى فوصف التدخل الألمانى بأنه « إجراء احتياطى لمنع البريطانيين من تثبيت أقدامهم فى البلقان » ونفى أنه كان . . . يقصد مساعدة الإيطاليين ضد اليونان » ، إلا أن أحداً ، وفى المقدمة موسولينى نفسه ، لم يشك لحظة واحدة فى الحضيض الذى هوت إليه مكانة إيطاليا فى عيون ألمانيا بل والعالم كله . ووجد الفيبرى نفسه فى برلين مضطراً إلى الاستماع إلى انتقادات هتلر الموجهة إلى العمل الإيطالى ، وإلى سلوك القوات الإيطالية . وروى الفيبرى هذا فيما بعد أن « الفوهرر كان يتحدث بلهجة استفزازية عنيفة ، ولم يسألنى خلافاً لعادته عن أنباء موسولينى » .

ولم تكن أحداث اليونان ويوجوسلافيا هى وحدها التى كشفت عن موقف التبعية الذى تقفه إيطاليا . فقد وصلت الأنباء فى العاشر من ديسمبر إلى رومة عن الهجوم الذى وقع على مراكز الإيطاليين فى سيدى برانى . وقد أذهل موسولينى وزيره تشيانو ، بموقف الهدوء وعدم الاكتراث الذى وقفه مركزاً آماله على أن يتمكن الماريشال جرازيانى من الصمود فى وجه هجوم العدو . ولكن هذه الآمال ، سرعان ما انهارت كغيرها من آماله فى ذلك الشتاء . ففى مساء نفس اليوم ، كان البريطانيون قد أسروا ما لا عد له ولا حصر ، من الجنود الإيطاليين . وروت قيادة فوج حرس جولد ستريم البريطانى فى تقريرها أن « عدد الأسرى من الضباط يملأ خمسة أفدنة من الأرض ومن الجنود مائتى فدان » .

وروى تشيانو فى يومياته . . . « فى مكنتنا أن نقول إن أربع فرق قد دمرت عن بكرة أبيها » . واعترف موسولينى فى اليوم التالى أن إيطاليا قد منيت بهزيمة شنيعة . وعند ما حل مطلع شهر يناير ، كانت « البردية » قد سقطت ، واضطر الجيش الإيطالى المترنح ، وكانت بعض وحداته قد قاتلت ببسالة تثير الإشفاق ضد قوات تفوقها قياداً وأعداداً ، إلى التقهقر إلى طبرق . واحتفظ موسولينى بهدوئه .

بل كان كما وصفه تشيانو « هادئاً بشكل يفوق طاقة البشر » وذلك فى الجلسة التى عقدها مجلس الوزراء فى السابع من يناير ، إذ قال ، أن لكل جواد كبوة ، ولكل جيش هزيمة . ولكنه وجد من العسير عليه أن يخفى مشاعر الذعر من الإجراءات التى أعدها هتلر لمساعدته . فقد أدرك أن روميل ، قائد عسكرى لامع ، إلا فى حالات أزماته القاسية ، ولكن كان من المؤلم له أن يقبل الحقيقة الواقعة ، وهى أن هذا الضابط الألمانى وحده ، ومعه حفنة صغيرة من القوات الألمانية ، قد تمكن فى غضون بضعة أسابيع قليلة من وصوله إلى أفريقيا الشمالية ، من تغيير صورة الوضع الحربى كله فى المنطقة . وكان يقارن بشىء من الأسى بين روميل الذى لا يكاد يفارق دبابته المكشوفة على رأس أرتاله المهاجمة وبين جرازيانى الذى ظل « يقبع فى قبوه الرومانى الذى يهبط إليه بسبعين درجة تحت الأرض » ، فيرى أن الانتصارات التى تحققت فى الصحراء ، انتصارات ألمانية لا إيطالية . وأمر بمثول جرازيانى أمام محكمة للتحقيق ، فقضت بلوم ذلك الرجل الذي لم يعد يحس تجاهه إلا بالازدراء على تصرفه . وأرضت النتائج التى توصلت إليها المحكمة ، بادوليو غاية الرضى ، إذ كان يكره من صميم فؤاده هذا الزميل ذا الشعبية الواسعة ، لكنه كان يعرف ، كما عرف موسولينى نفسه ، أن الذنب ليس بذنب جرازيانى وحده . فقد حصلت المخابرات الإيطالية ، وهى من أنجح أجهزة الجيش الإيطالى ، على رسائل سرية أمريكية تظهر الجيش البريطانى فى أفريقيا الشمالية فى منتهى الضعف فى العدد والعدة . وكان فى مكنة أى قائد حتى ولو كان أقل كفاية من جرازيانى أن يوقف البريطانيين برجال دربوا تدريباً صحيحاً على القتال ، لو كانت لديهم الرغبة فى القتال ، وكانوا مزودين بالمعدات اللازمة له . وراح جرازيانى يتساءل فى رسالة بعث بها إلى زوجته .. « ولكن ماذا يستطيع الإنسان أن يفعل . هل يستطيع تحطيم الدروع برؤوس الأظافر وحدها » فبادوليو الذى تولى رئاسة أركان الحرب منذ عام ١٩٢٦ والذى كان مسئولا عن خطط أركان الحرب والبحوث الخاصة بالتسلح ، أكثر من خمسة عشر عاماً ، وموسولينى الذى أغمض عينيه عن عجز بادوليو الفاضح ، لا بد أن يشتركا أيضاً فى المسؤولية عن ضعف الجيش وفشله . ولكن فى الوقت الذى كان

فيه بادوليو وجرازيانى يتبادلان التهم بالمسؤولية كان موسولينى يوجه الملامة إليهما معاً .. ويعرب عن سخطه بانعكاسات غاضبة يتصور فيها انتصارات الألمان المذهلة. وعندما أصدر هتلر أمره بترقية رومل إلى رتبة الماريشال ، تذمر موسولينى من أن هذه الترقية كانت وسيلة « لإضفاء الصبغة الألمانية على المعركة »،وراح يرد على ذلك بترقية الجنرال الكونت أوجوكافاليرو خليفة بادوليو فى رئاسة أركان حرب القوات المسلحة إلى رتبة المشير (الماريشال) . وإن كان رأيه فيه لا يزيد على رأيه فى أى من جنرالاته الآخرين . ويقول دى بونو . . . « يتميز كافاليرو بالتفاؤل . ولعل هذا هو السبب الوحيد الذى جعل الدوتشى يؤثره على غيره » . وكان بالإضافة إلى ذلك مفرطاً فى خضوعه على حد قول تشيانو ، وكان « فى إمكانه أن ينحنى إلى المراحيض العامة خضوعاً لو أنه عرف أن ترقية تكون عن طريقها »[1].

وبالرغم من سخط موسولينى وغله ، فقد ظل هتلر ، يقف منه شخصياً موقف الود والتفهم . فمهما كان رأيه فى الإيطاليين عموماً،فإن احترامه « لدوتشيهم » ، كان لا يزال على حاله من القوة والوضوح . وكان حتى فى شهر نوفمبر ، عندما كان الوضع على أسوأ ما يكون من الاضطراب فى جبهة اليونان ، قد آثار عواطف تشيانو ، عندما بادره قائلا والدموع تترقرق فى جفنيه . . . « من هذه المدينة فيينا مدينة الوحدة مع ألمانيا (الانشلوس) ، أبعث إلى الدوتشى ببرقية أؤكد له فيها أننى لن أنسى ما حييت مساعدته ، وإننى لأؤكد له اليوم أننى أقف إلى جانبه بكل ما لدى من قوى » . وعند ما اجتمعا فى يناير فى عش النسر بعد كارثة أفريقيا الشمالية ، كان هتلر فى منتهى الود لموسولينى . وكان موسولينى ، خجلا كل الخجل من فشل جيشه ، حتى أنه سافر إلى ألمانيا وهو فى حالة من ثورة الأعصاب والخشية من الاجتماع . وكان قد طلب تأجيل الاجتماع مرتين ، أملاً فى ورود أنباء أفضل من الجبهات عن القوات الإيطالية ، كما قام بنصف محاولة لإلغاء الزيارة كلياً . لكنه اتخذ طابعاً ودياً إلى الحد الذى دعا تشيانو ، إلى وصف وضع موسولينى

---

(١) كان تشيانو متحيزاً فى رأيه فى هذه القضية كما فى غيرها أيضاً . فقد كان على أحسن العلاقات مع ابنة كافاليرو ، وهى زوجة فرانسيسكو جاكوموني ، ، حاكم ألبانيا ، حتى قيل إنها عشيقته . وكان المعروف فى رومة فى تلك الأيام أن تشيانو ، أيد الهجوم على اليونان لأنه كان يهتم اهتماماً شخصياً بتوسع ألبانيا . « المؤلف »

النفسي بعد انتهائه بالانتعاش ، « كرد فعل طبيعي على لقائه بهتلر » . وعندما وصل الوفد الإيطالى إلى محطة بونش وجد الفوهرر فى انتظاره على الرصيف والثلج يتساقط على معطفه الجلدى الطويل ، وقد انسدلت قبعته على أذنيه . وتوقفت عربة « البولمان » التى يستقلها موسولينى أمام الفوهرر مباشرة ، وهبط الدوتشى منها ببطء متجهاً إلى مضيفه ، ليصافحه وقد أخذ الواحد منهما يتفرس فى وجه الآخر . وكان موسولينى قد قال قبل لحظات من وقوف القطار . . . « لا أعتقد أن فى عروقى قدراً كافياً من الدم ، بحيث يصطبغ وجهى حياء منه عندما أراه » . ونطقت أساريره بصورة جامدة قاسية على حد تعبير السفير الإيطالى ، وعندما شرع فى تبادل الحديث مع هتلر ، انطلقت على وجهيهما ابتسامتان مصطنعتان .

واجتمع السفير إلى موسولينى وحده للحظات قبل الشروع فى الاجتماع الرسمى ، وأبلغه أن هتلر على استعداد تام لتلبية أية طلبات قد يتقدم بها للحصول على معونة ألمانيا . وقاطعه موسولينى بشىء من الخشونة قائلاً . . . « ليس لدى ما أطلبه منه » .

وحقاً لم يطلب موسولينى شيئاً ، فقد سمح لهتلر بأن يحتكر معظم الحديث ، مكتفياً بالجلوس فى مقعد وثير مريح ، من المقاعد التى تكتظ بها قاعات الاجتماعات الألمانية ، وبالتعليق بين آونة وأخرى ، بينما واصل الفوهرر عرض معرفته الشاملة بالمشاكل العسكرية ، وتحديد خططه لحلها ، بذكاء ترك انطباعات عميقة فى نفوس الفييرى وتشيانو ، والجنرال القصير البدين الفريدو جوزونى القائم بأعمال كافاليرو فى رئاسة أركان الحرب ، نظراً لغياب الأخير فى أفريقيا الشمالية . وكان هتلر بادي الرضى والانشراح ، إذ كان تفكيره منصرفاً إلى الهجوم المقبل على روسيا ، وهو الهجوم الذى تكتم فى خططه وتفاصيله تمام التكتم مع الإيطاليين . لكن كبرياء موسولينى تأثرت بالغ التأثر ، بما تصوره من مهانة لحقت ببلاده ، من جراء إصرار الألمان ، على وقف محاولاته لتحسين علاقاته مع موسكو ، وإشاراتهم الواضحة إلى أنه بالنظر إلى عجز إيطاليا عن تأمين الجنود القادرين على الحرب ، فإن عليها أن تؤمن مزيداً من العمال الصناعيين لألمانيا وذلك حتى يتجاوب مع حب هتلر وثقته المطمئنة . وقد اضطر إلى الاعتراف للسفير الإيطالى بأن الفوهرر كان « مهذباً وودوداً ومتفهماً ، ولكنه

أفرط فى ذلك كل الإفراط . ولا ريب فى أنه مصاب بشىء من الجنون . فعندما حدثنى قائلاً بأن ليس ثمة من عاش أكثر منه معى فى آلامى ، وأحزانى ، كانت عيناه تغرورقان بالدمع . لا ريب فى أنه كان يغالى فى كل هذا ، فقد حرص أشد الحرص ، على أن يحملنى على الشعور بلطفه وكرمه ، وقوته وتفوقه » .

وكان موسولينى يبدو أثناء وجبات الطعام منكباً على طعامه ، يأكل من الصفحة التى أمامه ، وقد وضع « فوطته » إلى صدره . فكان يأكل قليلا وبسرعة بالغة . وكان يصغى إلى حديث هتلر بذلك الطراز من التركيز الذي يخفى فى الواقع ، ضيقاً شديداً ، وعندما كان يحاول الاشتراك فى الحديث ، كان التلعثم يسيطر عليه وكأن الألمانية لغة نسى الحديث بها . وأثار منظره عند تناول الشاى فى اليوم الأول الإشفاق ، عندما كان يحاول أن ينأى بمقعده عن النار الشديدة الحرارة المشتعلة فى الموقد محتسياً قدحاً من الشاى ، بينما كان هتلر يلتهم كمية ضخمة من البسكويت والفطائر المحشوة بالمربى ، وكان جورنج ، مزهواً ببزته الرائعة الجديدة ، يتحدث ويتحدث .

وقد تكررت صورة هذا الاجتماع من جديد بعد ستة أشهر أى فى أغسطس عام ١٩٤١ ، عندما قام موسولينى بزيارة الفوهرر فى مقر قيادته فى الجبهة الشرقية ، ليقوم بجولة فى ميادين القتال . ويقول السجل الإيطالى الرسمى عن هذا الاجتماع ... « وقد وجد الدوتشى أن من المناسب السماح للفوهرر بالحديث عن اقتراحاته بمنتهى الحرية والصراحة . وقد اهتبل هتلر الفرصة ، وظل يتحدث بلا توقف ساعتين ونصف الساعة . ولم ينقذ موسولينى من الاستماع إلى ثرثرته ، إلا مغادرتهما المكان متجهين إلى الجبهة » .

ولم يتلق الإيطاليون اشعاراً بالهجوم الألمانى على روسيا إلا فى الساعة الرابعة والنصف من صباح الثانى والعشرين من يونيو . فقد استدعى السفير الإيطالى الفيبرى ، إلى دار وزارة الخارجية حيث أبلغه ريبنتروب ، أن الجيوش الألمانية عبرت فى الساعة الثالثة من صباح ذلك اليوم الحدود زاحفة على روسيا . وكان موسولينى لا يزال فى فراشه عندما رن جرس الهاتف فى دارته فى ريسيونى ، فردت زوجته راشيل ، ونقلت الرسالة إلى زوجها . وذكرت راشيل فيما بعد للصحفى برونو

داجوستيني أن زوجها استقبل النبأ بتأثر بالغ ، ثم قال لها . . . « اسمعي يا عزيزتي راشيل . . . إن هذا يعني أننا خسرنا الحرب » . ولكن لم تمض بضع ساعات حتى كان تشيانو ينقل إلى الفيبرى عن طريق الهاتف رسالة من الدوتشي إلى الفوهرر . يقول فيها إن إيطاليا تعتبر نفسها في حالة حرب مع روسيا منذ الساعة الثالثة من ذلك الصباح ، ثم طلب من السفير أن يعمل « كل ما في وسعه لإقناع الألمان بالموافقة على اقتراح الدوتشي بإرسال حملة إيطالية للاشتراك في حرب روسيا »[1] .

وبالرغم من أن برلين لم تستقبل هذا العرض بإرسال القوات الإيطالية بالترحاب ، إلا أن موسوليني كان مصراً على أن يبعث بها ، مؤكداً في مجالسه الخاصة أن القضية لا تتعلق بكبريائه الشخصية وحدها . فعلى إيطاليا أن تسهم في تحقيق نصر سريع . وكان يرى أن روسيا إن لم تهزم في الأشهر الستة الأولى فلن تهزم أبداً . وأخيراً تم إرسال مائتي ألف جندي إيطالي كان في وسعهم أن يغيروا مجرى الحرب في أفريقيا الشمالية ، بالرغم من نصيحة جميع الجنرالات الإيطاليين المسئولين ، إلى الجبهة الشرقية للقتال إلى جانب الألمان . وكان ما أصابهم هنا من رعب من معاملة الألمان الفظيعة للمدنيين الروس ، وما وجدوه هم من سوء معاملة بعد انهيار ستالينجراد حيث احتكر الألمان جميع وسائل النقل كما فعلوا في شمال أفريقيا في عام ١٩٤٢ ، من الأسباب الكثيرة التي أدت إلى إضعاف الحلف العسكري بين ألمانيا وإيطاليا .

وظل موسوليني يراقب تحركات قواته في روسيا باهتمام كان يشغله آناء الليل وأطراف النهار . وكانت الصحافة تنقل دقائق كل ما يقومون به من نشاط مهولة من أنباء انتصاراتهم في الوقت الذي تقلل فيه من قدر الانتصارات الألمانية . وطرب موسوليني عندما نمت إلى مسامعه أنباء المقاومة العنيدة التي واجهتها جيوش الألمان في مينسك . وكثيراً ما سمع يقول . . . « إن كل ما آمل فيه شيء واحد ، وهو أن يفقد الألمان في حربهم في الشرق ، الكثير من ريشهم » . وقد اتضح موقفه هذا

---

(١) كان موسوليني قد أصر أيضاً على إشراك حملة إيطالية مع القوات الألمانية في غزو إنجلترا ، في عام ١٩٤٠ . وكانت إيطاليا قد عرضت عشر فرق وثلاثين سرباً من الطائرات « تلبية لرغبة الدوتشي الملحة » « المؤلف »

أثناء طوافه بالجبهة الشرقية . وعندما استعرض فرقة تورين التى يقودها الجنرال ميسى ، انزعج أيما إزعاج ، لرؤيته الرجال نظيفى الثياب ، حليقى اللحى ، وهم يمرون به فى شاحناتهم المصادرة من الروس ، والتى تسير فوق الطرق التى تغطيها الوحول . ولم يستطع إخفاء خيبة أمله ، فى أن هتلر لم ير فيهم المحاربين الذين تركت المعارك آثارها فى وجوههم وأجسادهم . وكان الجنود الألمان يبدون على النقيض من ذلك جفاة غلاظاً ، وعندما مضى هتلر إليهم يحدثهم ويثير ضحكهم بالنكات التى يطلقها ، والتى يصغون إليها بدافع الواجب ، كان موسولينى يظل واقفاً على منأى متحدثاً إلى الماريشال « فون رونشتادت . وكثيراً ما اشتكا فيما بعد إلى الفييرى بشىء من المرارة بقوله . . . « كان فى وسع هتلر ، أن يأخذنى معه وهو يتحدث إلى جنوده ، بدلا من أن يخلفنى مع رونشتادت العجوز . أرأيت ما أبعد الفوهرر عن روح الجندية وهو يتحدث إلى رجاله ؟

وأراد فى وقت لاحق من ذلك اليوم أن يظهر لهتلر أنه يستطيع أن يفعل شيئاً لا يستطيع هتلر أن يفعله ، فمضى إلى باور قائد طائرة هتلر الخاصة ، وبعد أن تحدث إليه بعض الحديث وطرح عليه بعض الأسئلة عن الطائرة التى كان يستقلها مع الفوهرر ، أعرب عن رغبته فى أن يتولى قيادتها بنفسه . وعندما مضى إلى هتلر ، يسأله إذا كان يستطيع قيادة الطائرة ، تطلع الفوهرر إلى من حوله بقلق ، فهو لا يريد أن يرفض طلب ضيفه ولكنه يود أن يجد أحد مرافقيه عذراً لرفض الطلب دون أن يجرح عواطف الدوتشى . ولمح باور نظرة زعيمه فأحنى رأسه ، مشيراً إلى أنه فهم قصده وأن فى وسعه أن يطمئن . ووافق هتلر آنذاك على أن يتولى الدوتشى قيادة الطائرة ، ولكن هتلر ظل بقية الرحلة معلقاً أنظاره بظهر باور ، ليطمئن ، وخيل لالفييري أن انتباه هتلر لم ينصرف لحظة واحدة عن النظر إلى الدوتشى .

وصدرت على إثر انتهاء الزيارة بلاغات رسمية حددت فيها دول المحور أهدافها الحربية ونظامها الجديد لأوربا ، كرد على ميثاق الأطلسى الذى كانت بريطانيا وأمريكا قد أصدرتاه مؤخراً ، وضمن موسولينى هذه البلاغات قدرته كطيار إذ قال لسفيره الفييرى ، وهو يوجهه بالبيانات اللازمة لوكالة ستيفانى الإيطالية الرسمية

للأخبار ، . . . » وفى وسعك أن تضيف حسب تقديراتى أننى قطعت ٣٣٠٠ ميل فى القطار و ١٢٥٠ ميلا فى الجو وسبعمائة ميل بالسيارة . ولعلك تتبين أن فى وسعى أن أقوم من جديد بنفس الرحلة » .

ويقول الفيبرى . . . « وكان وجهه ينطق بالابتسام ، وهو يحدثنى بهذا الحديث ، ويتفرس فى بشىء من الرضى الصبيانى » .

لكن هذه الزيارة لهتلر ، كانت الأخيرة فى زياراته السعيدة . ففى مستهل يناير من العام التالى ، وصل جورنج إلى رومة ، وقد ارتدى كما قال تشيانو « معطفاً »رائعاً من فرو السمور ، هو وسط بين ما كان يرتديه راكبو الدراجات النارية فى عام ١٩٠٦ وبين ما ترتديه عاهرات الدرجة الأولى فى أيامنا هذه : « وقد اقترح أن يقوم موسولينى برحلة أخرى إلى ألمانيا . وكان هتلر يريد أن يبعث فى الدوتشى روحاً جديدة ، بعد أن فقد الكثير من معنوياته فى تلك الأيام الحزينة من ذلك الشتاء ، فدعاه إلى شلوس كليشايم . ودون تشيانو فى يومياته ، وصفاً حانقاً لهذا الاجتماع فقال . . . « وكان هتلر يتحدث ويتحدث ويتحدث . وكان موسولينى يعانى الكثير من ذلك ، فقد ألف هو نفسه على أن يكون المتحدث دائماً وأن يصغى الآخرون إليه ، ولكنه يجد نفسه مضطراً الآن للإصغاء . وحل اليوم الثانى ، وكان الحديث قد نضب بينهما ، وما كادا يتناولان الغداء ، حتى انطلق هتلر من جديد يتحدث لمدة ساعة وأربعين دقيقة بلا انقطاع . ولم ينس فى حديثه أى موضوع من المواضيع ، إذ تناول الحرب والسلام والدين والفلسفة والفن والتاريخ . وظل موسولينى يرقب ساعة يده ، متطلعاً إليها بين الفينة والأخرى . وكنت مشغولاً فى بعض القضايا التى تهمنى ، بينما كان كافاليرو وحده . وهو فريد فى استخذائه وتبعيته ، يبدو مصغياً لكل كلمة يقولها هتلر بشغف ، يومئ برأسه بعلامات الموافقة والتأييد . وكان الألمان على أى حال أشد خشية منا من هذه المحنة التى يعانونها ، فقد تحتم على هؤلاء المساكين أن يحتملوها فى كل يوم ، ولست أشك فى أنهم لم يحفظوا عن ظهر قلب كل كلمة يقولها ، وكل إيماءة تصدر عنه ، ووقفة يقفها . وظل الجنرال يودل يكافح طويلا قوة احتماله ، ثم أغرق فى سبات عميق على مقعده . أما كايتل فقد ظل يتثاءب ولكنه أفلح فى مقاومة الإغفاء » .

وراح هتلر بعد ذلك يقارن نفسه بنابليون ، ثم أسر إلى الدوتشي بأنه يعيش « فى حمى العناية الإلهية » . وعلق موسولينى وهو فى طريق العودة إلى إيطاليا على كل ذلك بقوله . . . « لا أدرى حقاً ، لم طلب منى الفوهرر أن أمضى للقائه » .

وكان فى وسعه بعد ثلاثة أشهر أن يوجه مثل هذا السؤال بالنسبة إلى كافاليرو هذه المرة . وكان قد انقضى أكثر من عام عليه ، وهو ينتظر فرصة مواتية لزيارة أفريقيا الشمالية ، إذ أصدر أوامره إلى الجنرال كافاليرو ، بأن يبرق إليه مستدعياً إياه بعبارة واحدة ، عندما يصبح على يقين من أن الجيش الإيطالى قد شرع فى زحف سيوصله إلى قناة السويس . ووصلت البرقية فى السابع والعشرين من يونيو ، عندما كان الأمل سائداً فى أن هجوم رومل المضاد الذى دحر البريطانيين إلى ما وراء حدود مصر ، سيستمر فى قوته واندفاعه . ولكن عاصفة جوية حالت دون رحيل موسولينى لمدة يومين ، وعندما وصل أخيراً إلى ليبيا كان البطء قد حل محل سرعة الزحف ، ليتوقف أخيراً عند العلمين[1] واشتد سخطه على القائد العسكرى الذى عرضه لهذه السخرية ، إذ استدعاه إلى الجبهة فى مرحلة غير مواتية ، كما وقع عند غزو اليونان ، وقضى ثلاثة أسابيع تعيسة فى ليبيا يطوف فيها مؤخرة الجبهة ومعه عدد من الجنرالات الإيطاليين الذين هبطت معنوياتهم ، محاولا تشجيعهم بالوعود يغدقها عليهم ، فى أن كل جهد ممكن سيبذل ، للوصول بالمؤن عبر البحر الأبيض المتوسط ، وأن قافلة بحرية لابد وأن تعبر البحر عما قريب . وأكد لهم أن الخطط تعد الآن لاحتلال جزيرة مالطة ، وآنذاك ستظل الطرق البحرية مفتوحة على مصراعيها ، لكن سامعيه لم يستطيعوا إخفاء شكوكهم فى صحة ما يقول .

وعاد موسولينى إلى روما فى العشرين من يوليو عام ١٩٤٢ . وكان يبدو فى غاية الإجهاد والمرض . وأعلن بيان رسمى أن ما أصابه من إجهاد نتيجة الواجبات التى يؤديها قد عرضه للإصابة بالإسهال الأميبى . ونقل إلى دارته الريفية فى روكاديل كامنياتى ، وسرعان ما انتشرت الشائعات ، فى روما بأنه نقل إلى هناك ليموت فى دارته . وقال أحد وزرائه . . . « من المحتمل أن يكون فى طريق الموت ،

---

(١) بين موسولينى فى كتابه « قصة سنة » الذى أعده بعد عامين ، أن الثامن والعشرين من يونيو عام ١٩٤٢ ، كان نقطة التحول فى الحرب ، وفى تاريخ حياته .

ولكن لا بفعل الإسهال (الدوزنطاريا) ، فهذا مرض مألوف لا يقتل ، وإنما بفعل ما أصابه من إذلال » .

وكان تشخيص هذا الوزير معقولا . فقد مضى إلى ليبيا تستثيره آمال النصر فى أفريقيا الشمالية ، حتى إنه شرع فى إعداد تفاصيل خطته للحكم العسكرى الإيطالى — الألمانى فى مصر ، ثم وجد نفسه يواجه وضعاً لم يستطع حتى كافاليرو المغرق فى تفاؤله وثقته إلا أن يصفه « بالخطورة » . ووجد نفسه مضطراً أيضاً إلى تقبل فكرة التخلى عن الخطط الموضوعة لاحتلال مالطه ، بعد أن أبلغه هتلر أن تنفيذها بنجاح بات مستحيلا بسبب هبوط الروح المعنوية الإيطالية هبوطاً كبيراً . وكان عليه أن يقبل بخفض كبير فى شحنات الفحم والزيت من ألمانيا ورومانيا ، إلى بلاده ، إذ أن الحكومة الألمانية لم تعد ميالة إلى تسليم « الزيت الثمين إلى أيد سيئة » على حد تعبير أحد الملحقين فى السفارة الألمانية فى رومة ، بالرغم من كل ما فى تعبيره من قسوة وخشونة . وتحتم عليه مع مضى أيام تلك السنة القاسية ، أن يقرأ وأن يسمع تفاصيل قيام الوحدات الألمانية بمصادرة وسائل النقل على الجبهة الشرقية لاستخدامها فى نقل قواتها المتراجعة مخلفة وراءها ، الوحدات الإيطالية ، لتتراجع وسط الثلوج مشياً على الأقدام . وكان عليه أيضاً أن يواجه الحقيقة الواقعة ، وهى أن الألمان لم يشرعوا فى فقد ثقتهم فى عزيمة الإيطاليين على الحرب فحسب ، بل وأخذوا يقومون بالخطوات الفعلية أيضاً لحماية أنفسهم من النتائج المحتملة لانهيار إيطاليا . وقد عين الملحق العسكرى الألمانى فى رومه « ضابط ارتباط » لدى القيادة العامة الإيطالية ، كما وصلت عدة وحدات ألمانية إلى إيطاليا بحجة « التدريب » ، وأوفد الماريشال كيسلرينج إلى إيطاليا ليصبح قائداً أعلى فى الجنوب . وكانت هناك أيضاً أنباء مزعجة عن تشكيل خلايا ألمانية فى المدن الإيطالية الكبيرة ، وعن خطط تعد لاحتلال البلاد عسكرياً ، وعن إقامة حكومة تابعة من « الدمى » برئاسة روبرو فاريناتشى ذى الميول الموالية للألمان والعبد لإرادتهم .

وأخذت العلاقات تسوء بين ألمانيا وإيطاليا شهراً بعد شهر . وكانت هناك مواضع عدة أثارت تذمر موسولينى وشكاواه ، ومنها معاملة العمال الإيطاليين

السيئة فى معسكرات العمل الألمانية ، وتذمر الشعب الإيطالى من تصدير عدد كبير من الروائع الفنية الإيطالية إلى الرايخ ، ورفض الإيطاليين أن يكونوا على حد تعبير جوبلز أكثر من مجرد « مفرطين فى التراخى » ، واستياء الألمان من « معاملة الإيطاليين لليهود » ، وتردد هتلر المستمر فى الموافقة على اتباع سياسة أكثر تشدداً مع فرنسا ، التى كانت ممتلكاتها فى البحر الأبيض المتوسط ، تؤلف مصدراً مستمراً من مصادر الاحتكاك فى العلاقات بين دولتى المحور .

وكان موسولينى يكثر من القول بأن ألمانيا اتبعت سياسة بعيدة عن الذكاء تجاه فرنسا لأنها لم تقم « باحتلالها كلها وقت الهدنة » . وكانت هناك أيضاً شكاوى دائمة ومتزايدة من جانب الألمان ولا سيما من جانب جورنج ، الذى كانت أقواله تثير غضب موسولينى ، ثم ما لبث أن تبناها هتلر الذى ضمنها رسائله الخطية ، مؤكداً أنه لو لم تهاجم إيطاليا اليونان ، لدخلت أسبانيا الحرب ، ولسقط جبل طارق فى أيدى المحور . ولا ريب فى أن جميع هذه الخلافات خلقت توتراً فى العلاقات بين البلدين ، وهى العلاقات التى لم تكن فى يوم ما منسجمة ، مما يؤدى إلى اقتناع موسولينى فى النهاية من أن استمرار الأمور على هذا النحو سيؤدى إلى أن تجد إيطاليا نفسها « فى حالة حرب مع الألمان تنفيذاً لإملاءات الشرف والواجب التاريخى » . وأصبحت مثل هذه الاقوال مألوفة من جانب موسولينى . فقد أضحى يثور على الألمان الذين سرت إليهم عدوى « جرائم الانهيار» ، لما يقومون به من « أعمال بربرية تخلو من كل منطق وعقل » ، وعلى شعبه هو لما يظهر فيه من « رحمة مستخذية » ، وأصبحت ثوراته هذه المشيرة إلى مزاجه السيئ ، شيئاً مألوفاً ، تماماً كالتحولات فى طبيعته ومزاجه . فهو ينتقد فى أحد الأيام فرانكو على نكرانه للجميل ، ليعود فيطريه فى اليوم التالى على صموده فى وجه الضغط الألمانى . وهو يتحدث فى المساء ، بكثير من التشاؤم مطلقاً نبوءاته السوداء عن سير الحرب ، ليعود فى الصباح فيقبل التأكيدات التى تصدر عن مستشاريه الأكثر طمأنينة وثقة ، وليتحدث كما قال تشيانو « فى شكل ينبض بالتفاؤل ، عن الانتصارات ، واحتمالات الهجوم ، واستعادة الموقف فى أفريقيا » . ولم يعد ذلك الإنسان الحائر ، فى أفكاره فحسب ، بل بات ذلك الإنسان الذى يقف

مواقف غير مستقرة عن وعي وتصميم . فقد هدد بالحرب ضد ألمانيا ، ولكنه عاد بعد بضعة أيام فأكد تصميمه على السير مع ألمانيا جنباً إلى جنب حتى النهاية » . وهو يرى فى رومل حيناً إنساناً « مجنوناً » ، ولكنه لا يلبث أن يراه فى وقت آخر ، « أحد عظماء قادة العصر العسكريين » .

ولم يعد موسولينى يظهر بصورة عامة بعد صيف عام ١٩٤٢ إلا فيما ندر . وكان الناس ينظرون إليه ، إذا ما ظهر أمامهم بكثير من العطف المندهل ، وكان لا يزال يدفع فكه الأسفل إلى الأمام إذا ما وقف أمام المصورين ، ويفتح عينيه على سعتهما ، لكن وجهه كان قد فقد تلك الحيوية التلقائية التى جعلت منه فى يوم ما وجهاً يأسر المتطلع إليه . وكان سمنر ويلز قد وجد فيه قبل ثلاث سنوات رجلا « يبدو أكبر من عمره الحقيقى وهو ٥٦ عاماً ، بخمسة عشر عاماً على الأقل . فهو دائم التفكير وقد تحول إلى الجمود من الحركة والحيوية . وبات متثاقل الخطى كالفيل ، وكأنه يبذل جهداً ضخماً فى كل خطوة يخطوها . وكان الترهل قد صاحب بدانته ، وبدت التجاعيد فى وجهه ، أما شعره القصير فقد أصبح أبيض كالثلج » . وبعد شهر من زيارة ويلز ، أصيب السكرتير العام الجديد للحزب الفاشى ، ايتورى موتى بالذهول من صورة الإجهاد وكبر السن فى وجه الدوتشى . ولحق القلق بتشيانو أيضاً ، لكن هذا كان يعزى نفسه بالتصور بأن الحالة التى يعانى منها الدوتشى ، مؤقتة لا تلبث أن تزول .

ولكن تشيانو كان جد مخطئ فى رأيه . فنى صيف عام ١٩٤٢ ، كانت سنتان من الحرب . قد ألحقتا الانهيار بحالة موسولينى الصحية ، حتى أن أحد أطبائه ، بدأ يشك فى احتمال بقائه أمداً طويلا على قيد الحياة . ورأته إحدى السيدات فى دارة تورلونيا فى نهاية ذلك الصيف فقالت : . . . « لم يعد الدوتشى يبدو إنساناً حقيقياً على أى حال . إنه صورة كاريكاتورية لما كان ، بل جثة تكاد تكون هامدة » .

القسم الثالث

سقوط العملاق

١

الحرب تسير سيراً سيئاً

من ٢٣ أكتوبر ١٩٤٢ إلى ٢٣ يناير ١٩٤٣

« القدر . . . إن الساسة لا يتحدثون عنه إلا عند ما يخطئون . . . »

عندما حل خريف عام ١٩٤٢ ، وكان قد انقضى أكثر من عامين على الحرب الكريهة ، كانت المعارضة للألمان وللعهد الفاشى ، قد انتشرت فشملت إيطاليا كلها . وتكاثرت الاعتقالات اليومية للمثقفين فى رومه وميلان والعمال فى نابولى وصقلية[1]. وانتشرت الإضرابات ، وشرعت الشرطة فى إطلاق النيران فى حالات كثيرة فوق رؤوس الجماهير الغاضبة ، كالطريقة الوحيدة التى تلجأ إليها لتفريق التظاهرات . وبدأ الاشتراكيون فى جنوه والشيوعيون فى جنوه يوزعون المنشورات السرية ويمزقون المنشورات الفاشية المعلقة على الجدران ويضعون محلها منشورات تطلب الحرية والسلام . وأخذت الصحف غير الفاشية تؤيد المعارضة بصورة حذرة ، وتلهب مشاعر النقمة عن طريق الإشارة إلى النقص فى التموين وصفوف المواطنين التى تنتظر التوزيعات ، بالرغم من حظر نشر مثل هذه الأمور. إلى أن قامت السلطات بإغلاق عدد منها وبينها صحيفة أوجى . وتم تقنين جميع المواد الغذائية بما فيها الخبز والخضار واللحم والأوز والبيض ، ولم تعد الشرطة تتدخل فى السوق السوداء التى اتسعت مجالاتها وتعقدت وأصبحت عسيرة على السيطرة ، إذ أن الحكومة أصدرت مرسوماً يتسم بالعجز قررت فيه دون أية إجراءات أخرى خفض أسعار جميع السلع بنسبة عشرين فى المائة .

وبات ألوف الفلاحين فى الجنوب فى خطر المجاعة ، واضطر الفقراء فى طول

(١) تجمع المصادر على أن الحكم الفاشى الذى ظل يقبض على ناصية السلطة فى البلاد بيد من حديد نحواً من عشرين عاماً ، بدأ يتقلص ويضعف نفوذه فى السنة الثالثة من الحرب بعد أن انهارت المعنويات الإيطالية من جراء الهزائم التى منى بها الجيش الإيطالى .

البلاد وعرضها إلى المزيد من حزم بطونهم بعد أن جاعوا ، إلى الثقب الأخير فى أحزمتهم وقد أطلقوا عليه اسم « ثقب موسولينى » . فقد كانت الحرب ، حربه الخاصة ، وهو الذى قادهم إليها ، وكان هؤلاء الألمان الذين يسيرون فى كل مكان وكأنهم جنود قوة محتلة ، أصدقاءه لا أصدقاء الشعب الإيطالى . وهم لن يفعلوا شيئاً لإنهاء الحرب . وهذا ما كان الإيطاليون يحدثون بعضهم بعضاً به ، مكررين نكتة شعبية بلهجة ساخرة ، من أنهم سيحاولون كسبها كآخر إجراء . ولكنهم كانوا فى الواقع قد توقفوا عن التفكير فى النصر ، وظلو ينتظرون بكثير من الاستسلام المشفوع بالأمل ، وقوع الهزيمة ، مصغين إلى إذاعات لندن وإلى أية إشارة قد تصدر عنها .

وتقبل موسولينى هذه الانهزامية وذلك اليأس من جانب شعبه كدليل جديد على عدم جدارته بأن يعتبر أكثر من « شعب تافه لا يصلح لشىء ». وإنه «لا يعرف إلا الغناء وتناول المثلجات » . وكان يقول إن إيطاليى عام ١٩١٤ كانوا أحسن منهم ، لكنه لم يكن قادراً على أن ينكر أن هذا كان نتيجة للعهد الذى أقامه . أما الجيش « فلا نفع فيه » ، وأما قادته ، فجميعهم من « المشلولين » . ولم يكن أمراء البحر أحسن من قادة الجيش حالا . أما البورجوازيون فهم فى الحقيقة « منحلون وأنانيون » وهم « أسوأ الإيطاليين قاطبة » . وبالرغم من أنه كان يسمح لنفسه بمثل هذه الهجمات المتكررة والمتعددة التى يوجهها إلى شعبه . فإنه كان يثور أشد الثورة إذا حاول الألمان تأييد آرائه هذه .

وسلمته مخابراته ذات يوم نص حديث هاتفى جرى بين أحد ضباط الأركان فى مقر القيادة العامة للقوات الألمانية فى إيطاليا ، وبين ضابط ألمانى آخر فى برلين ، وصف فيه الأول الإيطاليين بأنهم « شعب المكرونة » كما أشار إلى وجوب احتلال إيطاليا فى وقت قريب . وانصرمت أيام طويلة ، وهو لا ينفك عن تكرار التهديدات التى دأب مؤخراً على توجيهها ، والتى لم يحس قط بالتعب من ترديدها معيداً على مسامع تشيانو ما سبق له أن قاله له ، من أنه يعد ملفاً عن جرائم الألمان وإهاناتهم ، وإنه « سيستخدمه عندما تحين اللحظة المناسبة » .

وكان فى غضون ذلك ، قد قيّد نفسه بالتحدث فى كثير من الحالات وفى

المناسبات العامة عن فضائل اليابانيين وانتصاراتهم ، رامياً من ذلك كما هو واضح إلى الاستهانة بألمانيا . وراح فى إحدى خطبه يعلن أنه « أشد نصير لليابانيين فى العالم » ، ثم أنهى خطابه معلناً « أن جنود إيطاليا واليابان سيسيرون جنباً إلى جنب نحو النصر مع الجيوش الأخرى لدول الحلف الثلاثى » دون أن يذكر اسم ألمانيا . وراح فى مناسبة أخرى يتلو تقريراً تلقاه عن المعاملة السيئة التى يلقاها العمال الإيطاليون فى معسكرات العمل الألمانية ، حيث لا يعاملون كعبيد أرقاء مكروهين ، ولا يضن عليهم بأى مظهر من مظاهر الحفاوة فحسب ، بل وحيث يجلدون فى حالات كثيرة عقاباً على التمرد أو الكسل، ويوكل إلى الكلاب الشرسة بمراقبتهم ، ثم انفجر ساخطاً يقول . . . « ولا ريب فى أن مثل هذه الأمور لابد وأن تخلق كرهاً دائماً فى صميم فؤادى . ولابد لى فى النهاية من تصفية الحساب . فقد انتظر هذه التصفية سنوات طويلة، ولكننى لن أسمح لكلاب « الهون »[١] المتعطشة للدماء، بافتراس أبناء ذلك الشعب الذى وهب الإنسانية قيصر ودانتى[٢] وميشيل انجيلو » .

ولم يقدم احتجاجاً مباشراً إلى الألمان على هذه المعاملة على أى حال ، مؤثراً الاعتماد على عادة الألمان فى الاستماع إلى المحادثات الهاتفية بين رومة وبرلين : إذ ظل سنوات طويلة يرى فى هذه الطريقة الأسلوب المقبول لنقل شكاواه إلى ألمانيا . وأصدر تعلياته إلى تشيانو بأن يثير الموضوع مع ماكنزن ، السفير الألمانى ، وكأنه يقوم بذلك من نفسه ، ودون أية أوامر من الدوتشى الذى يجب ، اعتباره وكأنه لا يعرف شيئاً عن هذا الموضوع » . ولا ريب فى أن هذا التردد فى التدخل شخصياً كان طالع ذلك الموقف العقلى الذى وقفه من الألمان ، والذى أنزل الكوارث المفجعة بإيطاليا . فهم فى رأيه « برابرة أفظاظ » ، يحاولون أن يتسلطوا على إيطاليا لتنفيذ أهدافهم ، وهم الآن كما كانوا فى عام ١٩٣٦ منحطون بدائيون لا ذوق لهم ولا فكر » . فهم فى رأيه « كلاب قذرة يأخذون اللحم من إيطاليا ، ولا يتركون لها إلا العظم » ، بل هم « نصابون لا يوثق بهم » ، وعليهم أن يتركوا الإيطاليين وشأنهم . وكثيراً ما سمع وهو يقول . . . « عليهم أن يذكروا

---

(١) قبائل الهون من قبائل الجرمان البرابرة وهو اسم يطلق على الألمان .

(٢) دانتى الليجييرى — شاعر إيطاليا المشهور وصاحب الكوميديا الإلهية .

أننا فقدنا إمبراطورية بسببهم . وهناك شوكة تحز فى فؤادى ، فقد أضعنا إمبراطوريتنا بينما ما زال الفرنسيون المهزومون يحتفظون بإمبراطوريتهم . وقد نكون راغبين فى إعطاء الألمان قمصاننا ، ولكنهم يريدون حتى جلودنا » . وكان يعترف فى مجالسه الخاصة بأن الأمل الوحيد لإيطاليا يقوم فى حل وسط للحرب يقوم على التفاهم ، فينقذ استقلال إيطاليا ، على أن تكون الحرب طويلة إلى الحد الذى يجهد الألمان ويقطع أنفاسهم . ولكن بالرغم من هذه الأحكام القاسية ، وتلك الحملات المقذعة التى كان يوجهها إليهم ، فقد ظل يحمل لهم شيئاً كثيراً من الإعجاب الطاغى . وكان يغار كل الغيرة من انتصاراتهم العسكرية ، حتى إنه كان لا يخفى سروره عندما سمع بنكسة ألمانيا على الجبهة الشرقية ، وكان يخشى من أن يعطيهم مجالا للإدلال عليه بكبريائهم ، مما منعه حتى من أن يوجه إلى هتلر رسالة تنطوى على الذلة ، يطلب فيها بعض القمح الذى يعينه فى إطعام الملايين من شعبه الجائع . وكان يثور لكل نبأ جديد يصله عن استبدادهم وقسوتهم ولا سيا فى منطقة (الأديج) على ساحل الادرياتيك بحيث توقع « صداماً حتمياً بين إيطاليا وألمانيا » ولكنه بالرغم من ذلك كله ، ظل يذعن لما فى سلطانهم وقوتهم من جاذبية طاغية ، وكان لا يخفى إعجابه بكفايتهم وحزمهم ، إذا ما اجتمع بقائد أو دبلوماتى ألمانى أو كان فى حضرة زعيمهم هتلر .

ولم تمض ساعات على اجتماعه بالماريشال كيسلرنج ، القائد الألمانى العام فى إيطاليا ، حتى كان يتحدث عن جنرالاته بكثير من الامتهان والازدراء . وكان لا يحب إلا واحداً منهم ، على حد قوله ، وهو ذلك الجنرال الذى تحدث إلى جنوده فى ألبانيا بقوله . . . « نمى إلى مسامعى أنكم رجال طيبون من أرباب الأسر . وهذا حسن هناك فى الوطن ، أما هنا فلا . وليس فى وسعكم هنا أن تغرقوا فى أعمال السرقة والقتل والاعتداء على الأعراض » . وراح موسولينى يعلن وهو فى ذروة غضبه وهياجه . . . « وسألجأ أيضاً إلى أسلوب الرهائن » . وقال إنه أصدر أوامره بأن يقتل إثنان من الرهائن مقابل كل إيطالى يجرحه الثوار الكرواتيون . وأن يقتل عشرون من هؤلاء للرهائن مقابل كل إيطالى يقتل . لكنه كان يعرف ، كما قال تشيانو ، إنه عاجز عن تنفيذ هذا الوعيد . فهو يتوعد دائماً بالقتل والعقاب ،

ولكنه لا يتجاوز في الواقع حدود الوعيد .

وراح في تصميمه الأكيد على أن يجعل من شعبه قساة منضبطين وأقوياء وصابرين على الألم كالألمان ، يتبع إجراءات اعتبرها الإيطاليون في منتهى السخف . وكان راضياً عن تعرض مدينة نابولي ، كما قال ، لعدد كبير من الغارات الجوية ، إذ أن هذه الغارات ستشد من أزر الجيل الجديد وتقوى عزائمه ، وتجعل من أهل نابولي ، عنصراً « نوردياً »[1] ، وراح يصدر أوامره ، بإطلاق صافرات الإنذار من الغارات الجوية في مدينة رومة أيضاً ، في كل مرة تتعرض فيها نابولي لغارة فعلية ، وأن تغتنم أجهزة الدفاع أول فرصة لإطلاق نيران المدافع المضادة للطائرات ، لتوهم أهل رومة بتعرضهم للخطر ، فتجعلهم يعيشون في جو من الإثارة والخوف والمسرحية . وسرعان ، ما راح يعلن وقد وضع هذه الغايات نصب عينيه ، عن صلاح فئات أخرى من المدنيين للتعبئة العامة ، وعن فرض عقوبات أقسى على الجرائم السياسية والأخطاء العسكرية . وصدر الأمر للصحف بأن تنشر دون اكتراث بالحقيقة أو تحر عنها ، أنباء تؤدى إلى الهاب المشاعر الوطنية والولاء للفاشية والكره للعدو . وكان يقول لتشيانو إن هتلر لجأ إلى إستعارات ضخمة للتأثير على الناس كتصويره « روزفلت بالحمار » . وإذا كان الألمان يشحنون بلاغاتهم الرسمية بالأكاذيب ، فمن حقه هو أيضاً أن يفعل ذلك . وقد أقدم على الكذب دائماً . ففي اليوم الذى هاجم فيه الأسطول البريطاني أسطول إيطاليا المحارب في الحادى عشر من نوفمبر عام ١٩٤٠ في ميناء تورنتو ، معطلا عن العمل نصف وحداته وبينها البارجة الجديدة « ليتوريو » صدرت الأوامر إلى الصحف الإيطالية بالتقليل من قيمة هذه الهزيمة الساحقة ، وأن تنشر عوضاً عن ذلك تعليقات خيالية عن الغارة الجوية التي قام بها السلاح الجوى الإيطالي ، بإلحاف من موسوليني في نفس اليوم على قافلة بحرية بريطانية في « ميدواى » ، وهى الغارة التي لم تلحق في الواقع كبير إذى بالقافلة ، وكلفت الإيطاليين ثماني طائرات من قاذفات القنابل ، وخمس طائرات محاربة ، وكانت الغارة الأولى والأخيرة ، التي قامت بها

---

(١) العنصر « النوردى » هو العنصر الشمالي في أوربا الذى يمت إليه الألمان ، والذى جعله هتلر في المرتبة الأولى في فلسفته العنصرية . « المعرب »

الطائرات الإيطالية على بريطانيا . وعندما هبطت سرية من المظليين الإيطاليين فى إحدى جزر البحر الأيونى ، لا يزيد عدد أفرادها على مائة وخمسين رجلا ، واحتلت الجزيرة ، أمر موسولينى بأن يتضمن البلاغ الرسمى القول بأن فرقة إيطالية قد هبطت فى الجزيرة .

لكن الإيطاليين لم يتأثروا على أى حال بمحاولات الدوتشى تضليلهم ، وصياغتهم فى شكل الشعب الذى يريدهم أن يكونوا فيه ، وإرغامهم على الظهور بخصائص ليست لهم على الإطلاق . وبدأ موسولينى مع مرور الشهور ، واستطالة الحرب ، وتبين استحالة النصر ، يفقد ببطء ولكن باستمرار ، تأييد حتى أولئك الذين تقبلوا بحماسة فى البداية إعلانه الحرب ، وغفروا له الكوارث التى حلت ببلادهم فى السنتين الأوليين . وكان الناس لا يزالون يهتفون له طبعاً ، إذا ما رأوه فى بعض الحالات النادرة الآن ، وكانوا لا يزالون يتحدثون عنه بشئ من الإعجاب ، ويعاملونه بذلك الإجلال الذى يحمل طابع العبادة والذى بات يعتبره حقاً من حقوقه ، لكن تلك التلقائية فى التفانى وذلك الطغيان فى الإعجاب اللذين تحكما فى شعب بأسره تلك المدة الطويلة ، كانا قد ذهبا الآن إلى غير رجعة . فقد بات الهتاف آلياً ، وبات الإجلال إكراهياً لا طوعياً .

وكانت ثمة أسباب أخرى ، غير الحرب المقيتة والتحالف الكريه مع الألمان هى التى أدت إلى هذا التطور .

فقد بات موسولينى الآن مريضاً للغاية . ولم يعد منظره متألقاً ونابضاً بالحركة كما كان دائماً . وكان قد فقد القسم الأكبر من حيويته السابقة التى لا تعرف الكلل ، ولم يعد مزاجه الدائم التقلب ، مجرد أمر عارض بل غدا صورة للشرود والحيرة . ويقول أعداؤه إن مرض الزهرى الذى كان يعانى منه هو السبب فى هذا ، إذ أنه لم يعالج منه معالجة صحيحة فى شبابه ، وكان قد دخل الآن مرحلته النهائية ، محدثاً عنده حالات من الهياج المحموم ، والهلوسة . ويقول جيوسيبى بوتاى ، وزير التربية الوطنية إنه سمع فى تلك الأيام من الماريشال بالبو قوله إن موسولينى « ثمرة من ثمار مرض الزهرى ، وإننى كنت أعارضه رأيه هذا . وإنى لأتساءل الآن ، عما إذا لم يكن حكمه هذا صائباً وصحيحاً ، أو قريباً من الحقيقة على

الأقل . فقد انحطت قوى الدوتشي البدنية والفكرية . ولم تعد شخصيته تستهوينى . إنه لم يعد رجلاً نشيطاً . وكل ما بقى منه ادعاؤه وطموحه ، ورغبته فى أن يعجب به الناس ويتملقوه ، ويخدعوه » .

وعندما حل شهر أكتوبر عام ١٩٤٢ ، لم يكن موسولينى يسير فى طريق الانهيار فحسب ، بل وكان يشكو آلاماً مبرحة ، وكان طبيبه الدكتور بوزى ، يقيم إلى جانبه باستمرار إما فى دارة تورلونيا أو فى روكاديل كاميناتى . فقد عادت الجراح التى أصيب بها فى عام ١٩١٧ إلى التفتح من جديد . يضاف إلى هذا أن القرحة التى كان يعانى منها دون انقطاع منذ سنوات . أصبحت تؤلمه أشد الألم ، حتى بات من المتعذر عليه فى كثير من الحالات ، وهو فى مقابلاته الرسمية ، أن يجلس هادئاً ، فكان يستدير بمقعده ، ووجهه ينطق بالألم المبرح ، وكثيراً ما اضطر إلى وضع يده على فمه ليخنق صيحة مكتومة من الألم الشديد . وروى كونيتو نافارا حاجبه الشخصى فى قصر البندقية أنه كثيراً ما استسلم لألمه ، فراح يقذف نفسه على الأرض . متقلباً عليها ذات اليمين وذات الشمال ، يئن أنيناً صارخاً . ولم يكن فى وسع أحد أن ينكر عليه شجاعته الشخصية ولكنه لم يكن ذلك الشخص الذى يخفى ألمه ، دون شكوى ، وقد أكب الآن وبصورة متزايدة على الاعتماد على العقاقير المخدرة ، والحقن المسكنة للألم ، التى دأب الدكتور بوزى على إعطائه إياها .

وكتبت إيدا تشيانو فى نهاية شهر سبتمبر إلى زوجها فى وزارة الخارجية تقول ... « لا تعرف أمى معنى النكتة أبداً ، فهى تقول وتفعل أشياء فى منتهى الغرابة . لكن هذا ليس على أى حال ، السبب فى هذه الرسالة التى أبعث بها إليك ، إن والدى مريض للغاية . فهو يشكو من آلام المعدة التى لا تطاق ، ومن الهياج لأى سبب ، والانحطاط فى الجسم وغير ذلك من العلل . وترسم والدتى صورة قاتمة ، وأنا أعتقد أنها القرحة القديمة عادت إليه ثانية ، فحياته الخاصة فى السنوات القليلة الأخيرة ، تبعث المرء على القلق من آثارها . حسن . علينا أن لا نتحدث عن هذا . وقد أخذوا له مجموعات من الصور بالأشعة ، ولكنها كانت سلبية جميعها . ومع ذلك فهم لا يستدعون إخصائياً . . . أرجوك أن تفعل شيئاً . . . يضمن فحص والدى

فحصاً صحيحاً . أرجو أن تتصل بوالدتى وأن تساعدها . ولم تتعد الإجراءات التى اتخذت حتى الآن حدود الكفر والشتائم .

واستدعى الأستاذ سيزار فروجونى ، وهو من أشهر أطباء إيطاليا أخيراً لفحص الدوتشى ، وجاءت نتيجة فحصه مماثلة لرأى ابنته ايدا ، وهى وجود قرحة فى الاثنا عشرى . وسرعان ما فرضت عليه حمية قاسية لا يتناول فيها إلا السوائل ، فأصيب بفقر الدم (الأنيميا) . وعثر أحد الخدم ، عليه فى مايو عام ١٩٤٣ وهو يتلوى من الألم على أرض غرفته فى روكاديلا كاميناتى ، فهرع إلى غرفة زوجته راشيل صارخاً . . . « إن الدوتشى يموت » . وجاء الدكتور بوزى على الفور ، وأبلغ الزوجة بأن على الدوتشى أن يبقى فى فراشه وأن يستريح . ونصح باستدعاء خبير آخر لاستشارته بالإضافة إلى الأستاذ فروجونى والأطباء الثلاثة الآخرين الذين استدعوا لعيادته . لكن راشيل كتبت فى يومياتها تقول . . . « إن فكرة استدعاء عدد كبير من الأطباء تخيفنى » . وكان الواحد منهم يناقض الآخر على أى حال وكان فروجونى الذى شخص المرض فى البداية بأنه نتيجة قرح فى الاثنى عشرى متهماً زميلا آخر له بالسخف لأنه تحدث عن « الإسهال » عاد فأقر بأن « الإسهال الحاد » هو الذى يعقد الحالة الصحية . وعاد فأعرب عن رأيه فى أن الدوتشى يعانى من حالة سرطان متقدم ، لكن الأستاذ سيزار بيانشى ، عارضه على الفور فى رأيه .

لكن تشيانو وفيتوريو نجل موسولينى الأكبر كانا يعرفان السبب الحقيقى فى المرض ، وأنه مرض ناتج عن حالة عاطفية[١] . فبالرغم من أن الدوتشى كان ينام نوماً ثقيلاً ، فإنه كان يقضى أيامه فى حالة دائمة من القلق ، والهياج . ولم يكن من المنتظر أن يهدأ له بال ، أو يقر قرار ، طالما أن الحرب تسير سيراً سيئاً لإيطاليا . وكان كلما وصلته أنباء كارثة جديدة فى أفريقيا الشمالية وفى البحر

---

(١) نشرت صحيفة افانتى الإيطالية فى شهر مايو عام ١٩٤٥ مقالا ألقت فيه ضوءاً على حقيقة مرض موسولينى ، كتبه شخص يدعى استوفى ، ذكر فيه أن الطبيب الذى قام بتشريح جثة موسولينى بعد موته ، لم يجد إلا أثراً بسيطاً لبقايا قرحة . أما قلبه وشرايينه فكانا فى حالة سليمة . ولا ريب فى أن معرفة أحوال غدده تحسر النقاب كثيراً عن حالته الصحية . « المؤلف »

الأبيض المتوسط ، كان يصاب بنوبة عاطفية حادة ، وهو يحمل على الجيش الذى يحارب « بهدوء المحترفين وعدم اكتراثهم ، لا بحدة المتعصبين وإيمانهم » وعلى الأسطول الذى كان يتوق إلى أن يبعث إليه برسالة كتلك التى بعث بها تشرشل إلى اميرالاته » ، ولكنه لم يتح له الفرصة لكى يفعل هذا فى غضون ثمانية عشر شهراً ، وعلى الشعب الإيطالى الذى لم يخلق للحرب كالشعب الألمانى أو اليابانى والذى لم يكن قد وصل درجة من النضج والاستقرار تكفيه لاحتمال مثل هذه المحنة الخطيرة والحاسمة » ، وعلى الإنجليز الذين أقسم « على كرههم إلى الأبد » ، لأنهم أخذوا إمبراطوريته منه ولأنهم قاموا باحتلال الحبشة » ليثأروا منه شخصياً » ، وعلى روزفلت الذى كان يحتفظ له بكراهية تكاد تكون لديه حالة مرضية . وكان يقول دائماً بحقد دفين . . . « لم يسبق فى التاريخ أن سمحت أمة لمشلول بقيادتها . وقد كان هناك ملوك من الصلع ، أو ملوك على جانب كبير من البدانة أو الجمال أو البلادة ، ولكن لم يكن ثمة قط ملك كان يتكئ على غيره من الناس وهو فى طريقه إلى حمامه أو غرفة طعامه » ، وثار فى عيد الميلاد على الهدايا التى « يستخدمها الأغنياء حجة يبررون بها حظوظهم فى عيون الفقراء ». وكثيراً ما ثار أيضاً على الأعياد التقليدية ، فكان يقول . . . وما أهمية عيد رأس السنة على أى حال ، سوى أنه اليوم الذى تم فيه ختان المسيح ، أى الاحتفال بطقس عبرى ، جاءت الكنيسة فألغته » . ولماذا يشكو الناس كثيراً من الأمية ؟ فحتى لو وجدت الأمية ، فهل يهم هذا كثيراً ؟ ففى القرن الرابع عشر ، كان جميع سكان إيطاليا من الأميين ، لكن هذا لم يحل دون ظهور دانتى الليجييرى . والآن وكل من فى إيطاليا يجيد القراءة والكتابة ، من لدينا من الشعراء ، إنه الشاعر جوفونى ! ! !

وقد علق تشيانو بكثير من السخرية فى يومياته بقوله . . . « كان موسولينى فى الواقع يثور على كل شيء وعلى كل إنسان عندما تسوء الأوضاع . وكانت ثورته تصل أحياناً إلى التهجم على الله جل شأنه

وبالرغم من تزايد الميل لديه للقدح بالناس ، فقد غدا موسولينى الآن أكثر خمولا ، حتى فى تلك الأيام التى تبدو فيها صحته فى طريق التحسن . ولم يعد حديثه يتميز بقوة الإقناع وسرعة البديهة ، كما لم تعد تعليقاته الساخرة مثيرة للإعجاب ،

بل مجرد انعكاسات لمزاج سيئ . وكثيراً ما ناقض نفسه بنفسه ، وثار لأقل استفزاز ، ودفع نفسه إلى دفقات من النشاط المجهد ، ليعود بعدها فيغرق فى سبات طويل من شرود الذهن والتخاذل . وأصبح أكثر تصريحاً بجزازاته منه فى أى يوم مضى وقد طرد رجلا ذات يوم من أفراد حاشيته لأنه كان صاحب ذقن ، كان يعتبرها « شيئاً سخيفاً » ، ويعتبرها قناعاً يختفى وراءه النصابون والانتهازيون من الدرجة الثانية . ورفض أن يستخدم رجلا آخر لأنه لم يعجب بخطه وكتابته ، وذلك لأنه كان كغيره من الذين يؤمنون بالخرافات يعتقد أن خط الإنسان يدل على شخصيته ، وكان يعتز دائماً بخطه الطبيعى الثابت . وسمعه البعض يقول ذات يوم . . . « أستطيع أن أحكم على خلق إنسان وشخصيته من رؤية خطه ، تماماً كما أحكم عليه من رؤية وجهه » . وكان يقضى الساعات الطوال مشغلا نفسه بتفاصيل الحملات الدعائية ، التى كانت فى الغالب تافهة وخالية من كل معنى . فهو الذى يقطع بعض الأنباء والمقالات من الصحف الأجنبية التى يقرؤها بافتتان واضح ، وهو الذى يعيد كتابة العناوين فى صحف بلاده . ويعيد كتابة المقالات السياسية الخفية العجز ، ويغير أسلوب البلاغات الحربية اليومية ومحتواها قبل إذاعتها ، سامحاً بنشر خبر ومضيفاً إلى أهمية خبر آخر ومقللاً من أهميته وهكذا كان يجهد نفسه فى أعمال كان فى وسع أى صحفى ذى تجربة أو موظف من وزارة الإرشاد القومى أن يقوم بها . وكان كرئيس لتحرير « البوبولو ديتاليا » يسلى نفسه بقطع بعض الأنباء المسلية ، والكاذبة من الصحف الأخرى وإلصاقها على جدار فى المكتب تحت عنوان « عمود كريه » ، أما اليوم وكتقليد لهذا الإجراء فقد راح يقضى وقتاً طويلاً فى البحث عن الأنباء الكاذبة والغريبة فى الصحف الأجنبية وقصها ، تقليداً لما ألفه فى السابق — ليأمر بعد ذلك بنشرها فى الصحف الإيطالية تحت عنوان « عمود سخيف » . وكان من المعروف عنه قبل الحرب ، أنه كان يصدر نحواً من ستة أوامر فى اليوم إلى الصحف موعزاً لها بكيفية التصرف فى الأنباء ، أما الآن فقد ارتفع هذا الرقم إلى عشرة أوامر فى اليوم على أقل تقدير .

وكان رجال الصحافة يدعون فى الأيام الأولى من الحرب إلى دارة تورلونيا ، ليقدموا صورة للشعب عن الحياة المتقشفة والنابضة بالحياة التى يعيشها الدوتشى .

وليرسموا صورته وهو يقفز من فراشه عندما يستيقظ فى الصباح . وحمامه البارد قبل قراءة بريده ، واملاءه بسرعة آلة الطباعة « التليبرينتر » وآليتها ، ثم توقفه الفجائى ليمارس رياضاته فى ركوب الخيل والسباحة ولعب كرة المضرب ، ووجباته البسيطة ، وعزوفه عن الراحة ، وإقباله المتحمس والعنيف على العمل . أما الآن فقد تغير كل شىء ، إذ باتت الوجبات البسيطة . أدوية يشربها ، وحيل بينه وبين ممارسة الرياضة بأمر الطبيب ، واقتصرت رياضته على تقطيع الحشائش وقصها فى حديقته ، وخبت الحيوية ، وهدأت السرعة . وكان الضوء يظل منيراً فى مكتبه حتى ساعة متأخرة من الليل . ولكن بقصد إيهام الذين يمرون على مقربة من نافذته التى أسدلت الستائر عليها ، بأنه ما زال يعمل بينما يكون المكتب فى الواقع خالياً . ولم يعد الدوتشى يظهر الآن فى الواقع إلا فيما ندر .

وتسلط عليه كابوس من خشية الهزيمة والفشل ومن الشكوك والوساوس ، وطغت عليه عليه انفجارات فجائية من الغضب التى تعقبها أيام طويلة من اليأس ، وأحس بوجنتيه الغائرتين ، ورقبته التى نحلت ، وعينيه اللتين أحاطت بهما التجعدات السوداء ، فراح يعزف شيئاً فشيئاً عن الظهور أمام الناس ، وعاش كما قال يوماً لجيوسيبى بوتاى ، فى قصر البندقية « حياة منعزلة ، يصطرع فيها مع مشاكله ، ويقررها وحيداً بنفسه » .

ولاحظ بوتاى فيما بعد ، أنه كان من الأفضل حقاً ، لو أنه عاش حياة منعزلة هناك ، ولكن كلاريتا بيتاشى ، ظلت فى معظم الأمسيات ، تقبع فى الجناح الخاص المقام فى الطبقة العليا من قصر البندقية ، تنتظر مجيئه ولم يكن بوتاى . على أى حال ، الإيطالى الوحيد ، الذى رأى أن الزيارات المنتظمة التى كان يجد نفسه مضطراً إلى القيام بها لخليلته ، كانت مسؤولة إلى حد ما عن صحته المتدهورة . لكن هذه الزيارات ، كانت فى الواقع قد غدت أقصر أمداً ، وأقل تكرراً من الأيام الماضية ، وكانت كلاريتا ، تظل الساعات الطوال ، مستلقية على الأريكة فى غرفة الجلوس ، تتطلع إلى الرسوم المنقوشة بالذهب فى سقف الغرفة الأزرق ، وتستمع إلى بعض الاسطوانات تعزف الأغانى العاطفية والألحان الراقصة ، معيدة إياها المرة تلو المرة . وكثيراً ما كانت تشغل نفسها برسم « الموضات »

لملابسها الجديدة ، و رسم صور عاطفية للطيور والأزاهير ، وبقراءة بعض القصص الغرامية ، أو صباغ أظافرها ، متطلعة إلى نفسها فى المرآة ، أوعبر النافذة إلى الصهريج المقام فى باحة القصر . وملأت دفتراً صغيراً كانت تكتب فيه أحياناً ذكرياتها عن الأيام السعيدة الخوالى التى قضتها معه ، يتزحلقان على الثلج فى تيرمينيلو ، أو يسبحان فى ريمينى ، أو يتنزهان فى المزارع الملكية فى كاستيل بوزيانو ، مضمنة إياه أيضاً شكوكها المحزنة فى المستقبل . فقد كان حبيبها ، يفد إليها فى هذه الأيام فاقد الحيوية ، يثور لأقل شىء ، ويتفجر غاضباً من أقل إشارة . وكثيراً ما انتظرته ليالى طويلة حتى العاشرة مساء ، دون أن يأتى إليها ، وتأصلت فى نفسها ، إبان وحدتها هذه ، روح النقمة على أولئك الذين يوجهون إليها اللوم ، ويلقونها بالزراية . وراحت تصرخ ذات يوم فى وجه أحد الخدم ، وقد انتظرته عبثاً أكثر من خمس ساعات . . « إنهم جميعاً أعداؤه . وهم يخونونه خمس عشرة مرة فى اليوم الواحد » . فالفاشيون فى نظرها « خونة » ، والقادة العسكريون « حمقى مخرفون متبلدون » ، ولا سيما ذاك الأحمق المهزوز دى بونو وتساءلت ذات يوم غاضبة . . . « ولماذا يدعى الفضيلة ، وهو يرتكب الإثم مع تلك الكونتيسة العجوز على أريكة مخملية سوداء ؟

وبدأت تحس بالطبع . إن الدوتشى لا يتعرض إلى خيانات الآخرين فحسب ، بل وإنه يخونها أيضاً . وتسلط عليها كابوس من التخوف من أن يكون قد عثر على عشيقة أخرى ، أو أن يكون قد عاد إلى إحدى خليلاته السابقات . وراحت تتصور أن مرجريتا سارفاتى أو انجيلا كيرتى ، تحاول استعادته منها . بالإضافة إلى وجود امرأة أخرى تدعى ايرما ، » تحاول أن تجعل منه بقايا إنسان » . وكثيراً ما تبرمت قائلة . . . « يظن الناس أننى أنا التى استنزف قواه . ولكنها ايرما . أجل إنها إيرما » . وإذا حدث وشكت إليه من غيرتها ، وهواجسها متحدثة إليه عن عشيقاته الأخريات ، فإنه كان يسخر منها ، وكثيراً ما أهانها ، دافعاً بها إلى البكاء الذى كان يستفز غضبه أكثر من أى شىء آخر . ولذا فقد دأبت على أن تبعث إليه برسائلها وقد حشتها بتوسلاتها واتهاماتها وخوفها من أن تفقده . وراحت تسأل ذات يوم عشيقة أخيها زيتاريتوسا ، عن الطريقة التى تستطيع التأكد فيها

من أنها لن تفقده . ونصحتها زيتا بأن الطريقة الوحيدة للاحتفاظ به ، هى أن لا تلبي رغباته عندما يشتهيها . وراحت تقول لصديقتها . . . « ولكننى لو فعلت ذلك ، فلن يكترث بى ، وسيهجرنى » . وقد يكون فى قولها هذا الكثير من الحق . فقد يبذل فى هذه الآونة جهداً حقيقياً لإنهاء هذه العلاقة التى طالت سبع سنوات ، وكانت أطول علاقة غرامية فى حياته . وذكرت الأميرة الصقلية دى جانجى ، إنه اعترف لها فى هذه الأيام ، بأنه أخذ « يتقزز » من عشيقته . وجاءت كلاريتا بعد ظهر أحد الأيام من ربيع عام ١٩٤٣ إلى قصر البندقية ، فأبلغها الشرطى القائم على حراسة مدخل القصر من شارع « استالى » ، وهو يتلعثم ، بأن الأوامر قد صدرت إليه ، بعدم السماح لها بالدخول . وفقدت سيطرتها على زمام أعصابها ، ونحت الشرطى جانباً واندفعت إلى الداخل ، لترى الدوتشى فى منتهى البرود متطلعاً إليها ، بنظرة تخلو من الحب ، ولتسمعه يقول لها بلهجة متعالية اعترفت فيما بعد ، أنها قد أرعبتها ، لأنها كانت قد سمعت منه فى الماضى ، أنه كان يستخدمها فى الخلاص من عشيقاته السابقات . . . « أعتقد أن الدورة قد انتهت » . ولكنه ما لبث أن استسلم لها . وقام بعدة محاولات أخرى للخلاص منها ، ولكنه كان يستسلم فى أعقاب كل محاولة . فقد كانت العبرات تنهال من مقلتيها على وجهها مختلطة بالمساحيق التى تغطيه ، وتروح ترجوه أن يعفو عنها ، وأن يعيدها إلى قلبه ، فيستسلم لبكائها . ولكنه لا يلبث أن يعود فيندم على تراجعه ، ويهتف لها قائلا إن عليها أن لا تذهب ثانية إلى قصر البندقية ، منهياً حديثه الهاتفى . . . بقوله . . . « دعينى وشأنى . فالحرب تسير سيراً سيئاً . وقد ينتقدنى الناس على ضعفى » . وكثيراً ما سمع وهو يقول . . . « هناك امرأة واحدة ، دفعتنى إلى القيام بأعمال فى منتهى البلادة ، وأنا عازم على الخلاص منها » . ولكنه كان يعود إليها . وكان يهينها ، ويتشاجر معها ، ويسلك معها سلوكاً ينطوى على التجاهل وعدم الاكتراث وكأن امرأة أخرى ، قد انتزعت منه ، كما كان يقول ، كل شىء . وكان يتشاجر معها فى موضوع أسرتها متحدثاً عن مضاربات أخيها المالية المشبوهة ، وعن تلك المذكرة السخيفة التى بعث بها إليه عن الطريقة التى يراها لكسب الحرب . وعن أمها الطويلة ذات الأنف المعقوف ، الشغوفة بالحسابات ، والتى

كانت تبجحاتها الخطرة عن حمايته لها ، قد أكسبتها ازدراء رومة كلها واحتقارها وضربها ذات يوم فى شجاره معها حول أخيها ، ضربة عنيفة ، أفقدتها وعيها ، ولم تستفق إلا بعد « حقنة » منبهة من والدها . ولكن كانت هناك أيام ينسيان فيها الخصام والمشاجرات . ويجدان الراحة فى الحب وفى ذكريات سعادتهما ، فتروح تملأ بعدها ، مفكرتها ساردة أتفه التفاصيل التى تناولاها فى حديثهما . وهمست فى أذنه ذات يوم تقول . . . « لن آتى إليك فى وضح النهار بعد اليوم . بل سآتى بعد هبوط الدجى لأراك لبضع لحظات وأقبلك . فأنا لا أريد أن أسبب لك الفضائح والمتاعب » .

ولكنها كانت فضيحة حقاً ، وكانت تنزل بالدوتشى على حد تعبير ضابط كبير من ضباط الشرطة ، « أذى يفوق ما تنزله به خسارة خمس عشرة معركة » . وأقر تشيانو ، وهو يتحدث إلى صديقه سيرانو سونير وزير خارجية أسبانيا ، بأن هناك كثيراً من اللغط حول هذا الموضوع حقاً . فقد تكون للإنسان عشيقات كثر ، ولا يعترض أحد ، أما هذا التركيز على واحدة ، وعلى أسرتها ، ففضيحة خطيرة . وذكر انجيلو سيريكا وهو من كبار ضباط « الكاربنييرى » أن « أسرة بيتانشى تتدخل فى كل شىء ، وتضفى الحماية السياسية على الناس ، وتوجه التهديدات من عل، وتحرك الدسائس من أسفل » . وتساءل تشيانو بكثير من اليأس والقنوط « ولكن ما عسى المرء أن يصنع لتحذير الدوتشى ، لا سيما وأن اثنين من أقرب زملائه إليه ، وهما سكرتيره الخاص دى سيزارى ، ووكيل وزارة الداخلية ، جيدو بوفارينى — جيدى ، يجنيان الأموال الطائلة من « هذه الحياة السرية » . وأصرت شقيقة موسولينى ايدفيك ، على أن أحداً يجب أن يجرؤ على التحدث إليه فى هذا الموضوع . وقد يكون صحيحاً ما يقوله أخوها فى معرض التبرير لاليساندرو بافولينى وزير الإرشاد الشعبى ، من أن جميع العظماء فى عصر النهضة الإيطالية ، كانوا يعشقون ، وكانت لهم خليلاتهم ، وأنه لا يعطى كلارينا شيئاً سوى بعض الهدايا التافهة بين آونة وأخرى ، مع خمسمائة ليرة إيطالية فى بعض الأحايين ، لابتياع ثوب جديد ، ولكن الشعب الإيطالى الذى يراها وهى ترتدى أغلى الثياب ، وتفوح منها الروائح الغالية ، التى يزودها بها التجار الإيطاليون ورجال الأعمال ،

طمعاً فى وساطة أو عمل ، لا يصدق ما يقوله موسولينى ، ويتهامس أبناؤه ، بأن الضرائب الثقيلة التى تبتز منهم تنفق على ترفها وتبذيرها . ولا يمكن للإيطاليين أن يعرفوا أن الخاتم الماسى الكبير الذى تضعه فى أصبعها ، هدية لها من صاحب مصرف كبير ، اعتقد أن الفضل فى عقد صفقة ناجحة قام بها يعود إلى تدخلها ، وأن معطفها القرمزى ، هدية من صديق لأخيها حصل على التزام مربح من وزارة الأشغال ، وعندما يتحدث الناس ، على أى حال . وهم يتحدثون الآن جهاراً وبصورة مستمرة عن « فضيحة بيتاتشى» ، فإنهم كانوا يشيرون إلى ما تقوم به الأسرة من أعمال مشبوهة ، أكثر من إشارتهم إلى كلاريتا نفسها . وكانوا يعرفون أن والديها بنيا قبل الحرب دارة عصرية جميلة ، حماماتها من الرخام الأسود فى منطقة كاميلوكيا الأرستقراطية التى ترتفع فيها أثمان الأرض ، وكانوا يؤمنون أن موسولينى هو الذى دفع تكاليف هذا البناء ، أو تكاليف غرفة نوم كلاريتا الفاخرة على الأقل ، إذ غطيت جدرانها بالمرايا ، وكان السرير الضخم الموشى بالحرير فيها مرتفعاً وكأنه عرش على منصة . لكن موسولينى لم يدفع شيئاً من هذا ، وإن كانت والدتها صاحبة السلطة عليها قد طلبت إليها أن تسأل موسولينى دفع هذه التكاليف . لكن كلاريتا رفضت حتى إثارة هذا الموضوع ، وعندما شهد الدارة لأول مرة ، وسأله أصحابها المعتزون بها عن رأيه فيها ، وهل أعجبته ، رد بشىء من الخشونة . . . لا ، لم تعجبنى كثيراً .

وكان أشد أفراد الأسرة مقتاً من الناس ، شقيقها مارسيلو ، الذى يعمل طبيباً فى البحرية ، وكان يقال إنه جمع ثروة هائلة من تهريب الذهب فى الحقائب الدبلوماتية ، ومن الاتجار غير المشروع بالنقد الأجنبى ، وكان يستخدم علاقته التى يعلن هو عنها ، بالدوتشى فى عقد الصفقات والاتفاقات المربحة ، وتحديد المواعيد المجزية . وبالرغم من أن الدوتشى لم يساعد مارسياو قط ، فى جنى الأرباح اللامشروعة ، كما لم يساعد أى إنسان آخر حتى نفسه فى جمع المال ، إلا أنه كان على أى حال ، على درجة كبيرة من عدم الاكتراث والإهمال ، بحيث سمح للشكوك بأن تنتشر . وكانت الحقيقة أن الدوتشى لم يكن يهتم بالمال على الإطلاق ، ولم يكن يوليه شيئاً من تفكيره على الإطلاق . وكان فى الواقع بريئاً كل البراءة

من هذه الاتهامات ، على حد تعبير كلاريتا إذ أنه راح يسألها ذات يوم ، عن كيفية تمكنها من الحياة على هذا النحو الباذخ ، ثم قال ، وهو يرغب رغبة صادقة فى أن يعرف شيئاً لم يكن قد خطر فى باله ذات يوم . . . « هل يكسب والدك كثيراً ؟ » . وكان من السخف حقاً ، بالنسبة إليه ، أن لا يتبين الحقيقة ، وهو يرى كلاريتا ، ترتدى أغلى الثياب ، وأجملها ، وتتعطر بأثمن الروائح وتوزع الأموال على الفقراء . ودون تشيانو فى يومياته أن مدير وزارة الصحة العامة أبلغه بأن جيدو بوفارينى – جيدى ، وكيل وزارة الداخلية ، كان يعطيها مائتى ألف ليرة فى الشهر من المخصصات السرية ، وكان من الطبيعى ، أن يقول الفقراء الذين كانت توزع عليهم القسم الأكبر من هذا الجعل الشهرى بأن ما تدفعه ليس إلا تكفير الضمير من عاهرة فاسدة .

وكان من السخف أيضاً من موسولينى أن يفترض أن اختياره لأصدقاء أسرة بيتاتشى ومحاسيبهم ، لإملاء الوظائف الشاغرة فى الحكومة ، لن تثير موجة عارمة من السخط . وليس لنا أن نشك فى صحة ما كان ينتابه من دهشة ، عندما يسمع بالثورة على اختياراته ، وإنه ظل جاهلا فى الواقع لحقيقة هذا السخط . فلم يكن هناك كثيرون اعترضوا على الطلب الذى وجهه إلى صحيفة المساجيرو ، لتعيين والد كلاريتا ، مراسلا طبياً لها ، فقد كان الدكتور بيتاتشى على أى حال من أكثر الأطباء كفاية . ولم يعترض أحد على سعيه لتأمين مستقبل ناجح فى الحياة السينمائية لميريام ، شقيقة كلاريتا ، فقد كانت ممثلة لا بأس بها . لكن الناس ما كانوا ليتسامحوا ، مع الحالات الأخرى لمحسوبياته المتعددة ، ولا سيما اختياره لالدو فيد وسونى ، الشاب الذى لم يتجاوز عمره السادسة والعشرين ربيعاً ، وصديق أسرة بيتاتشى ، لمنصب هام ، كسكرتير الحزب الفاشى ، مما أثار موجة عارمة من الأسى . ولم يفلح تبريره ، فى أنه اختار هذا الشاب لهذا المنصب ، ليفرض شيئاً من التأثير النافع على شباب البلاد المتراخى والمتردد فى إقناع أحد من الناس . وقد فزع تشيانو نفسه من هذا الاختيار لرجل وصفه فيتوريو ابن موسولينى بأنه صورة مجسدة « للحمق والجهل والخبث » ، وتعيينه فى مثل هذا المنصب الهام . وأعرب الوزير عن فزعه هذا ، ولكنه لم يجرؤ على التحدث به إلى الدوتشى نفسه .

وتقدم عدد من كبار الفاشيين إلى تشيانو ، وأبلغوه أن واجبه يحتم عليه بوصفه صهر موسوليني وأقرب مستشاريه إليه ، بأن ينقل إليه مشاعر أعضاء الحزب الساخطة على هذ التعيين ، بالإضافة إلى ما يعم البلاد من ثورة آخذة فى التزايد على نفوذ آل بيتاتشي ، لكن تشيانو لم يجرؤ على نقل آرائهم هذه إليه . ولم يجرؤ أحد أيضاً على أن يذكر أمامه ، تلك الشائعات المخيفة التى أخذت تنتشر فى رومة عن النفوذ الذى بات لمهندس سيء السيرة إلى حدما يدعى باترعلى الدونا راشيل ، زوجة موسوليني ، التى كانت كما ذكرت ابنتها ايدا ، تمر فى هذه الآونة فى مرحلة المراهقة الثانية . ويقول بوتاى ... « إن هناك حقيقة واقعة ، وهى أن أحداً لم يجرؤ على أن يتحدث إلى موسوليني فى أى موضوع من هذا النوع » . وعندما جاء أحد أصدقائه إلى تشيانو قائلا له إن الدوتشي يبدو معانياً لآلام مبرحة تثير الفزع على حياته ، وأن من الواجب عمل شيء فى هذا الصدد ، رد تشيانو قائلا . . . ولكن ما العمل . . . ؟ أهناك من يجرؤ على التحدث إليه فى قضية خاصة ؟

وهل كان هناك كما قال بوتاى ، وكما أكد تشيانو أيضاً من يجرؤ على الحديث إليه فى موضوع لا يسره ؟ فعندما أعدت وزارة الداخلية تقريراً مدعماً بالوثائق ، عن الوضع الداخلى المزعج فى إيطاليا وعن اشتداد الشعور المعادى للفاشية ، لم يجرؤ وكيلها بوفاريني — جيدى ، على أن يعرضه على الدوتشي . وعندما تجاوز سخط رافائيلو ريكاردى وزير التجارة حدوده فى النهاية على صفقات آل بيتاتشي اللامشروعة فى تهريب الذهب ، وحمله على التغلب على تردده وإحجامه والتحدث إلى الدوتشي فى الموضوع ، بدا موسوليني ساخطاً للغاية ، بل وأحس كما خيل لريكاردى بشيء من « الذلة والمهانة » . لكن تشيانو ، أدرك أن مستقبل الوزير فى الحزب . لم يعد لامعاً ولا مشرقاً ، وراح يعلق بشيء من الخبث قائلا . . . « من الخطر كل الخطر ، عند موسوليني ، أن يعتقد إنسان أن فى وسعه أن يرقى على مستواه » . وقد وافقه بوفاريني — جيدى على رأيه وقال إن رد فعل الدوتشي على حديث الوزير لم يكن نابعاً عن السخط ولا عن الإحساس بالذلة كما خيل إليه ، وإنما نشأ عن الغضب من ريكارديني ، لأنه تجرأ على مواجهته بمثل هذا الاتهام . ولم يعرض الكونت كافاليرو نفسه للخطر الذى تعرض له ريكاردى . فقد علمته

التجارب أن من الأسهل عليه ، أن يحظى برضى الدوتشى ، إذا أخفى عنه الأنباء التى لا تسره . وعندما طلب إليه موسولينى أن يزوده بقائمة عن المعدات الحربية التى تصنع فى إيطاليا ، راح يهوّل عامداً متعمداً فى أرقام المدافع المضادة للدبابات . وبالرغم من أن موسولينى كان يتقبل عادة الأنباء الطيبة التى تصل إلى مسامعه دون أن يحاول التثبت من صحتها عن طريق الاستقصاء ، مخافة أن تخيب الحقيقة آماله ، فإنه راح يسأل كافاليرو هذه المرة عن صحة هذه الأرقام العالية التى عرضها عليه . ورد الكونت بأن هذه الأرقام تمثل احتمالات نظرية للإنتاج ، أكثر منها أرقاماً واقعية ، وراح يغيرها بقلم الرصاص الذى يحمله .

ولم يكن هذا الإخفاء المدروس للمعلومات عن الدوتشى بالتطور الجديد بالطبع فى المحافل الفاشية . فقد كان الاعتقاد السائد فى إيطاليا منذ سنوات طويلة ، بأن المسئولين عن الحكم يخفون عنه الحقائق الصحيحة . وكان مثل هذا الاعتقاد فى الماضى فى مصلحة موسولينى نفسه . فعندما كان يتهم أحد المسئولين الفاشيين بالرشوة أو القسوة أو الشر ، أو عندما كان يبدو أحد المراسيم الفاشية قاسياً أو غير متسامح ، كان الناس يقولون لبعضهم البعض . . . « آه لو أن الدوتشى يعرف هذا !! » . فقد كان الدوتشى لا يزال إلهاً عندهم ، ولم يكن ليسأل عن أخطاء أتباعه من البشر . لكن هذا الموقف لم يعد إلا نادر الوجود الآن . فقد شرع معظم الإيطاليين فى نهاية عام ١٩٤٢ ، يفترضون أن الدوتشى يتحمل شطراً من المسئولية فى كل ظلم وكل هزيمة ، وكل مسغبة يعانونها ، بل وكل كارثة تظهر أن النظام الفاشى الذى خلقه لم يعد قادراً على معالجة الأوضاع الطارئة التى ورط نفسه فيها . أجل طال أمر الحرب أكثر من اللزوم .

٢

المتآمرون . . .

من نوفمبر ١٩٤٢ — ٢٤ يوليو ١٩٤٣

« لم لم يلق قيصر نظرة على قائمة أسماء المتآمرين عند ما وضعت القائمة فى يده ؟ من المحتمل أن يكون قد سمح لهم بأن يقتلوه ، شعوراً منه بأنه قد وصل نهاية المطاف » .

١

احتلت وحدات من الجيش البريطانى فى الثالث والعشرين من يناير عام ١٩٤٣ ، مدينة طرابلس . وبدا للكثيرين من الإيطاليين ، أنهم قد خسروا الحرب وأن أمل إيطاليا الوحيد ، هو فى تخلصها من الحلف مع ألمانيا . لكن قلة منهم فقط ، اعتقدت بأن المحور لن ينفصم طالما أن موسولينى قائم على الحكم . وكان الألمان أنفسهم يحملون مثل هذا الرأى أيضاً . فقد أكد جوبلز وهو يكتب بعد سقوط طرابلس ، وبعد أن تبين بأن تونس لابد وأن تسقط قريباً ، هذا الاعتقاد كذلك ، إذ كتب يقول . . . « أكد الدوتشى للفوهرر من جديد ، بصورة قاطعة ، أنه سيواصل السير معنا فى سرائنا وضرائنا ، وإنه سيظل على وفائه للمحور . ولا ريب فى أنه كان صادقاً فى وعده ، فنى وسعنا أن نشعر بالطمأنينة ، طالما أن الدوتشى قائم على الحكم فى إيطاليا ، إذ أن ولاء الفاشية مؤكد ومضمون » .

لكن جوبلز راح يتساءل عن المدة التى سيتمكن فيها موسولينى من البقاء فى الحكم ، وعن مدى السلطان الفعلى الذى ظل له فى إيطاليا . فهو واثق من أن النبلاء والبلاط الملكى ، يخربان كل ما يتخذه من قرارات ، وكان القادة العسكريون الآن على خلاف دائم معه .

لكن المعارضة كانت فى الواقع قد أوغلت عميقاً أكثر مما عرف جوبلز وتوقع . فمنذ نوفمبر عام ١٩٤٢ ، عندما صور النصر الذى حققه الجنرال مونتجومرى

فى العالمين ، الهزيمة النهائية للجيوش الإيطالية فى أفريقية الشمالية ، بدأ التآمر على عهد موسولينى . وكان هذا التآمر محصوراً فى البداية فى اقتراحات وإشارات غامضة ومتقطعة ، وفى محادثات واجتماعات سرية تعقد بين رجال البلاط الملكى وبعض ضباط هيئة أركان الحرب . لكن المؤامرات ما لبثت أن تضاعفت وانتشرت ، وأصبح الملك نفسه متورطاً إلى حد كبير فيها ، بينما كان وزير خاصة الملكية الدوق بييترو داكوارون ، والأميرة ماريا جوزيه زوجة ولده ، وولى عهده الأمير أومبرتو ، على اتصال كما هو معروف بأولئك الجنرالات الذين أرادوا أن يروا نهاية لديكتاتورية موسولينى . ولم يكن اكوارون فى الواقع قد جدد اتصالاته بالجنرالات ، إذ كان قبل ثلاثة أعوام ، أى فى يناير عام ١٩٤٠ ، قد اتصل بتشيانو فى ملعب « الجولف » ، وأبلغه بأن الملك يرى أن « من الضرورى إضفاء وجهة أخرى على الأمور » . وخيل إلى تشيانو أن الدوق أراد التعمق فى الحديث ، ولكنه لم يجد الفرصة مواتية لذلك على أى حال .

ودون الماريشال كافيليا ، وهو رجل عجوز ومحترم من أعداء الفاشية فى يومياته فى شتاء عام ١٩٤٢ يقول . . . « أسمع من مختلف المصادر ، أن القصر يتصور العثور على حل أسرع مما يفترضه أى إنسان ، وأن الملك يدرس بإمعان ما يجب عليه عمله » .

لكن الجنرالات من زملاء كافيليا ، الذين أخذوا يدرسون أيضاً ، ما يجب عمله ، لم يتفقوا جميعاً ، على أن موسولينى هو الوحيد الذى يجب أن يستبدل . فقد اعتقد الجنرال فيتوريو امبروزيو ، مثلا ، وهو رجل قدر له أن يلعب فيما بعد دوراً بارزاً فى الأحداث المسرحية التى أدت إلى اعتقال موسولينى ، بأن من الواجب الإطاحة بالملك أيضاً ، إذ أنه « ارتبط أشد الارتباط بالفاشية » . وقد دون فى يومية كتبها فى فبراير عام ١٩٤٣ مليئة بالألغاز ، ولكنها تلقى الكثير من الأضواء . ما يلى . . . « زوت بونومى — اقتراح بادوليو — تنازل الملك — الأمير — الهدنة — كافاليرو » .

وكان ايفانو بونومى ، الذى كان اسمه أول ما ذكر فى هذه اليومية رئيساً للوزراء قبل مجئ الفاشيين إلى الحكم ، ورئيساً لهم ، بعد الإطاحة بالفاشية ، وكان أحد

الاشتراكيين القلائل الذين يثق الملك فيهم . لكن ولاءه المفترض للتاج ، كان عن انتهازية ، لا عن ثبات وإيمان . وكذلك كان الوضع بالنسبة إلى بادوليو ، الذى كان اقتراحه بتنازل الملك موضوع الحديث الذى أشار إليه الجنرال امبروزيو . واعتقد الماريشال كافيليا ، أن بادوليو يطمع فى « خلافة موسولينى » ، بالرغم من إنكاره الحلم بمثل هذا المطمح الضخم ، ولكنه ما لبث أن اعترف لصديق له فى أبريل عام ١٩٤٣ ، بأنه اتفق مع الجنرال امبروزيو ، على أن لا تضيع إيطاليا الوقت قبل خروجها على ألمانيا « مع الملكية أو بدونها » ، وإن هذا ينطوى على الإطاحة بالدوتشى قبل كل شىء » .

وبينما كان بادوليو وأمبروزيو ، بالاتفاق مع جنرالين آخرين هما جيوسيبى كاستيلانو وبومبيو كاربونى ، يبحثون خططهم ويقوّمون فرصهم فى النجاح ، كان هناك عدد آخر من وزراء موسولينى الفاشيين يتآمرون للإطاحة بالدوتشى . وكان أكثر هؤلاء تأثيراً ، وجرأة فى الكلام جيوسيبى بوتاى ، وزير التربية . والكونت دينو جراندى ، وزير العدل . وكان الأخير ، يتميز كالماريشال بادوليو بالطموح والمكر والدهاء . وكان أيضاً غاية فى الذكاء والغرور والجاذبية ، وعلى النقيض من معظم القادة الفاشيين ، كان إنساناً مثقفاً إلى حدما ، وساحر الشخصية. فابتسامته رائعة ، وسلوكه غاية فى الخلط بين الانبساط والإبهام . وقد كان ولا يزال ، صاحب شخصية مغلقة ، لا يستطيع لا أصدقاؤه ولا أعداؤه معرفة خفاياها . وكان بين هؤلاء الأعداء ، جيدو بوفارينى جيدى ، وكيل وزارة الداخلية الضخم الجسم . والعائش على غرائزه ، وهو يأمل فى أن يؤدى اطلاعه الدوتشى على نشاطات جراندى التآمرية ، إلى تقربه منه . وقد تمكن من تحقيق ذلك بطريقة غاية فى الانحراف . إذ لما كان المسئول عن المخصصات السرية التى كان تشيانو قد أشار إليها . فقد أصبحت كلاريتا بيتاتشى معتمدة عليه كل الاعتماد . وقد حرص أيضاً كل الحرص على التقرب من الدونا راشيل موسولينى ، وبالرغم من أنها غدت تحتقره فيما بعد، إلا أنها كانت فى هذه الآونة قد أخذت بما يبديه لها من تملق وود . وكانت هناك امرأة ثالثة حرص بوفارينى — جيدى . على التقرب إليها ، وهى انجيلا كورتى ، إحدى عشيقات الدوتشى السابقات ،

والمحتفظة بثقته رغم انقطاع علاقته بها . وادعى القلق على سلامة موسوليني ، فأقنع أنجيلا ، بأن تكتب إلى الدوتشى عن المؤامرات التى يحوكها جراندى وبوتاى . وأسر إليها أيضاً بأن الكونت تشيانو وروبرتو فاريناتشى ، أخذا يظهران علائم جدية على عدم ولائهما .

لكن موسوليني لم يقلق كثيراً ، ولم يمض يومان على تسلمه رسالة انجيلا كورتى ، حتى كان قد قرر إحداث « تبدل جديد فى حرسه » ، وهو الأمر الذى كان يطلقه على التعديلات الوزارية فى العرف الفاشى . وكان كل ما حدث هو إجراء تبدل فى الوظائف الهامة ، بحيث لم يستثن منها أيًّا من الوزراء ، الذين تلقى التحذير بصددهم ، ولم يبعد أيًّا منهم من مدينة رومة . وبالرغم من أن الكونت جراندى قد أقصى عن وزارة العدل إلا أنه احتفظ برئاسة مجلس النواب . وأقصى جيوسيبى بوتاى عن وزارة التربية ولكنه احتفظ كالآخرين بعضوية المجلس الفاشى الأعلى . وأبعد الكونت تشيانو عن وزارة الخارجية ليخلفه فيها الدوتشى نفسه ، بعد أن أتى بجيوسيبى باستيانيني ، الذى كان سفيراً فى لندن لعدة أشهر قبل الحرب ليتولى وكالة الوزارة . ولكنه سمح لتشيانو بأن يختار المنصب الذى يريد ، فعين بناء على طلبه سفيراً لدى الفا تيكان . ويروى تشيانو أن موسوليني كان حائراً وهو يبلغه قراره هذا قائلا . . . « عليك أن تعتبر نفسك فى فترة استراحة ، وسيأتى دورك من جديد ثانية » . وأضاف تشيانو أن ساعة التسليم والوداع كانت ودية « وإنى لسعيد لذلك ، إذ أننى أحب موسوليني غاية الحب ، وكل ما آسف له ، هو أننى سأفقد اتصالى المباشر به » .

وبدا أن الغاية من التعديل الوزارى ، إقناع الألمان بأن شركاءهم فى المحور ، عازمون كل العزم على متابعة الحرب بمزيد من الحيوية والنشاط . وكان موسوليني قبل ستة أيام من إجراء تعديله الوزارى ، أى فى الواحد والثلاثين من يناير ، قد أقال الكونت أوجو كافاليرو ، من رئاسة أركان الجيش ، على إثر الهزائم العسكرية فى أفريقيا الشمالية ، وكان من الطبيعى أن يعقب ذلك تعديل وزارى .

وكان اختيار موسوليني لخليفة الجنرال كافاليرو ، المؤيد المخلص للحلف مع ألمانيا ، عملا ينطوى على الغباء ، تماماً كرفضه أن يحمل الأنباء التى وصلته عن تآمر

وزرائه عليه على محمل الجد . فقد اختار الجنرال أمبروزيو رئيساً لأركان الحرب ، وهو أحد الرجال المتورطين فى المؤامرات للإطاحة به ، والقائد الذى يكرهه ويحتقره الماريشال كيسلرنج القائد الألمانى العام فى إيطاليا ، كما يزدريه هتلر الذى يرى فيه أنه سيسر « بالغ السرور لو أن إيطاليا أصبحت اليوم مستعمرة بريطانية » .

وتوسعت المؤامرات مع مجئ الربيع وتشعبت . فقد كانت هناك مؤامرات ضد الملكية ، وأخرى ضد الفاشية . وثالثة ضد الألمان . ووجد فيليبو انفوسو الذى أم روما فى هذه الأيام قادماً من سفارته فى بودابست ، الكونت تشيانو ، وهو يعمل فى منصبه الجديد ، غارقاً إلى أم رأسه فى هذه المؤامرات ، كما وجد أن هناك كثيرين آخرين إلى جانبه لا يقلون عنه تورطاً . وقد ذكر انفوسو أنه كان من العسير اكتشاف « من يتآمر ، وفى أية مؤامرة يشترك ، ولكن الشيء الثابت أن كل واحد من المتآمرين ، كان يسعى لأسباب تختلف عن أسباب زميله إلى الإطاحة بالدوتشى » .

لكن موسولينى ظل على أى حال ، يتجاهل التقارير التى كانت تصله عنهم . فقد أوصلت إليه راشيل التحذيرات التى كانت قد تلقتها ، ولكنه طلب إليها أن لا تكترث . وقامت أخته ايدفيج بنفس المهمة ، ولكنه أبلغها بأنها تكسب الوضع صفة دراماتية ، مهولة فيها . ومضت انجيلا كورتى إليه فى شهر أبريل وقد استبد بها القلق ، تبلغه أن الملك ، لا يتلقى الزيارات المستمرة من الجنرالات المتمردين فحسب ، بل ومن الساسة من أعداء الفاشية أيضاً ، فرد موسولينى وهو الواثق من أن البلاط الملكى مبتوت الصلة بالأوساط الليبرالية ، بأنه لا يشك لحظة واحدة فى إخلاص الملك له ، وجاءه سكرتير الحزب بعد بضعة أسابيع يحمل تحذيراً مماثلا ويقول إن ابن بادوليو ، صرح فى مراكش بأن والده سيخلف موسولينى عما قريب ، وأن هناك أنباء من جميع أرجاء إيطاليا ، تقول إن الفاشيين أنفسهم يعدون العدة لتحطيمه ، ولكنه لم يحمل كل هذه التحذيرات على محمل الجد . ويقال إن البابا نفسه ، عرض عن طريق وسيط له ، أن يستقبله سرًّا وأن يزوده ببعض المعلومات التى يثق الفاتيكان من أن الدوتشى على جهل بها ، ولكن موسولينى رفض العرض أيضاً . وقد قال إنه اجتمع إلى الملك مؤخراً ، وأن جلالته

قد أكد له صداقته وإخلاصه .

وأخفى فى منتهى الحرص ما أحس به من قلق تجاه هذه التحذيرات المتكررة التى توالت عليه ، وتجاهل الأنباء المزعجة للغاية التى حملها إليه وزير تجارته ، ووصم الإضرابات الضخمة التى وقعت فى مناطق الشمال الصناعية بأنها من حيل البورجوازية ودسائسها ، وظل على تجاهله لخصومه ، كل التجاهل . وكانت الحرب هى كل ما يشغله ، وكان يؤكد أن أحداثها تصرفه عن الاهتمام بكل ما عداها . وكان على ثقة من أن الوضع السياسى . . « يعتمد كل الاعتماد على الوضع العسكرى » ، وأن نصراً يتحقق فى الميدان يسكت كل معارضة وكان لا يزال يصر على أن النصر العسكرى أمر محتمل ، إذا استطاع الجيش لم شعثه وتوحيد صفوفه . ولا ريب فى أن تراجع روميل سيطيل أمد الحرب ، ولكنه لا يشك فى نتيجتها النهائية . وقد يكون الوضع فى تونس حرجاً وفى منتهى الخطورة ، ولكن فى الإمكان إصلاحه . وكان يرى أن الضرورة الفورية تقضى بعقد صلح عن طريق التفاوض مع روسيا ، لتتمكن ألمانيا من صرف جهودها إلى الخطر الماثل فى البحر الأبيض المتوسط . وكتب فى السادس والعشرين من مارس إلى هتلر مهنئاً إياه على تمكنه من إعادة تثبيت الوضع فى الجبهة الشرقية بعد معركة ستالينجراد ، واقترح عليه بعد أن تم اضعاف روسيا إلى الحد الذى لا تستطيع فيه ولمدة طويلة ، أن تأمل فى أن تشكل خطراً خطيراً أن ينهى « القصة الروسية » . ولكن هتلر لم يكن ميالا إلى هذه الخطوة ، فقد أعمته رغبة جنونية متعصبة ، على حد تعبير دينوالفييرى سفير إيطاليا فى برلين « فى أن يهزم روسيا » . وأحس الفوهرر بالقلق من موقف الدوتشى ومن الأنباء التى تصله عن تزايد المشاعر المعادية للألمان فى إيطاليا ، ومن استبدال الجنرال كافاليرو ، « بجنرال سياسى غير موثوق » كامبروزيو ومن الأنباء المتواترة عن أن تشيانو قد ذهب إلى الفاتيكان كسفير ليفاوض على عقد صلح منفرد ، فراح يستدعى الدوتشى للمجئ إلى ألمانيا لبحث الوضع بكامله . وتم الاتفاق أخيراً على عقد اجتماع بينهما فى السابع من أبريل فى قصر كليشايم على مقربة من سالزبرج .

ولم يكن موسولينى راغباً فى الذهاب ، فلم يكن قد أبل بعد تمام الإبلال من

نوبة المرض العنيفة التى أصابته ، وكان يخشى أن يحتقره الألمان إذا ما استصحب معه طبيبه ليتولى مراقبته وإعطاءه الحقن ، وطباخه لإعداد طعامه الخاص . وكان قد قرر أنه « قد مل من استدعائه بالهاتف وسئم » ، وإنه كان قد قبل الذهاب فى المرة الأخيرة إلى ألمانيا شريطة أن يسمح له بتناول طعامه وحيداً ، رافضاً أن يسمح « للألمان المرحين » بأن يشهدوا بأنه مرغم على أن يعيش على حمية من الأرز والحليب . وعاوده المرض فى طريقه هذه المرة عدة مرات ووصل وقد بدا كما قال جوبلز « عجوزاً محطماً » . وقد نسى الآن إصراره السابق على ضرورة الصلح مع روسيا ، ومطالبته بعودة القوات الإيطالية من الجبهات الأخرى للدفاع عن الوطن ، وإبلاغ الألمان بأن من واجبهم تزويد ألمانيا بالمزيد من المساعدات الاقتصادية والعسكرية ، ولم يذكر إبان زيارته هذه ، مرة واحدة ، الحاجة إلى نوع جديد من الميثاق الأوربى بالنسبة إلى الصلح فى الغرب ، والذى سبق له أن تحدث مطولا عنه فى رومة . وكانت أحاديثه هذه المرة مفتقرة إلى الحماسة ، وسرعان ما تخلى عن محاولاته القيام بالحديث مسلماً ، أمره إلى الله ، فى الإصغاء ساعات طويلة للفوهرر وهو يعرض فى حديث لا ينتهى تصويره للوضع . وكان يفكر كما اعتقد الفييرى فيما يعنيه تصميم هتلر على شن هجوم عام جديد فى روسيا لمصير الجيش الإيطالى فى تونس . ورأى نفسه مضطراً فى اليوم الثانى من الزيارة إلى مغادرة قاعة الاجتماع بسبب تعرضه لنوبة عنيفة من « المغص» فى معدته وبينما كان يتعاطى فى غرفة ثانية العلاج الذى أعده له طبيبه لتخفيف الألم ، قال وقد بان الأسى على وجهه . . . « يريد الفوهرر أن يقوم طبيبه بفحصى . لكننى رفضت . فقد شخصت مرضى حتى الآن . إنه هذه « القوافل البحرية» . وبدا عليه اليأس والقلق حتى أن هتلر لم يخف قلقه ، كما قال للمرة الأولى ، لدونيتز عندما انتهت الزيارة من أن لا يكون الدوتشى ما زال مصراً على المضى فى الحرب حتى النهاية » .

ولكنه بدأ يشعر وهو فى طريق العودة إلى إيطاليا ، بتحسن فى معنوياته ، وراح يتصرف فى الأيام الأولى التى انقضت على عودته ، كما كان يتصرف دائماً فور عودته من كل زيارة لألمانيا كما يتوقع من الديكتاتور أن يتصرف . فقد هدد

بمزيد من الاعتقالات المختلفة ، وأصدر أوامره بإعداد معتقل جديد لمناهضى الفاشية . وراح يفصل كارمين سينيز من منصبه كرئيس للشرطة ، لأنه لم يعالج الإضرابات التى وقعت فى تورين وميلان بقسوة ، كما لم يحسن التصرف فى موضوع الصحف السرية أو السوق السوداء المنتشرة ، واختار عوضاً عنه ريينزو شيبريكى المعروف بغلظته . وقام أيضاً بفصل الدوفيدوسونى من سكرتارية الحزب واستعاض عنه بكارلو سكورزا ، وهو من أكثر شباب الحزب إخلاصاً ، وكان قد اتهم فى حادث قتل العصابات الفاشية فى عام ١٩٢٥ لجيوفانى اميندولا . وراح يدرس الخطط الموضوعة لإعداد مهرجانات إقليمية لشباب الحزب يتحدث فيها القادة إلى الشعب ، ويشجعونه على القتال حتى الموت . وراح يقول لبوتاى فى لهجة تنطوى على العاطفة والتهديد الخفى ... « إنهم ينشرون الشائعات أننى سأموت ، وأننى أذبل ، بل وأنتهى . . . حسناً سيروا بأعينهم . . . »

وخرج فى الذكرى السنوية لسقوط مدينة أديس أبابا فى شرفة قصر البندقية ليتحدث إلى الجماهير المحتشدة فى الميدان . . . فقال . . . وقد علا صوته معيداً ذكريات أيام شبابه . . . « إننى أحس فى أصواتكم خفق الإيمان الذى لا يتطرق إليه شك . . . لا تخشوا شيئاً فالنصر النهائى لنا . وليس ثمة من ريب لدى فى أن تضحياتكم ستجازى . وأنا لا أشك فى هذا كما لا أشك فى أن الله عادل وإن إيطاليا خالدة » .

وعاد إلى داخل القصر وهتافات الجماهير تبعث فى نفسه الحيوية والشجاعة . وأغلق الباب وراءه ، وكانت المرة الأخيرة التى يفتح فيها هذا الباب له ، وإن كان أحد لم يقدر فى رومة فى تلك الأيام ، أن موسولينى يخطب الجماهير فيها لآخر مرة فى حياته .

ولم يمض يومان حتى كانت حماسته المؤقتة قد خبت . وبعد زهاء أسبوعين كانت جميع قوات المحور فى أفريقيا قد استسلمت ، وأصبح النزول فى الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط ، متوقعاً فى كل لحظة . واعتقد هتلر أن هجوم الحلفاء سيستهدف جزيرة سردينيا ، أما موسولينى فقد اعتقد أن صقلية هى الهدف ، وراح يقول لجنرالاته فى اجتماع عقده معهم فى دارة تورلونيا ، بأن عليهم

أن يقاوموا مثل هذا الهجوم مقاومة عنيفة ، إذ ليس ثمة احتمال لتسوية سياسية أو صلح منفرد . وبدأ الهجوم فى العاشر من يوليو بعد قصف مدفعى عنيف للساحل . ولم تمض أيام حتى كانت جيوش الحلفاء تتدفق عبر سهل كاتانيا ، وكان موسولينى قد صرم أسبوعه الأخيرة متردداً بين فترات من الهدوء المدروس وأخرى من الغضب الصريح على القوات الإيطالية المتراجعة .

وكان الملك فى هذه الآونة قد حزم أمره على أنه لم يعد فى وسعه أن يصبر ، وذلك بعد فترات طويلة من التردد والإحجام دعت المتآمرين إلى الشك فى أنه سيقف فى يوم ما موقفاً صلباً صامداً . وقرر بصورة مستقلة عن الفاشيين الذين كان على اتصال بهم ، وبناء على نصيحة الجنرال كاستيلانو والدوق داكويرون اعتقال موسولينى فى أحد أيام الإثنين أو الخميس التى كان يذهب فيها إلى قصر الكيرينالى أو فيلاسافويا ، للمقابلة الملكية العادية . وسأل الماريشال بادوليو إذا كان على استعداد لأن يخلف الدوتشى كرئيس للحكومة ، وأبلغه هذا موافقته ، مقترحاً تأليف حكومة من غير الفاشيين تضم أشخاصاً من أمثال الاشتراكى ايفانو بونومى وفيتوريو ايمانيولى أورلاندو ، أحد رؤساء الوزارات السابقين . وسرعان ما اجتمع كاستيلانو وداكويرون للبحث فى تفاصيل الاعتقال ، والإجراءات التى يجب أن تتخذ لضمان عدم قيام معارضة يستعصى أمرها من جانب أعوان موسولينى ولا سيا من الجنرال جاليباتى ، الذى أصبح الآن ، وبتوصية من أسرة بيتاتشى ، قائداً للحرس الفاشى .

وكان المتآمرون الفاشيون قد قرروا فى غضون ذلك أن ليس فى وسعهم الانتظار مدة أطول . وبالرغم مما كان بينهم من خلافات صادرة عن الشكوك والحزازات المتبادلة والغيرة ، وعن مطامحهم المتضاربة ، فقد كانوا على اتفاق ، أنه بالنسبة إلى الحالة الطارئة التى فرضها عليهم غزو جزيرة صقلية ، فإن من الواجب دعوة المجلس الفاشى الأعلى ، وهو أعلى سلطة دستورية فى الدولة ، إلى الاجتماع ، إذ أنه لم يجتمع بالرغم من أن موسولينى هو الذى ألفه منذ نشوب الحرب . واجتمع نفر من كبار قادة الحزب فى السادس عشر من يوليو فى مدينة رومة ، إذ كان من المقرر أن يتحدثوا فى مهرجانات الحزب الإقليمية التى كانت قد صممت قبل غزو

صقلية ، وأصروا على ضرورة اجتماع المجلس الأعلى ليستمع إلى تقرير من موسوليني عن الأوضاع العامة ، التي أخذت تسوء يوماً بعد يوم ، إلى الحد الذى أثار الفزع . ورفض موسوليني فى البداية ، الإذعان لهذا الطلب ، ولكنه اضطر أخيراً إلى الموافقة ، وحدد موعد الاجتماع فى الأسبوع التالى أى يوم السبت فى الرابع والعشرين من يوليو .

وتلقى موسوليني يوم الاثنين من ذلك الأسبوع دعوة من هتلر للاجتماع به ثانية فى مؤتمر عاجل يعقدانه فى إيطاليا . فقد فزع هتلر أكثر من أى يوم مضى ، من الأنباء التى وصلته عن تفاقم المشاعر المعادية لألمانيا عند الإيطاليين ، وعن استسلام وحدات الجيش الإيطالى بالجملة فى صقلية . ورفضها التعاون مع الجيش الألمانى . وأمل فى تقوية المقاومة الإيطاليةعن طريق إقناع الدوتشى بالموافقة على أن يضع الجيوش الإيطالية تحت امرة القيادة الألمانية العليا . وقاد موسوليني طائرته بنفسه من ريميني إلى تريفيزو ، حيث اجتمع بهتلر على أرض المطار ، ثم استصحبه إلى دارة عضو مجلس الشيوخ اخيل جاجيا فى فيلترى ، على السفوح الجنوبية لجبال الدولولاميت . وكانت الدارة كما وصفها موسوليني « بناء محيراً كثير التعاريج لا يجد فيه بعض الناس أى فن هندسى . أجل انه أشبه بلغز الكلمات المتقاطعة ، الذى اتخذ صورة منزل » . وكان جو المقابلة فى منتهى الرسمية والتوتر .

كان هذا اللقاء هو الثالث عشر بينهما ، وقد سار على الغرار المألوف فى لقاءاتهما . فقد ظل هتلر يتحدث زهاء ثلاث ساعات بين الحادية عشرة والثانية . وكان ما قاله فى منتهى البساطة والصراحة . فليس أمامهما سوى شىء واحد ، وهو المضى فى القتال ، لا فى إيطاليا وحدها ، بل وفى روسيا أيضاً ، حتى يتحقق النصر للمحور ، وقد لا يكون من المجدى ، الاعتقاد بأن هذا قد يتحقق بلا تضحيات . فنى ألمانيا يقاتل فتيان الخامسة عشرة فى البطاريات المضادة للطائرات . أما فى إيطاليا فيبدو الوضع جد مختلف . فلم يقاتل الجنود كما كان يتحتم عليهم أن يقاتلوا ، ولم يعد للإدارة المدنية احترام كاف فى نفوس الجنود . وقد استسلم الشعب للانهزامية ، وبات لزاماً اتخاذ إجراءات أكثر صرامة وحيوية ، إذ يجب إعدام الجبناء والخونة والمفتقرين إلى الكفاية ، وعلى الجيوش الإيطالية أن تضع نفسها تحت قيادة

الألمان . وكان موسوليني يصغى صامتاً وقد ضم ساقيه فى وضع متقاطع . وهو يجلس على حافة مقعده الكبير ، وقد أرخى ذراعيه على ركبتيه . وبدا أن الألم قد عاوده ، إذ كثيراً ما استلقى على ظهره وقد ضغط بيديه على خاصرتيه ، صادراً عن أنة تنطق بالألم . وكثيراً ما فرك شفتيه بمؤخرة أصابعه ، ليروح بعدها يمسح العرق المتصبب على جبهته بمنديله . لكنه لم يتكلم الامرتين ، الأولى عندما تدخل ليصحح رقماً عن حقيقة سكان كورسيكا ، والثانية عندما جاءه سكرتيره ليسلم إليه ورقة صغيرة ، راح يعلن بعد أن قرأها بشكل مسرحى ، وبالألمانية إن « العدو يقوم فى هذه اللحظة بالذات ، بغارة جوية ثقيلة على مدينة رومة » .

وبعد أن تحدث الإيطاليون حديثاً قصيراً عن الغارة الجوية ، راح هتلر يواصل خطبته العنيفة . لكن موسوليني لم يعد يصغى لما يقوله . وعندما انفض الاجتماع . لتناول الغداء قال . . . « إن ما يقلقنى أشد القلق . هو أن أكون بعيداً عن رومة فى مثل هذه اللحظة . ترى ما الذى سيقوله أهل رومة عنى ؟ »

ولم يكن الإيطاليون الثلاثة الذين يرافقونه ، وهم باستيانيني وكيل وزارة الخارجية ، والفييرى ، سفيره فى برلين ، وامبروزيو ، قائد جيشه مكترثين بما سيقوله أهل رومة عنه ، بل انصرف همهم ، إلى الإلحاف عليهم ، ليرد على اتهامات الفوهرر ، وليبلغه أن إيطاليا ، وصلت نهاية المطاف . ولم يعد فى وسعها أن تستمر مدة أطول ، دون مساعدات ضخمة . وكان الجنرال امبروزيو ، قد سأل الماريشال كايتل وهم فى طريقهم إلى فيلتريه ، عن المساعدات التى يمكن لإيطاليا أن تتوقعها من ألمانيا قبل أن يفوت الأوان . وكان الفييرى ، يجلس فى نفس السيارة إلى جانب السفير الألمانى . مصغياً إلى أسئلة امبروزيو الصريحة والمباشرة بكثير من الإعجاب . وراح يقول لنفسه . . . « وأخيراً هنا رجل ، لا يخشى أن يستعمل اللغة التى انتظرت طويلا سماعها » . لكن محاولات امبروزيو لم تجد فتيلا . فقد رد كايتل بشىء من البرود ، وهو يرفض أن يجر القائد الإيطالى قدمه ، قائلا . . . « سيبحث الزعيمان فى هذه القضايا ، كما تعرف ولا شك » .

ولم يكن امبروزيو ، أكثر نجاحاً مع الدوتشى منه مع كايتل . فقد أصغى موسوليني إلى نصائحه وهو صامت ، ثم انفجر فجأة يقول . . . « أو تظن أن

نفس الأفكار التى تساورك لا تعذبنى ولا تؤرقنى ؟ فوراء هذا القناع من الجمود الذى أحمله ، روح معذبة . ولكن لو فرضنا أننا انسحبنا من جانب الألمان ، فما هى النتيجة ؟ ولو رحنا ذات يوم ، وفى ساعة معينة ، نذيع رسالة نوجهها إلى العدو ، فما الذى سيحدث ؟ إن ما سيطلبه أعداؤنا ، ولهم الحق فى ذلك ، استسلامنا بلا قيد أو شرط . ولكن أنستطيع على هذا النحو من السهولة ، أن نسلم بجهود عشرين عاماً ، وأن نتخلى عن تحقيق آمالنا ؟ وما الذى سيفعله هتلر كما تظن ؟ أو تظن أنه سيتركنا أحراراً نفعل كما نشاء ؟ »

وكان يتحدث بصوت وصفه الفيبيرى بأنه كان يتهدج بتأثير العاطفة . وبدا أكثر قلقاً من أى يوم مضى ، وعندما أبدى أمبروزيو ، أثناء النقاش ملاحظة أخرى ذكر فيها أن الحرب لا تحظى بالتأييد الشعبى فى إيطاليا ، استدار إليه موسولينى ثائراً يقول . . . « أرجو أن تتخلى عن تفاهاتك بحق الإله . أهناك حرب حظيت فى التاريخ أو تحظى فى المستقبل بالتأييد الشعبى . إن الحرب لا تنال هذا التأييد إلا عندما تنتهى إلى النصر » .

وسرعان ما تبخر غضبه ، وشرع بعد توقف لحظة واحدة يتحدث بهدوء ملقياً خطاباً سياسياً وتاريخياً مطولا . كان لابد أن يكون كما قال السفير الفيبيرى ، « فى منتهى الطرافة والأهمية لو ألقى فى مكان وزمان آخرين » .

وقد قطع عليه خطابه اللامناسب هذا ، مجئ سكرتيره دى سيزارى ، يبلغه أن الفوهرر فى انتظاره لتناول الغداء . ومضى موسولينى يقطع الممر الطويل إلى قاعة الطعام ، وهو يبدو كما لاحظ الفيبيرى فيما بعد « شارد الذهن إلى حد غريب » .

وكان أعضاء الوفد الإيطالى ، وهم فى طريق العودة فى القطار إلى تريفيزو يتساءلون عما دار بين موسولينى وهتلر من حديث ، عندما اختليا وحيدين فى قاعة الطعام ، وقال ماكنزن السفير الألمانى مؤكداً لهم . . . « أعتقد أنهما توصلا فى هذا الوقت إلى بعض القرارات البالغة الأهمية » . وظل الجميع يرقبون الزعيمين ، وهما يغادران محطة تريفيزيو فى السيارة ، ليستقلاها إلى المطار . وقد بدا الرجلان كما قال الفيبيرى فيما بعد فى منتهى الهدوء والرضى » ، ولعل الدوتشى قد فاتح حليفه بكل ما يريد قوله على أى حال . لكن ايركول بوراتو ، سائق السيارة التى

أقلتهما ، كان يعرف أحسن من غيره . فقد ذكر أن موسولينى « وجد صعوبة فى إخفاء قلقه . وقد ظهر التوتر بينهما أثناء الطريق فى ثورات مفاجئة من جانب الزعيم الألمانى ، وردود فعل مكبوتة من جانب حليفه الإيطالى » .

وعندما حلقت الطائرة « الكوندور » حاملة هتلر فى طريق العودة إلى ألمانيا ، وقف موسولينى وحيداً فى أرض المطار . وقد اتخذ شكل الاستعداد العسكرى ، ورفع يده بالتحية التقليدية . وسرعان ما استدار فجأة يمشى فى طريقه إلى طائرته . وأسرع امبروزيو والفيبرى وباستيانينى الخطو وراءه للحاق به . وتظاهر بأنه لا يراهم ، ثم ارتدى معطف الطيران ، وأخذ يتحدث بكثير من الاهتمام إلى الجنرال الإيطالى الذى يتولى قيادة القوات المرابطة فى تريفيزيو . وخشى أن يسافر الدوتشى دون أن يفصح بشىء عما اتفق عليه مع هتلر . فتغلب على تردده ، وتقدم إليه ، يسأله تحت ستار رغبته فى الحصول على تعليماته الجديدة ، قبل أن يعود إلى سفارته فى برلين ، ولكن موسولينى نحاه جانباً ، وقال وسط الهدير الذى أحدثه صوت محركات الطائرة وهى تدور . . . « لم أجد ضرورة للتحدث إلى هتلر بما اقترحته ، فقد وعد هذه المرة بمنتهى الصدق ، بأن يبعث إلينا بكل ما نطلبه من مساعدات » ، وراح يضيف وهو يلتفت إلى امبروزيو . . . « ومن الضرورى بالطبع ، أن تكون طلباتنا معقولة » .

كان هذا هو الصورة النهائية لخيبة الأمل . فقد عرف أمبروزيو من الحديث القصير الذى دار بينه وبين كايتل ، أن الألمان لن يستجيبوا حتى إلى الطلبات المعقولة ، إلا إذا وافق الإيطاليون على شروطهم التى اعترف موسولينى بأنها غير مقبولة كلياً . وكان الجنرال على ثقة من أن موسولينى يرفض مواجهة مشاكله برجولة . وشك فى أن يكون قد أبلغ هتلر ، أن إيطاليا ستكون عاجزة كل العجز عما قريب عن المضى فى القتال . وعرف الآن أن موسولينى لم يبعث إلى هتلر بالرسالة التى قال إنه سيبعث بها إليه ، ليبلغه فيها اضطرار إيطاليا إلى عقد الصلح ، كما عرف أن هذه الرسالة لن ترسل أبداً . وعاد إلى روما وهو مقتنع كل الاقتناع ، من أن الجنرالات الآخرين كانوا على حق ، وأن من المستحيل اقناع الدوتشى بالانتقاض على ألمانيا ، وأن إزاحته عن الحكم ، هو الأمل الوحيد المتبقى لإيطاليا .

٢

ومضى موسوليني بعد عودته من فيلترى إلى الملك ، يقدم إليه تقريراً عن الاجتماع . وكان قبل ذهابه إلى القصر قد أبلغ عضو مجلس الشيوخ مانليومورجاجنى بوصفه رئيس مجلس إدارة وكالة استيفانى للأنباء ، بأن الألمان ما زالوا أقوياء إلى حد يكفى « لصد التيار » ، وحل الوضع بكامله فى إيطاليا » . ولكنهم يحتاجون لتحقيق ذلك ، إلى « القيادة الفعلية لا للجبهة الإيطالية وحدها ، بل وللميدان الداخلى أيضاً . ولكن هذا شرط لن يقبل به الشعب ، ولن يرتضيه الملك ، ولن يكون فى وسعى الرضى به » .

ويقول موسوليني فيما كتبه فيما بعد إنه وجد الملك مقطباً وفى حالة عصبية . وكان الجو فى منتهى التوتر . وقال الملك . . . « لا يمكن للأمور أن تستمر على هذا النحو . فها هى صقلية قد ضاعت منا . وسيقوم الألمان بخديعتنا . أما نظام الجنود وانضباطهم فقد انهارا كل الانهيار» . كان هذا هو لباب الحديث . ويبدو أن الملك عارض بمنتهى العنف شروط الألمان . فقد أبلغه امبروزيو صورة عن موقف هتلر فى فيلترى ، كما أوضح له أن موسوليني بدا عاجزاً من الناحية الصحية والمعنوية عن عرض المأساة الإيطالية فى ضوئها الصحيح . وأشار الملك أثناء المقابلة إلى تزايد مشاعر الكره فى إيطاليا للدوتشى ، كما تحدث إليه عن الأنباء التى وصلته عن مختلف المؤامرات التى تحاك ضده . لكنه طمأن موسوليني على وضعه ، وغادر موسوليني القصر وهو مطمئن إلى سلامته كما كان دائماً ، ولم تمض ساعات حتى كان روبرتو فاريناتشى يحذره من أن لدى الجنرال كافاليرو أدلة تثبت أن القصر والكونت جراندى يتآمران للإطاحة به ، وإن ما هو أهم من هذا بالنسبة إليه ، أن التآمر يشمل أيضاً موضوع الانتقاض على ألمانيا . ورد موسوليني بأن هذا مستحيل ، وإنه لا يصدق هذا القول . فقد سمع الملك فى ذلك الصباح . وهو يقول له . . . « لا ريب فى أنها أيام مخيفة بالنسبة إليك ، ولكن فى وسعك أن تثق وأن تطمئن ، إلى أنك ستجد فىّ دائماً ، صديقاً لك . فمن السخف كل

السخف أن تفترض أن جميع الناس سيتخلون عنك بعد كل ما فعلته لإيطاليا . على أى حال ، سأكون آخر من يتخلى عنك » . وعندما جاءه سكورزا يحمل تحذيراً آخر ، وإن محادثة هاتفية قد التقطت بين بادوليو والدوق دا كويرون ، لم يبد اهتماماً حتى فى معرفة ما دار فى هذا الحديث الهاتفى . وكان الحديث يدور حول « اعتقاله » ذات يوم وهو يغادر قصر الملك بعد مقابلته ، وهذا ما أصر سكورزا على إبلاغه إياه . . . فكان تعليق موسولينى الوحيد على هذا القول . . . « أنا أكره الجبناء » .

ومضى فى ذلك المساء ، لتفقد ما أحدثته غارة التاسع عشر من يوليو الجوية من أضرار فى مدينة رومة . وكانت أنقاض الأبنية لا تزال عابقة بالدخان ، وتطلع إليها الدوتشى . وقد ظهرت على أساريره ، كما قال سائقه فيما بعد، علائم الأسى واليأس .

واستخدم فيليبو انفوسو تعبيراً مماثلا فى وصف مشاعره ، عندما تطلع من نافذة غرفة جلوس تشيانو فى شارع انجيلو سيشى ، فرأى سحب الغبار وهى تصعد ببطء متجهة إلى الشرق . وقال فيما بعد ، إن هذه القنابل ، كانت المنبع الذى استمدت منه مؤامرات رومة وحيها .

ولم يعد أحد يفكر الآن بشىء آخر ، سوى هذه المؤامرات ، فحتى ذلك الحشد من الأميرات والنبيلات ، اللائى كن يستعرضن داخلات خارجات من بيت تشيانو ، متهامسات بالتجارب التى مررن بها أثناء الغارة ، ضاحكات من انفوسو ، ذلك الشاب الصقلى العاطفى ، وهو يؤكد ضرورة الدفاع عن جزيرته ومسقط رأسه ، مهما كان الثمن ، واللائى كن لا يتحدثن فى العادة إلا عن أنفسهن ، وكأنهن « الجوارى اللائى يقمن فى حريم القصور » بتن ينصتن الآن إلى كل نبأ يسمعنه عن حل تلك المشكلة التى اسمتها إحداهن « بلغز سقوط الدوتشى الوشيك الوقوع » . إذ لم يكن يعرف أحد ماذا سيقع حقاً ، كما لم يكن هناك اتفاق على ما يجب أن يقع . فقد ذكر باستيانينى أن موسولينى حطم إيطاليا ، بينما خيل لجيتانو بولفيريلى وزير الثقافة الشعبية الجديد ، بأن موسولينى هو الوحيد الذى يستطيع إنقاذها . وقال فيتوريو سينى ، وزير المواصلات إن « موسولينى قد

جن وإنه يجب الخلاص منه » ، بينما تصور ايرمانو اميكوكى أن أولئك الذين يريدون الإطاحة به هم المجانين . ومضى يقول . . . « وأنا لاأعرف ما الذى يريدون عمله ، ولكن من السهل على أن أرى أنهم سيقودوننا إلى الخراب . » أما تشيانو الذى كان معظمهم يعتقد بأنه الخليفة الشرعى للدوتشى فقد ظل صامتاً مغلقاً ، محتفظاً بسره لنفسه . ولم يكن ثمة أدنى ريب فى أن تشيانو لم يعد قريباً من موسولينى كما كان من قبل اقصائه عن وزارة الخارجية بل وقبل نشوب الحرب فى الواقع . ففى يناير عام ١٩٤١ ، وكان كغيره من الوزراء ، قد صدر إليه أمر الدوتشى بأن يمضى إلى الحرب ليكون قدوة للأمة . جاء إلى قصر البندقية ، ليودع حماه ، قبل مغادرته ليتولى قيادة أحد أسراب القوة الجوية فى بارى ، فوجد الدوتشى فى منتهى البرود والنأى عنه . وانتزعت منه أثناء غيبته ، جميع قضايا السياسة الخارجية ، ولم يعد يعرف شيئاً عن حقيقة ما يدور . وعاش فى بارى فى فندق « أوربا » ، حيث كان يقضى أوقات فراغه بين المهمات الجوية التى توكل إليه ، وتعرضت حياته هناك . بالرغم من أنها لم تكن أكثر صخباً من حياة أى ضابط فى السلاح الجوى ، لموجة عارمة من النقد المؤذى ، وخيل إلى تشيانو ، وقد رفض موسولينى مساعدته فى الخلاص من إحدى فضائحه ، أنه بات ضحية حقد الدوتشى وكراهيته . وكثيراً ما تحدث بذلك إلى أصدقائه ، فإذا ما جرؤ أحدهم على توجيه النقد إلى الدوتشى ، نظر إليه تشيانو نظرة ساخطة . وكثيراً ما سمع بوتاى يقول . « كم أود أن أعرف الطريق التى سيقفز فيها ذلك القط » . ولكن تشيانو ظل مغلقاً ، ولم يعرف أحد حقيقة نواياه ، كما اعترف أنفوسو ، نفسه بشىء من خيبة الأمل (كان أنفوسو مديراً لمكتب تشيانو) . وكل ما كان أكيداً ، هو أن الدوتشى أخذ يقترب من الكارثة ، وإن مدينة رومة ، وقد انتشرت سحب الغبار من الغارات فوقها ، واشتد الحر فيها إلى حد الاختناق ، كانت تنتظر ، كما قال موسولينى نفسه ، « تمثيل مسرحية كبرى ، على مسرحها » .

٣

اجتماع المجلس الأعلى

من ٢٤ إلى ٢٥ يوليو ١٩٤٣

« جئت إلى روما لأظل فى الحكم فيها أطول مدة ممكنة » .

مضى دينو جراندي بعد ظهر الواحد والعشرين من يوليو إلى شارع فردیناندو دی سافویا ، لیزور فیدیرزونی ، رئيس المجمع العلمى الإيطالى فى تلك الأيام . فقد كان فيديرزونى ، مواطناً من أبناء بولونا التى ينتمى إليها جراندى ، وكان فى وسع هذا أن يثق به ، ويطمئن إليه . وعرض عليه جراندى ، مسودة مشروع القرار الذى كان يعتزم تقديمه إلى اجتماع المجلس الأعلى . وكان المشروع يبدو فى ظاهره ، وللوهلة الأولى ، فى منتهى البراءة . لكن حقيقة الغاية منه ، كانت تبدو فى عباراته الأخيرة القليلة . فبعد المقدمة الطويلة . البليغة العبارات ، والناقلة لعدد من الحقائق الثابتة المقررة ، والآمال البراقة ، يعلن المشروع « ضرورة عودة الدولة فوراً إلى أعمالها السابقة ، على أن يستعيد الملك والمجلس الأعلى والحكومة والبرلمان والاتحادات المهنية ، جميع واجباتها ومسئولياتها ، المقررة لها بموجب الدستور والقوانين الأساسية » . وأعلن المشروع أيضاً أن من الضرورى دعوة « رئيس الحكومة إلى أن يطلب من جلالة الملك ، الذى تتجه إليه قلوب أفراد الأمة جميعاً بالثقة والإيمان ، أن يتولى إذا شاء حفاظاً على كرامة الأمة ورغبة فى إنقاذها ، بالإضافة إلى القيادة الفعلية للقوات المسلحة . الحق الأعلى فى اتخاذ القرارات ، وهو الحق الذى تضفيه عليه نظمنا ، وكان طيلة تاريخنا القومى . التراث المجيد لأسرة سافوى العظيمة » . وبعبارة أخرى كان على موسولينى بموجب هذا المشروع أن يتخلى عن جميع سلطاته .

وقرأ فيديرزيونى هذه الورقة بصمت وعناية . وعندما كان يقرأ المشروع بمثل هذا الإمعان ، كان جراندى يراقبه ، وخيل إليه أنه قد أخطأ فى اطلاعه عليه .

ولكن سرعان ما هدأت خواطره ، واطمأنت نفسه . فقد قال رئيس المجمع العلمى وهو يعيد إليه ورقته . . . « علينا أن نجرب كل شيء ، وكل وسيلة ، حتى المستحيل منها ، لإنقاذ الأمة من الدمار الكامل ، ولو قدر لنا أن نفشل فى محاولتنا فإن تضحيتنا ستكون الشعلة التى تلهب الثورة ، وتوقظ الشعب من حالة الخمود التى يعيشها » .

وعندما لقى جراندى هذا التشجيع من فيديرزيونى راح يعرض مشروعه على جيوسبى بوتاى ، وجيوسبى باستيانينى وأومبرتو البينى ، وهم من الأعضاء المهمين فى المجلس الفاشى الأعلى . وقد وافقوا جميعاً على تأييد مشروعه فى الاجتماع .

وكان بوتاى أرفع الثلاثة منزلة وأكثرهم تجلة . فقد كان من أقدم أنصار الفاشية ، وكان من القادة القلائل الذين يتميزون بالثقافة العالية . أجل كان كاتباً فذاً ، ومفاوضاً من الدرجة الأولى ، وإدارياً قديراً . وكان عند توليه وزارة الاتحادات المهنية مسئولا عن ميثاق العمل الفاشى ، كما كان عند توليه وزارة التربية مسؤولا عن قانون المعارف وهو القانون الذى استعيض به عن قانون « جنتيل » لعام ١٩٢٣ ، الذى اعتبر مغرقاً فى الليبرالية والعداء للكنيسة ، وكان القصد منه أن يفرض الإشراف الفاشى على النظام التعليمى فى إيطاليا . ومن المعروف عنه أنه كان من الأذكياء ، والماكرين والصريحين فى آرائهم . فلم يخف قط أن إخلاصه الصادق السابق لموسولينى قد تحول إلى خيبة أمل ، كما لم يخف أيضاً كراهيته للحرب . وكان قد أبلغ تشيانو فى ملعب الجولف ، وقبل إعلان موسولينى الحرب بأسبوع على فرنسا وبريطانيا ، بأن الواجب يقضى بإنشاء حزب ينافس الحزب الفاشى . على أن يطلق على نفسه اسم « حزب المتدخلين فى الحرب لمقاصد سيئة » . وازداد عنف نقده بعد عامين . فقد ذكر أن الطريقة الوحيدة للنجاح فى إيطاليا اليوم ، باتت التعرف على أسرة بيتاتشى ، وإنه لهذا قرر أن يعين لنفسه سفيراً لدى بلاط هذه الأسرة . وقام فى صيف عام ١٩٤٢ بزيارة تشيانو . ودون هذا فى يومياته عن هذه الزيارة فيما بعد قوله . . . « لم يكن لديه ما يقوله لى سوى أن عداءه لموسولينى قد زاد اليوم عن أى يوم مضى . وإذا كان يعترف بمثل هذا لى أنا ، فنى وسع المرء أن يتصور ما يقوله إلى أصدقائه فى مجالسه

الخاصة » . وقام بزيارة تشيانو ثانية فى الشهر التالى ، وراح يتحدث إليه من جديد عن « التهم التى لا نفع فيها » . فقد تحدث عن موسولينى بغضب ممتزج بالسخط . وقال إن الحرب غير مشروعة ، لأن المجلس الأعلى لم يستشر فى أمرها . ولم يكن الدوتشى فى نظره إلا « رجلا علم نفسه ، وكان معلمه من أسوأ المعلمين ، وكان تلميذه أسوأ الطلاب طراً » .

وأحس جراندى أن فى إمكانه أن يعتمد على رجال من أمثال بوتاى ، فى العون الضخم الذى يحتاج إليه لمواجهة موسولينى نفسه فى المجلس الفاشى الأعلى . أما بالنسبة إلى باستيانينى والبينى ، فلم يكن على ثقة من صمودهما أمام الدوتشى .

ولم يكن باستيانينى الذى اختاره موسولينى نفسه خليفة لتشيانو فى وزارة الخارجية فى قصر شيجى ، يشترك مع بوتاى فى مشاعر الكره العميق للدوتشى ، ولكنه كان يعرف تمام المعرفة ، أن الحرب تقود إيطاليا إلى كارثتها ، وأن إخراج موسولينى من رئاسة الحكومة . قد يساعد على عقد صلح منفرد مع الحلفاء . وكان ، وقد وضع هذا الهدف نصب عينه ، قد شرع فى جس نبض الحلفاء عن طريق بعض السفارات المحايدة . ولما كان رجلا يتصف بالحذر والدقة والسير فى خط معين ، بطبيعته ، فلم يكن من الطراز الذى يوجه النقد العنيف إلى الدوتشى عند اجتماع المجلس ، ولكن لم يكن ثمة شك فى أنه سيقترع إلى جانب مشروع جراندى إذا تبين له أنه سيفوز فى نتيجة الاقتراع .

وكان البينى قد خلف بوفارينى — جيدى ، فى وكالة وزارة الداخلية أثناء التعديل الوزارى الأخير ، وكان يعرف معرفة صحيحة ومن مصادرها الأولية مدى الوضع المفجع والواقعى الذى وصلت إليه الجبهة الداخلية . وقد آمن كباستيانينى بوجوب استبدال موسولينى ، ولكنه كزميله ، لم يكن من المتوقع منه أن يتخذ نفس الموقف الهجومى الذى كان سيقفه بوتاى .

وقد اتخذ عدد آخر من أعضاء المجلس الأعلى الذين اتصل بهم جراندى وفيديرزيونى وبوتاى نفس الموقف الحذر والمتردد الذى اتخذه باستيانينى والبينى . وكان دى بونو ودى فيشى العضوين الوحيدين الباقيين بعد مصرع بالبو فى حادث الطائرة من مجلس الأربعة الذى قاد الزحف على رومة فى عام ١٩٢٢ ، وقد وافقا

مع آنيو بيجناردى رئيس الاتحاد الفاشى القومى للعمال الزراعيين والكونت جياكومو سواردو ، رئيس مجلس الشيوخ ، وجيانيني وزير الاتحادات العمالية ودى ستيفانى الوزير السابق للمالية على تأييد مشروع جراندى ، ولكن أيًّا منهم لم يعرب عن استعداده لتحمل مسئولية إظهار موقفه أثناء الاجتماع ، إلا إذا تبين له أن النقاش يسير سيراً مواتياً للمشروع نفسه .

ودهش جراندى كل الدهشة من أن كارلو سكورزا ، السكرتير العام للحزب ، أبدى استعداده لتأييد المشروع عندما عرضه عليه يوم الأربعاء فى الواحد والعشرين من يوليو فى مقر قيادة الحزب . لكنه احتاط لنفسه ، قبل أن يتعهد بشيء ، فأخذ صورة عن المشروع إلى موسولينى الذى مضى لمقابلته ظهر ذلك اليوم ليعرض عليه تقريره . وقرأ موسولينى المسودة بسرعة ، ولم يبد عليه أى ذعر . وأعادها إلى صاحبها مكتفياً بقول مقتضب بأنها « غير مقبولة ، وتثير الاشمئزاز » . وذكر موسولينى فيما بعد ، أن سكورزا « طوى الورقة وأعادها إلى محفظته ولم يعد إلى إثارة الموضوع ثانية » . وراح سكورزا يعد بعد أن غادر قصر البندقية مسودة المشروع الذى اعتزم تقديمه إلى المجلس الأعلى ، كبديل عن مشروع جراندى .

٢

وبعد أن تأكد جراندى من أنه قد حصل على تأييد فيديرزونى وبوتاى وباستيانينى والبينى ، وكذلك سكورزا ، كما أمل ، راح يطلب مقابلة الدوتشى . وقد ذكر هو أنه لم يكن راغباً فى أن « يظهر بصورة المتآمر » ، وكان لا يزال يأمل فى أن يتمكن من إقناع الدوتشى بالقيام تلقائياً بإيماءة تجعل الاجتماع أمراً لا ضرورة له . وفى الساعة الخامسة من بعد ظهر الثانى والعشرين من يوليو ، استقبل موسولينى جراندى فى صالة « الكرة الأرضية » فى قصر البندقية . وكان الدوتشى يقف وراء مكتبه الضخم ، يرقب زائره بنظرة باردة جامدة وهو يتقدم إليه . ولم يدعه موسولينى إلى الجلوس ، وإنما راح هذا يتلو مشروع القرار على مسامع الدوتشى مشفعاً إياه بخطبة قصيرة أيده فيها ، ولم يقاطعه موسولينى ، وإنما ظل

يرقبه بنظره فيها كل معانى الازدراء المترفع ، وعندما انتهى هذا من خطابه ، راح موسولينى يقول . . . « فارقنى الآن ، وسنلتقى ثانية فى المجلس الأعلى » .

وعندما خرج جراندي . ماراً بقاعة الاجتماع ، كان خدم القصر ، يعدون المقاعد للاجتماع . وكان الماريشال كيسلرنج يجلس على أحد هذه المقاعد منتظراً مقابلة الدوتشى . وذكر جراندى فيما بعد ، أن هذا الحادث لم يكن « دليل خير » . وكانت أعصابه قد شدت باعترافه ، إذ أن جمود الدوتشى وثقته المتعالية لم يكونا من النوع المقلق فحسب بل وكانا مثيرين للفزع أيضاً . وقرر أن يطلب إلى البينى أن يعد العدة لإخفاء مائتين من رجال الشرطة فى أماكن متفرقة من القصر . وقرر أيضاً الإذعان لبوتاى الذى اقترح ضم الكونت تشيانو إلى المؤامرة . وبالرغم من أن جراندى ، ما كان ليثق بتشيانو على الإطلاق ، فقد وجد نفسه مضطراً إلى موافقة بوتاى على رأيه ، فى أنه إذا تمكن من إقناع تشيانو بتأييد الثورة ، فإن عدداً من الأصوات المترددة لابد وأن ينحاز إلى المشروع [١] .

ودعا بوتاى بعد ظهر اليوم الذى سبق الاجتماع كلا من جراندى وتشيانو إلى الاجتماع فى منزله . ولم ينسجم ضيفاه مع بعضهما ولم يستطيعا الاتفاق على سياسة مشتركة . وبدا أن تشيانو كان يشك فى أن جراندى يريد الإطاحة بموسولينى ليكتسب هو وفيديرزونى مزيداً من السلطان والنفوذ . وأحس جراندى ، أن تشيانو بالرغم من أية وعود قد يعطيها فى البداية ، قد يلقى فى اللحظة الأخيرة وبكل ثقله ونفوذه إلى جانب حميه . وكان بوتاى يعتقد أن السلطة السياسية التى ستنتزع من موسولينى يجب أن تعطى إلى الملك مع القيادة العليا للقوات المسلحة ، ولكن الرجلين الآخرين لم يوافقاه على رأيه ، على اعتبار أنه رأى غير عملى . وطال الحديث بين الرجال الثلاثة وتشعب ، وعندما غادر تشيانو المكان ، لم يكن جراندى وبوتاى على ثقة مما إذا كان سيؤيدهما أو سيعارضهما .

---

(١) لا تختلف رواية الكونت جراندى عن هذا الاجتماع اختلافاً كبيراً عن رواية موسولينى . لكن الماريشال كيسلرنج وهو يحدد تاريخ المقابلة فى الرابع والعشرين من يوليو لا فى الثانى والعشرين . يؤكد أن موسولينى كان فى منتهى الانشراح عند ما دخل إلى القاعة بعد أن كان جراندى قد غادرها . وقد بادره موسولينى قائلا . . . « فارقنى جراندى قبل لحظات . وكان بيننا حديث صريح من القلب إلى القلب . وآراؤنا متماثلة . فهو مخلص لى كل الإخلاص » .

ولكنه كان قد حزم أمره فى صبيحة اليوم التالى كما يبدو . ففى ظهر ذلك اليوم وصل إلى وزارة الخارجية دينوالفييرى ، الذى استدعى من سفارته فى برلين لحضور اجتماع المجلس الذى سيعقد فى ساعة متأخرة من ذلك اليوم ، ووجد باستيانيى ، « صامتاً ودائم التفكير » . ولم يكن قد انقضى على وجوده هناك بضع دقائق حتى جاء الكونت تشيانو ، ليرتفع ذلك الوجوم الذى كان مخيماً على الاجتماع . ودون الفييرى فيما بعد . . . « وكان تشيانو فى منتهى الود والدماثة ، ولكن بدا ثائر الأعصاب . ولست أشك فى أنه سر بمرآى » .

وراح يقول . . . « سرنى مجيئك . وقد اتفقنا جميعاً على أن من واجبنا أن نخطو إلى أبعد نقطة ممكنة لإنقاذ إيطاليا . فهو ، صاحب رأس الخنزير ، يرفض فهم الموقف وعندما يجتمع المجلس الأعلى اليوم ، ستتحدث كما قررنا عما نراه بوضوح ، وسنحمله على أن يفهم » .

وأبلغ تشيانو الفييرى ، إنه فى طريقه إلى جراندى ليعده بتأييده ، وطلب من السفير مرافقته . وقد وجدا جراندى يرتدى قميصاً رياضياً فى مكتبه فى مجلس النواب . وقد رحب بهما كل الترحاب ، وأطلعهما على مسودة المشروع ، فقرأها الفييرى بسرعة ، ثم قال ، إنه بالرغم من سلامتها كما تبدو له ، لابد من أن يستوضح عن نقطة واحدة أو نقطتين فيها .

ورد تشيانو ، مقاطعاً إياه بفروغ صبر . . . « لا حاجة إلى الشكوك والريب . فالمشروع مجرد مذكرة . ولا ريب فى اننا اثناء المناقشة سنوالى معاملة الدوتشى بمنتهى الاحترام والتوقير .

وهكذا استسلم الفييرى بعد لأى وتردد ودون جراندى اسمه بقلم أزرق ، فى ذيل قائمة أنصاره .

وإذا ما استثنينا فيديرزونى ، لم يكن فى وسع جراندى على أى حال الآن يتأكد من أن فى وسعه أن يثق بأى من أصحاب هذه الأسماء المدونة فى قائمته تمام الثقة حتى بوتاى نفسه .

وراح يقول فيما بعد . . . « وكان فيديرزونى هو الوحيد الذى كان فى وسعى . ومن صميم فؤادى ، أن أثق فيه كل الثقة » . وبدأ يفكر أنه كان من

الأفضل له لو فكر فى القيام بانقلاب مفاجئ . أما وقد عرف موسولينى الآن المدى الذى مضى إليه فى محاولاته تحطيم سلطته ، فقد خشى الآن أن يعتقل ، وأصبح على ثقة ، من أنه إذا اعتقل ، فإن معظم أنصاره ، سيتخلون عنه وينضمون إلى تلك المجموعة القوية من الأنصار المخلصين فى المجلس الأعلى الذين لابد وأن يقفوا إلى جانب الدوتشى مهما حدث .

وعندما ارتدى ذلك القميص الخاص المعروف باسم « ساهارنيانا » ، والذى كان موسولينى قد أمر جميع أعضاء المجلس الأعلى بارتدائه ، راح يضع مسدسه فى جيبه ، ويحشو حقيبة يده بالقنابل اليدوية . وغادر منزله فى الساعة الرابعة والنصف متجهاً إلى قصر البندقية حيث وجد مجموعات عدة من الحرس الفاشى فى باحة القصر الداخلية وكان فى القصر أيضاً عدد من رجال الحرس . ووجه بوتاى حديثه إليه غاضباً . . . « أحسنت صنعاً بتحدثك إليه . فقد حانت ساعتنا جميعاً » . وخيل إلى جراندى أن نهايتهم قد دنت حقاً . وشرع يفكر بأنه لن يخرج من القصر حقاً .

وكان موسولينى قد دخل مكتبه . فقد تناول غداءه فى دارة تورلونيا ، حيث سار « كل شيء حسب المعتاد » كما دونت راشيل فى يومياتها فى ذلك المساء . وبدا غير متأثر بالأنباء التى وصلته عن هذه المؤامرات التى تحاك ضده . وقبل أربعة أيام من هذا التاريخ ، وكان خادمه ، يثبت له ياقة قميصه قبل مضيه إلى حفلة عشاء رسمية . بادرته راشيل بقولها إن البعض قدم إليها قائمة بأسماء الأشخاص الذين زودهم باستيانينى بجوازات السفر . وإن « الموقف قد حان للقيام بإجراء ضد تشيانو وجراندى وبادوليو وشركائهم » . لكنه لم ينتصح ولم يقبل التحذير . وقال لها إن الدبابات الأمريكية هى التى تشغله لا دسائس قلة من الإيطاليين . وعندما مضى الآن إلى اجتماع المجلس الأعلى زودته راشيل بنصائحها قائلة . . . « اقبض عليهم جميعاً قبل بداية الاجتماع » . فقبلها فى مدخل الدارة دون أن يرد على نصيحتها ، ومضى إلى السيارة التى تنتظره ، وقد حمل حقيبة منتفخة تحت إبطه . وراحت زوجته تدون فى يومياتها بعد أن فارقها قائلة . . . « إنه يؤمن إيماناً صادقاً بأن كل شيء سيسير على ما يرام » .

وخطا إلى قاعة الاجتماع بثقته المألوفة بنفسه ، دون أن ينظر إلى أحد الأعضاء الذين هبوا وقوفاً عند دخوله ، رداً على أمر سكورزا الذى ألقاه بأعلى صوته . . . « حيوا الدوتشى » . ليردوا بصوت واحد . . . « إننا نحييه » . ولم تبد عليه علائم السرور ، وهم يحيونه التحية التقليدية لزعيم الفاشية ، وراح يجلس إلى منضدته محملقاً فيهم . وسرعان ما انتابته نوبة من الألم ، بعد أن اقتعد مقعده . إذ كانت آلام القرحة قد عاودته منذ الليلة الماضية عندما هتفت له كلاريتا بيتاتشى تقول ... « وماذا سيحدث لو أنك أحسست بالألم فى هذا اليوم الكبير الأهمية والخطورة ؟ »

ورد عليها بذلك التصميم المتعالى الذى عرف عنه، والذى لم تؤثر عليه الأحداث، يقول . . . « سأكون قوياً ، وسأسيطر على الوضع بطريقتى المألوفة » .

وعندما جلس إلى مقعده ، مصغياً إلى سكورزا وهو يتلو أسماء الحاضرين ، مخرجاً بعض الأوراق من محفظته التى كان نافارا رئيس فراشيه ، قد وضعها أمامه على منضدته ، مقطباً جبينه ، وقد دفع ذقنه إلى الأمام ، وبدا ، كما وصفته إحدى عشيقاته ذات يوم مضى ، وكأن وجهه بكامله قد اندفع إلى الأمام بعيداً عن أذنيه ، قادراً على السيطرة على الاجتماع . وكان يرتدى البزة الخضراء الفاتحة التى يرتديها الحرس الفاشى ، خلافاً للآخرين الذين كانوا فى قمصانهم السوداء ، مدللا بذلك على ترفعه عنهم ، بوصفه الدوتشى المتفوق والمسيطر . وكانت المنضدة التى جلس إليها ، ترتفع على منصة فتظهر أعلى من أماكن الآخرين ، مما أضفى عليه تفوقاً معنوياً وروحياً عليهم . وكانت هناك بالإضافة إلى كل ذلك ، عادات ومواقف وذكريات ومخاوف عاشت عمر النظام الفاشى ، الذى انبثق قبل حقبتين من الزمن . ولم يستطع بوتاى نفسه كبح جماح أفكاره ، بأن هذا الرجل الذى يطل عليهم من عل ، ويمثل هذه القسوة ، إنما يجسد العقيدة الفاشية كلها .

فقد كان عند الكثيرين منهم ، بل عند معظمهم على الغالب ، ورغم كل شىء ، أعظم من أنجبته إيطاليا من أبناء . ولم يكن هناك بينهم حتى ولا قلة ، من لم يعترف بهذه الحقيقة ذات يوم ، كما لم يكن بينهم حتى فى تلك اللحظة عدد مهما قل ، ليس على استعداد للاعتراف بها لو أتيحت له الفرصة . وكان جراندى نفسه ، قد اعترف بها ، قبل مدة قصيرة وبحماسة ، ما كانت لتصدر حتى

عن أكثر أنصار موسولينى تعصباً ، إذ قال له قبل نحو من شهرين ليس إلا . . . « إن حياتى ، وإيمانى ، وروحى ، ملك يديك » .

ويبدو أن موسولينى بات كأتباعه المخلصين أيضاً متأثراً بعادات الماضى . فهو لا يقبل الطاعة والعبادة والثقة التى لا تتزعزع منذ سنوات طويلة ، كالاستجابات المفرحة من شعب راض ومستجيب فحسب ، وإنما يريدها ، نوعاً من الإجلال الذى تستحقه عبقريته . ولم يكن شعار « موسولينى على حق دائماً » يظهر على جدران إيطاليـــا ، كإطراء لقائد عظيم يحس شعبه نحوه بإعجاب واعتراف بالجميل عميقين ، وإنما كان تعبيراً عن حقيقة لا يمكن إنكارها . وليس ثمة من شك فى أن هذه الثقة المطلقة فى عظمته الذاتية ، وعصمته من الخطأ ، وتفوقه الذى لا يتحدى على الإيطاليين طراً ، قد جعلت من العسير عليه أن يتبين ما فى أولئك الذين ما كانوا ليضنون عليه بالمساعدة ، من مزايا ، ولا ما فى ذلك العدد المتزايد من الناقدين والناقمين الذين آمنوا بخروجه على كل عقل ومنطق من خطر . ولا ريب أيضاً فى أن هذه الثقة العمياء هى التى حملته على استبعاد كل فكرة فى مؤامرة ناجحة ضده ، ووصفها بالخيال ، وعلى رفض أى اقتراح بوجوب الحرص فى معالجة هذا الاجتماع الذى لم يكن يتوقع فيه أكثر من مجرد « مناقشة حامية » . ولم يكن كذلك قد احتمل عناء إعداد خطابه الذى جرت العادة على أن تسهل به ، مثل هذه الاجتماعات ، إذ كان واثقاً من أن فى وسعه ، أن يسكت كل معارضة ، بمجرد ارتفاع صوته .

وبدأ موسولينى حديثه بالطريقة المهذبة المألوفة التى يشرع فيها مرب كبير فى إلقاء محاضرته العادية ، قائلا . . . « دخلت الحرب فى الواقع مرحلة فى منتهى الخطورة . فقد تحقق ما كان يبدو مستحيلا . بل حتى مجرد فرض سخيف ، بالرغم من دخول الولايات المتحدة الحرب فى البحر الأبيض المتوسط . وفى وسع المرء أن يقول ، إن الحرب الحقيقية بدأت بسقوط بانتيلاريا . وكان القصد من الحرب الهامشية على الساحل الإفريقى ، تجنب مثل هذا الاحتمال أو إحباطه . وفى مثل هذه الأوضاع ، كان من الطبيعى أن تتحد جميع التيارات الفكرية من رسمية وغير رسمية ، فى عدائها لنا ولعهدنا سراً أو علانية » .

كانت هذه هى البداية لخطاب طويل وهادر . تميز بكثير من الغموض المذهل . وهكذا تحدث مستسلماً . وخالياً من الإبداع حيناً ، ومغروراً وفى منتهى الصلافة التى تبلغ حدود الاتهام حيناً آخر ، مبرراً أخطاءه إلى حد التضليل ، وبطريقة رتيبة تخلو من الإيمان حتى ومن اعتبار الحقيقة واحترامها ، ضاغطاً براحة يده أحياناً على معدته ، وكأنه يخفف من ألم القرحة التى يشكو منها .

وراح يعلن فى تدوينه ذكرياته عن هذا الخطاب الذى رأى فيه سامعوه افتقاراً إلى التصميم والدقة . . . « وليكن معلوماً ، الآن ودائماً . أننى لم أكن فى يوماً ما راغباً فى تسلم القيادة العليا للقوات العاملة فى الميدان ، وهى المهمة الملقاة على عاتقى ، بإيعاز من الماريشال بادوليو . . . فعندما مرضت فى أكتوبر عام ١٩٤٢ ، فكرت فى التخلى عن القيادة العسكرية ، ولكننى تراجعت عن ذلك ، لأننى تصورت أن من الخطأ التخلى عن السفينة وهى تائهة وسط العاصفة . وقررت تأجيل ذلك انتظاراً لظهور الشمس من جديد ، وهو ما لم يقع حتى يومنا هذا . وأظن أن ليس ثمة لدى ما أضيفه على موضوع القيادة » .

وبعد أن تخلص من المسئولية بمثل هذه الفتوى الغريبة والإيضاحات غير المقبولة ، راح يشير بأصابع الاتهام إلى المذنبين الحقيقيين ، فوجدهم فى كل مكان . إنهم فى أعلى مراتب القيادة العامة للجيش ، حيث يفتقرون إلى الثقة من ناحية وإلى المعلومات من الناحية الأخرى ، وهم فى أقل هذه المراتب فى القوات البرية شأناً إذ يستسلمون فى صقلية فى قطعان ضخمة ، تماماً كما فعلوا فى أفريقيا . وقد تحدث عنهم وكأنهم جنوده فى جيش هزم منذ أمد بعيد فى حرب أصبحت جزءاً من التاريخ الذى انقضى . ووجد المبررات ، وألقى اللوم ذات اليمين وذات الشمال ، وعثر على أسباب الهزيمة ، ولكنه لم يقترح أى علاج . وأقر بأن عواطف الشعب ليست مع الحرب ، ولكنه لم يأت بعلاج لهذا الوضع ثم قال . . . « إن عواطف الشعب بعيدة دائماً عن الحرب . فالحرب هى حرب الحزب ، لأن الحزب هو الذى أرادها . إنها دائماً حرب رجل واحد ، ولو قيل اليوم إن الحرب التى نخوضها هى حرب موسولينى . فقد كانت تسمى فى عام ١٨٥٩ بحرب كافور أيضاً .

ومضى بعد ذلك يقول . . . « وفى العشرين من أكتوبر ، كنت أتوقع أن

يهاجمنا البريطانيون فى العلمين » . وقطع حديثه فجأة ليطلع بعد فترة صمت قصيرة بملاحظة غريبة شاذة ، جعلت بوتاى يتساءل ، عما إذا كان يعتزم الخروج بنكتة مغرقة فى سخريتها . فقال إنه توقع يوم الهجوم ، لأنه عرف أن الإنجليز يريدون أن يعكروا صفونا ونحن نحتفل بالذكرى السنوية العشرين للثورة الفاشية فى الأسبوع التالى .

وتحول بعد ذلك إلى الألمان فقال . . . « علينا أن نعترف بمنتهى الإخلاص للحقيقة ، بأن الألمان عاملونا بمنتهى الكرم والاحترام » . وراح يسرد تفاصيل التموينات الألمانية من المواد الأولية والأسلحة والقوات ، ولكنه لم يذكر الثمن الذى دفعته إيطاليا مقابل هذه المساعدات . ولم يشر فى قليل أو فى كثير إلى المساعدات الجديدة التى تحتاج إليها إيطاليا فى محنتها الحقيقية الراهنة . وحرص على تجنب الإشارة بشىء إلى اجتماع فيلتريه الذى كان قد عاد منه قبل آونة قصيرة .

وراح يقول بشىء من الإسهاب . . . « إن المعضلة الكبيرة التى تواجهنا الآن هى التقرير بين الحرب والصلح أو بين الاستسلام والمقاومة حتى النهاية » . وبدلا من أن يرد على هذا السؤال الجوهرى ، بإحدى حملاته الحماسية الشعرية والمسرحية المؤثرة التى كانت كافية حتى فى ذلك الحين ، لحمل المجلس على الوقوف إلى جانبه ، راح ينزلق إلى هوة الجدل اليائس الممل ، ويقول فى النهاية . . . « على أى حال ، تتطلع بريطانيا مائة سنة إلى الأمام لتضمن خمس وجبات فى اليوم لشعبها . فهى تريد أن تحتل إيطاليا وأن تبقى على احتلالها لها » .

وكان هذا الأداء مفجعاً . وتطلع أعضاء المجلس إلى الدوتشى بشىء من الصمت المشوب بالفزع . ودون الفيبيرى فيما بعد ذكرياته ، فأعرب عن شعور الخيبة المرعب الذى سيطر على جميع الأعضاء . كان الخطاب من أضعف الخطب التى سمعوه يلقيها فى حياته ، وأكثرها حسماً من ناحية أخرى . وعندما انتهى الدوتشى من خطابه ، كانت زعامته قد انتهت ، وهوى هو إلى الحضيض .

وانقضت لحظات قليلة ، دون أن يجرؤ أحدهم على الكلام . وسرعان ما انتهى هذا الصمت المطبق ، بأصوات أقدام تتحرك ، وهمس يعلو ، ومحافظ تغلق . وأخيراً نهض الماريشال دى بونو . ولم يكن خطابه القصير ، إلا هجوماً مقنعاً على

الساسة الذين يلقون بالمسئولية على قادة الجيش ، بينما هم الملومون لأنهم هم الذين اختاروهم . وكانت هذه وجهة نظر ، سرعان ما هب زميله الملكى العجوز دى فيشى لمساندتها . ولكنه وجه فى حديثه بعض الملاحظات الناقدة إلى حلفاء إيطاليا مما أثار روبرتو فاريناتشى الميال للألمان ، فسارع إلى الاعتراض عليها . وراح هذا يناقض ما قاله دى فيشى ، وينهال بالإطراء المتعصب على الألمان مقرظاً قوتهم وعصمتهم من الهزيمة . وتألم دى فيشى من ملاحظاته هذه ، فراح يتهمه بالتهرب من الخدمة العسكرية فى الحرب العالمية الأولى . وبالزيف فى ادعاء البطولة فى الحرب الحبشية ، بعد إصابته فى حادث أثناء اصطياده للسمك .

وأدرك بوتاى ، أن الخطر يهدد الاجتماع بالفض من جراء هذه المهاترات الوضيعة التافهة ، فقاطع دى فيشى ، ليلقى أول خطاب قوى فى ذلك المساء . وأصغى الأعضاء لكلماته ، وأدركوا أن النقد يوجه لأول مرة بصورة علنية إلى موسولينى وبحضوره . واستمد الأعضاء الآخرون الشجاعة من الشرارة التى أطلقها بوتاى فى خطابه ، فأعربوا عن رغبتهم فى الكلام . ولكن جراندى ، كان هو الذى هب واقفاً ليتكلم ، وعاد الآخرون إلى مقاعدهم ليصغوا إلى كلماته .

وشرع جراندى يتحدث بصوت خفيض يحمل طابع الجد . مما فرض الاحترام فوراً على الأعضاء الحاضرين وقال: « أود أن أكررهنا أمام المجلس الأعلى ، ما كنت قد قلته للدوتشى يوم أمس الأول ، وإنى لأقترح أن يكون الأمر اليومى التالى » :

وراح يتلو مشروع اقتراحه بهدوء ووضوح . ولم يكد ينتهى منه ، حتى تبدلت لهجة حديثه ، وراح يلقى خطاباً فى منتهى البلاغة والحماسة ، مضمناً إياه الاتهامات القاسية . وتحدث بشىء من المرارة « عن الشكل الأحمق والمقيد للحرب الفاشية » وعن « الإصرار المفرط التزمت فى مراعاة الشكليات التافهة » وعن « الاستمرار فى وضع الأنظمة الجديدة والكبح المتدرج للحريات الشخصية » . ثم قال بصوت متهدج تغلبه العاطفة « إنك فرضت ديكاتوريتك على إيطاليا ، وهى ديكتاتورية لا أخلاقية من الناحية التاريخية . وقد احتفظت لسنوات طويلة بين يديك بمقاليد الأمور فى الوزارات الثلاث المتعلقة بالقوات المسلحة . ولكن ما الذى حققته ؟ إنك حطمت روح قواتنا المسلحة . وقد خنقت سنوات طويلة شخصياتنا فى هذه

الملابس السوداء التى يلبسونها حداداً . وانقضت سنوات طويلة ، وأنت تختار للمناصب الهامة ، أسوأ المرشحين لها من بين عدد كبير من المرشحين الصالحين » .

وظل جراندى يتحدث أكثر من ساعة . وظل موسولينى يصغى صامتاً إلى هذه الخطبة التى أسماها فيما بعد « بالخطبة الفليبية[1] العنيفة ، خطبة الرجل الذى وجد أخيراً الفرصة للتعبير عن حقده العميق الدفين » . وكان يتكئ بجسمه على المنضدة فى وضع المتألم الذى يشكو من المغص الشديد ، راسماً بين الحين والحين ، على ورقة أمامه بعض الأشكال والرموز ، مغطياً عينيه بيده ، يمنع عنهما الضوء الشديد الصادر عن « الثريا » الكهربية المعلقة فى سقف القاعة ، وقد اعترف فيما بعد لمارينيتى « بأن هذا الضوء الساطع المخيف ، أتعب عينى إلى حد مرعب . وقد وجدت نفسى مضطراً إلى أن أحجبه طيلة الوقت بيدى عن عينى المجهدتين . . . وكنت قد تعرضت قبل ساعتين من الاجتماع إلى نوبة قاسية من الألم الذى أعانيه منذ أمد بعيد . وكنت لا أزال أشكو من الألم فى القاعة ، ولكن عقلى كان صافياً . وكنت أصغى إلى خطاب جراندى الذى مثل الاتهام العام بوضوح ، ولكن حيويتى قد فارقتنى . وهذا أثر من آثار المرض ، إنه زوال الحيوية مع وضوح الفكر واستشفافه » .

ورأى بوتاى أن الدوتشى قد هزم ، وأنه يبدو يائساً وفى منتهى القنوط . وروى فيما بعد أنه « لم يعد رجلا وإنما ظل رجل ، باتت أقدامه على عتبة الآخرة » . ووصفه بوفارينى — جيدى ، بأنه كان أشبه بالإنسان الشارد الفكر « وكأنه يعيش فى عالم آخر . وبدا يحجب رأسه بيده ، كما فعل قيصر عندما أراد أن يحجب بعباءته ، جسده عن ضربات بروتس والمتآمرين الآخرين » .

وعندما انتهى جراندى من خطابه ، عدل جلسته وألقى بجسده إلى الوراء فى مقعده بعد أن أرخى ياقته ، وبدا العرق يتصبب على وجهه الشاحب .

وقرر تشيانو فى هذه اللحظة أن يتكلم . وشرع فى حديثه أمام نظرة حميه اليائسة ، بلهجة ناعمة لطيفة . وحصر كلامه فى سرد تاريخى للتحالف الإيطالى الألمانى ، الذى مثل فى وجهة نظر فاريناتشى الساخطة ، حملة تنكر على الألمان

---

(١) أطلق على خطب ديموستنيس الخطيب اليونانى المفوه المشهور اسم الفليبيات . « المعرب »

أى فضل . ولكن تشيانو لم يترك مجالا للشك على الإطلاق ، فى أنه سيؤيد مشروع جراندى . وعند ما انتهى من كلامه ، انبرى فارينا ثانية للرد على جلّ ما قاله ، وللدفاع بقوة عن الألمان . وعرض على المجلس مشروعاً بديلا عن مشروع جراندى ، يعلن تضامن إيطاليا الفاشية مع ألمانيا الاشتراكية الوطنية ، ويدعو رئيس الحكومة إلى أن يطلب من الملك تولى قيادة القوات المسلحة كلها « ليظهر للعالم بأسره أن الشعب الإيطالى يقاتل بأسره متحداً تحت قيادته ، لإنقاذ إيطاليا ودفاعاً عن كرامتها » . وكانت أهداف فاريناتشى من الاستعاضة عن الدوتشى بالملك فى قيادة القوات المسلحة ، هى غير أهداف جراندى ، إذ كان يتوقع أن يكون الملك أكثر استعداداً للاقتناع من موسولينى بالتخلى عن صلاحياته للماريشال كيسلرنج . لكن الرجلين اتفقا على وجوب ذهاب موسولينى .

وتبين بعد انقضاء هزيع من الليل، أن غالبية أعضاء المجلس ترى هذا الرأى ، وإن كان أولئك لأعضاء الذين ما كانوا ليترددوا فى الاقتراع إلى جانب مشروع بسيط بتوجيه اللوم ، قد أصبحوا الآن على استعداد لتأييد أى مشروع أقل عنفاً من ذلك ، وأخف ضرراً . وراح عدد من الأعضاء يشكون فى حقيقة دوافع جراندى . وتكلم جيتانو بولفيريللى ، وزير الثقافة الشعبية ، وأنطونيو ترينجالى — كازانوفا ، رئيس المحكمة الفاشية الخاصة ، وكارلو البرتو بيجينى وزير التربية ، وإينزو جالبياتى ، رئيس أركان الحرس الفاشى ضد مشروعه . ولكن دون إيمان ، ودون تأثير . فكان معظم هؤلاء متأثرين بالمنازعات الشخصية أكثر من تأثرهم بالحجج المنطقية ، فجاءت خطبهم تضيف إلى متاعب موسولينى بدلا من إسهامها فى إنقاذه .

وكان الليل قد انتصف وكان قد مضى على بداية الاجتماع زهاء سبع ساعات ، وانطلق صوت موسولينى الذى وصفه بوتاى بأنه كان « خفيضاً ، ومتواضعاً ، ومستدراً للإشفاق " يتساءل " ولكن ما جدوى هذا اللوم ، وقد غدونا الآن وحدنا وجهاً لوجه أمام ثلاث إمبراطوريات عظيمة ؟ » . واقترح على سكورزا تأجيل الاجتماع حتى اليوم التالى ، ذاكراً أنه مريض وأن عليه ألا يجهد نفسه .

وانطلق صوت جراندي بثبات مجدداً حملته . . . « كثيراً ما أبقيتنا هنا فى

الماضى حتى الخامسة صباحاً لمناقشة بعض القضايا التافهة . ولن نغادر هذه القاعة حتى نفرغ من مناقشة مشروع قرارى والاقتراع عليه » . وأضاف أنه يوافق على التأجيل لمدة عشر دقائق ليس إلا .

ووافق موسولينى . ولاحظ بوتاى بشىء من السرور « انتهى صلف الديكتاتور ليحل محله خنوع المتهم » . وخرج من القاعة إلى مكتبه ، وحيداً تخلى عنه الجميع . وعندما مر بسفيره إلى ألمانيا قال له . . . « تعال معى يا الفييرى » .

وروى الفييرى فيما بعد . . . « كانت الغرفة الفسيحة شبه مظلمة . لا ينيرها إلا ضوء شاحب ينبعث من مصباح صغير يستخدم للقراءة . ومضى الدوتشى بهدوء وببطء إلى منضدته ، ثم أشعل " الثريا " الكبيرة الموجودة فى وسط المكتب وراح يلقى نظره بشىء من شرود الفكر على بعض البرقيات التى وجدها أمامه . وظل على صمته بضع دقائق ، ثم راح يسألنى ، وكأنه أحس بوجودى لأول مرة . . ماذا هناك فى ألمانيا ؟ » .

وأعاد الفييرى على مسامعه ما سبق له أن تحدث إليه به فى فيلترى . وفى تقاريره ، عن وجود إشارات واضحة تبين ما أصاب الشعب الألمانى من إجهاد ، وعن شدة انضباطه بالرغم من ذلك ، وتعصبه الأعمى ، وخوفه من الجستابو ، وإيمانه بدعاية جوبلز ، ثم أضاف قائلا . . . « ويتابع الناس هناك فى برلين نتيجة التطورات العسكرية الأخيرة » .

وانطلق صوت موسولينى يسأله . . . « ولكن من قال لك ذلك ؟ » . وكانت لهجته تنم عن الانزعاج الشديد ، وكأنه بالرغم مما حدث ، ومما اضطر إلى سماعه فى غضون الساعات القليلة الماضية ، لا يكاد يصدق أن الوضع الداخلى فى منتهى الحرج والخطورة .

ورد الفييرى قائلا . . . « إنه الرأى الذى يسود برلين ، وقد أيد لى ذلك مدراء الشرطة الذين تحدثت إليهم ، فى طريق قدومى إلى هنا » .

لكن موسولينى يرفض أن يصدق . إنه يرفض تصديق الحقائق التى تقبلها الآخرون منذ أمد بعيد . وعندما أخذ يحتسى قدحاً من الحليب الحلو وضعه الآذن أمامه ، راح يقول لإلفييرى إن معلومات الألمان خاطئة ، مضيفاً أن قصف الحلفاء لمدينة رومة وغيرها من المدن الكبيرة ، لابد أن يترك أثراً نافعاً لدى الشعب الإيطالى

يوحى له بشىء « من البطولة الصوفية التى تجعل الناس لا يكترثون بالخطر ، وتمكنهم من احتمال الألم ، وفقد من يحبون ، ودمار بيوتهم » .

وأضاف يقول . . . « صدقنى ، إن ما وصلك من أنباء يفتقر إلى الصحة . فالوضع على أى حال ، لم يصل إلى تلك الدرجة من الحرج التى تصورتها . وما زال عامل الزمن إلى جانبنا » . وراح يحمل بملعقته بقايا السكر المذاب فى قدحه ، ثم مسح شفتيه بمنديله ، وهب واقفاً ، وقد استعاد شيئاً من ثقته ، فى هذه الدقائق القليلة التى خلص فيها من ذلك الجو المعادى الذى أحاط به فى القاعة المجاورة ، بعد أن احتسى قدح الحليب ، وأتيحت له فرصة الحديث على انفراد . واستمرت هذه الحيوية المنبعثة ، بعض الوقت بعد استئناف الاجتماع . وعندما ألقى جاليباتى ، خطاباً يتقد بالحماسة دفاعاً عنه ، منهياً إياه بصيحة عالية بأن الإيطاليين متحدون جميعاً فى التفافهم حول الدوتشى ، قرر موسولينى أن يلقى خطبة ثانية .

وانطلق صوته يتهدج مشحوناً بالغضب المفاجئ . . . « ينسى الناس فى غمرة هذه الاتهامات التى توجه إلى العهد ، التهمة الشائعة على شفاه الكثيرين من أبناء الشعب ، وأعنى بها الثروات الخيالية التى جمعها الكثيرون منكم » . وأضاف وهو يضرب بيده على حقيبته ويشير إلى تشيانو . . . « ولدىّ هنا من الوثائق ما يكفى لإرسالكم جميعاً إلى المقصلة ، وأنت فى مقدمتهم »[1].

ووجد سكورزا الشجاعة فى انتعاش موسولينى ، فهب يقول فى خطاب طويل يفتقر إلى التلاحم والانسجام ، إن الخطيئة الوحيدة فى الدوتشى أنه لم يتصرف كديكتاتور صحيح ، وإن عليه ليجد الوقت الكافى لتصريف واجباته الكثيرة ، أن يتخلى لجرازيانى عن سيادة القوات المسلحة . وبالرغم من مقاطعات باستيانينى المستمرة له ، فقد حاول التقدم باقتراحه ، وهو أن تطبق ديكتاتورية الحزب الفاشى بصورة أكثر صرامة وشدة .

وكان الاجتماع قد فقد عند هذا الحد ، كل مظهر من مظاهر النظام . ويقول بوتاى إن « الجميع كانوا يتكلمون فى وقت واحد . ويكيلون الشتائم والإهانات

(١) لم يبد موسولينى على أى حال فى سنوات حكمه اهتماماً بالعمليات المالية المفتقرة إلى النزاهة التى يقوم بها قادة الحزب الفاشى كما لم يبد أى اهتمام بتلاعب الآخرين . وعند ما تورط اخيل ستراشى فى فضيحة مالية من هذا الطراز ، لم يبد أى اهتمام ، مشيراً إلى أن خطيئة الرجل الكبرى هى حمله وساماً من أوسمة الخدمة العسكرية الممتازة بدون ترخيص . « المؤلف »

لبعضهم البعض » . وقال موسوليني إنه يحمل فى يده مفتاح الوضع الحربى ، ولكنه لن يفضى إليهم بشيء عنه . وراح يقول . . . « وإذا تخلصتم منى . فلن أبوح بالسلاح السرى الذى يستطيع إنهاء الحرب . وستفقدون فى وقت واحد ، الحرب وموسوليني ورؤوسكم » . وبينما كان فاريناتشي يتطلع إليه بشيء من الدهشة الذاهلة ، تمتم جراندي قائلا . . . « إنه التهديد . إنها البلطجة » .

ووقف الكونت جياكومو سواردو ، رئيس مجلس الشيوخ ، الذى كان قد احتسى قدحاً كبيراً من « الكونياك » أثناء الاستراحة القصيرة ، ليثير دهشة الحاضرين جميعاً ، عندما أعلن أنه قرر سحب تأييده لمشروع جراندى ، معرباً عن أمله فى أن ينضم إليه الآخرون فى تأييد مشروع سكورزا . وثنى توليو شيانيتى وزير الاتحادات العمالية بأن مثل هذه الخطوة ، هى الفضلى والمثلى . وشرع تشيانو فى التردد والضعف أيضاً ، إذ اقترح تعيين لجنة تتولى درس اقتراحى جراندي وسكورزا ، وتعد مشروعاً ثالثاً يجمع بين المشروعين . وعارض بوتاى هذا الاقتراح ، وتحدث من جديد عن ضرورة العمل السريع الفورى . لكن كلماته هذه المرة كانت أقل حزماً من كلماته السابقة ، وكان الأعضاء يستمعون إليه بكثير من نفاد الصبر الواضح. وهب بولفيريللى ، ليقاطعه قبل أن ينهى كلامه ، وليقول بصوت يغلبه التأثر إنه كان دائماً وسيظل حتى يموت ، رجل موسولينى . وتحدث جراندى ثالثة ليقاطعه بيجيني . وأيد كارلو باريشي وزير الزراعة جراندى ، فهاجمه لتأييده هذا ، بوفاريني — جيدى . وهكذا اضطرب حبل النقاش ، وأصبح مفتقراً إلى الانسجام والتماسك .

واعترف جراندى فيما بعد ، أنه أحس فى هذه اللحظة بأنه قد خسر المعركة . فقد بدا أن مؤيدى سكورزا فى مشروعه بالحرب حتى النهاية وبالإخلاص المطلق للعهد القائم ، ومؤيدى فاريناتشي فى مشروعه باستمرار الولاء لألمانيا ، أخذوا يزدادون عدداً . وكانت الساعة قد بلغت الثانية والربع صباحاً ، عندما قاطع موسوليني النقاش فجأة قائلا بصوت صارم جاف . . « طال أمر النقاش وأصبح مجهداً مملا . فهناك ثلاثة اقتراحات ولاقتراح جراندي الأولوية . ولذا فسأطرحه على التصويت أولا . هيا يا سكورزا اذكر الأسماء ! »

وبينما كان سكرتير الحزب يتلو الأسماء ، اتكأ موسولينى إلى الأمام فى مقعده ووضع كوعيه على المائدة ، متفرساً فى كل عضو وهو يدلى بصوته وقال إلفيرى فيما بعد . . . « وكانت عيناه النافذتان تسيطران على عقولنا جميعاً ، وكأنهما تريدان أن تمليا علينا القرار الذى سنتخذه » .

كان عدد الحاضرين ثمانية وعشرين من أعضاء المجلس الأعلى . وكان الكونت سواردو هو الوحيد الذى امتنع عن التصويت . واقترع سكورزا ضد مشروع جراندى ، وكذلك فعل بولفيريللى وبوفارينى — جيدى وجاليباتى ، مع تأييد ثلاثة آخرين ، بينما أيد المشروع تسعة عشر عضواً .

وجمع موسولينى أوراقه بسرعة ، ونهض من مكانه . وعندما أصبح واقفاً . صرخ سكورزا بصوته العالى « حيوا الدوتشى » . ودارت همهمة ، دلت على حيرة الحاضرين فقطع موسولينى هذا التردد بصوت غاضب . . . « أنا أعفيكم من أداء التحية » .

وعندما وصل إلى مدخل القاعة ، استدار إليهم ، وقال بصوت هادئ لا يخلو من مرارة . . . « لقد أثرتم أزمة العهد » .

ومضى إلى قاعة « الكرة الأرضية » حيث انضم إليه فيها بعد لحظات بولفيريللى وجاليباتى وبوفارينى — جيدى وسكورزا . واقترح جاليباتى اعتقال المتآمرين الخونة على الفور ، ولكن موسولينى بدا وكأن الهزيمة قد أذهلته ، فلم ينبس ببنت شفة . وعندما شرع الآخرون فى التحدث إلى بعضهم البعض ، قاطعهم والتفت إلى سكورزا قائلا . . . « بدا هؤلاء السادة هناك ، تواقين إلى الحديث عن الصلح . ولكن الشيء الذى لا يدركونه أن تشرشل وروزفلت لا يريدان مجرد الإطاحة بى ، بل يريدان القضاء على إيطاليا كدولة فى البحر الأبيض المتوسط » . . . وراح يضيف ، بومضة فجائية من ومضات الغرور « وبدونى لن يكون هناك صلح ، بل هزيمة وعبودية » .

وقرر فى الخامسة صباحاً أن يعود إلى بيته ، وقال لسكورزا . . . « تعال معى إلى البيت ، فأنا جد منهك » .

وكتب فيما بعد يقول . . . « وكانت الشوارع خالية . ولكن تباشير الفجر

كانت قد لاحت فى الأفق . وكان ثمة إحساس بالحتمية » . وعندما مضى فى شارع نومتيانا ، وسكورزا إلى جانبه ، راح يتمتم قائلا : « حتى البينى وباستيانينى . وحتى تشيانو الطفل ذى الأربعين عاماً » .

وفهمت راشيل من أسارير وجهه العابسة عندما وصل إلى دارة تورلونيا ، أن مخاوفها السابقة كان لها كل ما يبررها . وكانت لا تزال تنتظره ، وعندما هتف لها أحدهم من قصر البندقية يقول إنه غادر القصر فى طريقه إلى البيت ، مضت إلى الحديقة للقائه .

وقالت له بشىء من الغضب الذى لا يخلو من الحنان . . . « حسن ، أظنك قد أصدرت الأمر باعتقالهم جميعاً . . . » فرد بصوت يغلبه الجهد والضعف . . . « لا . ولكننى سأعتقلهم » .

لكن هذا القول لم يكن أكثر من مجرد احتجاج تقليدى . وبدا وكأن عزمه على المقاومة قد انهار . ومضى إلى الداخل ، وتطلع إلى زوجته صامتاً ثم قال . . . « لم يعد فى وسعى أن أعمل شيئاً . فقد حزموا أمرهم على تحطيمنا . ولم تعد لأوامرى أية قيمة » .

وخلع ثيابه ، ثم مضى إلى فراشه ، ولكن النوم لم يطرق جفنيه . وعندما جاءه الدكتور بوزى فى الثامنة صباحاً ، ليعطيه حقنة المخدر التى تعوّد على أخذها كل صباح ، رفض الحقنة وهو يقول . . . « لا أريد حقنة اليوم . فالدم يسرى فى عروقى بسرعة هائلة » .

٣

ودهش باستيانينى ، عندما رآه بعد ساعة يجلس إلى مكتبه فى قصر البندقية ، وكأن شيئاً لم يحدث على الإطلاق . ولم يبد عليه أى دليل على القلق أو الإجهاد وطلب أن يوصلوه بجراندى ليتحدث إليه هاتفياً ، وعندما قيل له إنهم لم يستطيعوا العثور عليه . وأن من المحتمل أن يكون قد مضى إلى دارته الريفية ، اقترح على موظفيه أن يحاولوا الاتصال به هناك فى وقت لاحق .

وحمل إليه ألبينى فى التاسعة والنصف صباحاً كالعادة بريده الصباحى ،

فقرأه بعناية ، مظهراً الاهتمام كله بالأنباء التي وردت عن الغارة العنيفة التي قام بها العدو على مدينة بولونا . وعندما انتهى من قراءة هذه التقارير ، قال لألبيني بلهجة عادية هادئة . . . « لم اقترعت إلى جانب اقتراح جراندى ليلة أمس؟ لقد كنت زائراً فى المجلس ليس إلا ، فأنت لست من أعضائه » .

واحمر وجه ألبيني خجلا ، وتمتم معتذراً . ولم يبد محرجاً فحسب ، وإنما بدا آسفاً على اقتراعه فى الليلة الماضية . وقال للدوتشي . . . « قد أكون أخطأت ، ولكن ليس ثمة من يستطيع الشك فى مدى إخلاصى لك ، لا الآن فحسب بل دائماً » . وأصيب آخرون بالذعر مما فعلوه . وهتف سكورزا إليه يقول . . . « يبدو أن الليل قد أعاد الصواب إلى الرؤوس ، ويبدو أن نوبات تبكيت الضمير قد بدأت » .

فعلق موسولينى بنوع من ذلك التهديد المغلق الذى أصبح الآن جزءاً آلياً من حديثه . . . « فات الوقت » . وبدا فى غاية الانشراح ، وطلب إلى سكورزا أن يوافيه إلى قصر البندقية حيث وجده سكرتير الحزب ، فى حالة من الثقة المطلقة . وأصغى بشيء من عدم الاكتراث الواضح إلى اقتراحات سكورزا القلقة بأن يعمل بسرعة ضد أعدائه . فرد عليه بأن ليس ثمة ما يدعو إلى الفزع والذعر . فسيصدر تعليماته بعد أن يقابل الملك . وعندما تلقى رسالة من شيانيني يقول فيها إنه يسحب اقتراعه ، ويعرض استقالته من منصبه كوزير للاتحادات العمالية ، قرأ الرسالة دون أيه دهشة ظاهرة أو سرور ، وكأنه كان يتوقعها ، بل كأن الثائرين الآخرين سيحذون حذوه عما قريب .

ووصل باستيانيني قبيل الغداء مستصحباً سفير اليابان الجديد . وكان موسولينى كما قال باستيانيني « فى منتهى الود والصداقة » ، عارضاً وجهات نظره فى السياسات الخارجية والأوضاع العسكرية بكثير من التفصيل . وكان يتحدث عن علم ، وبكثير من التزلف عن اليابان وشعبها ، بينما كان السفير يحنى رأسه مبتسماً ، وقد بانت عليه علائم السرور الطاغى .

وظل باستيانيني مع موسولينى بعد مغادرة السفير اليابانى هيداكا ، لبحث القضايا الروتينية العادية ، والترتيبات اللازمة لزيارة ماريشال الرايخ جورنج

المقبلة . ولم يتناول الحديث موضوع اجتماع المجلس بالأمس . وبدا موسولينى وكأنه قد نسى هذا الموضوع تماماً . وعندما أبلغه سكرتيره دى سيزارى ، أنه حصل على موعد له لمقابلة الملك فى الساعة الخامسة مساء فى قصر سافويا فى ذلك اليوم ، أشار إشارة غامضة إلى ذلك الموقف بقوله . . . « فى الساعة الخامسة ، إنه رقم مشئوم » . ولكنه كان قد عاد إلى طبيعته ، وزايله قلقه ، عندما راح يغادر مكتبه قاصداً دارته لتناول الغداء . واصطحب معه الجنرال جاليباتى ، ومضيا عن طريق حى تيبورتينو الذى كان قد أصيب بأضرار فادحة إبان الغارة الأخيرة التى وقعت فى التاسع عشر من يوليو . وعندما هبط من سيارته ليمشى بين الأنقاض ، هتفت له جماهير غفيرة من الناس . فرفع ذراعه يحييهم ، وقد طغى عليه شعور من الفرح لحبهم له ، طالباً إلى جاليباتى أن يوزع عليهم كل ما يحمله من مال ، إذ أن جيوبه هو ، كانت خالية كعادتها من كل مال . وعندما عاد إلى السيارة ، كرر عليه رفيقه نصيحة سكورزا ، بأن يعتقل الأعضاء التسعة عشر المنشقين على الفور . ولكنه رفض الاستجابة من جديد لهذه النصيحة .

وتناول غداءه فى وقت متأخر فى دارة تورلونيا . وكان مؤلفاً من طبق من الحساء ليس إلا ، ثم ارتدى بدلة داكنة ، ليقابل بها الملك . وكان سكرتيره قد أبلغه بأن رجال القصر الملكى ، اشترطوا أن تكون المقابلة بالملابس المدنية ، وكان هذا الاشتراط كافياً لإثارة مخاوف زوجته راشيل التى استبد بها القلق . . .

وقالت تتوسل إليه . . . « لا تذهب يا بنيتو . فليس فى وسعك أن تطمئن إليه » .

وكانت كلاريتا قد رجته مثل هذا الرجاء وهو فى مكتبه فى الصباح ، فقد ذكرت لنافارا أنها توسلت إليه ألا يذهب ، ولكنه أبى أن يستمع إليها .

ولم يصغ لتوسل زوجته أيضاً . فلم يكن يحس بأى خطر . وقد يأخذ الملك منه صلاحياته كقائد عام للقوات المسلحة ، ولكن شيئاً أسوأ من هذا لن يحدث على الإطلاق ولم يخطر فى باله أن يقترح على الجنرال جاليباتى تحرك بعض الوحدات المدرعة من ذوى القمصان السوداء إلى روما إلا فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، ولكن الوقت كان قد فات عندما دار فى رأسه هذا الخاطر . وكان الجنرال كاستيلانو

قد أصدر أمره قبل بضع ساعات بتحرك فرقة من الجيش من « رماة القنابل » إلى العاصمة ، كما التقط أمر جاليباتي بتحرك ذوي القمصان السوداء وأوقفه .

وعندما غادر جاليباتي دارة تورلونيا في الساعة الثالثة والنصف كان موسوليني لا يزال في منتهى الثقة . وكان آخر ما قاله للجنرال ، إنه سيحمل الملك على الموافقة على تعيين ثلاثة من الوزراء الجدد . وهتف في الساعة الرابعة والربع إلى سكورزا ، الذي كان قد هتف إلى دارة موسوليني من قبل ، مبلغاً رسالة بأن الماريشال جرازياني وعد بمواصلة تأييده لموسوليني . وقال هذا لسكرتير حزبه . . . « أبلغ جرازياني أني سأراه بعد مقابلتي للملك » . ووصل دي سيزاري إلى الدارة في اللحظة التي كان لا يزال يتحدث فيها هاتفياً إلى سكورزا . فالوصول إلى مكان الموعد لا يستغرق أكثر من ربع ساعة ، ولذا فقد قرر موسوليني أن يتحرك من بيته في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين . فحركة المرور في الشوارع خفيفة حتى في أيام الأسبوع ، نظراً لأزمة الوقود ، أما في أيام الآحاد ، فالحركة تكاد تكون متوقفة .

والتقط موسوليني في الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين تماماً قبعته السوداء ، وخرج مع سيزاري إلى السيارة التي تنتظره . ولم يحمل معه هذه المرة حقيبة ملأى بالأوراق ، كما تعود أن يفعل ، عندما كان يذهب لمقابلة الملك ، وإنما حمل وثيقة واحدة تحدد القانون الأساسي للمجلس الأعلى وصلاحياته ونسخة من مشروع جراندي ، ورسالة شيانيي التي استقال فيها من الوزارة .

٤

وبينما كان موسوليني يستعد للمقابلة الملكية في قصر سافويا ، كان الملك بدوره يأخذ أهبته لاستقباله في القصر .

وكان جراندي قد نقل في ساعة مبكرة من ذلك الصباح إلى الدوق داكوارون نتائج اجتماع المجلس الأعلى ، واقترح على الملك أن يعين الماريشال كافيليا الجندي الممتاز والمعروف بعدائه للفاشية ، رئيساً للحكومة ، وأن يبعث ببعض

الممثلين الدبلوماتيين على الفور إلى مدريد للشروع فى مفاوضات الصلح مع الحلفاء . وأحس جراندى بالاستياء عندما أبلغه داكوارون أن الملك قرر تعيين الماريشال بادوليو رئيساً للحكومة . ولم ينبس الرجل ببنت شفة وإنما غادر الغرفة ، ليختفى إلى الأبد من الحياة العامة[1]. وأيقظ داكوارون الملك فى الساعة السادسة صباحاً ، لينقل إليه تقرير جراندى عن جلسة المجلس الأعلى . وراح بعد ساعة يزور الجنرال امبروزيو ، ثم مضيا معاً إلى بادوليو ، ليبلغاه ما قرر الملك أن يفعله . وبالرغم من أن بادوليو فقد فيما بعد كثيراً من ثقته بنفسه ، إلا أنه اتقد تلك اللحظة بالحماسة . وارتدى بزة الماريشالية ، وبعث بأحد خدمه إلى القبو ليأتيه بزجاجة من الشمبانيا . وراح يمزح بعد قليل مع أسرته قائلا إنه قرر على ضوء الصلاحيات التى ستمنح له عما قريب اعتقالهم جميعاً .

أما امبروزيو وقد عهد إليه بواجب الاعتقال ، فلم يشترك مع بادوليو فى معنوياته العالية . وكان الجنرال كاستيلانو قد زاره فى ذلك الصباح ، وأبلغه أن الملك لم يصدر بعد أوامر محددة باعتقال موسولينى . وقال امبروزيو . . . « إذا قبل موسولينى إقالته دون اعتراض ، فسندعه وشأنه . أما إذا اعترض فسنجد أنفسنا مرغمين على اعتقاله » .

واعترض كاستيلانو قائلا : . . « ولكن هذا مستحيل . فالملك لا يريد أن يكون أحد حاضراً معه حديثه إلى موسولينى . ولن يكون فى وسعنا أن نعرف حقيقة موقفه » . ولو سمحنا له بالخروج من قصر سافويا ، فلن يكون فى إمكاننا اعتقاله ثانية » .

---

(١) قضى جراندى جزءاً من صباح اليوم فى مكتبه فى مونتيسيتوريو ، حيث زاره تشيانو مستصحباً معه فيليبو انفوسو . وتقيم رواية انفوسو عن أحداث ذلك الصباح الدليل على أن أياً من المتآمرين لم يكن يعرف شيئاً عن خطط القصر ، وأن الثقة كانت مفقودة بين الجانبين . ويقول انفوسو إن جراندى وتشيانو انتحيا جانباً من الغرفة وراحا يتحدثان فيما يشبه الهمس . وسرعان ما علا جدالهما . « واتضح أن جراندى كان يخفى الكثير عن تشيانو » . وعند ما غادر هذا ومعه انفوسو المكان بعد قليل ، فى طريقهما إلى بيت الأخير ، أظهر تشيانو أن معرفته بنوايا القصر مضطربة كمعرفة جراندى . وقال بشىء من الهمس « لقد ترتب كل شىء . وسترى ذلك بنفسك . فقد تم تشكيل الوزارة . وسيكون بيريلى وزيراً للخارجية . أما فيتينى فسيكون كما أعتقد وكيلا للوزارة . وسيتولى الجنرال كاربونى وزارة الدعاية . وسأظل بعيداً فى الوقت الحاضر . ولكن سنرى فيما بعد . أما بالنسبة إليك فلا أريد الحديث كثيراً عنك . فأنت معروف بميلك إلى الألمان . ولكننى سأتحدث عنك إلى أصدقائى » . « المؤلف »

فرد امبروزيو بقوله . . . « حسن . . إذن فعلينا أن نعتقله على أى حال » .

وبرح كاستيلانو مكتب امبروزيو فى الساعة الحادية عشرة ، ماضياً إلى مكتب قائد شرطة « الكاربنييرى » . وكان عليه قبل أسبوع أن يتصارع مع الجنرال هازون قائد الشرطة ، إذ بالرغم من تأييده للمؤامرة ، لم يكن موافقاً على اقتراح امبروزيو . لكن هازون قتل إبان غارة التاسع عشر من يوليو ، وخلفه فى القيادة مساعده الجنرال بيشى ، وهو فاشى مخلص ، تخطوه فى الترقية نتيجة جهود الجنرال أنطونيو سوريس وكيل وزارة الدولة فى وزارة الحربية الذى أقنع كلاريتا بيتاتشى بتأييد ترشيح الجنرال سيريكا للمنصب . وقد وافق سيريكا هذا على أن ينفذ لامبروزيو وكاستيلانو ما أراداه . ووصل إلى قصر سافوى يرافقه ضابط برتبة عقيد ، وخمسون من ضباط « الكاربنييرى » وجنودها ، قبل نصف ساعة من موعد صول موسولينى .

ووجه إكوارون حديثه إليه عندما وصل . . . « أتريد الأمر من الملك شخصياً ؟ » .

— « لا بأس ، إذا كنت تصدر الأمر باسم الملك . ولكننى أريده أمراً خطياً » .

ومضى إكوارون إلى الملك الذى كان يسير فى حديقة القصر مع مرافقه الجنرال بوتونى وقال له . . . « يريد الجنرال سيريكا قائد الكاربنييرى ، من جلالتك ، أن تؤكد عن طريق الأمر باعتقال الشيفالييه بنيتو موسولينى » .

وكان صوت الملك فى منتهى الهدوء والنعومة ، بحيث لم يستطع الرجلان أن يسمعاه وهو يقول . . . « حسن » . . . وعندما مضى ليواصل سيره مع الجنرال بوتونى ، كان وجهه شاحباً للغاية .

وتلقى الجنرال سيريكا بعد ظهر ذلك اليوم أمراً خطياً وقعه امبروزيو وإكوارون . وطوى سيريكا الأمر بعناية ، ووضعه فى جيبه . وقال : إنه ظل حتى تلك اللحظة يشك فى أن الفرصة ستتاح له لتنفيذ الأمر .

٤

الاعتقال فى قصر سافوى

٢٥ يوليو ١٩٤٣

« ليس فى وسع المرء أن يحكم هذه المدة الطويلة وأن يتطلب من الشعب تضحيات بالغة دون أن يستفز لديه شيئاً من السخط »

سارت سيارة موسولينى عبر شارع سالاريا الخالى من الحركة بعد ظهر ذلك اليوم القائظ من أيام الآحاد الهادئة ، لتدخل عبر الباب الحديدى إلى ساحات قصر سافوى . ووقفت السيارة أمام رواق القصر . ولاحظ السائق ايركولى بوراتو ، وهو مندهش ، أن الملك ، مصحوباً بمرافقه ، كان يقف فى أعلى السلم ، وقد ارتدى بزة ماريشال إيطاليا . وهبط الملك سلم القصر ليستقبل زائره مبتسماً وعارضاً يده ، وهو أمر لم يسبق للسائق أن رآه من قبل . ومضى الملك وموسولينى إلى داخل القصر معاً ، وخلفهما المرافق ودى سيزارى ، بينما مضى السائق بالسيارة إلى زاوية السلم كعادته . وشهد الرجال الأربعة وهم يدخلون القصر ، ثم جلس فى مكانه ينتظر . وكان الحر لا يطاق فى السيارة ، ولكن هذه المقابلات لم تكن تطول فى العادة أكثر من ربع ساعة ، وراح يسلى نفسه بالتفكير فى أنه سيعود إلى منزله عما قريب . ولم يكن قد طال انتظاره ، عندما جاءه ضابط من ضباط الشرطة ، لم يكن وجهه غريباً عليه ، يمد رأسه عبر النافذة قائلا . . . « إنهم يريدونك على الهاتف يا ايركولى ، فهيا أسرع ، وسأمضى معك ، إذ أننى أريد التحدث فى الهاتف أيضاً » .

ودلف بوراتو من السيارة ، ومضى مع الضابط ، وهو مستغرب من هذا الطلب غير المتوقع . ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يستدعى فيها للهاتف فى قصر سافوى ، ولكنه أحس هذه المرة بشىء من القلق الغامض . ورأى فى القصر وساحاته عدداً من رجال « الكاربنييرى » يفوق ما ألف أن يراه فى المرات السابقة .

وكانت علائم التجهم والحيطة تبدو على وجوه الجميع باستثناء الدوتشي . فقد بدا موسوليني وكأنه لايأبه بشيء ، إذ ظل هادئاً غاية الهدوء طيلة المدة التي قضاها في السيارة .

وكان لا يزال على هدوئه حتى تلك اللحظة . وبالرغم من أنه لم يرد على تحية الملك مكتفياً بهز رأسه وكأنه يقول . . . « لا أنا لست بخير . أشكرك » ، إلا أن أحد الخدم سمعه يقول ، وهو يدخل مع الملك إلى غرفة الاستقبال ، مجيباً بلهجة فيها الكثير من الرقة والكياسة . . . على سؤال الملك ، عما إذا كان الطقس حاراً ، « أجل إنه حار » . وراح يروى على مسامع الملك عندما وصلا غرفة الاستقبال ، بهدوء ودون أي إفراط في التأكيد ، ما وقع في المجلس الفاشي الأعلى في الليلة السابقة . وأضاف أن هذه الحوادث ليست مهمة على أي حال ، ولا سيا أن في وسعه أن يقيم الدليل استناداً على عدد من القوانين والنظم ، أن الاقتراع ضده لم يكن قانونياً . وكان على ثقة مطلقة من عدالة قضيته .

وقاطعه الملك قائلا كما روى فيما بعد . . . « وسرعان ما حملته على الفهم بأنني لا أشاطره الرأي ، مشيراً إلى أن المجلس الأعلى جهاز من أجهزة الدولة ، كان هو خالقه ، وقد نال موافقة مجلسي البرلمان على إيجاده . ولهذا فكل قرار يتخذه المجلس الأعلى لابد أن يحتل مكانة عالية من الأهمية » .

وواصل الملك حديثه قائلا . . . « على أي حال ، لم تعد هناك جدوى يا عزيزي الدوتشي . فالأوضاع في منتهى السوء والخطورة . وقد أصبحت إيطاليا أرضاً خربة . وانحلت معنويات الجيش انحلالا كاملا . ولم تعد للجنود رغبة في مواصلة الحرب . وتنشد الكتائب الألبية نشيداً مضمونه أن رجالها لن يواصلوا القتال من أجل موسوليني » . ثم تلا باللهجة البيدمونتية ، مقطعاً من الأغنية ينتهي بالعبارة التالية « ليسقط موسوليني قاتل الجنود الألبيين » .

وظل موسوليني يصغي صامتاً . . . بينما واصل الملك حديثه بقوله . . . « واقتراع

المجلس الأعلى شيء مرعب مخيف . فهناك تسعة عشر صوتاً إلى جانب مشروع جراندى وبين أصحابها أربعة يحملون وسام « انونزياتا » . وعليك أن لا تشك لحظة واحدة فى حقيقة مشاعر إيطاليا تجاهك . فأنت فى هذه اللحظة أكثر رجل تكرهه إيطاليا . وأنا وحدى صديقك الذى ما زلت على صداقتك . ولذا فأنا أقول لك ، إن عليك أن لا تخشى شيئاً على سلامتك . وسأضمن لك الحماية » .

ولم يرد موسولينى حتى هذه اللحظة بحرف واحد ، وعندما أنهى الملك حديثه قائلا إن الماريشال بادوليو سيخلفه فى الحكم ، جلس موسولينى فجأة دون أن يقول شيئاً . وكأنه يحس بالإغماء ، بعد أن شحب وجهه إلى حد مخيف . وبدا وكأنه لم يعد يسمع شيئاً ، وعندما قال الملك إن بادوليو يتمتع بثقة الجيش الكاملة ، وبثقة الشرطة أيضاً ، ردد موسولينى العبارة الأخيرة « وبثقة الشرطة أيضاً » وكأنه قد سمع العبارة دون أن يفهم معناها .

وتمتم كما روى الملك فيما بعد قائلا : « إذن فقد انتهى كل شيء » . وكرر العبارة ثلاث مرات .

ثم نهض أخيراً واقفاً على قدميه . وقال بصوت أقوى . . . « إذا كنت جلالتك على حق فيما قلته ، فسأقدم استقالتى » .

— « أجل ، وأنا أقول لك إننى أقبل استقالتك من رئاسة الحكومة دون قيد أو شرط » .

فقال موسولينى : « إنك تتخذ قراراً مشحوناً بالنتائج . فالأزمة فى هذه اللحظة ستحمل الشعب على الاعتقاد بأن الصلح بات وشيك الوقوع ، لأن الرجل الذى أعلن الحرب ، قد أزيح من منصبه . وستكون الصدمة التى ستلحق بمعنويات الجيش مرعبة ومفجعة . . . وستعتبر الأزمة نصراً لحلف تشرشل وستالين ، ولا سيما للأخير الذى سيرى فيها . انسحاب عدو حاربه بضراوة مدة عشرين عاماً . وقد تبينت كراهية الشعب . ولم يكن من الصعب على أن أتبينها ليلة أمس أثناء اجتماع المجلس الأعلى . فليس فى وسع المرء أن يحكم هذه المدة الطويلة ، وأن يتطلب من الشعب تضحيات بالغة ، دون أن يستفز لديه شيئاً من السخط . وإنى لأرجو حظاً سعيداً للرجل الذى سيتسلم مقاليد الحكم فى هذه المرحلة » .

وانتهت المقابلة . ومضى الرجلان إلى الباب . . وروى موسولينى فيما بعد أن وجه الملك كان « شاحباً ، وبدا الملك أقصر من حقيقته ، بل بدا وكأن ظهره قد انحنى مرتين » . . . وكان قد قاد الحديث « بشىء من الهياج غير العادى ، بل فى شىء من التمتمة المؤلمة المهزوزة » ، قاضماً أظافره بأسنانه ، وصادراً بأقوال تفتقر إلى التماسك أحياناً . لكن المرافق الذى رأى الملك وهو يغادر الغرفة ، التى جرت فيها المقابلة ، لم يستطع أن يتبين تبدلا فى مظهره أو فى تصرفاته ، كما أن بادوليو الذى اجتمع إليه بعد لحظات ، وصفه بأنه كان فى منتهى الهدوء .

وبالرغم من أن الملك قد رأى فى موسولينى ما رآه هذا فيه ، وقال إن رئيس حكومته بدا أصغر مما كان عليه . وكأنه قد انكمش ، فإن موسولينى ظل فى الواقع فى منتهى الهدوء . وعندما أصبحا خارج غرفة الاستقبال ، مد يده إلى الملك مصافحاً فتناولها هذا بين يديه ، وهزها بحرارة . وعادا إلى الحديث ثانية عن الحر الذى لا يطاق . وطلب الملك أن يتعرف إلى دى سيزارى الذى كان ينتظر فى الغرفة الخارجية مع العقيد توريلا دى رومانو ، من أركان حرب الملك الشخصيين . وقدم موسولينى سكرتيره بمنتهى الهدوء ، فقد قبل تنحيته عن الحكم بنفس الهدوء الذى كان قد رفض فيه تقبل التحذير عن نوايا الملك .

ولم يبد على موسولينى أى فزع على الإطلاق ، رغم كل ما كان قد تلقاه من تحذير . فالهزة العنيفة الفورية التى أصيب بها بعد اجتماع المجلس الأعلى ، مضت لتحل محلها حالة من الثقة العمياء . وروت الكونتيسة تشيانو تقول . . . « وكان سلوك والدى فى تلك الأيام من النوع الذى لا يمكن فهمه على الإطلاق . فقد كان يعرف أن انقلاباً يحاك ضده ، منذ أكثر من خمسة عشر يوماً قبل وقوعه . ولكنه لم يعالج الموضوع معالجة جدية على الإطلاق . وكان يظن أن الأمر لا يتطلب أكثر من استبدال عدد من الوزراء . وعندما حذرته زوجته ، ثار عليها ، وقال إنها هى صانعة الأذى الذى سيصيبه . وعندما أنذرته كلاريتا ، تجاهل إنذارها ولم يأبه به . وعندما حذره سكورزا وجاليبانى ، تجاهل تحذيرهما ، دون أن يطلب منهما المزيد من التفاصيل . وعندما وصل فى هذه اللحظة إلى سلم قصر سافويا خارجاً منه ، لم يكن قد أحس بالخطر بعد . ورأى أن سيارته لا تقف فى

مكانها المعهود عند زاوية السلم ، وإنما تقف فى مكان بعيد ، فى الطرف الآخر من الطريق ، وتضايق ، وبدت على ملامحه علائم الضيق ، ، ثم مضى ماشياً يقصد السيارة . وتقدم منه النقيب فيجنيرى من ضباط « الكاربنييرى » وأدى التحية العسكرية برشاقة وقال . . . « سمعنا أنك فى خطر ياسيدى الدوتشى . وقد تلقيت الأوامر بحمايتك » .

ورد موسولينى بشىء من الدهشة أو الغضب . . . « لا حاجة بى إلى ذلك . فلدى حراسى » .

وقال النقيب . . . « ولكن الأوامر أن أتولى حراستك » .

وكان موسولينى قد وصل نهاية السلم فى هذه اللحظة ومضى يعبر الطريق باتجاه سيارته . . . ثم قال « حسن . إذا كانت هذه أوامرك . والأفضل أن تأتى معى فى سيارتى » .

فرد النقيب . . . « لا يا دوتشى . عليك أن تأتى معى » .

— ولكن هذا شىء مضحك ، لم يسبق لى أن سمعت بمثله .

— إنه أمر يا دوتشى .

وأشار النقيب فيجنيرى إلى سيارة إسعاف . ولم يحاول موسولينى الاحتجاج أو المقاومة وإنما مضى إليها . وكان بابها الخلفى مفتوحاً . وعندما وصل إليه ، تردد لحظة واحدة ، فقد رأى فى داخلها عدداً من الجنود المسلحين . وأمسك النقيب بذراعه بلطف . وتقبل موسولينى الإيماءة على أنها مساعدة لا إرغام ، وصعد إلى السيارة . وجلس موسولينى وقد أسدل قبعته على عينيه ، وصعد دى سيزارى وراءه إليها . واستقلها بعد ذلك ضابط آخر وثلاثة جنود من الكارنبييرى وضابطان من رجال الشرطة بملابسهم الواضحة ، يحملان مسدسين رشاشين . وأغلقت أبواب السيارة بعنف . ولم يدر فى خاطره حتى هذه اللحظة أنه قد اعتقل .

٥

السجين

من ٢٥ يوليو ١٩٤٣ حتى ٢٨ أغسطس ١٩٤٣

« التاريخ خير الأساتذة ، ولكن طلابه من أسوأ التلاميذ » .

خيم الصمت على سيارة الإسعاف . وظل موسوليني جالساً في هدوء نصف ساعة ، والسيارة تقطع الشوارع ، وهو مصدق لما قاله النقيب « الكاربنييري » من أنهم يتولون حمايته من خطر الدهماء . وعندما توقفت السيارة في الساعة السادسة في باحة ثكنات « الكارنبييري » في « شارع كونيتينو سيلا » ، نزل من السيارة وكأنه قد جاء إلى معسكر بودجورا في جولة استكشافية متطلعاً حوله ، وقد اندفع فكه الأسفل . وانفرجت قدماه بعض الشيء ، ملقياً بجذعه إلى الأمام ، وواضعاً يديه على خاصرتيه ، في نفس الوقفة التي اشتهر بها وأصبحت معروفة عند الناس كوجهه تماماً .

ومضوا به إلى مطعم الضباط الذي لاحظ أن الجنود يحيطون به مشرعي الحراب . ثم خلفوه وحيداً هناك .

وكان أحد الضباط يجلس في الغرفة المجاورة ، وهو يرقبه من شق الباب نصف المفتوح ، دون أن يحدثه . وانقضت ثلاثة أرباع الساعة ، وعادوا بعدها بموسوليني إلى سيارة الإسعاف ، التي سارت بسرعة هائلة حتى إن دي سيزاري احتج بأن اهتزازها المخيف ، سيضايق معدة الدوتشي المصابة . لكن موسوليني ظل هادئاً ، وعندما وصلت السيارة إلى ثكنات مرشحي ضباط « الكاربنييري » في شارع ليجنانو ، خرج من السيارة ثانية دون أي احتجاج . وهمس دي سيزاري في أذنه بأن هذا العدد الضخم من الجنود المسلحين ، في الباحة ، لم يكن إلا بقصد حمايته ليس إلا ، ولكنه رفض أن يصدقه . وعندما نحوا عنه دي سيزاري ، ووضعوه في

غرفة أخرى . تاركيه وحده فى مكتب القائد ، كان لا يزال يؤمن بأن هذه الصفوف الطويلة من الجنود المدججين بالسلاح ، فى أروقة البناء ، إنما وضعت هناك لحمايته . لكن الدهشة مالبثت أن استبدت به ، عندما رافقه أحد الضباط وعدد من الجنود ، إلى دورة المياه ، حيث تولوا حراسة الباب ، ثم عادوا يتبعونه إلى مكتب القائد .

وقدموا إليه وجبة من الطعام ، فرفضها ، وكأنه يكاد يتقيأ من مجرد رؤيتها . وبالرغم من أنه لم يشك من شيء ، إلا أنه بدا مريضاً للغاية ، حتى إن القائد ، رأى أن من الخير استدعاء الطبيب للعناية به . ووصل الدكتور سانتيلو على الفور ووجده « فى منتهى الشحوب الذى يشبه صفرة الموت ، وقد انخفض نبضه إلى حد كبير » . وطلب حلاقاً ، فجاءوا به . وبعد إن حلق له ذقنه ، اعتذر بكثير من الحيرة غير المتوقعة ، بأنه لا يحمل مالا معه ليدفع له أجره ، ولكنه سيذكره ، وسيجزيه ذات يوم على ما فعله .

وأطفأ النور فى الحادية عشرة ، وحاول أن ينام على السرير العسكرى الذى أمّنوه له . لكن النور المنبعث من الغرفة المجاورة ضايقه . فقد كان ثمة ضابط يتولى مراقبته بدقة ، دون أن يزعج نفسه حتى بالرد على الهاتف الذى ظل جرسه يرن بإصرار جنونى .

٢

وتجمهر الناس فى شوارع روما منذ الغسق فى جماعات صغيرة ، يتناقلون آخر الشائعات . وامتلأت الشوارع والساحات العامة فى الساعة الخامسة بالجنود المسلحين بالمدافع الرشاشة والمدفعية الخفيفة ، ولم يصدق الناس التفسير شبه الرسمى بأن هؤلاء الجنود يستعدون لمقاومة عملية نزول لقوات الحلفاء من الجو ، قد تقع فى أى لحظة ويقوم بها المظليون فى ضواحى العاصمة . ولم تكن أية أنباء عما دار فى اجتماع المجلس الأعلى قد وصلت إلى الجماهير ولا إلى الصحافة ، وكان كل ما عرفه الناس أن الاجتماع قد طال حتى الساعات المبكرة من الصباح . وأن قراراً فى منتهى الأهمية قد اتخذ . وتوسعت الشائعات عندما جن الليل ، وقد تركزت كلها حول

الدوتشى . وقال بعض الناس إنه قد مات . وقال آخرون إنه طار إلى ألمانيا ، بينما قال بعض ثالث إنه استقال ، ومضى إلى مسقط رأسه فى رومانا . وعندما حلت الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً ، وهو الموعد العادى لنشرة الأخبار ، ووقفت الألوف من الناس حول أجهزة الراديو يصغون إلى البيانات المنتظرة ، ظلت الإذاعة صامتة . وظل الناس ينتظرون بكثير من اللهفة . وكانت العادة أن تعزف الإذاعة بعض الاسطوانات فى حالة تأخر نشرة الأخبار عن موعدها ، أما اليوم ، فلا شيء إلا صرير الأجهزة نفسها ، وأخيراً ، سمعوا ، بكثير من الإثارة ، صوت المذيع الذى يعرفونه وهو يقول . . .

« قبل جلالة الملك الإمبراطور ، استقالة ، فخامة الشيفاليه بنيتو موسولينى من رئاسة الحكومة ، ومن السكرتيرية العامة للدولة ، واختار جلالته خلفاً له فى هذين المنصبين ماريشال إيطاليا ، الشيفالييه بيترو بادوليو . . . »

وكان هذا البيان كافياً لكثيرين من المستمعين ، ولم يعودوا تواقين إلى سماع المزيد . وانطلقت الجماهير فى الشوارع تهتف وترقص وتغنى . فقد سقط موسولينى ، وأصبحت الحرب على وشك النهاية . وتبادل الناس القبلات ، وتشابكت أيديهم ، وهم يذرعون الشوارع جيئة وذهاباً ، راكضين وهاتفين بالوجوه التى تطل عليهم من النوافذ . . . بأن الفاشية قد انتهت . وانطلقت اللعنات تنصب على موسولينى ، وكأن الناس قد تحولوا إلى أطفال يغلبهم الحماس ، بعد أن سمح لهم بالزعيق بعد صمت طويل فرض عليهم . وهرع الكثيرون إلى قصر الكيرينالى ، يحيون الملك ، بينما مضت حشود أخرى إلى شارع « ٢٠ سبتمبر » تحيى بادوليو . واقتحمت الجماهير التى ألهبها الحماس مكاتب صحيفة « المساجيرو » ، فقلب أفرادها ما فيها ، رأساً على عقب ، محطمين الأثاث ، وممزقين الملفات ، يقذفون بأجهزة الهاتف ، وصور موسولينى من النوافذ . وراح الناس ينزعون الشارات الفاشية عن الأبنية التى يصلون إليها ، ويمزقون شعاراتها عن صدور الحمقى الذين كانوا لا يزالون يحملونها . لكن بعضاً منهم ظل يحمل هذه الشعارات . وانطلق الأشرار يبحثون عن ضحايا لهم ، فلا يجدون أحداً . وبدا أن الناس قد تحولوا جميعاً وبسرعة البرق ، إلى أعداء للفاشية . وكان سكورزا لا يزال ينتظر عبثاً رسالة من موسولينى ،

لكن هذه الرسالة لم تصله ، فمضى يائساً إلى مقر قيادة الحزب فى شارع كولونا . حيث أصدر الأمر بتعبئة جميع الفاشيين فى رومه . وراح يقول لسكرتيره المساعد : « هناك شيء يحدث . وأنا لا أعرفه بالضبط ، ولكن يساورنى إحساس داخلى بأن ما يحدث فى منتهى الخطورة » . ولكنه خاب فى مساعيه ، كما خاب جاليباتى فى تعبئة الحرس الفاشى ، إذ لم يلب النداء إلى أداء الواجب إلا خمسون فاشياً ، لم يجدوا شيئاً يعملونه .

وحطمت الجماهير منازل عدد من الفاشيين المعروفين ، ولكنها لم تجد أحداً فيها . وأشعلت النيران فى عدد من مكاتب المنظمات الفاشية ، ولكنها سرعان ما أخمدت . واندفعت زمرة من المتظاهرين إلى قصر البندقية ، يصرخون مطالبين بالرجل الذى ظل كابوساً متسلطاً عليهم عشرين عاماً ، ولكنهم لم يحاولوا تحطيم أقفال « قاعة الكرة الأرضية المغلقة » واكتفوا برفع علم أحمر .

لكن حوادث العنف ظلت محدودة ، ولم يقتل فرد واحد فيها ، فقد كانت الحالة النفسية ناطقة بالفرح لا بالرغبة فى الانتقام . ورقصت الجماهير وكأنها فى عيد فى شارع ديل تريتونى وميدان كولونا وشارع ناسيونالى وميدان « الشعب » ، وكان الناس يتبادلون التهانى قائلين . . . « لقد ماتت الفاشية » . وكان قولهم صادقاً ، فلم يضح إنسان واحد فى رومة فى تلك الليلة بروحه دفاعاً عنها .

لكن معظم الناس ، ظلوا قابعين فى بيوتهم ، وقد خيم عليهم وجوم حزين من خيبة الأمل . فبعد إذاعة نبأ استقالة موسولينى ، جاء بيان بادوليو يعلن بأن الحرب ستستمر ، وأن إيطاليا ستظل مخلصة إلى جانب حلفائها . لقد تعلقت آمالهم بأكثر من هذا . وكان الألمان لا يزالون فى رومه . فقد تكون الحرب حرب موسولينى . ولكن لم يكن فى الإمكان إنهاؤها بعد . فالجيش الألمانى ما زال مسيطراً على معظم أرجاء إيطاليا ، وكانت الأوامر قد صدرت عن القيادة الألمانية بتشديد هذه السيطرة وهكذا لم يعد هناك أمل بعد فى الصلح .

وكان هناك أيضاً كثيرون لا يزالون يذكرون أن غالبية هؤلاء الناس الذين يرقصون ويهزجون فى الشوارع محتفلين بسقوط موسولينى بمثل هذا الفرح الطاغى ، كانوا يملأون الأجواء ، من قبل بهتافاتهم المجنونة « دوتشى ، دوتشى ، دوتشى » ،

وكانوا يهتفون معلنين ولاءهم له حتى الموت . وبدا أن هناك شخصاً واحداً فقط من جميع أولئك الذين كانو يتظاهرون لموسولينى بالولاء والإخلاص ، يريد أن يظهر صدق ولائه وثباته على مبدئه .

« لقد استقال الدوتشى » . . . هذا ما كتبه مانيليو مورجاجنى عضو مجلس الشيوخ فى ورقة صغيرة خلفها على مكتبه . . . « وقد انتهت حياتى . عاش الدوتشى » ثم أطلق النار على رأسه منتحراً ».

٣

وكان الملك يذرع ممرات حدائق قصره ، جيئه وذهاباً ، متحدثاً بكثير من المرح إلى أحد ضباط أركانه عن اجتماع المجلس الأعلى وعن اعتقال موسولينى . لكن الملكة لم تكن راضية ، وكانت تقول متذمرة . . . « كان فى وسعهم أن يعتقلوه متى شاءوا وأنى أرادوا ، ولكن كان عليهم ألا يفعلوا ذلك هنا ، فقد كان ضيفنا . إن قوانين الضيافة تعرضت لأبشع انتهاك . وهذا شىء مخجل ومعيب »[١]. وكانت الملكة قد رأت فى موسولينى عندما التقت به أول مرة إنساناً سوقياً ومتبذلا ، ولكنها سرعان ما بدأت تعجب به ، ولذا فقد أحست فى صميم فؤادها بالأسى والأسف على سقوطه الفجائى العنيف .

٤

دخل المقدم شيريكو فى الساعة الواحدة صباحاً مكتب قائد معسكر فيكتور عمانوئيل الثانى ، وبادر موسولينى قائلا . . . « وصل الجنرال فيرونى ، يحمل إليك رسالة من الماريشال بادوليو » .

(١) أعرب الأمير أومبرتو ولى العهد أيضاً عن استيائه من الطريقة التى اتبعها العسكريون من الجنرالات الذين تطرف بعضهم فيما بعد فاقترح إعدام الدوتشى فوراً ، وادعى الأمير أنه عارض هذا الاقتراح بمنتهى الشدة والإصرار . « المؤلف »

ونهض موسوليني من السرير العسكرى ، ومضى إلى الغرفة المجاورة ، حيث وجد الجنرال فيرونى يضع على وجهه كما وصفه « قناعاً أنيقاً غريباً » . وسلم إليه الجنرال وهو ضابط ركن فى وزارة الحربية رسالة من الماريشال بادوليو . وتطلع موسوليني إلى زائره قبل أن يقرأ الرسالة وقال . . . « أظن أننا التقينا من قبل يا جنرال ، أليس كذلك ؟ »

وكان فيرونى قد قاد بالفعل فرقة فى ألبانيا ، حيث قدم إلى موسوليني ذات يوم . لكن المقابلة كانت عاجلة . وبدا الدوتشى ، الذى ظن الجنرال أنه نسى هذه المقابلة ، غير مكترث به على الإطلاق يوم المقابلة . . .

ورد فيرونى قائلا ببرود . . . أجل ، تقابلنا فى ألبانيا .

وقال موسوليني ، وقد فتح عينيه متظاهراً بالدهشة من أن يكون فيرونى قد تذكر المقابلة ، موحياً له ، كما كان نابوليون يود أن يفعل دائماً ، بأن ذاكرته قوية فى مثل هذه الأمور . . . « صدقت يا جنرال ، صدقت . ولا تنس أنى كنت دائماً أقدرك كل التقدير » .

وعاد بأنظاره إلى الرسالة فقرأ فيها . . .

« إلى فخامة الشيفالييه بنيتو موسوليني . يود رئيس الحكومة الموقع على هذه الرسالة أن يؤكد لفخامتك ، أن ما اتخذ من إجراءات إنما كان بقصد ضمان سلامتك ليس إلا ، بعد توارد المعلومات الموثوقة من جهات عدة ، بأن هناك مؤامرات خطيرة تدبر على حياتك . وهو يود أن يؤكد لك ، أنه سيصدر أوامره ، بأن تصحبك حراسة كافية وأمينة ، مع فائق الاحترام ، إلى المكان الذى تريد .

التوقيع . رئيس الحكومة — الماريشال بيترو بادوليو » .

ورفع موسوليني عينيه إلى فيرونى ، الذى سأله عن المكان الذى يود أن يقصده .

ورد موسوليني بشيء من الازدراء المتكبر ، أن ليس من شأنه أن يختار . فليس له بيت يملكه ، وسيكون ضيفاً فى كل مكان يذهب إليه .

واقترح فيرونى عليه أن يذهب إلى روكاديل كاميناتى ، وبدا أن هذا الاقتراح قد أفرح موسوليني . وقال إنه لم يقترح المكان بنفسه لأنه لم يكن يعتبر هذا القصر الريفى ملكاً شخصياً له ، بل ملكاً لرئيس الحكومة . وطلب إلى فيرونى

أن ينقل رغبته هذه إلى الماريشال بادوليو فى رسالة أملاها عليه ببطء ، هذا نصها . . .

« ٢٦ يوليو ١٩٤٣ . الساعة الواحدة صباحاً . (ويبدأ بلهجة فيها الكثير من الوقار المدروس ، أراد منها أن يضفى على ملاحظاته العادية إحساساً من الإلهام السماوى والمصير) . أولا : . . أشكر للماريشال بادوليو اهتمامه بسلامتى الشخصية . ثانياً . . . إن المسكن الوحيد الموجود تحت تصرفى هو روكاديل كاميناتى ، وإنى لعلى استعداد للذهاب إليه فى أى وقت . ثالثاً . . . أود أن أؤكد للماريشال بادوليو ، متذكراً عملنا معاً فى الأيام الماضية ، أنه لن يجد متاعب من ناحيتى ، إذ سأتعاون معه فى كل صورة من الصور . رابعاً . . . إنى سعيد بالقرار الذى اتخذتموه بمواصلة الحرب مع حلفائنا . لأن شرف البلاد ومصلحتها يتطلبان ذلك . وإنى لأرجو من صميم القلب ، أن يكلل الله بالنجاح العمل الخطير الذى تحمل الماريشال بادوليو أعباءه ، باسم صاحب الجلالة الملك ، وبأمره ، وهو من كنت خادمه الأمين طيلة عشرين عاماً ، وسأظل كذلك ما بقى من حياتى » .

وانتهى من إملاء هذا الكتاب الذليل ، ثم طلب أن يقرأه . وراح يوقع فى ذيل الصفحة بقلم أزرق . . . « عاشت إيطاليا . موسولينى [1] » .

وغادر الجنرال فيرونى المكان ، وعاد موسولينى إلى سريره فى الغرفة الصغيرة العارية . وظل النوم بعيداً عن جفنيه مدة طويلة ، ولكنه أغفى إغفاءة عميقة قبيل الفجر .

وانقضى اليوم التالى بطوله تقريباً وهو فى هذه الغرفة مستلقياً معظم الوقت على السرير ، مع فترات يقف فيها إلى النافذة ، ليتطلع إلى السيارات وهى تدخل وتخرج إلى ساحة الثكنة تحته ، وإلى مرشحى الضباط وهم يسيرون أمام السور الذى كتبت عليه بحروف بيضاء كبيرة العبارات التى كانت تؤلف الشعار الرمزى لعهده وهى . . . « الإيمان والطاعة والنضال » .

وكان فى منتهى الدماثة مع « سجانيه » ، « راغباً » كما تصور أحدهم ،

---

(١) عند ما نشرت الرسالة قال هتلر إنها مزورة ، وإن تزويرها يبدو من صيغتها الضعيفة . ولكن موسولينى أدرجها فى كتابه « قصة سنة » . « المؤلف »

فى « تحبيب نفسه إليهم عن طريق إطاعة كل طلب يوجه إليه . وقد أقلّ من الأكل ، ولم يدخن أبداً » . وعندما جاءه الدكتور سانيبلو ثانية ليسأله إذا كان فى حاجة إلى أى شىء ، رد عليه بمنتهى الإجلال قائلا . . . « بعض معجون الأسنان . ونعلا أرتاح إليه » . وقال الضابط الذى أوكلت إليه حراسته إنه كان « مستسلماً وهادئاً » . وقد اعترف فيما بعد لراشيل ، أنه أدرك أخيراً أنه سجين ، وأنه بعد واحد وعشرين عاماً من السلطان ، فقد كل شىء فى يوم واحد . وراح يقول للدكتور سانيبلو . . . « إن الديكتاتورين لا يهبطون بمحض اختيارهم . بل عليهم أن يسقطوا مرة واحدة . لكن سقوطهم لا يسعد أحداً » .

وسمح له فى اليوم التالى بزيارة دى سيزارى فى غرفة مجاورة . وجلس الرجلان على السرير يتحدثان ، ويحتسيان أقداحاً متتابعة من الشاى الذى حملته إليهما زوجة القائد . وفى الساعة السابعة ، كان موسولينى يتطلع من النافذة ، فرأى فصيلتين إحداهما من جنود « الكاربنييرى » والأخرى من شرطة المدينة ، يدخلان ساحة الثكنة ، ويقفان إلى جانب مجموعة من السيارات الشاحنة . ولم تمض ساعة ، حتى كانت سيارات أخرى تفد إلى الساحة ، وفيها عدد من الضباط . وأثارت هذه الحركة اللاعادية فضول الضباط المرشحين فراحوا يطلون من النوافذ ، ومن الشرفات . وقد استبدت بهم الإثارة .

وهتف أحد الضباط صارخاً ... « إلى الداخل جميعاً . . . إلى الداخل ! وأغلقوا نوافذكم » .

ولم يمض طويل وقت حتى جاءه الضابط يقول . . . « صدر الأمر بالحركة » . ومضى معه يهبطان الدرج إلى سيارة واقفة فى الانتظار . ودخل موسولينى إلى المقعد الخلفى يتبعه رجل قدم نفسه باسم العميد (البريجادير) ، بوليتو ، رئيس الشرطة العسكرية . وخرجت السيارة مسرعة من الثكنة تسبقها دراجة نارية يستقلها أحد الجنود ، لإعطاء الأمر لجنود « الكارنبييرى » الذين يتولون حراسة منافذ الطرق ، للسماح للسيارة بالمرور دون توقف . وكانت ستائر السيارة مسدلة ، ولكن موسولينى رأى من شقوقها مستشفى « الروح المقدسة » ، فأدرك أنهم لا يمضون به فى الطريق إلى روكاديل كامنياتى ، عبر شارع فلامينيا ، وإنما يتجهون به

جنوباً نحو شارع آبيا . وعندما وصلت السيارة ، البانو ، تحققت مخاوفه .

وراح يسأل مرافقه . . . « إلى أين نحن ذاهبون ؟

— جنوباً .

— إذن نحن لا نقصد روكاديل كامنياتى .

— جاءنا أمر آخر .

— ومن أنت ؟ كنت أعرف مفتشاً فى البوليس يدعى بوليتو .

— إنه أنا .

— وكيف أصبحت جنرالا ؟

— أعطونى رتبة عسكرية مماثلة .

وكان سافيريو بوليتو على حد قول موسولينى « قد قام بعمليات رائعة فى سنوات حكمه » . وراح يتحدث عنها الآن ، وعن إلقائه القبض على سيزارى روسى الرئيس السابق للدائرة الصحفية الفاشية الذى اعتقل بعد مصرع ماتيوتى . وعن قضائه على عصابة بنيتور فى سردينيا . وظل بوليتو ، والسيارة تنهب الأرض فى الطريق « الابيى » عبر فيليترى وسيستيرنا وتيراسينا ، يدخن باستمرار ، ويسلى موسولينى بحديث حماسى ، عن تفاصيل مغامراته ، وعن أسماء المجرمين الذين عرفهم . وبعد انتصاف الليل بقليل ، خففت السيارة من سرعتها ، وفتح الجنرال بوليتو الحاجز الزجاجى الذى يفصلهما عن السائق وقال . . « أين وصلنا ؟ »

— على مقربة من جاييتا .

وأحس موسولينى لدى سماعه بالاسم باعتزاز مؤلم . فقد بدأت الصورة تبدو أمامه ، وكأنه شخصية « تراجيدية » من شخصيات التاريخ . وأصبحت هذه الصورة التى ابتدعها ليعوض بها لنفسه عن سقوطه من عليائه ، كابوساً يتسلط عليه ، وبات يرى فى مصيره ، انعكاساً لمصائر أولئك العظماء الذين انتهوا كنهايته . ورأى فى نهاية يوليوس قيصر ونابوليون بل فى نهاية السيد المسيح ما يشبه نهايته هو. وسرعان ما رأى صورة تلك القلعة الضخمة التى تشرف على ميناء جاييتا ، فعزى نفسه بأن البابا لويس التاسع كان قد لجأ إلى هذه القلعة فى عام ١٨٤٨ ، وأن مازينى نفسه ، سجن فيها فى عام ١٨٧٠ . وقال لصحفى سويسرى قابله فى

العام التالى . . . » وخيل إلى ، أن نفس المصير ينتظرنى . وقد اقتنعت بهذه الفكرة ، حتى إنى رحت أسأل حارسى المفتش بوليتو ، عما إذا كنت سأحظى بشرف النزول فى نفس الزنزانة التى ضمت بطل بعثنا العظيم مازينى » .

فرد بوليتو باقتضاب : « لا . لم نقرر بعد » .

وتوقفت السيارة ، واقترب منها ضابط بحرى يلوح بمصباح فى يده . وقد بددت التعليمات التى أصدرها أمل موسولينى فى أن يشترك مع مازينى فى مسرح استشهاده . فقد أشار الضابط إلى الأرصفة ، معلناً بمنتهى السخرية المقر الفظيع الذى سيقيم فيه السجين وهو « رصيف تشيانو » .

٥

كان أميرال المؤخرة فرانكو موجيرى ، رئيس المخابرات البحرية ، قد تلقى فى الساعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم رسالة عاجلة من مدير مكتب وزير البحرية ، يأمره فيها بأن يكون على استعداد للقيام « بواجب صغير من واجبات الحراسة » . فقد كان عليه أن يمضى بسيارته إلى جاييتا حيث تقف السفينة الحربية الصغيرة « بير سيفونى » منتظرة على رصيف كونستانزو تشيانو . ولم تمض ساعتان حتى كان يتلقى الأمر التفصيلى من الجنرال سيريكا . فسيغادر موسولينى مصحوباً بالجنرال بوليتو والعقيد بيلاجى وبعض الحرس مدينة رومة فى تلك الليلة إلى جاييتا . وكان الأمر الذى تلقاه موجيرى أن يقابله هناك ، وأن يحمله على ظهر السفينة « بير سيفونى » ثم يصدر أوامره إلى قبطانها تازارى بالإبحار إلى فينتوتينى ، الجزيرة التى تقع على بعد ثلاثين ميلا إلى الجنوب . وعلى الأميرال أن يحرص كل الحرص على ألا يعرف أحد هوية السجين حتى تكون السفينة قد أصبحت فى عرض البحر . وكان عليه أن يذكر لتازارى وضباطه فى مقر قيادة جاييتا البحرية أنه « شخصية مهمة ، متهم فى قضية خطيرة من قضايا الجاسوسية » .

ووصل موجيرى إلى جاييتا فى الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً ، وظل أكثر من ثلاث ساعات ينتظر وصول السجين من رومة ، من غرفة القبطان فى السفينة

أولا . ثم على الرصيف حيث ظل يسير جيئة وذهاباً ، يدخن السيجارة تلو السيجارة ، متحدثاً إلى الضباط البحريين الآخرين الذين اعتقد أحدهم أن الأميرال على موعد فى البحر للتحدث إلى المبعوثين الإنجليز والأمريكيين فى احتمال إعلان الهدنة . وبعد الساعة الثانية من الصباح بقليل ، شاهد موجيرو أضواء ثلاث سيارات تهبط الطريق مسرعة من فورميا .

وقد وصف موجيرى فى كتابه « موسولينى قال لى » ، كيف أن السيارة الأمامية اقتربت منه لتقف على بعد بضع ياردات من السلم المؤدى إلى السفينة الحربية . وخرج المقدم بيلاجى من رجال « الكارنبييرى » من السيارة ، ثم مشى عبر الرصيف ، متقدماً من الأميرال . ونزل الجنرال بوليتو من السيارة الثانية ثم هبط موسولينى أيضاً على الرصيف . وأدى موجيرى التحية ، والتقت عيناه بعينى موسولينى الكبيرتين وهما تدنوان منه « وتبرقان فى هذه الظلمة المدلهمة » .

وقاد الأميرال موجيرى الموكب نحو السفينة ، يتبعه بوليتو فالمقدم بيلاجى . ثم ضابط من الكاربنييرى ، أوصل موسولينى حتى باب جناح القبطان تازارى . وعندما توقف موسولينى أمام مرسمة الضغط يقرؤها ، عاد موجيرى إلى الرصيف ، حيث وجد الضابط البحرى المساعد فى السفينة يصدر تعليماته إلى حراس موسولينى وهم ستة من جنود « الكاربنييرى » المدججين بالأسلحة الرشاشة .

ورفعت السفينة مراسيها وأقلعت مخلفة جايبتا وراءها . وكان هناك عطل فى محرك الجانب الأيمن من السفينة ، ولكنه دار على أى حال ، قاذفاً بسحابة كبيرة من الدخان استمرت طيلة الرحلة .

وكانت الرؤية سيئة ، وكان ثمة ريح خمسينية ضعيفة . وكان الجو حارًّا للغاية والرطوبة شديدة . والسحب خفيضة . وقد سر موجيرى من العودة إلى البحر ثانية ، ولكنه تذكر أنه فكر آنذاك ، فى أنه لو تعرضت السفينة لهجوم من الطائرات أو الغواصات ، فإن القضية لن تكون سهلة أو مزاحاً .

وخفف القبطان تازارى من سرعة السفينة قبل وصولها إلى فينتوتينى ، وعكس اتجاهها انتظاراً لطلوع الفجر . وعندما بلغت الساعة الخامسة والربع ، ألقى بمراسيها على بعد بضع مئات من الياردات من الساحل .

وظل البحارة فى مراكزهم ، بينما نزل الجنرال بوليتو إلى الساحل ، ليكتشف إذا كانت الجزيرة صالحة لإقامة موسولينى فى منفاه . وراقبه الأميرال موجيرى وهو يصعد إلى الزورق البخارى التابع للسفينة ، ثم نزل ثانية ، ليتأكد من « أن كل شىء على ما يرام » .

ويمضى موجيرى قائلا « ودفعنى أيضاً إحساس من الفضول ، فدخلت القمرة ، ورفع موسولينى عينيه الكبيرتين يتطلع إلى عينى وأنا أقول ، يا صاحب الفخامة – وهل يمكن للمرء أن يدعوه بلقب آخر– أتريد شيئاً ، مشروباً ساخناً ، أو قدحاً من القهوة » .

ورفض موسولينى القهوة ، وقال إن كل ما يبغيه هو بعض المعلومات . إنه يريد أن يعرف مساحة فينتوتينى .

وأبلغه الأميرال كل ما تعيه ذاكرته ، ثم طلب كتاب الخرائط . . .

وقال موسولينى مبتسماً . . . آه ، إنها جزيرة صغيرة .

وأدرك موجيرى أنه يفكر بإلبا وسنت هيلانه . وعادت أفكار الأميرال نفسه إلى نابوليون . وتطلع إلى موسولينى بشىء من الإشفاق ثم لاحظ وكأنه يراه لأول مرة . . . « إنه يبدو كجثة . فقد نحل كثيراً » .

وقطع عليه موسولينى حبل أفكاره يقول . . . « أهذه السفينة " فرقيطة " » ؟ . وشرعا يتحدثان عن الحرب فى البحر ، وعن التفوق التقنى للأسطول البريطانى ، والمعارك التى شهدها موجيرى . وسار الحديث بينهما سهلا رضياً على حد تعبير الأميرال . فقد تحدثا عن الأمريكان والفرنسيين واليابانيين وأساطيلهم البحرية ، وعن طريقة الحياة فى كل من أمريكا واليابان .

وقال موسولينى إنه رأى مؤخراً شريطاً سينمائياً عن مدرسة طيران يابانية . وقد لاحظ أن اليابانيين أطول بكثير مما يعتقده الناس ، وراح يسأل موجيرى عما إذا كان يعرف السبب .

وقال الأميرال إنه يظن أن هذا ناشئ عن ولعهم بالرياضة وعن تزاوجهم مع الروس والكوريين .

وعلق موسولينى قائلا . . . أطفالهم فى منتهى الجمال ، فقد أبلغته هذا ابنته التى زارت اليابان .

وعاد الحديث إلى أمريكا و إلى قدرتها على استيعاب هذا العدد الضخم من الأجناس البشرية وامتصاصها . وعادت الحياة إلى وجه موسولينى وهو يتحدث ، وعاد الألق إلى محياه ، بحيث بدا فى غاية المرح عندما عاد بوليتو .

وقال بوليتو إن فينتوتينى لا تصلح مكاناً لاعتقال موسولينى ، إذ أن قائد الشرطة فى الجزيرة عزوف عن التعاون ، كما أن فى الجزيرة حامية ألمانية . وأصدر الأميرال موجيرى على الفور أوامره بأن تقلع السفينة بيرسيفونى إلى بونزا التى تبعد خمسة وعشرين ميلا إلى الشمال الغربى ، حيث رست إلى مرفئها بعد الظهر .

وكتب موسولينى ، خالطاً كعادته بين الفضول الطبيعى عند سكان الجزيرة وهم يرون سفينة حربية تصل إلى جزيرتهم وبين إحساسهم المبالغ فيه بتمييز أهمية الشخصية التى تحملها السفينة يقول . . . « وبحافز لا يمكن إيضاحه ، امتلأت النوافذ والشرفات فجأة برجال ونساء مسلحين بالمناظير يرقبون السفينة وهى تدنو من الشاطئ . وعرفت الجزيرة كلها بوصولى فى سرعة البرق الخاطف» .

وكان بيترو نينى أحد الرجال الذين كانوا يطلون على السفينة الحربية وهى تدخل الميناء . وقد عاد نينى بذاكرته إلى ثلاثين عاماً مضت عندما كان مع موسولينى سجيناً فى فورلى . كانا صديقين فى تلك الأيام ، عندما تذكر نينى ذلك أحس فجأة بموجة من العطف تساوره . وقد وقف إلى جانبه رجل آخر من أعداء الفاشية هو زانيبونى ، وقد اشترك مع رفيقه فى إشفاقه على المنفى الجديد .

وقال زانيبونى وهو يرى وجه موسولينى الشاحب فى القارب . . . « لن أمضى بعد اليوم فى نزهتى المعتادة سائراً على أقدامى ، فأنا لا أريد أن أجازف بالتشاجر مع رجل محطم » .

وأحس موسولينى بالرهبة وهو يرى عشرات الناس فى الميناء وعلى الرصيف يتطلعون إلى الزورق البخارى الذى سيستقله وهو يدنو من الشاطئ . وأحس كما ذكر فيما بعد بشىء من القلق والفزع مخافة أن يروه يهبط الشاطئ كسجين فطلب مقابلة الأميرال موجيرى .

وكان الأميرال يدخن سيجارته على ظهر السفينة ، فنزل تلبية لطلب موسولينى ووجده « هائجاً للغاية » ، وإن كان يبذل جهده للتظاهر بالهدوء .

وقال موسوليني ... « لا أريد النزول في وضح النهار ... أجل لا أريد أن يراني الناس ... لم كل هذا الإزعاج الذي لا داعي له أيها الأميرال » ؟ فمنذ يوم الأحد الماضي وهو معزول عن الناس تماماً . إنه لم يتلق أنباء عن أسرته . ولم تكن لديه إلا الملابس التي يرتديها . وأشار إلى الرسالة التي بعث بها إليه بادوليو والتي تحدثت عن مؤامرة خطيرة تحاك ضده .

وذكر موجيري أن الأوامر قد صدرت إليه بمرافقته لأن البحرية اعتبرت أن من الواجب أن يكون مصحوباً بضابط ذي رتبة عالية في رحلته . ولكنه لا يملك صلاحيات للرد على ما يشكو منه .

وأصر موسوليني بصوت أكثر هدوءاً بل يحمل طابع التوسل على أن المعاملة كانت على أي حال غير كريمة . وقد تترك آثاراً في منتهى الخطورة . بل لعلها تسبب آثاراً سيئة ، إذ أن هتلر وفيّ لأصدقائه .

وواصل حديثه على هذه الصورة بعض الوقت . وكلما طال حديثه هدأت حدته وخف قلقه . وسرعان ما عاد الحديث بينهما إلى الحرب وإلى ما خلفه سقوطه من انطباعات في ألمانيا وإنجلترا ...

وأراد موسوليني أن يعرف إذا كان تشرشل قد قسا عليه ، وأعرب عن رأيه في أن المشاعر ضده شخصياً في إنجلترا في منتهى العنف .

ولم يرد موجيري على السؤال مباشرة ، وإنما تحدث بصورة عامة عن « التعليقات الألمانية الخالية من العاطفة » وعن « اتجاهات الدعاية الإنجليزية » التي كانت تنصح الإيطاليين بطرد الألمان من بلادهم إذا أرادوا صلحاً شريفاً . واقترح أخيراً أن يصعد إلى ظهر السفينة ، عندما يحين وقت نزوله إلى الشاطئ . وكان بوليتو قد عاد إلى السفينة بعد جولة استطلاعية قام بها في الجزيرة حيث أصدر أوامره بإعداد منزل في قرية « سانتا ماريا » لإقامة « شخصية عظيمة » .

ومضى موسوليني إلى سور السفينة ، وقد أسدل قبعته كعادته في هذه الأيام على عينيه . وتطلع بأنظاره إلى الجزيرة ، وسأل عن البيت الذي سيحل فيه . ودلوه على بيت منعزل أصفر اللون ، قاتم الهيئة يتألف من ثلاث طبقات . ودرفات

نوافذه خضراء يطل على خليج صغير يقوم بين صخرتين كبيرتين . وقد اصطفت أمام المنزل عدة قوارب شراعية . وعند ما شرع أحدهم ، فى وصف المنزل له ، قاطعه بشيء من الغضب قائلا . . . « فهمت . إنه ذلك البيت الصغير أمام القوارب الشراعية وذو النوافذ الخضراء » .

ولم يذكر له أحد ، أن هذا البيت كان السجن الذى أقام فيه الرأس إيمرو الزعيم الوطنى الحبشى .

وغلبه اليأس ، لكنه أخفى وجهه وراء قبعته ، قبل أن يرتقى سلم الحبال ليهبط عليه إلى الزورق . وانفجر فجأة محتجاً بصورة بدا فيها كالطفل الغاضب . وقد استدار ليمسك بسور السفينة . . . « لا أريد الذهاب ، لا أريد أن يعرف الجميع ماذا حدث » . ولكن غضبه سرعان ما زال كما جاء ، وراح يودع الأميرال موجيرى بهدوء وهو يقول له بصوت عال ، لا ضرورة له ، مما حمل البحار الواقف على مقربة على الظن بأن هذه الكلمات موجهة إليه . . . « أرجو أن تنقل إليهم ما قلته لك » .

ولاحظ موجيرى ، أنه ابتسم ابتسامة حزينة ، وهو يحى الجميع بالتحية الرومانية . واقتعد مكانه فى الزورق وإلى جانبه حراسه من الكارنبييرى . وابتعد الزورق به عن السفينة بينما ظل البحارة واجمين فى أماكنهم .

وكانت الساعة العاشرة عندما نزل موسولينى إلى ساحل سانتا ماريا فى جزيرة بونزا . وقبل أن يصعد الطريق إلى البيت استدار إلى البحر ، وظل يتطلع إلى الأفق بضع لحظات .

وقال فجأة . . . أنا منهك القوى ، وأريد سريراً أستريح عليه .

وكانت غرفة النوم حديثة عهد بالطراشة ، وقد بدت بجدرانها الغريبة الشكل ، والمغسلة « العادية » فى داخلها توحى بالانطباع الحتمى بأنها زنزانة فى سجن . وكان الأثاث الوحيد سريراً من الحديد ، ومنضدة خشبية قذرة ، خدشها المدى ، ومقعداً مهلهلا خرجت حشيته من قاعدته . وعاوده الغضب الناشئ عن اليأس الذى أحس به وهو على ظهر السفينة الحربية عندما رأى هذه الغرفة المهجورة الخالية من كل وسائل الراحة ، وقال وهو يضم قبضته ، مستديراً إلى النافذة ليحمل

المقعد الموجود فى وسط الغرفة . . . « شبعت من كل هذا » . وجلس إلى المقعد، ثم أغرق وجهه فى راحتيه .

ودخل الغرفة الرقيب مارينى من قوة جزيرة بونزا ، وكان واقفاً فى مدخلها يشهد هذا المظهر بشىء من الارتباك ، ثم أدى التحية الرومانية وظل واقفاً وقفة استعداد . وأراد أن يقول شيئاً ، ولكن الكلمات وقفت فى حلقه . وكان بادى العصبية ومفتقراً إلى الثقة بنفسه مما أدى إلى أن يغير موسولينى حالته النفسية فوراً . ونهض من مقعده . وأمسك بالرقيب من منكبيه ، ثم قال له بلهجة مسرحية : . . « تشجع ، فأنا أعرف مشاعرك » .

وقال الرقيب : لم نكن نعرف يا صاحب الفخامة أنك قادم إلى بونزا ، إذ لم يبلغونى ذلك إلا قبل نصف ساعة .

— لا بأس ، لا تنزعج .

— كم كنت أرغب فى أن أراك فى الماضى ، لأحدثك عن أشياء كثيرة .

— والآن وقد قابلتنى ، فلم يعد يهمك هذا كثيراً .

ومضى الرقيب من الغرفة ليبحث عن الفراش وبعض الأغطية ، وعندما عاد كانت ترافقه زوجة أحد رجاله ، وقد حملت وعاء من الحساء ، وبيضة وبعض البازلاء . وكان موسولينى مستلقياً على حديد السرير ، وقد وضع جاكيتته كوسادة تحت رأسه . وبدا مجهداً تعباً . ولكنه أحس بشىء من التحسن بعد أن تناول الطعام، واستطاع بعد ذلك أن يتحدث بشىء من الحيوية المعروفة عنه إلى بعض الصيادين الذين جاءوا لزيارته وقد حملوا إليه هدية من السرطان البحرى (أبو جلمبو) .

وكان اليوم التالى ، التاسع والعشرون من يوليو ، عيد ميلاده . وكان يجلس ، مرتدياً بدلته الزرقاء التى فقدت هندامها ، إلى النافذة ، عندما دخل عليه الرقيب مارينى حاملا أربع خوخات .

وقال موسولينى . . . إنك فى منتهى اللطف يا رقيب ، وإنى لآمل ، أن لا يعنى هذا أن الناس سيفتقرون إلى الفاكهة .

— لا . لا .

— إذن فسآكلها اليوم وغداً .

وجاءه فى الصباح ، عدد من الصيادين وبعض جنود الكارنبييرى يتمنون له عيداً سعيداً ، وحمل إليه أحد الضباط بعد الظهر برقية هذا نصها . . .

« أيها الدوتشى . .

أبعث إليك أنا وزوجتى بأحر تمنياتنا وأصدقها فى عيد ميلادك . وبالرغم من أن الظروف قد حالت بينى وبين المجىء إلى رومة ، كما كان مقرراً لأقدم إليك تمثالا لفريدريك الكبير ، وأحر تهانئى ، فإن المشاعر التى أعرب لك عنها اليوم ، مؤكداً صداقتنا الأخوية وتضامننا هى فى منتهى الصدق والود، أما عملك كرجل دولة ، فسيعيش فى تاريخ أمتينا ، وقد شاء لهما القدر أن تسيرا جنباً إلى جنب نحو مصير مشترك . وأود أن أقول لك ، إن أفكارنا معك دائماً ، كما أود أن أشكرك على حسن وفادتك وكريم ضيافتك لى فى الماضى ، وأعود فأقول وأنا أنهى برقيتى إليك ، بإيمان صادق بأننى المخلص لك .

جورنج » .

وكانت هذه هى الرسالة الوحيدة التى تلقاها من البر الإيطالى .

وروى ماكنزن لالفييرى أن هتلر كان « يغلى من الغضب على الملك وعلى بادوليو ، لأنه لم يستطع أن يعرف المكان الذي يوجد فيه موسولينى » . وحاول أن يكتشف مكانه ، فأوعز إليه كسفير له ، أن يطلب مقابلة الملك وأن يطلب إذناً بزيارة موسولينى . ولكن بادوليو رد متأسفاً بأنه « لا يستطيع أن ينفذ له هذه الرغبة لمصلحة موسولينى نفسه، وأن يسمح له بزيارته » وأضاف أنه على أى حال « مستعد لأن ينقل إليه الرسائل التى يريد سعادة السفير إرسالها إليه ، وأن يحمل إليه ، ردوده عليها » . وقرر هتلر على الأثر أن يبعث إلى موسولينى بطبعة رائعة جميلة ومجلدة من مؤلفات نيتشه[١] .

---

(١) فريدريك ويلهلم نيتشه (١٨٤٤ – ١٩٠٠) – فيلسوف ألمانى، يمت إلى أسرة بولونية عريقة ، أصبح أستاذاً فى جامعة بال وهو فى الرابعة والعشرين . أصيب بالجنون فى أخريات أيامه . تقوم فلسفته على اعتبار الإنسانية مؤلفة من طرازين يختلف أحدهما عن الآخر ، هما طراز الأقوياء والضعفاء ، أو السادة والعبيد أو النبلاء والدهماء . ويقوم الصراع بينهما على أساس الأخلاق التى يؤيد قوتها ، إذ حمل على المسيحية لأنها تدعو– كما قال – لأخلاق العبيد . « المعرب »

ولكن الكتب لم تصل إلى موسولينى وهو فى بونزا ، ولذا فقد قضى وقته فى الجزيرة يترجم « أغنية البرابرة » لكاردوشى Cardacci[1] إلى الألمانية وفى قراءة كتاب جيوسيبى ريكيوتى Giuseppe Ricciotti[2] عن حياة السيد المسيح ، وهو الكتاب الذى أعطاه فيما بعد إلى كاهن الجزيرة بعد أن وشّاه بتعليقاته التى تشير إلى الراحة التى أحس بها من وجه التشابه المدهش بين مصيره ومصير السيد المسيح . وكان قد شرع فى التعليق على الكتاب قبل اعتقاله ، ويتضح من تعليقاته التى كتبها فى بونزا بقلم مختلف ، أن هذه الصفحات التى تصف ما لقيه المسيح من خيانة أدت إلى اعتقاله ، أصبحت مهمة للغاية فى نظره . وقد رآه مارينى يقرأ فى الكتاب ذات يوم ، فأشار إلى أوجه الشبه بين خيانة الآخرين لمؤسس المسيحية وبين خيانتهم لمؤسس الفاشية .

وقال موسولينى بشىء من الرضى الذى لم يستطع إخفاءه . . . « ولكن يجب أن لا تقرننى بالسيد المسيح » .

وكان يعزى نفسه كثيراً ، بالتفكير بأن بونزا ، كانت موطناً للمبعدين الآخرين . وقد كتب فيما بعد يقول . . . « كانت بونزا منذ أقدم العصور المنفى الذى يبعد إليه المشاهير ، من أمثال أجريبينا والدة الإمبراطور بيرون وجوليا ابنة الإمبراطور أغسطس ، ومن ثم القديسة فلافيا دوميتيلا ، وكذلك البابا القديس سيلفيستر الشهيد ، فى عام ٥٣٨ بعد الميلاد . لكن هذه القدرة على أن يقيس نفسه برجال التاريخ لم تكن إلا تعزية تفتقر إلى الحرارة . فى تلك الرتابة من الحياة التى كان يعيش فيها .

وكان يستيقظ كل صباح فى السابعة والنصف فيتناول إفطاره المؤلف من قدح من الحليب وبيضة واحدة . ويتناول عند الغداء بيضة أخرى ، وبعض « الطماطم » وقطعة من الخبز وبعض الفاكهة . وكان يشرب قدحاً آخر من الحليب قبل مضيه إلى النوم بعد حلول الظلام فوراً . وكان يجلس الساعات الطوال يقرأ ويكتب

---

(١) جيوسوى كاردوشى — (١٨٣٦ — ١٩٠٧) شاعر إيطالى مشهور . نال جائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٠٦ .

(٢) باتيستا ريكيوتى (١٥٩٨ — ١٦٧١) — فيلسوف إيطالى من فيرارا ، كان من اليسوعيين . وحاضر فى جامعة بولونا . « المعرب »

أو يتطلع من النافذة عبر الخليج ، مفكراً كما اعترف فيما بعد ، بتلك « المؤامرة الحقيرة التي تخلصت مني والتي ستؤدي إلى الاستسلام وإلى تسليمي إلى العدو » . ولم يكن يسمح له بأية صحف ، ولا باستقبال أي زوار ، كما لم يسمح له كما قال لراشيل ، بحضور الجناز الذي طلب من راعي أبرشية بونزا أن يقيمه في الذكرى السنوية لمصرع ولده برونو . وكان رفاقه الوحيدون من جنود « الكاربنييري » الذين كانوا يستمعون إلى أحاديثه بالدهشة والارتباك ، إذ لم يكن مسموحاً لهم بالرد على أسئلته ، وكذلك الرقيب ماريني وراعي الأبرشية لويجي ماريا داييز الذي ذكر فيما بعد أن حياته في المنفى قد حولت « هذا الرجل العظيم إلى مسيحي صادق » .

ولم يكن يغادر المنزل إلا لماماً . وعندما وصل ضابطان جديدان هما المقدم ميولي والملازم ايليو دي لورينزو إلى الجزيرة ومعهما الرقيب انيتشي ، لتعزيز حراسته ، سمح له بالذهاب إلى البحر للسباحة ، ومضى ذات يوم بحراسة ثلاثة من رجال الكاربنييري ، لمشاهدة الآثار الرومانية القديمة في الجزيرة ، والكهوف التي كان الكهنة يربون فيها بعض أسماك « المورينة » . لكنه كان عزوفاً عن أن يراه القرويون ولذا فقد آثر البقاء في المنزل معظم الوقت .

ووصل في الأول من أغسطس من البر الإيطالي أحد صيادي السرطان البحري ، في زورقه البخاري « ماريا بيسي » يحمل له صندوقاً من الفاكهة وحقيبتين ، كانت السلطات قد سمحت لأسرته بإرسالهما إليه . ووقف الرقيب موريني يشهده وهو يفتح الحقيبتين . وكانت فيهما ثلاث رسائل ، تضم أولاهما رسالة من راشيل وصورة لبرونو ، وتضم الثانية عشرة آلاف ليرة إيطالية . بينما تضم الثالثة رسالة من ابنته إيدا قرأها بسرعة ، ثم قذف بها تحت حشية سريره . وسأله ماريني . . . « أتريد الرد على هذه الرسائل ؟ » فقال . . . « لا ، فأنا لست في عجلة من أمري » .

وفرح بعض الوقت بوصول الملابس ، وسرعان ما استبدل بملابسه السابقة قميصاً أبيض نظيفاً . ولم تمض لحظات حتى شوهد وهو يخلع القميص ويسير إلى النافذة عاري الصدر ، وقد وضع قبعة من التي يرتديها سائقو اليخوت على رؤوسهم ، ولكنه ما لبث أن خلعها فجأة ، وعاد فارتدى قميصه الأبيض من جديد .

كان الملل قد أخذ منه كل مأخذ ، وكان يحس بوطأته . وكانت حنفية الحوض فى غرفته غير صالحة . وكان هذا وحده كافياً لأن يدفعه إلى اليأس . وفى ذات يوم راح يقول لماريني بشىء من النكد القاسى . . . « قل لى أيها الرقيب ... لم لا أجد الماء فى هذه الحنفية ؟ أنفقت كثيراً من المال ، لإصلاح الأنابيب فى بونزا . هذا ما أعرفه » .

فرد الرقيب . . . حقاً أنفقت الكثير من المال على مد الأنابيب فى الجزيرة ولكن الماء ما زال يجرى فى الينبوع إلى البحر .

— أتقول الحقيقة يا رجل ؟

— أجل يا صاحب الفخامة .

— آه من هؤلاء الموظفين الإداريين . آه منهم ؟

وبدأ الرجلان فى حديث طويل .

ولم يمض أسبوع من هذه الحياة الحزينة التى تتلف الروح، حتى سقط مريضاً ، وجاءه الدكتور سيلفيريو مارتينيللى ، طبيب الجزيرة يعوده .

وقال مارتينيللى دون أن يفحصه . . . « أنا أعرف مرضك . وقد جئتك ببعض الدواء » . وعندما سلم إليه الدواء ، قال إنه لا يكفيه . وطلب جرعة مضاعفة . ولم يكن حتى فى تلك اللحظات يقاوم الرغبة فى التحدث . وراح يلقى على مسامع الطبيب قصة مرضه الطويل . وعندما انتهى من حديثه ، قال بدون وعى . . . « وهذه هى الآلام البدنية للدوتشى » .

ورأى الدوتشى بعد ستة أيام بعيد الغسق ، نوراً غريباً يضىء وينطفئ باستمرار على التلال الواقعة وراء الميناء . وظل يرقب النور بعض الوقت ، ولكنه ما لبث أن نام نوماً عميقاً ، ليجدهم وقد أيقظوه فجأة قبيل الفجر ، ليقولوا له إنهم سينقلونه من الجزيرة فوراً .

ودون فيما بعد يقول . . . « وجمعت حوائجى بسرعة ، ومضيت مع حراسى أنزل إلى الساحل . وظهر أمامنا على مسافة بعيدة هيكل سفينة حربية تقف عند مدخل الرصيف » . ونقلوه إلى ظهر « بانتيرى » ، وهى سفينة حربية كانت فيما مضى فى الأسطول الفرنسى . وهناك رأى الأميرال موجيرى ثانية .

ورآه الأميرال فى حالة تفضل تلك التى رآه فيها من قبل . « وكان يبدو أكثر صلابة ، وأحسن لوناً ، وأقل شحوباً ... وكان يرتدى نفس البدلة ، ونفس القبعة » .

وقال يسأل موجيرى بشيء من المرح . . . « وإلى أين سنمضى هذه المرة يا موجيرى ؟ »

ـ « إلى قاعدة مادالينا » .

ـ لعلها أقل سهولة على الوصول .

وبدت له الفكرة مفرحة له . واعترف الأميرال أنه فى الحديث الطويل الذى دار بينه وبين موسولينى فى قمرة القبطان ، وقع تحت الانطباع المزعج الذى أخذ ينمو فى عقله ، وهو أن موسولينى يعتبر نفسه الآن « شخصاً ثالثاً ، لا الممثل الرئيسى فى المأساة الضخمة التى عاشها شعبنا » . وكان موسولينى يتحدث وبدا لموجيرى أنه لا يتحدث عن نفسه ، وأن لا شأن له على الإطلاق بالأحداث التى كان يصفها .

وبالرغم من تعاليه ، ومن هذه العزلة المجيدة التى اختار تصويرها لنفسه ، إلا أنه كان متلهفاً كل اللهفة على أن يعرف ما هو واقع فى ذلك العالم الذى بات معزولا عنه منذ عشرة أيام . وكان قد سمع من أحد الضباط البحريين على ظهر السفينة أن بادوليو قد حل الحزب الفاشى . وسمع الآن بشيء من الاهتمام الواضح أن فاريناتشى ، ذهب إلى ألمانيا ، وتحدث من إذاعة مونيخ ، وأن تشيانو فصل من سفارته ، وعلق موسولينى على ذلك بصوت حزين ولكنه ثابت . . . « آه ، إذن فهناك شخص شقى ، يلعب الجولف كل يوم مع صديقاته » . وعندما أبلغه موجيرى أن السلطات خشيت من أن يكون الفدائيون الألمان قد أعدوا محاولة لخطفه من بونزا ، أظهر شيئاً من الاهتمام الحقيقى والطبيعى . وخيل إليه أن مثل هذا التطور سيكون أكبر إذلال يصيبه فى حياته . أوَيظن الناس حقاً أنه سيذهب إلى ألمانيا ويحاول تسلم الحكم ثانية بمساعدة الألمان ؟ كان هذا هو السؤال الذى وجهه والذى رد عليه بالنفى القاطع طبعاً .

وأحس بالغضب البالغ من جراء الفكرة التى ساورته ، وهى أنه لم يعد بعد شخصية تاريخية لا تؤثر عليها الأحداث المعاصرة ، ومن جراء إدراكه ما تعنيه

غارة يقوم بها الفدائيون الألمان . واعتقد موجيرى أن غضبه هذا كان صادقاً كل الصدق . ومن المؤكد أنه لم يكن قد فكر فى ما يعنيه إنقاذه على أيدى القوات الألمانية ، وإن كان قد بحث مع الرقيب مارينى فى بونزا احتمال وقوع غارة بريطانية على الجزيرة .

وعاد الهدوء إلى موسولينى فى الصباح التالى ، عندما كانت السفينة الحربية تبحر بسرعة (٢٢) عقدة فى الساعة ومع ريح غربية قوية، لتصل إلى منتصف الطريق إلى مادالينا . وقد أطلقت صافرات الإنذار مرتين تلك الليلة عندما حلقت طائرة معادية على ارتفاع منخفض فوق السفينة ، لكنها لم تتعرض لأية غارة . وراح يغط فى سبات عميق استغرق بضع ساعات . وعندما جاء موجيرى إليه ، كان قد استراح ، وهدأت ثائرته .

وكان البحر هائجاً ، وكانت أمواجه تلطم مقدمة الباخرة وجوانبها ، بينما تحمل الريح الغربية القوية الرذاذ حتى جسر السفينة . وكان مدى الرؤية فى منتهى السوء . وأصبحت جبال كورسيكا ظاهرة للعيان وراء الضباب أمام قوس السفينة الأمامى. أما سردينيا فكانت مجرد نقطة غير واضحة . ومضت السفينة إلى أن غدت فى المنطقة التى تصلها بطاريات الميناء ، وذلك ليتمكن القبطان من تحديد طريقه . ولكن لم يظهر فى الأفق شيء سوى رأس فيجارى ، ولم يكن القبطان ولا الأميرال موجيرى على يقين مطلق من ذلك . ومضت السفينة تسير ببطء نحو الجنوب بعيدة عن حدود حقول الألغام ، حتى أصبحت نافولارا على مرمى النظر ، وبات فى الإمكان تمييز مدخل المصب . وانطلق زورق بخارى أمام السفينة يرشدها بينما سارت هى عبر القناة بسرعة أربع عقد . وعاود الهدوء الأميرال موجيرى بعد أن انتهت متاعب الملاحة ، لكن منظر موسولينى وهو يقف على ظهر السفينة مع ضباط الكاربنييرى ، ضايقه . وقد كان على المقدم ميولى أن يجتنب هذا ، إذ خشى أن يقوم بحارة السفينة الحربية بمظاهرة مماثلة . لكنهم لم يفعلوا ذلك على أى حال . فقد ظلوا ينظرون إليه بالطبع ، ولكنهم ظلوا صامتين ، ولم تتحول نظراتهم إلى تفرس .

ووصل زورق بخارى فى الساعة الثانية بعد الظهر ، وعلى ظهره الأميرال

بريفونيزى ، فوقف إلى جانب السفينة الحربية ، وهبط إليه موسولينى . وكان يعرف الأميرال ولا يحبه . وكان قد أمر بمحاكمته عسكرياً بعد معركة بحرية فقد فيها ثلاثاً من سفنه دون أن ينزل بالطرادات البريطانية التى هاجمته أية خسارة . ورأى فى الحكم الذى أصدرته المحكمة عقوبة غير كافية واعتبر تعيينه اللاحق كقائد لقاعدة مادالينا البحرية ، أمراً مخزياً . وكان موسولينى يعلق بشىء من الكراهية الواضحة بأن الرجل متزوج من إنجليزية .

وعندما أصبح موسولينى فى مادالينا استفزت مشاعره أكثر فأكثر عن طريق تذكيره بالإنجليز . فقد نقل إلى منزل تحيط به حديقة كبيرة ملأى بأشجار الصنوبر ، وهو يطل على البحر ، وكان البيت حسن الأثاث . وكان يستخدم حتى الليلة الماضية مطعماً لضباط زوارق الطوربيد . وقيل لموسولينى إن صاحب البيت إنجليزى يدعى ويبر . اكتشف موسولينى وراء رغبته فى العزلة فى هذا البيت النائى حافزاً شريراً . وراح يتساءل . . . ترى لم اختار ويبر هذا المكان من العالم الملىء بالأماكن الجميلة لإقامته فى « مثل هذه الجزيرة المنعزلة القاتمة التى تعتبر أكثر الجزر الواقعة إلى الشمال من سردينيا وحشة ؟ لابد أن هناك سبباً ؟ لعله التجسس ؟ ربما ! »

وكانت مادالينا أشد وحشة فى هذه الأيام ، فقد أخليت من جميع سكانها المدنيين بعد غارة جوية عنيفة تعرضت لها ، تصور موسولينى بشىء من الإصرار الجنونى أنها لابد أن تكون ثمرة الخيانة والخديعة ، نظراً « لغموضها » . إذ أن العدو « كان يعرف بالدقة جميع الأهداف التى أغار عليها » . ولم يبق على ظهر الجزيرة إلا عدد من البحارة وبعض الصيادين وقوة من رجال الكارنبييرى ، ضوعف عددهم مؤخراً فزاد على المائة رجل .

وتركت وحشة الجزيرة أثراً فورياً فى معنويات موسولينى وخرج إلى شرفة المنزل فرأى منها عبر الضباب المستبد الذى ينتشر فى الأمسيات هياكل البواخر الكبيرة الغارقة فى الميناء ووراءها ، جبال جالورا المظلمة السوداء . ووجد الجو الذى يحيط به « معادياً ومنذراً بالخطر » ، فدخل المنزل ، ولحظ موجيرى ما بدا عليه من تجهم وأحنى رأسه للأميرال مودعاً ، ثم مضى إلى غرفته مغلقاً الباب وراءه .

وظل موسولينى فى الجزيرة ثلاثة أسابيع كانت من أشق أيام حياته . وكان قد شكا من أيامه فى بونزا بأنها كانت طويلة ، تسودها الوحدة ، أما هنا فالأيام أطول .. والوحدة أشد قسوة وصرامة . وكان شهر أغسطس من ذلك العام شديد الحرارة بوجه خاص ، وتميز البحر بالهدوء والخلو من الريح . وكتب موسولينى فيما بعد يقول . . . « وكان كل شىء يبدو وقد سمرته الشمس فى مكانه » . ولم يكن يبدى رغبة فى مغادرة الدارة الباردة نوعاً ما ، فلا يغادرها إلا لماماً فى جولة فى غابة الصنوبر مصحوباً بعريف من الكاربنييرى . وانقطع مرة ثانية عن العالم الخارجى ولم يتلق شيئاً سوى هدية هتلر . وهى أربعة وعشرون مجلداً من مؤلفات نيتشه ، التى شرع فى قراءتها بعناية من أولها ، مكتشفاً أن قصائد الفيلسوف الأولى كانت « فى منتهى الجمال » . وبدأ يدون يومياته ، حاشياً إياها « بملاحظات يومية ذات طابع فلسفى وسياسى وأدبى » . لكن أحداً لم ير هذه اليوميات سواه ، ولم يعثر عليها قط فيما بعد[1] . وكان يقضى معظم أوقاته متطلعاً بشىء من الكآبة ، إلى البحر البعيد الآفاق ، وهو قابع فى ظلال شرفته .

وجاء الجنرال بوليتو ذات يوم إلى الجزيرة ، وسأله موسولينى عما حدث بوعد بادوليو بأن يسمح له بالذهاب إلى دارته فى روكاديل كاميناتى . فرد بوليتو بأن القرار اتخذ بأن ذهابه إلى هناك فى منتهى الخطورة ، لا سيما أن محافظ فورلى أعرب عن شكه فى قدرته على ضمان سلامته هناك .

ورد موسولينى متجهماً . . . يا له من سخف !

فرد بوليتو : لا إنه ليس بالسخف . إذ يبدو أن الفاشيين قد اختفوا .

---

(١) نشرت ترجمة ألمانية لمقال لموسولينى بعنوان « أفكارى فى مادالينا و بونزا فى صحيفة سالزبرجر ناخرنختين الألمانية ، ويعتقد أنه كان تلك اليوميات التى كتبها . وذكرت الصحيفة أن ضابطاً من الحرس النازى سلمها دفتراً صغيراً تضمن ذلك المقال قبل بضعة أيام من استسلام ألمانيا . وحدثنى العقيد سكورزينى أنه عند مازار موسولينى بدعوة منه فى صيف عام ١٩٤٤ ، طلب إليه موسولينى أن يأتيه من ألمانيا بيوميات كان الألمان قد أخذوها منه بعد إنقاذه من معتقل « الصخرة الكبيرة » (جران ساسو) . وقد تمكن سكورزينى من إقناع مكتب المخابرات الألمانية بأن يسمحوا له بحمل اليوميات بعد أن يأخذوا صوراً فوتوجرافية لها . وهو يعتقد أن إحدى هذه الصور قد انتزعت من الملفات وبيعت إلى الصحيفة المذكورة . « المؤلف »

وهناك دلائل على وجود رد فعل عنيف ضدهم وضدك في كل مكان . وقد هاجمت الجماهير صحيفة « البوبولو ديتاليا » في ميلان . وقد رأيت بنفسي تمثالا نصفيًّا لك على أرض أحد المراحيض العامة في أنكونا .

— وماذا حل بالحرب ؟

— كل إنسان يتمنى أن تنتهي . وقد أصبحت الآن عبئاً على السكان المدنيين بقدر ما هي عبء على الذين يحاربون ولا سيما من الشيوخ والنساء والأطفال . ولعل هذا هو السبب في عنف المشاعر المعادية لك .

ولكن بالرغم من أن الإيطاليين كانوا يتلهفون حقًّا على انتهاء الحرب ، إلا أن بادوليو وجد نفسه مضطراً إلى السير في طريق الهدنة بمنتهى الحذر . لكن سياسته لم تكن ناجحة . فقد أعلن ، وما زال يصر على أن يعلن بأن الحكومة الجديدة ستظل مخلصة لحلفاء إيطاليا . ولكن الألمان كانوا يشكون صراحة في صدق قوله ، وظلوا يتدفقون بقواتهم عبر ممر برنر ، بينما غضب الحلفاء على إعلانه أنه سيواصل القتال فشددوا من تصميمهم على هزم إيطاليا وإخراجها من الحرب . وتقابل امبروزيو ووزير خارجية إيطاليا الجديد رافائيل جواريجيليا في السادس من آب عند محطة تافيسيو الواقعة على الحدود ، مع ريبنتروب وكايتل ، وقدما إليهما احتجاجاً رسميًّا على ما أصبح الآن في الواقع احتلالا عسكريًّا لإيطاليا . وقال امبروزيو لكايتل « من حقنا أن تعطونا مقدماً بعض المعلومات عن تحركات القوات الألمانية » . لكن هذا الاعتراض لم يتعد الناحية الشكلية . فقد كان مندوبو الجانبين يدركون أن المحور قد انتهى . وكان كيسلرنج أحد الألمان القلائل ، بل لعله الألماني الوحيد الذي ظل يعتقد بأن بادوليو سيظل ثابتاً على وعوده . ولم يخف ريبنتروب في هذا الاجتماع — وكان محاطاً بجماعة مرعبة من رجال الحرس النازي — عدم ثقته بحلفائه ، وراح يسأل جواريجيليا ، عن المدة التي انصرمت منذ شرعت الحكومة الجديدة في مفاوضة الحلفاء لعقد صلح منفرد . وتطلع جواريجيليا الذي تميز بالمكر والدهاء ، إلى ريبنتروب بشيء من البراءة التي أحست بالإساءة وقال بلهجة أهل نابولي القوية . . . « ولكننا حلفاءكم المخلصون » .

وبعد أقل من أسبوع كان الجنرال كاستيلانو في طريقه إلى لشبونه ليبلغ

السفير البريطانى فيها أن الحكومة الإيطالية على استعداد للاستسلام . وكان الجو فى رومة مكهرباً منذ أيام طويلة . وكان الدبلوماتيون ينظرون إلى بعضهم نظرات العداء ، وكان الاضطراب فى قصر شيجى (مقر وزارة الخارجية) باعثاً على الرعب ، إذ كان الموظفون والأذنة يهرعون من مكتب إلى آخر ، محاولين أن يعرفوا ما هو دائر هناك . وقال الفيبرى . . . « وكانت البرقيات تتوالى من سفاراتنا ملحفة بطلب التعليمات العاجلة . وكانت أجراس الهاتف تقرع باستمرار وإلحاح فى جميع المكاتب » . بينما ظل الرعب ماثلا من أن يقوم الألمان برد فعل وحشى ومفاجئ . قد يصل إلى حد إعلان الحرب . وسمع الجنرال كاستيلانو الموظفين ، يتحدثون المرة تلو المرة عن « ليلة جديدة كليلة عيد القديس بارثلوميو[١] » .

وفى الثالث من سبتمبر وبعد ثلاثة أسابيع من المفاوضات السرية المختلسة فى خيمة عسكرية فى كاسيبيل القريبة من سراقوسة فى صقلية ، تم التوقيع على اتفاق الاستسلام . وكان بادوليو قد أكد فى نفس اليوم للسفير الألمانى فى رومة ، أن إيطاليا ستواصل القتال إلى جانب « حليفتها ألمانيا حتى النهاية » . ولم يعلن عن توقيع الهدنة للألمان وللعالم إلا فى الساعة الثامنة من مساء الثامن من سبتمبر ، أى عندما هبطت قوات الحلفاء على البر الإيطالى عند ساليرنو .

ولم يعرف موسولينى بالطبع شيئاً عن المفاوضات التى أدت إلى إنهاء حلف الفولاذ . وظل طيلة أيام شهر أغسطس الحارة ، يتطلع عبر البحر الهادئ ، المنبسط كالكف أمامه ، مما أعاد إلى ذاكرته صور البحيرة الألبية ، مرتقباً بكثير من الأسى ، ورود الأنباء من إيطاليا . وكان يجلس على شرفة دارة ويبر كعادته مساء السادس والعشرين من أغسطس عندما حلقت طائرة ألمانية على ارتفاع منخفض فوق رأسه ، حتى إنه رأى وجه الطيار تماماً . وجاءه أحد ضباط الكاربنييرى فى اليوم التالى ، ليبلغه أنه سينقل من الجزيرة فى الصباح التالى . وكان الجنرال باسو ، القائد العسكرى فى سردينيا ، قد نصح الحكومة بأن جزيرة مادالينا لم تعد مكاناً أميناً للشخصية الرفيعة « المبعدة إليها » . فقد كانت الغواصات الألمانية

---

(١) إشارة إلى مذبحة ليلة عيد القديس بارتلوميو فى فرنسا فى عام ١٥٧٣ ، عند ما قام الكاثوليك بأمر من الملكة كاترين دى مديشى أم الملك شارل التاسع بذبح البروتستانت (الهوجونوت) عن بكرة أبيهم بعد مكيدة مدبرة . « المعرب »

تبحر دائماً على مقربة من الجزيرة ، ولا بد أن محاولة إنقاذه باتت وشيكة الوقوع .

ونقل موسولينى فى الساعات المبكرة من صباح الثامن والعشرين من أغسطس من دارة ويبر إلى الميناء ، حيث كانت تقف طائرة بحرية من طائرات الصليب الأحمر منذ بضع ساعات . واستقل موسولينى الطائرة ومعه الملازم فايولا والرقيب أنتيشى ، ثم طارت بهم مدة ساعة ونصف الساعة لتهبط على سطح بحيرة براسيانو . وعند فينا دى فالى ، قابله أحد مفتشى البوليس ويدعى جويلى ، إذ كان قد عين كبيراً لسجانيه خلفاً لبوليتو الذى كان قد أصيب فى حادث سيارة ، ومعه ضابط من الكارنبييرى برتبة « رائد » . ونقل هناك إلى سيارة إسعاف ، راحت تذرع الأرض به باتجاه رومة .

٦

على الصخرة العظيمة . . .

من ٢٨ أغسطس عام ١٩٤٣ حتى ١٢ سبتمبر ١٩٤٣

« آه . إنه أعلى سجن فى العالم »

١

عندما وصلت السيارة إلى مدخل رومه ، اتجهت شمالا باتجاه شارع فلامينيا ، حيث عبرت الجسر الحديدى فوق نهر التيبر ، ثم اتجهت نحو طريق سابين . وتستدير الطريق بانحناءة قاسية عند ريتى إلى اليمين عبر الوادي الذى يفصل جبال سابين عن جبال ابروز ، وأدرك موسولينى بشىء من الارتياح عند ما رأى سيارة الإسعاف تصعد طريق اكويلا نحو الصخرة العظيمة « جران ساسوديتاليا » ، التى تعتبر أعلى قمة فى تلك المنطقة ، أنهم يأخذونه إلى الجزء الذى يحبه من إيطاليا كل الحب .

وقد كتب فى « قصة عام » يقول . . .

« ولا يستطيع الإنسان أن ينسى بسهولة صورة ذلك الجبل الوعر المغبرّ المرتفع نحواً من عشرة آلاف قدم فى وسط إيطاليا . وهناك صورة لا يمكن للإنسان وصفها تحيط بسكان جبال الابروز وجو بلادهم ، وتستأثر بفؤاد الإنسان . وفى بداية شهر سبتمبر ، تأخذ قطعان الأغنام التى جاءت فى الربيع من السهول ، لترعى فى الهضبة المرتفعة ، تستعد للعودة ، هابطة من الأراضى المرتفعة بصورة بطيئة . وكثيراً ما يظهر الرعاة على صهوات جيادهم ، ثم يختفون وراء تعاريج الجبل ، ليعودوا فيظهروا فى الأفق البعيد وكأنهم شخصيات جاءت من عصر آخر » .

وعلى بعد خمسة عشر ميلا من اكويلا صعوداً مع الطريق الملتوية المؤدية إلى الصخرة العظيمة (جران ساسو) ، تنتهى هذه الطريق عند مرتفع عمودى ، يعلو

مسافة ثلاثة آلاف قدم أخرى ليصل إلى الهضبة التى يطلق عليها اسم « المعسكر الإمبراطورى » . وتمتد هذه الهضبة التى ترتفع مسافة (٦٥٠٠) قدم فوق سطح البحر ، مسافة عشرة أميال تحت قمة جبل كورنو ، أعلى قمة فى جبال الأبنين . وهكذا تقرر أن ينقل موسولينى إلى فندق منعزل يقع على هذه الهضبة العالية .

وقبل وصوله بأيام ، كانت الأنباء قد انتشرت بأن « شخصية مهمة للغاية ستزور الفندق عما قريب » ، وهو فندق البيرجو – ريفوجيو ، وعندما وصل إليه فى الثامن والعشرين من أغسطس ، الجندى فرانسيسكو جريفيتو . الذى عرف بأنه كان فى خدمة موسولينى قبل اعتقاله . لم يترك وصوله أثراً للشك فى هوية ذلك الزائر المنتظر . ولما كان الفندق لا يزال حاشداً بالنزلاء ، فقد أعد نزل فيليتا الواقع فى أسفل المرتفع لاستقبال موسولينى إلى أن يكون الفندق قد أخلى من نزلائه .

وكانت فلافيا ايوراتو ، مديرة الفندق ، والتى استدعيت إلى النزل الأسفل للإشراف على الإعدادات لاستقبال موسولينى ، موجودة فى ساحة القرية ، عندما وصلت إليها سيارة الإسعاف التابعة للصليب الأحمر . وقد ذكرت فيما بعد « أن رجلا بديناً » خرج من السيارة ، وكان يرتدى بدلة داكنة ومعطفاً ، وقبعة سوداء ، هو موسولينى . ولم يعد فيه ما يشبه الديكتاتور الواثق من نفسه ، الذى تبدو عليه دلائل الرفاه والغذاء الجيد . وكان يتطلع بقلق إلى كل ما حوله . وكأنه يخشى الوقوع فى « مصيدة » ، يدور بعينيه البارزتين من محجريهما فى كل مكان ، وقد بان الشحوب على وجهه .

وكانت صافرات الإنذار بالغارة الجوية قد أطلقت فى الطريق الصاعد من سيتادوكالى . وكتب موسولينى فيما بعد بشىء من الازدراء الواضح. . . « وكنا نرى جماعات الجنود ، يفرون بقمصانهم (التحتانية) فى كل اتجاه ، يصرخون فزعين . فيحذو المدنيون حذوهم ، وهذا ما فعله الضباط أيضاً » . لكن أحد الضباط لاحظ أيضاً بأن موسولينى لم يكن يقل لهفة عن الجميع فى الرغبة فى الوصول إلى حفرة يختبئ فيها .

وكانت أيام الوحدة التى صرمها فى بونزا ومادالينا ، وصحته المتدهورة ، قد امتصت كل ما لديه من روح ومعنوية ، واستنفدت من بدنه كل قوة . وبدا الآن

لكل من رآه رجلا مهزوماً ومريضاً فى وقت واحد . ولم تكن شجاعته موضع الشك فى يوم ما فيما مضى ، ولم تكن فيما تلا من أيام ، لكنه فى تلك اللحظات بدا خائفاً وجلاً .

وجلس موسولينى فى غرفته التى تقع فى الطبقة الثانية من المنزل . ساكتاً هادئاً ، وعيناه تتطلعان إلى عل ، تجوب الجبال السامقة الشاهقة . وسمح له الآن لأول مرة بالاستماع إلى الإذاعة ، ولكنه كما يبدو لم يرحب بهذا الامتياز الجديد . وقد بدا فى منتهى اليأس ، فى عيون سجانيه فيولا وجويلى ، حتى إنهما كانا يسارعان بعد كل وجبة إلى رفع السكين والأشواك من أمامه مخافة استخدامها فى إلحاق الأذى بنفسه .

ونقل فى مستهل سبتمبر إلى محطة « المرتفع » استعداداً للمرحلة الأخيرة من رحلته . واحتج على نقله من جديد ، ولكن احتجاجه ذهب أدراج الرياح .

وراح يسأل ناظر المحطة وقد بدا عصبى المزاج . . . ترى هل القطار الكهربائى مأمون الجانب ؟ ، وسرعان ما أضاف وكأنه يصحح نفسه ، وقد عاد إليه شىء من كبريائه . . . « لا بالنسبة إلى ، فلعلك تعرف أن حياتى قد انتهت ، بل بالنسبة إلى مرافقى » .

وأخذ يعزى نفسه بالفكرة ، بأن هذا المصعد ، قد أقيم كما أقيم الفندق نفسه ، « فى عهد الفاشية الذى استطال عشرين عاماً » .

وسأل عن ارتفاع الفندق فرد أحدهم بأنه ٢١١٢ متراً عن المكان الذى كانوا فيه وكان تعليقه متوقعاً ، ومؤثراً ، بما فيه من بساطة الطفولة . . . « آه ، إنه أعلى سجن فى العالم » .

٢

إذا تطلع الإنسان إلى فندق البرجو — ريفوجيو ، من سطح محطة المرتفع . بدا أشبه ما يكون بالسجن حقاً . فقد كانت جدرانه المتعرجة الملتوية ، ونوافذه الصغيرة ، أشبه ما تكون بجدران السجون ونوافذها . ولكن حارسه بجويلى تصور

أن موسوليني قد سر بمرأى الفندق ، وكأنه قد رأى في منظره المهيب القاتم ، نهاية صالحة لمأساة إبعاده . لكن هذا السرور ما لبث أن زايله عندما أصبح في داخل الفندق . وقادوه إلى جناح في الطبقة الأرضية كان فاخر الأثاث ، وفيه غرفة حتى لخادمه جريفينو . وسرعان ما ركع على أرض غرفة الجلوس ، وأخذ يطوى ما فيها من سجاد وهو يقول لمجموعة من جنود الكاربنييرى ، وموظفى الفندق ، الذين أرادوا أن يعاملوه باحترام يتعارض مع هذا المنظر الذى وضع نفسه فيه . . . « إذا كنت مسجوناً ، فيجب أن تعاملونى كسجين . أما إذا لم أكن ، فعليكم أن تأخذونى إلى منزلى فى روكاديل كاميناتى » .

لكنه كان يعامل كنزيل لا كسجين . وتقول مديرة الفندق إن « أيامه أصبحت كأى أيام يقضيها مواطن وديع ، يقضى عطلته فى المكان . . . وكان يتناول وجبات طعامه ، تلبية لطلبه فى غرفة جلوسه . وكان يعيش على حمية قاسية بسبب مرضه ، فلا يتناول إلا الأرز والبيض والبصل المسلوق وبعض اللحم والحليب وكثيراً من الفاكهة . وكان يحب العنب كثيراً إذ كان يأكل سبعة أرطال منها فى اليوم (أى حوالى ثلاثة كيلوات) . وكان يمضى فى كل يوم بعد الظهيرة ، فى مسيرة يرافقه فيها الرقيب انتيشى ، فإذا ما عاد ، مضى إليه جويلى فى غرفة جلوسه ، ليحدثه . وقد ذكر جويلى « أن أحاديثه مع رجل يحمل مثل هذا العقل الكبير ، كانت أسعد ساعات حياته » .

وكان يتناول عشاءه فى السابعة مساء ، ثم يهبط إلى صالة طعام الفندق ، حيث يلعب الورق مع انتيشى وجويلى وجالولا . وكان يسمح له بالجلوس إلى « الراديو » قبل المضى إلى فراشه . وكان يستمع إلى نشرات الأخبار الإيطالية والألمانية والإنجليزية ، وعندما كان المذيع يذكر اسمه ، مطرياً إياه حيناً ومتهماً إياه أحياناً أخرى ، كان الحاضرون يتطلعون إليه ، ليروا رد فعله ، ولكن كان من العسير تبين علائم الرضى أو الألم وراء هذا القناع الصارم من الجمود الذى كان يضعه على أساريره .

وكان يصغى دون أى تأثر واضح إلى أنباء ما يسميه « بالحرب الصورية » ، وهى حرب تزداد الخطورة والفجيعة فيها يوماً بعد آخر . واستمع إلى أنباء الغارات

الجوية المتزايدة والمفزعة على المدن الإيطالية ، وما يقع فيها من عديد الضحايا ، وإلى أنباء الجيوش المتراجعة ، وسرعة احتلال صقلية ، ووجود مئات الألوف من اللاجئين الذين يتضورون جوعاً ولا يجدون مأوى ، وتدمير المحاصيل ، ونقص الحنطة ، وتوقف شحن الفحم فجأة من ألمانيا ، وإلى أنباء الجيوش الإيطالية الحائرة فى كرواتيا واليونان وفرنسا . وهي تلقى بسلاحها وتسلمه إلى الألمان ، وأنباء الاستسلام والهدنة ، وتدفق القوات الألمانية من الشمال ، وفرار الملك وحكومة بادوليو من رومة إلى بسكارا ومنها إلى برنديزى . أجل كان يصغى إلى كل هذه الأنباء ، بنفس التعبير من الجمود الخالى من كل تأثر وعاطفة . وبدا وكأن سير التاريخ كله قد تقرر فى عينيه ، أو كأنه لا يكترث بالأحداث المعاصرة ، إذ لا معنى لها ، إذا لم يكن هو الموجه لها .

وراح يسأل جويلى ذات يوم ... « ترى ما الحكم الذى سيصدره التاريخ على؟ » أجل كان هذا هو السؤال الوحيد الذى يهمه . وبدا وكأنه لا يكترث بأى شىء سوى ذلك . وكانت هذه السلبية فى موقفه من الأحداث قد باتت عادة مألوفة لديه . ولم يظهر اكتراثاً بزيادة تدابير الأمن المتخذة فى المكان ولا بالحرس المسلح الذى بات الآن يقف على باب جناحه ، ولا بالجنود يحملون الأسلحة الرشاشة وقد انتشروا على الشرفة . وذكرت مديرة الفندق . . . أنه لم يبد « شعوراً بالحزن أو بالذلة » . . . ولكنه كان أحياناً يبدو وهو يراهم يراقبونه أشد مراقبة ، ساهم النظرات شارد الفكر . . . ولم يعد يقضى وقته فى القراءة أو الكتابة . . . وكثيراً ما شوهد ، وهو يقف إلى النافذة ، متطلعاً إلى منظر « الصخره العظيمة » الرائع ، بمنظاره المقرب ، أو جالساً إلى سور خفيض فى ساحة الفندق ، يتفرس بشىء من شرود الذهن ، فى المسافات البعيدة أمامه ، ممثلا صورة نابوليون التقليدية المعروفة فى جزيرة سانت هيلانة .

وكثيراً ما خرج على طوره ، فجفا اللطف والدماثة ، ولكن سلوكه كان يحمل دائماً شيئاً من حنان الأبوة ، مع الشعور بالحاجة إلى مقارنة النكبة التى يعيشها بنكبات غيره . فعندما شكت الوصيفة ليزا ميسكوردى ، التى كانت تتولى غسيل ثيابه أيضاً من ألم فى معصمها ، راح يبحث لها على الفور عن بعض « الدهون »

وراح يقول لها بمنتهى الحنان . . . « كونى شجاعة يا طفلتى ، واذكرى أننى ما زلت أعانى الآلام منذ ثمانية عشر ربيعاً » .

وسمع ذات يوم أحد الجنود يحاور راعياً جاء إلى الفندق يطلب شراء زجاجة من النبيذ . وكان الجندى يقول ، إنه لا يسمح لأحد من المدنيين بدخول الفندق ، ولكن الراعى يرفض الانصراف قبل أن يحصل على بغيته . وطلب موسولينى من الجندى أن يسمح للراعى بالدخول ، وأخذه إلى إحدى الموائد حيث جلس ، دون أن يكترث لحظة واحدة ، بأنه يجد نفسه فجأة فى رفقة زعيمه السابق .

وراح موسولينى يسأله عن الإصلاحات التى حققتها الفاشية فى رعاية الماشية .

ولم يستطع الراعى تذكر أى إصلاح ، وقال رأيه بصراحة ، وفجأة مال الراعى إلى الأمام ، ووضع يده ، بود على كتف موسولينى مخاطباً إياه ، بطريقة تخلو من جميع الشكليات . . . « إنك كنت على خطأ ، فقد فرضت علينا ضرائب ثقيلة ، وكنت تسمح لهم بأن يبتزوا منا الكثير من الصوف والجبن ، لمؤسسات الدولة » .

وراح موسولينى يغير الموضوع فسأله عن الحرب ، وما رأيه فيها وقد انتهت الآن هذه النهاية السيئة .

ورد الراعى ، بشىء من التعالم الواعى الذى يتميز به أمثاله . . . « انتشر اللصوص فى كل مكان . وكان على الخبز أن يسمن الكثيرين قبل أن يصل إلى أفواه الجنود المساكين » .

وأخيراً انتهى الراعى من احتساء نبيذه ، فهب من مكانه وربت على كتف موسولينى وصافحه وهو يقول . . . وكأنه يعرفه منذ أمد طويل ، دون أية كلفة . . . « اعتن بنفسك يا موسولينى . وشكراً لك على النبيذ » .

وخشى المتفرجون أن يغضب موسولينى من معاملة الراعى . ولكن هذه المقابلة الغريبة أدخلت فى نفسه الكثير من المرح . وعندما انتهى من عشائه فى تلك الليلة ونزل إلى القاعة ليلعب الورق كعادته ، راح يسأل بحماس عن موعد هبوط الثلج . فرد عليه بعضهم بأن الثلج يهبط أحياناً فى مستهل شهر أكتوبر . وقال وهو يبدو مرحاً . . . « عسى أن ينزل الثلج هذا العام مبكراً . فكم أود التزحلق من جديد » .

لكن هذا المزاح المرح لم يعمر طويلا . وبعد نحو من الساعة ، نقلت الإذاعة

والرباط ليربط لها معصمها .

شروط الهدنة التي وقعها بادوليو مع الحلفاء . وكان المذيع من محطة برلين ، ينقل إذاعته عن نبأ أذاعته محطة الجزائر .

وسمع موسولينى المذيع يقول . . . « أذيع رسمياً ، أن أحد شروط الهدنة ، ينص على تسليم موسولينى إلى الحلفاء » .

وفى الساعة الثالثة من صباح اليوم التالى ، سلم خادمه جريفيتو إلى الملازم فيولا ، رسالة طلب إليه موسولينى نقلها إليه ، وهذا نصها . . .

« وجدت فيك فى غضون الأيام القليلة التى عشناها معاً ، صديقاً حقاً ، ولا ريب فى أنك كجندى تدرك تمام الإدراك ، ما يعنيه وقوعى فى يد العدو . ولقد فهمت من إذاعة برلين ، أن أحد شروط الهدنة يتحدث عن تسليمى حياً إلى الإنجليز . وبالطبع لن أرضى على الإطلاق بهذا الإذلال ، ولذا أرجو أن تسلمنى مسدسك » .

وقفز فيولا من فراشه مسرعاً إلى غرفة موسولينى ، حيث وجد أسيره ، جالساً إلى سريره « يمسك بشفرة جيليت حادة ، وكأنه يريد أن يقطع بها شرايين يده » .

وروى موسولينى فيما بعد أن فيولا بعد أن رفع من الغرفة كل ما فيها من أدوات معدنية وآلات حادة ، بما فيها شفرات الحلاقة ، عاد يكرر على مسامعه ما سبق له أن وعده به . . . « أخذت أسيراً فى طبرق ، عندما كنت مصاباً بجراح بالغة . وقد شهدت فظاعة البريطانيين فى معاملة الإيطاليين . وثق أنى لن أسلم إيطالياً إلى الإنجليز » . وسرعان ما تفجر الدمع من عينيه . لكن ما أبكاه ، لم يكن كما اعترف لموسولينى فيما بعد ، خوفه من أن يصدر الأمر إليه بتسليم موسولينى إلى الإنجليز ، وإنما الذى أبكاه هو الخوف الملح من أن لا يمكنه الألمان من أن يفعل ذلك ، إذ أن التعليمات التى لديه فى مثل هذه الحالة قاطعة وهى أن « لا يسمح للألمان بأخذ موسولينى وهو على قيد الحياة » .

٧

الإنقاذ من الصخرة العظيمة

١٢ سبتمبر ١٩٤٣

« كنت أعرف أن صديقى أدولف هتلر لن يتخلى عنى » .

١

كان أوتو سكورزينى النقيب الشاب فى وحدة « فريدنيتال » الخاصة من وحدات الحرس النازى ، يجلس بعد ظهر السادس والعشرين من يوليو ، فى فندق إيدن فى برلين يحتسى القهوة مع صديق قديم له من فيينا . وكان يحس فى قرارة نفسه ، بشعور خفى وغامض من القلق دون أن يدرى لهذا الشعور سبباً .

وقرر أن يتصل هاتفياً بمكتبه ، وكم كانت سعادته ، عندما نفذ فعلا قراره . فقد كان سكرتيره يبحث عنه منذ نحو من ساعتين ، إذ أنهم يريدونه على عجل فى مقر قيادة الفوهرر ، وستكون طائرة فى انتظاره فى مطار تمبلهوف فى الساعة الخامسة مساء .

وقال سكورزينى . . . ليمض رادل فوراً إلى غرفتى ، وليحزم بدلة عسكرية من ملابسى وبعض الملابس الداخلية فى حقيبة ، ثم ليمض فوراً إلى المطار .

وكان مساعده كارل رادل فى الانتظار هناك عندما وصل سكورزينى فسأله عن القضية ولكن رادل لم يكن يعرف شيئاً أيضاً .

وبينما كانا يسيران على أرض المطار هبطت طائرة من طراز يونكرز (٥٢) على المدرج ، ولم تمض دقائق معدودات ، حتى كان سكورزينى يطير فوق برلين وقد حمل قدحاً من « البراندى » فى يده . وبعد ثلاث ساعات هبطت الطائرة فى مطار يقوم على طرف بحيرة قرب لوتزين فى بروسيا الشرقية . وكانت سيارة « مرسيدس » فى الانتظار ، وسرعان ما حملته عبر غابة قطعها عندما جن الدجى .

وخففت السيارة من سيرها عند حاجز عسكرى ، وفحص المراقبون أوراق سكورزينى . وارتفع الحاجز ، وسمح للسيارة بالمرور عبر أجمة من أشجار التامول ، حتى وصلت إلى حاجز آخر ، حيث فحصت أوراقه من جديد . ودخلت السيارة الآن معسكراً تحيط به الأسلاك الشائكة ، وتقوم على طرفى طرقاته أكواخ وأعشاش مغطاة بالأعشاب وشبكات التعمية .

ومضوا به إلى بناية من الخشب . ثم دخلوا به إلى غرفة خارجية حسنة الأثاث . وقد غطيت أرضها بالسجاد . وكان هناك خمسة من الضباط الآخرين، فقدمه نقيب من الحرس النازى إلى كل واحد منهم . وكان سكورزينى متوتر الأعصاب فلم يسمع أسماءهم جيداً ، فلما مضى النقيب راح يشعل سيجارته . ولم تمض بضع لحظات ، حتى عاد النقيب يقول . . . « سأمضى بكم إلى الفوهرر يا سادة ، وسأقدمكم إليه ، على أن يتحدث كل واحد منكم عن تاريخ حياته فى الجيش . وقد يوجه الفوهرر إليكم بعض الأسئلة . . . أرجو أن تلحقوا بى من هذا الطريق » .

وأطفأ سكورزينى سيجارته ، ثم بدأ يرتجف ، وهو يسير خلف الآخرين ، عبر غرفة خارجية أخرى أكبر من الأولى ، إلى أن دخلوا غرفة كانت فيها منضدة كبيرة انتشرت فوقها الخرائط . وبالرغم من ارتباكه فقد التقطت عيناه بعض التفاصيل الواضحة إذ رأى صورة من رسم « دورر» داخل إطار من الفضة ، وستائر فاتحة اللون على النوافذ ، وصفًّا من أقلام الرصاص الملونة ، تقف متوازية على مائدة تستعمل للكتابة

وفتح باب دلف منه الفوهرر . . . وأدى الضباط التحية العسكرية ، فرد الفوهرر عليهم بالتحية النازية ، ثم تقدم ببطء منهم . كان يرتدى قميصاً أبيض ورابطة عنق سوداء ، ووسام الصليب الحديدى من الطبقة الأولى ، يتدلى على سترة بزة الميدان العسكرية التى يرتديها . وقدم إليه الضباط واحداً بعد آخر . فراح يوجه إلى كل منهم سؤالا ينتقل منه إلى الضابط الذى يليه وبعد أن تحدث إلى سكورزينى ، الذى وقف فى آخر الخط بوصفه أدناهم رتبة ، عاد الفوهرر خطوة إلى الوراء ، ثم قال بصورة مفاجئة . . . « ومن منكم يعرف إيطاليا ؟ »

وكان سكورزينى الوحيد الذى أجاب ، فقد ذكر أنه كان فى نابولى مرتين.

– وما رأيكم فى إيطاليا ؟

وتردد الضباط ، قبل أن يردوا الردود التقليدية التى قد يثيرها مثل هذا السؤال . وارتفع صوت سكورزينى بين الهمهمة من الأصوات المرتجفة التى تتحدث عن المحور والفاشية ، يقول ، بلهجة قاطعة محدودة . . . وفيها بعض المسرحية . . . إننى نمسوى يا زعيمى .

وتطلع هتلر إليه ، بينما صمتت الأصوات الأخرى . ثم قال بعد فترة طويلة . . . فى وسع السادة الآخرين أن يذهبوا . أما أنت يا نقيب سكورزينى ، فأريدك أن تبقى .

وعندما أصبحا وحيدين ، بدأ الفوهرر يتحدث بتلك الحيوية المتزايدة التى تصل حدود الحماسة ، نتيجة استماعه إلى صوته .

وشرع الفوهرر يتحدث . . . « لدى مهمة خطيرة لك . فقد تعرض موسولينى ، صديقى وزميلنا المخلص فى السلاح إلى خيانة الملك بالأمس ، واعتقله مواطنوه . ولن أتخلى عن أعظم من أنجبته إيطاليا من أبنائها فى ساعة محنته . فالدوتشى يمثل لى عظمة رومة العريقة مجسدة . وستتخلى عنا إيطاليا فى ظل حكومتها الجديدة ، ولكننى سأحافظ على عهدى لحليفنا القديم وصديقنا العزيز . ولذا يجب إنقاذه على الفور » .

وذكر سكورزينى فيما بعد ، أن لهجة هتلر ، كانت تنبض بالحرارة والعطف الصادق ، مما أثار عواطفه وأهاجها . وعندما شرع الفوهرر يصدر توجيهاته إليه ، وجد فى الرجل صدقاً فى عباراته وطريقته فى الحديث ، بحيث لم يشك لحظة واحدة فى أنه سينجح فى مهمته .

وقال سكورزينى بمنتهى الجدية والحماسة كجدية هتلر وحماسته . . . لقد فهمت تماماً يا فوهررى . وسأعمل كل ما فى وسعى .

ولم تنتقل عينا الفوهرر لحظة واحدة عن وجهه طيلة المقابلة . وعندما أوشك أن يغادر الغرفة ، استدار عند الباب ليؤدى التحية ، وكان هتلر لا يزال ينظر إليه . وأحس سكورزينى بالدوار . وانقضى وقت طويل قبل أن يجمع شتات أفكاره من جديد .

ولم يكن قد أفاق من تأثير هتلر المغناطيسى ، عندما استدعى إلى مكتب آخر ليبحث فى التفاصيل مع الجنرال ستودينت وهملر. وكان الأخير ثائر الأعصاب إلى درجة قصوى . فقد كان على ثقة من أن خيانة حكومة بادوليو ستظهر عما قريب فالممثلون الإيطاليون وصلوا إلى البرتغال ، يحاولون التفاوض على عقد صلح منفرد . وسرعان ما سرد أسماء عدد من الإيطاليين أيدوا وجهة نظره . وعندما تناول سكورزينى قلمه ليدون هذه الأسماء التى لم يكن قد سمع بمعظمها من قبل ، استدار إليه هملر وقال غاضباً ... « لا ريب فى أنك جننت حتى إنك تدون الأسماء على الورق. هذه أمور فى منتهى السرية . وعليك أن تعى الأسماء فى ذاكرتك » . فلا يعرف بخطط الفوهرر حتى الماريشال كيسلرنج القائد العام فى إيطاليا وحتى السفير الألمانى فيها .

وعاد هملر فاستدار إليه غاضباً عندما رآه يشعل سيجارته ، وقال وهو يكاد ينفذ بناظريه عبر عدستى نظارته الكثيفتين ... « هذه الحشائش الملعونة . ألا تستطيع أن تفعل شيئاً دون أن تدخن ؟ فى وسعى أن أرى أنك لست طراز الرجل الذى نحتاج إليه فى هذه المهمة » .

أما الجنرال ستودينت فكان أكثر وداً . وعندما مضى هملر ، راحا يعدان معاً الخطة . وتقرر أن يطير سكورزينى إلى رومة ، كمرافق لستودينت فى الساعة الثانية من صباح اليوم التالى . وكان على نحو من خمسين رجلا من وحدة سكورزينى أن يسيروا فى الوقت نفسه من برلين إلى جنوب فرنسا ، ومن هناك إلى رومة لينضموا إلى فرقة المظليين الأولى التى تقرر إرسالها إلى إيطاليا أيضاً .

وكانت الساعة قد بلغت منتصف الليل . وقضى سكورزينى الساعات القليلة الباقية يعد قوائم المعدات والمتفجرات والأسلحة ، وأجهزة الإرسال ، والمواد الطبية ، وملابس التنكر المدنية وبينها قلنسوات الكهنة والشعر الأسود المصبوغ ، ويختار الضباط الذين سيرافقونه ، متحدثاً بالهاتف إلى برلين . وموجهاً الرسائل إلى الآلة الطابعة اللاسلكية . (تليبرينتر) . وحاول بعد ذلك أن ينام ، فلم يغمض له جفن . وراح فى الساعة السادسة صباحاً يعد وصيته .

وفى مساء ذلك اليوم ، كان يرتدى بزة ضابط فى فيلق المظليين ويتناول العشاء فى دارة الماريشال كيسلرنج فى فراسكاتى . واقتصر الحديث على اعتقال الدوتشى .

وذكر أحد الضباط ، أنه سأل ضابطاً إيطالياً كبيراً إن كان يعرف مكان اعتقال الدوتشي فرد الإيطالى بأنه لا يعرف ، وأن أياً من الجنرالات لا يعرف مكانه أيضاً .

وقال سكورزيني ، وهو يأمل فى استفزاز أحد الضباط ، فلعله يفشى سراً ... « أنا أشك فى صحة هذا القول » .

ورد كيسلرنج بسرعة ، وقد أزعجه هذا المساس بشرف ضباط محترفين كانوا زملاءه وحلفاءه . . . « لا ، أنا أصدقه تماماً . وليس لدى ما يدعونى إلى الشك فى كلمة شرف تصدر عن ضابط إيطالى ، وقد يكون من الخير ، يا نقيب أن تحمل نفس الشعور » .

وقال كيسلرنج إنه سأل ولى العهد الأمير أومبرتو عن مكان موسولينى فرد الأمير بأنه لا يعرف . وكل ما يعرفه أن الدوتشي قد اختفى .

وسرعان ما اكتشف سكورزيني أن هناك شائعات كثيرة بالطبع . وكان الشمال تحت حراسة قوية . وقيل عنه أيضاً إنه انتحر ، وهناك من قال إنه فر ليقاتل مع ذوى القمصان السوداء فى الجبهة . ووجد هناك من يقول ، إنه نقل بالطائرة إلى إسبانيا . وكانت كل شائعة تناقض سابقتها ، وظل سكورزيني أياماً لا يعرف الحقيقة ، إلى أن بدأ يشك فى قدرته على اكتشاف وجوده . واستشير المنجمون فى برلين عن مكان وجود الدوتشي ، كما صدرت التعليمات إلى عملاء المخابرات الألمانية فى روما ، للبحث عنه ، بكل طريقة ممكنة . وبزغ بصيص من الأمل ، عندما تلقى الملحق البوليسى فى السفارة الألمانية تقريراً من ضابط فى الكاربنييرى ، يقول إن موسولينى نقل من قصر سافوى فى عربة إسعاف وإنه كان فى الخامس والعشرين من يوليو فى إحدى ثكنات الكاربنييرى . ولكن أياماً كثيرة كانت قد انقضت على ذلك التاريخ ، وكان الوقت الآن فى شهر أغسطس ، واكتشف سكورزيني أن موسولينى قد فارق تلك الثكنة .

وتلقى سكورزيني أخيراً ، وفى مطعم فى روما ، أول دليل حقيقى يرشده إلى ضالته . فقد أبلغه أحد زبائن المطعم ، وهو تاجر يتردد كثيراً على تيراسينا الواقعة على خليج جاييتا ، قصة طريفة . فلقد كان لخادمة رجل يعرفه هناك ، حبيب يعمل فى الكاربنييرى ، فى جزيرة بونزا . وكان هذا الحبيب يكتب أحياناً لعشيقته

إذا طال غيابه عنها فى الجزيرة . وقد ذكر فى إحدى رسائله إليها ، أن هناك « شخصية مهمة سجينة » فى الجزيرة .

وسرعان ما أيد ضابط بحرى إيطالى أن السجين هو موسولينى . ولكن موسولينى كان قد نقل فى هذا الوقت من الجزيرة . ومع ذلك فلم تمض بضعة أيام حتى كان سكورزينى قد اكتشف المخبأ الجديد . فقد روى ضابط ارتباط ألمانى مع الأسطول الإيطالى فى سردينيا ، فى أحد تقاريره ، نبأ عن وجود سجين غامض فى جزيرة مادالينا . وقرر سكورزينى أن يمضى إلى الجزيرة على الفور مستصحباً معه أحد ضباطه وهو الملازم وارجر الذى يتحدث الإيطالية بطلاقة . وصدر الأمر إلى وارجر ، بأن يرتاد حانات الساحل ، متنكراً فى زى بحار ألمانى مفرط فى السكر ، فإذا ما ذكر اسم الدوتشى أمامه . فعليه أن يقول إن الدوتشى قد مات ، وإذا ما خالفه أحدهم الرأى ، فإن عليه أن يراهنه .

وذكر بستانى يبيع منتجاته من الخضار والفاكهة ذات مساء ، اسم موسولينى ، ثم قبل الرهان ، ثم أخذ وارجر معه ليقيم الدليل على أنه كسب الرهان إلى منزل ملاصق لدارة ويبر ، وأشار بشىء من الرضى إلى صورة إنسان وحيد يجلس على الشرفة . لكن القيادة الألمانية لم تقتنع بأن الرجل الذى رآه وارجر ، ليس إلا موسولينى ، إلا بعد أن قام سكورزينى بزيارة أخرى إلى مقر قيادة الفوهرر . وكان الأميرال كاناريس قد أبلغ القيادة أن الدوتشى سجين فى جزيرة صغيرة قريبة من جزيرة إلبا ، وكانت الأوامر قد صدرت إلى المظليين بالهجوم على الجزيرة ، عندما جاء سكورزينى يقنع هتلر بأن السجين موجود فى جزيرة تبعد نحواً من مائة ميل إلى الجنوب .

وقال هتلر ، وقد وقف فجأة ليصافح سكورزينى عندما انتهى من حديثه . . . « أنا أصدقك يا نقيب سكورزينى . فأنت على حق ، وسأسحب أمرى بالهجوم على الجزيرة . ألديك خطة بعملية مماثلة على مادالينا ؟ إذا كانت لديك خطة ، فأرجو أن تبلغنا إياها » .

وأعد سكورزينى خطة ، سرعان ما قبلت على الفور .

وقال هتلر وهو يصرفه من حضرته . . . « ستنجح يا سكورزينى » . وأحس

هذا من جديد بما فى ثقة الفوهرر من قوة مغناطيسية .

ولم يمض أسبوع حتى كانت خطة العملية بكل دقائقها وتفاصيلها قد وضعت، وبينها استخدام عمارة من زوارق الطوربيد وعدد من القطع البحرية الصغيرة الأخرى ، وسرية من المتطوعين من لواء الحرس النازى فى كورسيكا ، ووحدة سكورزينى الخاصة . وتقرر أن تبدأ العملية فجر اليوم السابع والعشرين من أغسطس . ولكن فى صبيحة اليوم الذى سبق الموعد المقرر ، وبينما كانت القوات الألمانية تستعد للإبحار فعلا ، نقل موسولينى بالطائرة إلى البر الإيطالى ، وبدأت عملية البحث من جديد . لكن البحث هذه المرة عن المخبأ الجديد ، كان أقل صعوبة من المرتين السابقتين . فقد شوهدت طائرة الصليب الأحمر البحرية وهى تهبط عند بحيرة براسيانو ، كما تلقى سكورزينى بعد بضعة أيام ، رسالة ملتقطة بالرموز ، كانت مرسلة إلى وزارة الداخلية وهذا نصها . . « تمت إجراءات الأمن حول الصخرة العظيمة (جران ساسو) » . وقد حملت الرسالة توقيع جويلى .

وبدأ الإعداد لعملية الإنقاذ من جديد . وأخذت صور من الجو للمكان ، وأراد سكورزينى أن يتأكد من تقرير المخابرات الذى تلقاه عن أوضاع الفندق هناك ، فتمكن من إيفاد طبيب ألمانى عسكرى كبير ، لمعاينة الفندق ، والاستعلام عن صلاحه ليكون مستشفى لأمراض الملاريا . ومضى الطبيب وهو لا يعرف الهدف الفعلى من زيارته ، فوصل إلى اكويلا دون أية صعوبة ، ولكنه وجد الطريق مغلقا تحت البيرجور ريفو جيو ، كما وجد حراسة قوية على محطة القطار الكهربائى يقوم بها فصيل من الكارنبييرى . وأقنعهم بأن يسمحوا له بالاتصال بالفندق هاتفياً ، فرد عليه ضابط أبلغه بأن المعسكر الإمبراطورى منطقة تدريب عسكرية ، ومحظورة على جميع الزائرين ، وأن الفندق نفسه قد أخلى من نزلائه وأعد ليكون مسكناً لمائتين من الجنود .

ولاحظ الطبيب وجود سيارة لاسلكى فى الوادى ، كما لاحظ نشاطاً فوق العادة على سكة الحديد الكهربية . وأبلغه بعض الإيطاليين الذين تحدث إليهم فيما بعد ، أنهم يعتقدون أن سبب هذا النشاط ، هو أن موسولينى سجين فى الفندق . وأصر الطبيب على أن هذا القول ، لا يعدو مجرد شائعة ، وأنه لا يعتقد

أن هذه الشائعة صحيحة على الإطلاق .

وخيل إلى سكورزينى أنه إذا لم يسرع إلى تنفيذ خطته ، فإن وجود موسولينى هناك سيصبح حقًا من الشائعات . ولم يكن الخطر ناشئاً الآن عن احتمال نقل الدوتشى ثانية فحسب ، بل كان هناك خطر أكبر من هذا ، ولا سيما بعد توقيع الهدنة ، وهو أن يسلم إلى الحلفاء فيفقده الألمان إلى الأبد .

وكانت هناك ثلاثة سبل أمام سكورزينى . فإما القيام بهجوم من الأرض ، أو بإنزال المظليين ، أو بإنزال طائرة بلا محرك ، وقد استبعد فكرة الهجوم من الأرض . بالنظر إلى الحاجة إلى عدد كبير من الجنود . واستبعد أيضاً « فكرة الهجوم بالمظليين » بسبب ما يتعرض له الهابطون من خطر فى مثل هذه المرتفعات الأرضية العالية ، نظراً لقصر مدى الهبوط ، وصعوبة إنزالهم على أرض الهضبة بأعداد متماسكة وقادرة على الهجوم والمناورة . وبدا له أن النزول عن طريق طائرة بلا محرك ، هو السبيل العملى الأمثل . لكن هذا السبيل لم يكن يخلو من الخطورة أيضاً ، إذ أن المكان الوحيد الصالح للهبوط ، هو قطعة أرض صغيرة مثلثة الشكل تقع خلف الفندق . وتصور رئيس أركان حرب فيلق المظليين فى الواقع ومعه عدد كبير من ضباط أركانه أن النزول على مثل هذه الأرض الصغيرة وغير المعدة ، سيؤدى إلى ضياع أكثر من ثلاثة أرباع القوة الهابطة ، وأن ما يتبقى منها من رجال لن يكونوا كافين لإتمام العملية . وعندما طلب إليهم على أى حال ، أن يقترحوا خطة بديلة ، لم يستطيعوا ، مما أجبرهم فى النهاية على الموافقة على استعمال الطائرات بلا محركات . وقرر الجنرال ستودينت استدعاء اثنتى عشرة طائرة من هذا الطراز من جنوب فرنسا إلى رومة ، وأنه فى الوقت الذى تهبط فيه قوة سكورزينى بواسطتها ، يقوم فوج من المظليين باحتلال قاعدة المرتفع . وتقرر أن تجرى العملية فجر السادس من سبتمبر .

وعندما كان يناقش تفاصيل العملية مع سكورزينى تقدم مساعده كارل رادل ، باقتراح كان يأمل فى أن يؤدى إلى مضاعفة أثر المباغتة التى تعتبر عنصراً لا بد منه فى نجاح الخطة . فقد اقترح أن يحملوا معهم ضابطاً إيطاليًّا يؤدى وجوده إلى تضليل الكاربنييرى ، ويحول بينهم وبين تنفيذ أية أوامر قد تكون صادرة إليهم

بقتل موسولينى بدلا من وقوعه فى أيدى الألمان . ووقع الاختيار على الجنرال سوليتى ، الذى أبلغه الجنرال ستودينت أن هتلر يطلب شخصياً اشتراكه فى العملية ليحول دون وقوع سفك لا ضرورة له فى الدماء . وقد قبل الجنرال سوليتى الدعوة على الفور ، إذ رأى فيها كما قال سكورزينى ، ما يرضى غروره إلى حد كبير .

وكان لابد من تأجيل الموعد نظراً لتأخر وصول الطائرات إلى إيطاليا . وتقرر أخيراً أن تتم العملية فى الساعة الثانية بعد ظهر الأحد فى الثانى عشر من سبتمبر . وبدأت الطائرات التى تحمل قوة سكورزينى فى الساعة الواحدة من بعد ظهر ذلك اليوم تحوّم فوق مطار رايكا دى مارى ، لترتفع فى الجو شيئاً فشيئاً . وكان الطقس رائعاً . وكانت هناك سحب بيضاء اللون فى السماء على ارتفاع عشرة آلاف قدم ، وعندما ارتفعت الطائرات فوقها ، سطعت عليها أشعة الشمس . وكان الجو حارًّا بشكل لا يطاق داخل الطائرات . وأصيب عريف فى طائرة سكورزينى بمرض طارئ ، وبدا الجنرال سوليتى الجالس إلى جانبه على اللوح الضيق الذى يقطع الطائرة فى وسطها المغطى بالأشرعة ، مريضاً ولكن فى منتهى القلق . وقبل حلول الساعة الثانية بقليل رأى سكورزينى من ثقب ، شقه فى الشراع ، سحابة يطل وراءها سقف الفندق .

وهتف بأعلى صوته . . . ضعوا خوذكم ، وأنزلوا حبال الجر .

وهبطت الطائرات على الأرض فى صمت فجائى . وكان الطيار وسكورزينى يشاهدان الأرض المثلثة وراء البيرجور ريفوجيو ، ولكنهما ما لبثا أن أدركا أنها لم تكن أرضاً مسطحة كما افترضا ، وإنما سفح تل شديد الانحدار . وكان النزول هناك مستحيلا . وتحتم عليهما أن يهبطا بقوة على الأرض الصلبة القائمة أمام الفندق .

٢

سمع موسولينى وهو جالس على نافذته المفتوحة فى غرفة جلوسه ضامًّا يديه ، دوى الطائرة ، فشخص ببصره إلى السماء التى تملؤها السحب ، ورأى الطائرة وهى

تهبط مسرعة على الصخرة أمام الفندق مباشرة ، ووراءها عدد من الطائرات بلا محركات . وعندما هبطت الأولى فى شبه اصطدام ، مزق أشرعتها ، وطير قطع الأخشاب منها ، رأى عدداً من الرجال يخرجون من هيكلها المحطم فيجمعون صفوفهم ويتجهون إليه راكضين . ولم يستطع فى البداية ، بالرغم من أنهم لم يكونوا يبعدون عن مدخل الفندق أكثر من ثلاثين ياردة ، تمييز هويتهم ، ولكنه سرعان ما رأى أن أحدهم ضابط إيطالى ، كان يهتف بأعلى صوته إلى رجال الكارنبييرى الذين أذهلتهم المفاجأة قائلا . . . « لا تطلقوا النار ، لا تطلقوا النار » .

وهتف موسولينى بدوره من النافذة المفتوحة ... « لا تطلقوا النار فهناك جنرال إيطالى . وكل شيء على ما يرام » .

وصرخ الملازم فيولا ، وهو يصعد الدرج متقطع الأنفاس إلى غرفة موسولينى « يا صاحب الفخامة ، يا صاحب الفخامة . . . إنهم الألمان » .

واندفع إلى الغرفة ، وعندما رأى سجينه مطلا من النافذة المفتوحة ، زعق بأعلى صوته ، وكأن نوبة جنونية قد انتابته وهو يقول . . . « اغلق النافذة ولا تتحرك » .

وكانت طائرة سكورزينى قد هبطت على الأرض الصلبة خارج الفندق ، واندفع من أول باب مفتوح أمامه إلى داخل الفندق . ورأى أمامه أحد أجهزة اللاسلكى ، فحطمه على الفور ، كما قذف بالمقعد الذى كان يجلس إليه العامل على الجهاز . وبحث عن منفذ من الغرفة التى دخلها إلى الفندق فلم ير أى باب . فعاد يركض خارجاً ليسير بحذاء الجدار حتى وصل إلى شرفة ترتفع تسع أقدام عن الأرض . . وقفز على ظهر أحد رجاله ، ثم صعد إلى الشرفة متطلعاً بلهفة إلى الجدار الملتوى فوقه . وقد امتدت عليه صفوف من النوافذ المربعة الصغيرة ورأى فى إحدى هذه النوافذ فى الطبقة الأولى وجه موسولينى وهو يتطلع إليه محملقاً . . .

وصرخ سكورزينى بأعلى صوته ، وهو يركض متجهاً إلى باب قاعة الفندق .. « أبعد عن النافذة » . وذكر أحد موظفى الفندق فيما بعد ، أن الاضطراب ساد المكان ولم يفكر أحد من الحراس فى إصدار أمر . كان المكان يعج بجنود الكارنبييرى الذين هجروا مواقع مدافعهم الرشاشة ، وهرعوا بحثاً من ملجأ بعد أن رأوا الفدائيين الألمان ، وبعد أن قذفوا بما يحملونه من بنادق وقنابل على الأرض فى طريق فرارهم .

واندفع رجال سكورزينى ، وهم يصرخون « لا تطلقوا النار» دون حاجة إلى هذا الصراخ ، إذ لم يكن هناك من يطلقها ، إلى داخل الفندق ، بينما شق سكورزينى طريقه عبر رجال الكاربنييرى ، بمقدمة مسدسه الرشاش حتى وصل الدرج ، فارتقاه راكضاً وهو يصعد كل ثلاث درجات معاً وعندما وصل نهايته ، استدار شمالا وركض فى رواق طويل ، وفتح باب غرفة كان يأمل فى أن تكون الغرفة التى يقصدها .

ووجد أمامه موسولينى يقف فى وسط الغرفة ، ومعه الملازم فيولا ، وضابط إيطالى آخر . وسرعان ما قاد أحد صغار الضباط الألمان ، الضابطين خارجاً إلى الرواق . وكانت الطائرات قد هبطت الآن واحدة إثر الأخرى . ليخرج منها المزيد من رجال الحرس النازى ، عابرين الباحة باتجاه الفندق . ولم تكن طلقة واحدة قد أطلقت حتى تلك اللحظة .

وأطل سكورزينى برأسه إلى الرواق ، وهتف طالباً الضابط المسؤول عن قيادة القوات الإيطالية فى الفندق . وظهر ضابط إيطالى برتبة عقيد فدعاه سكورزينى إلى الاستسلام ، ولكنه طلب مهلة للتفكير فأمهله هذا دقيقة واحدة . ولم تكن الدقيقة قد انقضت عندما عاد العقيد يحمل كأساً من النبيذ الأحمر ، قدمه وهو ينحنى بمنتهى الكياسة إلى سكورزينى وهو يقول بلهجة جدية . . . « إلى المنتصر» .

وفى هذا الجو من الرسمية إلى حدما ، استدار سكورزينى إلى موسولينى ليقدم نفسه إليه .

وقال وهو يقف وقفة التحية الصلبة . . . « يا دوتشى . . . لقد بعثنى الفوهرر إليك ، وأنت حر الآن » .

ورأى موسولينى العرق يتصبب من الضابط ، الذى بدا التأثر واضحاً فى قسماته .

وفتح الدوتشى ذراعيه وأخذ سكورزينى بينهما معانقاً إياه لحظة طويلة وهو يقول . . . « كنت أعرف أن صديقى أدولف هتلر لن يتخلى عنى » .

كان حديثه واضحاً ، ولكن سكورزينى ذعر من مظهره . فقد كان يرتدى بدلة رثة ، سيئة الكى ، ويبدو المرض واضحاً فى وجهه الذى لم يحلق ، والذى

ظهرت عليه علائم الشيخوخة وكأنه كبر عدة سنوات مذ رآه سكورزينى لآخر مرة يقف منتصب القامة . على شرفة قصر البندقية . وتطلع الضابط النمسوى إلى شعره المجذوذ الآن ، وعادت به الذاكرة إليه مسبلا جميلا يعلو هامته . ولم يبق من مظاهر العظمة والسلطان فيه إلا عيناه الكبيرتان السوداوان . وذكر الجنرال سبوليتى فيما بعد ، أن الدوتشى بدا مجهداً . وأن الرغبة الوحيدة التى أعرب عنها ، هى العودة إلى منزله فى روكاديل كاميناتى .

وواجهت سكورزينى الآن المشكلة الأولى ، وهى كيفية الخروج بالدوتشى من هذا المكان . وكان الاتفاق قد تم على أن يطير فى طائرة هينيكيل ، من مطار اكويلا ، الذى كان من المقرر أن يحتله المظليون . لكن عامل اللاسلكى لم يستطع الاتصال بمطار رومة ، أو بسلاح الجو الألمانى لاستدعاء الطائرة من هناك . وكانت هناك خطة بديلة ، وهى استخدام طائرة أصغر ، تستطيع الهبوط والطيران من الوادى . وقد تمكنت هذه الطائرة من الهبوط ، ولكن مقودها تعطل أثناء الهبوط بحيث لم تعد صالحة للاستعمال . وكان الحل الأخير إذا فشل الحلان الأولان هو أن تهبط طائرة صغيرة من طراز ستورش على أرض الهضبة . وقد تمكن جيرلاخ ، الطيار الشخصى البارع للجنرال ستودينت من الهبوط بطائرته سليمة على الهضبة ، ولكنه كان فى شك من أمر تمكنه من الصعود بها من هناك الى الجو ثانية .

ولم يكن موسولينى قد عرف بمخاوف جيرلاخ ، فخرج إلى الهواء الطلق ، وقد وضع فى قدميه حذاءين ثقيلين من أحذية التزلج . وبدا كعادته دائماً أمام الألمان قوى العزيمة والشكيمة . وروى دومينكو انطونللى ، المدير الجديد للفندق ، إذ كان قد تسلم إدارته فى اليوم السابق ، أن موسولينى استعاد فى تلك اللحظات مظهره كديكتاتور ، « فقد أخذ يتحرك بمزيد من الصلابة ، ويتحدث بكثير من الثقة ويدفع فكه الأسفل إلى الأمام كعادته » .

وطلب إلى جويلى وفايولا أن يرافقاه . فوافقا فى البداية ، ولكن عندما حان موعد الرحيل ، طلب فايولا وهو متردد ، أن يسمح له بكلمة على انفراد مع الدوتشى .

وقال موسولينى بفروغ صبر . . . « هيا قل ما تريد . قل ما تريد » .

وقال فايولا بشىء من العصبية الواضحة . . . « لدى زوجة وطفل ياسيدى الدوتشى . فإذا كنت لا تجد مانعاً ، فسأبقى هنا إلى جانبهما » .

– إذن . فلتبق حيث أنت .

ولاحظ أنطونيللى أن لهجته كانت فى منتهى الغلظة .

واصطف موظفو الفندق فى الخارج ، كما كان الخدم يصطفون فى الماضى فى أى بيت ريفى ، لوداع ضيف كبير . وصافح موسولينى كل فرد منهم ، متحدثاً إليهم ببضع كلمات بدا فيها تنازل الديكتاتور الذى لا يخرج على لطفه ودماثته . وكانوا يتوقعون منه هذا اللطف المتكبر الأنوف منذ البداية ، ولكنه لم يكن يظهره لهم أبداً .

وقال أخيراً وهو يبتعد عنهم . . . شكراً لكم جميعاً ، وتأكدوا من أننى لن أنساكم أبداً .

وقصد إلى الطائرة ، بينما وقف الجنود الألمان ورجال الكاربنييرى وقفة التأهب ، يؤدون له التحية بالطريقة الفاشية ، ويهتفون بصوت عال « دوتشى ، دوتشى ، دوتشى » .

وتحدث موسولينى فيما بعد يصف هذه اللحظة الدراماتية . . . « وتقدم الطيار الذى سيقود طائرتى . وكان شابًّا صغيراً من أبطال الطيران الألمانى يدعى جيرلاخ ، واستدرت بوجهى قبل أن أدخل الطائرة لألوح بيدى إلى حراسى السابقين ، كانوا جميعاً يصعقهم الذهول . وكان بعضهم قد اضطرب اضطراباً صادقاً متأثراً لفراقى إذ سالت العبرات من عيون الكثيرين منهم » .

أما جيرلاخ فكان مضطرباً حتى إنه لم يلحظ المسرحية . وقال إنه تمكن من الهبوط بصعوبة بالغة على مثل هذه الأرض الوعرة والضيقة المدى ، وإنه يعتقد أنه لا يستطيع الإقلاع ، حاملا راكباً واحداً . وعندما ذكر سكورزينى أنه سيستقل الطائرة أيضاً ، أصيب الطيار بما يشبه الرعب ، مؤكداً استحالة ذلك . فالطائرة لا تستطيع أن تحتمل راكباً واحداً فكيف باثنين . إنها كارثة . ولو قدر لها أن ترتفع عن الأرض ، فلن تستطيع الصمود . لكن سكورزينى أصر على

رأيه ، وكتب فيما بعد يقول ، معترفاً بأنه كان مهتماً بنفسه . . . « ولو حدثت هناك كارثة فكل ما سيبقى منى ، طلقة من مسدس أطلقها على نفسى . ولن يغفر لى أدولف هتلر مثل هذه النهاية لمغامرتنا . ولما كان من المستحيل العثور على طريقة أخرى ، للوصول بالدوتشى سليماً إلى رومة ، فإن من الخير أن أقاسمه الخطر ، حتى ولو كان وجودى على الطائرة سيضاعف هذا الخطر . فلو لم ننجح ، فإن نفس المصير سينتظرنا جميعاً » .

واعترف موسولينى فيما بعد بأنه شارك جيرلاخ مخاوفه ، ولكنه لم يفه ببنت شفة . وشهده أحد رجال الكاربنييرى وهو ينحنى ليدخل الطائرة الصغيرة . كان يبدو عجوزاً ناحلا فى معطفه الشتوى الواسع عليه ، وفى قبعته السوداء الواسعة الحاشية التى ضغطها فوق رأسه لتغطى عينيه . وأحس هذا الرجل بشىء من الإشفاق الفجائى عليه ومن الإعجاب بشجاعته. ولاحظ سكورزينى بأنه تردد قليلا قبل أن يجلس على المقعد الخلفى واحترمه كل الاحترام ، لأنه لم ينطق بكلمة احتجاج واحدة .

وهدر محرك الطائرة الصغيرة إلى أقصى قوته عندما اشترك اثنا عشر رجلا فى تحريكه مرة واحدة ، وعند ما أنزل جيرلاخ يده ، مطلقاً الطائرة ، لتسير فوق صخور الهضبة . عبأت الطائرة السرعة اللازمة للانطلاق قبل وصولها إلى آخر الأرض الصالحة للطيران ، ولكن العجلات لم ترتفع عن الأرض . واقتربت الطائرة من حافة الهضبة ، وخيل للجميع أنها ستهوى إلى منعرجات الهاوية القريبة ، عندما ارتفعت فجأة عن الأرض . لكنها ما لبثت أن هوت بعد لحظة ثانية ، وأصابت إحدى عجلاتها صخرة بارزة ، دفعت الطائرة متدحرجة إلى الشمال فوق الحافة لتهوى نحو الوادى . وبدأت الطائرة تسقط مترنحة عبر الهواء ، وزأرت الريح فى أذنى موسولينى بينما كان جيرلاخ يحاول أن يسحب الطائرة من انقضاضها ، ليسير بها فى طيران مستو . واعترف موسولينى لصحفى سويسرى فى العام التالى قائلا : « كانت لحظة من الرعب الحقيقى أصابتنى » .

وهرع رجال الكاربنييرى والحرس النازى باتجاه حدود الهضبة ، ورأوا الطائرة وهى تهوى يائسة باتجاه صخور الوادى الداكنة السوداء . وفجأة انطلقت الطائرة ، وكان طيارها كان قد تعمد منذ البداية هذا الإقلاع الغريب ، من انقضاضها ،

وراحت تطير باتجاه الجنوب الغربى نحو وادى افيزانو ، مرتفعة مسافة تقل عن مائة قدم عن سطح الأرض .

وانقضى بعض الوقت دون أن ينبس أى من الذين فى الطائرة ببنت شفة . وظل موسولينى مقعياً إلى جانب سكورزينى ، دون أن يبدو عليه خوف ، بقدر ما بدا عليه من حزن وانزعاج . ووضع سكورزينى يده على كتفه وكأنه يريد أن يطمئنه ، وعندما أدار الدوتشى وجهه إليه كان أشد شحوباً من أى وقت مضى . ولم تمض لحظات على أى حال ، حتى شرع فى الحديث مشيراً إلى التضاريس الأرضية تحته ، سارداً على مسامع سكورزينى ما حدث له فى المدن والقرى التى فوقها . وعندما وصلت الطائرة إلى مطار براتيكا دى مارى ، نقل ركابها إلى طائرة لينيكل ، كان هدير محركاتها مرتفعاً إلى الحد الذى لم يستطع موسولينى معه أن يسمع صوته . فاسترخى فى مقعده ، وقد أغمض عينيه ، ثم بدا وكأنه راح فى سبات عميق .

وكان الظلام قد خيم على الكون عندما هبطت الطائرة فى مطار اسبيرن فى فيينا ، ودلف منها موسولينى وقد بان عليه الإجهاد . وعندما وصل إلى فندق الكونتيننتال حيث أعد له جناح خاص ، هتف له هتلر مهنئاً بالنجاة ، ولكنه لم يكن قادراً على الحديث مطولا ، فشكر للفوهرر اهتمامه باقتضاب وقال « أنا منهك . منهك للغاية ، وفى حاجة إلى الراحة » .

لكن اهتمام هتلر الواضح به وبراحته ، وسروره البالغ بنجاته ، وقد ظهر فى حديثه إليه ، أعادا له قواه الضائعة ، وعندما حمل إليه سكورزينى ، « بيجامة » جديدة ، كان قد أعدها له كويرمر ، قائد الحرس النازى فى فيينا ، رفضها موسولينى بمرح وهو يقول . . . « مما يخالف قواعد الصحة أن ينام الإنسان بملابس الليل » ، وأشفع قوله هذا بابتسامة نابضة بالنزوات ، اعتبرها سكورزينى دليلا على « تجارب الدوتشى الواسعة فى الحياة » . وسمع الدوتشى يقول له . . . « أنا لا أرتدى شيئاً فى الليل ، وإنى لأنصحك بأن تفعل ذلك أيضاً » .

وبدا موسولينى وقد استعاد قواه فى الصباح التالى . وجاء الحلاق ، فحلق له ذقنه وهندم شعره ، ثم شرع يستقبل عدداً من الزائرين . تأثر بالغ التأثر بما شهده

عند زائريه من تهانئ متحمسة ، واحترام يبلغ حدود الإجلال ، وحماسة طاغية . ولم يعد يتحدث عن الانطواء فى روكاديل كاميناتى ، وإنما شرع يتحدث من جديد عن مستقبل الفاشية ، وعن ضرورة تحويلها إلى حزب جمهورى .

وسمعه الناس يقول . . . « اقترفت خطأ كبيراً واحداً ، وكان على أن أدفع ثمن هذا الخطأ . فلم أعرف قط أن البيت الإيطالى المالك هو عدوى ، وأنه سيظل على عدائى . وكان على أن أحوّل إيطاليا إلى الحكم الجمهورى فور انتهاء الحرب الحبشية » . ورأى فيه سكورزينى من جديد صورة مشرقة للأمل والتصميم .

وغادر فيينا ظهر الثالث عشر من سبتمبر إلى مونيخ حيث استقبلته راشيل والأولاد فى مطار ريم . وأصيبت راشيل بالفزع من « شحوبه المخيف » . ولكنه تقدم منها « بطريقته المألوفة يسير قفزاً » ، وعندما سألته عما يعتزم فعله الآن ، راح يحدثها على الفور عن خططه المقبلة ، قائلا . . . « عزمت على أن لا أتخلى عن خطتى فى الحياة ، وأن أعمل جهد طاقتى لإنقاذ الشعب الإيطالى » . وكان يتحدث بسرعة بالغة ، وكأنه يخشى ، كما ظنت راشيل ، أن تقاطعه ، أو تجادله . وغادرا المطار معاً متجهين بالسيارة إلى فندق « كارل بلاتز » ، حيث أعد له جناح خاص . لكن هذا الجناح كان من الترف بحيث رفض موسولينى النوم فى غرفة نومه ، وآثر قضاء الليل فى الغرفة الأكثر تواضعاً والتى أعدت لراشيل . ووافق بعد لأى على أن يستحم ، فقد كان ، كما قالت زوجته ، فى أشد الحاجة إلى الاستحمام ، وكان « جورباه ملتصقين بقدميه من العرق » .

وجاءت إيدا فى الصباح التالى لرؤيته . وكانت المقابلة عسيرة للغاية إذ أن زوجها جاليازو كان فى مونيخ أيضاً . فقد غادر رومة خلافاً لأوامر الماريشال بادوليو و بمساعدة الألمان فى الثالث والعشرين من أغسطس مستصحباً إيدا وأطفالهما. وحاول الحصول من الألمان على تأشيرة للسفر إلى أسبانيا أو إلى أمريكا الجنوبية ، فأعطوه إياها بعد لأى وتسويف طويلين شريطة أن يسافر عن طريق مونيخ . ولكن الألمان ولا سيا ريبنتروب ، وقد تحول عدم استلطافهم له إلى كراهية ، لم يرغبوا فى أن ينجو من سلطانهم . ويبدو أن تشيانو نفسه لم يكن يعرف مدى

مشاعر العداء ضده في ألمانيا ، إذ أنه سافر إليها دون وجل أو قلق . ووصف فيليبو انفوسو ، كبير سكرتيريه الخاصين سابقاً ، المحاولات التي بذلها لتحذيره من الذهاب إلى ألمانيا ، وانهار تشيانو وراح يبكي ويقول . . . « إن موسوليني رجل عظيم ، بل هو عبقري حقاً » . ولم يكن الصهر ليشك في أنه سيغفر له . ولكنه وقد وطأت قدماه أرض ميونيخ ، وجد المصاعب تثار في طريقه لتحول بينه وبين مواصلة سفره . وظل هو وإيدا تحت رقابة الجستابو الشديدة الصارمة . فلما جاءت إيدا لزيارة أبيها ، وقف رجال الجستابو في الرواق خارج جناح موسوليني ، ينتظرون انتهاء المقابلة .

وتوسلت إيدا إلى أبيها أن يقابل جاليازو ، وقالت إن لديه مبررات كاملة للسلوك الذي سلكه ويود أن يبسطها على مسامع الدوتشي . لكن موسوليني متأثراً برأي راشيل ، رفض مقابلة صهره . ومع ذلك فسرعان ما ندم على موقفه ، وذكر بأنه سيتيح لجاليازو مقابلة قصيرة بعد بضعة أيام . ولكن زوجته ظلت مصرة على رأيها ، وظلت تقول ما عرف عن أهل رومانا من عناد وإصرار وتأثر بالعواطف . . . « أنا أكرهه . وكم أود لو قتلته بيدي » .

وقبل حلول موعد المقابلة بين الرجلين ، نقل موسوليني بالطائرة من ميونيخ إلى بروسيا الشرقية ليجتمع إلى الفوهرر في مقر قيادته . وقد قرر الحديث الذي دار بينهما هناك مصير تشيانو إلى الأبد .

٨

مقابلة فى مقر قيادة الفوهرر

١٥ سبتمبر ١٩٤٣

« جئت أتلقى تعليماتى » .

هبطت طائرة اليونكرز (٥٢) فى المطار الخاص بمقر قيادة الفوهرر ، فى جو مشمس رائع . وعندما خرج موسولينى من الطائرة . وتقدم منه هتلر والدموع فى مقلتيه، وتصافح الصديقان ، والواحد منهما ينظر إلى الآخر صامتاً ، وظلا واقفين على هذا النحو وقد أمسكا بيدى بعضهما ، مثل داود ويوناثان[1] فى الصحراء . وبدا هتلر ، متأثراً من المقابلة تأثراً عميقاً .

لكن الجو ما لبث أن اختلف كل الاختلاف ، عندما اجتمع الرجلان بعد قليل وحدهما . فالمطامح التى بعثت فى صدر موسولينى بعدما سمعه فى فيينا ومونيخ من تقدير وإجلال ، ما لبثت أن خبت ، وانطوت ، إذ رأى فيه هتلر رجلا قلقاً ويائساً . وذكر موسولينى فيما بعد أن « المقابلة » بدأت ، بحديث من هتلر أعاده إلى واقعه تماماً كما فعل الملك فى شهر يوليو .

وراح هتلر يسأل ضيفه بصرامة عما يعتزم أن يفعله الآن . وعندما اقترح موسولينى أن من الأفضل أن ينسحب من الحياة العامة ، ليجنب إيطاليا نيران الحرب الأهلية ، رد هتلر قائلا . . . « إنه سخف » . فاعتزاله الحياة العامة أمر خارج عن الموضوع إطلاقاً ، إذ أنه يظهر للعالم أن الدوتشى لم يعد مؤمناً بانتصار ألمانيا . وعلى الدوتشى أن يعيد نظره فى الموضوع . وما لم تقم حكومة فاشية قوية فى شمال إيطاليا ، فلا يعرف أحد ما سيحل بالشعب الإيطالى . وستجد الجيوش الألمانية نفسها مضطرة إلى الحكم فى ظل الحكم العرفى الذى لا يرحم ولا يشفق ، كما ستضطر إلى الانسحاب إلى حوض البو أو حتى إلى جبال الألب . مدمرة كل

---

(١) من قصص التوراة عن ملوك العبرانيين .

شيء قبل انسحابها . وقرر هتلر أن «الإجراءات البربرية المتوحشة هي القادرة وحدها على إنقاذ إيطاليا » . وكانت هناك اقتراحات بقيام حكومة فاشية فى إيطاليا بقيادة أحد الإيطاليين الذين فروا إلى ألمانيا من أمثال بافولينى وفاريناتشى وريناتوريكى وبريزيوسى أو حتى بزعامة فيتوريو موسولينى (ابن موسولينى) ، ولكن الفوهور لم يرض عن أى منهم . ولم تكن الحكومة الفاشية الوطنية التى أعلنت الإذاعة الألمانية من غابة راستنبرج قيامها فى التاسع من سبتمبر ، أكثر من مرحلة انتقالية ، وهى لن تجدى شيئاً دون زعامة الدوتشى لها . وعلى الدوتشى نفسه أن يعود ، وأن يحاكم خونة الخامس والعشرين من يوليو ، وأن يعدمهم . وعليه أن يسمح لألمانيا باحتلال الأقاليم الشمالية الشرقية من إيطاليا ، كالادريج وشبه جزيرة البندقية وترنتينو ، كتأمين لألمانيا ضد هجوم قد يشن عن طريق يوجوسلافيا . وعلى العالم أن يسمع من جديد تأكيداً بتضامن المحور . وظل هتلر يتحدث على هذا النحو زهاء ساعة ، وكان موسولينى أكثر ضعفاً وإجهاداً من أن يستطيع اعتراض إرادته . وعندما انتهى هتلر من خطابه ، التفت إلى السفير الألمانى المعين حديثاً وهو رودولف ران الذى كان يشهد المقابلة ، وأمره بصرامة بأن يساعد فى إعداد دستور الجمهورية الجديدة ، وغادر موسولينى غرفة الفوهرر وهو يكاد يكون ذاهلا . ووصفته الكونتيسة تشيانو (ابنته إيدا) ، التى رأته بعد أيام من هذه المقابلة ، بأنه كان أشبه برجل فقد إرادته . وعندما تحدث هتلر إلى جوبلز عن المقابلة ، لم يخف خيبة أمله فى موسولينى هذا الذى حمله سكورزينى من إيطاليا ، مضيفاً إلى ذلك قوله إنه بدا فى عينيه أصغر مما كان يراه من قبل .

وكان من رأى جوبلز ، أن السبب الرئيسى فى خيبة أمل هتلر فى موسولينى ، هو افتقاره الواضح إلى التصميم ، لمعاقبة خونة الخامس والعشرين من يوليو وإعدامهم . وكتب جوبلز يقول . . . « لكن عقاب الخونة الفاشيين أمر لا بد منه لأى بعث للفاشية » . ولكن الدوتشى وهو « الشديد الارتباط بأسرته » بدا عازفاً عن معاقبة أى إنسان . وبدا أنه يحمل الملك وحده مسئولية الكارثة التى حلت به ، وأن مسئوليته فيها أكثر حتماً من مسئولية تشيانو ، الإنسان الذى تكرهه القيادة العليا الألمانية أشد الكراهية . وعندما أشار موسولينى إلى الحقيقة الواقعة وهى أن

تشيانو ، زوج كريمته على أى حال ، انقض عليه هتلر قائلا . . . « وهذه الحقيقة تجعل خيانته أدهى وأمرّ . وهنا لا بد من من أن أكون واضحاً كل الوضوح ، فالغفران الواضح للخيانة فى إيطاليا ، سيترك آثاراً عميقة فى كل مكان » . وهذا ما لن تسمح به ألمانيا على الإطلاق . وعلى موسولينى أن يضرب المثل للعالم كله بالعقاب الصارم الذى ينزله بالخونة .

وكان موسولينى قد وعد بمقابلة تشيانو بعد رجوعه إلى ميونيخ . وعلق جوبلز على ذلك بشىء من الاحتقار قائلا . . . « وهذا يعنى أن هذا الفطر السام ، سيزرع من جديد وسط الحزب الجمهورى الفاشى الجديد » . ومضى جوبلز يقول . . . « ويعتزم تشيانو كتابة مذكراته . ويشك الفوهرر وهو على حق فى شكه ، فى أن مثل هذه المذكرات ستكتب بصورة تحط من قدرنا ، إذ لو لم يفعل ذلك ، لما استطاع تصريفها فى سوق النشر الدولية . ولهذا فليست ثمة فكرة فى السماح لتشيانو بمغادرة الرايخ بل إنه سيظل تحت تصرفنا » .

ودون جوبلز فى مكان آخر من يومياته . . . « يبدو أن الدوتشى لم يستخلص من كارثة إيطاليا النتائج التى كان الفوهرر يتوقع منه أن يستخلصها . وليس ثمة من شك فى أنه فرح فرحاً زائداً بطلوعه إلى أجواء الحرية من جديد ، زمن رؤيته للفوهرر . ولكن الفوهرر كان يتوقع أن يكون أول ما يفعله الدوتشى الانتقام انتقاماً صارماً من الذين خانوه ، لكنه لم يوح على أى حال بأنه سيفعل هذا ، مظهراً ضعفه الحقيقى . فهو لا يضاهى فى ثوريته الفوهرر أو ستالين . وهو مرتبط إلى شعبه الإيطالى كل الارتباط ، بحيث يفتقر إلى المزايا الضخمة التى يجب أن توجد فى الإنسان الثورى على الصعيد العالمى » .

وقد طرب جوبلز لموقف الفوهرر فكتب فى يومياته يقول . . . « وفى وسعنا أن نعتبره خائب الأمل إلى حد كبير فى شخصية موسولينى ، وإن لم يقع بين الرجلين خلاف حقيقى » . وكان جوبلز ، كما يبدو يغار من صداقة الفوهرر السابقة للدوتشى ، ولذا فإنه لم يشعر نحوه بميل قط ، وكان قد سر سروراً واضحاً عندما تحدث الإيطاليون الذين فروا إلى ألمانيا من قبل ، إلى هتلر عن ضعفه وعن افتقاره إلى الشدة فى لاساميته . ورأى جوبلز فى سقوط الدوتشى ضربة قاصمة للدعاية الألمانية ، ولكنه سرعان ما عزّى نفسه بقوله ، إنه لم يشارك الفوهرر قط

إعجابه الخاطئ به . وخيل إليه أن آمال هتلر خابت الآن فى الدوتشى ، فراح يجلس على مقعده فى مكتبه وهو يردد بشىء من السخرية . . .« دوتشى ، دوتشى » . ومضى جوبلز . بعد ذلك يقول . . . « على أى حال ، فهو لا يعدو أن يكون إيطالياً ، وليس فى وسعه الخلاص من هذا التراث » .

واعترف موسولينى فيما بعد بأن إيطاليته هى التى دفعته إلى قبول شروط هتلر . فبالرغم من إيمانه بقسوتها ، فقد اعتقد بأن رفضها يعنى الحكم على إيطاليا بالدمار . وها هو كيسلونج قد أعلن أن إيطاليا كلها وراء خطوط الجبهة الألمانية أصبحت منطقة حربية تخضع للأحكام العرفية ، وأن جميع الأعمال التى يقصد منها عرقلة سير الحرب ، بما فيها تنظيم الإضرابات الصناعية تعتبر جرائم كبرى عقوبتها الإعدام . وذكر موسولينى فيما بعد ، أنه رغبة منه فى حماية إيطاليا من مزيد من الاستعباد للأوامر الألمانية التى هى من هذا الطراز ، ورغبة منه فى التأكد من أن أولئك الإيطاليين الفاشيين المغالين فى انحيازهم لألمانيا والذين هربوا إليها من إيطاليا بعد اعتقاله ، لن يرثوه فى سلطانه ، ذهب إلى الفوهرر من جديد ليبلغه قراره بالعودة إلى الحياة السياسية العملية . وراح يقول للفوهرر بشىء من المرارة . . . « وقد جئت الآن لأتلقى تعليماتى » .

وتظاهر هتلر بأنه لم يسمع احتجاج الدوتشى الضمنى والصامت ، فراح يصدر على الفور تعليماته إليه . فعلى الدوتشى أن يدرك بالطبع ، أنه فى مقابل السماح بإعادة الفاشية ، تحتاج ألمانيا إلى « ضمانات إقليمية للحيلولة دون وقوع أزمات جديدة » . فأمن ألمانيا يتطلب إعادة تنظيم منطقة « الأديج » كلها ، على أن تسلم للرايخ منها مقاطعة بولزانو بصورة خاصة . وأن تسلم إليه بعد استفتاء يشرف عليه الألمان مقاطعتا تورنتو وبيلونو . وستؤلف هذه الأراضى جزءاً من النمسا الجديدة الموسعة التى تصبح إحدى إمارات ألمانيا الكبرى المشتركة فى اتحاد فيدرالى مثلها ، مثل تشيكوسلوفاكيا والمجر وبولنده . وقد تضطر إيطاليا فيما بعد إلى التخلى عن دالماتيا وتريستا واستيريا . ولما كانت ألمانيا ، تقاتل الآن وحدها نيابة عن إيطاليا ، فلا بد أيضاً من إعادة التنظيم فى الحقوق الاقتصادية والصناعية أيضاً . ويجب نقل المصانع والآلات الصناعية إلى شمال الألب ، وتزويد المزارع

والمصانع الألمانية بعدد آخر من العمال الإيطاليين ، ودفع بعض التعويضات في النهاية إلى ألمانيا . ويجب فوراً إقصاء بعض العناصر الفاشية عن المناصب التي يشغلونها . كما تجب محاكمة خونة الخامس والعشرين من يوليو وإعدامهم .

وكان هتلر ، كدأبه دائماً عندما يتحدث عن مشاريعه المقبلة في تغيير سير التاريخ ، وصورة أوربا ، قد تحمس وأخذ يتحدث بهياج مجنون ، وكأنه يريد أن يبعث في الكلمات التي تصدر عنه ، صورة تفوقه في الأهمية على محدثه . وظل موسوليني يصغي ، إذ ألف في الآونة الأخيرة الإصغاء ، دون أن يعلق بشيء سواء بالرضى أو الرفض . وعندما توقف هتلر عن الحديث ، كانت أسئلة موسوليني . في منتهى الضعف إلى حدود التخاذل .

وقال متسائلا . . « أليس من الأفضل الدخول في مفاوضات مع روسيا لتحطيم جبهة الحلفاء ؟ » . وكان الرد سلبيًّا . وقال متسائلاً من جديد . . . وما مصير كورسيكا ؟ وكان رد هتلر أن محادثات قد تدور بصدد تونس . أما فيما عدا ذلك فإن إيطاليا ، بعملها ، قد تنازلت عن مطالبها من فرنسا . وتساءل أيضاً . . . أوَليس من الأفضل أن تعطى تشيكوسلوفاكيا وبولندة نفس الاستقلال ، الذي سيسمح به إلى الدول الأخرى في الكتلة الأوربية ؟ . وكان الرد بالنفي أيضاً . وكان التنازل الوحيد الذي استطاع موسوليني الحصول عليه ، هو أن يكون حرًّا في عمله في شؤون إيطاليا الداخلية ، وإن كانت هذه الحرية ستظل أيضاً تحت رقابة دقيقة .

وبدا بل كان في الواقع رجلا مهزوماً . وكانت ثيابه مهلهلة حول جسده ، إذ انحل رباط عنقه متدلياً . وبعد أن كان لهتلر ما أراده منه ، عاد يظهر له عطفه وحبه ، وأصر على أن يقوم الأستاذ موريل بفحصه ، وهو طبيب قذر كان متخصصاً في يوم ما في الأمراض التناسلية . وقام موريل الذي كان يتولى إعطاء هتلر حقناً يومية وجرعات منظمة من العقاقير التي تضم أنواعاً مختلفة من المخدرات ، والسموم المخففة ، والمهيجات والباهيات ، بفحص موسوليني ، فوجده معافى باستثناء بعض الزيادة في الضغط ، والإجهاد العصبي ، وضعف الأمعاء . وعلق جوبلز بشيء من نفاد الصبر . . . « إنها في الواقع عين الأمراض التي نشكو

منها جميعاً . ولكن هتلر ، لم يكن يثق كل الثقة في طب موريل ، رغم اعتماده عليه ، فأظهر عدم اقتناعه بتشخيصه ، واقترح على موسوليني أن يأخذ معه إلى إيطاليا ، الأستاذ زاخاري ، وهو طبيب ألماني آخر .

وعاد موسوليني إلى مونيخ في السابع عشر من سبتمبر . . ودونت زوجته في يومياتها تقول . . . « يبدو أنه في حالة صحية أفضل. ولكن في عينيه تعبيراً غريباً عن الألم يفضح ما يعانيه من عذاب عقلي » وكعادته لم يبحث معها في معضلته ، مكتفياً بالقول بأنه قضى « ثلاثة أيام من العمل المستمر مع هتلر » . وحبس نفسه بعد ظهر اليوم التالي في غرفته ليعد الخطاب الذي سيوجهه في ذلك المساء عن طريق إذاعة مونيخ إلى الشعب الإيطالي .

وكتبت راشيل تقول ... « ومضيت معه إلى غرفة البث الصغيرة في الفندق وقد يكون ما أقوله غريباً . ولكنها كانت هذه المرة . هي الثانية التي يذيع فيها . ففي الماضي كان يلقي خطبه على الجماهير ، وإن كانت الإذاعة تتولى نقلها . ولم يكن في حالة طيبة . وقبل الشروع في إذاعة رسالته . التقت عيناه بعيني . وانقضت فترة طويلة خيل إلى أنها لن تنتهي قبل أن يشرع في الكلام » .

وبدا صوته محموماً . وكانت عباراته مدغومة ببعضها . بحيث بدت سيئة اللفظ غير مفهومة . وتحدث إلى سامعيه عن فترة سجنه ، وعن فراره المسرحي ، بطريقة وجد أحد المعجبين الجدد بالفاشية نفسه مضطراً إلى وصفها «بالطريقة الصحفية وراح بعد ذلك يحاول استعادة سيطرته الماضية على الكلم ، فراح يذكر شعبه بواجبه ، ويدعوه إلى السير وراءه في الطريق إلى النصر .

ولكن جوبلز وهتلر لم يتوقعا من الشعب الإيطالي أن يتبعه . فقد كتب جوبلز يقول . . . « انتهت إيطاليا كشعب وكأمة » . وبالرغم من أنه ، على النقيض من الآخرين الذين استمعوا إلى الخطاب ، رأى في خطاب الدوتشي « هدوءاً وواقعية وخلواً من الإفراط في العواطف » ، إلا أنه اعترف بفشله في تمثيل دور « العودة العظيمة » . ومضى جوبلز يقول . . . « وعلى أي حال ، فقد كان هندنبورج العجوز على حق عندما قال : إن أي إنسان حتى موسوليني لا يستطيع أن يخلق من الإيطاليين إلا الإيطاليين » .

٩

رئيس الجمهورية فى جرجنانو

السنة الأولى

من ٢٧ سبتمبر ١٩٤٣ إلى ٢٧ سبتمبر ١٩٤٤

« أسلمنا أنا وهتلر نفسينا إلى أحلامنا كزوج من المجانين ولم يبق أمامنا إلا أمل واحد ، وهو أن نخلق أسطورة » .

١

ظل موسولينى فى ألمانيا عشرة أيام أخرى ، قضى بدايتها فى مونيخ ، ثم نقل بعدها ، بعد أن اشتدت الغارات الجوية المعادية على المدينة إلى قصر يدعى « شلوس هيرشبرج » يقع على بعد خمسين ميلا منها من سفوح جبال الألب البافارية عند بارميش . وراح يعيد هناك تنظيم حكومته الجديدة . ويقيم البناء الجديد للفاشية .

وأعلن فى المدة الواقعة بين الخامس عشر والسابع عشر من سبتمبر من راستنبرج وفى ستة أوامر يومية ، مولد الجمهورية الإيطالية الاشتراكية .

وقد نصت هذه الأوامر على أن يستأنف الدوتشى « السلطة العليا فى توجيه الفاشية فى إيطاليا » وأن يتولى إعادة تنظيم الحزب الفاشى تحت اسمه الجديد « الحزب الفاشى الجمهورى » وأن يقوم بإعداد تشكيل الحرس الفاشى . وإعادة التعاون مع الألمان ومعاقبة الخونة. ولم يذكر فى هذه الأوامر من الأسماء إلا اسم اثنين من الفاشيين العديدين الذين فروا من إيطاليا بعد تولى بادوليو الحكم . وهما اليساندرو بافولينى وهو متعصب سياسى وسكرتير سابق للدوتشى وقد عين الآن سكرتيراً للحزب الجديد الذى صمم على أن يكون حزباً للأقلية البسيطة القوية والمتعصبة ، وريناتو ريكى ، الذى

عين قائداً للحرس الفاشي ، الذى لم يستطع أن يجند فيه رغم جهوده الفائقة أكثر من عدد قليل من الرجال . أما روبرتو فاريناتشي المعروف بعنف ميوله إلى الألمان وجيوفانى بريزيوسى ، المشهور بصلابته فى عقيدته اللاسامية ، واللذان كانا يحاولان التقرب إلى الألمان والتودد إليهم على حساب موسولينى فقد خابت آمالهما فى تولى منصبين هامين فى الإدارة الجديدة[1]. وكان فيتوريو موسولينى قد أبلغ والده ، أن الرجلين ، نقلا إلى هتلر صورتهما عن ضعف الدوتشي وفشله ، وأبلغاه أنه كان كثيراً ما ينفجر حاملا على الألمان ، وأنه كان يتسامح تسامحاً سخيفاً مع أعدائه السياسيين ، وكان لا يتردد فى الحملة على الاشتراكية الوطنية . بالإضافة إلى نظرياته اللامسئولة والضعيفة فى موضوع اللاسامية ، وكانا قد حدثا الألمان أيضاً عن افتقاره المتزايد إلى الحيوية وعن صحته الآخذة فى التدهور .

وكان من الواضح أن لانتقاداتهما ما يبررها . وكان من الواضح للألمان الآن أيضاً أن أحاديث موسولينى الراهنة عن طريقة جديدة ، وأفكار جديدة . وفرصة التعلم من أخطاء الماضى ، وتنظيف الفاشية ، تصدر عن ظاهرية فى تفكيره ، وأن ليس فى معتقداته العميقة ما يدعمها . فهو إنسان مجهد ويائس . وكان لا يزال بالرغم من تحسن حالته الصحية عما كان عليه عند ما وصل إلى فيينا ، مريضاً للغاية. فهو إنسان عصبى المزاج ، وتثير أقل حركة أعصابه . وكان يفد إلى العمل فى الصباح ، وقد بان عليه نفس الإجهاد الذى كان يعانيه فى الليلة السابقة . وهو لا يستطيع النوم لأول مرة فى حياته ، وكان إذا ما استطاع الإغفاء فى نوم قلق فى بعض الليالى هب فجأة مذعوراً من نومه على حد وصف الممرضة التى كانت تسهر عليه خوفاً من معاودة نوبات الألم له . وبعث الدكتور زخارى بتقرير إلى برلين قال فيه ... « إنه لا يأكل إلا القليل . وتحول نوبات المغص التى تنتابه فى معدته بينه وبين النوم وقد انخفض ضغطه كثيراً ، وجفت عروقه ، وضمر بطنه إلى حد كبير ، بينما تورم كبده ». وأعرب الدكتور بعد فحص دقيق له وتحليل لدمه . أنه ليس متأثراً من

---

(١) كان هذان الرجلان وأمثالهما ، قد أزعجوا هتلر عند ما طاروا إلى ألمانيا بعد اعتقال موسولينى بدلا من البقاء والقيام بثورة مضادة ترغم الملك على تسليم قيادة القوات المسلحة الإيطالية إلى الألمان . وقد صرخ هتلر عند ما سمع بمجيئهم . . . « لا يمكن عمل شىء مع هؤلاء الأوغاد » .

الأمراض الزهرية ، وإن كان فاريناتشي قد أبلغ ريبنتروب بأنه وصل « في مرضه هذا الدرجة الثالثة » .

ومن السهل على المرء أن يفهم السبب في هذا الحكم الذي صدر عن فاريناتشي فكثيراً ما شوهد الدوتشي يصاب بحالة قصيرة من الهياج الشديد يعقبها انهيار فجائي وتحول إلى فترة من اليأس القانط . وكان سماعه بكارثة خطيرة تقع في الجبهة الإيطالية لا يؤثر عليه مطلقاً ، بينما تؤدى إثارته بمسألة تافهة إلى تحوله إلى حالة هياج عنيف للغاية . وقد يبدو منشرح المزاج مؤقتاً وهو يتحدث عن بعث الفاشية . ثم لا تلبث رؤية جندى ألمانى في بزته العسكرية ، أن تفقده كل حماسته .

فكان تأثير الألمان حتمياً ومسيطراً عليه ، وكان يعرف في صميم فؤاده ما يعنيه بعث الفاشية حقاً . وعاد في السابع والعشرين من سبتمبر ، مصحوباً بالجنرال كارل وولف قائد الحرس النازى في إيطاليا إلى دارته في روكاديل كاميناتى ، حيث وفد عليه عدد من أعضاء حكومته الجديدة ، يؤدون له يمين الولاء كرئيس للجمهورية ويبدو أن الألمان أرادوا أن يؤكدوا لهؤلاء الوزراء طبيعة السلطان الذى يستمدون منه سلطتهم . فحملهم مبعوث هتلر الموثوق في إيطاليا والعقيد في الحرس النازى يوجين دولمان ، إلى بيت موسولينى . وبالرغم من أن الحكومة الجديدة لم تضم المتطرفين من أمثال روبرتو فاريناتشي . الذى عاد إلى كريمونا ليضفى على صحيفته فيها « العهد الفاشى » ، صبغة معادية لموسولينى ، وجيوفانى بريزيوسى ، فإن أعضاءها كانوا من الرجال المستعدين لدعم الحلف مع ألمانيا وحمل لوائه . وكان جيدو بوفارينى جيدى ، الذى عين وزيراً للداخلية في الوزارة الجديدة ، معروفاً في الأوساط الفاشية بمكره وبراعته في حبك الدسائس . لكن الألمان هم الذين زكوه ، وأصروا على إدخاله في الوزارة ، إذ أنه حرص كل الحرص على أن يبدى دائماً إعجابه الشديد بهم . وعهد إلى رجل آخر شديد الإعجاب بالروح الألمانية ، وهو فيرناندو ميزاسوما . بوزارة الثقافة الشعبية المهمة كل الأهمية . وكان هذا الشاب الضئيل الجسم ، والشاحب اللون ، والشاحب الوجه ، ذو العينين الواسعتين للغاية واللتان تخفيهما نظارتان سميكتان ، آخر الأكفياء الذين تمكنت الفاشية من تجنيدهم في صفوفها . وكان يتحدث دائماً عن بعث الحزب ودوره الجديد كحزب ثورى يجمع بين الجماعية والتطرف الاجتماعى

والاشتراكى ، بحماسة متقدة ، كانت تتعب موسوليني ، الذى مل أيضاً تفجرات بافوليني المسرحية ، ومطالب بوفاريني — جيدى المدروسة بإيقاع عقوبات صارمة بأعداء المحور . وكان هؤلاء الثلاثة ، أى بافوليني وميزاسوما وبوفاريني — جيدى ، هم الذين اعتمد عليهم الألمان لضمان سير الجمهورية الاشتراكية فى الطريق الذى رسموه لها . وكان هناك عضو رابع فى الحكومة ، لا يشك فى ولائه للحلف الألمانى وهو الماريشال رودولفو جرازيانى . وقد تحدث إلى ضابط ألمانى فقال . . . « لم أكن فى يوم من الأيام فاشياً ، وإنما كنت دائماً جندياً يطيع الأوامر » . وبالرغم من أنه اعترف بخيبة أمله فى عودة موسوليني إلى الحكم ، إلا أن كراهيته لبادوليو ، واحتقاره للدسائس السياسية التى كان يقوم بها ضباط القيادة العامة ، كانا كبيرين ، بحيث حملتا الألمان على تجاهل عيوبه السياسية وعدم فاشيته ، ولا ريب فى أن الحكومة قد اكتسبت مظهراً محترماً بتعيينه وزيراً للدفاع . أما الوزارات الأخرى فقد أسندت إلى رجال لم يتميزوا بالشهرة ولا بالمواهب الفائقة ، فقد أصبح ترينجالى — كازانوفا وزيراً للعدل ودومنيكو بيليجرينى وزيراً للمالية وسيلفيوجاى وزيراً للاقتصاد وإدوار دومورونى وزيراً للزراعة ، وكالو البرتو بيجينى وزيراً للتربية ، وجيوسبى بيفريل وزيراً للمواصلات . واختير فرانسيسكو ماريا باراكو سكرتيراً عاماً لرئاسة مجلس الوزراء . وحمل موسوليني نفسه من أعباء وزارة الخارجية ما سمح له بمزاولتها ، بينما عهد بوكالتها إلى الكونت سيرافينو مازوليني . وكان هذا رغم جسده الضعيف الذى أنهكه السل والسكر ، يتميز بالحماسة والعنف والجنون ، وكان صالحاً كل الصلاح لإجراء الدسائس واللاواقعية التى صبغت الجمهورية بطابعها .

وكان موسوليني طيلة حياة جمهوريته ، يبذل أقصى الجهد لتجنب صحبة الوزراء الذين يؤلفون حكومته ، مؤثراً التحدث إلى رجال من الخوارج السياسيين . وكان من أبرز هؤلاء كارلو سيليفيسترى ، الصحفى الاشتراكى ونيقولو بومباكى الشيوعى السابق ونائب السكرتير العام للحزب الاشتراكى الإيطالى ، وكان يعرفهما منذ عام ١٩٠٢ ، عندما كانا يعملان معه كمعلمين فى مدرسة واحدة فى جوالتييرى . وبالرغم من أن بومباكى ، صديق شبابه ، كان قد تحول إلى عدو سياسى له ، فإن موسوليني

تطرف فى عام ١٩٣٧ فى مساعدته ومساعدة أسرته ، عندما أخرج من عمله . وكان هذا العمل فضلا لم يستطع بومباكى السريع التأثر أن ينساه أبداً . وعندما سأله أحدهم عما يعتزم أن يعمله ، إذا انهارت الجيوش الألمانية قال . . . « سأشاطره مصيره . فأنا لن أنسى ما عمله لأسرتى ، عندما كانت تتضور جوعاً » .

وكان يقول إن موسولينى نفسه الآن فى حاجة إلى المساعدة والعطف . ولذا فقد مضى للإقامة معه فى روكاديل كامينانى. وكان يصغى بطويل صبر وتفهم لشكاواه الطويلة من الألمان وتذمره وحملاته عليهم ولاسيما أن نفوذهم عليه هنا كان كبيراً كما كان فى ألمانيا نفسها .

وكان جنود الحرس النازى يحرسون حدائق دارته باستمرار . ويقفون مراقبين له ، وهو يحاول استعادة قواه الضائعة ، ولياقته البدنية ، بتحطيب الأشجار فى الحديقة . وعند ما تقرر بناء على نصيحة الألمان إقامة عاصمة الحكومة الجديدة فى بلدة سالو على بحيرة جاردا بدلا من رومة ، التى قد ينسحب منها الألمان عما قريب أمام الحلفاء . انتقل موسولينى إلى دارة فيلتر ينيلى ، فى بلدة جرجنانو الصغيرة والواقعة على بعد بضعة أميال إلى الشمال من سالو على شاطئ البحيرة . وراح الجنود الألمان يتولون حراسته فى مقره الجديد أيضاً[1] . وقد اختير هؤلاء الحراس من دهماء الألمان الذين لا يجيدون الألمانية بله الإيطالية ، وكان منظرهم يثير من اليأس مالايطاق فى نفس موسولينى . وكثيراً ما سمع يشكو غاضباً . . . « أنا لا أريد من الناس أن يظنوا أنى سجين » . ولكنه كان سجيناً حقـّـاً . فقد كتب ضابط ألمانى شاب إلى أسرته يقول . . . « إن الحراسة عليه مشددة . وأنا لا أخطو فى الحديقة إلا إذا غنيت أو صفرت . إذ أن هناك رجلا من الحرس النازى ومسدسه فى يده ، ووراء كل شجرة . وهناك عدد من الإيطاليين أيضاً من ذوى القمصان السوداء لتغطية المظهر ليس إلا » .

وكان الجنود الألمان يتبعونه بسياراتهم العسكرية ، إذا ما خرج بسيارته ، كما كان الجواسيس الألمان يصغون إلى مكالماته الهاتفية التى كانت تتم عن طريق

(١) كان من أهم مظاهر الضعف فى جمهورية سالو ، أنها أقيمت فى ذلك المكان النائى فى الشمال لضرورات عسكرية ملحة ، ولا ريب فى أن الحكومة الفاشية بتخليها عن رومة . عاصمة البلاد التاريخية ، قد فقدت كل ما كانت تطمع فيه من مكانة ضئيلة ، فى الظروف التى خلقت فيها ، مما أوحى بحقيقة وضعها الغريب . « المؤلف »

مقسّم الجيش الألمانى . وكان يتلقى زيارات منتظمة من الجنرال وولف ، والسفير ران ، والدكتور زاخارى والعقيد دولمان ، فقد تلقوا شخصيًّا تعليمات من هملر بأن لا يغيب الدوتشى عن أنظارهم . وكان كثيراً ما يتذمر قائلا . . . « إن وولف ودولمان هما سجاناى » . وعندما كان يطل برأسه من النافذة ، فيرى خوذة ألمانية ... كان يقول « إنهم هناك كالبقع فى جلد الحرباء » .

وكان يكثر من التذمر على هذا النحو لزائريه من الإيطاليين ، ولكنه لم يشك مرة واحدة إلى هتلر . وقد كتب إليه ذات يوم شاكياً من السلوك المتعسف المستبد للجنود الألمان ، ومن احتلالهم المتغطرس للأقسام الشمالية الشرقية من إيطاليا الذى شابه الضم تقريباً ، ومن موقف الحكومة الألمانية ، التى تعتبر موقفه موقف التابع لها . لكنه لم يتلق رداً مرضياً . ولذا لم يعد إلى مثل هذا الاحتجاج المطلق ، مستمداً شيئاً من العزاء من معرفته بأنه قد احتج مرة واحدة على الأقل ، ومعيداً تلاوة الصورة التى احتفظ بها أحد سكرتيريه فى درج مكتبه بكثير من الرضى .

ولم يحتج موسولينى على محاكمة خونة الخامس والعشرين من يوليو ، وهى المحاكمة التى فرضها عليه هتلر . فقد قبل شروط هتلر ، وأصدر أوامره باعتقال هؤلاء الخونة وتقديمهم إلى المحاكمة . وكان يقول إن على العالم أن يعرف أن مؤامرة خفية قد حيكت ضده وأن الملك قد اشترك فيها ، وأن يعرف أيضاً أنه ما زال صاحب السلطان ، وأن دوتشى الفاشية أقوى من كل شىء . ووصف سكرتيروه ، أنه عندما كانت أسماء الخونة تتلى على مسامعه ، كان وجهه يتخذ تعبيراً جامداً كالرخام ، كوجه الإمبراطور كراكلا الذى عرف بالغلظة والبعد عن الرحمة والعاطفة . وكان فى وسعهم فقط أن يحدسوا بما كان يفكر فيه . ترى هل كان يخفى وراء تلك الصورة من الجمود الثلجى شعوره بالخجل لضعفه وعجزه عن مقاومة مطالب هتلر ؟ أو هل كان يخفى قلقاً إنسانيًّا على أطفال ابنته إيدا ، الذين ظل الألمان حتى بداية شهر ديسمبر يحتجزونهم فى ميونيخ وكأنهم رهائن ؟ أو هل كان يأمل فى استعادة شهرته بالعدالة الصارمة وعدم المحاباة ! أو هل كان يؤمن حقًّا بما قاله ذات يوم لسيرفينو مازولينى ، من أن هذه المحاكمات ضرورية لأسباب تتعلق بالدولة ؟ وهل كان صادقاً عندما قال فيما بعد للصحفى إيفانو فوسانى ، بأنه لم يكن راغباً فى المحاكمة شخصيًّا ، ولكن الحزب والألمان كانوا مصممين

على إجرائها « لإعادة الإيمان بالحلف الألمانى – الإيطالى » ؟ .

ومهما كانت الدوافع التى دفعته ، فإن الذى لا شك فيه هو أنه قد أصدر فى الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٤٣ ، مرسوماً بإقامة المحكمة الخاصة ، وأنه لم يتردد لحظة واحدة فى عزمه على الوفاء بوعوده إلى هتلر . وقد نص المرسوم على أن تستلهم المحكمة « العدالة فى حكمها » ، وأن تستوحيه أيضاً « من المصالح العليا للبلاد التى تخوض غمار الحرب » ، ونص المرسوم أيضاً على أن من واجب رئيسها أن يسير فى إجراءاته « دون اكتراث بأى إنسان مهما يكن » ، ولم يكن ثمة شك فى هوية المعنى بهذا التعبير الغامض .

وكانت إيدا قد جاءت لرؤية أبيها بعيد عودته إلى إيطاليا . وعندما وصلت وكان الإعياء قد أخذ منها كل مأخذ بعد رحلة طويلة فى قطار حربى بطىء . راحت تتوسل إلى أبيها ، بما يشبه « الهستيريا » بأن ينقذ زوجها جاليازو من قبضة الألمان . فرد عليها موسولينى بنفاد صبر . . . « لا تضطربى إلى هذا الحد » . ونصحها بأن تمضى إلى دار للتمريض ، فليس فى استطاعته أن يعينها بشىء . فقد زوده ريبينتروب « بوثائق مادية » ، تثبت بصورة تقطع الشك « خيانة جاليازو ، ولا سيما مع الإنجليز » ، وأنه لا يستطيع أن يغفر له ذلك لأن إيطاليا لا تغفر له .

وكان تشيانو قد اجتمع بموسولينى تحقيقاً لوعده فى مونيخ وذلك قبل عودته إلى إيطاليا ، وكانت المقابلة قصيرة ومؤلمة . وحاول « القطر السام » كما كان جوبلز يدعوه ، أن يشرح للدوتشى سلوكه فى المجلس الفاشى الأعلى ، بينما ظل وجه الدوتشى جامداً كالصخر ، وخالياً من كل تعبير . وبدا وكأنه لا يستمع إلى صوت جاليازو ، وهو يتطلع إليه باشمئزاز جامد ، لا يصفح ولا يغفر . وظل واقفاً ، أمام المدفأة ، عندما فارقه تشيانو ، دون أن يسمح له بوداعه . وبدا وكأن الدوتشى قد قرر أنه لا يختلف أيضاً عن الرجل الذى بات الآن سيده ، وأن الشفقة لا تعرف طريقاً إلى قلبه ، وأن خيانة زعيم الفاشية خيانة عظمى ، وأن عقوبتها الوحيدة هى الموت . وكان يقول قبل سنوات طويلة . . . « أشعر بشبه كبير بدانتى ، فى وطنيته ، وصلابته ، فقد كان لا يغفر لأعدائه حتى بعد أن يصل بهم إلى الجحيم » .

وحاول تشيانو بعد هذه المقابلة مرة ثانية ، الرحيل إلى أسبانيا ولكن الألمان حالوا بينه وبين تحقيق بغيته من جديد . لكنهم سمحوا له بالعودة إلى إيطاليا ، فاعتقد أنه سيستعيد حريته ، ولذا طار من مونيخ إلى فيرونا حيث اعتقلته على الفور قوة من الجنود الألمان ورجال الشرطة الإيطاليين .

ولما فشلت إيدا فى تحطيم تصميم والدها المتحجر ، مضت إلى هتلر تقابله ، ولكنه رفض أيضاً التدخل لإنقاذ حياة زوجها . وراحت تتوعد بأنها ستحسر النقاب عن أمور تهز العالم بأسره ، وأصيب هتلر ، كما قال موسولينى لمازولينى « بشىء من الفزع » ، ولاسيما أنها قد أعادت تهديدها فى رسالة بعثت بها إليه . وليس ثمة من ريب فى أن هتلر طلب عن طريق السفارة الألمانية تأجيل المحاكمة . لكن موسولينى تمسكاً منه بالدور الذى أخذ على عاتقه القيام به ، كان أصلب من الصخر . وأعلن أنه « لن يؤجل المحاكمة يوماً واحداً » . وعندما نصحه رجل القانون رولاندو ريشى الذى ساعده فى إعداد دستور الجمهورية الاشتراكية الجديدة ، بالعدول عن المحاكمة ، رفض النصيحة بنفس العناد . وعندما توسلت إليه إيدا توسلا عاطفيًّا بوصفه والدها ، وجد أطفالها . رد قائلا . . . « لم يكن أسلافنا الرومان يترددون لحظة واحدة ، إذا تطلبت مصلحة رومة العليا ، فى التضحية بأبنائهم فى سبيلها . وليست القضية هنا قضية والد أو جد ، بل قضية دوتشى الفاشية » . . وانفجرت إيدا باكية ثم خرجت من الغرفة مهرولة .

وباتت إيدا على وشك الانهيار العصبى ، فاستمعت إلى نصيحة والدها ومضت إلى دار للتمريض والرعاية فى راميولا قرب بارما ، حيث دخلته تحت اسم مستعار هو إيلزا سانتوس . ووصف جيوفانى دولفين ، أحد سكرتيرى موسولينى ، زيارتها لبيت أبيها . ولم يكن هذا قد رآها من قبل ، فتأثر بالشبه الكبير بينها وبين أبيها ، وكتب فى يومياته يقول . . « إنها تختلف كثيراً عن صورها الفوتوجرافية ، بل إنها صورة طبق الأصل عن أبيها » . وكانت لهما نفس العيون ونفس التقاطيع ، ونفس الحركات ، ونفس الوضوح فى الحديث . وكانا يتشابهان أيضاً فى نفس العادة العصبية وهى الرجوع فجأة بالرأس إلى الوراء وسط الحديث ، ونفس التطلع بنظرات مغناطيسية إلى الشخص الذى يتحدثان إليه . وبالرغم من أنها حاولت

إخفاء هياجها ، إلا أنها كانت قريبة من الجنون . وبدت غير مهندمة وشاحبة الوجه ، ونحيلة الجسم ، وكأنها مريضة تماماً كما كان والدها قبل بضعة أسابيع . وعندما غادرت الدار بعد أن فشلت فى مهمتها ، لاحظ أحد الخدم ، العبرات وهى تنساب من مآقيها على وجنتيها . ولم يمض يومان على هذه الزيارة حتى كان الضابط الألمانى الذى يتولى قيادة حرس الدارة ، يستدعى إلى فيرونا ، ليوضح الأسباب التى دعته للسماح للكونتيسة تشيانو ، ابنة موسولينى المقربة ، بدخول الدارة .

ولم يكن لقلق الألمان ما يبرره . واستمرت الإعدادات لمحاكمة تشيانو . واختار موسولينى لرئاسة المحكمة محامياً قديماً يدعى ألدو فيشينى ، كان يشارك رولاندو ريشى شكوكه فى صلاح الأدلة التى تقود المتهمين إلى المحاكمة ، ولكنه اضطر إلى استبعاد هذه الشكوك . أما الأعضاء الثمانية الباقون فلم تكن لديهم شكوك أبداً ، وكان خمسة منهم ، من أشد الناس إخلاصاً للفاشية . ولم يمثل أمام المحكمة من التسعة عشر متهماً إلا ستة فقط ، أما الباقون وبينهم زعيمهم جراندى الذى فر إلى أسبانيا فور اعتقال موسولينى ، فقد تمكنوا إما من الفرار إلى الخارج ، أو الاختفاء فى إيطاليا. وكان الحاضرون هم اميليو دى بونو وتوليو شيانيتى وجيوفانى مارينيللى ولوشيانو جوتاردى وكارلو باريشى وتشيانو .

وبدأت المحاكمة فى الساعة التاسعة من صباح السبت فى الثامن من يناير عام ١٩٤٤ فى قاعة كاستيلفيشيو فى فيرونا . وجلس أعضاء المحكمة ، وكانوا جميعاً يرتدون القمصان السوداء ، على منضدة تقوم على منصة ترتفع وراءها ، قطعة كبيرة من القماش الأسود نقش عليها شعار الفاشية . وتلقى كل منهم فى الليلة التى سبقت المحاكمة ، هدية من مجهول ، هى « كفن مصغر » .

وكان إلى الشمال مقعد يجلس عليه المتهمون الستة . وإلى يمينهم منضدة ، جلس عليها الصحفيون والمصورون السينمائيون . وأمام القضاة مقعد يجلس عليه محامو الدفاع ، ووراءهم مقاعد النظارة . وكان المطر فى الخارج قد تحول إلى ثلج يتساقط . وجاء النظارة من الخارج صامتين يرتجفون من البرد .

وتلا كاتب المحكمة نص الاتهام بصوت جهورى بشع . وقد اتهم المسجونون

بأنهم « انتهزوا فرصة الاقتراع فى المجلس الأعلى للفاشية فى الخامس والعشرين من يوليو عام ١٩٤٣ فى مدينة رومة ، فتآمروا مع بعضهم وحاولوا تحطيم استقلال الدولة ، وأنهم لم يحبطوا بتشجيعهم الأوهام بشروط صلح هينة ، روح المقاومة المعنوية عند الأمة فحسب ، وإنما أحبطوا العمليات الحربية أيضاً ، وعملوا بذلك على مساعدة العدو وتخفيف الأعباء عنه » .

وكان الماريشال العجوز دى بونو البالغ من العمر ثمانية وسبعين عاماً هو أول المتهمين ، الذين دعوا للرد على هذه التهمة . ووقف أمام المحكمة ببزته العسكرية وقد زينها بجميع الأوسمة التى نالها قبل الزحف على رومة وبعده . وكان قد رفض فى البداية أن يعتبر نفسه مهدداً بالخطر . وقد يكون من حق الملك وبادوليو أن يرتحلا جنوباً إلى برنديزى ، ولكنه هو قد خدم موسولينى بإخلاص أكثر من عشرين عاماً ، وكان على ثقة من أنه لن يصيبه ضير . ورفض بشىء من الترفع اقتراحات أصدقائه ، بأن يختفى وأن يحلق ذقنه الشهيرة المميزة . وعندما اعتقل ، خيل إليه أن موضوع براءته سيظهر فى غضون أيام ، ولم يحاول انتهاز الفرصة التى أتيحت له عندما أصيب بالتهاب السحايا ، وسمح له بالعودة إلى دارته الريفية مقابل وعد بشرفه بأن لا يفر . فقد عاد إلى فيرونا فى سيارته ، وأمر سائقه بأن ينتظره إذ أن غيابه لن يطول . ولكن شيئاً ما فى جو المحكمة ، سرعان ما أوحى له بأنه كان على خطأ فى تقديره . وكانت لديه حاسة الرجل العجوز بالموت . وبينما كان استجوابه يسير فى الطريق المعتاد ، قاطع إجراءات المحكمة فجأة ، وقال بفروغ صبر . . . « كل هذا عبث . يبدو أن هناك من قرر أننى يجب أن أموت . أنا رجل عجوز . عجوز للغاية . إذن ، فأنتم لا تسلبون منى شيئاً . ولكن أرجو أن تسرعوا » . ومضى إلى مقعده وسط همهمة من العطف ، صدرت عن جماهير النظارة ، وجلس فى مكانه . وبالرغم من أن استجوابه لم يكن قد انتهى ، فإن رئيس المحكمة ، وممثل الاتهام ، لم يجرؤا على استدعائه من جديد .

وقد أخفقت جهود المحكمة فى إقامة البينة على وجود « مؤامرة مسبقة » ، عندما استدعى المتهم الثانى وهو كارلو باريشى لاستجوابه . وكان باريشى هذا وزيراً للزراعة ، وكانت جلسة المجلس تلك ، أول جلسة يحضرها للمجلس

الأعلى . وكان شاباً يفتقر إلى التجربة . وقد بدا كما قال أحد الصحفيين « ذاهلا من اتهامه » ، ولكنه رد بمنتهى الهدوء على أسئلة ممثل الاتهام ، نافياً محاولاته إقامة الدليل على وجود مؤامرة للإطاحة بالدوتشي تمهيداً للصلح مع العدو . وأنهى استجوابه قائلا بشجاعة « كان جميع الإيطاليين المسئولين ضد موسوليني وضد الحرب . ولكن لم يكن هناك اتفاق بين أعضاء المجلس الأعلى كما تقول ، ولم تكن ثمة مؤامرة . وكل ما فى الأمر أن الكأس كانت قد امتلأت حتى نهايتها ، فجاء جراندى وصب النقطة الأخيرة التى جعلتها تطفح » .

وكان جيانيتى المتهم الثالث الذى استدعى للاستجواب . وقد قال إنه سحب تأييده لاقتراح جراندى فور إعطائه له . وإن إيمانه بالدوتشي لم يخب لحظة واحدة . ولم يشر بقليل أو كثير إلى وجود مؤامرة مدبرة . وكذلك فعل جوتاردى الرئيس السابق للاتحاد الفاشى لعمال الصناعة ، الذى قال إنه اقترع إلى جانب مشروع جراندى . لأنه كان يأمل فى أن يؤدى « إلى تحرير الدوتشي من مسئوليات القيادة العسكرية الخطيرة فى ذلك الوقت الذى سارت فيه الحرب سيراً سيئاً » . ولم يعترف مارنيبيللى أيضاً بوجود المؤامرة . وكان هذا الرجل الأصم الذى بلغ الخامسة والستين من العمر ، خازناً لأموال الحزب سنوات طويلة . وقد ذكر أن صممه لم يمكنه إلا من التقاط عبارات عابرة من الخطب التى ألقيت فى اجتماع المجلس ، وكان قد وقع تحت الانطباع بأن القرار لا يحتوى على شيء يسيء إلى الدوتشي أو الفاشية ، وأنه افترض أن القرار يحظى بتأييد موسوليني نفسه . وعندما استدعى تشيانو أخيراً ، لم يومئ بشيء إلى وجود مؤامرة للإطاحة بالفاشية والدوتشي ، وقال . . . « لم يتقدم جراندى باقتراح من هذا النوع ، ولم أكن لأتصور لحظة واحدة ، بأن القرار سيؤدى إلى سقوط العهد » .

وقال ممثل الاتهام . . . « ولكنك وقعت أمر جراندى اليومى قبل ساعات من عرضه كاقتراح على الاجتماع » .

— أجل قبل بضع ساعات . ولكننى عرفت من جراندى أن سكورزا حمل نسخة منه إلى الدوتشي . وعندما تكون هناك مؤامرة للإطاحة بإنسان عن طريق الخيانة ، فإن المتآمر ، لا يحذر عادة من يتآمر عليه ، ولا يبلغه بالوسيلة التى سيستخدمها .

– ولكنك لم تقم شخصياً بإبلاغ حميك . وكان من الطبيعى أن تفعل هذا بالنسبة إلى العلاقة الشخصية التى تربطك به .

– لم يكن فى وسعى حتى أنا أن أرى موسولينى ، وقد انقضت على ستة أشهر دون أن أتمكن من رؤيته .

وانقضى ذلك اليوم بطوله بين استجواب المتهمين ومناقشتهم وتلاوة إفاداتهم ، ولكن ممثل الاتهام لم يستطع ، مطلقاً الكشف عن إشارة واحدة إلى وجود مؤامرة ، وهو ما كان يفترض منه أن يقيم الدليل على صحة وجودها . ولكن عندما انعقدت المحكمة فى الصباح التالى ، لتستأنف عملها ، عرضت على المحكمة وثيقة ، أظهرت إلى حد كبير ، أن الأعمال التى يتهم بها المسجونون ، لم تكن على ذلك النحو من البراءة ، التى حاولوا تصوير أنفسهم بها فى اليوم السابق . وكانت الوثيقة التى تلاها رئيس المحكمة بكثير من الأناة والتأكيد ، ورقة كتبها الجنرال الكونت أوجو كافاليرو ، الرئيس السابق لأركان الحرب . وقد عثر على كافاليرو ميتاً على مقعد فى حديقة عامة فى الساعات المبكرة من صباح الرابع عشر من سبتمبر وبعد بضع ساعات من تناوله طعام العشاء على مائدة الماريشال كيسلرنج فى مقر قيادته فى فراسكاتى . وكان ثمة مسدس إلى جانبه . وبالرغم من أن ثقوب العيارات النارية فى الجانب الأيسر من رأسه ، كانت فى وضع غريب بالنسبة إلى رجل منتحر ، فلم يكن الآن ثمة ما يبرر الشك فى تقرير السفارة الألمانية بأن كافاليرو قد انتحر بإطلاق الرصاص على رأسه . وكان بادوليو قد أمر باعتقاله فى نفس اليوم الذى عقد فيه اجتماع المجلس الأعلى ، وكان موسولينى قد نحاه عن منصبه من قبل ليخلفه فيه امبروزيو . وهكذا لم يكن ليثق فيه أحد الجانبين ، وكان يعرف أنه إذا عمل مع أحدهما ، فإن الجانب الآخر سيصمه بالخيانة . وكان قد اشترك إلى حدما وبصورة مترددة فى بعض المؤامرات للإطاحة بموسولينى ، وقد ذكر كيسلرنج أن فكرة لقائه من جديد بالدوتشى قد تكون هى التى دفعته إلى الانتحار . وقال رئيس المحكمة إن الوثيقة التى كتبها ، وجدت فى مكتب بادوليو بعد فرار الحكومة إلى برنديزى . ولا ريب فى أنها بالتفصيلات الوافية التى أوردتها عن المؤامرات ضد الدوتشى ابتداء من نوفمبر عام ١٩٤٢ ، هى عين ما كانت تطلبه

النيابة من دليل . وكان ثمة شك فى صحتها ، ولا سيما أن تقديمها بهذه الصورة المتأخرة إلى المحكمة يجعل الشك فيها أمراً طبيعياً ، وإن كانت الأحداث فيما بعد قد أقامت الدليل على صحة جميع الوقائع التى وردت فيها . وقد حسرت الوثيقة النقاب عن أن رئاسة الأركان العامة بالاتفاق مع الملك ، كانت تبحث جدياً فى الإطاحة بموسولينى قبل تسعة أشهر من انعقاد المجلس الأعلى ، وأن امبروزيو وبادوليو قد اتفقا على أن يكون المجلس الأعلى هو الأداة فى تحقيق مشاريعهما ، لإكساب هذه المشاريع الصفة الدستورية .

وقبل أعضاء المحكمة بوثيقة كافاليرو كدليل مادى ، واعتبروا أن الاتهام قد أقام قضيته على أساس صحيح . وانصرمت الجلسة المسائية فى ذلك اليوم ، وجلسة اليوم التالى فى الاستماع إلى الحجج الحذرة التى تقدم بها محامو الدفاع عن المتهمين ، وإن كانت نتيجة المحاكمة قد غدت الآن واضحة كل الوضوح ، إن كان ثمة شك فيها منذ البداية . وعاد رئيس المحكمة فى الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر الاثنين ليعلن أن المحكمة قررت الحكم على جميع المتهمين بالإعدام باستثناء شيانيتى الذى قضت عليه بالسجن ثلاثين عاماً .

وهتف شيانيتى . . . شكراً ، شكراً . أما مارنيبيللى فقد أغمى عليه . وهتف دى بونو بأعلى صوته «عاشت إيطاليا» وردد باريشى وجوتاردى وتشيانو الهتاف .

وجاء الكاهن الذى استمع إلى اعترافات المحكومين فى سجن ديجيلى سكانوى ، إلى السجن ثانية فى الساعة العاشرة من ذلك المساء ، ليراهم من جديد . ورفض الحراس الألمان السماح له ، فى البداية بدخول زنزانة تشيانو ، ولكنه راح يهتف إلى قيادة الجستابو مؤكداً طلبه ، فأمرت هذه رجالها هاتفياً بالسماح له بالدخول ، ليؤدى المحكوم واجباته الدينية الأخيرة .

وقبل بضع ليال ، وجد تشيانو فى زنزانته ، رفيقاً من طراز آخر . كان هذا الرفيق فتاة رائعة الجمال ، شقراء الشعر ، دفع بها الجستابو إلى زنزانته فلعلها تستطيع إقناعه ، وهو الكثير الشكوك ، فى لحظة من لحظات العاطفة أو الشهوة ، بأن يكشف لها عن المكان الذى أخفى فيه يومياته التى كتبها . لكن هذه الحيلة القديمة خلفت نتيجة غير متوقعة ، فقد فشلت هذه السيدة ، الدونا فيليسيا ، فى

إقناع تشيانو ، بأن يدلها على شيء ، وروى العقيد دولمان ، أنها وقعت فى هواه ، وبكت بكاء مراً عندما حكم عليه بالإعدام ، ثم تحولت أخيراً إلى جاسوسة للحلفاء .

ووجد تشيانو بعض العزاء فى ساعاته الأخيرة . فقد تلقى رسالة فى السجن هربت إليه من الخارج ، تقول إن زوجته تمكنت بمساعدة عشيقها المركيز اميليو بوشى من الفرار عبر الحدود إلى سويسرا ، تحمل بعض « الدفاتر » الصغيرة . التى تضم يومياته الأخيرة ، بعد أن أخفتها فى « حزام » تمنطقت به ، مخلفة يومياته الأولى مع بعض الوثائق المهمة التى تتناول العلاقات الألمانية — الإيطالية والتى كان تشيانو قد أخذها من ملفات وزارة الخارجية ، مع أحد الأطباء فى دار التمريض التى كانت تقيم فيها . وكانت إيدا قد جمعت هذه الأوراق والدفاتر من مخبئها فى رومة ، وأملت ذات يوم فى أن تساوم الألمان عليها ، مقابل إنقاذ زوجها من الموت . وبدأت المفاوضات بالفعل مع الجستابو فى إيطاليا ، ولكن عندما نمى نبؤها إلى هملر ، راح يقنع هتلر ، بوضع نهاية لها . ولم يكن تشيانو ، على أى حال ، مؤمناً باحتمال نجاحها ، وقد ذكر للكاهن الذى زاره فى الليلة التى سبقت إعدامه ، بأنه واثق حتى فى حالة نجاحها ، من أن الألمان سيدبرون له طريقة يموت فيها .

وبعد أن أدى تشيانو واجباته الدينية الأخيرة ، استحصل له الكاهن على إذن بأن ينضم إلى المحكومين الآخرين بالإعدام فى زنزانة دى بونو . وكان مارينبللى قد أصيب بنوبة قلبية ، فاستلقى على الفراش بينما ظل الآخرون يتحدثون إلى الكاهن . وقد تحدث هذا فيما بعد فقال . . . « لم نتحدث عن الحياة التى انقضت ، وإنما تحدثنا عن الحياة المقبلة ، وعن الله ، وخلود الروح . حقاً كانت ليلة ممتعة ، أشبه بليالى سقراط » . وراح باريشى يقرأ مقتطفات من أفلاطون ، أخذ الآخرون يناقشونه فيها . وذكر أحدهم اسم موسولينى ، وسرعان ما تحول الحديث لفترة قصيرة إلى محاكمتهم . وقال جوتاردى ، إن إعدامهم كخونة سيتم بإطلاق النار على أقفيتهم . وهنا صرخ دى بونو غاضباً بصورة مفاجئة ، وقد تجمعت الدموع فى عينيه . . . « هذا كثير . فقد ارتديت بزة الجندية اثنين وستين عاماً على التوالى ،

دون أن ألوثها بلوثة واحدة » .

وجاءت الأنباء عند الفجر بأن موعد التنفيذ قد تأجل . وكانوا جميعاً قد وقعوا فى الليلة الفائتة طلباً بالاسترحام ، وعد بافولينى بتسليمه إلى موسولينى وكان من المتوقع أن يصدر عفوه عن دى بونو على الأقل . وساور الأمل أفئدة المسجونين بعض الوقت ، ولكن دى بونو هز رأسه قائلا . . . « إنه أمل لا جدوى منه . واذكروا أن جاليازو بيننا » . وقد حرص بافولينى فى الواقع على عدم تقديم الاسترحام إلى موسولينى ، ليجنب الدوتشى كما قال « مشقة تصديق حكم الإعدام » .

وجاء ضابط ألمانى فى الساعة الثامنة صباحاً إلى السجن يقول إن « المصاعب الفنية » قد ذللت ، وأن التنفيذ سيتم فى غضون ساعة على بعد بضعة أميال خارج فيرونا فى قلعة بروكولو . ونقل المحكومون فى سيارة إلى هناك تحت حراسة الجنود الألمان . وفقد تشيانو فى نوبة هياج زمام السيطرة على أعصابه ، وراح يشتم موسولينى ويلعنه أقذع اللعنات ، إلى أن وضع دى بونو يده على كتفه قائلا له بأن عليه أن يستقبل ربه وقد غفر للمسيئين إليه .

وكان الصباح قرًّا شديد البرودة ، مما دعا دى بونو إلى أن يفرك يديه بعنف وهو يخطو من السيارة إلى صف من المقاعد المدرسية ، كان المحكومون سيشدون إليها وقد أعطوا ظهورهم للثلة التى ستطلق النار . وكان تشيانو قد عاوده هدوؤه من جديد فأشار إلى المقعد الأيمن وقال . . . « هذا مقعدك يا ماريشال ، فهو من حقك » .

ورد دى بونو قائلا . . . « لا أعتقد أن ثمة أهمية للأسبقية فى الرحلة التى سنمضى إليها بعد لحظات » .

وطلب الرجلان من ضابط الشرطة الذى يقود ثلة إطلاق النار ، أن يواجها البنادق بصدريهما ، ولكنه رفض طلبهما . وأغمى على مارينيللى من جديد ، وحمل إلى مقعده حملا . وخلع باريشى معطف الفراء الذى كان يرتديه وقدمه إلى الجندى الذى كان يشد وثاقه إلى المقعد . وتمتم جوناردى بضع كلمات لم يسمعها أحد ، ولعله كان يصلى . وكانت السماء متلبدة بالغيوم ، وشك مولر ، المصور الألمانى ، فى أن الصور التى سيلتقطها ستكون واضحة . وبينما كان يضبط عدسته ، هتف

دى بونو « عاشت إيطاليا » .

ورد تشيانو هاتفاً . . . عاشت إيطاليا .

وصدر الأمر بإطلاق النار ، وأعدم الرجال الخمسة . وتمكن تشيانو فى اللحظة الأخيرة من الإفلات من وثاقه ، وواجه جلاديه . ولم تكن إصابتهم له دقيقة فلم يمت ، وتقدم إليه ضابط الحرس ، فأفرغ رصاص مسدسه فى رأسه . وظهر فى صنورة موللر ، وجه تشيانو بمنتهى الوضوح ، وقد علاه الهدوء ورباطة الجأش .

وكان تشيانو قد قال لكاهنه . . . « لقد جرفتنا نفس العاصفة . وكل ما أرجوه أن يعرف أولادى أننى مت لا أحمل حقداً على أى إنسان » .

٢

ورأس موسولينى بعد ساعتين جلسة مجلس الوزراء ، وبادر وزراءه قائلا بتجهم . . . « أخذت العدالة مجراها » .

وكان قد قضى كعادته فى هذه الأيام ليلة قلقة لم يذق جفنيه فيها طعم الكرى . وروى سكرتيره جيوفانى دولفين ، أنه تحدث بالهاتف فى الساعة الواحدة صباحاً ، طالباً أنباء ابنته إيدا ، والرجال المحكومين فى فيرونا . وتحدث فى الساعة السادسة بالهاتف إلى الجنرال ولف . ويبدو أنه كان متلهفاً على أن يظهر بمظهر الإنسان الهادئ الذى لا يتأثر بعواطفه ، إذ ظل يتحدث إلى الجنرال الألمانى ساعة كاملة بمنتهى اللطف والود . وروى كل من العقيد دولمان والهر موهلاوزن رئيس القسم السياسى فى السفارة الألمانية ، أنه لم يذكر طيلة الحديث شيئاً عن « المأساة الوشيكة الوقوع » . وذكر وولف لموهلاوزن ، أنه يعتقد بأن موسولينى أجرى هذا الحديث الهاتفى الطويل . . كوسيلة يقضى بها تلك الساعات الحرجة ، وتحول دون ضعفه وانهياره » .

وعندما جاءه دولفين يبلغه أن التنفيذ قد تأجل ، هز رأسه ، متمتماً بعبارة أو عبارتين ، ثم مضى يكتب على مكتبه . وأدرك السكرتير أن الدوتشى يبذل جهداً بالغاً ، للحفاظ على تظاهره بعدم الاهتمام . ونقلوا إليه بعد ساعة أن الخونة

قد أعدموا ، فاستقبل النبأ بصمت . محاولا أن لا يفضح عواطفه العميقة ، التى خيل لدولفين أنها سيطرت عليه . وكان قد قال فى الليلة السابقة وكأنه يعتذر . . . « لم أكن فى يوم ما متعطشاً للدماء . أما تشيانو فقد مات بالنسبة إلى منذ أمد طويل » . وراح يعلق الآن باقتضاب وبشىء من التجهم ، على ما نقلوه إليه عن استقبال المحكومين للموت ، فأعرب عن سعادته لأن يعرف بأن صهره والآخرين قد ماتوا كإيطاليين شجعان وكفاشيين . ولكنه عندما مضى إلى مكتبه ، دون أن يتناول من الطعام شيئاً ، كان يبكى بحرقة ، كما روت زوجته راشيل . وراح يقول بشىء من اليأس لسكرتيره دولفين ، وقد تحطم ستار الجمود الذى فرضه على نفسه أخيراً . . . « سنفقد عطف الشعب الإيطالى ، ولن يفهم هذا الشعب أبداً حقيقة ما أعانيه من عذاب » .

وتحولت تلك التقلبات فى المزاج التى طبعت حياة موسولينى فى السنوات الأخيرة ، والتى تميزت بعدم الثبات والدوام ، بعد محاكمة فيرونا ، إلى حالات أكثر ظهوراً ، وأكثر تكراراً . وراح موسولينى يقول فى اليوم الذى تلا تنفيذ الإعدام ، لوكيل وزارة خارجيته . . . « أما وقد بدأنا دحرجة الرؤوس على الرغام ، فسنمضى فى طريقنا هذا حتى النهاية » . وراح يصدر أوامره إلى رئيس شرطته تامبمورينى باعتقال كافة الفاشيين غير الموثوقين الذين ضمن أسماءهم قائمة سلمها إليه . ولكن لم تمض أيام على هذا الأمر ، حتى كان قد غير فكره ، فراح يلغى أوامره السابقة إلى تامبمورينى ، متحدثاً عن الصفح والغفران . وكان فى هذه الآونة ، كثيراً ما يبدو وقد فقد كل رغبة له فى الحكم ، حاصراً تفكيره فى ماضيه وفى مكانه فى التاريخ . وكان المصورون والصحفيون الذين يفدون لمقابلته ليقيموا الدليل للشعب على أنه ما زال حيًّا يرزق ، يحاولون أن يظهروه ، وكأنه لم يفقد شيئاً من حماسه الروحى السابق والمتقد ، ولكنهم كانوا يعترفون فى أحاديثهم الخاصة ، بأنه كان يبدو قلقاً ، مغلوباً على أمره . وكان مظهره الصحى ، قد تحسن كثيراً عما كان عليه عندما أنقذ من سجنه فى فندق « الصخرة العظيمة » . وكان يرد بجرأة على أسئلة الصحفيين ، وينظر بقوة وثبات إلى عدسات المصورين ، ولكن العدسات لا تكاد تختفى ، وأوراق الصحفيين لا تكاد تبعد عنه ، حتى يعود إلى

حالة التبلد التى أصبحت ترافقه فى هذه الأيام . وسأل ذات يوم العقيد دوللمان ، عما إذا كان صحيحاً ، ما يقال ، من أن أصبعاً واحدة لم ترتفع فى رومة لنصرته بعد اعتقاله ، فلما رد عليه هذا بالإيجاب معترفاً بالحقيقة ، قال ، وقد استبد به الغضب ، إنه يستطيع أن يغفر للشعب مثل هذا النكران للجميل . ومضى يقول . . . « لم يفعل إنسان لرومة منذ أيام يوليوس قيصر ما فعلته لها . ولن أعود إلى قصر البندقية إلا كما يعود الفاتحون » . ولكنه نسى فى اليوم التالى غضبه وزهوه ، وعاد يغوص فى حالة السبات التى تنتابه فى يقظته .

وكان يقضى الساعات الطوال فى قراءة الصحف ، متطلعاً بلهفة ، إلى خبر ينشر عنه ، ومقتطعاً منها المقالات التى تخصه مباشرة ، حتى تلك التى نشرتها صحف رومة فى أوقات أسره ، والتى تضمنت قصصاً مثيرة ملفقة عن حياته الخاصة ، وعن خليلاته المزعومات . وكان يضع رقماً من هذه المقالات ، ويؤشر عليها بقلمه الأزرق . وكان يكثر من اختلاق الأعذار لفشله ، وإضاعته للإمبراطورية التى أقامها . وكان ينحى بالملامة على الجميع ، لا يستثنى أحداً ، فلومه ينصب على قدم المساواة على البريطانيين والأمريكيين والألمان والإيطاليين والماسونيين والبورجوازيين واليهود ومتآمرى الخامس والعشرين من يوليو ، وإن كان اللوم فى رأيه يقع أول ما يقع على الملك . وراح ذات يوم يلقى خطاباً فى عرض للجنود الفاشيست فى جوادريا ويقول . . . « لو لم يقع الانقلاب لما كنت اليوم فى ضاحية من ضواحى بريسكيا ، بل لكنت فى أحد ميادين القاهرة »[١] .

وكتب وزيره للثقافة الشعبية فيرناندو ميزاسوما يقول ذات يوم . . . « إنه لا يفكر إلا فى التاريخ ، وفى الصورة التى سيحملها له » .

وكان يقضى الساعات الطويلة أيضاً ، يحاضر وزراءه وزائريه ويدوخهم بأفكاره التاريخية والسياسية ، مستخدماً الإشارات والتعبيرات الضخمة التى كان يستعملها فى شبابه . وكان يشهد ذات يوم مؤتمراً للحزب فى مقره الرئيسى فى دارة كافاليرو ، فأحس بالملل ، وهب من مقعده ، ثم أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، إلى أن توقف فجأة ، وقد ضم ذراعيه إلى صدره وقال بشىء من الجد . . . «وما هى الفاشية ؟ » .

---

(١) حلم استعمارى — عاش عليه موسولينى ولكنه لم يتحقق .

وكان من الواضح أنه سؤال بيانى ، إذ أنه راح يرد على السؤال قائلا . . . « إنه سؤال لا يرد عليه إلا بطريقة واحدة وهى أن الفاشية هى الموسولينية . علينا ألا نخدع أنفسنا . فليس فى الفاشية كعقيدة أى جديد ، وإنما هى ثمرة الأزمة الحديثة ، أزمة الإنسان الذى لا يستطيع أن يظل محصوراً ضمن القيود العادية للقوانين الراهنة . وفى وسع الإنسان أن يطلق عليها اسم اللاعقلانية » . وقال فى يوم آخر ، إنه لم يخلق الفاشية ، وإنما كل ما فعله هو أنه استغل الميول الفاشية الكامنة فى نفوس الإيطاليين . ومضى بعد ذلك يقول . . . « ولو لم تكن هذه هى الحقيقة ، لما تبعنى الناس عشرين عاماً . فالشعب الإيطالى شعب ضعيف قلب . وعندما أمضى عن هذه الحياة ، سيتساءل المؤرخون وعلماء النفس ، بكل تأكيد ، عن الطريقة التى تمكن فيها رجل واحد ، من قيادة مثل هذا الشعب مدة طويلة . ولو لم أفعل شيئاً سوى هذا ، فإن هذه المأثرة يجب أن تكون كافية لئلا يبتلعنى النسيان فى أعماقه . وقد يتمكن البعض من الانتصار بالسيف والنار . ولكنهم لا ينتصرون بموافقة شعوبهم ، كما انتصرت أنا . . . وعندما يقول البعض إننا كنا الحرس الأبيض الذى يدافع عن البورجوازية ، فإنهم يكذبون دون أن يحسوا بالخجل والعار . وقد عملت ، وأنا أقول هذا بضمير مستريح ، على النهوض بالعمال ، أكثر مما عمل أى إنسان آخر . . . وجعلت من الديكتاتورية شيئاً نبيلا . ولكننى لم أكن فى الواقع ديكتاتوراً ، لأن سلطتى لم تكن أكثر من تجسيد لإرادة الشعب الإيطالى » .

ومضى على هذا النحو فى حديثه . يزداد غموضاً والتواء ، ويلف معانيه بتعابير غير واضحة ، إلى أن أصبح سامعوه ، لا يستطيعون فهم ما كان يقوله ، وكانوا يشكون فى أنه يفهم حقًّا ما يقوله . وفى مرة أخرى ، وكان يتحدث عن الدفاع عن رومة ، راح يلقى خطاباً مطولا عن « انهيار فرنسا عضويًّا وحياتيًّا » . وكان فى مرات أخرى ، يعود فى أحاديثه إلى ما كان يقوله قبل سنوات طويلة كاشتراكى ، مستبعداً ما طرأ على الفاشية من تطورات أخيرة وصفها بأنها « مصيبة سياسية » . وقال ذات يوم لنيقولا بومباكى . . . « إننا خسرنا كل شىء ، دون أن يكون لدينا مجال للاستئناف . وسيحكم علينا التاريخ فى يوم ما قائلا إننا شيدنا

أبنية عدة ، وأقمنا جسوراً كثيرة عبر عدد من الأنهر ، ولكنه سيجد نفسه مضطراً إلى الوصول فى النهاية ، إلى أننا كنا من ناحية الروح « بيادق » عادية على لوحة شطرنج الأزمة الأخيرة للضمير الإنسانى ، وأننا ظللنا نمثل هذا الدور حتى النهاية .

أصبح هذا هو التقويم المألوف الذى بات يردده دائماً . وقد اعترف ذات يوم فى إحدى هذه اللحظات التى كان يعكف فيها على التحليل والنقد الذاتيين بقوله . . . « سلمنا أنا وهتلر أنفسنا إلى أوهامنا كزوج من المجانين . ولم يبق أمامنا إلا أمل واحد ، وهو أن نخلق الأسطورة » . لكن الآخرين لم يكونوا فى حاجة إلى خلق الأسطورة ، إذ أن أعمالهم خلدها التاريخ . وكثيراً ما تحدث عن هؤلاء الناس من أمثال فردريك الكبير ونابوليون وجورج واشنطن وبسمارك . وعن أبناء جلدته من الإيطاليين من أمثال جاريبالدى[1] ، ومازينى . وجيوليتى[2] وكريسبى[3] ، الذين تتشابه ظروف حياتهم مع حياته . وكثيراً ما تحدث أيضاً عن معاصرين من أمثال بييترونينى ، الذى ظل رغم كل ما قيل وكل ما وقع إيطالياً صالحاً ، ودينوجراندى ، الذى « كان بالرغم من كل شىء خير من أنجبته الفاشية من أبنائها » ، وبريان[4] « السياسى الوحيد الذى رغب صادقاً فى إقامة اتحاد ائتلافى (فيدرالى) أوربى دون اللجوء إلى القوة المسلحة » ، وأنطونى إيدن الذى كان يكرهه ، وروزفلت الذى كان يحتقره ، ولانز بورى[5] وهو ولويد جورج من الذين كان يميل إليهم ، وستالين الذى كان يحسده وتشرشل الذى كان يعجب به كل الإعجاب . ولم يكن يستطيع على أى حال ، إخفاء غيرته من انتصارات

---

(١) جيوسيبى جاريبالدى وطنى إيطالى وقائد عسكرى (١٨٠٧ – ١٨٨٢) – تولى قيادة الحملة المشهورة باسم حملة الألف ولعب دوراً كبيراً فى وحدة إيطاليا .

(٢) جيوفانى جيوليتى (١٨٤٢ – ١٩٢٨) – شغل الوزارة عدة مرات ، وكان رئيساً للوزراء . أدخل إصلاحات عدة لمصلحة الطبقات الدنيا وتناولت إصلاحاته النواحى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

(٣) فرانسيسكو كريسبى (١٨١٩ – ١٩٠١) – سياسى إيطالى ومن الذين لعبوا دوراً كبيراً فى الوحدة الإيطالية ، ألف الوزارة عدة مرات ، وكان له نفوذ ضخم فى السياسات الإيطالية .

(٤) ارستيد بريان (١٨٦٢ – ١٩٣٢) – سياسى فرنسى مشهور . ألف الوزارة عدة مرات واشتهر بميثاق بريان – كيلوج الذى لعب دوراً بارزاً فى السياسات الأوربية .

(٥) جورج لانزبورى (١٨٥٩ – ١٩٤٠) – زعيم حزب العمال البريطانى قبل كليمنت أتلى .
« المعرب »

تشرشل فى كثير من الأحايين . وقد قال عنه ذات يوم . . . « إنه لا يفهم الروح الأوربية ، ولا يفهم شيئاً حقًّا ، إلا ما يحتاج إليه هؤلاء الإنجليز . لكنه رجل الساعة ، لأنه يكره الألمان » . وكانت مزيته العظمى فى نظره بالطبع ، أنه لم يكن سياسيًّا بقدر ما كان قرصاناً من قراصنة البحر . « فهو رجل عجوز عنيد ، حرون ، لا يتزحزح عن رأيه » ، وكثيراً ما قال عنه لميزاسوما بشىء من الاحترام الذى يكاد يشبه الحب . . . « إنه يشبه والدى إلى حد كبير » .

ولم يكن يتحدث دائماً بمثل هذه الصورة البعيدة عن الحزازات والمغرقة فى التسامح ، فقد كان مجرد ذكر اسم إنسان أمامه . يستفز لديه شعوراً طاغياً من الغضب . وكان اسم فاريناتشى أحد تلك الأسماء التى لم يكن يطيق مجرد ذكرها أمامه . وقال ذات يوم لدولمان غاضباً . . . « لا تذكره أبداً . إنه يريد أن يخلفنى » . وقال مرة ثانية عندما تناول الحديث رجلا فاشيًّا آخر لم يكن يحبه . . . « لا تذكر اسمه » . واستطرد وهو يعض بعصبية على نواجذه . . . « إن سماعى باسمه ، يهيج أعصابى » . وكان يغلى ذات يوم بالغضب والهياج ، فأراد ميزاسوما أن يصرف اهتمامه إلى موضوع يستهويه ، وقال . . . « وأنت يا دوتشى ؟ ما رأيك فى نفسك ؟ »

وقال وهو يبتسم تلك الابتسامة التى كان يتعمد أن تبدو مغاقة ، والتى كان يلجأ إليها دائماً عندما يريد الإفضاء بإحدى تعبيراته الجديدة . . . « أنا ؟ أنا لست بالسياسى ، وإنما أنا أقرب إلى الشاعر المجنون » .

وكان يود لو كان شاعراً ، كما كان هتلر يود أن يكون رساماً عظيماً ، وكما كان يبدو أن معظم الديكتاتورين يتظاهرون بالمواهب الفنية . وكان يود أن تكون لديه مواهب دانونزيو الخيالية أو مواهب بودلير [١] أو ريمبو [٢] ، وكان يتحدث

---

(١) شارل بيير بودلير (١٨٢١ – ١٨٦٧) – شاعر فرنسى كبير . توفى والده بعد ولادته . وتزوجت أمه من الكولونيل أوبليك الذى أمن للفتى دراسة عالية فى أرقى المعاهد . قضى حياة بوهيمية فى باريس ، ومات متأثراً من الشلل الذى أصيب به . له عدد من دواوين الشعر ، ويعتبر زعيم الفترة الأخيرة من الحقبة الرومانطيقية فى الشعر الفرنسى .

(٢) جان أرثر ريمبو (١٨٥٤ – ١٨٩١) – شاعر فرنسى . أبرز مواهب رائعة منذ حداثة سنه عاش حياة بوهيمية وزاول عدداً من المهن . يعتبر من رواد السيريالية والرمزية فى الشعر الفرنسى . خلف عدداً من دواوين الشعر . « المعرب »

عن هؤلاء الرجال بكثير من الاحترام ، إن لم يكن دائماً بكثير من التمييز والإبراز . ولكنه لم يكن شاعراً ولا حتى من الطراز الذى ظن نفسه فيه . وكان يكتب الكثير الآن ، كما كان يفعل دائماً . وقد أنشأ وكالة أنباء أسماها « وكالة الأنباء الجمهورية » تتولى نشر مقتطفات من كتاباته الجدلية ، كما كتب سلسلة من المقالات عن تاريخ حياته لصحيفة « كوريرى ديلاسيرا » ، ما لبثت أن توسعت فأصبحت كتاباً ، وترجم إلى الألمانية ترجمة إيطالية لأغنية شعبية ألمانية ليقارن بين ترجمته وبين الأصل الألمانى ، كما كتب بعض المقالات لمجلة مدرسية . لكن أيًّا من هذه الكتابات لم يكن من إنتاج شاعر مجنون كما وصف نفسه .

وكان يحس بأنه يدنو من هذا المثل الأعلى الذى أراده لنفسه . عندما كان يعزف على قيثارته . وكثيراً ما سمع يقول . . . « إن العزف يقربنى من لحات الخلود . فعندما أعزف ، أحس وكأن العالم ، قد فرّ منى » . وكان يعزف دون روعة ، ولكن بقوة ، وأحياناً بشىء من الجنون المتوحش الذى يوحى بما يحس به هذا العقل العظيم المضطرب من ألم . وتقول مرجريتا سارفاتى . . . « كان ديكتاتوراً حتى فى موسيقاه . فلم يكن يحترم الأسلوب أو الشكل . وكانت له تعابيره وطريقته ، فهو يعزف بالأسلوب الذى اختاره لنفسه » . وكثيراً ما أغلق باب غرفته على نفسه فى دارة فيلتر نيبلى ، ليعزف المقطوعات التى يحبها لبيتهوفن . وواجنر وشوبير وفيردى ، وكثيراً ما وقف وحيداً فى حديقة الدارة إلى جوار أسوارها الرخامية الزرقاء ، يعزف على قيثارته بقوة وعنف كان حراسه الألمان يعتبرونهما دليل عبقريته . وفى ذات يوم راح يعزف لبعض الضباط الألمان فى أنقاض منزل دمرته غارة جوية مقتطفات من « كونشيرتو » بيتهوفن ، وعندما انتهى من عزفه ودوت أكفهم بالتصفيق أغمض عينيه فى نشوة ظاهرة .

وكان يحس بحاجة خاصة إلى ذلك الطراز من الهروب العاطفى الذى يؤمنه له العزف فى الجو الخانق الذى تحيطه به أسرته . وقد كانوا جميعاً تقريباً فى الدارة طيلة الوقت ابتداء من يناير عام ١٩٤٤ ، وفى مقدمتهم فيتوريو المتغطرس وغير المحبوب مع زوجته وأطفاله ، وجينا أرملة برونو وأطفالها ، ورومانو ولده

الثالث والطالب فى المدرسة ، وآنا ماريا صغرى بناته[١] . وكان الأستاذ زاخارى يعيش فى المنزل أيضاً مع الملازم ديشيروف وهو ضابط فى الثانية والعشرين كان يعمل كضابط ارتباط بأمر من هتلر شخصيًّا . وقد وصفت راشيل فى كتابها عن تاريخ حياتها ، الجو فى المنزل ، بأنه كان فى منتهى السعادة ، ولكن الألمان لم يكونوا يشتركون معها فى هذا الرأى . فقد كان رومانو يتعلم العزف على « الأكورديون » ، وكان يملأ البيت بأنغامه النشاز . وكانت « الكتتان » كثيراً ما تتشاجران . وأقنع فيتوريو والده بأن يستخدم اثنين من أصدقائه معه ومع ابن عمه فيتو فى أعمال السكرتارية ، كسكرتيرين إضافيين يفتقرون إلى الكفاية . وكان الأحفاد يصرخون ويتشاجرون ويملأون البيت صراخاً منادين لخدمهم الدوتشى ، بينما كانت راشيل تقتل سخطها ومللها ، بالجلوس صامتة أحياناً ، والانفجار أحياناً فى عواصف من التذمر والاحتجاج . وكانت مشكلتها أنها تلقت رسائل غفلا من التوقيع ، تقول إن كلاريتا بيتاتشى التى كانت قد أملت فى أن تكون قد اختفت من حياة زوجها إلى الأبد . قد عادت إليه الآن ، وأنها تعيش فى دارة قريبة من البحيرة . ولم تكن قد سمعت عن كلاريتا ، إلا ليلة الخامس والعشرين من يوليو عندما غادرت دارة تورلونيا فى رومة خوفاً من هجوم الدهماء ، ولجأت إلى كوخ بواب الدارة ، حيث تحدث إليها أحد الخدم عن خيانة زوجها القديمة العهد لها مع كلاريتا . وقد قال هذا الخادم فيما بعد . . . « كم أود لو لم أبلغها ، فقد أذهلنى أنها لم تكن تعرف شيئاً عن موضوع كلاريتا » .

وكانت كلاريتا قد خرجت مع أسرتها من رومة بعد أن سمعت باعتقال موسولينى ، ولكنها اعتقلت فى الثانى عشر من أغسطس عندما كانت فى منزل زوج شقيقتها ميريام ، المركيز بوجياتو ، الواقع على بحيرة ماجيورى . وسجنت مع والديها وشقيقتها ميريام فى سجن قلعة فيسكونتى فى نوفارا ، حيث كانت

---

(١) كان فيتوريو مشغولا فى السنوات الأخيرة فى صناعة السينما التى لم يحقق فيها نجاحاً يذكر . وهو يعيش الآن فى أمريكا الجنوبية . أما آنا ماريا فقد تزوجت مؤخراً فى إيطاليا . ويدير رومانو فرقة لموسيقى « الجاز » الراقصة .

تقضى وقتها تكتب يومياتها مسجلة أحزانها لفراق « بين » وحبها العظيم له . وكتبت ذات يوم فى إحدى هذه اليوميات التى تعتبر نموذجاً لما كانت تكتبه فى تلك الأيام تقول . . . « أحس كأننى عصفور ، وقع خطأ فى طريق مسدود ، فهو يضرب رأسه بالجدار أمامه فزعاً خائفاً » . ويبدو أنها لم تقنع بمثل هذه اليوميات الرومانطيقية ، إذ راحت تبعث فى كل يوم برسالة إلى قصر البندقية آملة فى أن تصل رسائلها بطريق أو بآخر إلى موسولينى . وفى إحدى هذه الرسائل . . . كتبت تقول « لا أدرى إن كانت رسالتى هذه ستصل إليك ، أو إن كانوا سيقرأونها . أجل لا أدرى ، ولا يهمنى إذا قرأوها . وقد كنت فى الماضى أخجل من أن أحدثك عن حبى ، أما اليوم ، فأنا أريد أن يسمع العالم كله ، منى بأعلى صوتى ، أننى أحبك ، بل أحبك أكثر من أى وقت مضى » .

وكانت لا تزال فى سجنها تكتب بمثل هذا الهوس الذى لا يشبع من الكتابة عندما طار حبيبها عائداً إلى إيطاليا من مونيخ . وقررت أن تعود إليه . ونقلت الراهبات اللائى كن يتولين حراستها ، رسالة منها إلى أخيها مارسيلو الذى مضى بدوره إلى مقر القيادة الألمانية فى نوفارا . وسرعان ما أطلق سراح أفراد الأسرة جميعاً ، وبعد أيام ، حملتها سيارة عسكرية ألمانية من الفندق الذى نزلت فيه فى ميلانو للاجتماع بموسولينى . وعندما عادت إلى الفندق ، كانت تكاد تطير من السعادة والفرح . وقالت لأهلها ، إنه سمح لها بالعودة إليه ، وأنها ستجتمع إليه فى كل يوم ، بعد أن يعثروا لها على بيت مناسب على بحيرة جاردا . وسرعان ما أعد بوفارينى — جيدى ، العدة لنقل أسرتها إلى دارة فيوردااليزو فى أراضى إقطاعية دانونزيو ، وكانت الدارة بيتاً واسعاً كئيباً ، كانت السلطات قد أحالته إلى متحف . وأعطوها غرفة جلوس فى برج دارة دانونزيو نفسها المسماة بفيتوريالى ، وخصصوا لها ضابطاً ألمانياً يقوم على حراستها خوفاً من رجال المقاومة السرية . وبالرغم من أنها كتبت إلى أختها تعرب عن شكرها لحرص الألمان عليها ، لتعيينهم مثل هذا الحارس الشاب الجميل ، الذى مالت إليه ، ليتولى حراستها ، إلا أن الرائد فرانز سبوجلر ، كان جاسوساً عليها أكثر منه حارساً . وكانت مهمته الأساسية أن يبعث إلى رئاسة الجستابو فى فيينا بتقرير أسبوعى عن كلاريتا

بيتاتشى ، إذ كان يظن أن تأثيرها على الدوتشى قد لا يكون نافعاً .

ولم يكن موسولينى يرى عشيقته فى الواقع إلا لماماً . فقد أصبحت غضبات راشيل النابعة عن الغيرة شيئاً لا يطاق ، مما دعا إلى التقليل من زيارة كلاريتا . وكان لا يذهب إلى الفيتوريالى ، حيث تقيم إلا نادراً فى الأمسيات وبعد أن يجن الليل ، حيث لا يقضى إلا وقتاً قصيراً . وكان يمضى إلى المكان فى سيارة « فيات » صغيرة ، مخلفاً سيارته الرسمية « الالفاروميو » أمام المدخل الرئيسى لمكتبه فى فيلا ديل أوسولينى . وكانت اجتماعاتهما حزينة وقصيرة على حد تعبير كلاريتا . فالمكان رطب وبارد ، والغابات المحيطة به ملأى بالجنود الألمان . وهكذا ضاعت السعادة ، ولم يعودا يذوقان طعماً للعزلة . وقد أبلغها مرتين أنه لن يعود إلى زيارتها ، ولكنها كانت تبكى بين أحضانه ، متوسلة إليه أن لا يهجرها ، فكان يضعف أمامها ، ويعدها بالعودة .

وعجزت راشيل ذات يوم عن السيطرة على عواطفها وكبت غيرتها . فعزمت على أن تضاعف من شقاء كلاريتا ، وأصرت على أن يأخذها بوفارينى — جيدى ، لترى خليلة زوجها . ووصلت راشيل إلى الفيتوريالى ، وهى ترتعد من الغضب . وأطالت كلاريتا عليها الانتظار ؛ ثم هبطت إليها ترتدى ثوباً فضفاضاً ، وبرفقتها الرائد سبوجلر . وكانت تبدو شاحبة وفى منتهى الإعياء ، وجلست إلى مقعد ، تلوى منديلا بين أصابعها ، ولم ترد على راشيل وهى تطلب إليها أن تترك زوجها وشأنه . وثارت راشيل لصمتها ، فتقدمت منها وهى تكاد تجن من الغضب وأمسكت بكم ثوبها . وهنا انفجرت كلاريتا باكية تقول . . . « إن الدوتشى يحبك يا سيدتى . ولم يسمح لى قط أن أذكرك بكلمة سوء أمامه » .

وأصيبت راشيل بما يشبه الذهول ، ولكن عندما عرضت عليها كلاريتاصوراً مطبوعة من الرسائل التى كان موسولينى قد بعث بها إليها ، عاودها الغضب وقالت صارخة . . . « أنا لا أريد رسائل مطبوعة ، فلم أجئ لهذا . . . »

وقالت كلاريتا . . . ولكن لم جئت يا سيدتى ؟

وظلت راشيل صامتة لحظة طويلة . . . وروت كلاريتا فيما بعد تقول . . . « وظلت تنظر إلى ، وقد وضعت يديها فى خصرها . وسرعان ما انهالت على

بالسباب والشتائم ، ووجهها يزداد حمرة لحظة بعد أخرى » .

وقررت كلاريتا أن تتحدث بالهاتف إلى موسوليني . . .

وقالت له . . . « اسمع يا بين . إن زوجتك هنا . ماذا تريدني أن أعمل ؟

وخطفت راشيل منها السماعة ، وأجبرت زوجها على الاعتراف بأنه كان يعرف أمر زيارتها . واشتد غضبها الآن إلى درجة الجنون ، وقالت لكلاريتا ، إن الفاشيين يكرهونها أكثر من كراهية رجال المقاومة السرية ، وأغمى على كلاريتا مرتين ، واضطر بوفاريني – جيدى ، إلى الإسراع بحثاً عن « النشادر » لتستفيق من إغمائها . وعندما أفاقت ، راحت تجلس إلى مقعدها وهي تبكي بحرقة . وخيل إلى سبوجلر أن راشيل كانت تبكي أيضاً عندما غادرت المكان .

وهكذا وجد موسوليني نفسه ، وقد ضايقه الشجار بين زوجته وخليلته ، ومل من المعارك بين زوجتي ولديه ، وسئم وزراءه الذين يضجرونه بتفاصيل لم تعد تهمه في قليل أو كثير ، راغباً في الوحدة متلهفاً عليها . وكان لا يغادر فراشه في الأسابيع القليلة الأولى من إقامته في جرجنانو قبل الساعة العاشرة صباحاً ، ولا يترك منزله إلى مكتبه في دارة أورسوليني قبل الحادية عشرة والنصف أو الثانية عشرة . ولكن لم يحل ربيع عام ١٩٤٤ ، حتى كان قد أصبح يبكر شيئاً فشيئاً في موعد استيقاظه ، وكثيراً ما وصل إلى مكتبه قبل الساعة الثامنة حيث يظل حتى الثانية ظهراً ، ليعود بعدها إلى منزله ، حيث يتناول غداء خفيفاً يفرغ منه كوجباته الأخرى بسرعة هائلة ، مغادراً قاعة الطعام قبل أن يكون الآخرون قد شرعوا في تناول طعامهم . وكان يعود ثانية إلى مكتبه أو يجلس في غرفة الاستقبال السيئة الأثاث ، والزخرفة ، حيث يستقبل زائريه ، فلا يعود إلى منزله قبل الثامنة أو التاسعة مساء .

وبالرغم من أنه كان يقضي الساعات الطوال وهو جالس إلى مكتبه ، فإن القضايا التي كانت تشغل تفكيره حقاً كانت ذات طابع فلسفي أو شخصي ، ولم تكن من القضايا العملية أبداً . ولم تكن مشاكل الحكم تشغله إلا لماماً ، فيغرق فيها مفكراً ، ولكن هذه القضايا لم تكن في الواقع من النوع الذي يستحق منه كل هذا الاهتمام الفجائي .

فقد كان منصرفاً بالغ الانصراف فى اهتمامه وتصميمه ، إلى الحصول على اعتراف الفاتيكان الرسمى بعهده ونظام حكمه . وقد ذكر ذات يوم إلى بعض أصدقائه بشيء من الإجهاد أنه لا يستطيع المضى فى الحكم دون هذا الاعتراف ، وإن كان يعرف أن عمل حكومته لن يحظى بمزيد من النجاح من جراء اعتراف الفاتيكان بعهده . كانت القضية موضوع كبرياء شخصية ، إذ بدأ يحس بالمهانة من جراء تردد البابا فى الاعتراف بحكومته وأصبحت القضية تؤلف لديه كابوساً ، مما حمله على أن يعلن أن صبره قد نفد ، وأنه قد يعلن إلغاء الاتفاقات السابقة مع البابوية ، ويقيم كنيسة منفصلة عن الفاتيكان . وتطرف فى اتجاهه هذا ، إلى حد الشروع فى دراسة مؤهلات بعض القسس على أسس سياسية ، لاحتلال مراكز المطارنة ، ولم يثنه عن عزمه المتهور هذا إلا الألمان الذين لم يكونوا راغبين فى أن تزداد علاقاتهم السيئة مع البابوية تردياً بسبب هذا الموقف .

وكانت القضية الأخرى التى تثير اهتمامه فى هذه الأيام وتلهب حماسته ، هى أنه كان يرى فى نفسه رجلا لم يفقد فى قرارة فؤاده قط تلك المبادئ الاشتراكية التى آمن بها فى شبابه . وبالرغم من أن معظم وزرائه ، كانوا يستنكرون فى مجالسهم الخاصة هذا الإيمان المتجدد فى الاشتراكية الصحيحة ، ويعتبرونه اتجاهاً خاطئاً إلا أنهم ما كانوا ليشكوا قط فى إخلاص هذا الإيمان وصدقه . ولم يكن هذا الإيمان بالطبع مجرد نزوة طارئة يتحمس لها ، وإنما ظل حيًّا معه حتى النهاية . وكان يغرم بالقول دائماً . . . « إن الاشتراكية هى حجر الزاوية فى الجمهورية » . وكانت مثل هذه الأقوال تثير الفزع عند الألمان وعند الصفوة الفاشية الجديدة وعند كل التخوف من محاولة موسولينى فى توسيعه الصورة الفاشية الجمهورية التى يرسمها عن طريق التنازل ، تقدم تنازلات خاضعة لليسار ، وهى تنازلات تصل حدود إزالة المثل الفاشية ، وبينها بالطبع ، بل لعله أكثرها فجيعة ، المثل الذى يقول بأسطورة الدوتشى كرجل أسمى (سوبرمان) .

وكان التركيب المذهبى للجمهورية الاشتراكية قد وضع فى فيرونا فى الرابع عشر من نوفمبر عندما انعقد المؤتمر الأول للحزب الجمهورى الفاشى لتحديد المبادئ التى سيحكم الحزب عن طريقها . وقد بدأت أعمال المؤتمر بتلاوة رسالة من

الدوتشي أكد فيها أهمية العودة إلى « النوايا الأصلية للثورة الفاشية » . وكان « بيان فيرونا » الذى صدر فى النهاية عن المؤتمر تكراراً إلى حد بعيد لتطلعات عام ١٩١٩ ، مع إضافة إشارات كثيرة أصبحت تحمل طابع الإلزام فى المحافل الفاشية إلى « انحلال الملكية وانهيارها » . وكانت أهم نقاط هذا البيان بالنسبة إلى موسولينى تلك التى تتعلق بالترفيه عن العمال ، وقد رفض تقبل الرأى القائل بأن هذا المنحى الاشتراكى كان اهتماماً جديداً اكتشفه فى تفكيره .

وكان يقابل كل اتهام ، ولا سيما تلك الاتهامات التى يقرؤها أحياناً فى الصحف ، من أن الفاشية ، لم تكن تهتم فى الماضى اهتماماً جديًّا بخير الطبقة العاملة ، وأن الرأسمالية البورجوازية هى التى أبقتها فى الحكم ، بغضب شديد وازدراء ، لا يضاهيه إلا الازدراء الذى يحتفظ به لكل من روزفلت والملك وأنطونى إيدن . وعندما قرأ ذات يوم ، نبأ صحفيًّا عن اجتماع عقده الاتحاد العام للعمال فى نابولى ، حيث ادعى أحد الخطباء أن القوانين الاشتراكية التى وضعت فى العهد الفاشى لم تكن ذات نفع للعمال ، راح يدبج على الفور مقالا عاطفيًّا نشرته وكالة الأنباء الجمهورية رد فيه على ادعاءات الخطيب معدداً القوانين التى أصدرها لمنفعة العمال ، وعدد المستشفيات التى أقامها لهم ، والرواتب التقاعدية والمكافآت التى أمنها لهم ، ومقاييس الحد الأدنى من الأجور التى طبقها فى البلاد . وراح يقول بعد ذلك . . « ولا ريب فى أن هذه الاتهامات ليست صادرة إلا عن الشيوعيين وغيرهم من أعداء البلاد الذين يستخدمون العمال (بيادق) فى (لعبة الشطرنج) الشيطانية التى يلعبونها . ولكن العمال أنفسهم يعرفون زيف هذه الاتهامات وكذبها » .

وقال فى مناقشة تالية حول نفس الموضوع . . . « يستحيل على المرء إفساد الطبقة البروليتارية العاملة . فالعمال لا يعرفون الخيانات التى يعرفها البورجوازيون . فالبورجوازيون بعقلياتهم المادية وأطماعهم ، هم خراب إيطاليا . وكنت أومن بالاشتراكية فى صميم فؤادى منذ عهد بعيد » .

ومن الصحيح القول ، إنه بالرغم من أنه لم يكن يولى النواحى الأخرى من أعمال حكومته مزيداً من اهتمامه ، إلا أنه كان مصمماً على أن يظهر أن جمهوريته الاشتراكية تستحق هذا الاسم بالرغم من ضآلة ما لديها من سلطان وموارد .

وفى الشهر الأخير من حياته ، أى بعد أن انهار خط الدفاع « القوطى » ، وأصبح انهيار بناء المحور المتداعى ، وحكومته بالذات أمراً مؤكداً ، كان لا يزال يولى عنايته لقضايا لم يعد لها محل بعد هذه التطورات الأخيرة ، كاحتمال إدخال الزراعة الجماعية إلى إيطاليا ، وإعادة تنظيم المستشفيات لإيواء المصابين بالسل من الفقراء . ولقد تحدث « مولهاوزن » إلى « ران » بأن موسولينى كان — حتى فى تلك اللحظات التى نأى فيها عن الناس ، وأخذ ينادى بأن عمله أصبح جزءاً من التاريخ — واقعاً تحت سيطرة فكرة أصيلة فى أن يخلف وراءه فى إيطاليا ، إطاراً يمكن من بناء دولة الرفاه فى المستقبل ضمنه :

لكن عدد القضايا من هذا الطراز فى إثارتها لاهتمامه ، كان ضئيلا للغاية ، وكان يصرف جل أوقاته فى مكتبه فى القراءة والكتابة ، وكان يطلب أن لا يضايقه أحد ، فأصبح ينأى شيئاً فشيئاً عن طبيعة الديكتاتور ويدنو كل يوم من طبيعة « الأستاذ الجامعى » ، الذى كان يشبهه إلى حد كبير على حد تعبير الدكتور زاخارى . وكان مكتبه غرفة صغيرة مزدحمة ، فيها مدفئة رائعة وكبيرة من الرخام ، ومكتب فى زاوية الغرفة حيث كان يجلس الساعات الطوال ، وحيداً ، يقرأ ويكتب ويتطلع من النافذة إلى الحديقة . وكان إذا ما دخل أحد سكرتيريه الغرفة ، رفع رأسه ببطء إليه ، دون أن يزيح نظارته عن عينيه . وهى النظارة التى أصبح يحتاج إليها كل الحاجة ، وإن ظل حتى عام مضى ، ينكر ذلك بشىء من الكبرياء . وكثيراً ما تورم جفناه ، والتهبا ، وكان يعترف طائعاً بأن نظره آخذ فى السوء يوماً بعد آخر .

ولم يعد يهتم بالتظاهر ، وبإيحاء الانطباع للآخرين ، بأنه صاحب عقل عظيم يعمل ، كما كان يفعل فى قصر البندقية ، حيث كان مكتبه ، يبدو أحياناً خالياً من كل ملف أو كتاب ليوحى لزائريه ، بأنه يستوعب فى عقله كل ما يريد أن يعرفه ، وأحياناً مثقلا بالملفات والأوراق والوثائق ليظهر أنه إنسان مشغول جداً . أما مكتبه هنا فى دارة أورسولينى فكان يفتقر إلى الترتيب . فالصحف لا قصاصاتها ، والأوراق والكتب ، والأقلام الملونة والصور منتشرة فوقه بلا نظام أو ترتيب ، وبلا فائدة أيضاً . وتطلع أحد الصحفيين ذات يوم إلى مجموعة الكتب المنتشرة

فوق المكتب ليعرف ما الذى يقرؤه الدوتشى ، فوجد أنها مجموعة لا اختيار فيها ، ولا انتقاء ، إذ بينها كتب دوستويفسكى وتولستوى ، وهمنجواى وأفلاطون وسافو وكانت وكتاب شولوخوف « هادئاً ينساب الدون » وكتب نيتشه وكتاب إميل لودفيج عن نابوليون ،وكتاب سوريل « نظرات فى العنف » وكتب جوته وشوبنهاور وبعض الكتب عن السيد المسيح وعن فريدريك الكبير وبيتهوفن ، وكلها تتضمن قصاصات من الورق منتشرة بين صفحاتها لتشير إلى فقرة مهمة أو خطوطاً متناثرة هنا أو هناك بالأقلام الملونة على الهوامش . وكان يبدو منهمكاً أحياناً إلى الحد الذى يدعوه ، إلى صرف زائريه أو الموظفين الذين يقصدونه ، ولا سيما إذا كانوا من الألمان بإحالتهم بشىء من نفاد الصبر إلى جرازيانى أو إلى وزير الثقافة الشعبية ، أو كبير سكرتيريه الخاصين . وكتب ضابط ألمانى شاب يدعى فورست أوراخ إلى بعض أصدقائه فى ألمانيا يقول . . . « يميل الدوتشى إلى الانسحاب من جميع شؤون الحكم . فإذا ما زاره أحد الجنرالات الألمان يطلب شيئاً ، رد عليه قائلا . . . « آه . . . راجع جرازيانى » . وإذا ما زاره ليبرز أو غيره من الخبراء الاقتصاديين قال له . . . « تحدث فى الموضوع إلى وزير الاقتصاد » . وإذا ما أصر أحد الزائرين على أن القضية التى جاء من أجلها فى منتهى الأهمية وأنها تتطلب قراراً من الدوتشى شخصيًّا ، رد موسولينى ، بأنه لا يستطيع اتخاذ مثل هذا القرار ، وأن على الألمان أن يتخذوه ، إذ أنه لا يعدو أن يكون رئيس بلدية جارجنانو .

ولكن مهما كان تشنيعه على الألمان وحقده عليهم . إذ كان يسميهم أحياناً « بالمجرمين بطبعهم » ويشير إليهم أحياناً بهؤلاء « الأوغاد البرابرة ، القساة الظالمين ، الذين يتميزون بالعنف والطغيان » . فإنه لم يكن قادراً على الإفلات من تأثير زعيمهم السحرى عليه .

وقد مضى فى الواحد والعشرين من أبريل عام ١٩٤٤ ، إلى ألمانيا لمقابلته . وتلقاه هتلر فى سالزبرج فى أحضانه ، وراح هو يؤكد للفوهرر من جديد إيمانه الذى لا يتزعزع بانتصار ألمانيا النهائى . وكان جو الاجتماع وديًّا ومريحاً ، مما شجعه . ولا سيما أنه قد وجد إلى جانبه كلا من جرازيانى ومازولينى اللذين رافقاه فى زيارته ، وفيليبو انفوسو ، سفيره الجديد فى برلين ، على أن يحتج لدى هتلر ،

على احتلال الألمان لمنطقة الأديج وتريستا ، وهو الاحتجاج الذى سبق له أن ضمنه رسائله إلى هتلر ، وعلى أن يلفت نظر صديقه إلى ما يلقاه العمال الإيطاليون من سوء معاملة فى ألمانيا . وتجاوب هتلر معه ، ووعده بأن يعيد النظر فى الموضوع ليرى ما يستطيع أن يفعله فيه . لكن هتلر لم يفعل شيئاً ، وعندما مضى موسولينى للقائه ثانية بعد ثلاثة أشهر ، كان جو الاجتماع مختلفاً كل الاختلاف ، إذ تميز بالتوتر الشديد منذ البداية ، فقد تقدم إليه هتلر على رصيف المحطة ، وهو يعرج بعض الشىء ، وبدا الشحوب على وجهه . وضم الفوهرر يده اليمنى بقوة إلى صدره ، وقدم إلى موسولينى يسراه ، معتذراً بأنه أصيب فى حادث بسيط . وسار به بعد قليل إلى بقايا الكوخ الذى تفجرت فيه قنبلة العقيد جراف كلاوز فون شتوفينبرج قبل برهة قصيرة ، إذ كان الدخان لا يزال يتصاعد من الركام ، وكانت جثث القتلى الأربعة الذين أصيبوا فى الحادث قد نقلت من مكانها قبل لحظات . وكان شتوفينبرج قد حمل القنبلة إلى غرفة الاجتماع فى حقيبته اليدوية التى وضعها تحت المنضدة التى انتشرت فوقها الخرائط أمام الفوهرر ، وكان أحد الضباط قد تعثر فيها تحت المنضدة ، فأزاحها بقدمه بعيداً عن هتلر . وقال الفوهرر لصديقه إن العناية الإلهية قد أنقذته ثانية ، وبينت له أن القدر شاء له أن ينتصر على أعدائه . ورد موسولينى بكثير من الكياسة . . « لا ريب فى أننى أشاطرك الرأى تمام المشاطرة ، وإن نجاتك علامة من السماء » . وبدا الفوهرر فى منتهى الهدوء ، كما خيل لموسولينى ، لكن هدوءه كان أكثر من المعتاد ، إذ جلس بعد انتهاء الاجتماع مع موسولينى إلى جانب ريبنتروب وجورنج ، يتناول الشاى مع ضيفه دون أن ينبس ببنت شفة ، مواصلا التطلع إلى الجدار الماثل أمامه ، ومبتلعاً بين الفينة والفينة إحدى حبات الدواء الملونة . وانقضت ساعة كاملة ، وموسولينى وجرازيانى ، يصغيان إلى القادة الألمان وهم يتناقشون فى الأسباب التى أدت إلى عدم الفوز فى الحرب ، وإلى جورنج وهو يحمل كايتل المسئولية حيناً ، ويشير متوعداً بعصا الماريشالية التى يحملها إلى ريبنتروب حيناً آخر . وذكر أحدهم اسم روهم[1] ، وعملية تطهير عام ١٩٣٤ ، وهنا قفز هتلر من مكانه ، فجأة ، وبدأ يخطب ، مصراً على أن العناية الإلهية بتدخلها لإنقاذه من

الموت ، قد أظهرت من جديد أنها اختارته ليكون « رجل القدر » ، وليكون الرجل الذى ينقذ أوربا والعالم بأسره . وقال إن الواجب يدعوه إلى أن لا يستثنى أحداً من انتقامه . وظل يتحدث على هذا النحو أكثر من نصف ساعة ، بينما خيم الصمت على القادة الألمان ، وظل موسولينى يتطلع إليه وقد سمرت نظاراته فيه ، مذعوراً من صرخاته الحاشدة بالتهديد والوعيد المحمومين. وأخيراً جاء الخدم يحملون الشاى ، وعاد الفوهرر إلى مقعده ، وقد عاوده الصمت الذى زايله عندما ذكر اسم روهم أمامه .

وبدا موسولينى مذعوراً من سلوك هتلر ، وعندما تواذعا فى المطار قبل عودته إلى إيطاليا ، لم يتجاوب مع كلمات هتلر العاطفية على النحو الذى كان يفعله فى الماضى . لكن هتلر لم يتأثر ببرود الدوتشى وجموده ، فأطال لحظة الوداع ، وظل يمسك بيده ، وهو يتطلع إلى عينيه ، وذكر راهن لموهاوزن عندما عاد إلى بحيرة جاردا ، أنهما ظهرا كعشيقين ، وقال هتلر ، بادى التأثروالانفعال ... « أنا أعرف أن فى وسعى الاعتماد عليك . وفى وسعك أن تصدق بأنك أحسن صديق ، بل لعلك الصديق الوحيد لى فى هذا العالم » . ولم يكد الدوتشى يسافر ، حتى أصدر هتلر أوامره ، بإقامة ملجأ من الغارات الجوية فى دارة موسولينى فى فيلترنييللى ، لكن موسولينى لم يزر الملجأ إلا مرة واحدة ، عند ما مضى لتهنئة العمال الذين تولوا بناءه .

وهكذا لم تكن للاجتماع الذى عقده الرجلان أية فائدة . فلم يعد موسولينى إبانه إلى تكرار الشكاوى التى كان قد وجد الشجاعة فى نفسه لذكرها فى اجتماع أبريل الماضى ، ولذا فقد آب إلى إيطاليا هذه المرة واجماً حزيناً . وكان الناس قد ألفوا منه أن يعود من زياراته إلى ألمانيا ، مليئاً بالثقة ، وبالمعنويات العالية : لكنهم وجدوا أن تبدله هذه المرة كان باتجاه الأسوأ . وكان أحد موظفى سفارته

---

(١) إرنست روهم ، كان قائد جيش الصاعقة النازى . وقد اشترك فى مؤامرة لاغتيال هتلر وكانت نتيجتها مصرع روهم وعدد من رجاله فى عمليات تطهير عام ١٩٣٤ . « المعرب »

فى برلين قد زوده ببعض الإحصاءات عن الإيطاليين فى ألمانيا ، وقد أفزعته هذه الإحصاءات أشد الفزع [١] .

وعاد إلى عمله الرتيب التافه وقد هبطت حيويته . وتدنّت حماسته عن ذى قبل. وكان فى مطلع ذلك الصيف كثيراً ما يلعب كرة المضرب « التنس » ، فيسمح له خصمه بأن يغلبه ، ولكنه ، سرعان ما مل هذه اللعبة أيضاً ، وأخذ يحصر تمريناته الرياضية فى ركوب الدراجة حول شاطئ البحيرة ، وفى المسير فى الغابات وحيداً أو بصحبة ولده رومانو ، يتبعه حراسه الألمان . وسرعان ما توقف عن تلقى الدروس الألمانية التى كان قد شرع فيها بمعدل ثلاث مرات فى الأسبوع ، فهو قادر على أن يحمل الآخرين على فهم ما يقول ، ولم يعد فى حاجة إلى الطلاقة فى هذه اللغة . ودأب فى هذه الفترة على الذهاب إلى مكتبه مبكراً ، وكثيراً ما وصل إليه قبل الثامنة ، هروباً من الضجيج فى منزله ، ولا يعود إليه إلا متأخراً ، ليقضى المساء حيثما استطاع وحيداً فى غرفته يقرأ ، أو جالساً إلى مقعد مريح وقد ضم يديه وراء رأسه ، متطلعاً إلى الأفق البعيد وراء البحيرة ، حتى تغطس الشمس فى مغيبها .

وكان يكره شفق المغيب . فكان إذا ما غابت الشمس ، سارع إلى الدخول ، ليضيء النور فى غرفته . وتعطل التيار الكهربائى ذات يوم وحمل إليه كونيتو نافارا ، الذى عاد إلى خدمته فى هذه الآونة ، مصباحاً عادياً . وذكر نافارا هذا ، أنه لم يستطع احتمال ضوء المصباح الخافت « فمضى إلى الحديقة ، حتى عاد النور إلى المنزل ، وظل تلك الفترة يقف إلى شاطئ البحيرة، يقذف بالحصى فى مائها » .

وكان طبيبه الإيطالى والأستاذ زاخارى يتناوبان عيادته كل صباح ، ليطمئنا على أن الحمية التى فرضاها عليه ، قد تركت أثرها النافع فى صحته . وكان شحوبه قد اشتد إلى حد كبير ، كما لاحظ زاخارى ، وكثيراً ما ظهرت عيناه محمومتين وهما يبرزان من محجريهما ، فى رأسه الضامر الهزيل . وكان فطوره يتألف فى العادة

---

(١) يقول سالفاتوريلى وميرا ، إن نحواً من سبعمائة ألف إيطالى قد أرسلوا إلى ألمانيا إبان الحرب للقيام بأعمال عادية غير القتال ، و إن ثلاثين ألفاً منهم لقوا حتفهم .

من قدح من الشاى ليس إلا ، أما غداؤه وعشاؤه ، فخفيفان للغاية . ولم يعد يتناول الحليب مع أنه كان فى الماضى يأخذ ستة أقداح كبيرة منه فى اليوم . وأصبحت البزة العادية البسيطة لرجال الحرس الفاشى التى ألف ارتداءها فى هذه الآونة ، تبدو مهلهلة عليه ، بالرغم من كيها دائماً كيًّا دقيقاً . واتسعت ياقات قمصانه حول عنقه الذى أصبح ضامراً ، بعد أن كان يتميز بالغلظة ، وبدت التجاعيد عليه وكأنه جلد سلحفاة كثير الغضون . وكان يحرص كل الحرص على حلق شعر رأسه ، بينما كانت تجىء إليه فتاة من جاردون مرتين فى الشهر لتقليم أظافره ، وتزيينها . وكانت هذه هى البقية الباقية من المظاهر التى كانت ترضى غروره الشخصى فى الماضى ، والتى كانت تستبد بتصرفاته . وذكر خادمه نافارا عن هذه الأيام ، قائلا . . . « ولم يكن مزاجه ريِّقاً فى هذه الأيام إلا لماماً ، وكثيراً ما أعقبت هذه اللحظات النادرة ، ساعات طويلة سوداء من الحزن العميق » .

وقرر بعد شهر من زيارته لهتلر فى بروسيا ، أن يقوم بزيارة للجبهة . وشجعته الهتافات الموعز بها التى تلقاها عند وصوله إليها ، على البقاء خمسة أيام يطوف خطوط القتال ، مسدياً نصائحه إلى الجنرالات الذين لم يأبهوا بها ، ومقترحاً هجمات مضادة لم تكن ممكنة من الناحية العملية . وكان كيسلرنج يصغى إلى ما يقوله بمنتهى الكياسة ، لكن موسولينى أحس بالانزعاج البالغ ، وهو يرى أن اقتراحاته لا تجد أذناً صاغية أو اهتماماً عند القائد الألمانى . وسمع موسولينى ذات يوم وهو يقول . . . « إن كيسلرنج هذا ، لا يساوى قلامة ظفر » .

لكن الهتافات التى سمعها من الجنود الإيطاليين والألمان فى الجبهة ، تركت فى نفسه أثراً منعشاً للغاية . فقد عاد إلى جارجنانو ، وقد عاودته الثقة والأمل ، وراح يعيد على مسامع راشيل المرة تلو المرة ، كيف أن الجنود قد أظهروا له منتهى الحب والولاء . وراح يقول لها . . . « وكان الألمان جد متحمسين بصورة خاصة إلى حد الجنون ، وقد وقفوا فى خنادقهم الضيقة ، وقفة التأهب لاستقبالى » لكن أمر هذه الحالة النفسية المنتعشة لم يطل . فلم يمض أسبوع واحد ، حتى كان يعود إلى يأسه السابق .

ومضى منقذه أوتو سكورزينى لزيارته فى شهر يونيو ، فوجده فى منتهى التشاؤم

والتبلد . ويقول العقيد سكورزيني . . . «كان موسوليني هادئاً للغاية ، وبدا لى وكأنه قد استسلم وفقد كل رغبة فى المقاومة . ولم يعد ذلك الرئيس القوى الذى يوجه وزراءه ، وإنما بات يدعهم يتصرفون كما يشاءون . .. وكان فى هذه الأيام أقرب إلى الفيلسوف منه ، إلى رئيس الحكومة . وراح يحدثنى عن التاريخ الألمانى ، الذى كان واسع الاطلاع فيه ، وعن الأسس الفلسفية للفاشية ، وعن ضرورة تغييرها فى المستقبل . وكان يحاول إخفاء تشاؤمه عن أفراد أسرته » ، ولكنه لم يفلح .

وكتبت راشيل تقول . . « ومع مضى الأيام ، كان يزداد وجوماً وإمعاناً فى التفكير . وبات فى وسعى من الطريقة التى كان يتحدث إلى فيها بين الحين والآخر ، أن أحس بما يعانيه من عذاب دائم ، من هذا الصراع المميت بين الإيطاليين وراء جبهة القتال . وكان يظل على وجومه وحيرته وشرود ذهنه ، حتى وهو يتناول طعامه . وكثيراً ما أصغى إلى صامتاً ، ثم سمعته فجأة يقول . . . عم كنت تتحدثين ؟ »

ولم يكن ثمة من شك فى أن هذا الصراع الذى أشارت إليه راشيل كمصدر عذاب دائم للدوتشى ، كان قد تحول فى نهاية عام ١٩٤٤ إلى صورة حرب أهلية .

١٠

الحرب الأهلية

من نوفمبر ١٩٤٤ إلى ديسمبر ١٩٤٤

« قررت أن لا يظل الحزب منظمة سياسية بل يتحول إلى منظمة عسكرية ليس إلا » .

كانت الخطط قد أعدت لتنظيم المقاومة السرية ضد الألمان فى إيطاليا ، قبل بروز الجمهورية الاشتراكية إلى حيز الوجود بأمد طويل . ولم تكن نهاية عام ١٩٤٣ قد حلت ، حتى كانت لجان التحرير الوطنى السرية قد أقيمت فى معظم المدن الكبيرة فى شمال إيطاليا ، وتم تأليف عصابات « الأنصار » من رجال المقاومة السرية . وقد تألفت هذه العصابات من الجنود الذين فروا من الجيش الإيطالى ، الذى انحل تقريباً بعد توقيع الهدنة ، ومن المجرمين المحترفين والمغامرين ، ومن الأشخاص الذين جعلوا من أنفسهم خصوماً للفاشية دون مذهبية أو تنظيم ، وكان همهم ، الثأر لقضاياهم الشخصية ، أكثر من العمل على طرد الألمان من البلاد . ولذا لم تكن هذه العصابات فى البداية أفضل من « مجموعات من الأوباش » ، كما كان موسولينى يسميهم[١] . لكن طبيعتهم هذه ما لبثت أن تبدلت فى وقت قصير . فقد انضم إليهم عدد من المخلصين فى عدائهم للفاشية ، ومن الوطنيين الصادقين ، الذين رأوا فى هزيمة ألمانيا ، الأمل الوحيد فى مستقبل بلادهم ، ومن الضباط النظاميين الذين اعتبروا أن جيش الجمهورية الاشتراكية الذى يحاول جرازيانى ما وسعه من جهد ، إعادة خلقه ، لن يكون أكثر من تابع لألمانيا أو قوة شرطة ، الغاية منها فرض الإجراءات التعسفية الفاشية .

(١) أعتقد أن فى هذه الصورة حطاً من شأن حركات المقاومة السرية فى إيطاليا وغيرها فى البلاد التى استعبدها الألمان فى أوربا ، يخالف الحقيقة والواقع ، وإن كان المرء لا يستطيع أن ينكر أن مثل هذه الحركات السرية ، لا بد وأن تضم البعض من هذا الطراز . لكن الغالبية تظل من أولئك الذين لا هم لهم إلا تحرير وطنهم .

والمناهضة للملكية[١] . وقد أضفى هؤلاء الضباط على رجال حركة المقاومة إحساساً بالمسئولية وصورة محترمة ، وأصبح أحدهم وهو الجنرال رافائيل كادورنا نجل الماريشال الكونت لويجى كادورنا أحد القادة العاملين السابقين للجيش الإيطالى ، قائدهم . لكن هؤلاء الضباط لم يكونوا فى الواقع القادة الفعليين للحركة ، إذ ظلت منذ البداية تحت سيطرة أيد أقل اهتماماً بموضوع التحرر .

وعقد فى نوفمبر من عام ١٩٤٣ ، اجتماع فى بلدة مونشييرو فى مقاطعة بيدمونت ، كان نموذجاً للاجتماعات الكثيرة التى عقدت فى ذلك الشتاء . وكشف عن الاتجاه الغالب على حركات المقاومة السرية . تقرر فى هذا الاجتماع الذى أداره لويجى لونجو ، الذى غدا فيما بعد نائب زعيم الحزب الشيوعى الإيطالى[٢] ، أن الطريقة الفعالة لتقوية منظمتهم ، وهى منظمة « فيلق متطوعى البحرية » ، وزيادة نفوذها ، هى استفزاز الألمان والإيطاليين للقيام بأعمال انتقامية ضد الشعب الإيطالى . وهكذا تقرر اغتيال الجنود الألمان والموظفين الفاشيين لاستفزاز عمليات الثأر التى تؤدى بدورها إلى زيادة الكراهية . وتقرر لنفس الغاية نسف الجسور وخطوط السكة الحديدية وأسلاك الهاتف والكهرباء سواء أكانت ذات أهمية عسكرية أم لا .

وكان نفوذ الشيوعيين فى حركة المقاومة كبيراً منذ البداية . وسرعان ما أصبحوا المسيطرين عليها . وتألفت عصابات لا تضم إلا الشيوعيين يقودها أعضاء الحزب ، ومعهم مفوضون سياسيون على غرار التنظيم السوفيانى ، ليتأكدوا من أنهم لن ينحرفوا عن الخط المرسوم لهم . وكانت هناك عصابات أخرى ، اضطرت إلى قبول المفوضين السياسيين بالرغم من أن الشيوعيين لم يكونوا يمثلون إلا قلة من أعضائها . وقد ذكر لويجى لونجو فيما بعد أن « الشيوعيين هم الذين كانوا يقترحون هؤلاء المفوضين ويختارونهم ، وكانوا يجابهون معارضة فى البداية من الباقين . ولم يكن الناس يفهمونهم

---

(١) زادت متاعب جرازيانى من جراء محاولات الألمان وضع العراقيل فى طريق خلق جيش إيطالى مستقل ، لا يستطيعون إقناع أنفسهم بالثقة فيه ، وتشجيعهم تشكيل وحدات عديدة مستقلة ، لا تكون خاضعة خضوعاً مباشراً لسيطرتهم ، وإقامة قوات بوليسية مسلحة مستقلة ، تؤدى غرضهم الممثل فى « فرق تسد » . وعند ما تقرر تشكيل أربع فرق إيطالية ، اتخذت الترتيبات لتدريبهم وتزويدهم بالمعدات فى ألمانيا ، ولم يكن هتلر يخفى الحقيقة الواقعة ، وهى أنه يرى أن جل ما تستطيع إيطاليا الإسهام فيه فى المحور ، هو تقديم العمال ، لا الجنود .

(٢) أصبح لويجى زعيم الحزب الشيوعى ، بعد وفاة زعيمه السابق السنيور تولياتى .

« المعرب »

إلا على النحو الذى تصورهم فيه أكاذيب الفاشية وادعاءاتها . وكان الضباط العسكريون يرون فيهم شيئاً لا يطاق يمس بكرامتهم ومكانتهم ، وكان السياسيون يرون فيهم وسيلة شيوعية مبتكرة تهدف إلى ضمان السيطرة على العصابات واستغلالها لأهدافهم الحزبية ... ولكننا ناضلنا حتى النهاية للإبقاء على نظام المفوضين السياسيين . وتم تطبيق هذا النظام بصورة متدرجة فى جميع التشكيلات ، حتى ولو تحت ستار أسماء أخرى كتلقيب المفوضين بممثلى لجنة التحرير الوطنى ، أو بالمندوبين المدنيين ، إذ كنا نحن الذين نحدد لهم واجباتهم » . وهكذا تمكن الشيوعيون من فرض سيطرتهم حتى على تلك العصابات التى كانت تسمى نفسها بالاشتراكية ، و« بألوية ماتيوتى » أو تلك التى كانت تعتبر نفسها ملكية والتى أطلقت على نفسها اسم « اللهب الأخضر » ، وذلك عن طريق لجان التحرير الوطنى التى يسيطر عليها الشيوعيون ، الذين تطرف بعضهم إلى حد الدعوة السرية إلى إخفاء بعض الأسلحة والمعدات التى تلقيها طائرات الحلفاء إليهم بالمظلات ، وعدم استعمالها ضد الألمان ، للإبقاء عليها حتى نهاية الحرب ، واستعمالها عندما تبدأ ثورة العمال .

وشرع رجال المقاومة السرية فى شتاء عام ١٩٤٣ — ١٩٤٤ ، فى أعمال إثارة الاضطراب . ووقعت عدة حوادث فى البداية . وجرت بعض الاغتيالات الفردية وأعمال التخريب والانتقام ، ولكن العهد الفاشى فى الأقسام التى يحتلها الألمان من إيطاليا ، لم يغد فى خطر حقيقى من أعدائه السياسيين . ولكن لم يحل الثالث والعشرون من مارس ، وهو موعد الذكرى السنوية لقيام الفاشية ، حتى كانت لجنة التحرير الوطنى فى رومة قد أعدت العدة للقيام بمذبحة عامة تكون بمثابة إيحاء للجان الشمال . وانفجرت بعد ظهر ذلك اليوم إحدى عربات « الزبالة » وكانت محملة بالمتفجرات فى شارع واسيلا إلى جانب سيارة شاحنة كانت ملأى بالجنود الألمان لنقلهم إلى معسكرهم . وقتل فى هذا الحادث ثلاثة وثلاثون ألمانياً ، وعدد من عابرى السبيل من الإيطاليين . وقام الألمان كإجراء انتقامى فى اليوم التالى بإعدام ٣٣٥ من الرهائن الإيطاليين على طريق أرديا ، ودفنوا فى المغاور القريبة .

وسرعان ما انتشرت أنباء هذا الحادث الفظيع فى إيطاليا كلها ، وتوسع نشاط

رجال المقاومة فى ربيع ذلك العام ومطلع صيفه فى الشمال ، بينما ازدادت حوادث الانتقام من جانب الألمان قسوة ووحشية .وأعدم الألمان نحواً من مائة من رجال المناجم فى شهر مايو فى قرية صغيرة واحدة ، ولم تمض بضعة أسابيع ، حتى كانوا يعدمون أربعمائة من المسجونين ومائة وعشرة من الفارين من الجيش . وأرغم أكثر من ألفى رجل بعد فترة قصيرة على الرحيل إلى ألمانيا ، وذلك بعد نسف جسر على نهر فى مقاطعة بيدمونت . واتسع نطاق أعمال التخريب بعد انهيار خط جوستاف وسقوط كاسينو ، وعندما حان موعد تحرير رومة فى يونيو عام ١٩٤٤ . كانت هذه الحوادث تقع فى كل يوم تقريباً ، وأعلن موسولينى فى الواحد والعشرين من يونيو أن الحزب الفاشى لم يعد قادراً على البقاء كحزب سياسى ، وأن عليه أن يتحول إلى « منظمة عسكرية كاملة » . وصدر الأمر بأن يصبح جميع الأعضاء الذين تتراوح أعمارهم بين التاسعة عشرة والستين اعتباراً من اليوم الأول من يوليو ، والذين لا ينتمون إلى قوات الجمهورية المسلحة ، جنوداً فى وحدات ذوى القمصان السوداء المسلحين ليقوموا على « صيانة الأمن والحياة السلمية للمواطنين ضد القتلة وضد أولئك الذين يتعاونون مع العدو » .

وكان هذا الأمر بمثابة إعلان للحرب الأهلية . وكانت الفظائع التى تقوم بها هذه الوحدات السوداء ، وأعمال الانتقام التى تطبقها ضد رجال المقاومة ، لا تقل عنفاً عن الأعمال التى يقوم بها الألمان وإن لم تعادلها فى الاتساع . وبالرغم من أن الحرس النازى هو الذى كان يقوم بالأعمال الانتقامية الضخمة ، وأنه هو الذى ذبح جميع سكان قرية سانتا أنا دى ستازيما فى شهر أغسطس عام ١٩٤٤ ، وقتل بين الثامن والعشرين والثلاثين من شهر سبتمبر ، نحواً من سبعمائة شخص فى مارزابوتو إلى الجنوب من بولونا ، فإن الكتائب السوداء ، كانت مسئولة عن عدد آخر من الأحداث الوحشية أيضاً ، وإن لم يذع أمرها . وكانت هذه الكتائب تضم عناصر تفوق فى سوئها أسوأ العناصر الموجودة فى وحدات المقاومة السرية ، وتؤدى واجباتها بكثير من الغلظة والوحشية والغطرسة . وتعذب المسجونين دون رحمة أو إشفاق ، تماماً على النحو الذى كانوا يتعرضون هم فيه لتعذيب وحدات المقاومة الشيوعية إذا ماوقعوا فى أيديها . وحتى عندما تمكن الألمان من تجميع قواتهم إلى

الشمال من فلورنسا ، وراحوا يقضون الشتاء على طول خط الدفاع القوطى الممتد من ريميني إلى سبيزيا ، لم تخف حدة العنف وراء الخطوط الألمانية .

وكان موسوليني يرقب هذه الوحشية المتزايدة من جانب الفاشيين أو أعدائهم بكثير من القلق الحزين ، متفجراً أحياناً فى ثورات غاضبة يعلن فيها أن « أيام الرحمة قد انقضت » . ولكن بالرغم من هذه الومضات من الغضب والثورة ، وبالرغم من دعوته إلى المزيد من تجنيد الكتائب السوداء : فإنه وجد نفسه مضطراً فى النهاية إلى الاعتقاد بأن موقف التسامح والتوفيق ، هو الأمل الوحيد الباقى للجمهورية . وقد أصدر أوامره إلى محافظ تورين بأن يجتمع إلى الجنرال أوبيرتى ، مدير التموين السابق فى الجيش الإيطالى الرابع ، وأحد زعماء المقاومة السرية البارزين الآن ، وأن يتفاوضا على منح عفو عام ، وقد طال أمر المفاوضات ، وأخيراً وافق سبعة وخمسون من ضباط المقاومة ليس إلا ، وكان الفاشيون قد اعتقلوهم على شروط الاستسلام . وكان بافوليني وفاريناتشي وبوفاريني — جيدى ، دائمى الشكوى والتذمر من اعتقاد موسوليني اللاواقعى بإمكان التفاهم بين الفاشيين وأعدائهم ، ومن رفضه، عندما حان الوقت لاتخاذ قرار حاسم ، التصديق على الإجراءات الصارمة التى اقترحوها ، والتى كان هو قد أقرها فى البداية . وكان قد أصدر فى الخامس والعشرين من أبريل عام ١٩٤٤ ، مرسوماً يقضى بعقوبة الموت على كل عضو من أعضاء المقاومة السرية يعتقل بعد ذلك التاريخ ، ولكنه منحهم فى الوقت نفسه مهلة شهر للاستسلام مقابل العفو ، كما راح يمنح بعد ذلك ، إعفاءات ، مماثلة فى عدد من القضايا . وقد يتخذ موقف القسوة والصرامة فى يوم ما ، ولكنه لا يلبث بعد أربع وعشرين ساعة ، أن يندم ، وأن يعود إلى صفحه وغفرانه . وسجل جيوفانى دولفين فى يومياته حالات كثيرة ، تدخل فيها موسوليني لإنقاذ أرواح رجال حكم عليهم بالإعدام . ولم يكن يصفح عن المعروفين بشيوعيتهم ، ولا سيما أولئك الذين يعملون تحت إمرة تيتو فى « فينسيا جوييليا » ، وقد أعدم كثيرين منهم بتهمة الخيانة ، ولكن عندما عرضت عليه رسالة تضم أسماء قادة الأحزاب السياسية غير الشيوعية واللامشروعة ، لم يفعل أكثر من الانطلاق بالتهديد والوعيد ، وهو ما لم يحمله أحد على محمل الجد ، وما نسيه هو نفسه فى صباح اليوم التالى . وكان بين هذه الأسماء اسم فيروشيو بارى زعيم حزب العمل

اليسارى ، والذى كان وزير عدل موسولينى قد حذر منه المرة تلو المرة . ولكن موسولينى رفض إصدار الأمر باعتقال بارى ، إذ كان يعتقد أنه « رجل شريف فى قرارة فؤاده » . وراح وزير العدل ، يصرخ بيأس قائلا لكاولو سيلفيسترى. . . «كم مرة عملت كل ما فى وسعى من جهد لإنقاذه » . وقال فاريناتشى فى مناسبة أخرى « ولكنه يرفض إنقاذ نفسه . فهو لا يستطيع النجاح إلا عن طريق القسوة لا عن طريق الترضية والتفاهم » .

ولم يكن موسولينى أكثر نجاحاً فى محاولته اكتساب أهل الشمال إلى صفه عن طريق تأميم الصناعة . وكان يعتقد أن القوانين التى رمى من ورائها إلى تطبيق سياسته الاشتراكية محاولا بواسطتها حل مشاكل الجمهورية الاقتصادية ، ستحظى بتأييد عمال الشمال . وعندما أصدرت لجنة التحرير الوطنى فى مدينة رومة فى مطلع شهر مارس أمراً بالإضراب العام فى جميع أنحاء الجمهورية الاشتراكية ، اعتقد أنه لن يواجه خطراً كبيراً . ولم يكن الإضراب بالطبع عامًّا على النحو الذى أراده شيوعيو رومة ، وحاولوا تنفيذه ، ولكن وزارة ميزاسوما اضطرت إلى الاعتراف بأن عدداً من المصانع قد توقفت عن العمل ، وأن نحواً من ربع مليون عامل قد خرجوا من أعمالهم ، بينما ادعى الشيوعيون أن عدد المضربين زاد على المليون . ورفض موسولينى تلبية طلب الألمان باتخاذ إجراءات صارمة ضد المضربين ، وقال إنه ملّ من رؤية الإيطاليين يحاربون بعضهم البعض ، وإنه لا يريد المزيد من ذلك على الإطلاق[1] .

ولم يؤد وجود الحكومة الفاشية وتجزئة إيطاليا إلى مثول خطر واحد فى قيام حرب أهلية واسعة النطاق ليس إلا ، إذ كان هناك خطر آخر ، فى أن يجد الإيطاليون أنفسهم يقاتلون أبناء جلدتهم فى الميدان أيضاً . ويبدو أن هذا الخطر

---

(١) أعربت السفارة الألمانية فى تلك الأيام عن اعتقادها ، بأن الأمل الذى يساور الحلفاء دائما هو نشوب الحرب الأهلية على نطاق واسع فى شمال إيطاليا . وذكر رئيس القسم السياسى فى السفارة ، أن هذا الأمل كان السبب فى امتناع الحلفاء عن الإغارة من الجو على مكاتب الحكومة الإيطالية على بحيرة جاردا . وكان الأمريكيون يعرفون موقع كل مكتب وكل وزارة ، لكن الغارات لا تتجه إلا إلى البيوت التى يقيم فيها رجال السفارة الألمانية ، والجنود الألمان ، ومضى هذا الدبلوماتى الألمانى يقول إن بقاء حكومة فاشية فى حيز الوجود كان يضمن للحلفاء الانتفاع من اشتداد المعارضة لهذه الحكومة « المؤلف »

كان مصدر قلق دائم لموسولينى . وكان يحدد على الخريطة تحركات الوحدات الإيطالية التى تقاتل إلى جانب الألمان ، بينما يطلب بإصرار المعلومات الدقيقة عن الوحدات الإيطالية التى جندها بادوليو للقتال إلى جانب الحلفاء . وكانت هناك ثلاث وحدات إيطالية لا تزال تقاتل الحلفاء فى إيطاليا ، وهى فوج بارباريجو على جبهة انزيو ، وفوج من رجال القمصان السوداء يقاتل تيتو فى كرواتيا ، وفوج من الرماة يقاتل رجال المقاومة السرية السلافية فى كارسو . وكان هناك فوج آخر من الرماة يقاتل الألمان ، وروى مازولينى أنه سمع موسولينى يعرب ذات يوم عن سروره لأنه سمع من إذاعة بارى بلاغاً رسمياً للحلفاء يتحدث فيه عن شجاعة هذا الفوج الإيطالى . .

وصرخ مازولينى مندهشاً . . . ولكنها قوات بادوليو ، وهى تحارب الألمان !

فرد موسولينى بهدوء . . . ولكنهم إيطاليون ، وهم يقاتلون ببسالة . وهذا هو المهم .

وروى مازولينى أن موسولينى قضى بقية ذلك اليوم ، بادى المرح وعندما جن الليل ، كان يعتقد صادقاً أن المحور سيكسب الحرب ، ولكن لم يمض يومان ، حتى كان يعود إلى طبيعته ، فى تلك الأيام ، حزيناً يائساً . . . .

١١

رئيس الجمهورية فى جرجنانو

الأشهر الأخيرة

من ديسمبر ١٩٤٤ إلى أبريل ١٩٤٥

« أنا أشبه ما أكون بقبطان سفينة هاجمتها العاصفة . وقد تحطمت السفينة ، ووجدت نفسى وسط محيط متلاطم الأمواج ، على ظهر لوح من الخشب لا أستطيع توجيهه ولا التحكم فيه » .

ارتفعت معنويات موسولينى فى ديسمبر عام ١٩٤٤ ، إلى الذروة ، ودام هذا الوضع بضعة أيام . فقد مضى إلى مدينة ميلان مع وولف وران ، فى زيارة قصيرة . وتوقفت سيارته لسبب أو لآخر ، وسرعان ما التفت حولها الجماهير تهتف له بصورة عالية مستبشرة ، وكأنه قد أعلن لها قبل لحظات أن الحرب قد انتهت . ولا ينكر أحد أن الجماهير كانت تهتف له أحياناً فى جرجنانو ، ولكنها لم تستقبله قط بمثل هذه الحماسة التى قوبل بها هنا فى ميلان . وأخذت الجماهير تتزايد شيئاً فشيئاً ، والسيارة تشق طريقها ببطء فى الشوارع ، واضطر حتى خصوم الفاشية إلى الاعتراف بأن ما يربو على الأربعين ألف إنسان ، كانوا يهتفون بأعلى أصواتهم متحمسين . . . « دوتشى ، دوتشى . دوتشى ». وتحدثت راشيل عن نفس الموضوع بقولها . . . « لو لم أسمع الهتاف الحماسى بنفسى من المذياع ، لما صدقت موسولينى وهو يروى لى ما حدث له عند عودته . ويتضح من هذا أن لا صحة لما يقال من أن البلاد كلها ، تعادى الفاشية ، وأن كل إنسان يكره بنيتو » .

وراح يقول لها بشىء من الاعتزاز . . . « لم يسبق لى طيلة العشرين عاماً الماضية من عمر الفاشية أن قوبلت بمثل هذا الترحاب . ولسبب غريب لا أعرفه ، لم يكن الجنرال مونتانا رئيس الشرطة ، قد علم بزيارتى ، إلا فى اليوم السابق لها . وقد

أذيعت وقائع الزيارة فى ليريكو ، بحيث فوجئت إيطاليا كلها ، بأمر وجودى هناك ، ولم أكد أنتهى من خطابى حتى كانت الهتافات تملأ عنان السماء ، وكان والحق يقال ، نصراً كاملا مطلقاً ، أما بالنسبة إلى الجماهير فكانت أشبه بأمواج البحر الصاخبة . وكان من الرائع أن أقف بين جماهير الشعب فى سيارتى ، وأن أسمع هتافاتهم تنادى بالولاء لى » .

وظل يتحدث عن استقباله هذا أكثر من أسبوع كامل ، وتظاهر الألمان بذهولهم من هذا الاستقبال . وذكر ران ، أن ليس ثمة من شك فى أن كل إنسان قد ذهل من هذه المفاجأة ، فقد كانت والحق يقال « مظاهرة حماسية رائعة » . وكان مما يثير المزيد من الاستغراب ، أن الخطاب الذى ألقاه الدوتشى فى مسرح ليريكو ، لم يكن قوياً على الإطلاق . فقد شرع يقرأ من ملاحظات دونها فى ورقته ، وكان من العسير عليه أن يقرأها ، دون نظارتيه ، واعداً الشعب بالمزيد من الإصلاح فى حقلى السياسة والصناعة . وقد ذكر بأنه قد لا يصبح من الضرورى عما قريب بالنسبة إلى العمال ، أن يحملوا بطاقات العضوية فى الحزب الفاشى ، وأن الأحزاب السياسية الأخرى ، ستنال الاعتراف الرسمى بها . ولم تظهر على صوته ملامح القوة السابقة التى عرفها الناس فيه ، إلا عندما أخذ يتحدث عن حتمية النصر الألمانى ، مشيراً إلى وجود أسلحة سرية ذات قوة هائلة .

وكان هتلر قد حدثه بعض الشىء عن هذه الأسلحة عندما زاره فى شهر يوليو ، ولم يكد ينتهى من هذه الزيارة الظافرة التى قام بها لميلان ، حتى سارع إلى ألمانيا من جديد ، ليعرف من الفوهرر المزيد عن هذه الأسلحة السرية ، فحصل على معلومات دفعته إلى أقصى درجات الحماسة والإثارة . وقد توقف به القطار الذى كان يستقله فى خارج مونيخ ، وراح ينتظر فى محطة جانبية وصول قطار هتلر القادم من الشمال . وتبادل الرجلان التحية بنفس الحرارة التى عرفت عن مقابلاتهما فى الأيام السعيدة الخوالى ، ثم راحا يستقلان معاً سيارة ، مضت بهما لرؤية الأسلحة الجديدة التى وصفها موسولينى فيما بعد بأنها « آلات دقيقة الصنع للغاية طورتها البحوث المختبرية تطويراً عظيماً » . وصدق دون أى نقاش كل ما قاله

له الألمان عنها [١]. وراح يقول للرائد فورتوناتو البونيتى ، قائد حرسه الخاص . . . « ستدهش هذه الأسلحة العالم وتذهله ، كما ستغير مجرى الحرب فى غضون بضعة أيام » . واستمرت موجة الحماسة هذه عند موسولينى طيلة طريق العودة إلى جرجنانو ، وروى موللهاوزين ، أنه هتف بجماعة من رجال الحرس الفاشى ، مر بهم وهو يقود سيارته على الطريق المحاذى لساحل البحيرة إلى دارته فى فيلترنييللى ، بقوله . . . « اصمدوا أيها الشباب . فقد كسبنا الحرب » .

لكنها كانت المرة الأخيرة التى يظهر فيها ثقته . فمع مضى أشهر الشتاء القاسية ، ودنو الربيع ، راح يغوص شيئاً فشيئاً فى أعماق يأسه ، ويعود ثانية إلى تلك الحالة من « الانهيار المعنوى والبدنى ، بعد أن زايله كل نشاط وكل حيوية » ، على حد تعبير الأستاذ زاخارى قبل زيارته الأخيرة لهتلر . ولم تعد مهام الحكم وتفاصيلها تعنيه لا فى قليل ولا فى كثير ، ولم تعد المحاولات والمناقشات حول المستقبل القريب للفاشية ، تثير لديه أى اهتمام . وكان يحتج فى الماضى أحياناً على المطالب الألمانية ويفلح فى رفضها ، أما اليوم فلم يعد يحتج إلا نادراً . وكان فى السنة الأولى من رئاسته للجمهورية قد قاوم الضغط الألمانى الشديد لاستبدال الليرة الإيطالية ، بالمارك الألمانى كنقد للجمهورية ، كما قاوم فيما بعد ، وبنجاح ، مطالب ألمانية عدة ، تتعلق بتفكيك المصانع الإيطالية ونقلها إلى ما وراء جبال الألب . أما اليوم فبانت مقاومته ، ضعيفة خائرة ، ونادرة ، ولا يمكن أن يعزى الفضل فى بقاء المصانع الإيطالية بعيدة عن متناول الألمان وسيطرتهم إلا إلى الجهود المشتركة التى بذلها العمال وأصحاب المعامل أنفسهم . وظل يرفض مدة طويلة استبدال تامبورينى رئيس الشرطة الذى كان الألمان قد استاءوا منه ، ولكنه لم يستطع الاستمرار فى هذا الرفض الآن ، وسمح لبوفارينى — جيدى ، بأن يقنعه بالتسليم للألمان بما يريدون . وعندما توفى الكونت مازولينى متأثراً بتسمم الدم بعد حقنة من الأنسولين ، وحاول

---

(١) لا ريب فى أنه كان مصدقاً إلى حد عجيب موضوع الأسلحة السرية ، كما صدق أموراً عديدة أخرى . وعند ما قيل له إن مخترعاً إيطالياً يعمل فى اكتشاف « أشعة الموت » التى ستحقق النصر للفاشية ، سارع إلى الاقتناع بمساعدته بالمال ، فى مشروعه . وكان منذ مطلع فبراير عام ١٩٣٩ ، يتحدث عن سلاح سرى « يؤثر على سير الحرب تأثيراً كاملا » . « المؤلف »

بريزيوسى الحصول على تأييد السفارة الألمانية ، من وراء ظهر الدوتشى لتعيينه فى المنصب الذى خلا بوفاة الكونت فى وزارة الخارجية ، وعلق موسولينى بشىء من الانزعاج على هذه الدسيسة عندما وصل نبؤها إلى أسماعه بقوله . . . « ولكن ما الذى يريده بريزيوسى من هذا المنصب ؟ إنه لن يجد ما يعمله إذا توصل إليه » .

وكتب إلى هتلر فى الرسالة التى بعث بها مهنئاً برأس السنة الجديدة يقول . . . « هناك شىء واحد ، أنا على ثقة منه كل الثقة ، وهو أن الديمقراطية لن تحل فى أوربا محل الفاشية أو الاشتراكية الوطنية » . لكن موسولينى لم يعد قادراً على أن يصبر على مثل هذه الادعاءات المتبجحة أو على قائليها . ووصلت إلى مسامعه أنباء النشاط الذى يقوم به المتمردون عليه من الفاشيين ، والذين يحاولون الحصول على مساعدة الألمان فى الإطاحة به ، واستبداله ، بزعيم فاشى جديد يكون صارم العزيمة فى نظراته التى لا تخالطها الأفكار الاشتراكية . وسمع أن هناك آخرين ينادون بالسرعة فى التحول إلى الديمقراطية . وقيل له إن فاريناتشى وبوفارينى ــ جيدى يواصلان القول للألمان بأن موسولينى أصبح من النعومة بمكان بحيث لم يعد صالحاً حتى للبقاء كرأس اسمى للدولة . ولكنه ظل يستمع إلى كل هذه الأمور بهدوء يقرب من حدود التجاهل وعدم الاكتراث . وحملت صحيفة « العهد الفاشى » التى يصدرها فاريناتشى ذات يوم عنواناً كبيراً يقول . . . « لطف الدوتشى المفرط مع زانيبونى » ، ثم راحت تهاجم موسولينى لسماحه ببقاء هذا الرجل الذى حاول اغتياله فى عام ١٩٢٥ على قيد الحياة . وتقول راشيل إنه حمل هذه الصحيفة معه من مكتبه إلى منزله ، وقذف بها على المائدة بحركة ملول ، ما كانت لتصدر عنه فى أيام سلطانه وقوته أبداً . وقال معلقاً . . . « لا يمكن للطف أن يكون مفرطاً » . واضطر أخيراً تحت إلحاف راشيل التى كانت قد تحولت إلى كراهية بوفارينى ــ جيدى بسبب اتصاله بآل بيتاتشى ، للموافقة على إبعاده عن وزارة الداخلية ، وقد أبلغ موسولينى أحد سكرتيريه بأنه قد أقال الرجل لإرضاء راشيل ، وإثارة الألمان ، لا لأنه يعتقد أن إبعاده سيؤدى إلى تقوية مركز الحكومة أو إلى تثبيت موقفه هو .

وبدا وكأنه قد فقد كل أمل . فلم تعد الأوهام تساوره . وكان يحتفظ بهذه الأوهام فى الماضى عن طريق تصديق دعاياته القائلة بأن أسلحة الألمان السرية

وجيشهم السرى الجديد . سيقلبان موازين الحرب عما قريب ، وأن خسائر الحلفاء أكبر مما يستطيعون احتمالها ، وأن الخلاف بين الروس والأمريكيين سيؤدى إلى الحرب بين الدولتين ، أو أنه سيتيح له الفرصة على الأقل لعقد صلح منفرد مع إحداهما ، مؤثراً إذا لم يكن ثمة مناص من ذلك ، أن تتحول إيطاليا كما قال لوزير ماليته ولبريزيوسى ، إلى جمهورية سوفياتية على أن تكون مستعمرة أنجلو — أمريكية . ولكنه أخذ الآن يستمد عزاءه من التفكير ، بأن بريطانيا إذا ربحت الحرب ، فستفقد إمبراطوريتها بعد انتهائها ، تماماً كما فقد هو إمبراطوريته . وكان إذا ما حاول وزراؤه تشجيعه ، يقابل تشجيعهم هذا بالهزء والسخرية . وعندما حدثه جرازيانى ، عن مشاجرته الأخيرة مع كيسلرينج، راح يهز كتفيه ، مبدياً عدم اكتراثه . وعندما اقتحم ميزاسوما عليه مكتبه ذات يوم ، هاتفاً بأن هناك « أنباء رائعة » ، وأن الألمان شنوا هجوماً مضاداً ناجحاً على نهر الموز ، كان تعليقه الوحيد ، يعكس عدم الاهتمام ، وكأنه لم يفهم ما قاله الوزير الشاب المتحمس . . . إذ قال « هذا حسن » ثم أومأ إليه بيده ، صارفاً إياه من حضرته ، ودون أن يكلف نفسه عناء سؤاله عن التفاصيل .

ومضى فى الذكرى السنوية لوفاة دانونزيو إلى قصر الفيتوريالى ، حيث وقف إلى جانب قبر الشاعر ، ثم ألقى خطاباً حزيناً طافحاً باليأس ، وصفه أحد سامعيه « بالاقتضاب والغموض والكآبة ، والإحساس بالمأساة » . وكان وجهه حزيناً شاحباً ، ويبدو « كالرخام » ، بينما كانت السماء ملبدة بالغيوم ، والجو فى منتهى السوء . وراح موسولينى يقول . . . « إنك لم تمت يا صديقى ، ولن تموت ، طالما أن هناك جزيرة باقية فى البحر المتوسط تسمى إيطاليا . إنك لم تمت ولن تموت طالما أن هناك فى وسط إيطاليا مدينة لابد من أن نعود إليها ، هى مدينة روما » .

ووصف ميزاسوما حالته فى تلك الأيام بقوله . . . « إنه يعيش على أحلامه ، وبأحلامه . ولم يعد له أى اتصال بالواقع . فهو يعيش ويعمل فى عالم بناه لنفسه ، عالم فى منتهى الغرابة والشذوذ . فقد تعدى نطاق الزمن . ولم تعد لردود فعله أو مجالات حماسته أو انهياراته أية صلة بالحياة . فهى تفد إليه فى أية لحظة ، ودون أى سبب محدد » .

وكان يتحدث أحياناً ويتصرف كما يتحدث ويتصرف أى شاعر مجنون فى الواقع ، وهو الوصف الذى كان قد ادعاه لنفسه قبل نحو من عام .

ووصف الصحفى إيفانو فوسانى مقابلة جرت له مع موسولينى فى تلك الأيام . وقد جرت هذه المقابلة فى جزيرة تريميلون الواقعة فى وسط بحيرة جاردا ، وفى العراء تحت سماء تسطع فيها النجوم . وكان ثمة كلب بوليسى ينبح بشدة ووحشية ، ومضى موسولينى إليه فأمسك بفكه الأسفل بإحدى يديه ، ليربت عليه باليد الأخرى . وراح موسولينى يتطلع فى عينى الكلب ، فوصفهما بأنهما هادئتان ، وتوقف الكلب عن النباح بعد لحظات ، وأقعى عند قدميه لِداء ثم مضى فى إغفاءة طويلة ، بينما شرع موسولينى فى الحديث إلى الصحفى . وكان يتحدث بسرعة وبصورة تحمل طابع الإسهاب ، حتى إنه عندما انتهى من حديثه وعاد فى زورقه البخارى إلى جرجنانو ، ظل فوسانى يكتب باستمرار ثلاث ساعات متوالية ، محاولا تسجيل كل عبارة قالها . ولم يفه الصحفى طيلة المقابلة إلا بكلمة واحدة هى « تيل » ، وهى اسم الكلب البوليسى . وراح يعلق على ما كتبه قائلا . . . « وخفت منذ البداية أن يقطع سماع صوتى انسياب هذا الرجل ، الذى كان قد قرر الاعتراف للنجوم » .

فقد أحس موسولينى بالحرية بعيداً عن حراسه وعن الألمان ، ونائياً عن ثورات زوجته الغاضبة ، ودموع عشيقته ، وراح ينطلق متعبداً لها ، وكأنه أصيب بالهذيان ثم قال . . . « ولو كان هذا اليوم من أيام الصيف . لنزعت معطفى وأخذت أتدحرج على العشب ، وكأننى طفل شقى سعيد » . وراح يحدث الصحفى عن النجوم وعن القوة الخفية للروح وعن ولده الصريع وأخيه أرنالدو ، وعن تفاهة الحياة الإنسانية . وروعة حياة الروح . كان يتكلم كنبى محموم ، ينسج بأقواله بين الحقيقة والخيال اللذين لا رابط بينهما ، متنقلا من فكرة إلى أخرى بعيدة عنها كل البعد ، خائضاً فجأة فى سلسلة طويلة من التناقضات والاستعارات الكثيرة والأفكار نصف الواضحة ، لينطلق بملاحظة تجمع بين الصدق والوضوح ، أو نبوءة تنطق بالاستشفاف العميق للغيب . وحاول تحليل أسباب نجاحه وفشله ، فقال إنه غير معصوم ، وإنه قد أخطأ كثيراً ، وإن فى وسعه أن يرى الآن أخطاءه

ويتبينها . ولم يكن من السهل عليه أن يفعل ذلك فى الماضى إذ أنه ظل سنوات طوالا محاطاً بالمنافقين من عبدة الأشخاص . . . » وراح يقول بعد ذلك فى شىء من التقزز الحزين . . . « كنت أسمع تعبير العبقرى ، أكثر من مائة مرة فى اليوم » . ولكن غيره اقترف أخطاء أكبر ، وكان فى وسع الناس أن ينسوا أخطاءه كلها ، لو أن الحرب التى فرضتها عليه السياسة الخارجية البريطانية الشيطانية ، قد سارت من جانب الألمان بطريقة أكثر تحفظاً وأدق قيوداً . فلقد وقع الهجوم على روسيا خلافاً لنصائحه وضد رغباته ، وهاهى ألمانيا تقف على عتبة الدمار ، وسيصبح الروس عما قريب فى وضع فى أوربا الوسطى ، يستحيل إخراجهم منه . ولو اقترفت هذه الأخطاء عينها فى الشرق ، لكان فى إمكان الصين أيضاً أن تطيح بالعالم كله . . . « ترى كيف يمكن لإنجلترا وأمريكا التغافل عن مثل هذا الخطر الهائل ؟ »

وقادته هذه الإشارة إلى الإنجليز ، إلى موجة جديدة من الحقد الغاضب عليهم . وراح يهاجمهم ويهاجم الفرنسيين لأنهم لم ينصروه فى مطالبته بتعديل معاهدة فرساى ، وإلغاء ديون الحرب وتعويضاتها ، وفى موقفه ضد ألمانيا فى مستهل الثلاثينات . وحمل على الملك وعلى الحاشية الرجعية التى أحاطت به ، كما هاجم البورجوازية التى تسللت بروح كاذبة إلى عقيدة الفاشية . وهاجم القيادة العامة لأنها خانت الجنود ، كما حمل على الجماعات الصناعية والمالية الدنيئة ، لأنها « أساءت معاملة العمال الذين كان ولا يزال يحبهم باستمرار ، لأنهم طيبون وصامدون ، ولأنهم يتفوقون على جميع الأدعياء الكاذبين الذين يزعمون تمثيلهم ». وحمله التفكير فيهم إلى الإغراق فى حالة نفسية كئيبة إذ قال « ما زلت سجيناً ، منذ اعتقلت أول مرة فى قصر الملك ، ولم يعد ثمة مفر . فأعداؤنا يطلبون منا التسليم دون قيد أو شرط . . . أما بالنسبة إلى الآخرين ، فنحن خونة ، ولم تعد لدى أوهام فى موضوع مصيرى . وليست الحياة إلا مرحلة قصيرة من مراحل الخلود . وعندما تنتهى الحرب ، سيبصق الناس على ، ولكنهم قد يجيئون فى يوم آخر ، فيمسحون عنى بصاقهم ، وآنذاك سأبتسم ، إذ أننى أكون قد تصالحت مع شعبى » .

وهب من مكانه بعد كل هذا الحديث ، وودع فوسانى مصافحاً إياه . وروى الصحفى ، أنه أحس ، وقد رأى موسولينى يمضى إلى زورقه ، بالتأثر العميق لهذه الكبرياء الهادئة التى تبدو عند هذا « الرجل العظيم الشقى فى ساعة مأساته » ، وانطلق الكلب الضخم يقفز إلى صخرة قريبة ، ليصدر عن نباح طويل حزين .

ولكن إذا كان فى مكنة هذا الصحفى أن يتميز العظمة فى هذه الشخصية المحزنة فى ساعة من ساعات الإشفاق الذاهل ، تحت السماء الصافية التى ترصعها النجوم ، فإن مثل هذا التمييز كان صعباً على الصحفيين الذين كانوا يلقونه دائماً فى مكتبه الصغير المكتظ فى دارة أورسولينى . وردّدت الصحفية ماديلين موليير ، بأنها وجدت فيه رجلا لم تستطع التعرف إليه ، إذ بدا كمجرم مدان بوجهه الشاحب ورأسه الحليق . وعينيه السوداوين اللتين ينقصهما البريق . وكان أكثر استسلاماً منه تواضعاً . وكان استسلامه هذا ، وتقبله الهادئ لمصيره ، يحمل طابع الاعتذار ، واستثارة الإشفاق .

وراح يسألها . . . « ما الذى تريدين أن تعرفيه . إنى أذكر أنك جئتنا فى رومة قبل سبع سنوات . كنت آنذاك رجلا يهتم به الناس ويثير اهتمامك . أما الآن فأنا رجل عاجز . ولكن لم يعد يخيفنى شىء . فالموت شكر الله الذى احتمل منى الكثير . وقد صادوا صباح اليوم عصفوراً صغيراً فى غرفتى . كان يطير بيأس فى الغرفة يبحث عن منفذ ، إلى أن أعياه الجهد فسقط على السرير . وحملته بحنان مخافة أن أفزعه . ثم فتحت له النافذة وأطلقته إلى السماء . ويبدو أنه ذهل فى البداية ، وراح يتطلع حوله ، قبل أن ينشر جناحيه ليطير ، مزقزقاً زقزقة الفرح ، منطلقاً إلى الحرية . لن أنسى ما حييت هذه الزقزقة . ولكن هذه النافذة لن تفتح لى أنا ، إلا لتقودنى إلى الموت . وهذا جزاء استحقه . فقد أخطأت كثيراً ، ومن حقى أن أكفر عن أخطائى بحياتى ، إذا كانت توازى هذه الأخطاء ، وأود أن أقول ، إننى لم أخطئ قط عندما كنت أسير على هدى غرائزى ، وإنما أخطأت عندما أصخت السمع لنداء العقل . . .

« أجل يا سيدتى : فقد انتهيت . وقد أفل نجمى . وأنا لا أزال أعمل ، ولكنى

أعرف أن ما أعمله ليس إلا تضليلا . وأنا أنتظر نهاية المأساة . وقد نأيت عنها إلى حد غريب . وأنا مريض . وقد انقضى على عام كامل لم أتناول فيه من الطعام إلا السوائل . وأنا لا أشرب ، ولا أدخن . . . وقد يكون القدر قد شاء لى أن أبين الطريق إلى شعبى ، ولكن هل سبق لك أن سمعت بديكتاتور متأن ، يحسب لكل شيء حسابه » .

وقال لزائرته إنه لا يعزى نفسه الآن إلا بكتبه ، وهى من خير ما ألفه كبار الفلاسفة . وهو لا يريد وهو ينتظر نهايته ، إلا أن يقرأ ، وأن يواصل القراءة . . .

وعندما سألته عن تشيانو قال . . . « مت أنا منذ ذلك الصباح من يناير ، عندما لقى هو حتفه . والعذاب طويل ولا يطاق . فأنا كقبطان سفينة هاجمتها العاصفة . وقد تحطمت السفينة . ووجدت نفسى وسط محيط متلاطم الأمواج ، وعلى ظهر لوح من الخشب لا أستطيع توجيهه ولا التحكم فيه . ولم يعد هناك من يسمع صوتى . ولكن العالم بأسره ، قد يصيخ السمع لى ذات يوم » .

وكان يتحدث على هذا النحو لكل من يأتى لزيارته فى هذه الأيام . فهو دائماً يتحدث حديث الذى يحس بالمأساة ، بل حديث الصوفى الغامض أحياناً ، والشاعر فى أغلب الأحايين . وقال ذات يوم للكاتب الفرنسى الشاب بيير باسكال ، الذى ترجم إلى الفرنسية كتابه « حديث مع برونو » . . . « أرأيت هذا الصباح وأنت فى طريقك إلى هنا ، ألوان البحيرة الفاقعة ؟ أرأيت زرقتها الشديدة ؟ أنا أنظر إليها عندما تكون حمراء عند المغيب أو بيضاء عند برودة الفجر ، وأراها ، وكأنى أبصرها لأول مرة . إن الجمال فى إيطاليا شيء لا يوصف » . وفجأة راح يغير موضوعه ، دون أن ينتظر جواباً ويسأل باسكال إذا كان يؤمن بالله . وقال إنه لا يعرف حقاً أن كان يؤمن بالله ، ويود لو آمن به . وقفز فى حديثه من الله إلى نابوليون فإلى شارل مورا[1] ومنه إلى المصورين الإيطاليين فدانتى فدانونزيو ، مبتعداً عن كل حديث عن السياسة ، إلى أن ذكر باسكال حاجة أوربا إلى

---

(١) شارل مورا ، (١٨٦٨ — ٠٠٠٠) كاتب ملكى فرنسى من أهل اليمين . ترك أثراً ملحوظاً على الفاشية وكان من أشد خصوم الشيوعية . وقد أدين بالسجن فى عام ١٩٤٥ مدى الحياة بتهمة التعاون مع الألمان أثناء الاحتلال . ألف عدداً من الكتب منها « تقدم العقل » و « ثلاث أفكار سياسية » .
« المعرب »

الوحدة للدفاع عن نفسها ضد تدخل الإنجليز . . . فقال موسولينى وكأنه يبعد كل فكرة عن الإنجليز الذين لا يحبهم والذين أسهموا كثيراً فى الدمار الذى حل به . . . « هذا هو الواجب الملقى على أبناء جيلك ، والجيل الذى يليه » .
ولم يكن فى وضع يرغب فيه بالحديث عن السياسة ، وبعد أن أبدى باسكال بعض الملاحظات عن رجال المقاومة السرية فى إيطاليا ، ورجالها فى فرنسا ، أوقف موسولينى الحديث فجأة .

ووجده كاتب آخر هو بيار ريجيدورى كورتى ، عازفاً كل العزوف أيضاً ، عن التحدث عن الأحداث الراهنة . وآثر أن يتحدث عن مازينى وجاريبالدى ، وعن الفلسفة والحب الجنسى . وقال إن كل حب لابد أن يموت سريعاً ، نتيجة عجز العاشقين عن فهم بعضهما . وعندما علق كورتى بأن خيبة الأمل تقع عندما تؤخذ الشهوة على محمل الحب ، أشار موسولينى إلى أفلاطون وأنهى المقابلة قائلا بأنه يعتقد من ناحيته أن الحياة تعنى الألم .

وكثيراً ما قاطع اجتماعاً مهمًّا يعقده مع وزرائه أو مع الألمان ، ليتحدث عن الفلسفة أو التاريخ أو الدين . وفى السادس من أبريل ، وكان الحلفاء قد شنوا هجومهم الأخير ، واحتلوا ماسًا ، وشرعت الجيوش الألمانية فى التراجع السريع عبر تسكانيا ، أذهل العقيد دولمان ، الذى كان لا يشغله شىء سوى مشاكل الانسحاب والتسليم ، عندما قال له ، وسط مناقشة فى منتهى الأهمية . . . « قل لى يا عقيد . . . أتؤمن بالله ؟ إن الجنرال وولف يؤمن به » .

١٢

الألمان يستسلمون . . .

من فبراير إلى أبريل ١٩٤٥

« من حقى أن أعرف على الأقل ، حقيقة ما يدور » .

كان العقيد دولمان والجنرال وولف من قادة الحرس النازى يتفاوضان منذ مدة دون علم موسولينى مع الحلفاء ، حول استسلام الجيوش الألمانية فى إيطاليا . وكان الوسيط الكردينال ايدلفونسو شوستر ، رئيس أساقفة ميلان ، الذى ذاع أمر حكمته فى العالم بأسره ، والذى كان على اتصال بهما منذ مطلع شهر فبراير ، عندما اقترح عليهما ، رغبة منه فى إنقاذ إيطاليا والحيلولة دون المزيد من التضحية بأرواح الألوف من الناس ، أن يسمحا له بالتفاهم نيابة عنهما مع قادة المقاومة السرية . وقال الكردينال إن رجال المقاومة يزدادون عدداً فى كل يوم ، ويحسن تنظيمهم ، وهم يتلقون المزيد من الأسلحة والمعدات التى يبعثها الحلفاء إليهم . وقد بحث العقيد دولمان فى اقتراح الكردينال مع الجنرال وولف ، واتفق القائدان الألمانيان ، على أن يبعث الكردينال بممثل عنه إلى مقر قيادة المقاومة السرية لمقابلة الجنرال كادورنا . وقد اختار هذا قسيساً ذكيًّا ، يدعى الدون جيوسيبى بيشيبراى كان يعمل كاهناً مع الجيش من قبل .

وتمكن العقيد دولمان فى غضون ذلك من الحصول على تأشيرة تسمح بالسفر إلى سويسرا ، للبارون لويجى باريللى ، الممثل السابق لإحدى الشركات التجارية الأمريكية فى إيطاليا ، تحت ستار الاستشفاء . وأقام هذا فى زيوريخ ، فى بيت صديق له يدعى الأستاذ هوسمان ، مدير معهد زوجربرج .

وجاء إلى البيت ذات مساء بعد وصول باريللى إلى زوريخ ، رجل لا يعرفه الأستاذ ، قال إنه جاء لقراءة عداد الغاز . وصعق الأستاذ هوسمان دهشة عندما قدمه باريللى إليه على أنه العقيد دولمان من قادة الحرس النازى ، وطلب إليه أن يتصل فوراً بالسفارة الأمريكية ، وأن يطلب إلى المستر آلان دالاس ، المجىء

لمقابلته . ولم يرغب دالاس فى أن يقحم نفسه فى المفاوضات وهى فى هذه المرحلة ، فأوفد مساعده الدكتور جيفرنيتز . واجتمع الرجلان فى مقهى بيانشى ، حيث اعترف الألمانى بأن اسمه لابد أن يكون على قائمة مجرمى الحرب عند الحلفاء ، وأنه مقابل رفع اسمه ، على استعداد للمساعدة فى إنهاء الحرب فى إيطاليا[1] . لكن جيفرنيتز ظل متشككاً فى الموضوع ، وما كان ليصدق بأن دوللمان يعتزم حقاً ترتيب موضوع التسليم أو أنه قادر عليه ، وطلب منه للتدليل على قدرته وحسن نواياه ، أن يأتى إلى الحدود السويسرية بأحد الزعماء البارزين فى عدائهم للفاشية ، والمعتقل فى أحد السجون الإيطالية . وسرعان ما وافق الألمانى على تنفيذ الاقتراح ، وطلب منه أن يسمى له الرجل . وقال جيفرنيتز إن عليه أولا أن يستشير رئيسه ، ثم عاد مسرعاً إلى دالاس .

وقال دالاس . . . « اطلب منه فيروشيو بارى » ، معتقداً أن دوللمان لن يلبث أن يختلق الأعذار ، لاستحالة إطلاق سراح مثل هذا السجين البارز . ولم يمض أسبوع حتى كان فيروشيو بارى وزوجته ، وشخص يدعى أوسيميني ، من القادة البارزين الآخرين فى مناهضة الفاشية والمحكوم عليهم بالإعدام فى سجن فيرونا قد وصلوا إلى سويسرا .

ووصل الجنرال وولف نفسه فى الثامن من مارس إلى سويسرا . والتقى بالأستاذ هوسمان فى إحدى عربات القطار السريع بين شياسو وزوريخ . وسرعان ما اجتمع بآلان دالاس ، الذى لم يعده بشىء ، وإن كان قد ألمح إلى أنه سيضمن له مستقبله إذا انتهت المفاوضات نهاية ناجحة . وعندما عاد إلى إيطاليا ، فوجئ الجنرال ، بأن الماريشال كيسلرنج ، الذى كان يعتمد فى مشروعه كثيراً على سلامة منطقه ، قد نقل أثناء غيابه من إيطاليا إلى الشمال ، ليخلف الماريشال

---

(١) كان اسم دوللمان على قائمة مجرمى الحرب حقاً . فقد كان المسئول عن إقامة غرف تعذيب الجستابو فى شارع تاسو وفى سجن جاكارينو فى رومة ، وعن أعمال الحرس النازى فى فندق ريجينا فى ميلان ، وكان المسئول أيضاً عن قتل الرهائن على طريق أوربا . وكان هذا الشاب جميل الصورة وفى منتهى الذكاء ، وقد ألحق بالسفارة الألمانية فى رومة منذ عام ١٩٣٩ ، إذ كان يعيش فى العاصمة الإيطالية قبل هذا التاريخ ، وكانت أمه وهى ابنة طبيب فى ميونيخ ، تدير منزلا « بنسيوناً » فى رومة .

« المؤلف »

رونشتادت فى القيادة العامة للقوات الألمانية فى الجبهة الغربية ، ليحاول منع الجبهة الألمانية هناك من الانهيار . ولم يكن فى وسع وولف أن يتأكد من مدى الثقة التى يستطيع إيلاءها ، للجنرال فيتينجهوف خليفة كيسلرنج ، ولكنه استمر فى مفاوضاته أملا منه فى أن يقبل فيتينجهوف وغيره من ضباط الجيش الألمانى الشروط التى سيتمكن من الحصول عليها إبان مفاوضاته . واجتمع فى التاسع عشر من مارس مع الجنرال الإنجليزى ايرى والجنرال الأمريكى ليمنتيزر على مقربة من الحدود الإيطالية — السويسرية فى اسكونا على بحيرة ماجيورى ، وبحث معهما فى شروط الاستسلام . ولكنه عندما عاد إلى مقر قيادته فى إيطاليا ، فوجئ من جديد بأنباء غير سارة . فقد تحدث إليه هملر هاتفياً من برلين يقول إن الجستابو قد فرضت رقابتها على أسرة الجنرال وزوجة دولمان . ومنع الجنرال وولف من مغادرة إيطاليا ثانية ، ودأب هملر ، على التحدث إليه هاتفياً بين آونة وأخرى ، لينقل إليه أنباء أسرته . وقال وولف للبارون باريللى ، إنه يجد نفسه مضطراً إلى وقف المفاوضات ولكن هذا أقنعه بأن الخطر الذى يهدده كمجرم حرب أكثر من الخطر الذى قد يهدده إذا ما أصبح الألمان يشتبهون بخيانته . وهكذا وافق وولف على الاستمرار فى الاتصال بالحلفاء عن طريق جهاز إرسال وضعه فى غرفة نوم مرافقه . وحصل فى اليوم الأخير من شهر مارس على موافقة القائد العام فيتينجهوف على شروط الاستسلام . وفى الثالث عشر من أبريل ، استدعى إلى برلين ، فودع أصدقاءه وكتب وصيته .

ولكنه عاد إلى إيطاليا قبل انقضاء أقل من أسبوع . واستمع هتلر فى الساعة الرابعة والنصف من صباح الثامن عشر من أبريل ، وكان لا يزال فى ملجأ دار المستشارية إلى تقرير وولف ، الذى أراد منه هملر أن يقدمه إلى الفوهرر حول الوضع فى إيطاليا . وروى وولف فيما بعد أن الفوهرر ظل صامتاً ، شبه ذاهل ، وهو يصغى إلى تقريره ، ثم تحدث أخيراً لا عن إيطاليا بل عن الفرصة التى كان لا يزال يحلم فيها فى التفريق بين روسيا وبين البريطانيين والأمريكان . وكان وولف نفسه يعرف أن لا صحة لهذا الأمل الواهم ، إذ أن ممثلى الحلفاء ، رفضوا بسرعة وإصرار وثبات ، اقتراحاً كان قد ألمح إليه فى مستهل مفاوضاته معهم حول استسلام الجيش الألمانى

فى إيطاليا ، وهو أن يسمح لما تبقى من قوات المحور فى إيطاليا ، بعبور الألب دون مضايقة لتكون حرة فى محاربة الروس، وأكدوا أن حلفهم مع الروس قوى لا يمكن أن يحل أو يضعف . ولكنه أحس وهو يغادر الملجأ ، أن الأمل الوحيد الذى بقى لهتلر ، هو أن يقع الخصام بين أعدائه . أما إيطاليا ، فكان قد أسقطها من حسابه منذ زمن بعيد .

ولم يمض أسبوع على عودته إلى إيطاليا ، حتى كان وولف يقابل ممثلى الحلفاء للمرة الأخيرة عند الحدود السويسرية ، ويتفق معهم حول التفاصيل النهائية لاستسلام الجيوش الألمانية استسلاماً غير مشروط ، والعمل الذى يجب أن يقوم به ضد كل من تسول له نفسه من جنرالات الجيش الألمانى ، معارضة هذا الاستسلام . ومضى وولف مع العقيد دوللمان فى اليوم الذى تلا عودته من شياسو إلى قصر الكردينال شوستر فى ميلان ، ليجتمع هناك إلى ممثلى حركة المقاومة ، الذين أيدوا قبولهم لشروط الاستسلام التى اتفق عليها مع الحلفاء ، وراحوا يعلنون له أن لجنة التحرير الوطنى لشمال إيطاليا قد أصدرت أوامرها بإعلان الثورة العامة على حكومة موسولينى فى الخامس والعشرين من أبريل . وتأيد فى هذا الاجتماع أيضاً أنه قبل صدور الأوامر بالشروع فى الثورة ببضع ساعات ، سيصدر الجنرال وولف أمره إلى العقيد راوف رئيس الجستابو فى ميلان ، بمنع قوات الحرس النازى من التدخل فى أية قضية إيطالية صرف .

ولم ينقل إلى موسولينى بالطبع شىء عن كل ما وقع . لكن الشائعات وصلت إلى جرجنانو . وكان الجنرال وولف نفسه قد ألمح إلى وجود شىء من الاتصال مع الحلفاء فى سويسرا ، وذلك إبان مقابلة عاصفة مع موسولينى ذى الوجه الجامد كالصخر فى السابع والعشرين من فبراير . واعترف موسولينى فى حديث له مع ألبرتو ميلينى ، من موظفى وزارة الخارجية بشكوكه فى أن شيئاً يدور وراء الستار . وقد اعتقد أن « شوستر » يقوم بعمل ما . وأن الألمان على اتصال بلجنة التحرير الوطنى فى ميلان . وبينما كان يعترف بأن هناك نوعاً من الاتصال بين الحرس النازى والمقاومة الإيطالية ، إلا أنه تحجج بأن المواضيع التى يجرى بحثها لا تتعدى حدود بعض القضايا المحددة للغاية ، ونفى أن يكون هو أو أى ألمانى آخر ، قد أجرى

مفاوضات مع الكردينال شوستر . وزعموا لموسوليني أن إطلاق سراح باري ، قد جرى لمصلحة الشعب الإيطالي الذي سيفيد من تخفيف التوتر الذي لا بد أن ينتج عن مثل هذه البادرة الطيبة ، وقد قبل موسوليني هذا التعليل ، وأبلغ ميلليني أنه لا يعترض على إطلاق سراح الرجل ، ولكنه لا يستطيع أن يصدق أن الشائعات التي سمعها عن الاتصالات الألمانية ، لا أساس لها من الصحة . وقال لمحدثه . . . « وإني لعلى ثقة بأنهم يتعاملون مع لجنة التحرير الوطني . وقد يحسن ران وولف الصنع لو أخبراني ماذا يدور في خلدهما » . ثم قال بشيء من الغضب . « فمن حقي أن أعرف على الأقل ، حقيقة ما يدور » .

وقرر في الثالث عشر من مارس ، أن يخطو خطوة من جانبه ، فأوفد ولده فيتوريو إلى الكردينال شوستر ، حاملا رسالة يقترح فيها شكلا من أشكال الضمان للسكان المدنيين في حالة وقوع انسحاب ألماني عام من إيطاليا ، وانسحاب القوات الإيطالية إلى مراكز دفاعية في جبال الألب . ولكن خطوة موسوليني لم تكن كافية في نظر الكردينال ، وإن كان القاصد الرسولي في بيرن قد أمر بنقلها إلى قيادة الحلفاء العليا في كاسيرتا ، حيث رفضت على الفور رفضاً قاطعاً ، لأن الحلفاء لا يقبلون بغير الاستسلام اللامشروط . ورفض موسوليني بدوره التفكير في هذا الاستسلام ، إذ كان متردداً حتى تلك اللحظة في الاعتقاد بأن الألمان قد أقروه . وتلقى في السادس من أبريل تقريراً يقول إن الأوامر قد صدرت إلى بعض الوحدات الألمانية بإعداد العدة للجلاء عن إيطاليا ، ولكن لم يمض يوم أو يومان حتى كان يسمح للجنرال فيتينجهوف ، بإقناعه ، بأن حلفاءه الألمان سيقاتلون حتى النهاية . وأكد له الجنرال أن كل ما يسمعه من شائعات عن استسلام الألمان « عمل من أعمال الدعاية المعادية » .

١٣

الانتقال إلى ميلان

من ١٩ إلى ٢٥ أبريل ١٩٤٥

« ظللت أقامر حتى النهاية ، وكنت المغلوب فى نهاية المغامرة » .

استقبل موسولينى فى الثالث عشر من أبريل ، وكيل وزارة الداخلية .

وراح يسأله بكل وضوح . . . « قل لى ! ما رأيك فى الحرب الآن ؟ »

ورد وكيل الوزارة . . . « ليس ثمة من شك فى أننا قد خسرناها » .

واحتج موسولينى على ذلك ، قائلا إن المقاومة تشتد فى ألمانيا ، وإنهم يقاتلون دفاعاً عن كل شبر من الأرض .

ورد وكيل الوزارة . . . « لكن الخلجات الأخيرة لا تؤثر على النتيجة . . . »

وصمت موسولينى . . . ثم قال بشىء من النعومة . . . « أجل إنك على حق . هذه هى الحقيقة ، ولم يعد فى وسعنا أن نعمل شيئاً » .

وقد قدر لهذه القدرية التى تخللتها دفقة واحدة من الأمل ، أن تعيش مع موسولينى حتى النهاية . فقد قبل الأمر الواقع ، وأن النصر بات مستحيلا ، وتركزت أفكاره الآن على الطريقة التى سيؤلّه فيها ويمجد . واقترح بعض وزرائه ، أن يصمدوا للمرة الأخيرة فى تريستا ، بينما اقترح البعض الآخر ، يؤيدهم الجنرال وينينبيج ، قائد الحامية الألمانية فى ميلان ، الدفاع عن المدينة وتحويلها إلى ستالينجراد إيطالية . ورأى البعض الثالث ، أن خير خدمة لأسطورة الفاشية ، أن يظل الفاشيون يقاتلون حتى الموت فى جبال الألب . وجاء بافولينى فى الرابع عشر من أبريل إلى اجتماع عقد فى دارة أورسولينى ، ليعرض خطته فى إظهار هذه الإيماءة الأخيرة من الإيمان والتحدى فى فالتيلينا إلى الشمال من برجامو . ولم

يعترض أى من الألمان الذين شهدوا الاجتماع ، وبينهم الجنرال وولف ، على خطة بافوليني ، كما لم يذكروا شيئاً عن احتمال استسلام الألمان .

ولم يتحدث موسوليني بالكثير فى هذا الاجتماع ، وبدا راضياً باقتراحات بافوليني دون مناقشة ، سارحاً بفكره فى أماكن أخرى ، وكأنه يعد نفسه للموت . وعندما اعترض جرازياني على هذا المشروع وهاجم بافوليني لأنه لم يعد تفاصيل وافية عن مخططه ، راح موسوليني يقول بمنتهى الهدوء . . . « ليس ثمة من إرغام على أحدكم بالمضى إلى فالبتلينا . وعلى كل منكم أن يقرر لنفسه ما يشاء » .

وعندما وفد عليه الأب يوسيبيو ، كاهن الجيش الذى سبق له أن تحدث إليه عدة مرات فى جرجنانو ، كان حديثه الأخير إليه ، أشبه بوصية الرجل المشرف على الموت واعترافه . فقد بات مقتنعاً من الهزيمة. وخيل للأب أنه أخذ يتوقع الميتة العنيفة التى كانت تنتظره[1] . وقال لكاهن آخر هو الدون بانسينو ، جاء يزوره بعد يومين . . . « ودعنى الآن أيها الأب . وشكراً لك على الصلاة التى أديتها من أجلى . وكل ما أرجوه أن تواصل الصلاة من أجلى ، إذ أننى فى حاجة . إليها . فأنا أعرف أنهم سيقتلوننى » . وأوحى بنفس الانطباع من اليأس والاستسلام إلى دينالى ، الثورى العجوز الذى عرفه منذ أيام شبابه فى سويسرا . . . عندما قال . . . « هناك إشارات مرة عن المصائب ، عالقة فى الجو » . . . ثم راح يدعى نفس الإحساس المسبق بالنكبة الذى أحس به فى رومه فى اليوم الذى سبق اعتقاله ، وقال . . . « يشاء القدر لى أن أصاب . لقد استثرت الحظ ضدى فانقلب على . ولا ريب فى أن المؤمنين الذين لم أحسدهم قط كما أحسدهم اليوم ، سيشيرون إلى يد العدالة الإلهية . وقد أصبحت الحوادث بالنسبة إلى جزءاً من التاريخ . فقد ظللت أقامر حتى النهاية ، وكنت المغلوب فى نهاية المقامرة . وإنى لأودع الحياة دون أحقاد ودون كراهية ودون كبرياء . الوداع » .

ورد دينالى . . . « إلى اللقاء » .

---

(١) قال لشقيقته متحدثاً عن وفاة مازوليني وكيل وزارة الخارجية . . . « مسكين مازوليني . ولكنه مات فى فراشه كما أراد أن يموت ، ومن يدرى أين سنموت نحن ، وما سيلحق بعظامنا بعد موتنا » .
« المؤلف »

ـ لا . لا . لم تعد هناك أوهام . الوداع .

واجتمع وزراء الجمهورية الاشتراكية للمرة الأخيرة فى السادس عشر من أبريل . وقال موسولينى إن الاجتماع المقبل ، سيعقد فى ميلان . قال هذا بشىء من التحدى الساخر اللاواعى ، راجعاً بفكره إلى انتصاره الأخير فى تلك المدينة قبل نحو من خمسة أشهر فى ديسمبر . . . وكان قد أسرّ لميللينى قبيل الاجتماع . . . « لم أحب قط هذه العزلة ، حيث أجد نفسى مبتوت الصلة بالشعب . فقد ضاعت رومة وباتت ميلان هى العاصمة الوحيدة للجمهورية الإيطالية »[1] .

خريطة منطقة بحيرة كومو

وأعد عدته فى الساعات المبكرة من مساء التاسع عشر من أبريل ، بالرغم من نصائح ولف وران ، للرحيل إلى ميلان ، مصحوباً بحرس من القوات الألمانية يقوده النقيب أوتو كيسنان من الجيش الألمانى والملازم فريتز بيرزير من رجال الحرس النازى ، وهو ضابط شاب يبدو الحزن على محياه ، وقد صدرت إليه الأوامر بأن لا يدع الدوتشى يغيب عن ناظريه لحظة واحدة .

(١) كان يريد فى السابق نقل عاصمة الحكم إلى الجنوب إلى مركز متوسط عند مونزا ، ولكن الألمان لم يسمحوا له بذلك ، وقد نصحوه الآن بعدم الرحيل إلى ميلان ، على اعتبار أن بحيرة جاردا تقع على الطريق الرئيسى لتراجع الجيش الألمانى ، أما فى ميلان فسيكونون عاجزين عن تأمين الحماية الكافية للفاشيين ضد رجال المقاومة السرية . « المؤلف »

وكانت الشمس تشرف على المغيب عندما ودع راشيل فى حديقة الدار ، قائلا لها إنه سيعود إليها فيما بعد . وذكرت راشيل فيما بعد « وقد تحدث أيضاً عن احتمال الصمود الأخير فى فيلتيلينا . ولم أجد سبيلا ، لمناقشته » . وكان أكثر وضوحاً مع شقيقته ايدفيج . فقد ذكر أن ألمانيا شارفت على نهايتها وأنها ستقسم بعد الحرب بين الروس والحلفاء الغربيين . أما بالنسبة إليه . فقد ذكر ، ويبدو أن حبه فى البلاغة لم يزايله لحظة واحدة ، بأنه بات على استعداد « لولوج صمت الموت الرهيب » .

وأقام موسولينى مكتبه فى ميلان فى الطبقة الأولى من دار المحافظة فى قصر مونفورتى ، حيث ظل لمدة خمسة أيام متوالية . يتلقى سيلا لا ينقطع من الزائرين . وخلفت الأحاديث المتواصلة ، وجو الإثارة المحمومة ، فى نفسه بعض الارتياح . فقد وصل إلى ميلان عصبى المزاج ، بادى اليأس ، لا يكترث بشىء . أما اليوم ، أى فى العشرين من أبريل ، فقد عاوده هدوؤه ، وأصبح أكثر ثقة بنفسه . وراح يتحدث عن مقاومة تستمر شهراً فى فيلتيلينا ، مما يتيح له الفرصة لإقامة حكومة مستقرة تتولى القيام بصلح شريف . وأخذ يبحث جاداً فى احتمال إقامة جبهة جديدة مع الاشتراكيين ضد الملكية . ووجده الصحفى كابيلا ، عندما قابله فى العشرين من أبريل « فى حالة صحية طيبة على العكس مما كان يقوله الناس » . وبدا أكثر بدانة من المرة الأخيرة التى لقيه كابيلا فيها ، وأكثر مرحاً ، وهو يسأله عما يستطيع أن يفعله من أجله . . . وقال الصحفى « أريد صورة لك موقعة » . فأعطاه موسولينى صورته وقد وقعها بشىء من الاعتزاز على النحو الذى ألفه فى السابق . . . « السنة الثالثة والعشرون للعهد الفاشى » ، وكأن هذا العهد ، لا يزال فى بدايته ، ولم يصل نهايته . وكان يقول ، إن حياته قد شارفت على النهاية لكن إيطاليا والفاشية لن تموتا أبداً .

وقال كابيلا يسأله . . . أتثق حقاً فى شوستر ؟

وسرح موسولينى بنظره من النافذة ، ونشر يديه بالصورة المعروفة عنه وقد رفع راحتيه إلى السقف يقول . . . « إنه ماكر إلى حدما ، ولكن على الإنسان أن يصدق رجال الله » .

وقال كابيلا . . . « أحقًّا هناك أسلحة سرية ؟

ورد موسولينى جازماً . . . « هناك أسلحة ، وقد تلقيت أنباء عنها منذ بضعة أيام » . وقد تكون المؤامرة على حياة هتلر ، قد أجلت الأمور بعض الشىء لكن التيار سيتحول قريباً . وقال لكابيلا ، إنه يود لو تتاح له الفرصة ، لتصحيح « تجارب » المقال الذى سيكتبه فى صحيفة « البوبولو دى اليساندريا » ، وقد وجد هذه الفرصة فعلا ، إذ شوهد وهو يصححها بعنايته المألوفة .

وعندما زاره السفير الألمانى ران فى الواحد والعشرين من أبريل . وجده . . . « هادئاً رابط الجأش » . ولكن خيل للسفير أنه أبصر فى عينيه إدراكه للموت المفجع الذى ينتظره . وقد شهد على مكتبه ديواناً للشاعر موريكه . لكن هذه الحالة النفسية ما كانت لتستمر طويلا بالطبع . ففى كل ساعة ، تصل إليه أنباء كارثة عسكرية عن مدينة تسقط ، أو تراجع مستمر . وسمع فى العشرين من أبريل ، بسقوط مدينة بولونا ، وألغى مخططه للاحتفال بميلاد رومة ، بإلقاء خطاب على الناس بعد القداس فى الكاتدرائية . وسمع فى الثانى والعشرين بتقدم الحلفاء على طول نهر البو وبسقوط مدينتى مودينا وريجيو . وجاءته الأنباء فى اليوم التالى بأن بارما قد سقطت ، وأن الاتصال قد انقطع مع مدينتى كريمونا ومانتوا . وفى المساء احتل رجال المقاومة السرية جنوا بينما احتل رجال تيتو فيومى .

وأصبح العدو على بعد ستين ميلا ليس إلا من ميلان ، وكان الألمان يتراجعون أمام جيوش الحلفاء بلا توقف . ولم يعد موسولينى يأمل فى الصمود شهراً فى جبال الألب . وكان جرازيانى يصر على أن الفكرة كلها من الناحية العسكرية ، سخيفة وغير صالحة . لكن موسولينى وبافولينى ، أصرا على رأيهما . ولم تكن غايتهما تحقيق نصر عسكرى ، وإنما كانا يريدان نصراً معنويًّا للفاشية . وعندما نصحه بوفارينى — جيدى ، بالفرار إلى سويسره أو أسبانيا ، رفض الفكرة بغضب ، كما رفض اقتراحاً جاءه من فرانشيسكا لافانينى ، إحدى عشيقاته السابقات ، إذ كتبت إليه من الأرجنتين رسالة تحثه فيها على أن يلحق بها إلى هناك . ورفض كذلك اقتراحاً من كلاريتا بيتاتشى ، بأن يسمح لها باختراع حادث سيارة يعلن بعدها أن موسولينى قد قتل فى الحادث . وثار غاضباً أيضاً عندما اقترح عليه أحد

سكرتيريه والدكتور زاخارى أن يطير إلى أسبانيا ، أو عندما اقترح تامبوريني عليه الفرار إلى بولينيزيا . وكان قد حزم أمره على الموت فى فالتيلينا . فقد انتهت حياته ، لكن الفاشية فى نظره لم تنته . وفى الخطاب الأخير الذى ألقاه على عدد من الضباط جاءوا لرؤيته ، تحدث بشىء من قوته السابقة عن « خلود الحزب الفاشى » .

لكن أسرته يجب أن تكون فى مأمن . وتحدث إلى زوجته راشيل هاتفياً فى الثالث والعشرين من أبريل ، قائلا إنه سيعود إلى جرجنانو ، ليعد العدة لفرارها إلى سويسرا . ولكنه اضطر بعد ساعات إلى التحدث إليها ثانية قائلا إن مانتوا سقطت وأن بريسكيا مهددة ، وإنه لن يستطيع الوصول إلى جرجنانو . وأمرها بالمضى إلى مونزا ، حيث ستجد براسو فى انتظارها فى الدارة الملكية . وسيعود إلى الاتصال بها هناك ثانية . وحاول إقناع كلاريتا أيضاً بالفرار ، ومضى لزيارتها فى البيت الذى نقلها إليه مع أسرتها فى ميلانو ، الرائد سبوجلر . وكان بقية أفراد أسرتها يعدون العدة للطيران إلى أسبانيا ، ولكن كلاريتا ترفض الذهاب معهم . وكتبت إلى صديقة لها ، تقول وقد استعارت تعابير حبيبها المحبوبة لديه . . . « سأسير وراء قدرى ، وأنا لا أعرف ما سيحل بى ، ولكننى لا أستطيع مناقشة القدر » .

وقضى موسولينى سحابة الخامس والعشرين من أبريل فى ميلان . وظل يرفض بإصرار كل الاقتراحات المنصبة عليه بمغادرة البلاد ، وبدا هادئاً ، ومتبلداً أحياناً . وكان ينفجر أحياناً بملاحظة غاضبة عن الألمان ، أو عن الملك والإنجليز ، ولكنه ظل يعمل طيلة النهار ، دون تذمر ، أو سرعة ، جامعاً أوراقه ، متحدثاً إلى زائريه ، متأهباً للشروع فى رحلته نحو الشمال . وانتشرت الشائعات بأنه سيغادر ميلان فى ذلك اليوم ، فجاءه الملازم بيرزير ، مذكراً إياه بشىء من الحدة بوعده بأن لا يغادر المدينة حتى يعود النقيب كيسنان من جرجنانو ، حيث كان قد مضى لجمع متاع رجاله . ورد موسولينى ، وهو يصدر إليه أمره بأن يمضى إلى ثكنات « موتى» لإعداد بعض السيارات الشاحنة والوقود ، استعداداً لرحلة الشمال . . . « ولكن الوضع قد تبدل الآن » . وبدا منزعجاً من أن بيرزير ، اعتبره مخلفاً

لوعده لكيسنان ، وإن لم ينزعج للوضع الذى بات فيه .

وجاء الجنرال مونتانا رئيس الشرطة فى ميلان والماريشال جرازيانى إلى دار المحافظة فى الساعات المتأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم للبحث فى انسحاب القوات الجمهورية من المدينة ، لإعادة تنظيمها فى الشمال . ولكن موسولينى أبلغهما أنه سيقصد إلى الكردينال شوستر . ليطلب إليه إعداد اجتماع مع زعماء لجنة التحرير الوطنى ليعرف شروطهم للاستسلام . وقال إنه قرر « أن يوفر على الجيش المزيد من التضحيات » .

ومضى موسولينى بعيد الخامسة إلى قصر الكردينال ، على أن يلحق به جرازيانى فيما بعد . كانت الشوارع هادئة هدوءاً غريباً ، وكانت الأماكن العامة مغلقة ، ومعظم الحوانيت والمكاتب مقفلة . وكانت صافرات المصانع قد انطلقت قبل بضع ساعات تعلن بداية الإضراب العام .

وروى الكردينال شوستر فيما بعد . . . « ودخل موسولينى غرفة استقبالى فى حالة كئيبة ، فمثل أمامى صورة الرجل الذى أذهلته الكارثة الرهيبة . واستقبلته بحنان أبوى كنسى ، وحاولت ونحن ننتظر وصول الرجال الذين أراد مقابلتهم ، الترويح عن نفسه ، بشىء من الحديث » .

وكان الحديث عسيراً ومؤلماً . وبدا موسولينى فى غاية الإجهاد ، عازفاً عن الحديث . وأصر الكردينال على أن يتناول بعض المرطبات ، لينتعش بعض الشىء ، فقبل مدفوعاً بالكياسة قدحاً من الشراب ، وقطعة من البسكويت » . وكان أشبه بالرجل الذى زايلته إرادته ، وتقبل مصيره دون حراك » .

ولم يستعد موسولينى قوة عزيمته وبصورة مؤقته ، إلا عندما رجاه الكردينال أن يوفر على إيطاليا المزيد من الاضطراب الذى لا طائل تحته ، وأن يقبل بشروط الاستسلام الشريف . وقال إن مشكلته ذات شقين ، وتعالج فى مرحلتين . وأضاف أنه سيحل الجيش والحرس الفاشى ، ولكنه سينسحب مع ثلاثة آلاف من ذوى القمصان السوداء إلى فالتيلينا ، ليواصل الحرب فى الجبال .

وقال له الكردينال . . . « لا تجر وراء الأوهام يا دوتشى . فأنا أعرف أن من سيتبعك إلى هناك من ذوى القمصان السوداء ، لن يزيدوا على الثلاثمائة ، لا ثلاثة

آلاف كما يحاول البعض أن يوهموك » .

واعترف موسوليني بشيء من الاستسلام الكئيب . . . « وقد يزيد هذا العدد بعض الشيء ، لكن الزيادة لن تكون كبيرة . فأنا لا أعيش فى الأوهام » .

واعتقد شوستر ، أن موسوليني مصمم على أن يمضى إلى قبره فى الجبال ، حتى ولو كان العدد ثلاثمائة ليس إلا . وخيل إلى الكردينال أنه لن يتحول عن رأيه ، ولذا فقد توقف عن الحديث ،فى هذا الموضوع . وتكلما فى أمور أخرى ، لكن النار القصيرة التى اشتعلت فى نفس موسوليني ما لبثت أن خبت ، وكان الكردينال هو المتحدث معظم الوقت . وتناول الحديث موضوع « التكفير » و « الغفران » ، والسجن والإبعاد ، وبدا وكأن موسوليني لا يصغى إلى محدثه ، وإن ظهر بريق السرور فى عينيه المجهدتين فى ومضة خاطفة عندما أشار الكردينال بصورة عارضة إلى نابوليون . وامتلأ ناظراه بالدموع عندما تطرق الحديث إلى مغفرة الله . وأهداه الكردينال نسخة من « قصة القديس بنيديكت» ، فتقبلها موسوليني شاكراً ، ووضعها بعناية فى مغلف بنى اللون .

ووصل فى الساعة السادسة الجنرال كادورنا ، مصحوباً بممثلين آخرين عن لجنة التحرير الوطنى ، هما أخيل مارازا ، المحامى الديمقراطى الاشتراكى ، والمهندس ريكاردوا لومباردى ، أحد أعضاء حزب العمل . وسرعان ما قادهم الدون جيوسيبى بيشيبيرى إلى غرفة الكردينال . وقدم إليهم الكردينال يده ليقبلوا الخاتم الذى يحمله . وعندما انتهوا من ذلك ، عرّفهم على موسوليني الذى اتجه مسرعاً إليهم ، وقد ظهرت على وجهه ابتسامة صورها مارازا بأنها كانت تنطق بشيء من التنازل . ومد يده إلى كل منهم مصافحاً . وراح يجلس إلى جانب الكردينال على الأريكة ، بينما ظل الرجال الثلاثة واقفين .

وخيم على المكان جو من التحفظ والحيرة ، ولا سيما بعد أن وفد إليه مندوبو الجمهورية الاشتراكية ، وهم جرازياني وبارّاكو وباولو زيربينو وزير الداخلية . وكان موسوليني يؤدى دوراً لم يسبق له أن مثله ، فراح ينظر بإصرار إلى الستائر القرمزية المدلاة على الجدران، مبتعداً ببصره عن عيون الآخرين . وكان الشارع الذى تطل عليه النافذة المفتوحة فى منتهى الهدوء .

وقال أحدهم . . . هل يسمح لنا بالجلوس هناك ؟

وأشار الكردينال شوستر ، إلى مائدة كروية ضخمة تقوم فى وسط الغرفة وعليها عدد من الكؤوس ، وجرة من نبيذ مارسالا ، ووعاء من البسكويت . وجلس الكردينال إلى طرف المائدة إلى جانب موسولينى ، وإلى شمالهما جلس كادورنا وماراّزا ولومباردى ، بينما جلس إلى اليمين جرازيانى وزيربينو وباراكو ، وذكر كادورنا أن جرازيانى كان بادى الغضب .

وراح موسولينى يبدأ الحديث بصوت حاد نافد الصبر ، وكأن المبادرة ما زالت حقاً له . . . « حسن . . . ما هى اقتراحاتكم ؟ »

وجه كلامه إلى كادورنا الذى بدا غير راغب فى الرد عليه ، فتطلع إلى مارازا .

وقال مارازا : « إن التعليمات لدى محددة ودقيقة . فعلى أن أطلب منكم الاستسلام وأن أقبله ليس إلا » .

وقاطعه موسولينى خاطفاً وقد استدار غاضباً إلى الكردينال شوستر . . . « أنا لم آت إلى هنا لهذا . فقد قيل لى إننا سنجتمع وسنبحث فى الشروط . وهذا هو سبب مجيئى . حماية رجالى وأسرهم ، والحرس الفاشى . أريد أن أعرف ما سيحدث لهم . فمن الواجب إضفاء الحماية على عائلات أعضاء حكومتى . وقد أكدوا لى أيضاً ، أن رجال الحرس الفاشى سيسلمون إلى العدو كأسرى حرب » .

وكان غضب موسولينى قد اشتد وهو يتحدث . وكان من المتوقع أن يقول المزيد لو لم يقاطعه لومباردى قائلا . . . « طبعاً هذه تفاصيل ، وأعتقد أن لدينا الصلاحية لبحثها وتسويتها » .

فرد موسولينى بلهجة الرجل الذى استثير ثم أرضى بعد لأى ، وكأنه قد كسب نقطة فى النقاش . . . « حسن إذن ، فنى وسعنا أن نصل إلى شىء من الاتفاق » . وسرعان ما بدأ النقاش الجدى ، وقد بشر فى مستهله بالنجاح . ووافق ممثلو لجنة التحرير الوطنى ، على أن يعامل الجنود الفاشيون عندما يؤخذون كأسرى طبقاً لميثاق لاهاى . وأن لا تتعرض أسر الفاشيين للأذى ، وأن يلقى الدبلوماتيون المعتمدون لدى الجمهورية الاشتراكية حماية القانون الدولى . ولكن بينما بدا أن موسولينى

بصمته غير المألوف كان يقر شروط مندوبي اللجنة ، راح الماريشال جرازياني يهب فجأة على قدميه عندما أثير موضوع مجرى الحرب قائلا . . . « لا . لا يادوتشي أرى لزاماً على أن أذكرك بأن علينا التزامات بالولاء لحلفائنا . فليس فى وسعنا أن نتخلى عن الألمان وأن نتفاوض على هذا النحو المستقل . فليس فى وسعنا أن نوقع اتفاقاً بدون الألمان . وليس فى وسعنا أن ننسى قوانين الشرف والواجب » .

ورد كادورنا ببطء وهو يؤكد كل كلمة يقولها ، متطلعاً إلى موسولينى . . . « أخشى أن لا يكون الألمان قد أحسوا بمثل هذا الواجب . فقد كنا نبحث معهم فى شروط الاستسلام طيلة الأيام الأربعة الماضية . وقد اتفقنا على جميع التفاصيل ، ونحن ننتظر أنباء توقيعهم على الاتفاق فى أية لحظة » . ولم يشك مارازا لحظة واحدة فى أن هذه الأنباء كانت مفاجأة مذهلة لموسولينى وبدا الألم على وجهه واضحاً كل الوضوح . وقال مارازا وقد تظاهر بالدهشة . . . « أولم يكلفوا أنفسهم عناء إبلاغ حكومتك ؟ »

فقال موسولينى غاضباً : هذا مستحيل ، أرنى المعاهدة .

وتدخل زيربينو قائلا : إن الأمر ليس مستحيلا ، وذلك لأن الدون بيشيراى قد حدثه به فى الغرفة الخارجية . والتفت موسولينى إلى الكردينال شوستر ، الذى اعترف فيما بعد بأنه قد تضايق لأن الدون بيشيراى قد أفشى سرًّا دبلوماتيًّا. وقال الكردينال أخيراً . . . « ليس من المجدى الآن على أى حال ، الاحتفاظ بسرية أمر أصبح معروفاً للجميع . . . أجل كان الجنرال وولف رئيس الحرس النازى فى إيطاليا يتفاوض معى فعلا عن طريق السفير الألمانى والعقيد راوف» . واستسلم موسولينى إلى حافز مفاجئ من السخط ، وأعلن أن الألمان قد خانوه ، وأنهم كانوا يعاملون الإيطاليين دائماً كالعبيد . وتوعد بأن يستعيد لنفسه حرية العمل ، طالما أنهم «عملوا من وراء ظهورنا » .

وحاول الكردينال شوستر والماريشال جرازيانى تهدئة ثائرته دون جدوى إبان الوقت الذى استؤنف فيه النقاش . ولكنه بدا غير قادر على التفاوض وسرعان ما قام من مكانه ، قائلا إنه لن يقر شيئاً إلى أن تتاح له الفرصة للتحدث إلى القنصل الألمانى ثم قال . . . « وفى وسعنا أن نقول هذه المرة إن ألمانيا خانت إيطاليا » . وطلب مهلة ساعة لدراسة شروط اللجنة للاستسلام ، فوافق المندوبون على منحه

هذه المهلة . وروى جرازيانى أنه غادر الغرفة متوعداً بإذاعة الخيانة الألمانية عن طريق الإذاعة . وودعه الكردينال إلى الغرفة الخارجية متمنياً له سلامة العودة فى غضون ساعة . . . ورد عليه موسولينى قائلا . . . « هذا لا يهمنى » .

ووصل القنصل الألمانى بعد نحو من نصف ساعة متسائلا عما حدث . وسرعان ما حمى وطيس الجدال بينه وبين عدد من الإيطاليين . وكان هناك فى إحدى الزوايا ، وقد وقف صامتاً ، كارلو تينيجو ، محافظ تورين السابق ، الذى كان الجنرال ديامانيتى قائد الحرس الفاشى ، قد طلب إليه أن يحاول معرفة ما حدث . وقبل ربع ساعة من انقضاء المهلة المعطاة لموسولينى اندفع إلى الغرفة اليساندرو بيرتينى سكرتير الحزب الاشتراكى ، وكان قادماً لتوه من اجتماع فى مصنع للسيارات ، حيث نشب عراك بين العمال المسلحين . . .

وصرخ اليساندرو . . . أين موسولينى ؟ لم كل هذا الحديث ؟ إذا سلمتم موسولينى إلينا ، فإننا سنقيم فى غضون يومين محكمة للشعب . إن ما نطلبه هو العدالة السريعة . وقد مللنا من هذا الحديث الذى لا فائدة منه » .

وبينما كان مارازا يعترض على مناداة بيرتينى بالعنف ، تسلل تينيجو من الغرفة راكضاً لتحذير موسولينى من الخطر الذى يتهدده . ووجد ساحة المحافظة ملأى بالسيارات والرجال المتحمسين يصعدون الدرج ويهبطونه . وكان الضجيج فى الداخل مرعباً .

وصرخ تينيجو مردداً عبارة بيرتينى التى قالها عندما اندفع إلى قصر الكردينال .. « أين موسولينى ؟ »

وقال له أحدهم إن الدوتشى مضى إلى مكتبه ، وطرد كل إنسان من حضرته ، ثم أغلق الباب عليه . ومن المحتمل أنه يعتزم أن يطلق النار على نفسه . فلديه مسدس فى المكتب ، وهو فى حالة جنونية . ولاحظ الدكتور زاخارى ما كان عليه من شحوب وما بدا فى تقاطيعه من عبوس . وعندما عرض عليه الجنرال وينينج قائد الحامية الألمانية فى ميلان ، حراسة ألمانية مسلحة ، صرخ فى وجهه قائلا إن الألمان خونة وجبناء ، وإنه يؤثر الموت على طلب حمايتهم .

وعندما عاد موسولينى إلى القصر ، مضى فوراً إلى خريطة منشورة على المائدة ، وأشار إليها بأصبع مرتجفة وقال . . . « سنغادر ميلان فوراً باتجاه كومو » .

ولم يكن هذا يمثل الطريق المباشر إلى فالتيلينا ، ولكن الأنباء كانت قد وصلت بأن الأمريكان يتقدمون بسرعة على طريق بيرجامو ، وأن رجال المقاومة قطعوا الطريق إلى ليكو . ولم يعرف أحد ما كان الدوتشي يعتزم عمله ، بعد الوصول إلى كومو . وخيل إلى البعض أنه قد يمضى منها إلى شياسو محاولا عبور الحدود إلى سويسرا ، وهذا ما اعتقده الكثيرون فى الواقع فيما بعد ، إذ تصوروا أن موسولينى قد سرّ من خيانة الألمان إذ أتاحت له الفرصة للفرار دون أن يتهم بالخيانة .

ولكن فيتوريو لم يكن يعتقد كغيره من الذين كانوا قريبين منه فى هذا الوقت ، بأنه يعتزم الفرار . فلقد كان قبل بضع ساعات قد أبلغ أباه بأن هناك بعض الطائرات ما زالت فى مطار جيدى ، وأن الوقت ما زال متسعاً للنجاة . لكن هذا الاقتراح أثار غضبه ، فقد تطلع إلى ولده بنظرة غاضبة ثائرة « جمدت العبارات فى فم فيتوريو » كما اعترف هذا فيما بعد . وصرخ فى ولده بمنتهى القسوة ... « لم يطلب منك أحد أن تدلنى على ما يجب أن أفعله . فقد قررت أن ألقى حتفى فى إيطاليا » . ووجد فيتوريو فى نفسه الجرأة ليكرر نصيحته الآن ، ولكن هذه النصيحة رفضت من جديد ، بغضب شديد .

واندفع موسولينى من مكتبه ، ولقيه تينيجو فى الرواق ، ونصحه بأن لا يعود إلى قصر الكردينال ، إذ أن أعداءه سيقتلونه . وتوسل إليه كارلو بورسانى أحد أعوانه الخلّص، وكان قد أصيب بالعمى فى معارك ألبانيا ، أن لا يغادر ميلان ، مادّاً إليه يديه ، وقد سالت العبرات من عينيه اللتين لا تبصران . وطلب إليه بوفارينى — جيدى وريناتو ريكى ، أن يقبل بنصيحة ولده فيتوريو ، وأن يطير إلى أسبانيا ، بينما هتف آخرون . . . « لا لا تذهب يا دوتشى ، لا تذهب » . وهرع إليه أحد سكرتيريه يحمل أوراقاً يطلب توقيعه عليها ، فدفعه عنه بيده ، دون أن ينظر إليها . ونصحه البعض بأن يحاول الوصول إلى حراسه الذين كانوا لا يزالون ينتظرونه فى جادرون . وقال بومباكى ، وكان يرتدى قميصاً أسود ، وسروال ركوب أسود أيضاً إن المنظر ذكره بمدينة بيتروجراد ، حيث وقف يرقب مع لينين فرار قوات يادبينيك . وقال . . . « كان قصف المدافع آنذاك يهز النوافذ . وكان الوضع مماثلا لما هو واقع اليوم ، وإن كانت حالة اليوم أكثر سوءاً » .

وهتف موسولينى قائلا دون أن يكترث بمن حوله ، وقد سرت إليه عدوى ما أصابهم جميعاً من جنون . . . « يريدون أن يكرروا الخامس والعشرين من يوليو ، ولكنهم لن ينجحوا هذه المرة . أجل لن ينجحوا » .

وكان يرتدى لباس الحرس الفاشى ، وقد وضع مدفعاً رشاشاً على كتفه . وكان يحمل حقيبتين جلديتين وقد حشيتا بالوثائق السرية ، فسلمهما مع بعض المال إلى كاردورى ، وهو من رجال القمصان السوداء الذين يثق بهم . واتجه نحو سيلفيستري وبورسالى فعانقهما صامتاً . وفجأة رجع بضع خطوات إلى الوراء ، وصرخ بصوت دراماتى . . . « إلى فالتيلينا » . ثم هبط السلم متجهاً إلى سيارته .

وشقت سرية من ذوى القمصان السوداء طريقها عبر الجماهير ، ثم سارت القافلة متجهة إلى شارع مونفورتى . ومنه إلى شارع ليتوريو، فى الطريق إلى كومو . وكان لويجى جاتى . سكرتير موسولينى الشاب يتولى القيادة ، جالساً فى مقدمة السيارة وقد ارتدى جاكيتة من الجلد الأسود ووضع مدفعاً رشاشاً بين ركبتيه . ووراءه كانت سيارة موسولينى « الالفاروميو » المكشوفة ، وقد جلس فيها وإلى جانبه بومباكى ، ووراءها نحو من ثلاثين سيارة أخرى بين صغيرة وكبيرة . وكانت فى إحدى السيارات وهى من طراز « الفاروميو » وتحمل رقماً أسبانياً ، كلاريتا بيتاتشى ، ومعها أخوها مارسيلو وزوجته وطفلاه . ووراء هذه السيارة ، شاحنتان وقد ملئتا بجنود الحرس النازى بقيادة الملازم بيرزير ، الذى أمره الجنرال وينينج ، بالرغم من احتجاجات موسولينى المسرحية ، بأن يواصل القيام بواجبه فى حراسة موسولينى ، وكان فيتوريو فى السيارة الأخيرة .

وكان عدد من وزراء الحكومة الجمهورية قد قرروا البقاء فى ميلان ، لكن معظمهم ، لحقوا بالدوتشى .

وراح أحدهم يسأل ميزاسوما . . . « إلى أين نحن ذاهبون » .

فرد هذا بوجوم يحمل طابع التنبؤ . . . « لا يعرف ذلك إلا الله . وربما كنا ماضين إلى حتوفنا » .

١٤

الفرار من ميلان

من ٢٥ إلى ٢٧ أبريل ١٩٤٥

« سأمضى إلى الجبال ، ومن المستحيل بالتأكيد أن لا يكون ثمة خمسمائة على استعداد للحاق بى » .

١

وصل موسولينى إلى كومو حوالى الساعة العاشرة مساء . وراح يصعد سلّم المحافظة مسرعاً حيث قرر أن ينتظر وصول بافولينى ، الذى وعده بأن يأتى بثلاثة آلاف من الفاشيين المخلصين ، للصمود معه فى وقفته الأخيرة فى الجبال . لكن الأنباء التى وجدها فى كومو لم تكن مشجعة على الإطلاق ، فخطوط الهاتف ما زالت سليمة ، وكان الجرس يقرع فى رواق المحافظة بين لحظة وأخرى ، حاملا صوتاً مرتعداً يعلن وقوع كارثة جديدة . فلقد احتل العمال المسلحون ضواحى ميلان كلها . والأمريكان لا يزالون يتقدمون ، والألمان يتراجعون تراجعاً عامّاً . ومنعت جماعات المقاومة السرية الجنود الجمهوريين من دخول ميلان ، بعد أن أغلقت طريقى ميلنجانو وتريفيليو . وتحدث ميزاسوما هاتفياً إلى مكاتب صحيفة كوريرى ديلاسيرا فقيل له إن رجال المقاومة السرية قد احتلوا البناء . ولم يسمع أحد بأية أنباء عن بافولينى .

وأعدت زوجة المحافظ العشاء حوالى الساعة العاشرة والنصف . وقدمته فى مكتب زوجها ، لكن موسولينى لم يستطع أن يأكل شيئاً . وظل يصغى صامتاً إلى وزرائه ، وهم أقرب ما يكونون إلى الذعر : يواصلون تقديم النصائح المتناقضة إليه . فقال باولوبورتا ، مفتش الحزب الفاشى فى لومبارديا : إن عليه أن لا ينتظر وصول بافولينى وأن ينسحب إلى كادينابيا . وحثه بوفارينى — جيدى ، على أن يمضى معه لعبور الحدود إلى سويسرا عند شياسو ، حيث لابد أن يسمح لهم حرس الحدود بعبورها . وقال جرازيانى الذى استشار قائد الحامية الألمانية فى كومو

إنه يرى أن الفرار إلى سويسرا ، أمر مستحيل . وهتف الجنرال ميشى من قادة الجيش الجمهورى ، يقول إنه ينتظر الدوتشى فى سوندريو .

وقال أخيراً . . . « سأمضى إلى الجبال ، ومن المستحيل بالتأكيد أن لا يكون ثمة خمسمائة رجل على استعداد للحاق بى » .

وبدا شديد القلق على ملفاته . فبالإضافة إلى الحقيبتين الجلديتين اللتين سلمهما فى ميلان إلى كارادورى ، كانت هناك وثائق أخرى ، وضعها فى سيارة شاحنة ، لم تصل إلى كومو بعد مع بقية القافلة . وبعث بجاتى والعقيد كاسالينوفو ، ليحاولا البحث عما تم بالوثائق ، بينما راح يقرأ بمنتهى العناية والدقة مجموعة أخرى من الوثائق كان قد وضعها فى حقيبتى يد كبيرتين كانتا لا تفارقان نظره لحظة واحدة . ولم يعرف أحد أبداً ما الذى تضمنته هذه الأوراق ، كما لم يستطع أحد فيما بعد اكتشاف ما كان فيها ، بالرغم من المحاولات الكثيرة التى بذلت وستبذل فى هذا السبيل . وأعرب كارلو سيلفيسترى ، الذى أعانه فى حشو حقيبتين كبيرتين بها فى ميلان ، عن اعتقاده ، بأن هذه الوثائق كانت تضم الأوراق التى ظن الدوتشى أنها ستعينه فى الدفاع عن نفسه فى أية محاكمة قد يتعرض لها بعد الحرب . وتضمنت كما قال ، الأدلة الوافرة على الجهود الكبيرة التى بذلتها الجمهورية الاشتراكية لإنقاذ شمال إيطاليا من ويلات الحرب وتدمير الألمان وأخطار الحرب الأهلية ، والأدلة على سيطرة الشيوعيين على أنشطة حركة المقاومة السرية ، وأوراقاً دبلوماتية تتعلق بمسئولية إنجلترا عن إشعال الحرب ، وأوراقاً أخرى عن ولده أومبرتو ، وعن هتلر ، ومحاكمة فيرونا . ولا ريب فى أنه بذل عناية كبيرة ، فى اختيارها ، إذ ظل موسولينى طيلة أسابيع عدة قبل مغادرته جرجنانو ، يجمع أكثر الوثائق سرية ، ثم مضى أحد سكرتيريه فى الليلة التى سبقت رحيله إلى ميلان ببقية الوثائق التى حملها على ظهر زورق بخارى ، ليقذف بها فى أعماق بحيرة جاردا ، بعد أن قرر الدوتشى عدم الاحتفاظ بها .

وعندما عاد بجاتى وكاسالينوفو إلى كومو ليعلنا أن رجال المقاومة السرية ضبطوا السيارة الشاحنة التى تقل الوثائق وهى فى طريقها خارجة من ميلان ، بدا موسولينى وكأن هذه الكارثة قد أنزلت به من الهم ما لم تنزله أية كارثة أخرى . فبالإضافة إلى

الوثائق ، كانت السيارة تحمل جزءاً مما سمى فيما بعد « بكنز دونجو » ، وهو يضم سبائك ذهبية وتحفاً فنية وأموالا كلها ملك لحكومة الجمهورية الاشتراكية ووزرائها ، وتبلغ قيمته ما يعادل عدة ألوف الملايين من الليرات[1] . وأظهر موسولينى أنه لا يكترث بضياع هذا الكنز ، وإن كان قد ظل يذكر الوثائق باستمرار طيلة اليومين اللذين بقيا من حياته .

وراح يكتب وهو ينتظر عودة جاتى وكاسالينوفو ، رسالته الأخيرة إلى راشيل ، التى كانت قد غادرت الدارة الملكية فى مونزا ، ووصلت مع رومانو وآنا ماريا إلى دارة مونتيرو فى سيرنوبيو ، حيث حاول الاتصال بها عن طريق الهاتف عدة مرات دون جدوى . وكانت الساعة فى الثانية صباحاً عندما تلقت راشيل رسالة زوجها . كانت مستلقية على سرير فى الدارة ، يحرسها بعض ذوى القمصان السوداء الذين كان زوجها قد بعث بهم إليها فى سيرنوبيو ، لحمايتها ، عندما « سمعت أصوات أقدام وبعض الضجيج عند بابها » . وطرق أحد الحراس باب الغرفة وقال . . . « هناك رسالة لك من الدوتشى يا سيدتى » .

وقالت متذكرة فيما بعد . . . « وقفزت من سريرى ، وخطفت الرسالة ، بعد أن عرفت خط بنيتو ، والقلم الأزرق والأحمر الذى كان يستخدمه فى كتابة رسائله الخاصة فى الآونة الأخيرة » .

ومضت فأيقظت ولديها وتلت عليهما الرسالة . وحملتهما على أن يحفظا ما قاله والدهما عن ظهر قلب قبل أن تحرق الرسالة . وكانت الرسالة تقول كما تذكرا فيما بعد . . .

---

(١) يقول خازن فى وزارة مالية الجمهورية الاشتراكية ، إن هذا الكنز تضمن مقادير ضخمة من العملة الأجنبية نقلت إلى مكتب موسولينى فى شهر فبراير . وقد احتوت خزانة مكتب موسولينى ٢٦٧٥ جنيهاً إسترلينياً و ٢١٥٠ ليرة ذهبية إنجليزية و (١٤٩) ألف دولار و (٢٧٨) ألف فرنك سويسرى و ١٨ مليوناً من الفرنكات الفرنسية . والمعتقد أن الشطر الأكبر من هذه الأموال ، ذهب إلى صناديق الحزب الشيوعى . وكان أهل رومة قد أطلقوا على مقر قيادة الحزب اسم « قصر دونجو » نسبة إلى البلدة الصغيرة التى اعتقل فيها موسولينى والواقعة على ساحل البحيرة . « المؤلف »

عزيزتى راشيل :

« ها أنا ، وقد وصلت آخر مرحلة من حياتى ، أكتب آخر صفحة فى كتابى . قد لا نلتقى ثانية فى هذه الدنيا . ولذا فأنا أبعث إليك بهذه الرسالة ، أسألك الغفران عن كل ما سببته لك من ألم وأذى ، عن غير قصد . . . خذى الأطفال معك ، وامضى إلى الحدود السويسرية . فى وسعك هناك أن تبدئى حياة جديدة . لا أعتقد أنهم سيضنون عليك بالدخول إلى سويسرا ، فلقد طالما ساعدتهم ، وليس لك أنت شأن بالسياسة ، وإذا رفضوا السماح لك بدخول سويسرا ، فسلمى نفسك إلى الحلفاء ، فلعلهم أكثر كرماً من الإيطاليين . أرجو أن تعنى بآنا ورومانو ، ولا سيما بآنا ، فهى فى أشد الحاجة إلى عنايتك . ولا ريب فى أنك تعرفين كم أحبهما ، وأن برونو سيساعدك من سمائه .

مع عظيم حبى لك وللأطفال .

المخلص

بنيتو»

كومو فى ٢٧ أبريل ١٩٤٥ الموافق السنة الثالثة والعشرين من العهد الفاشى

* * *

وطلبت إلى الطفلين أن يعيدا قراءة الرسالة المرة تلو المرة ، بينما راحت تسأل أحد رجال الحرس ، أن يحاول الاتصال ثانية عن طريق الهاتف بدار المحافظة فى كومو . وقد أفلح هذه المرة فى تحقيق الا تصال . ورد جاتى على الطرف الآخر ، ولكن سرعان ما أخذ موسولينى منه السماعة ، وسمعت صوته يقول . . . « راشيل . . . هذا أنت أخيراً » .

كان صوته هادئاً متزناً . رجاها أن لا تفكر فيه ، بل فى سلامة نفسها وأولادها . ولم يسبق لها أن سمعت منه مثل هذا الحنان . . .

واحتجت تقول . . . « ولكن وسلامتك أنت ؟ » . فقال مستخدماً مرة أخرى ذلك التعبير الذى يتعمد أن يكون دراماتياً . . . « أنا أسير وراء قدرى . ولكن عليك أن تنقلى الأطفال إلى مكان أمين . ليس عندى ما أضيفه على

رسالتى . اغفرى لى كل ما أسأت به إليك . ولربما كانت حياتك أكثر هدوءاً وسعادة لو لم تلتقى بى » .

وراحت تبذل المحاولة الأخيرة اليائسة لتشجيعه . . . « ولكن هناك الكثيرين على استعداد للموت فى سبيلك ومن أجل إيطاليا . فلك أتباع كثر ، ولا بد أن من حولك على استعداد للتضحية بكل شىء من أجلك » .

فرد عليها قائلا . . . « لقد مضوا جميعاً . وبت وحيداً يا راشيل . وها أنا أرى أن كل شىء قد انتهى » .

وطلب منها أن يتحدث إلى الطفلين ، فتوسل إليه رومانو أن لا يفارقهم .

وتناولت راشيل سماعة الهاتف من ولدها ثانية لتودع زوجها . ولم تكد تفعل ذلك . حتى قررت أن لا تمضى قدماً إلى سويسرا ، وأن تحاول رؤيته مرة أخرى فى كومو . وعندما وصلت إلى هناك ، أسلمها أوراقاً كثيرة من المجموعة التى حرص كل الحرص عليها ، وبينها بعض الرسائل التى كان قد تلقاها من ونستون تشرشل ، والتى كان يأمل فى أنها ستساعدها على اجتياز الحدود .

وقال لها أخيراً . . . « ولو حاولوا منعك أو إلحاق الأذى بك ، فاطلبى تسليمك إلى الإنجليز » .

٢

وفى الساعة الرابعة والنصف صباحاً ، رأى حارس ألمانى ، كان يتطلع إلى دار المحافظة فى ضوء الفجر الشاحب ، موسولينى وهو يهبط السلم متجهاً إلى سيارته ، ومعه بومباكى والماريشال جرازيانى ، وبعض الإيطاليين الآخرين الذين لم يتميزهم .

وكان موسولينى ، وقد مل انتظار بافولينى ، قد قرر الاتجاه نحو الشمال على شاطئ البحيرة ، إلى ميناجيو ، مخلفاً تعليماته لبافولينى للحاق به . وكان الملازم بيرزير قد حزم أمره ، على أن لا يسمح للدوتشى بالتحرك بدون الحرس الذى أمر هو بتأمينه له . وعندما سمع صوت الإنذار من الحارس، هرع إلى

سيارته ، وقادها ليقف بها فى وسط الطريق، قاطعاً على سيارة موسولينى سبيلها . وهبط بعد ذلك من السيارة ، ومضى إلى الدوتشى فأخذ التحية وقال ... « يجب أن لا تخرج يا دوتشى ، دون حراسة » .

فرد موسولينى باقتضاب « أرجوك . دعنى وشأنى . فى وسعى أن أفعل ما أريد ، وأمضى أنى أشاء . أبعد عن طريقى » .

ورد بيرزير ، وهو لا يزال واقفاً وقفة الاستعداد . . . « ولكنك لن تمضى دون حراسة » .

فقال جرازيانى . . . « أبعد من الطريق ، فى وسع الدوتشى أن يمضى حيث يشاء » .

— لا . لا يمكن أن يمضى دون حراسة يا سيدى الماريشال . هذه أوامرى .

ووقفت جماعة من الإيطاليين بين الدوتشى وبين الضابط الألمانى الصامد كالصخر ، ولكن عندما هرع الجنود الألمان ليقفوا وراء ضابطهم ، وقد وضعوا أصابعهم على أزندة بنادقهم ، اضطر الإيطاليون إلى التسليم .

وعاد بيرزير ، فدق قدميه ، وأدى التحية وقال . . . « لن تمضى بدون حراسة يا سيدى الدوتشى » .

واضطر موسولينى أخيراً ، إلى التسليم للضابط بما أراد .

ووصل إلىميناجيو ، وسط زخة من المطر ، حوالى الساعة الخامسة والنصف صباحاً . وهبط من السيارة حاملا مدفعه الرشاش إلى ظهره ، ثم خطا ، وقد أحنى رأسه بين كتفيه ، بضع دقائق ، جيئة وذهاباً أمام المدرسة التى كانت قد تحولت إلى ثكنة لذوى القمصان السوداء ، ثم مضى بعد ذلك إلى دارة إميليو كاستيللى ، سكرتير فرع الحزب الفاشى فى البلدة ، حيث استلقى على سرير محاولاً النوم . وبينما كان يستريح على سريره ، وصلت السيارات والشاحنات الأخرى التى لحقت به من كومو إلى ميناجيو ، تحرسها عدة فصائل من الجيش الجمهورى ، وسيارتان مدرعتان مجهزتان بالمدافع الرشاشة من عيار ٢٠ مليمتراً . وتوقفت القافلة الطويلة وراء سيارة بيرزير . وكانت كلاريتا بيتاتشى فى إحدى هذه السيارات ، فمضى بها العقيد كاسالينوفو إلى موسولينى داخل الدارة .

وخشى لويجى جاتى ، أن يؤدى تجمع مثل هذا العدد الكبير من السيارات إلى استثارة اهتمام رجال المقاومة السرية ، فأمر القسم الأكبر منها ، بالعودة مسافة قصيرة ، فى طريق كادينابيا . وقد أطاع الرجال هذا الأمر بكثير من التردد والتبرم وهتف أحدهم . . . « جئنا نموت مع الدوتشى » . وسمع صوت رجل آخر ، يهتف صارخاً وهو يستدير بالشاحنة التى يقودها إلى طريق ضيق ، بأن الدوتشى قد تخلى عنهم ، وأنه يريد الفرار وحده عبر الحدود إلى سويسرا . وكانت لحظة من القلق المتزايد . وأيقن بيرزير أن هذا ما انتوى الدوتشى أن يفعله ، عندما خرج بعد راحة ثلاث ساعات ، من دارة كاستيللى مصدراً أوامره ، للسيارات الباقية ، بأن تسير بحذاء شاطئ البحيرة إلى قرية جراندولا ، حيث يختفون عن العيون انتظاراً لوصول قوة بافولينى من الفاشيين المخلصين . ولم تبعد هذه القرية إلا أربعة عشر كيلو متراً عن الحدود السويسرية . وعندما أصدر موسولينى أمره هذا ، للقافلة ، مضى إليه بيرزير ، وأدى التحية ، وقال بدماثة مصحوبة بالشك الواضح . . . « إلى أين نحن ماضون يا دوتشى ؟ »

فرد موسولينى . . . « اتبعنى وستعرف » .

ومضت السيارات الإيطالية بسرعة هائلة عبر الطريق الملتوى والقائم نحو الجبال ، بينما وجد بيرزير ، صعوبة بالغة فى اللحاق بها . وخرجت سيارة إيطالية من طراز « الفاروميو » فى ضواحى القرية ، من خط القافلة ، وسارت بسرعة فى طريق ضيق ، إلى دارة وحيدة منعزلة . ولم يستطع بيرزير التثبت مما إذا كانت هذه السيارة ، هى سيارة موسولينى ، ولكنه شك فى أنها سيارته ، وأحس فجأة بالخوف من أن يكون الدوتشى قد نجا من حراسته . وأصيب بما يشبه الذهول المصحوب بالراحة ، عندما رآه بعد دقيقة أو دقيقتين واقفاً فى قاعة فندق ميرافال فى القرية . وكان يسير فى حديقة الفندق مع كلاريتا بيتاتشى وثلاثة من وزرائه ، عندما أصر حارس ألمانى على وجوب دخول الفندق .

وكانت ساحات الفندق قد امتلأت فى ساعات بعد الظهيرة المبكرة بالسيارات ، بينما احتشد جمع من الفاشيين الذين استبدت بهم العصبية ، فى الفندق ، يتساءلون عما أصاب بافولينى . وكان موسولينى قد اجتمع إليه بضع دقائق فى

الصباح فىميناجيو ، ولم يدر أحد شيئاً عما دار بين الرجلين . وعرف أنه تمكن من جمع ما يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف من ذوى القمصان السوداء من جميع أنحاء لومبارديا ومن مناطق تصل حدود تورين واليساندريا ، وأن هؤلاء الرجال ، وكثيرون منهم استصحبوا زوجاتهم وأطفالهم ، يحتشدون الآن فى محطة فيروفيا فى شمال كومو . لكن ساعات طويلة قد انقضت منذ عاد إليهم ، ليجمعهم ، ويأتى بهم . وها هى الساعات تمضى دون أن يعود .

وانشغل موسولينى ، بينما كان الآخرون يتناولون وجبة سريعة ، فى تجميع وثائقه وفحصها بدقة ، مستخرجاً منها تلك التى تتناول المفاوضات التى جرت مع الحكومة السويسرية لضمان سلامة المرور عبر الحدود لأسر أعضاء حكومته وموظفيهم .

وكان ذلك اليوم رطباً ، كئيباً وقاتماً . وظل الموجودون يديرون جهاز الإذاعة فى الفندق ، فيسمعون إذاعات تتحدث عن ثورة عامة فى شمال إيطاليا ، وعن انهيار المقاومة فى جميع أرجاء الجبهة ، وعن تقدم قوات العدو . وأراد موسولينى الخلاص من هذا الجو القاتم الذى يثبط العزائم ، فخرج إلى الحديقة يسير حاسر الرأس ، والمطر ينهمر فوق رأسه ، ومعه فتاة صغيرة انضمت إلى القافلة فى كومو . وكانت الفتاة إيلينا كورتى كوكياتى الابنة الجميلة الشقراء لأنجيلا كورتى ، عشيقته السابقة ، التى لم تنقطع لحظة واحدة من قبل وبمنتهى الاهتمام ، عن تحذيره عبثاً من المؤامرات التى تحاك للإطاحة به ، وأدى سروره برؤية إيلينا ، وارتياحه إلى صحبتها ، إلى نوبة من نوبات الغيرة العاطفية العنيفة عند كلاريتا . وعندما عاد إلى الفندق ، راحت تصيح به قائلة . . . « ما الذى تفعله هذه المرأة هنا ؟ عليك أن تتخلص منها فوراً . أجل تخلص منها على الفور » .

وحاول أن يهدئ من ثائرتها ، ولكنها مضت فى صراخها المجنون ، مما أدى إلى احتشاد لفيف من الناس على نافذة قاعة الطعام . ورأى أحدهم وجه موسولينى وقد بدت فيه صورة العذاب ، وهو يخطو إلى النافذة ليغلقها بعنف وهو يصرخ بصوت تجلى اليأس فيه أكثر من الغضب « كفى » . واستدارت إليه ، فانزلقت قدمها ، وهى تلتفت وسقطت على الأرض ، وأصيبت ركبتها بجرح سالت منه

الدماء . فتركها وهي تجهش بالبكاء دون أن تتمكن من السيطرة على نفسها ، وعاد يخرج إلى الحديقة .

وأرادت إيلينا كورتى أن تبعث الأمل فى نفسه ، فعرضت عليه أن تعود على ظهر دراجة إلى كومو ، لترى ما حل ببافوليني . وكان قد ذكر لها أنه إذا لم يصل بافوليني فوراً ، فسيتخلى عنه الجميع ، ولا سيما أن عدداً كبيراً من الذين لحقوا به من كومو وميلان ، قد أظهروا استعدادهم للتخلى عنه . وكان لا يزال يصر على وجوب إنقاذ الفاشية عن طريق وقفة أخيرة يصمد بها فى الجبال ، ولكن لم يبق معه كثيرون يرون معه هذا الرأى . وعندما قال بوفاريني — جيدى ، الذى كان قد اشتغل بالتهريب بعد إخراجه من الحكومة ، والذى كان يعرف طريق جراندولا جيداً ، إنه سيحاول عبور الحدود إلى سويسرا ، عن طريق بورليزا ، ادعى اثنان كانا قد وافقا على الذهاب إلى فالتيلينا ، وهما إنجيلوتارشى وفابياني ، بأنهما لا يريدان التعرض لخطر الوقوع فى أيدى رجال المقاومة السرية ، وأنهما سيمضيان معه إلى سويسرا . وتزود الثلاثة بجوازات سفر مزيفة ، وغادروا المكان بعيد الساعة الثانية دون أن يودعوا موسوليني . ولم يودعه جرازياني كذلك ، عندما مضى بعد الظهر لينضم إلى وحدة الجيش الإيطالى المرابطة فى مانديلو . وراح موسوليني يقول لإيلينا . . . إن الجميع سيمضون ، وسأبقى وحيداً .

واقترح أحد رجال القمصان السود ، فى قاعة الطعام ، أن يحذو الباقون حذو بوفاريني — جيدى ، وأن يطلبوا إلى السلطات السويسرية حمايتهم حتى تصل قوات الحلفاء فتسلمهم إليها . لكن الحدود كانت مغلقة . وقد أعيدت منها راشيل وطفلاها إلى شياسو ، حيث عادوا جميعاً إلى كومو . وعاد فابياني هارعاً الآن إلى الفندق ، ليقول إن السيارة التى كان يأمل فى أن تحمله مع بوفاريني — جيدى وتاريشى إلى سويسرا ، قد أوقفت فى بورليزا ، بعد أن انضم حرس الحدود إلى رجال المقاومة السرية . وقد تمكن هو من الفرار ، بينما اعتقل رفيقاه .

وطلب موسوليني من الملازم بيرزير ، أن يمضى لمساعدتها ، ولكنه رفض قائلا إن أوامره تقضى بحماية الدوتشى ليس إلا ، وإنه لا يهمه أى إنسان آخر . وتطايرت الاتهامات والتهديدات والشتائم فى سماء الغرفة ، بينما كان الموجودون فيها

يناقشون ما يجب عليهم أن يفعلوه . ولم يشترك موسوليني في هذه المناقشات الحادة ، وإن ظل يفرز وثائقه ، وعندما أشرفت الدنيا على الدجى ، استدعى الملازم بيرزير ، وأبلغه أنه قرر ألا ينتظر بافوليني مدة أطول ، وأن يعود إلى ميناجيو ليمضي منها صعداً مع ساحل البحيرة إلى فالتيلينا . وأضاف أنهم سيتركون رسالة لرجال بافوليني للحاق بهم عند ميرانو . ولكن بيرزير لم يوافقه على رأيه ، وقال بشيء من الاحترام الفاتر ، إن رجاله قد أجهدوا ، وإنه لايستطيع أن يطلب منهم اختراق الحصار الذى لا بد أن يكون رجال المقاومة قد فرضوه إلى الشمال من ميناجيو ، إلى أن يكونوا قد أخذوا قسطاً من الراحة . واضطر موسوليني إلى التسليم ، وأمرهم جميعاً بقضاء الليلة فى جراندولا ، على أن يتحركوا فى الخامسة صباحاً إلى ميناجيو . وأضاف أن رجال بافوليني الذين يعدون ثلاثة آلاف لا بد أن يكونوا قد وصلوا إلى هناك فى تلك الساعة . وقد صدر عنه هذا القول ، دون أن يصدقه الآخرون ، أو يصدق نفسه .

ووصل بافوليني فى الساعات المبكرة من صباح السابع والعشرين من أبريل ، فى سيارة مصفحة قادماً من كومو . وكانت السماء لا تزال تمطر مدراراً ، إذ ذكرت إيلينا كوكياتى فيما بعد ، أنه عندما دخل الفندق ، كان الماء يتصبب على وجهه الشاحب . وروى لهم أن ذوى القمصان السوداء فى كومو ، قد وقعوا اتفاقاً للاستسلام إلى رجال المقاومة السرية . ولم يستطع أن يحمل معه منهم إلا عدداً قليلا جداً . . .

وهتف به موسوليني بلهفة . . . وكم عدد الذين جاءوا معك .

وتردد بافوليني ولم يحر جواباً . . .

— قل لى ، كم عددهم ؟

— اثنا عشر . . .

وكانت هذه نهاية الأمل .

وسرعان ما سمح موسوليني للملازم بيرزير ، بأن يعد العدة له ولمن بقى معه ، بالانضمام إلى قافلة ألمانية تضم أربعين سيارة شاحنة يقودها الملازم كولماير ، كانت تتراجع شمالا على ساحل البحيرة باتجاه اينزبروك .

وقاد موسولينى بنفسه سيارته الالفاروميو ، وسار وراء بيرزير ، بينما قاد بافولينى ، وهو يهدد باقتحام أى حاجز قد يكون رجال المقاومة قد أقاموه على الطريق بالقوة ، السيارة المدرعة ، مستصحباً معه فيها باراكو وبومباكى وكاسالاينوفو وبيترو سالوسترى ، وهو ضابط شاب في القوة الجوية ، وايدرينو اوتيمبرجى من ذوى القمصان السوداء ، وإيلينا كورتى كوكياتى وكارادورى ، الذى كان لا يزال يحمل الحقيبتين الجلديتين المليئتين بالوثائق والمال . اللتين كان موسولينى قد عهد بهما إليه فى ميلان . أما مارسيلو بيتاتشى وشقيقته كلاريتا فكانا فى سيارة متأخرة ، يعتقد أنها سيارة السفير الأسبانى .

ومضت القافلة فى طريقها عدة أميال باتجاه الشمال ، دون أن يعترض أحد سبيلها . وكان موسولينى قد استعاد ثقته وقال . . . « نستطيع ومعنا مائتا ألمانى أن نمضى إلى أعلى قمة فى العالم » . وقاد سيارته ببطء فى أطراف ميناجيو ، وأطل برأسه من النافذة ، هاتفاً برجل كان يسير على طرف الطريق . . . « أهناك كثيرون من رجال المقاومة هنا ؟ » .

فرد الرجل بأن رجال المقاومة منتشرون فى كل مكان .

وعادت القافلة تواصل سيرها ، وبعد بضع مئات من الياردات ، أوقف موسولينى سيارته ، ونزل ماشياً منها إلى بافولينى الذى اقترح بأن سلامة الدوتشى تتطلب أن يكون فى السيارة المدرعة . ووافق موسولينى على الفكرة بعد أن استشار بيرزير ، وصعد إلى المدرعة . وعادت القافلة من جديد تسير فى طريقها . وكان هذا الطريق المحاذى لشاطئ البحيرة ، هادئاً كل الهدوء . وظل الجالسون فى المصفحة صامتين وكأن على رؤوسهم الطير . وانطلقت فى الساعة السابعة صباحاً ، وكانت القافلة قد غدت على بعد ستة أميال إلى الشمال من ميناجيو ، ثلاثة عيارات نارية بصورة مفاجئة ، بينما وجدت القافلة الطريق مقفلة أمامها ، بشجرة ضخمة وبكتل هائلة من الصخر ، وضعت فى منتصف الطريق . وتقوم البحيرة إلى يمين الطريق ، بينما يقوم إلى شمالها ، جدار صخرى هائل ، تغطيه الغابات كان يدعى باسم « روكادى موسو » .

وانطلقت النيران تنهال على السيارة المصفحة من الجبال ، حيث كان رجال

المقاومة قد أقاموا مدفعين رشاشين من طراز ١٢ مليمتراً ، ومن منعطف فى الطريق أمام السيارة . وردت مدافع السيارة المصفحة الرشاشة ، فقتلت أحد المناضلين ، وهو ملاحظ فى أعمال البناء ، وسرعان ما ارتفع العلم الأبيض بعنف فوق جذع الشجرة ، وتقدم ثلاثة رجال إلى القافلة . وكان اثنان منهم من رجال المقاومة السرية ، بينما كان الثالث ، ألمانيًّا — سويسرياً ، يدعى لويجى هوفمان ، كان يعيش على شواطئ البحيرة فى دارة تملكها زوجته ، وهى ابنة أحد الأثرياء من رجال صناعة الحرير فى كومو .

وعندما تقدم الرجال الثلاثة ، اندفع بارّاكو من السيارة المصفحة للتحدث إليهم ومعه فولماير وبيرزير . واعتمد أحد رجال المقاومة وهو دافيد باربييرى ، وكان نقيباً فى كتيبة جاريبالدى الثانية والخمسين ، على هوفمان ترجمة أقواله ، فقال للضابطين الألمانيين إنه رغبة فى حقن الدماء التى لا ضرورة لسفكها سيسمح للجنود الألمان بالمرور عبر الحاجز ، ولكن التعليمات لدى رجاله تقضى بأن لا يسمح لأى من الفاشيين بالمرور . واحتج فولماير ، وطلب من الرجل ، أن يتحدث إلى قائد المقاومة المحلى . وقال باربييرى ، إنه سيجد عنده نفس الرد ، أما إذا كان يصر على التحدث إليه ، فإن فى وسعه أن يذهب إلى مقر القيادة فى موربييجنو .

وكان ضابط المقاومة يحاول اكتساب الوقت ، فقد أدرك أن رجاله ليسوا قادرين على مواجهة الألمان الأحسن تسلحاً لو أن الأمر تحول إلى معركة جدية ، إذ أن معظمهم لا يحملون إلا بنادق عادية . وقد تتيح مهلة ساعة أو ساعتين الفرصة لوصول وحدات جديدة من رجال المقاومة لنصرته . ولكن الألمان لم يكونوا راغبين فى القتال أيضاً . فقد انتهت الحرب فى إيطاليا بالنسبة إليهم ، وكانوا متلهفين على العودة إلى بلادهم . ومضى أحدهم وهو قس بروتستانتى كان يعمل فى الحياة المدنية إلى الدون مينيتى ، راعى الأبرشية المحلية ، الذى خرج من كنيسته عندما سمع صوت العيارات النارية ، وطلب إليه باللاتينية أن يفعل ما يستطيع « باسم الأخوة المسيحية » ، لضمان حرية السير للقافلة .

وسأله الكاهن الإيطالى . . . « ولكن أهناك إيطاليون فى السيارات ؟ » .

ولم يرد الجندى الألمانى ، ولكن أحد الضابطين الألمانيين أقسم للكاهن بشرفه



موسولينى يستعرض قواته العائدة
من غزو الحبشة

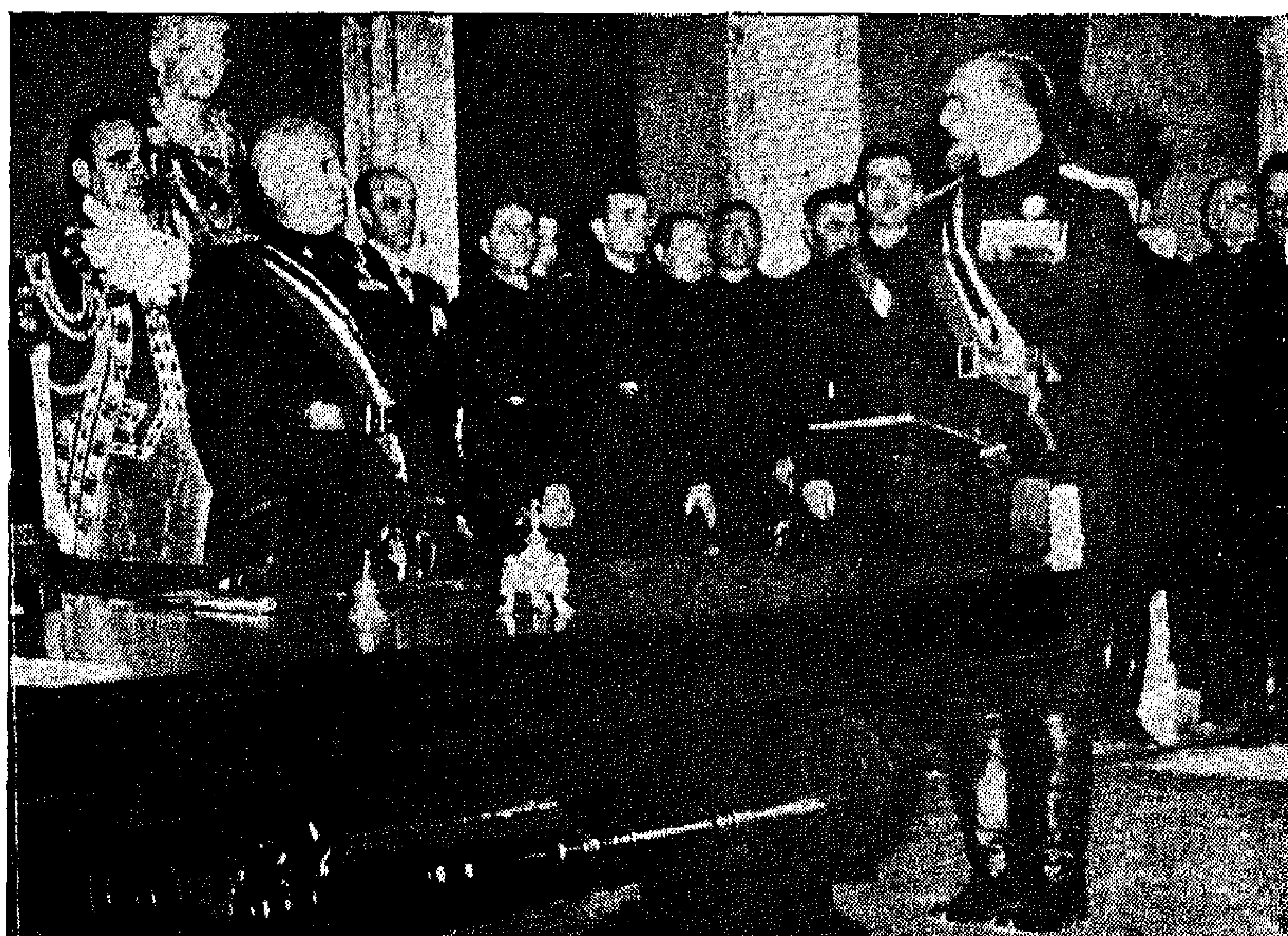
موسولينى يلقى خطاباً فى أراضى الإصلاح
الزراعى فى يوليو عام ١٩٣٨





موسولينى يسلم على الملك أثناء المناورات
العسكرية فى أغسطس ١٩٣٨

موسولينى يتلقى هدية من الكونت جراندى أثناء الذكرى
السنوية السابعة عشرة للزحف على رومة





موسوليني مع ولديه برونو وفيتوريو قبل الحرب

موسوليني مع الكونت تشيانو والمستر تشمبرلين
واللورد هاليفاكس في أكتوبر عام ١٩٤٠





موسولينى مع هتلر وتشيانو فى أكتوبر ١٩٤٠

موسولينى يلقى خطاباً من شرفة قصر البندقية



العسكرى ، أن ليس معهم أحد من الإيطاليين ، فوعده الكاهن بأن يبذل قصارى جهده . وعندما كان الكاهن يهم بالسير ، تقدم منه جندى ألمانى آخر ، وهو من الكاثوليك النمسويين ، وكان قد تلقى العلم فى بادوا ، فهمس له بالإيطالية . . . « أجل معنا إيطاليون . لا تصدق الضابط . واطلبوا تفتيش السيارات » .

ومضى الكاهن يصعد الطريق الجبلى إلى مقر قيادة المقاومة المحلية . ولكنه عندما وصل إلى المقر ، أبلغ بأن القضية أصبحت فى يد القيادة العامة فى موربيبجنو ، وأنهم هنا لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً قبل أن يتلقوا أوامر جديدة .

وكانت الساعة قد بلغت الثامنة عندما مضى فولماير إلى موربيبجنو ، التى لم يعد منها إلى موسو إلا بعد الثانية . واستبد القلق والفزع بالإيطاليين من رجال القافلة فى هذه الفترة من الانتظار التى امتدت ست ساعات طوالا . واقترح بافوليني أن يقتحموا طريقهم عنوة . بينما اقترح آخر أن يعودوا أدراجهم ، وأن يحاولوا الالتفاف حول الحاجز من طريق أخرى ، لكن معظمهم ، رأى أن من الجنون محاولة القيام بأى شىء قبل أن يعود فولماير . وعندما راحت ساعات الصباح تمر سراعاً ، دون أن يعود الضابط الألمانى ، قرر بعض الفاشيين ، اللجوء إلى مساعدة راعى الأبرشية وحمايته . وكان دون مينين قد عاد من الجبال ، ويوشك أن يتناول غداءه ، عندما جاءه رجل إلى منزله يقول . . . « أنا بومباكى وإنى لعلى استعداد لتسليم نفسى إلى رجال المقاومة السرية . فهل تساعدنى يا أبى ؟» وقال بومباكى فيما بعد لآسريه ، إنه أضاع إيمانه بموسولينى فى ميناجيو ، إذ أنه اعتقد كما اعتقد الملازم بيرزير ، أن موسولينى ، كان قد هيأ نفسه للفرار وحيداً إلى سويسرا مع كلاريتا وأنه لم يعدل عن خطته هذه ، إلا عندما تأكد من استحالة عبور الحدود ، فعاد يحاول الوصول إلى فالتيلينا . واعتقد كثيرون آخرون من أتباع الدوتشى بأن هناك ما يبرر شكوك بومباكى . وروى الكاهن لمطرانه فيما بعد ، أن آخرين سرعان ما حذوا حذو بومباكى ، وأسلموا أنفسهم لحمايته . ومضى فى تقريره يقول . . . « وسرعان ما اجتمع فى غرفة الطعام فى الأبرشية عدد من وزراء موسولينى منهم زيربينو وأوجستوليفيرانى ، وفيرناندو ميزاسوما وهو يمسح بعصبية نظارتيه ، وروجيرو رومانو ومعه ولده قسطنطين البالغ الخامسة عشرة من

عمره . . . وكانت الساعة قد تجاوزت الآن الواحدة . وأعددت شيئاً من الحسا للفارين اللاجئين . ووصل رجال المقاومة إلى الأبرشية ، يقودهم النقيب باربييرى . وحاول الضابط أن يعرف إذا كان موسولينى فى إحدى السيارات .. فرد رومانو بأنه كان معهم فى ميناجيو ، ولكنه اختفى منذ تلك اللحظة . لكن بومباكى اقترب من شقيقى وقال . . . « إنه معنا ، وليس من العدل أن ينجو بجلده » .

ولم يكن موسولينى يحاول النجاة بجلده أبداً . فقد ظل يجلس فى السيارة المصفحة يقرأ فى وثائقه ، ويصغى إلى الإذاعات الدولية وهى تنقل الأنباء ، مستمداً شيئاً من الأمل ، فى النبأ الذى أذيع بأنه اعتقل فى بلدة بعيدة عن موسو . وروت إيلينا كورنى كوكيانى ، كيف كان يجلس هادئاً ينتظر عودة فولماير ، عندما ظهر شخص قصير القامة يرتدى « عفريتة » زرقاء اللون ، وقد وضع خوذة صلبة على رأسه ، عند نافذة السيارة المدرعة . وخيل لإيلينيا أنه صبى صغير ، وراحت تتساءل عما يفعله هذا الصبى فى هذا المكان . عندما ارتفعت الخوذة ، وانسدل شعر أسود طويل ، حول وجه نسوى قلق تبينت فيه وجه كلاريتا بيتاتشى « بعينيها الجميلتين البراقتين » . وتحدث إليها موسولينى برقة وحنان ، وهو يحاول التسرية عنها .

وعاد فولماير إلى السيارة المصفحة أثناء حديثه إلى كلاريتا ، وأبلغه أنه فشل فى مهمته ، وفى إقناع رجال المقاومة بالسماح للإيطاليين بالمرور ، مع موافقتهم . على السماح لجميع السيارات الألمانية بالمرور بعد تفتيشها فى دونجو للبحث عما إذا كان بعض الفاشيين يختبئون فيها . واقترح بيرزير أن يرتدى موسولينى معطف جندى ألمانى ، وأن يختلط مع الجنود الألمان فى إحدى السيارات الشاحنة . وترجم موسولينى للآخرين ما قاله الضابط وأضاف . . . « إنه يقول ، إن فى إمكانى المرور إذا تنكرت فى زى ألمانى » .

وهتفت كلاريتا على الفور. . . « هيا يا دوتشى ، لا تتردد . انج بنفسك»... وكانت العبرات تسيل من مآقيها .

لكنه كان عازفاً عن الحركة . وخيل إليه أن فولماير قد ساوم رجال المقاومة عليه ، فحصل على موافقتهم بالسماح له ولرجاله ، بالذهاب إلى ألمانيا ، مقابل تسليم موسولينى إليهم .

وراح يقول لبيرزير . . . « أشم هناك رائحة خيانة أيها الملازم » .

— « لا يا دوتشي . هيا وارتد معطف أحد الجنود الألمان وخوذته واختبئ في إحدى سيارات فولماير . سيقوم رجال المقاومة بتفتيشها . ولكنها فرصتك الوحيدة .

— حسن . ولكن تذكر أن أوامرك تقضي بالدفاع عني .

— طبعاً يا دوتشي .

وابتعد بيرزير ، ليفصل الألمان عن الإيطاليين . وعندما عاد كان موسوليني لا يزال في السيارة المصفحة ، بينما جلست كلاريتا على سطحها ، تبكي بحرقة .

وقال موسوليني غاضباً لبيرزير عندما وصل إليه . . . « أيها الملازم ، إذا لم تؤمن لوزرائي ، نفس الحماية التي تعرضها علي ، فلن أتحرك من مكاني » .

— ولكن هذا مستحيل يا دوتشي . فقد تم توقيع الاتفاق . ويجب أن نخلف جميع الإيطاليين وراءنا .

— ولكن صديقي على الأقل يجب أن تأتي معي .

— هذا مستحيل أيضاً .

وظل موسوليني في مكانه ، يرفض التحرك ، وقد تجمد فكه في عناد وإصرار . وعندما مضى بيرزير ليأتي بالسيارة الشاحنة التي سيختبئ فيها ، لتقف إلى جانب المصفحة ، راح الآخرون يقنعونه بأن يغير رأيه . وعندما وصل بيرزير بالسيارة ، وقال . . . « هذه هي فرصتك الأخيرة يا دوتشي » ، راح يتسلق السيارة صامتاً وقد ساعده كاردوري ، فارتدى معطفاً ألمانيًّا وخوذة ، واندفع إلى السيارة .

وعندما مضت السيارة ، ركضت كلاريتا وراءها تحاول اللحاق بعشيقها ، والقفز إلى سيارته أو أية سيارة أخرى ، واضطر بيرزير إلى استخدام كل ما لديه من قوة لإبعادها .

وهكذا مضى موسوليني وحيداً إلى دونجو . وكان رجال المقاومة قد عرفوا بوجوده مع القافلة ، من راكب دراجة كان قد رآه في السيارة المصفحة ومن الكاهن مينيتي ، ولذا وقفوا ينتظرونه في ساحة البلدة .

١٥

الاعتقال . . .

٢٧ أبريل ١٩٤٥

« لا أريد أن أرى بزة ألمانية عسكرية مرة أخرى » .

١

كانت الساعة قد أزفت على الثالثة ، عندما مضت السيارة الشاحنة تحمل موسوليني وقد أقعى فيها إلى دونجو . وكانت سيارة مارسيلو بيتاتشي ، وهي تحمل اللوحة الدبلوماتية ، والعلم الأسباني يرفرف فيها ، هي السيارة الإيطالية الوحيدة التي سمح لها بمتابعة السير مع القافلة .

ولم يكد الألمان يبتعدون بسياراتهم ، حتى تقدم رجال المقاومة السرية ، بحيطة وحذر ، لاعتقال الوزراء والموظفين الآخرين ، الذين كانوا لا يزالون يقفون إلى جانب السيارات الأخرى في الطريق . وقد استسلم معظمهم دون أية مقاومة . واستسلم كذلك الوزراء الآخرون المجتمعون في دار راعي الأبرشية ، بينما صمم أولئك الموجودون في السيارة المصفحة على المقاومة .

وعندما مر الألمان بباراكو ، وقف في مقعد القيادة ، وقد شحب وجهه إلى درجة مخيفة يهتف بأعلى صوته . . . أيها الجبناء ، أيها الخونة ! وسرعان ما اختفى وراء دروع السيارة ، وراحت السيارة تستدير بمنتهى الصعوبة في الطريق الضيق . ولكنها ما كادت تفعل ذلك حتى أطلق رجال المقاومة النار عليها ثانية ، بينما قذف أحدهم بقنبلة يدوية بين عجلاتها . وبعد لحظات واصلت فيها المصفحة إطلاق النار ، ارتفع علم أبيض من برجها ، بينما قفز بافوليني منها متجهاً إلى البحيرة ، وصارخاً بالآخرين أن يلحقوا به وأن يقذفوا بكل شيء في مائها . وتبعه كارادوري وقد امتلأت يداه بالأوراق . وراحا يغطسان في الماء ويسبحان تحت ستار شاطئها المطل ، دون أن يراهما رجال المقاومة .

ولكن الآخرين لم يفلحوا فى الابتعاد . فقد لحق رجال المقاومة بكاسالينوفو وأوتيمبرجى قبل أن يخطوا بضع خطوات واعتقلا ، بينما أصيب باراكو بعيار فى قدمه . وسحب بافولينى وكارادورى بعد نحو من ساعة من البحيرة ، بعد معركة أصيب الرجلان فيها بجراح ، ثم أرسلا مع رفاقهما إلى دونجو .

وكان موسولينى قد وصل إلى هناك ، وبدأ تفتيش السيارات الشاحنة . وبدأ رجال المقاومة يرافقهم فولماير ، بالسيارة الأولى . ولكنهم لم يجدوا فيها ولا فى التى تليها ما أثار اشتباههم . ولكن أحد هؤلاء الرجال ويدعى جيوسيبى نيجرى ، وكان يعمل بحاراً فى الماضى ، وجد فى إحدى السيارات الخلفية ، جندياً ألمانياً ، كان إما ثملا أو نائماً . وكان يجلس القرفصاء إلى جانب صفيحتين من البترول ، وقد ارتدى خوذة ألمانية من الفولاذ ، ومعطف عريف فى إحدى وحدات مقاومة الطائرات . وروى رجل آخر من رجال المقاومة السرية ، وكان واحداً من عشرة ، ادعى كل واحد منهم فيما بعد لنفسه شرف اكتشاف موسولينى ، أن هذا الألمانى ، كان يضع على عينيه نظارتين سوداوين كبيرتين . ولم يكن نيجرى قد كلف نفسه عناء الصعود إلى السيارة الأولى التى كان قد فتشها ، ولكنه وجد نفسه مدفوعاً هذه المرة إلى الأمام من رقيب من حرس الجمارك ، فصعد إلى السيارة ، وأخذ يتفرس فى الرجل الجالس فى مقدمتها . ورأى مدفعاً رشاشاً بين ركبتيه ، وعندما قال رفاقه من الجنود الألمان ، إنه زميل سكير ، تظاهر الإيطالى بأنه قد صدقهم . وقفز من السيارة ، راكضاً لمقابلة نائب المفوض السياسى للكتيبة ، أوربانو لازارو .

وراح يهتف بلازارو عندما عثر عليه أخيراً . . . « تعال هنا . أعتقد أننى وجدته » .

وركض لازارو إلى السيارة وصعد إليها . وشق طريقه إلى مقدمتها ، حيث كان يجلس ذلك الألمانى فى بزة العريف . وراح يسأله . . . « هل أنت إيطالى ؟ » وسادت لحظة من الصمت قبل أن يرفع موسولينى عينيه قائلا بشىء من الحزم . . . « أجل أنا إيطالى » .

وصرخ لازارو ، وقد أخذ بنظرة الدوتشى المفاجئة . . . « يا صاحب

الفخامة » . . . فقد جعله هول المفاجأة ، ينطق بهذه العبارة دون وعى . . . ثم قال . . . « إذن فأنت هنا » .

ولاحظ لازارو أن وجه موسولينى كان أبيض كالرماد ، وخالياً من كل تعبير . وكان شعر ذقنه أسود وكثيفاً ، مما يضاعف من إبراز شحوب وجنتيه . وكان بياض عينيه قد تحول إلى صفرة . وكان فى وسع المرء أن يقرأ فيهما معانى الإجهاد لا معنى الخوف ، فقد ماتت روحه منذ أمد بعيد ، ولم يعد له شأن بين الأحياء .

وكان قد طالب إلى الجنود الألمان عدم المجازفة بأرواحهم فى محاولة إنقاذه من الأسر ، ولم يبد عليه أنه راغب فى محاولة استخدام مدفعه الرشاش . وراح ينزل بمساعدة لازارو من السيارة ، ولم ينبس ببنت شفة عندما انتزعوا المدفع منه ، أو عندما رفعوا الخوذة الألمانية عن هامته . وتعالت هتافات الناس فى الميدان عندما تبينوا حقيقة الأسير .

وراح لازارو يسأله . . . ألديك أسلحة أخرى ؟ ولكنه لم يجب ، ففتش رجال المقاومة السرية جيوبه ، وعثروا فيها على مسدس محشو . ولم ينبس ببنت شفة أيضاً عندما انتزعوا المسدس منه . ولكن عندما أراد أحد رجال المقاومة أن ينتزع منه الحقيبتين اللتين كان يحملهما ، التفت إليه بعنف قائلا . . . « احذر ، إن هاتين المحفظتين تضمان وثائق سرية فى منتهى الأهمية ، من الناحية التاريخية ولمستقبل إيطاليا » .

وكانت هذه الثورة مؤقتة . فقد بدا محطماً مستسلماً ، وضعيفاً وفى منتهى الإعياء والمرض ؛ وعندما راح يجتاز الميدان إلى مكتب رئيس البلدية ، فى ذلك البناء الجميل رغم تداعيه الواقف عند سفوح جبل بريجاجنو ، بادره لازارو قائلا . . . « حافظ على هدوئك ، فلن نصيبك بضر » .

وحاول رئيس البلدية الدكتور جيوسيبى روبينى ، أن يسرى عنه أيضاً ، فقال . . . « لا تنزعج ، فلن يصيبك سوء » .

ورد موسولينى بشىء من التنازل المرضى . . . « أنا أعرف هذا فأهل البحيرة أناس طيبو القلب » .

وسمح له بالجلوس فى مكتب رئيس البلدية ، وتحلقت حوله جماعات من أهل

البلدة ومن رجال المقاومة الشعبية ، يوجهون إليه الأسئلة التى يرد عليها بشىء من الغضب ، أو الكبرياء المهانة ، أو الرغبة الخاطئة التوجيه فى إرضاء الآخرين . . .

وسأله أحدهم . . . وما الذى دعاك إلى خيانة الاشتراكية ؟

— أنا لم أخنها . وإنما الاشتراكية هى التى خانت نفسها .

— ولم قتلت ماتيوتى ؟

— لم يكن لى شأن فى قتل الرجل .

— ولم طعنت فرنسا من الخلف ؟

— يتطلب إيضاح الأسباب التى أجبرت إيطاليا على دخول الحرب ، وقتاً طويلا .

— أكان الخطاب الذى ألقيته بعد إنقاذك من « الصخرة العظيمة » بمحض إرادتك ، أم كنت مرغماً على إلقائه .

— كنت مرغماً على إلقائه .

— ولم سمحت باتخاذ مثل تلك الإجراءات الصارمة ضد رجال المقاومة السرية ؟ فقد عذب بعضهم عذاباً شديداً . أكنت تعرف ذلك ؟

— كانت يداى مغلولتين . ولم تكن ثمة فرصة لمعارضة كيسلرنج وولف فيما يفعلانه . وقد تحدثت إلى الجنرال وولف المرة تلو المرة عن قصص الناس الذين يعذبون ، وعن غير ذلك من الأعمال الوحشية التى وصلت إلى مسامعى . ورد وولف ذات يوم ، بأن هذه « هى الطريقة الوحيدة لاستخلاص الحقائق وإن الموتى لابد أن يعترفوا بالحقيقة فى غرف تعذيبه » .

وانهالت عليه الأسئلة واحداً إثر آخر ، ورد عليها كلها . وجف حلقه من كثرة الحديث ، فطلب كأساً من الماء . وجاءوا له ببعض الماء وبقدح من القهوة . واحتساه بلهفة ، ثم راح فى صمت عميق ، وقد وضع يديه على ركبتيه ، محملقاً فى الجدار . وكان قد نزع المعطف الألمانى وقذف به إلى الأرض ، وجلس حاسر الرأس فى بزة الحرس الفاشى .

وسمح فى الخارج للقافلة الألمانية بمواصلة سيرها باتجاه الشمال ،وسرعان ما بعث أحد المفوضين السياسيين لجماعات المقاومة ويدعى فرانشيسكو تيرزى برسالة

إلى كومو فى الجنوب ، يذكر فيها وقوع موسولينى فى الأسر ، ويطلب من اللجنة المحلية للتحرير الوطنى فيها تعليماتها عما يجب أن يفعله بالمعتقل .

٢

كانت الساعة قد أزفت على الثامنة والنصف . وكان لابد من انقضاء بعض الوقت ، قبل أن يعود الرسول الذى مضى إلى كومو للتزود بتعليمات لجنة التحرير الوطنى . وقرر قائد المقاومة السرية الشاب فى دونجو ، الكونت بيير لويجى بيلليني ديل ستيلى . أن ينقل أسيره الخطير الشأن إلى مكان أمين ، خوفاً من قيام محاولة لإنقاذه . ولم تحل الساعة السابعة ، حتى كان قد عزم على نقل موسولينى إلى الجبال ، إلى ثكنة حرس الحدود فى جيرماسينو .

وكان المطر يتساقط مدراراً . واشتدت البرودة . وراح أحد رجال المقاومة وكان يتولى حراسة موسولينى ، يسأله إذا كان يود أن يرتدى المعطف الألمانى ليتقى البرد فقال . . . « لا أريد أن أرى بزة ألمانية عسكرية مرة أخرى » ، وراح يرتدى بدلا منه « عفريتة » زرقاء وجدها ملقاة فى زاوية من الغرفة . واشتدت به الرجفة فى السيارة التى أقلته إلى جيرماسينو ، فقد كانت الرحلة بطيئة ، إذ كان المطر ينهمر بعنف على مقدمة السيارة بحيث لم يكن فى وسع السائق أن يتبين طريقه .

وقال أحد الحراس ، محاولا بعصبية ظاهرة ، الشروع فى حديث مع السجين.. « هذه هى المرة الثانية التى تقع فيها أسيراً » .

فرد موسولينى بشىء من المرح المتشائم . . . « هذه هى الحياة يا ولدى العزيز . هذا هو قدرى ، من الرغام إلى السلطان ، ومن السلطان إلى الرغام » .

وعادت إليه معنوياته الضائعة ، وكأنه وجد العزاء فى فكرة الاستشهاد . وبدا سعيداً عندما وصلوا به إلى جيرناماسينو . وعندما أشعل الحرس النار ليصطلى عليها ، وأعدوا له وجبة ساخنة ، راح يتحدث إليهم وكأنه ضيفهم لا سجينهم . وعندما طلبوا إليه توقيع ورقة يعترف فيها بحسن معاملتهم له ، وقعها طائعاً مختاراً . وكان نصها على النحو التالى : « اعتقلتنى كتيبة جاريبالدى الثانية والخمسون اليوم

فى السابع والعشرين من أبريل ، فى ميدان دونجو . وكانت معاملتهم لى أثناء الاعتقال وبعده ، حسنة للغاية » .

وجلس موسولينى إلى مائدة العشاء . كان جائعاً ، ولذا فقد تناول الطعام بشهية . وظل يتحدث أثناء العشاء وبعده إلى رجال الحرس طويلا وكأنه أستاذ ثرثار يتحدث إلى مجموعة من طلابه الذين استبدت بهم العصبية . وكان حديثه أقرب إلى المحاضرة منه إلى أى شىء آخر . فقد تحدث إلى الشبان عن زيارته لروسيا ، وعن طيرانه عبر المساحات الواسعة من السهول الروسية . وتحدث عن ستالين كأحد عظام الرجال الأحياء ، ووصف روسيا بأنها المنتصرة الفعلية فى الحرب . وعرض آراءه فى البلشفية والاشتراكية الوطنية ، وتنبأ بانهيار الإمبراطورية البريطانية . وكانوا يصغون إليه دون أن يقاطعوا حديثه . فمهما حدث له الآن ، فإنهم لم يستطيعوا أن ينسوا ، أنه ظل يحكمهم زهاء عشرين عاماً . وروى أحدهم ويدعى ماريونى ، أن « القلق كان يستحوذ عليه أحياناً ، ولكنه لم يبد خائفاً على الإطلاق . وبدا وكأنه لا يهتم بمصيره . وقد قال لى ولأحد الرفاق . . . " إن الشباب شىء جميل " . وابتسم رفيقى عندما سمع هذا ، فاستأنف موسولينى قائلا . . . " أجل ، أنا أعنى ما أقول . فالشباب شىء جميل . وأنا أحب الشبان حتى ولو حملوا السلاح ضدى " . ثم أخرج ساعة ذهبية من جيبه وقدمها إلينا قائلا . . . خذاها لتذكركما بى » .

وعندما بلغت الساعة الحادية عشرة ، قال إنه منهك ، وسأل إذا كان فى استطاعته أن ينام . ونقله الحراس إلى غرفة صغيرة فى الطبقة العليا ، حيث أعد له سرير وراء نافذة مغلقة ، تحجزها القضبان . ورأى جيورجيو بوفيللى ، وهو الشاب الذى كان قد تحدث إليه فى السيارة ، شيئاً صغيراً أسود يطل من جيبه ، فأشار إليه باهتمام . وكان قد رآه منذ مدة ، وخيل إليه أنه مقبض مسدس . فأخرج موسولينى ذلك الشىء طائعاً من جيبه وعرضه على حارسه ، ولم يكن سوى « حافظة النظارات» . وأغلق بوفيللى الباب بالمزلاج .

وعندما عاد الكونت بيللينى إلى دونجو ، وجد كلاريتا بيتاتشى ، فى غرفة فى دار البلدية ، حيث اعتقلت منفردة عن أخيها ، إذ لم تكن تحمل جواز سفر

يقيم الدليل على صحة ادعائها بأنها تحمل الجنسية الأسبانية . وكانت لا تزال تصر على أنها شقيقة السفير الأسبانى لدى جمهورية سالو ، وراحت تسأل بعض فتيات القرية عما سيحل بكلاريتا بيتاتشى ، إذا اعتقلها رجال المقاومة ، وعندما أبلغها الكونت بيلليني ، أن موسولينى سجين لديه ، قالت إنها لا تعرفه ولم تلقه أبداً .

وقال الكونت بيلليني . . . ولكنى أعرف من تكونين . . . وأضاف أنهم اكتشفوا أيضاً أن الرجل المتنكر باسم السفير الأسبانى ليس إلا شقيقها مارسيلو . ولم يعد فى وسعها الاستمرار فى الادعاء . فسألت الكونت عن أحوال موسولينى ، وأجابها بأنه وحيد وبخير . وتطلعت إليه كلاريتا بنظرة عميقة فاحصة ثم قالت . . . من أنت ؟ أأنت صديق ؟

فرد بيلليني . . . لا . أنا عدو .

وقالت تعض على ناجذ من نواجذها ، وكان قد انقضم إبان الرحلة . . . « أنا أعرف أنكم جميعاً تكرهوننى . وكنتم تتصورون أننى أحب فيه ماله وسلطانه . ولكن هذا كذب . فلم يكن حبى له انتهازياً على الإطلاق . فقد ضحيت بنفسى من أجله . وحاولت أن أكون طيبة معه » . . . ثم راحت تسأله بتوسل . . . أتسدى إلى منة ؟

— ماذا تريدين ؟

— أريد أن تحبسنى معه فى نفس المكان . أريد أن أشاطره مصيره . وإذا قتلتموه ، فاقتلونى معه .

ونظر الكونت إليها بإمعان ، وقد استبدت به الدهشة . إذ لم يكن يتوقع منها هذا الوفاء . وراح يمضى مخلفاً إياها فى الغرفة .

٣

وصل الشاب الذى أوفد من دونجو حاملا أنباء اعتقال موسولينى إلى كومو فى الساعة السادسة والنصف . ولما عجز عن مقابلة أى من أعضاء لجنة التحرير

الوطنى المحلية فى البلدة ، راح ينقل النبأ إلى جينو بيرتينيللى ، المحامى الذى غدا منذ بضع ساعات ليس إلا ، محافظاً للمدينة . وقال المحافظ للرسول . . . « عد على الفور ، وأبلغ قائدك ، أن ينقل موسولينى على التو إلى مكان أمين فى الجبال ، مخافة أن يجدوه وينقذوه ثانية . وسأحاول بدورى الاتصال بميلان » . وعاد الرسول مسرعاً إلى دونجو ، يحمل هذه التعليمات إلى الكونت بيللينى ، الذى كان قد نقل موسولينى إلى جيرماسينو .

ووصل نبأ نقل موسولينى إلى جيرماسينو ، إلى صديق حميم للجنرال كادورنا ، هو العقيد البارون جيوفانى ساردانا ، الذى عين مؤخراً قائداً عسكريًّا فى كومو نيابة عن لجنة التحرير الوطنى . وسرعان ما هتف ساردانا للجنرال ، فلم يستطع الاتصال به إلا بعد مضى وقت طويل . وكان الخط الهاتفى غير واضح ، ومع ذلك فقد تحدث إلى العقيد بالومبو ، رئيس أركان حرب الجنرال كادورنا .

وقال ساردانا لمحدثه . . . « اعتقل موسولينى بعد ظهر اليوم على مقربة من دونجو ، فماذا نعمل ؟ إنهم يريدون منى التعليمات !! ماذا أقول لهم ؟ »

— لا أستطيع إصدار أية تعليمات بعد . . فقد نقل إلينا نبأ الاعتقال منذ لحظات . سأعود إلى الاتصال بك ، ناقلا إليك التعليمات .

— حسن . ولكن علينا أن نسرع فى البت فى هذا الموضوع .

— طبعاً . ولكن ليس فى وسعى أن أقول شيئاً محدداً الآن . سأتصل بك هاتفيًّا فيما بعد .

ورن جرس الهاتف عند ساردانا فى الساعة الحادية عشرة والنصف ، لم يكن بالومبو هو المتحدث ، وإنما كانت هناك برقية عاجلة من لجنة التحرير الوطنى فى ميلان . وكان نصها كما يلى . . . « أحضروا موسولينى ، ورجال عهده إلى ميلان فى أسرع وقت ممكن » .

وتحدث ساردانا قبل أن يسرع إلى تنفيذ هذه الأوامر ، إلى بالومبو من جديد . وقال له عندما تم الاتصال الهاتفى بعد وقت طويل . . . « اسمع . فهمت أمركم . ولكننى أريد التأكد منه شفويًّا » . وأضاف أن نقل موسولينى إلى ميلان أمر سهل على القول ، ولكنه صعب على التنفيذ . فليس ثمة عدد كبير من الرجال

الذين يمكن الوثوق بهم ، والركون إليهم . ولذا يجب أن تقوم بالتنفيذ جماعة صغيرة مختارة ، وأن تتم عملية النقل ، سرًّا فى الليل . وعلى ناقليه أن يعرفوا أنهم سيجتازون عدداً من حواجز الطرق . وبالطبع هم يستطيعون نقله عن طريق البحيرة إلى كومو ، ولكن ليس من السهل العثور على قارب صالح . ثم قال بإصرار . . . « يجب أن أعترف بأن هناك مخاطرة بالغة فى العملية كلها » .

فرد بالومبو بإصرار . . . « حسن إذن . عليك أن تجد مكاناً أميناً يمكن إخفاؤه فيه بعض الوقت » .

وهكذا تقرر نقل موسولينى من جيرماسينو إلى قرية بليفيو ، التى تبعد سبعة كيلومترات إلى الشمال من كومو ، حيث يملك صديق لساردانا ، هو من كبار رجال الصناعة ، ويدعى ريمو كاديماتورى ، دارة منعزلة واسعة ، لها واجهة واسعة مطلة على البحيرة . وهتف ساردانا لصديقه كاديماتورى ، قائلا إنه فى حاجة إلى دارته ، لإخفاء شخص فيها ، وإن هذا الشخص سينقل إليها فى الليل عن طريق البحيرة فى مولترازيو . وقال له ، إنه إذا سئل عمن يكون هذا الشخص ، فعليه أن يقول إنه ضابط إنجليزى أصيب بجراح . ولم يوجه كاديماتورى أية أسئلة ، ولكنه عرف لتوه ، أن هذا الشخص هو موسولينى بعينه . وخرج فى تلك الليلة الشديدة البرودة ، يجلس على سلم دارته المطل على البحيرة ، منتظراً وصول الزائر ، وقد رافقه بستانيه العجوز ، ينظران عبر الليل البهيم ، إلى مياه البحيرة .

٤

وصل الأمر بنقل موسولينى من جيرماسينو إلى دارة كاديماتورى فى بليفيو ، إلى الكونت بيللينى ، حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف ، ولم تمض ساعتان حتى كان قد نقل أسيره من ثكنة جيرماسينو فى سيارة التقت بالسيارة التى نقلت كلاريتا بيتاتشى من دونجو حوالى الثانية والنصف صباحاً على مقربة من « بونتى ديلا فولك » . وكانت السماء لا تزال تهطل مدراراً ، ولكن موسولينى هبط من

السيارة . وقد التف « ببطانية » من الصوف . واختفى جزء من وجهه تحت الرباط ، ليبدو كرجل جريح فى طريقه إلى المستشفى ، ومشى نحو كلاريتا ، وتبادلا التحية بشىء من الاصطناع الذى جمع بين الحنان والسخف .

وقالت كلاريتا . . . مساء الخير يا صاحب الفخامة .

ــ أنت يا سيدتى ! لماذا جئت ؟

ــ أوثر أن أكون معك .

كانت هذه هى العبارات الوحيدة التى تبادلاها . وانطلقت السيارتان تخوضان السيول التى تجمعت من مياه الأمطار المنهمرة ، باتجاه مولترازيو . وكان إلى جانب السائق فى السيارة الأولى ، رجل من المقاومة السرية يدعى لويجى كانالى ، وكان يسمى نفسه « بالكابتن نيرى » ، بينما جلست كلاريتا فى المقعد الخلفى بين جنديين من جنود المقاومة هما جيوسيبى فرانجى وجوجليلمو كانتونى ، وكلاهما من الصيادين . وجلس موسولينى فى السيارة الثانية بين الكونت بيللينى وعشيقة كانالى . وتدعى جيوسيبينا تويسى ، متنكرة فى زى ممرضة . أما فى المقعد الأمامى إلى جانب السائق ، فقد جلس ميشيل موريتى المعروف عند رفاقه من رجال المقاومة السرية باسم « بيترو جاتى » .

وكانت الطريق تتعرج وتلتوى بين الصخور إلى جانب البحيرة . وكانت السيارتان تقفان أحياناً أمام حاجز من حواجز الطرق ، فيخرج رجال من الظلام المدلهم ، يحملون المصابيح . التى تتأرجح فى أيديهم تحت انهمار المطر المنصب من السماء ، بينما تسطع أنوار القذائف المدفعية فى السماء ، وقد سمع دويها من مسافات بعيدة . وانطلقت القذائف فى إحدى المرات من التلال الواقعة إلى اليمين ، وقفز الكونت بيللينى من السيارة هاتفاً وملوحاً بيديه . وعندما وصلت السيارتان إلى مولترازيو ، توقفتا على مقربة من « فندق أمبريالى » ، وهبط الكونت ثانية من السيارة ، ليمشى بعيداً مع لويجى كانالى .

وظل موسولينى هادئاً لا ينبس ببنت شفة . كان الهدوء يخيم على مولترازيو ولكن الصواريخ كانت تنطلق على بعد سبعة أميال إلى الجنوب عبر السماء فوق كومو ، وكان دوى العيارات النارية فى شوارعها ، يصل إلى الأسماع . فقد وصل

الأمريكيون الزاحفون بسرعة عبر سهل لومبارديا إلى جبال الألب عند بيرجامو .

وعاد لويجى والكونت إلى السيارتين بعد نحو من ربع ساعة . وروى بيللينى فيما بعد قائلا . . . « وكنت بالطبع لا أنوى المغامرة بتسليم موسولينى إلى الأمريكان » ولذا فقد عدل عن الخطة الأصلية فى نقله عبر البحيرة إلى دارة كاديماتورى . واقترح كانالى أن خير مكان أمين لإخفاء موسولينى وكلاريتا ، هو مزرعة تقع على مقربة من بونزانيجو ، حيث يعرف فلاحاً يدعى جياكومو ، وزوجته ليادى ماريا ، كانا يخفيان رجال المقاومة ، أثناء فرارهم من القوات الفاشية . وأضاف أن هذين الزوجين سيخفيان الأسيرين دون أى سؤال . وأقر الكونت بيللينى اقتراحه ، وراحت السيارتان تستديران عائدتين باتجاه الشمال .

ووصل الركب إلى ازّانو فى الساعة الثالثة والربع صباحاً . وكان منزل الزوجين ، يقع فى مكان مرتفع على الجبل ، فطلب كانالى من الجميع ، أن يهبطوا من السيارتين وأن يرتقوا وراءه الجبل . وسار أمامهم فى طريق ضيق ، يحيط به جداران من الصخر . وكان المطر لا يزال ينهمر بشدة ، واندفعت المياه هابطة مع الطريق وكأنها سيل جارف وانهارت معنويات موسولينى ، فقد نفذ الماء من « البطانية » التى التحف بها . وأمسكت كلاريتا بذراعه بعنف . وكان القمر مشرقاً رغم السحب الكثيفة التى تحجبه ، مما أنار لهم الطريق ومكنهم من رؤية جدران المزرعة ، بعد وصولهم إلى ضواحى بونزانيجو .

وصرخ كانالى منادياً الزوجين ، على الطريقة المألوفة عند الفلاحين فى مناداة بوابّاتهم . وكان هذا النداء هو العلامة المتفق عليها عند رجال المقاومة . وسرعان ما فتح الباب ، وأطل منه جياكومو وزوجته وقد حملا مصباحاً جازيّاً . وتعرفا إلى كانالى ، وأوسعا له طريق الدخول . وتبعه موسولينى الذى انهار على مقعد فى المطبخ ، وقد جلست إلى جانبه كلاريتا ممسكة بذراعه .

وقال كانالى . . . إنهما سجينان . أرجو أن تحسنا معاملتهما ، وأن تسمحا لهما بالنوم .

وخلف وراءه الصيادين الشابين كانتونى وفرانجى ليتوليا حراسة الأسيرين ، ثم عاد إلى السيارتين مع الكونت بيللينى وجيوسيبينا تويسى وميشيل موريتى .

وأوقد جياكومو النار ، وقدم للأسيرين بعض الطعام . ولم يكن يعرف هويتهما وراح يسأل كلاريتا ، عازفاً عن التحدث مباشرة إلى هذا الرجل الذى تعصب الأربطة رأسه . . . « ماذا أقدم للسيد ؟ »

وتمتم موسولينى هازًّا رأسه ودون أن يرفع نظره عن النار المشتعلة أمامه ، وقد وضع يديه فى جيبيه « لاشىء » .

وقالت كلاريتا . . . أريد بعض القهوة من فضلك . . .

فردت دى ماريا معتذرة . . . ليس لدينا بن حقيقى ، ولكن فى وسعى أن أصنع لك شيئاً من مسحوق القهوة . . .

ــ لا بأس .

وراح جياكومو يعد القهوة صامتاً . ولم ينبس أى من الموجودين ببنت شفة . وسرعان ما آبت زوجته من غرفة فى الطبقة العليا ، بعد أن نقلت ولديها من سريرهما المزدوج وبعثت بهما إلى « علّية » فى أعلى المنزل . . . وقالت إن الغرفة معدة ، إذا رغب السيد فى الصعود . ولم يحر موسولينى جواباً . كما لم يتحرك من مكانه . . .

وقالت كلاريتا بنعومة . . . « الغرفة معدة ، هل نصعد إليها ؟ »

ونهض من مكانه دون أن يقول شيئاً ثم سار وراء السيدة ، صاعداً الدرج ، إلى غرفة النوم البيضاء الجدران فى الطبقة العليا ، حيث رأى سريراً كبيراً من الخشب ، يؤلف مع مقعدين من القش ومغسلة الأثاث الوحيد فيها . واتجه موسولينى إلى النافذة . وخيل لدى ماريا ، التى كانت تتبعه أنه سيحاول الفرار ، فسارعت إلى إغلاق النافذة . ومضت كلاريتا إلى السرير تحسه بيديها وكأنها فى فندق . ثم طلبت وسادة ثانية . . . وهى تقول . . . « إنه ألف النوم على وسادتين » .

وخيل إلى المرأة أن كلاريتا تحس بالخجل . وعندما أعطتها الوسادة الثانية ، تطلعت إلى غطائها بإمعان . ثم وضعتها إلى جانبها على السرير . أما الوسادتان الأخريان فقد وضعتهما إلى الجانب الآخر القريب من النافذة حيث أراد موسولينى أن ينام .

وجلس إلى سريره الآن ، يفك رباط رأسه . ووقفت السيدة دى ماريا ترقبه .

وعندما ارتفع الرباط الأبيض عن الجبهة ، بدأت تتميز فيه وجه الدوتشي المعروف لديها ، فراحت تتفرس فيه بإمعان ، مذعورة حائرة . وعندما سمعت صوت كلاريتا تسألها إذا كان فى وسعها أن تستحم ، قفزت من ذهولها تقول بعصبية ظاهرة . . . « نحن كما ترين من أهل الجبال . وعليك أن تسامحينا إذا طلبت إليك النزول إلى الطبقة السفلى لتستحمى » .

وسارت كلاريتا وراءها إلى الطبقة السفلى ومنها إلى بيت صغير خارجى ، حيث اغتسلت بينما كان أحد الصيادين الحارسين يسترق النظر إليها من شق فى الباب . كان جسدها جميلا ، وصدرها رائعاً ، ولذا فلم يستغرب أن يتدله موسولينى بهواها . وعندما انتهت من اغتسالها ، تبعها إلى الغرفة وطلب إليها أن تبقى على الباب مفتوحاً .

وانتهت من خلع ملابسها على ضوء المصباح الكهربى الخافت ثم انسلت إلى السرير بجانب حبيبها . وتمتمت ببضع كلمات ، رد عليها باقتضاب ، وحاول كانتونى وفرانجى الإصغاء عبر الباب المفتوح جزئياً إلى ما قالاه ، فلم يستطيعا . وخيل إليهما أنهما سمعا اسمى « بافولينى » وجرازيانى ، وأن موسولينى قال « إنى على ثقة من أنهم لن يقتلونى » . وأنه قال لها . . . « هل تغفرى لى » . وعندما ردت عليه بعبارة لم يسمعاها ، تناهى إلى مسامعهما قوله . . . « لم يعد هذا يهمنى » . وتوقف الحديث بين العاشقين ، واشتدت عصبية الحارسين ، فقد خيل إليهما أن الأسيرين يخططان للهروب . وسرعان ما فتحا الباب فجأة واندفعا إلى الغرفة . فغطت كلاريتا وجهها بملاءة السرير وأقعت بجانب موسولينى ، بينما هتف هذا بهما مؤنباً ... « اذهبا أيها الولدان . عليكما أن لا تسلكا على هذا النحو . ولا تكونا مزعجين » . وقد لاحظا فى وجهه علائم الإجهاد ، وبدت الغضون وصور اليأس واضحة فيه .

وغادر الحارسان الغرفة ، وأقعيا ثانية عند بابها . وأطفأ موسولينى النور ، ولم تمض لحظات . حتى كانا يسمعان بالرغم من زئير الريح فى الخارج ، وصوت انهمار المطر على النافذة ، تنفس موسولينى العميق . ونام نوماً عميقاً طيلة الليل ، وكانت درفات النافذة المغلقة قد حجبت عن أذنيه إلى حد ما هدير الرعد القاصف ، وومضات البرق الخاطفة والمتواصلة . وأغفى الحارسان الشابان عند الفجر أيضاً ،



كلارا بيتاتشي عشيقة موسولينى

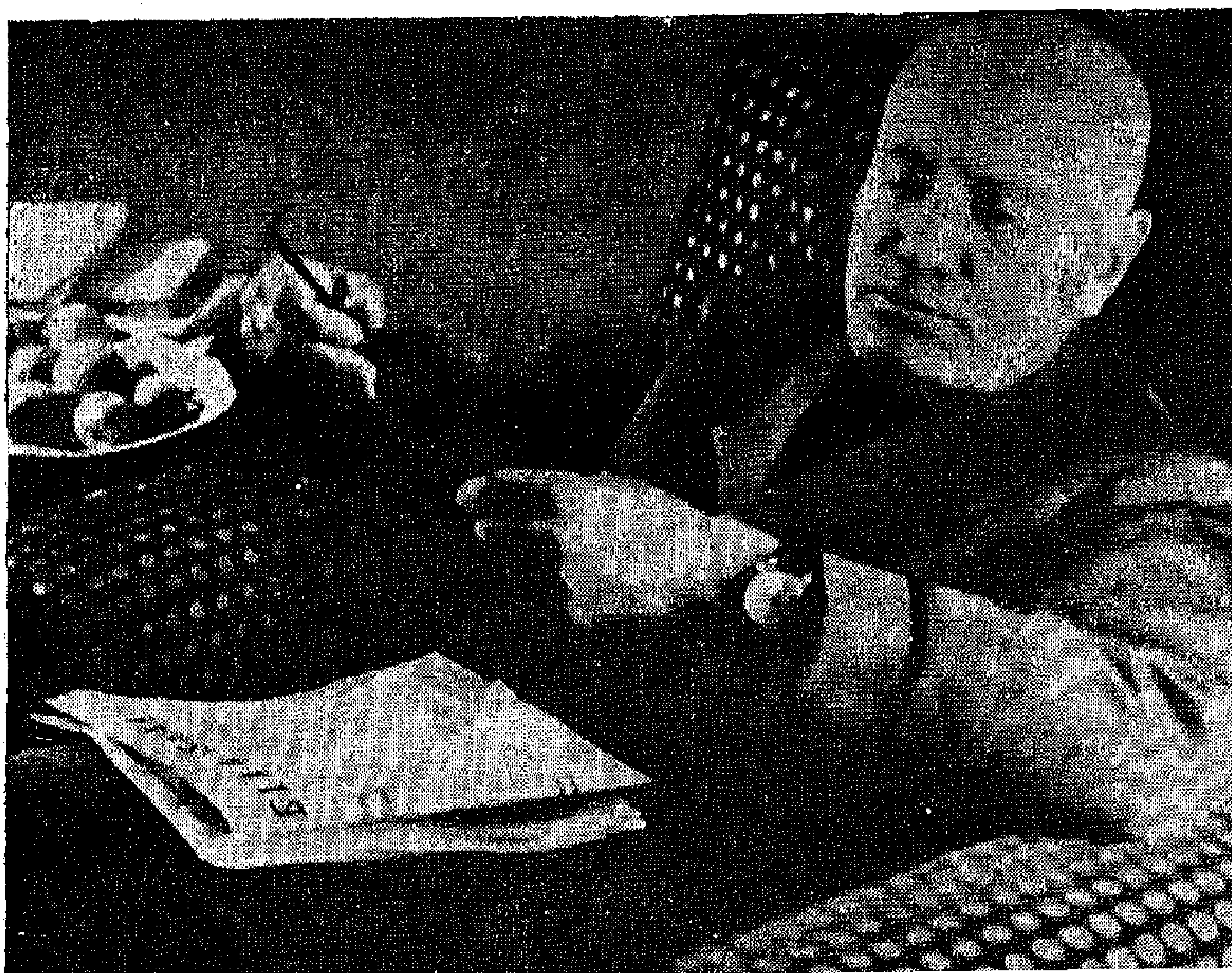


موسولينى يخرج من أسره
فى سبتمبر ١٩٤٣



هتلر يرحب بموسوليني بعد إنقاذه فى بروسيا الشرقية فى سبتمبر ١٩٤٣

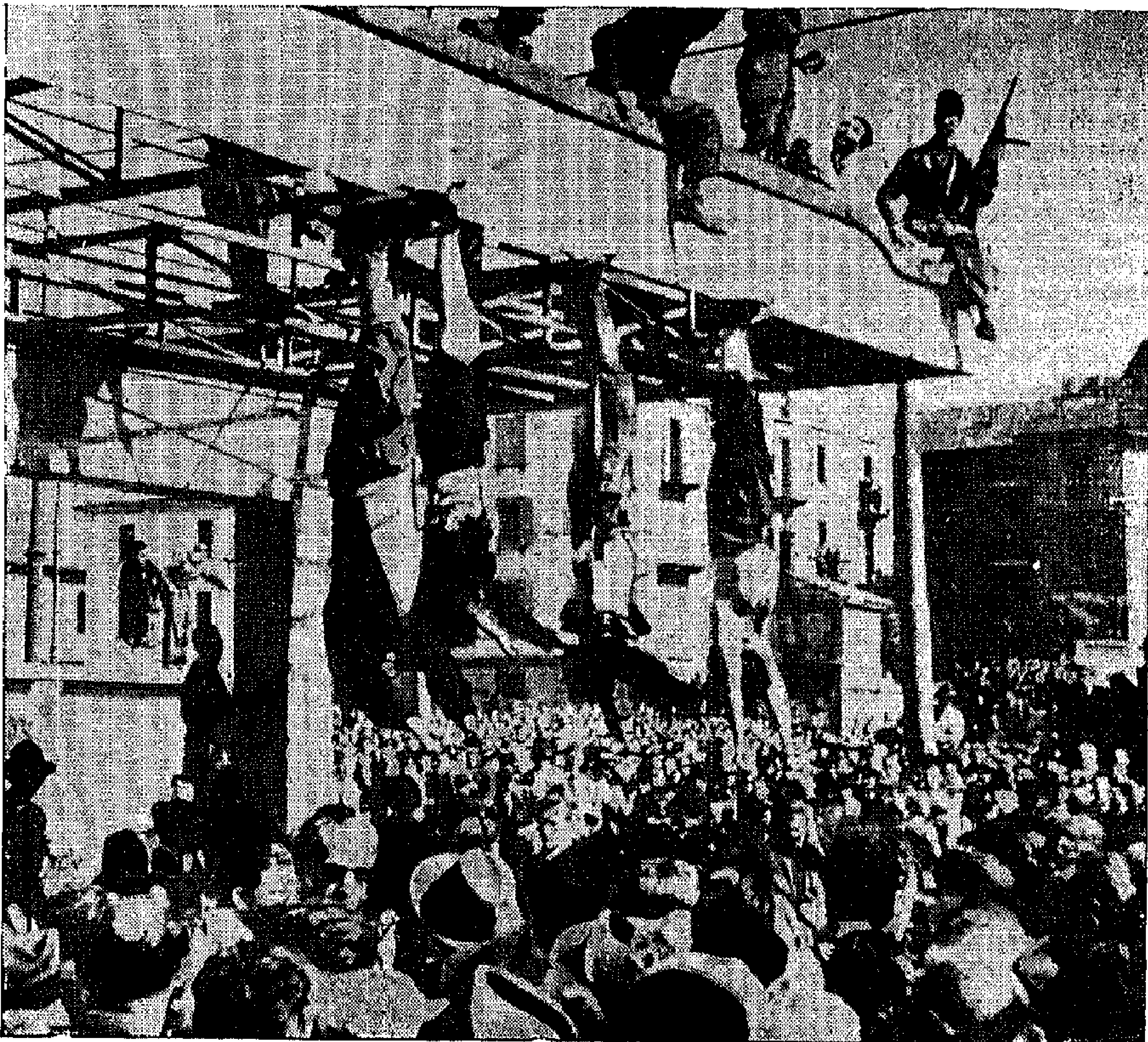
موسوليني فى داره فالتر ينيلى فى عام ١٩٤٥





دى بونو و باريشى — وجوتاردى وشيانو ومارنيبيلى ينتظرون تنفيذ حكم الإعدام فيهم

جثث موسولينى و رفاقه معلقة فى كراج لورنيو فى ميلان فى ٢٩ أبريل ١٩٤٥



وكانت العاصفة قد هدأت إلى حدما .

وخرجت السيدة دى ماريا حوالى الساعة الحادية عشرة صباحاً إلى الحقول ، كان الصباح رائعاً ، فالأرض رطبة موحلة ، ولكن الجو دافئ والسماء صافية . وكان النسيم يهب عليلا من الجنوب . وتطلعت وراءها إلى البيت ، فوجدت الدوتشى متكئاً إلى النافذة ، ينظر عبر الحقول إلى الجبال التى تكسو الثلوج هاماتها وراء بحيرة ليكو ، مشيراً بيده إلى قممها ومتحدثاً إلى عشيقته . وأنهت ليا دى ماريا عملها فى الحقول قبل أن تعود إلى المنزل .

وصعد زوجها إلى غرفة النوم يسأل الأسيرين إذا كانا يرغبان فى شىء يأكلانه ، مضيفاً بشىء من تواضع الفلاحين إنه لا يستطيع أن يقدم إليهما إلا طعاماً بسيطاً . وطلبت كلاريتا بيضة مع الحليب ، وهى تعرف أن هذا هو الغذاء المفضل عند أهل الألب ، وأن طلبها قد يسر الرجل . أما موسولينى فقال إنه يريد أى شىء يسد رمقه . وكان اليأس قد أخذ منه كل مأخذ . فعيناه حمراوان ، ووجهه أبيض كالثلج وراء ذقنه الطويلة . ولم يسأل الرجل عما إذا كان فى وسعه أن يحلق ذقنه أو يستحم .

وجاء دى ماريا بصندوق إلى الغرفة ، وغطته زوجته بغطاء أبيض . وأكلت كلاريتا طعامها وبدت متمتعة به ، بينما لم يكن موسولينى جائعاً . وقضى موسولينى وقتاً طويلا وهو يتناول صامتاً قطعة من الخبز وشرحة من سمك « السلامى » . وظل يضبع قطعة الخبز ، ويتناول قدح الماء الذى يحتسى منه جرعات ، ويتطلع إلى الأزاهير الحمراء المطرزة على الغطاء الأبيض . وراح يسأل حارسيه الشابين . . . أحقًّا احتل الأمريكان كومو؟ . . فردا بالإيجاب وأحنى رأسه مستسلماً .

وعادت كلاريتا تستلقى على السرير بعد أن انتهت من طعامها . ورفعت الغطاء فوقها حتى وصل إلى ذقنها ، ثم أغمضت عينيها ، ولكنها لم تنم . وجلس موسولينى على طرف السرير وقد أدار ظهره إليها يتطلع من النافذة إلى الجبال .

وكانت ساعة القرية تعلن انقضاء الساعات متوالية . . .

١٦

الكولونيل فاليريو

من ٢٧ إلى ٢٨ أبريل ١٩٤٥

« مهما كانت نفسى ومعتقداتى تشمئز من قتل إنسان لإنسان آخر فإننى أجد على أى حال ، أن العنف من القاعدة رداً على العنف من القمة ، أمر ضرورى ، بالرغم من استثارته للأسف . وعند ما تسد جميع الطرق ، على المرء أن يفتح له منفذاً ، حتى ولو كان الدم هو الثمن » .

عندما انتشر نبأ اعتقال موسولينى فى الليلة السابقة ، تنادى مختلف أعضاء لجنة التحرير الوطنى لشمال إيطاليا ، والممثلون الرئيسيون لفيلق متطوعى الحرية إلى اجتماع عقدوه فى ميلان .

وتتضارب الروايات عن هذا الاجتماع الذى عقد بعيد الساعة الحادية عشرة وتتناقض . والشىء الثابت والمؤكد على أى حال ، هو أن القرارات التى اتخذت فى لحظات مختلفة من تلك الليلة ، صدرت عن ستة رجال أو سبعة باسم لجنة التحرير الوطنى ، ولم تصدر عن اللجنة بكاملها . وكان اثنان من هؤلاء الرجال هما لويجى لونجو الشيوعى الصادق الذى بذل غاية الجهد ، ليجعل من حركة المقاومة السرية ، حركة سياسية ، وولتر اوديسيو وهو رجل طويل القامة ، شاحب الوجه ، فى السادسة والثلاثين من عمره ، كان يعمل محاسباً ثم تطوع فى الحرب الأسبانية ضد الفاشيين ولقب نفسه « جيوفان باتيستا دى سيزارى مانولى » ، أو بالاسم الأسهل على اللفظ وهو « الكولونيل فاليريو »

وكان قد تقرر بحضور عدد من الأعضاء الأقل التزاماً من الناحية السياسية والأصفى ضميراً ، العهدة إلى وولتر أوديسيو بأن ينقل موسولينى إلى ميلان . ولكن دقائق هذه المهمة سرعان ما بحثت بعد ذهاب الأعضاء الآخرين . وتضمنت هذه

« الدقائق » أن يحمل موسولينى إلى ميلان ميتاً . وكان أمر الإعدام قد صدر فى الواقع عن بالميرو توجلياتى ، بموجب صلاحياته ، كما قال هو فيما بعد ، فى حديث لصحيفة « أونيتا » الشيوعية التى تصدر فى ميلان ، كزعيم للحزب الشيوعى ، ونائب لرئيس وزراء إيطاليا . واعترف توجلياتى بأن هذا الأمر قد نص على إعدام موسولينى وجميع وزرائه فور اعتقالهم ، وتمييز هوياتهم ، لكن سر هذا الأمر لم يكشف أبداً للأعضاء غير الشيوعيين فى لجنة التحرير الوطنى ، الذين اعتبروا أنفسهم ملزمين بتنفيذ نصوص الهدنة التى قضت بتسليم موسولينى إلى الحلفاء . وذكر إيفانو بونومى ، الذى خلف بادوليو فى رئاسة الوزراء ، أنه لم يسمع بهذا الأمر قط . لكن الأعضاء الشيوعيين فى اللجنة كانوا أقوى الأعضاء على أى حال ، وكان بعضهم يعطف على آراء لجنة بيدمونت التى تطرفت فى قراراتها ، فأعدت قانوناً خاصًّا بها للعقوبات لا يقضى باعتبار جميع أعضاء حكومة موسولينى فقط بل جميع الفاشيين الآخرين مجرمين بتهمة « القضاء على الحرية » ، وينص على إعدامهم دون محاكمة إذا لم يسلموا أنفسهم قبل إعلان الثورة العامة فى شمال إيطاليا .

وجرت ثلاث محاولات لتجنب مثل هذا الإعدام السريع لموسولينى ، قام الأمريكان باثنتين منها ، وقامت حكومة الجنوب بالثالثة ، فى محاولة للعثور على مكانه . لكن هذه المحاولات الثلاث منيت بالفشل ، وإن كان أعضاء لجنة ميلان الذين قرروا قتله ، قد عرفوا أن هناك محاولات أخرى فى طريق الإعداد . وطارت برقية فى الساعة الثالثة صباحاً من ميلان إلى مقر قيادة الحلفاء فى سيينا هذا نصها « تأسف لجنة التحرير الوطنى لعجزها عن تسليم موسولينى الذى حوكم وأعدم أمام محكمة شعبية فى نفس المكان الذى قتل فيه الفاشيون خمسة عشر وطنيًّا إيطاليًّا » .

ولم تمض ساعة حتى كان الجنرال كادورنا يسلم أوديسيو ، جواز مرور حصل عليه بمساعدة الدكتور جواستونى الذى يعمل وسيطاً بين المقاومة السرية والجيش الأمريكى ، من النقيب (الكبتن) إميليو داداريو من الجيش الأمريكى والذى يعمل ضابط ارتباط مع اللجنة . وكان قد اشترك فى إحدى المحاولتين الفاشلتين للعثور على موسولينى . وكان نص الجواز الذى كتب بالإنجليزية على النحو التالى :

« إن الكولونيل فاليريو المسمى بمانولى جيوفان باتيستا دى سيزارى ، ضابط إيطالى ، ملحق بالقيادة العامة لمتطوعى الحرية . وقد أوفدته لجنة التحرير الوطنى لشمال إيطاليا ، فى مهمة إلى كومو ومقاطعتها ، ولذا يجب السماح له بالتجول بحرية مع حراسه المسلحين . . . التوقيع اى . كيو . داداريو – النقيب » .

وغادر أوديسيو ميلان فى سيارة صغيرة فى الساعة السابعة من صباح الثامن والعشرين من أبريل متدرعاً بهذا الجواز ، وبجواز آخر يحمل شعار النجم ذى الخمسة الرؤوس وهو شعار فيلق متطوعى الحرية . ورافقه فى سيارته الدولامبريدى ، العامل الذى يحمل أيضاً رتبة عقيد فى فيلق متطوعى الحرية ، وخلفهما سيارة شاحنة تحمل اثنى عشر رجلا من رجال المقاومة يقودهم ريكاردو موردينى الذى كان محارباً أيضاً فى اللواء الدولى فى أسبانيا . وكان الجميع مسلحين بمدافع ستين أو بريتا الرشاشة ، ويرتدون ملابس الخاكى التى لا تحمل أية شعارات مميزة ، لا ملابسهم العادية التى كانوا يمضون بها فيما سبق إلى مثل هذه المهمات . وكان أوديسيو يرتدى معطفاً طويلا واقياً من المطر ، وبنى اللون ، وقد لف عنقه بوشاح مثلث الألوان إذ يضم الأحمر والأخضر والأبيض .

ووصل إلى كومو فى الساعة الثامنة ، وراح يقفز بسرعة من سيارته ، ويصعد الدرج راكضاً إلى دار المحافظة يرافقه الدو لامبريدى . وكان جينوبير تينيللى المحافظ الجديد ، أول شخص رآه فى البناء . ولاحظ المحافظ حالته العصبية المضطربة ، وطلب منه أن يرى أوراقه . وراح أوديسيو يخرج بشىء من الثورة ، الجواز الموقع بختم فيلق متطوعى الحرية . ولكن بيرتينيللى ، وكان قد رأى العشرات من هذا الجواز فى الأيام الأخيرة ، لم يهتم به . وأخرج أوديسيو الجواز الموقع من داداريو ، فكان له تأثير أكبر على المحافظ . ولكنه قبل أن يعد بمعاونته ، أراد أن يعرف بالضبط ، حقيقة مهمته . وعندما قال له إن مهمته تنحصر فى نقل موسولينى والفاشيين الآخرين الذين اعتقلوا فى دونجو إلى ميلان ، ازداد تحفظ بيرتينيللى . وكان يعرف أن رجال المقاومة السرية المحليين فى كومو ، ما كانوا ليرغبوا فى أن يحرمهم هذان « العقيدان » المجهولان القادمان من ميلان من شرف اعتقال مثل هذا الأسير الثمين . وكانوا قد أعدوا سجن سان دونينو فى كومو لاستقبال موسولينى

كما أعدت الترتيبات اللازمة لنقله إليه .

وتقول إحدى الروايات المتناقضة والمتعددة التى صدرت عن أوديسيو فيما بعد عن أحداث ذلك اليوم ، إن قلق بيرتينيللى ورفاقه وحرصهم الواضح على عدم التفريط بشىء قد حسرا النقاب « عن مظاهر الغيرة الوضيعة التى تعكسها الروح البورجوازية » . وتحول الحديث عند الساعة العاشرة إلى مناقشات حادة . وعجز أوديسيو على أى حال عن إقناع بيرتينيللى أو أعضاء لجنة كومو للتحرير الوطنى بالتساهل ، وطلب أن يرى البارون ساردانا ، ولكن البارون كان قد اختفى ولم يستطع إنسان معرفة مكان وجوده . وطلب أن يتحدث هاتفيًّا إلى ميلان ، وراح يحرك مسدسه بغضب ، وهو يطلب إليهم مغادرة الغرفة ليجرى مكالمته . وانطلق زميله العقيد الدولامبريدى ، وريكاردو موردينى قائد الحرس المرافق له ، أثناء حديثه مع ميلان باتجاه دونجو ، دون أن يتركا له أية رسالة .

وتم الوصول أخيراً إلى حل وسط . واتفق على أن يتسلم أوديسيو الفاشيين مقابل وصل يوقعه ، كما اتفق على أن يأخذ معه ما يشاء من وسائط النقل التى يحتاج إليها إلى دونجو ، شريطة أن يرافقه إليها ممثلان عن لجنة كومو للتحرير الوطنى . وهكذا تأهب أوديسيو أخيراً وفى الساعة الثانية عشرة والربع لمغادرة كومو . وانضم إلى الركب فى اللحظة الأخيرة على أى حال ، المقدم جيوفانى ديس من ضباط المخابرات الإيطالية ، وكان الأمريكان قد طلبوا منه أن يعثر لهم على موسولينى ، ومعه عميل آخر للأمريكان يسمى « كارليتو » . وكان صبر أوديسيو قد نفد فى هذه اللحظة وقرر أن لا يسمح لأية عقبة جديدة بأن تقف فى طريقه وعندما توقفت السيارة التى كانت تقل « العميلين » الأمريكيين فى ضواحى البلدة لتتزود بالوقود ، راح يمر بجانبهما مسرعاً ويأمرهما والمدفع الرشاش فى يده ، بالهبوط من السيارة ، فانصاعا لأمره الصارم متذمرين .

وعندما تخلص على هذا النحو من رفيقيه اللذين لا يرغب فى رفقتهما راح أوديسيو يتبعه ممثلا لجنة كومو ، يسير بسرعة فى طريق دونجو ، وحصل فى الطريق على عربة كبيرة مغطاة ، وراح يدخل بها فى الساعة الثانية والدقيقة العاشرة ومعه حراسه ، ميدان دونجو .

وظنهم رجال المقاومة فى دونجو من الفاشيين الفارين ، أو رجالا يقومون بمحاولة لإنقاذ من لديهم من المسجونين ، فأطلقوا عليهم النار .

وصرخ أوديسيو بأعلى صوته وسط الميدان ، ملوحاً بيديه فوق رأسه . . . أنا قادم من القيادة العامة . من القائد هنا ؟ أرجو أن تجمعونى به فوراً .

وجاءته رسالة بعد لأى اعتبرها فى منتهى الحماقة . فقد ذكرت أن قائد المقاومة موجود فى دار البلدية ، وأنه إذا أراد العقيد أن يراه ، فنى وسعه أن يمضى لرؤيته هناك . وفقد أوديسيو زمام السيطرة على أعصابه . وراح يصرخ غاضباً ، بأنه أصدر أمراً ، وأنه يريد منهم أن ينفذوه . وراح يقطع الميدان إلى دار البلدية ، يحيط به حراسه ، ونزل الكونت بيلليني السلم للقائه ، قائلا إن فى وسع العقيد أن يدخل ، أما الحراس فيجب أن يظلوا فى الخارج .

ووجد أوديسيو زميله ألدو لامبريدى فى مكتب الكونت بيلليني فى دار البلدية . فأمره بمغادرة المكان لأنه يريد التحدث إلى الكونت على انفراد . وكان الحديث بين الرجلين فاتراً ومفتقراً إلى الود ، وإن كان أوديسيو قد تمكن أخيراً من إقناع بيلليني بأن ممثلى لجنة التحرير الوطنى فى كومو هما من المشتبهين بالفاشية . وبالرغم من أنه وافق على اعتقالهما ، إلا أن بيلليني لم يوح لأوديسيو بأنه سيكون أكثر تعاوناً من بيرتينيللى ، محافظ كومو . وكان عازماً على أن لا يدفع دفعاً إلى القيام بعمل قد يأسف له فى المستقبل ، وروى أوديسيو فيما بعد ، أنه اضطر إلى الحديث بمنتهى الصراحة فى النهاية إلى قائد المقاومة الشاب . وروى أحد رجال المقاومة ويدعى سورى جنيسى ، وكانت شقيقته خليلة لبيلليني ، أنه رأى العقيد الميلانى ، يقدم إلى الكونت مظروفاً أصفر اللون ، فيه ورقة واحدة موقعة من عضو واحد من أعضاء لجنة التحرير الوطنى لشمال إيطاليا ، وقد كتبت فيها العبارة التالية . . . « يخول العقيد فاليريو ، بأن ينقل إلى ميلان ، مجرم الحرب ، بنيتو موسولينى » . وعندما سمح لرفاق بيلليني من رجال المقاومة ، بالعودة إلى الغرفة التى كان النقاش دائراً فيها ، تخلى أوديسيو عن كل ادعاء وتظاهر ، وأعلن لهم عزمه الحقيقى قائلا . . . « جئت لأقتل موسولينى ، والقادة الفاشيين » .

وروى بيلليني فيما بعد ، أنه أصيب ورفاقه بما يشبه الذهول . واحتج الكونت

أخيراً بأن خطه أوديسيو « شاذة للغاية » . وأضاف أنه اتفق فى ذلك الصباح مع لجنة التحرير الوطنى فى كومو على نقل موسولينى وجميع الفاشيين إلى هناك . ثم راح يتساءل . . . فما الذى تعنيه هذه الخطة الجديدة بقتلهم جميعاً فى دونجو . وهو بوصفه القائد المحلى للمقاومة السرية ، لا يستطيع السماح بذلك أبداً . واستمر النقاش حتى الساعة الثالثة بعد الظهر عندما فكر الكونت بعذر قد يتيح له بعض الوقت . إذ لما كان بعض السجناء الفاشيين فى جيرماسينو ، فهو يقترح أن يذهب إلى هناك لإحضارهم . وكان واثقاً من أنه هو وحده ورفيقيه ميشيل موريتى ولويجى كانالى يعرفون فقط مكان موسولينى ، وكان يعتقد أن أوديسيو لن يستطيع اكتشاف مخبئه أثناء المدة التى سيقضيها بعيداً عن دونجو .

لكنه كان مخطئاً . فقد كان موريتى وكانالى فى دار البلدية عندما غادرها ، وكانا من غلاة الشيوعيين . وكان موريتى أيضاً ، يعرف العقيد الآخر القادم من ميلان ، وهو ألدو لامبريدى تمام المعرفة ، إذ سبق لهما أن ناضلا معاً فى الماضى . ولم تمض عشر دقائق على رحيل الكونت بيللينى ، حتى كان العقيدان أوديسيو ولامبريدى ، يقودان سيارتهما بسرعة خارجين من دونجو . وكان ميشيل موريتى ، يجلس فى المقعد الأمامى ، إلى جانب السائق[١] .

---

(١) لا ريب فى أن التاريخ اللاحق لهؤلاء الرجال ، يلقى أضواء كثيرة . فوولتر اوديسيو المسمى « بالكولونيل فاليريو » . من الأعضاء البارزين فى الحزب الشيوعى ، وهو عضو فى مجلس النواب الإيطالى . أما ألدو لامبريدى المسمى « جيدو » ، فما زال حياً ، ولكنه رفض أن يتحدث عن أحداث ذلك اليوم التى أسفرت عن مقتل موسولينى . أما ميشيل موريتى ويسمى « بيترو جاتى » ، فقد تضاربت الأقوال عن مصيره وذكر بعض الكتاب أنه مات كما ذكر البعض الآخر أنه يعيش فى الخارج حياة مرفهة ، على حصة من غنيمة دونجو ، ولكنه لا يزال يعيش فى الواقع حياة البساطة والفاقة فى ضواحى سيرنو بيو . وما زال الرجل عضواً فى الحزب الشيوعى ، ولكنه يرفض الحديث عن الموضوع . وهناك جيوسيبى فرانجى المسمى « لينو » ، وقد تحدث إلى عدد من الناس ، بعد موت موسولينى ثم مات هو ميتة غامضة فى الخامس من مايو عام ١٩٥٤ . ومات مثل هذه الميتة الغامضة كثيرون من الذين اشتركوا فى أحداث ذلك اليوم . « المؤلف »

١٧

الوفاة فى دارة بيدمونتى

٢٨ أبريل ١٩٤٥

« ليس ثمة من يستطيع تحدى القدر مرتين ، و يموت كل إنسان الميتة التى تتفق مع شخصيته » .

١

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة بقليل ، عندما قطع حبل الصمت المخيم على غرفة النوم فى مزرعة دى ماريا ، صوت خطوات عجلى تذرع ساحة الدار فى الخارج. واقتحم المنزل رجل طويل القامة ، يرتدى معطفاً بنيًّا واقياً من المطر ، ليصعد الدرج مسرعاً . وسرعان ما دفع باب غرفة النوم ، واندفع الرجل إلى الداخل .

وفوجئ موسولينى بالرجل يقول له . . . « هيا ، جئت لإنقاذك » .

ورد موسولينى بسخرية واضحة ، مغتصباً لأول مرة فى ذلك اليوم ابتسامة هازئة ، وهو يتطلع إلى الرجل الطويل النحيل ، الذى يحمل المدفع الرشاش فى يده . . . « حقًّا ! يا لك من رجل كريم ! »

وسأله أوديسيو : هل أنت مسلح ! ؟

— لا .

وابتعد أوديسيو بنظره عنه ، وتطلع إلى كلاريتا التى كانت لا تزال مستلقية على السرير ، وقد أزاحت بوجهها إلى الحائط ... . وقال لها الرجل . . . « وهنا أنت أيضاً . أسرعى . أسرعى . . . »

وخرجت من السرير ، وشرعت تبحث عن شىء بين الملابس .

وسألها أوديسيو غاضباً : « عم تبحثين ؟ »

— ابحث عن لباسى .

— لا تضيعى الوقت بالبحث عنه . هيا .

وتركت الفراش . وبينما كان موسوليني يرتدى سترته العسكرية ، التقطت بيدها حقيبتها ، وحقيبة أخرى على شكل دلو . وسأل موسوليني منقذه المزعوم عن ولده فيتوريو ، فأجابه بأنه قد أنقذ أيضاً . وسأل عن زيربينو وميزاسوما ومكانهما ، فقال أوديسيو . . . إننا نبحث عنهما أيضاً .

وروى أوديسيو ، أن موسوليني صدرت عنه تنهيدة تحمل طابع الارتياح .

ومضى الرجل يقول . . . هيا ، هيا ، وراح يدفعهما على السلم ، فى لهفته للخلاص من المنزل .

ورأتهم ليا دى ماريا من النافذة ، وهم يبتعدون إلى الطريق ، فرسمت إشارة الصليب على صدرها ، إذ أنها أحبت تلك المرأة ، كما أحبها الصيادان الحارسان أيضاً ، وأعجبت بشجاعتها . وعادت السيدة إلى الغرفة وراحت تعد السرير ، فوجدت آثار الدموع على وسائده وعلى ملاءاته النظيفة التى كانت قد وضعتها فى الليلة الفائتة .

ولم تكن كلاريتا تبكى الآن ، ولكن عينيها كانتا حمراوين ، وتورم جفناها ، وأمسكت بذراع موسوليني بقوة ، وهى تتعثر فى خطاها ، فى الطريق الضيق . من جراء كعب حذائها العالى ، حاملة حقيبتيها ، مع معطفين ، أحدهما من الفراء ، والآخر من وبر الجمال على ذراعها . لكنه لم يكن قادراً الآن على إسنادها . وتعثر فى مشيته أيضاً فى الدرب الضيق ، ومد ذراعه إلى الجدار يستند إليه ، وحاولت هى أن تساعده ، فدفعها عنه غاضباً ، كما يفعل المشلول ، إذا أراد أحد مساعدته . ولم ينبس أحدهما ببنت شفه .

ومشى بهم دليلهم إلى القرية ، وعندما كانوا يمرون فى ساحتها ، كانت هناك ثلاث من النسوة يغسلن ملابسهن ويضربنها بعنف على صخرة الغسيل . فتطلعن إلى الجماعة الصغيرة . وكان فلاح عجوز ، يهبط سفح الجبل وقد حمل سلة على ظهره ، بينما كانت هناك امرأة تدلف على الطريق ، ومعها طفل صغير . كان هادئاً ، وكان المطر قد انقطع .

واستداروا نحو الشمال من الساحة ، ثم ساروا تحت قوس إلى الشارع المعبد ، حيث كانت السيارة فى الانتظار . وكانت السيدة روزيتا بارباريتا ، تقود كلبها

فى مسيرة ، وعندما وصلت إلى السيارة ، مضت نحوها لتتحدث إلى سائقها المسمى جيمينازا . وكان الرجل حاد الطبع ، وغير راغب فى الحديث إذ صدرت إليه الأوامر بأن يكون حذراً كل الحذر . وكانوا قد قالوا له . . . « سترى عما قريب أناساً لا بد أن تعرفهم وتتميزهم . ولكن عليك أن تنساهم فوراً . أما إذا لم تنسهم ، فإنك لا تكون بذلك قد فقدت ذاكرتك فقط بل حياتك أيضاً » .

وعندما فارقته السيدة باربار يتا ، صادفت فى طريقها جماعة من الناس، متجهين إليها . وقال الرجل ذو المعطف البنى : « أبعدى . أبعدى» . وهكذا تراجعت بسرعة من طريقهم . وخيل إليها أنهم يتناقشون مناقشة حادة، وإن لم تستطع فهم ما يقولونه . ورأت امرأة تضم بذراعيها عنق رجل عجوز يدفعونه دفعاً وبخشونة إلى السيارة .

واتجهت السيارة فى طريق القرية لتستدير فى اتجاهها فى ساحتها العامة ، وعندما عادت السيارة ومرت بها ، تبينت السيدة باربار يتا فى الرجل العجوز وجه موسولينى . وكان هو وكلاريتا وحيدين مع السائق فى داخل السيارة ، أما رجل المعطف فقد جلس فوق دولاب السيارة بينما جلس الرجلان الآخران على مقدمها . وعندما تحركت السيارة ببطء صاعدة الجبل ، راح الحارسان الصيادان ، كانتونى وفرانجى يركضان خلفها .

وكان فى وسع السائق جيمينازا أن يرى الأسيرين فى مرآة سيارته . وكان فى وسعه أيضاً أن يرى الحارسين الراكضين خلف سيارته . . . وقال بعد سنوات . . . « كانت كلاريتا تلتصق بموسولينى ، ويكاد رأساهما يتلاصقان . وكان موسولينى شاحب الوجه بينما كانت كلاريتا هادئة كل الهدوء . وبدا لى أنه لم تظهر عليها أية علائم الخوف . . . ووقفنا عند مدخل دارة بيلمونتى » .

٢

كانت دارة كبيرة ، تقف وراء سور عال يفصلها عن الطريق . وكانت هناك عائلتان من الذين جلوا عن أماكنهم الأصلية ، تعيشان فيها ، ففيها بيرناردو

بيلليني المهندس وزوجته ، وريناالدو أوبيزى وزوجته أمنيتا وطفلتاهما ليليا وبيانكا . وعندما وقفت سيارة أوديسيو خارج بوابة الدارة الحديدية ، كانت السيدة بيلليني تجلس على شرفة الدارة متطلعة إلى البحيرة أمامها . وكان زوجها داخل البيت يستمع إلى الإذاعة مع رينالدو أوبيزى . وفى الحديقة كانت ليليا تقرأ فى كتاب تحمله بينما كانت خادمة بيلليني ، جوسيبينا كوردازو ، تعمل فى تعشيب أحد أحواض الزهور . وسرعان ما سمعتا صوتاً يصرخ . . . ادخلا . . . ادخلا إلى البيت .

ورأت تيريزا بيلليني ، رجلا ضخم الجسم يخرج من السيارة وهو يضع على رأسه كما تصورت طاقية سوداء ، ويحمل طرف سترته فى يده . وتقول إنه بدا لها فى صورة « أحد أبناء الجبال ، يمسك طرف خرجه » .

وأمر أوديسيو كلاريتا بأن تخرج من السيارة وراء موسوليني . ورآه السائق وهو يصوب مدفعه الرشاش إليهما ويتمتم ببضع كلمات . واعتقد السائق أنه كان يردد أمراً صدر إليه بإعدامهما ، لكنه لم يتأكد من ذلك ، لأن كل شيء حدث فى سرعة عجيبة . ووقف موسوليني جامداً لا يتحرك ، بينما فقدت كلاريتا زمام السيطرة على أعصابها ولفت موسوليني بذراعيها ، وهى تقفز هنا وهناك صارخة .. « لا . لا تفعل ذلك . عليك أن لا تفعله » .

وقال العقيد بصوت وصفه السائق بأنه كان « جافًا وشديد العصبية » . . . دعيه وشأنه ، وإلا قتلت معه ، ولكن كلاريتا لم تأبه بما قاله ، وظلت تقفز بجنون وهى تتعلق بموسوليني . وأطلق أوديسيو الزناد ، وهجمت كلاريتا عليه تمسك بفوهة المدفع الرشاش بيديها وهى تصرخ . . « ليس فى وسعك أن تقتلناعلى هذا النحو» .

وأطلق أوديسيو النار مرة ثانية . ورأى السائق العرق يتصبب من جبينه . وأطلق الزناد للمرة الثالثة ، ولكنه لم ينطلق ، فانتضى مسدسه من جيبه ، فلم ينطلق أيضاً فهتف بموريتى صارخاً . . . « أعطنى مدفعك » . وأعطاه موريتى مدفعه الرشاش الفرنسى الصنع ، وصوبه أوديسيو على موسوليني الذى واجهه بكل هدوء ممسكاً بطرف سترته وقال . . . « أطلق النار على صدرى » . وسمع السائق هذه العبارة بوضوح ، فقد كانت آخر عبارة صدرت عن موسوليني .

٣

قتلت الطلقة الأولى التى صدرت عن مدفع موريتى كلاريتا ، التى هوت إلى الأرض ، لا تحير حراكاً . وأصابت الثانية موسولينى الذى تراجع إلى سور الدارة الحجرى ، حيث هوى ببطء إلى الأرض بعد أن عجزت ساقاه عن حمله . ولم تقتله الإصابة ، فقد ظل يتنفس تنفساً ثقيلا . وتقدم أوديسيو منه فأطلق النار من جديد على صدره ، واختلجت الروح فى جسد موسولينى بعنف ثم هدأت . وتطلع إليه أوديسيو صامتاً لحظة ثم قال للسائق . . . « انظر إلى تعابير وجهه ، ألا ترى أنها تناسبه » .

وتقدم موريتى منهما وأشار إلى جيمينازا وكأنه يقول . . . « لا يمكن دفع حوادث القضاء والقدر » . وقدم أوديسيو إليهما سيجارتين ، فتناول السائق إحداهما ، وإن لم يكن قد ألف التدخين من قبل . كان يحس برعب شديد وتصور أن التدخين سيهدئ من ثائرته . وساعد الرجلين فى التقاط الخراطيش الفارغة من الطريق ، ثم استقل السيارة ، ليقود العقيدين وميشيل موريتى فى الطريق إلى دونجو. وظل الصيادان يحرسان الجثتين . وكانت الساعة الرابعة والدقيقة العشرين .

وقد وقع كل هذا فى أقل من دقيقة . ولم تكد السيارة تمضى فى طريقها ، حتى دوى هزيم الرعد ، ثم انهمر المطر بشدة .

وسمع سكان الدارة أصوات الطلقات النارية ، وعددها عشر طلقات ، لكن السور المرتفع حال بينهم وبين رؤية ما وقع . وتظاهرت الخادمة جيوسيبينا ، برغبتها فى التقاط بعض الأزاهير ، وراحت تختلس النظر ، عبر الباب ، ولكن صوتاً ، صرخ بها قائلا . . . « أبعدى . أبعدى » ، فابتعدت دون أن ترى شيئاً .

وعاد جيمينازا بسيارته إلى المكان من دونجو ، حيث كان أوديسيو قد أشرف

على إعدام خمسة عشر رجلا من الذين اعتقلوا فى موسو[1] . وحمل جثتى موسولينى وكلاريتا فى المقعد الخلفى ثم مضى بسيارته تحت المطر المنهمر إلى الطريق الرئيسى الممتد إلى أوزانو . وكانت السيارة الكبيرة تنتظر هناك لنقل الجثتين إلى ميلان ، وسرعان ما قذف بهما فوق الجثث الأخرى .

---

(١) كان الخمسة عشر الذين تم إعدامهم ... مارسيلو بيتاتشى ، وفيرناندو ميزاسوما ، ونيقولا بومباكى ، واليساندرو بافولينى ، وباولو زيربينو (وزير الداخلية) ، وروجيرو رومانو (وزير الأشغال العامة) واوجستو ليفيرانى (وزير المواصلات) وباولو بورتا (مفتش الحزب الفاشى فى لومبارديا) ، ولويجى جاق (سكرتير موسولينى) وألفريدو كوبولو (رئيس معهد الثقافة الفاشية) ، وايرنستو داكوانو (مدير وكالة ستيفانى للأنباء) وماريو لودى (رئيس اتحاد المزارعين الفاشيين) ، والعقيد فيتو كاساليونوفو وبيترو سالوسترى (ضابط برتبة نقيب فى السلاح الجوى) وهينترماير (من رجال الإعلام) .

« المؤلف »

١٨

ميدان لوريتو

٢٩ أبريل ١٩٤٥

« أريد أن تكتبوا على قبرى . . . هنا يرقد واحد من أكثر الحيوانات التى ظهرت على وجه البسيطة ذكاء » .

وقفت سيارة نقل الموتى فى الساعات المبكرة من صباح التاسع والعشرين من أبريل عام ١٩٤٥ ، بعد أن اجتازت عدة حواجز طرق أمريكية ، أمام مرأب (كاراج) ، لم يكتمل بناؤه ، فى ميدان لوريتو البحرى ، حيث كان الألمان قد أعدموا خمسة عشر من الرهائن قبل نحو من تسعة شهور . وكان اليوم من أيام الآحاد . وأخرجت الجثث من السيارة ، وألقيت على الأرض فى شكل مضطرب حتى الفجر ، عندما قام أحد المارة ، بترتيبها فى شكل منظم . وقد وضع هذا الرجل جثة موسولينى على بعد من الجثث الأخرى وألقى برأسه على صدر كلاريتا . وجاء شابان ، فراحا يركلان موسولينى بأقدامهما بمنتهى القسوة . وعندما خلفاه فى مكانه ، كان وجهه قد تبدل وتهشم . وكان فمه مفتوحاً وانفرجت شفته العليا عن أسنانه وكأنه يريد أن يخطب . ووضع أحد المارة عصى فى يده ، لف أصابعه حولها .

وعندما حلت الساعة التاسعة ، كان حشد غفير من الناس ، قد تحلق حول الجثث ، وكان أفراده يصرخون ويقفزون ، لأن كلا منهم يريد أن يرى المنظر أمامه . وكان بعضهم يشتم ويلعن ، والبعض الآخر يطلق النار من المسدسات والبنادق على الجثث ، بينما كان البعض الثالث يتطلع واجماً ، وقد ظهر على نفر منهم الرضى ، وعلى البعض الآخر الاشمئزاز المصحوب بالإشفاق . ووقف بعض الناس يضحكون ضحكاً هستيرياً . وأطلقت سيدة خمس طلقات من مسدسها على جثة موسولينى « لتثأر لأولادها الخمسة القتلى » . وارتفع عدد النظارة ، وتكاثر الازدحام والتدافع ، حتى إن الواقفين فى المقدمة ، دفعوا دفعاً فوق الجثث ، مما اضطر حراس الجثث من رجال المقاومة السرية إلى إطلاق النار فوق الرؤوس

إرهاباً ، لإبعاد الناس عنها ، وإلى تصويب خراطيم المياه إليهم ، لتفريقهم .

وهتف رجل ضخم الجثة من رجال المقاومة ، وقد انتشر الدم على ذراعيه العاريتين صارخاً بالناس . . . « من الذى تريدون رؤيته » .

ورد رجل من النظارة . . . بافولينى . . . وقال آخر « بومباكى » ، وارتفعت أصوات عدة . . . « موسولينى . بيتاتشى . . . بوفارينى جيدى » . وكان الرجل يرفع كل واحد منهم بدوره ، وقد وضع يديه تحت ذراعى الجثة رافعاً إياها فوق الرؤوس .

وصرخت الجماهير . . . ارفعها أيضاً . . . ارفعها . . . فنحن لا نرى . . .

وانطلق صوت يقول بلهجة آمرة . . . علقوا الجثث .

وسرعان ما جىء بالحبال ، وشدت حول معاصم الجثث . وارتفعت جثة موسولينى أولا من رجليها ، وشدت إلى سقف المرأب ، وقد تدلى رأسه إلى الأرض . كان وجهه ملطخاً بالدم ، وفمه لا يزال مفتوحاً . وهتفت الجماهير هتافات مجنونة ، وبصق الواقفون فى الطليعة على الجثة ، كما أخذ بعضهم يقذفها بكل ما يصل إلى متناول يده من قاذورات . وقد أرغم أخيل ستراشى على الوقوف فى سيارة شاحنة يشهد هذا المنظر ، ثم جر جرًّا إلى جدار حيث أطلقت النار عليه ، ورفعت جثته لتلقى فوق كومة الجثث فى انتظار دورها لترفع وتعرض على النظارة .

ورفعت جثة كلاريتا بيتاتشى ، بعد جثة موسولينى . وزعقت بعض النسوة ، وسرعان ما خيم صمت غريب على الميدان ، استمر بضع ثوان ، بعد تعليق الجثث . أجل فقد توقف الصراخ والهتاف ، وهدأت الوجوه المتطلعة ، وساد المكان ، كما روى أحد المشاهدين، وجوم غريب ، فيه جمود ، وفيه توقع ، وكأن الجميع يعيشون فى حلم لابد من إفاقتهم منه ليروا العالم وقد تبدل . وبدا وكأننا كلنا ، قد اشتركنا لبضع ثوان فى إدراك حقيقة واحدة ، وهى أن الدوتشى مات أخيراً ، وأنه ذبح دون محاكمة . ومرت بنا لحظات ، خيل إلينا فيها أن علينا أن نوفر لجثمانه ، مظاهر التكريم التى تليق بالأبطال ، والصلوات التى يستحقها القديسون بدلا من الإهانات والشتائم .

لكن هذه الحالة النفسية سرعان ما تبدلت . فقد هوى ثوب كلاريتا بعد

تعليقها من رجليها ، وتكشف فخذاها العاريان ، وتقدمت إحدى النساء وقد وقفت على صندوق من الخشب تمزق بيديها لباسها ، فارتفع صراخ الجماهير وزئيرها . وتقدم رجل من الجثة ودس فيها ببشاعة ، عصى يحملها فى يده ، فراحت تتحرك وتدور وتلتوى ، وكأنها تضم عشيقاً . ولكن وجه كلاريتا لم يكن جامداً ، فقد أخذ الرجال بجمالها الذى لم تحجبه الدماء . وكانت عيناها قد أغمضتا ، وبدت هادئة . . . وناعمة . . . وكأن البسمة على وجهها .

أما ملامح موسولينى المعذبة فلم تتكشف عن مثل هذا الرضى . وخيل إلى بعض الناس أنهم رأوا حول شفتيه المتورمتين ، وفى عينيه الجامدتين نظرة يأس وقنوط . لكن الآخرين لم يروا فيه إلا صورة مرعبة لوجه لطخته الوحول والدماء .

المصادر

مصادر عامة :

تعتبر الدراسة التى أعدها جيورجيو بينى ودويليو سوسمبيل ، تحت عنوان « موسولينى ، الرجل والعمل » والتى تقع فى أربعة مجلدات ، أكثر الدراسات شمولا عن حياة موسولينى ، وقد عثرت فيها على معلومات قيمة عن حياته فى جرجنانو .

وهناك دراسة حديثة أخرى تقع فى مجلدين أعدها مينوكاودانا تحت عنوان « ابن الحداد » ، ولكنها لا تضيف شيئاً ذا أهمية على المؤلف السابق ، كما أنها تفتقر إلى الدقة ، وإن تضمنت تفصيلات لم أجدها فى مكان آخر .

وهناك كتاب « موسولينى — حياته الشخصية » لباولومونيللى ، ويعتبر أحسن تلخيص لحياته كتب حتى الآن . وقد روى المؤلف وهو صحفى خبير ، ما سمعه من كثيرين قابلهم عن حياة موسولينى .

أما كتاب « موسولينى » لريشارد ويشترينج ، فصورة معبرة للرجل كما يراها رجل ألمانى . وهناك كتاب « موسولينى » لجورج رد ، وهو أحدث ما كتب عن حياته ، ويعتبر دراسة تفصيلية وإن تضمن تفسيرات غامضة لبعض الحقائق .

ولا يعتبر كتاب « حياتى » الذى وضعه موسولينى نفسه مهماً إلا كوثيقة نفسية . وهناك كتاب إميل لودفيج « أحاديث مع موسولينى » وقد سجل فيه عدة مقابلات وأحاديث مهمة أجراها معه .

ومن أحسن الكتب الأولى التى وضعت عن موسولينى كتاب « حياة بنيتو موسولينى » لمرجريتا سارفاتى ، التى عرفته معرفة وثيقة ، وظلت تعجب به إعجاباً عميقاً حتى استأثرت كلاريتا بيتاتشى بكل اهتمامه .

ولعل خير ما كتب كدراسة علمية عن الفاشية الكتاب الذى وضعه لويجى سالفاتوريللى وجيوفانى ميرا بعنوان « تاريخ إيطاليا فى الحقبة الفاشية » . وهناك كتاب « إيطاليا » لمؤلفه دنيس ماك سميث .

مصادر القسم الأول :

١ — كتاب « موسولينى فى طريق التكوين » لجودينز ميجارو ، ويروى حياته فى سويسرا وترينتينو . . وقد دحض فيه بعناية ودقة كثيراً من الروايات التى أوردها مؤرخو حياته فى عهد الفاشية ، كما ضمنه بعض الكتابات التى كان موسولينى يؤثر لو لم تنشر .

٢ — كتاب « حياتى كثائرة » لإنجيليكا بالابانوف ، وقد روت فيه الكثير عن حياة موسولينى وسلوكه فى ميلان .

٣ — كتاب « حياتى مع موسولينى » لراشيل موسولينى ، وهو كتاب يفتقر إلى الدقة رغم طرافته .

٤ — كتاب « أحاديث مع راشيل موسولينى » لبرونو داجوستينى .

٥ — كتاب « موسى يقتحم السلطان » لجيدو دورسو ، وهو من أحسن ما كتب عن الفترة بين عامى ١٩١٣ و ١٩٢٢ .

٦ — كتب عدة منها « تاريخ الثورة الفاشية لشيروكو » و « حقبة موسولينى » لسيزارى روسى و « موسولينى وعهده » لإدواردو سوسميل و « أصول الفاشية » لألتارى ، و « يوميات بالبو » .

٧ — كتاب « ماتيوتى — وموسولينى والمأساة الإيطالية » لكارلو سيلفسترى ، وكتاب « الفاشية وأعداؤها » لجيدوليتو .

٨ — كتاب « تطور إيطاليا الحديثة » لسيسيل سبريج ، وكتاب « النواحى العالمية للفاشية » لجى . اسى . بارنز ، وكتاب « قصة الفاشية » لفاريناتشى ، وكتاب « مدرسة الديكتاتورين » لايجنازيو سيلونى .

مصادر القسم الثانى :

١ — يوميات تشيانو .

٢ — وثائق إيطاليا الدبلوماتية .

٣ — « إيطاليا فى برلين » لماجيستراتى .
٤ — « سفارة إيطاليا فى برلين » لسيمونى .
٥ — « بين قصر البندقية وبحيرة جاردا » لانفوسو .
٦ — « الديكتاتوران وجهاً لوجه » لالفيرى .
٧ — « بين هتلر وموسولينى » لستار هيمبرج .
٨ — « من فرساى إلى نورمبرج » لبول شميدت .
٩ — « دبلوماتية موسولينى » لجيتانو سالفيمينى
١٠— « موسولينى وأوربا » لماريو دونوستى . :
١١— « سياسة إيطاليا الخارجية فى عهد موسولينى » للويجى فيلارى .
١٢ — « محور برلين رومة » — لإليزابيث وتسلمان .
١٣ — « هتلر » لألان بولوك .
١٤ — « تاريخ ألمانيا الهتلرية » لويليام شيرار .
١٥ — « جذور الحرب العالمية الثانية » لتيلور .
١٦ — « ذكريات سفارتى فى برلين » لأندريه فرانسوا بونسيه .
١٧ — كتب ونستون تشرشل واللورد فانسيتارت وداف كوبر عن الحرب الثانية .
١٨ — « تشمبرلين ، حياته » لكيث فيلنيبج .
١٩ — « ماذا نعمل بإيطاليا » لجيتانو سالفيمينى وجورج لابيانا .
٢٠ — « محاكمة موسولينى » — لمايكل فوت .
٢١ — « إيطاليا والحرب العالمية الثانية » لبادوليو .
٢٢ — « رجل واحد » لماكارتنى .

مصادر القسم الثالث :

١ — « يوميات عن الحرب » لكيرينوار ميللينى .
٢ — « جرازيانى قال لى » لإميليو كانيفارى .
٣ — « مذكرات سرية » لكاربونى .
٤ — « القيادة العليا » لأوجو كافاليرو .

٥ — مذكرات كيسلرنج .
٦ — « حليفنا موسولينى » لفون رينيتيلين .
٧ — « عدة ملايين من الحراب » لماريو رواتا .
٨ — « كسل الأسطول » لأنطونيو تريزينو .
٩ — « دفاعاً عن الوطن » — لجرازيانى .
١٠ — « ذكريات رفاق موسولينى » لكونيتو نافار.
١١ — يوميات كلاريتا بيتاتشى .
١٢ — قصة عامين لاتيليوتامارد .
١٣ — « تهمة الخامس والعشرين من يوليو » لكاسينيللى .
١٤ — « ذكريات سرية » لكاربونى .
١٥ — « الملكية والفاشية » لفيانا .
١٦ — « الشرفة الخالية » لبييرو سابوريتى
١٧ — « قصة سنة » لموسولينى .
١٨ — « رومة » لمانيللى .
١٩ — « موسولينى » — الشفق والمغيب لرومان دومبرويسكى
٢٠ — « قصة الجمهورية الإيطالية » لايدمويدو سيوتى
٢١ — جمهورية موسولينى لفيليس بيلوتى .
٢٢ — « ٦٠٠ يوم من حكم موسولينى » لايرمانو اميكوكى .
٢٣ — « مع موسولينى ، فى مأساته » لجيوفانى دولفين
٢٤ — « اعترافات موسولينى » لجورج زاخاريا .
٢٥ — « رومة النازية » ليوجين دولمان .
٢٦ — « سفير لهتلر فى فيشى وسالو » لرودلف ران .
٢٧ — « الحقيقة عن محاكمة فيرونا » لدومينكو ما ير .
٢٨ — « موسولينى فى محاكمة فيرونا » لرونزومونتانو .
٢٩ — « قصة المقاومة السرية » للجنرال كادورنا .

٣٠ ـ « تحرير إيطاليا » للويجي فيلاري .
٣١ ـ « أخي موسوليني » لأيدفيج موسوليني
٣٢ ـ « الحياة مع والدي» لفيتوريو موسوليني .
٣٣ ـ « الرحلة الأخيرة لبنيتو موسوليني وكلاريتا بيتاتشي » لستوريكوس .

فهرست للكتاب

صفحة

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر



دار المعارف بمصر

١١٥ قرشاً ج.ع.م	١١٥٠ فلساً فى العراق والأردن	١٦١٠ فرنكات فى المغرب
٩٢٠ ق. ل	١١٥٠ فلساً فى الكويت	١٣٫٢٦ ريالا سعودياً
١١٥٠ ق. س	١٣٨٠ مليمات فى تونس	٢٣ شلنا } فى البلاد
١١٥٠ مليماً فى ليبيا والسودان	١٦١٠ فرنكات فى الجزائر	٣٫٣١ دولارات } الأخرى